دروس (قرص 4/ ملفات 1-16)

موقع التفريغ سالم
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

مشروع مراجعة تراث معالي الشَّيخ صالح آل الشَّيخ 1446- 1447هـ [130]

كِفَايَةُ الـمُسْتَزِيدِ بشرح كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الَّذي هو حقُّ اللّٰه على العبيد

لمعالي الشَّيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ

حفظه الله تعالى

اعتنى بها

سالم بن محمَّد عبد الملك

قال معالي الشَّيْخُ صالح آل الشَّيخ حفظه اللّٰه: أُوصِي بالعنايَـةِ بهٰذا الكتابِ عنايةً عظيمةً مِن جهةِ حِفظِه، ومِن جهةِ دِراستِه، ومِن جهةِ تأمُّـلِ مَسائلِه، ومِن جهةِ مَعرِفةِ ما فيه؛ فإنَّه الحقُّ الَّذي كانَ عليه الأنبياءُ والمُرسَلونَ ومَنْ تبِعهُم مِن صالِـحِي عبادِ اللهِ.

النُّسخة الإلكترونيَّة (3)

الشَّيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلماتٌ في طَـلَبِ العِلْم

[الحمْدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومن اهتدىٰ بهداه.

أمَّـا بعـد..

فإنَّ الاهتمام بالعِلْمِ، والرَّغَبَ فيه، والحرصَ عليه، والإقبالَ عليه؛ دليلُ صحَّةِ القلوبِ؛ لأنَّ القلْبَ إذا صحَا لنفسه وعرَفَ ما ينفعُه فإنَّهُ سيحرِص علىٰ العلم؛ ذلك لأنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ مدَح أهل العلم، ورفعَهُم علىٰ غيرهم درجاتٍ، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ [المجادلة:11]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، فعدمُ استواءِ مَنْ يعلَمُ مَع مَنْ لا يعلم، هٰذا إنَّما يذكُرُه ويعِيهِ أهلُ الألباب؛ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وأمَّا الجاهِلُ فهو لا يعرِفُ أنَّهُ جاهِلٌ، ويقنَعُ بالجهالَةِ، ثُمَّ هُو لا يعلَمُ معْنىٰ العِلْمِ وأهمِّيةَ العلم، وأنَّ العلم هو الشَّرفُ الأعظمُ فِي هٰذه الحياة؛ ولهٰذا قال العلماءُ: مِنْ دلائلِ أهمِّيةِ العلمِ أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ ما أمر نبيَّه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنْ يدعُوَ بالازديادِ مِنْ شيءٍ إلَّا مِنَ العلْمِ، فقال سبحانه لنبيِّهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، وما أمره بدعاء الازدياد مِن غير العلم، وكفىٰ بذلك شرفًا.

العلمُ يشتركُ كثيرون في الاهتمامِ به؛ لكن لا يستوون في أخْذِه، ولا في طريقة أخذه، وهم طبقاتٌ:

فمنهم **المُتعجِّل**: الَّذي يظنُّ أنَّ العلم يحصَّلُ في أسابيع، أو في أشهر، أو في سنين معدودةٍ، وهٰذا بعيدٌ عنِ الصَّوابِ؛ لأنَّ العلمَ لا ينتهِي حتَّىٰ يموتَ المرءُ وبقِيَ من العلم أشياءَ كثيرة لم يعلمها، فإنَّ العلم واسعُ الأطراف، واسعُ الجنَبَات، واللهُ جَلَّوَعَلَا هو ذو العلم الكامل، وأعطىٰ البشرَ بمجموعِهم بعضَ علْمِه، فهٰذا يفوتُ عليه شيءٌ من العلم، وذاك يفوت عليه شيء من العلم؛ ولكن بمجموعهم لو جُمع علْمُ من فيها لكان شيئًا قليلًا جدًّا مِن علم الله، كما تضَعُ الإبرةَ في البحر، ثم تخرجُها لم تُنقصْ مِنْ ماءِ البحْرِ شيئًا.

وإذا كان كذلك، فإنَّ رَوْمَ العلمِ لا يمكن أن يكون بإطلاقٍ؛ بل ينبغي لطالبِ العلْمِ أنْ يكونَ متـدرِّجًا

فيه؛ والتَّدرُّجُ سُنَّةٌ لابُدَّ منها، هي سنَّةُ النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهي سُنَّةُ الصَّحابةِ، وهي سُنَّةُ أهلِ العِلْمِ بعدَهُم؛ فالنَّبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ ما علَّمَ الصَّحابةَ العلْمَ جملةً واحدةً، وإنَّما علَّمهم في سِنينَ عددًا؛ في مكَّةَ علَّمهُم أصْلَ الأصول؛ الَّذي به سلامةُ القلبِ وصحَّتُه وسلامةُ العقلِ وصحَّتُه= ألَا وهو توحيدُ الله جَلَّجَلَالُهُ، والبراءَةُ مِنْ كُلِّ ما سوىٰ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، ثُمَّ بعْدَ ذلك أتَىٰ العِلْمَ شيئًا فشيئًا لصحابَةِ رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكلٌّ أخَذَ مِنَ العلْمِ بقدْرِ ما يُسِّرَ له وقُدِّر له.

هكذا أهلُ العلم مِن بعد الصَّحابة لا تجدُ أنَّ أولئك خاضُوا العلمَ خوضًا واحدًا، فمنهُم من برَّز في علم العربية، ومنهم من برَّز في علم الأصول، ومنهُم من برَّز في التَّفسير، ومنهم من برَّز في الحديث، ومنهم من برّز في علوم الآلة الأخرىٰ كالمصطلح ونحوه، ومنهم من برَّز في الفقه، وهكذا في علوم شتَّىٰ.

وإذا كان كذلك، كانت وصيَّةُ ابن شهاب الزُّهري، الَّتي لابُدَّ أن نحفظها، كانت وصيَّتُه نِعْمَ الوصيَّة حيث قال: **مَنْ رامَ العلمَ جملةً ذهبَ عنه جملةً؛ إنَّما يُطلبُ العلْمُ علىٰ مرِّ الأيَّام واللَّيالي**. فالمتعجِّلون لا يحصِّلون العلمَ، فلابدَّ -إذن- مِن التَّدرُّجِ.

ثُمَّ ثَمَّ صنفٌ آخرَ أيضًا مِن الشَّباب أو من طلَّاب العلم وهم المتذوِّقون.

المتذوِّقون: أهلُ التَّذوُّقِ في أخْذِ العلْمِ؛ يأتِي ويطْلُبُ علمًا ما مدَّةً قليلةً، ثمَّ يأتِي ويحكُمُ علىٰ هٰذا العلم، أو يحكُمُ علىٰ من يُعلِّمُ ذاكَ العلمَ، وأيضًا ينتقِلُ إلىٰ آخرَ، ثُمَّ يحكُمُ علىٰ ذلك العِلْمَ الآخر، وعلىٰ من يُعلِّمُ ذلك العلمَ الآخرَ.

وهٰذا دليلُ نقصٍ في العلْمِ، ونقْصٍ في الإدراكِ والعقْلِ؛ لأنَّ العُلومَ لا يَحكُمُ عليْهَا إلَّا مَنْ حواهَا مِن جميعِ جنباتِها، وأحاطَ من ورائِهَا. وهٰذا لا يتأتَّىٰ لأكثرِ الشَّبابِ الَّذين يتذوَّقُون؛ تجدُ أنَّه في مدَّةٍ مِن الزَّمن -أشهُر أو سنة- حضَرَ عند فلانٍ مِنْ أهلِ العلْمِ، أو مِنَ المعلِّمين مِن طلبة العلم، فحَكَم علىٰ نفسِه أو علىٰ ذلك المعلِّم بأنَّه كذا وكذا، ثُمّ انتقلَ إلىٰ غيره.

ثُمّ في الآخِرِ تجِدُ أنَّ هٰذا النَّوعَ ييْأسُ ولا يحصِّلُ علمًا كثيرًا؛ ذلك لأنَّه تعجَّلَ، وكان متذوِّقًا في العلْمِ، والتَّذوُّقُ بمعنَىٰ كثْرَةَ التَّنقُّلِ، والأخذُ مِن هٰذا بشيءٍ والأخذ مِن ذاك بشيءٍ، هٰذا لا يكونُ المرءُ به عالِمًا، ولا طالِبَ علمٍ، وإنَّما كما قال الأوَّلون: يكون أديبًا؛ لأنَّهم عرَّفُوا الأدَبَ بأنَّه: **الأخذُ مِنْ كلِّ علْمٍ بطرَفٍ**. وهٰذا ممَّا لا ينبغِي أنْ يُسلك، يعنِي أنْ يكونَ طالِبُ العلم الَّذي أراد صحَّةَ العلمِ، وصحَّةَ السُّلوكِ فيه، لا يصلُحُ أنْ يكونَ متذوِّقًا.

إذن فرجَعَ السَّبيلُ إلىٰ أن يكون مؤصِّلًا نفسَه، متدرِّجًا في العلم، والتَّأصيلُ -تأصيلُ العلمِ وتأصيلُ

طلبِ العلْمِ -أمرُه عزيزٌ جِدًّا، وأنْ يحفَظَ كما حفِظَ الأوَّلون.

انظر -إنْ كنْتَ معتبِرًا- كُتُبَ التَّراجِمِ حيْثُ ترجَمَ أولئك المصنِّفُون لأهلِ العلم؛ تجِدُ أنَّه في ترجَمَةِ إمامٍ مِنَ الأئمَّةِ وحافِظٍ مِنَ الحفَّاظِ أنَّهم يذكُرُونَ في أوائل ترجمتِه أنَّه قرَأَ الكتابَ الفلانِيَّ مِنَ الكُتُبِ القصِيرةِ مِنَ المتون المختصرَةِ، وقرَأَ الكتابَ الفلاني، وحفِظَ كذا، وحفِظَ كذا.. لماذا يذكرون هٰذا ويجعلونه مَنْقبةً لأولئك؟ لأنَّ حفْظَ تلك المتونِ، وقراءةَ تلك المختصـراتِ هِي طريقةُ العلم في الواقع، وهٰذه سنَّةُ العلماءِ، ومَن تركَها فقد تركَ سنَّةَ العلماءِ في العلم والتَّعليمِ، منْذُ تشعَّبَ العلمُ بعْدَ القرْنِ الرَّابعِ الهجْرِيِّ.

لهٰذا ينبَغِي لَكَ أنْ تكُونَ حريصًا علىٰ التَّأنِّي في طلَبِ العلْمِ، وأنْ تُحكِمَ مَا تسْمَعُ وما تقرَأُ شيئًا فشيئًا.

ومِن المهمَّاتِ أيضًا ألَّا تُدخِل عقلَك إلَّا صورةً صحيحةً مِنَ العلْمِ، لا تهتمَّ بكثْرَةِ المعلوماتِ، بقدْرِ ما تهتمّ بألَّا يدخُلَ العقْلَ إلَّا صورةً صحيحةً للعلْمِ، إذا أردْتَ أنْ تتناوَلَها تناولتَهَا بالاحتجاجِ أو بالذِّكْرِ أو بالاستفادَةِ؛ تناولتَها تناوُلًا صحيحًا.

أمَّا إذا كُنتَ تُدخِلُ في عقْلِكَ مسائِلَ كثيرَةً، وإذا أتىٰ النِّقاشُ لحظْتَ مِنْ نفسِكَ أنَّ هٰذه المسألةَ فهمتَهـا علىٰ غيرِ وجهِها، والثَّانيةَ فهمتَها علىٰ غير وجهِها، لها قيدٌ لم تهتمَّ به، لها ضوابطُ ما اعتنيْـتَ بهـا، فتكـونُ الصُّورُ في الذِّهْنِ كثيرَةٌ، وتكونُ المسائِلُ كثيرَةٌ؛ لكن غيْرُ منضبِطَةٌ، وليْسَ ذلك بالعلْمِ.

إنَّما العلمُ أنْ تكونَ الصُّورةُ في الذِّهْنِ للمسألَةِ العلميَّةِ منضبِطَةً؛ مِن جهَةِ الصُّورةِ -صورَةُ المسـألةِ-، ومِنْ جهةِ الحُكْمِ، ومِنْ جهةِ الدَّليلِ، ومِن جهةِ وجْهِ الاستدلالِ، فهٰذه الأرْبَعُ تهتمَّ بها جدًّا:

الأولىٰ: صُورةُ المسألَةِ.

الثَّانيةُ: حُكْمُ المسألةِ، فِي أيِّ علْمٍ: فِي الفِقْهِ أوِ في الحدِيثِ أو في المصطلَحِ أو في الأصولِ أو في النَّحوِ أو في التَّفسيرِ...إلخ.

الثَّالثةُ: دليلُها، ما دليلُ هٰذا الَّذي قالَ كذا وكذا؟

الرَّابِعَةُ: ما وجْهُ الاستدلالِ؟ استدلَّ بدليلٍ، كيْفَ أعْمَلَ عقلَهُ في هٰذا الدَّلِيلِ فاستنبَطَ منْهُ الحُكْمَ؟

فإذَا عوَّدت ذِهنَك في هٰذه الأربع سِرْت مسيرًا جيِّدًا في فهْـمِ العلـم، والَّـذي يُحـيطُ بـذلِكَ: الاهتمـامُ باللُّغةِ العربيَّةِ، الاهتمامُ بألفاظِ أهْلِ العلْمِ؛ لأنَّ مَن لم يهتمَّ بألفـاظِ أهْـلِ العلْـمِ وبلغـةِ العلْـمِ لـم يُـدْرِك مراداتِهم من كلامهم.

هٰذه كلمةٌ لأجْلِ أنَّ بعْضَ الإخوَةِ طلَبَ أنْ تكونَ مقدِّمةٌ لهٰذا الدَّرسِ حتَّىٰ يجتَمِـعَ مَـنْ يُريـدُ حضـورَ

درْسَ التَّوحيدِ، ولو تهيَّأ أنْ نجْعَلَ كلَّ يوْمٍ عشْرَ دقائِقَ في بيانِ وصيَّةٍ أو في بيانِ شيءٍ ممَّا تهتمُّونَ بـهِ لكـانَ ذلك مناسبًا إنْ شاء الله تعالىٰ.

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ][1]

[الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آله وصحْبِه ومن اهتدىٰ بهداه.

أمَّا بعدُ..

فأسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا لي ولكُم العِلْمَ النَّافِعَ، والعملَ الصَّالحَ، وأنْ يستعمِلنَا فيما يحِبُّ ويَرْضَىٰ، وأنْ يجعَلَ العلْمَ حُجَّةً لنَا لا حُجَّةً علينَا.

هٰذا وإنَّ مِن **المهمّاتِ** في مسِيرِ طالِبِ العلْمِ أنْ يعتَنِيَ بحفْظِ العلْمِ المنتخَبِ، وأعْنِي بحفْظِ العِلمِ المنتخَبِ الَّذي يتصيَّدُه مِنَ الكُتُبِ أو ممَّا سَمعَه مِنَ العُلماءِ أو المشايِخِ أو طلبَةِ العلْمِ؛ ذلك أنَّ تعلِيمَ العلْمِ يكونُ معَهُ فوائدَ قدْ لا يجِدُها الأكثرون في الكتُبِ، ولهٰذا لابدَّ مِنَ التَّقييدِ، والتَّقييدُ يكونُ في دفتَرٍ خاصٍّ، وقلَّما تجِدُ أحدًا مِنْ أهْلِ العلْمِ إلَّا وكان لَه في سِنِيِّ الطَّلَبِ دفْتَرًا خاصًّا؛ أوراقًا مجموعَةً يَكتُبُ فيهَا ما ينتَخِبُه مِنَ المُهمّاتِ ممَّا يقرَأُ أو ممَّا يسمَعُه مِنَ الشُّيوخِ؛ لأنَّكَ إذَا كُنْتَ تقرأُ ستجِدُ أشياءَ كثيرةً ليست مُلفتَةً للنَّظرِ ولسْتَ بحاجةٍ إليها في فِترتِكَ الَّتي تعيشُها، وتارةً تجِدُ أشياءَ مهمَّةٌ، كذلك ممَّا تسمعُه مِنَ العُلماءِ، أو مِنَ المعلِّمينَ فإنَّ ثمَّةَ أشياءَ مُهمَّة وثمَّةَ أشياء مِنْ قبِيلِ الوصْفِ؛ الوصْفُ يُمكِنُ أنْ يُدْرَكَ بمرَاجعَةِ بعْضِ المرَاجعِ القَرِيبَةِ ونحْوِ ذلِكَ. أمَّا ما كانَ مِنْ قبيل التَّعارِيفِ أو التَّقاسِيمِ أو التَّصوِيرِ أو ذِكْرِ الخلافِ أو ذِكرِ الرَّاجِحِ أو ذِكرِ الدَّليلِ أو ذِكرِ وجْهِ الاستدلالِ فهٰذا لابُدَّ مِنْ تقيِيدِه.

إذن فكان مِنَ اللَّوازِمِ لكَ أنْ تتَّخِذَ لكَ كُرَّاسَةً خاصَّةً تكتُبُ فيها الفوائِدَ؛ والفوائِدُ هٰـذه إمَّـا أنْ تكُـونَ مقروءةً أو مسموعَةً.

والَّذِي أريدُ أنْ تكتبَهُ في هٰذا المنتخَبِ أو الكرَّاسةِ أنْ تعتنِيَ فيه:

بكتابَةِ **التَّعارِيفِ أو الضَّوابِطِ**؛ لأنَّ العِلمَ **نِصفُه فِي التَّعارِيفِ والضَّوابِطِ**.

وأنْ تعتَنِيَ فيها بذِكرِ **القيودِ**، إذا سَمعْتَ قيْدًا فِي مسألَةٍ فإنَّ القيْدَ أهمِّيتُه كأهمِّيـةِ أصْـلِ المسـألَةِ؛ لأنَّـهُ بدونِ فهْمِ القيْدِ يكونُ تصوُّرُ أصْلِ المسألَةِ غيْرُ جيِّدٍ؛ بل قد يكونُ خطًا فتُنَزِّلُها في غيْرِ منزلَتِهَا.

أو **التَّقاسيم**، تجدُ في بعضِ كُتُبِ أهلِ العلمِ مثلًا قول: (هٰذه المسألة تنقسِمُ إلىٰ ثلاثة أقسـامٍ)، أو هٰـذه

(1) **ما بين المعكوفتين من الشَّريط الأوَّل الوجه الثَّاني**، وهو بعد باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

الصُّورةُ لها ثلاثُ حالاتٍ، لها خمْس حالاتٍ، لها حالتان، وكلُّ حالةٍ تنقسِمُ إلىٰ حالتين، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: **العِلْمُ إِدْرَاكُهُ فِي إِدْرَاكِ التَّقاسِيم.**

فذهنُك مِن الحَسَنِ؛ بل مِنَ المتأكِّدِ أنْ تعوِّدَهُ علىٰ: **ضبْطِ التَّعاريفِ، ضبْطِ القُيودِ، علىٰ إدرَاكِ التَّقْسيماتِ.**

إذا رأيْتَ في كلامِ بعْضِ أهلِ العلْمِ أنَّ هٰذه تنقسِمُ إلىٰ كذا وكذا، فمِنَ المهمِّ أنْ تسجِّلَ ذلِكَ وأنْ تدْرُسه أو تتحفَّظه، لأنَّ في التَّقسيماتِ ما يجلُو المسألة، وبدونِ التَّقاسِيم تدخُل بعْضُ الصُّورِ فِي بعْضٍ، وتَدْخُلُ بعْضُ المسائلِ في بعضٍ، أمَّا إذا قُسِّمت فإنَّ في التَّقسيمِ ما يُوضِحُ أصلَ المسألة؛ لأنَّ لكلِّ حالةٍ قسمًا.

وأيضًا مِنَ **المهمَّاتِ** لك في مسِيرِكَ في طلَبِ العِلْمِ فيما تُقيِّدُه أنْ يكونَ لكَ تقييمٌ بعْدَ كلِّ فترةٍ مِنَ الزَّمنِ فيما كتبْتَهُ فِي تلْكَ الكُرَّاسَةِ أو الكرَّاساتِ، ستجِدُ أنَّكَ مثلًا بعْدَ مُضيِّ سنةٍ مِنْ طلبِكَ للعلْمِ تستغْرِبُ ما كتبْتَهُ فِي تِلكَ السَّنَةِ بعْدَ مُدَّةٍ، لماذا؟ لأنَّك أوَّلُ مَا كتبْتَ كانَتِ المكتوباتُ - المسائلُ- جديدةً عليْكَ، فكتبْتَ لتحفَظَ، وبعدَ أنْ حِفظْتَ ودرَسْتَ وكرَّرتَ ما كتبْتَهُ في هٰذه الكُرَّاسةِ صارتْ واضحةً وُضوحَ اسمِكَ لديْكَ، وبالتَّالي فإنَّ المعلومات تزيدُ وكلَّما ازدادَتْ المعلوماتُ بحِفْظِ ما سبَقَ يكونُ السَّابقُ واضِحًا لديْكَ لسْتَ محتاجًا لعناءٍ في تناوُلِهِ مِنَ العَقْلِ أو الذِّهنِ؛ لأنَّهُ صارَ محفوظًا متصوَّرًا بقيُودِهِ وبضوَابِطِه.

إذن مِنَ المهمِّ أنْ تُرتِّبَ نفْسَكَ فِي أنْ تنتخِبَ ممَّا تقرَأُ أو ممَّا تسمَعُ أشيَاءَ مُهمَّة تتعلَّقُ بما ذكرْنا إمَّا بالتَّعارِيفِ وإمَّا بالضَّوابط أو بالقيود أو بالتَّقاسِيمِ أو بالدَّلِيلِ أو بوجْهِ الاستدلالِ، وهٰذا يشمَلُ جميعَ العلومِ سواءً مِنْ ذلِكَ العُلومِ الصِّناعيَّةِ -يعني علوم الآلة- أو العلوم الأصليَّةِ الَّتي هي المقصودَة.

حبَّذَا لو تبدَأُ بهٰذا مِنَ اليوْمِ فتجعَلُ لك منتخَبًا تنتخِبُ فيه الفوائِدَ ثُمَّ تتحفَّظُها، ثُم بعْدَ مُدَّةٍ سترَىٰ أنَّها صارَتْ سهلةً ميسورَةً، فتنتقِلُ إلىٰ غيرها فيجتمِعُ العلمُ بعد مدَّةٍ.

أسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا أنْ يجعلَنَا وإيَّاكُم ممَّن يَسَّرَ عليه العلمَ ويَسَّرَ عليه العمَلَ.

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد.][1]

(1) ما بين المعكوفتين من الوجه الثاني من الشريط الثاني بعد شرح باب الخوف من الشرك.

[نفسيَّةُ طالِبِ العِلْمِ حينَ يتلقَّىٰ الدَّرْسَ]

[بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آلِه وصحبِه ومنِ اهتدَىٰ بهداه.

أمَّا بعدُ..

فموضوعُ كلمةِ هٰذا اليَومِ عن (**نفسيَّةِ طالِبِ العلْمِ حينَ يتلقَّىٰ الدَّرسَ**)، والمستمِعُونَ للعلْمِ يختلفُونَ: يختلفون مِن جهةِ رغبَتِهم فيما يسمعُون، ويختلفُونَ أيضًا مِنْ جهةِ استعداداتِهم، فليسَتِ الرَّغباتُ واحدَةٌ وليسَتِ الاستعداداتُ واحدةٌ.

فالرَّغباتُ مختلفَةٌ:

- منهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تحصِيلِه، هٰذا هو الغالِبُ، ولله الحمْدُ.
- ومنهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تقييمِ المعلِّمِ، أو فِي معرفَةِ مكانتِهِ مِنَ العلْمِ وحُسنِ تعلِيمِه أو حُسنِ استعداداتِه للعلوم.
- ومِنْهم مَنْ يأتِي مرَّةً ويترُكُ عشْرَ مرَّاتٍ.

وفِيهِ رغباتٌ أيضًا متنوِّعَةٌ، ويهمُّنَا منها مَنْ يأتِي للعلْمِ رغبةً فِي العِلْمِ، فحِينَ يأتِي طالِبُ العِلمِ للدَّرسِ راغِبًا فِي الاستفادَةِ ينبَغِي أنْ يكُونَ علَىٰ نفسيَّةٍ وحالَةٍ قلبيَّةٍ خاصَّةً، وحالَةٍ عقليَّةٍ أيضًا خاصَّة.

أمَّا الحالَة القَلبيَّة والنَّفسيَّة:

♦ فأنْ يكونَ قصْدُه مِن هٰذا العِلْمِ أنْ يرفَعَ الجهْلَ عنْ نفسِه، وهٰذا هو الإخلاصُ في العلْمِ؛ لأنَّ طلَبَ العلمِ عبادةٌ، والإخلاصُ فيه واجِبٌ، والإخلاصُ في العِلْمِ بأنْ ينْوِيَ بتعلُّمِه رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه، وقدْ سُئلَ الإمامُ أحمَدَ عنِ النِّيَّة فِي العلْمِ كيف تكون؟ فقال: **أنْ ينْوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِهِ**.

فإذا كان في طلَبِه للعلْمِ يرُومُ أنْ يكونَ معلِّمًا، أو أنْ يكونَ داعِيًا، أو أنْ يكونَ مؤلِّفًا ونحو ذلك فالنِّيَّةُ الصَّالحَةُ فيه والإخلاصُ في ذلك يكون بشيئين:

الأوَّلُ: أنْ ينوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه.

الثَّاني: أنْ ينْوِي رفْعَ الجهْلِ عنْ غيْرِه.

فإذا لم ينوِ أحدَ هٰذين، أو لم ينوهِمَا معًا، فإنَّه ليس بصاحِبِ نيَّةٍ صحيحَةٍ، فإذا رامَ أحدُنا أنْ يطلُبَ العِلمَ فلابدَّ أنْ يكونَ ناويًا رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِه، وإذا نوَىٰ هٰذه النِّيَّة يكونُ مستحضِرًا -بالطَّبعِ- أنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ خلَقَهُ ولَهُ عليْهِ أمرٌ ونهيٌ في أصْلِ الأُصولِ -ألَا وهُوَ حقُّه جَلَّوَعَلَا: التَّوحيدُ-، وكذلِكَ فِي الأمْرِ

والنَّهي في الحلالِ وفي الحرامِ، ومِنْ أسبابِ الإقدامِ علىٰ المنهيَّاتِ في العقائِدِ وكذلكَ فِي السُّلوكِ الجهْلِ، وثَمَّ أسبابٌ أُخَرْ.

فإذا عَلِمَ ورَفَع الجهْلَ عنْ نفسِه، كان عالمًا بمرادِ الله جَلَّوَعَلَا، ثُمَّ بعْدَ ذلك يستعِينُ اللهَ جَلَّوَعَلَا في امتثالِ مُرَادَاتِهِ الشَّرعيَّةِ، هٰذا أمرٌ نفسيٌّ مهِمٌّ.

♦ والأمرُ النَّفسيُّ الثَّاني المهِمُّ أيضًا: أنَّه حينَ يتلقَّىٰ العِلمَ يتلَقَّىٰ وهو واثِقٌ مِنْ علْمِ المعلِّمِ؛ يعنِي: أنْ يكونَ فِي نفسِهِ أنَّ الأصْلَ فِي المُعلِّمِ أنَّهُ يعلِّمُ علىٰ الصَّوابِ، فإذا دخَلَ وفِي نفْسِه أنَّ المُعلِّم يعلِّمُ غلطًا أو أنَّ معلوماتِه مشوَّشةً، أو أنَّه كذا وكذا ممَّا يُضعِفُه في العِلمِ، فإنَّه لنْ يستفِيدَ؛ ذلك لأنَّه إذا استمَعَ سيستَمِعُ بنَفَسِ المُعارِضِ، فسيأتِي إذا قال كلمةً أخذ يفكِّرُ بعدَها نصْفَ دقيقة أو دقيقة فيما قال، قال: هٰذا صحيحٌ وفي اطِّلاعاتِه، وقد اطَّلَعَ كذا وكذا ممَّا يعارِضُ كلامَ المعلِّم، ثم في هٰذه الدَّقيقة يكون المعلِّمُ قد أتىٰ بشيءٍ آخَرَ، فإذا انتهىٰ هٰذا من تفكيرِه سمِعَ جملةً أخرىٰ، فتكونُ مشوَّشةً أيضًا، فيدخُلُ في اعتراضاتٍ، وهٰذا يَحْرِمُ المُستَمِعَ العِلْمَ.

وإذا كانَ عْنْدَ طَالِبِ العِلْمَ فيما يسْمَعُ إشكالاتٍ أو إيرادَاتٍ فيكونُ عندَهُ ورقةٌ أو كُرَّاسَةٌ بيْنَ يديْهِ يكتُبُ الإشكالَ ثُمَّ لا يفكِّرُ فيه، وهو يستمِعُ العلم، يكتب بحث هذه المسألة كذا وكذا، ثُم بعد ذلك إذا فرغ مِن هٰذا الدرسِ يذهب هو ذلك اليوم أو بعده يذهب ويبحث هٰذه المسألة أو يسأل عنها.

ومِن المعلوم أنَّه ليس من شرْطِ المعلم أن يكون محقِّقًا، وليس مِن شرْطِ المعلِّم أن يكون مُصيبًا دائمًا، فقد يكون له اختياراتٌ أو آراء تخالِفُ المشهور، أو يكون له توجيهاتٌ غلِطَ فيها؛ لكن الشَّأنَ أنْ يكونَ المعلِّمُ مشهودًا له بالعلْمِ، مؤصَّلًا في العلم، يعرِفُ ما يتكلَّمُ به، فإذا عرَفَ ما يتكلَّم به وعرف أقوالَ النَّاسِ وعلَّمَ العلمَ، فإنَّه قد يكون عنده غفلةٌ في مسألةٍ أو في حُكمٍ أو نحو ذلك، فيغلَطُ مرَّةً أو يغلَطُ في تصوُّرٍ ونحوِ ذلك، هذا ليْسَ بعجِيبٍ؛ لأنَّ المعلِّم بشَرٌ والبشَرُ خطَّاؤون.

المهمُّ أنْ تتلقَّىٰ العلمَ ممَّن وثِقْتَ بعِلْمِه وأنْتَ في نفسيَّةٍ غيرِ معارِضَةٍ، وهٰذا يحرِمُ كثِيرين علمًا واسعًا؛ حيثُ إنَّهم يتلقَّوْن العلْمَ بنفسيَّةِ السُّؤالِ بنفسيَّةِ مَن يستشْكِلُ، ولهٰذا مَنْ أكثَرَ السُّؤالَ في حلقاتِ العلْمِ لا يكُونُ مُجيدًا.

وقد حضرتُ مرَّةً عند الشَّيْخِ عبدِ الرَّزَّاقِ عفِيفي العلَّامةُ المعروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وكان عنْدَه مَنْ يسأَلُه عنِ المسائلِ في الحجِّ، فإذا أتَىٰ مُستفْتٍ يستفْتِي فيأتِي هٰذا السَّائلُ ويقول له: فإنْ كان كذا. يحاوِلُ أنْ يتعلَّمَ العلمَ بطرْحِ مسائلَ أُخَر غيْر المسألة الَّتِي استفْتَىٰ فيها السَّائل، فقال له الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **العِلْمُ لا**

يُؤتَىٰ هكذا، وإنَّما يُؤتىٰ العِلْمُ بدراسَتِهِ.

وهٰذا صحيحٌ؛ لأنَّ المتعلِّمَ حين يحضُرُ عند أهلِ العلْمِ فيَسمَعُ فإنَّه إذَا عـرَضَ لذِهنِـه أنَّـه في كـلِّ مـا يأتِي يسأل أو في كلِّ ما يسمع يعترِضْ، كما مرَّ معنَا كثيرًا مِنْ بعْضِ الإخوانِ والشَّبابِ في حلقـاتِ العلْـمِ؛ يُوردون أسئلةً ويُوردونَ استشكالاتٍ طبعًا بحسَبِ ما عندَهُم مِنَ العِلمِ سـألُوا واستشـكَلُوا ولـو صـبَرُوا لكان خيرًا لهم.

هٰذه النَّفسيَّةُ تؤثِّرُ علىٰ الذِّهنِ وعلىٰ صفائِه وعلىٰ تصوُّرِ العُلومِ في أثناءِ الدَّرْسِ.

لهٰذا ينبَغِي لنَا أنَّنا حينَ نتلقَّىٰ العِلْم أنْ نتلقَّاهُ بنفسيَّةِ مَنْ ليْسَ عنْدَه عِلْمٌ البتَّة، يسمعُ ويسمعُ ويسمعُ، وإذا استشكَل فيكونُ بعد ذلك في محلِّه يقيِّدُ، ثمَّ يبحثُ أو يسألُ عنْ ذلك.

طبعًا هٰذا في حقِّ مَنْ وثِقنَا بعلمِه فأخذْنا عنْهُ العِلمَ عنْ ثقةٍ بما يأتِي بِه.][1]



(1) ما بين المَعكوفَتينِ مِن الشَّريطِ الثَّالثِ بعدَ شرحِ «تفسيرِ التَّوحيد وشهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ».

الدَّرسُ الأوَّلُ

[مقدِّمـــــــة الشَّارح]

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم [1]

الحمدُ لله، الَّذي بعثَ عبادَه المرسلينَ بتوحيدِه، فأقامُوا الحجَّةَ علىٰ العبادِ، واتَّفقُوا مِن أوَّلِـهم إلىٰ آخرِهم علىٰ ألَّا معبودَ حقٌّ إلَّا اللهَ، وعَلَىٰ أنَّ عبادَةَ غيرِهِ باطلةٌ، وأنَّه ما عُبِدَ غيْرُ اللهِ إلَّا بالبغْيِ والظُّلم والعُدوانِ، وأشهدُ ألَّا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له تأكيدًا بعْدَ تأكيدٍ بِبيانِ مقامِ التَّوحيدِ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُ الله ورسولُه صلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِه وصحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّـا بعدُ..

فهذا الكتابُ -وهو **كتابُ التَّوحيدِ**-، للإمـامِ المصلِحِ المجدِّدِ شيْخُ الإسلامِ والمسلمينَ؛ محمَّدِ بـنِ عبدِ الوهَّـابِ، وهُوَ غنيٌّ عن التَّعريفِ؛ لِمَا جعلَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لدعوتِهِ مِنْ أثرٍ في شـرْقِ الأرضِ وفي غربِهـا، وفي شمالِها وفي جنوبِها، ذلكَ أنَّها دعوةُ محمَّدِ بنِ عبدِ الله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وكتابُ التَّوحيدِ -الَّذي نحنُ الآنَ بصددِ شرحِه- كتابٌ عظيمٌ جدًّا، وأجمعتِ العلماءُ -أعنِـي علمـاءُ التَّوحيدِ- علىٰ أنَّهُ لم يُصَنَّفْ في الإسلامِ في موضوعِهِ مثلُهُ، فهو كتابٌ وحيدٌ وفريدٌ في بابِـهِ؛ لأنَّـه رَحِمَهُٱللَّهُ طَرَقَ في هٰذا الكتابِ مسائلَ توحيدِ العبادةِ، وما يُضادُّ ذلك التَّوحيدُ؛ إمَّا مِـن أصـلِه، وإمَّـا يُضـادُّ كمالَـه، وهٰذا علىٰ نحوِ التَّفصيلِ الَّذي ساقَ بِهِ الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ تلكَ المسائلَ والأبوابَ، لم يُوجـدْ في كتـابٍ علـىٰ نحوِ سياقتِهِ مجموعًا.

ولهـذا طالِبُ العلمِ لا يستغْنِي البتَّةَ عن هٰذا الكتابِ، مِن جهةِ معرفتِهِ بمعانِيهِ؛ لأنَّه مشتمِلٌ علىٰ الآيِ والحديثِ، وقد شبَّهَ بعضُ العلماءِ هٰذا الكتابَ بأنَّهُ قطعَةٌ مِن «صحيحِ البخاريِّ» رَحِمَهُٱللَّهُ، وهٰذا ظاهرٌ في أنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُٱللَّهُ جعَلَ هٰذا الكتابَ كـ«كتاب البخاريِّ»؛ مِن جهةِ أنَّ التَّرجمةَ فيها آيةٌ وحديثٌ، والحديثُ دالٌّ علىٰ التَّرجمةِ، والآيةُ دالَّةٌ علىٰ التَّرجمةِ، وما بعدَهَا مُفسِّـرٌ لها، وما ساقَ مِنْ كلامِ أهْلِ العلمِ؛ مِن الصَّحابةِ، أو مِن التَّابعينَ، أو مِن كلامِ أئمَّةِ الإسلامِ، فهُو علىٰ نسَقِ طريقةِ أبِي عبدِ الله البُخاريِّ رَحِمَهُٱللَّهُ؛ فإنَّه يسوقُ أقوالَ أهلِ العلمِ في بيانِ المعانِي.

هٰذا الكتابُ، صَنَّفهُ إمـامُ الدَّعوةِ ابتداءً فِي (البصرَةِ)، لَمَّا رحلَ إليهَا، وكانَ الدَّاعِي إلىٰ تأليفِهِ ما رأىٰ

(1) مِن هنا يبدأُ الشَّريطُ الأوَّلُ.

مِن شُيُوعِ الشِّرْكِ بالله جَلَّجَلَالُهُ، ومِن افتقادِ التَّوحيدِ الحقِّ في المسلمين، فرأىٰ مظاهِرَ الشِّـركِ الأكبَرِ، والأصغَرِ، والخفيِّ، فابتدأ في (البصرةِ) جمْعَ هٰذا الكتابِ وتحريرَ الدَّلائلِ لمسائلِه، ذكرَ ذلكَ تلميذُه وحفيدُه الشَّيخُ الإمـامُ عبدُ الرَّحمٰن بنُ حسنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المقاماتِ»، ثُمَّ حرَّرهُ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكملَهُ لمَّا قدِمَ نجدًا.

وصارَ هٰذا الكتابُ كتابَ دعوةٍ، فهو يمثِّلُ الدَّعوةَ إلىٰ التَّوحيدِ؛ لأنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّنَ فيهِ أصولَ دلائلِ التَّوحيدِ، بيَّنَ فيه معناهُ وفضلَهُ، وبيَّن ضِدَّهُ والخوْفَ مِن ضدِّه، بيَّنَ أفرادَ توحيدِ العبادَةِ وأفرادَ توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ إجمالًا، وبيَّنَ الشِّركَ الأكبرَ وصُورًا مِن الشِّركِ الأكبرِ، وبيَّنَ الشِّركَ الأصغَرَ وصُورًا مِنَ الشِّركِ الأصغَرِ، وبيَّنَ الوسائلَ، وبيَّنَ حمايةَ التَّوحيدِ ومَـا يكونُ به، وبيَّنَ أيضًا شيئًا مِن أفرادِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ.

فهٰذا الكتابُ -«كتابُ التَّوحيدِ»- كتابٌ عظيمٌ جدًّا، ولهٰذا يعظُمُ أنْ تعتنِيَ به عنايةَ حفظٍ ودرْسٍ وتأمُّلٍ؛ لأنَّكَ أينما كُنتَ فأنتَ محتاجٌ إليه؛ في نفسِكَ، أو في تبليغِ العلْمِ لمن وراءَكَ، سواءٌ كان ذلك في البيْتِ، أمْ كانَ في المسجدِ، أمْ كان في العملِ، أمْ في أيِّ جهةٍ، فمَنْ فهِمَ هٰذا الكتابَ، فهِمَ أكثَرَ مسائِلِ توحيدِ العبادَةِ، بل فهِمَ جُلَّهَا وأغلَبَهَا.

نبتدئُ الشَّرْحَ، وقدْ كنتُ نظرْتُ فِي كيفَ تكونُ طريقةُ شرْحِ هٰذا الكتابِ، والكتـابُ -كمـا تعلمُـون- طويلٌ لا يمكِنُ شرحُه بتوسُّطٍ أو ببسْطٍ في نحوِ ثمانيةَ عشـرَ درسًا. والعُلماءُ الَّذينَ شرحُوه -وهُـم كُثُـر- كانوا بين مُطيلٍ، ومتوسِّطٍ، ومختصِرٍ. فنظرتُ في ذلك، فتقرَّرَ أنْ يكونَ الشَّرحُ:

- **فيه ذِكْرٌ للفوائدِ الَّتي كثيرًا مـا تلتَبِسُ علىٰ طلبَةِ العلْمِ.**
- **وفيه بيانُ مناسبَةِ الآيِ والأحادِيثِ للتَّرجمةِ.**
- **وفيه بيانُ وجْهِ الاستدلالِ مِنَ الآيةِ، أو مِن الحديثِ علىٰ المقصودِ.**
- **وفيه ذِكرُ شيءٍ مِن تقريرِ الحِجاجِ مع الْخصومِ في هٰذه المسائلِ، ربَّما بِما لا يُطالِعُه كثيرٌ مِنكُم فِي الشُّروحِ.**

وهٰذه الطَّريقةُ الَّتي سنسلُكها؛ طريقةٌ مختصرَةٌ، سوْفَ نأتِي بهـا إنْ شاء اللهُ تعالىٰ -ونسألُه المدَدَ منه، والإعانةَ، والتَّوفيقَ- علىٰ الكتابِ كلِّه بإذنِ الله، مع عدَمِ الإخلالِ بإفْهامِهِ، وعدَمِ الإخـلالِ بمعانِيهِ.

قال شيخُ الإسلامِ والمسلمينَ مجدِّدُ الدَّعوةِ والدِّينِ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

[بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الْحَمْدُ للهِ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.] (1)

1- (كِتَابُ التَّوْحِيدِ)

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّاريات].

[2] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: 36].

[3] وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23] الآية.

[4] وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّساء: 36] الآيَةَ.

[5] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: 151] الآيات.

[6] قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 151-153] الآية».

[7] وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ [فِي «الصَّحِيحَيْنِ»].

قوله: (كِتَابُ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾) عادةُ المصنِّفينَ والمؤلِّفين أنْ يضعُوا بعد البسملةِ والحمدلةِ خطبةً للكتابِ يذكرونَ فيها طريقتَهم في هٰذا الكتابِ، ومرادَهم من تأليفِه.

وهٰهنا سؤالٌ معروفٌ، وهو أنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ خالفَ طريقةَ المصنِّفينَ، فلم يجعلْ للكتابِ خطبةً يُبيِّنُ فيها طريقتَه؛ بل قال: (كِتَابُ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾) فأخلاهُ من الخُطبةِ، والسَّببُ في ذلك والسِّرُّ فيه -فيما يظهرُ لي- أنَّ التَّوحيدَ الَّذي سيُبيِّنُه الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(1) غير موجود في النُّسخة التي قرئت علىٰ الشيخ.

في هٰذا الكتابِ هو توحيدُ الله جَلَّجَلَالُهُ، وتوحيدُ الله بيَّنه اللهُ جَلَّوَعَلَا في القرآنِ.

فكانَ مِنَ الأدَبِ في مقامِ التَّوحيدِ ألَّا يجعَلَ فاصِلًا بينَ الحقِّ والدَّالِّ على الحقِّ وكلامِ الدَّالِّ عليه؛ فالحقُّ الَّذِي لله هو التَّوحيدُ، والَّذِي دلَّ على هٰذا الحقِّ هو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، والدَّليلُ عليه هو كلامُه وكلامُ رسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهٰذا مِنْ لطائفِ أثَرِ التَّوحِيدِ علىٰ القلْبِ، كما صَنَعَ البُخاريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيحه»؛ إذْ لم يجعلْ لـ«صحيحِهِ» خطبةً، بل جعلَ «صحيحَه» مبتدَأً بالحديثِ، ذلك أنَّ كتابَه كتابُ سنَّةٍ، ومِن المعلومِ أنَّ الأدَبَ ألَّا يُتقدَّمَ بيْنَ يدي اللهِ ورسولِهِ، فلمْ يقدِّم كلامَه علىٰ كلامِ رسولِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فجعلَ البُخاريُّ «صحيحَه» مفتتَحًا بقولِ الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنّما الأعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وإنّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَىٰ**»، وكتابُه كتابُ سنَّةٍ، فجعلَ كتابَه في ابتدائه مبتدَأً بكلامِ صاحبِ السُّنَّةِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهٰذا مِن لَطيفِ المعاني؛ الَّتي يرعاها مَن نوَّرَ اللهُ قلوبَهم لمعرفةِ حقِّهِ وحقِّ رسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(**كِتَابُ التَّوْحِيدِ**)، (**التَّوْحِيدِ**) مصدرُ: وحَّدَ، يوحِّدُ، توحيدًا، وقد جاء هٰذا اللَّفظُ (**التَّوْحِيد**) بقلَّةٍ، وجاءَ في السُّنَّةِ الدَّعوةُ إلىٰ توحيدِ الله؛ كما جاءَ في «صحيحِ البُخاريِّ» أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا بعثَ معاذَ بنَ جبلٍ إلىٰ اليمنِ قالَ: «**إنّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ إلىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا الله**»؛ «**يُوَحِّدُوا**» مصدرُه التَّوحيدُ، وفي الرِّوايةِ الأخرىٰ من حديثِ ابن عباسٍ هٰذا الَّذي فيه قصَّةُ بعْثِ معاذٍ إلىٰ اليمَنِ، وهي في «الصَّحيحين» قال: «**فَلْيَكُنْ أَوّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلّا إِلٰهَ إِلّا الله وأنَّ محمَّدًا رَسُولُ الله**»، فدلَّ علىٰ أنَّ التَّوحيدَ هو شهادةُ ألَّا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وتحقيقُ هاتيْنِ الشَّهادتيْنِ هو تحقِيقُ التَّوحِيدِ.

التَّوحيدُ: جعْلُ الشَّيءِ واحدًا، وحَّدَ يعني: جعلَهُ واحِدًا، تقولُ: وحَّدْتُ المتكلِّمَ. إذا جعلتَه واحدًا، ووحَّدَ المسلمونَ اللهَ؛ إذا جعلُوا المعبودَ واحدًا وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا.

فالتَّوحيدُ المطلوبُ يشمَلُ ما أمرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا في الكتابِ مِن توحيدِه، وهو ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، **الثَّاني**: توحيدُ الألوهيَّةِ، **والثَّالثُ**: توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ.

توحيدُ الرُّبوبيَّةِ: معناهُ توحيدُ الله بأفعالِه، أفعالُ اللهِ كثيرةٌ منها: الخَلْقُ، والرِّزْقُ، والإحياءُ، والإماتةُ، وتدبيرُ المُلْكِ، والنَّفعُ، والضَّرُّ، والشِّفاءُ، والإجارَةُ؛ يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، وإجابةُ دعوَةِ المضطرِّ، وإجابةُ دعوَةِ الدَّاعِي، ونحوُ ذلكَ مِن أفرادِ الرُّبوبيَّةِ. فالمتفرِّدُ بذلكَ علىٰ الكمالِ هو اللهُ جَلَّوَعَلَا. فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ توحيدُ اللهِ بأفعالِهِ سبحانَهُ.

وتوحيدُ الألوهيَّةِ: مأخوذٌ مِن أَلَهَ، يَأْلَهُ، إلٰهةً، وأُلوهَةً، إذا عَبَدَ معَ المحبَّةِ والتَّعظيمِ. يُقالُ: تألَّهَ، إذا عبَدَ معظِّما محِبًّا، ففرْقٌ بيْنَ العبادَةِ والألوهَةِ؛ فإنَّ الألوهَةَ: عبادَةٌ فيها المحبَّةُ والتَّعظيمُ والرِّضَىٰ بالحالِ والرَّجاءِ والرَّغبِ والرَّهبِ. فمصدَرُ أَلَهَ، يأْلَهُ، أُلوهَةً، وإلٰهةً، ولهٰذا قيلَ: توحيدُ الإلهيَّةِ، وقيلَ: توحيدُ الألوهيَّةِ، وهما مصدرانِ لـ: أَلَهَ يَأْلَهُ. ومعنىٰ (أَلَهَ) في لغةِ العربِ: عبَدَ مع المحبَّةِ والتَّعظيمِ، والتَّأَلُّهُ العبادَةُ علىٰ ذاكَ النَّحوِ، قال الرَّاجِزُ(1):

للهِ دَرُّ الغَانِيَـــاتِ المُـــدَّهِ   سَـبَّحْنَ وَاسْـتَرْجَعْنَ مِـنْ تَأَلُّـهِي

يعني: مِنْ عبادَتي.

فتوحِيدُ الإلـهيَّةِ، أو توحِيدُ الألوهِيَّةِ هو توحِيدُ العبادَةِ، يعني: جَعْلُ العبادةِ لواحدٍ وهو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ.

والعبادةُ أنواعٌ، والعبادةُ يفعلُها العبدُ، واللهُ جَلَّوَعَلَا هو المستحِقُّ للألوهَةِ وللعبادَةِ؛ يعني: هو ذُو الألوهَةِ وهو ذُو العبادَةِ علىٰ خلْقِه أجمعِينَ.

توحيدُ الألوهيَّةِ؛ هو: توحِيدُ اللهِ بأفعالِ العبْدِ؛ أفعالُكَ متنوِّعَةٌ -الَّتي تفعلُها تقرُّبًا-، فإذا توجَّهْتَ بها لواحِدٍ-وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا- كنْتَ موحِّدًا توحيدَ الإلهيَّةِ، فإذا توجَّهَ العبْدُ بها لله ولغيرِه، كان مشرِكًا في هٰذه العبادةِ.

توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ: ومعناهُ أنْ يعتقِدَ العبدُ أنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ واحِدٌ في أسمائِهِ وصفاتِهِ لا مُماثِلَ له فيهما، وإنْ شَرِكَ بعضُ العبادِ اللهَ جَلَّوَعَلَا في أصلِ بعْضِ الصِّفاتِ؛ لكنَّهم لا يَشْرَكونَهُ جَلَّوَعَلَا في كمالِ المعنَىٰ؛ بل الكمالُ فيهَا لله وحدَهُ دونَ مَنْ سواهُ.

فمثلًا: المخلوقُ قد يكونُ عزيزًا، واللهُ جَلَّجَلَالُهُ هو العزيزُ، للمخلوقِ مِنْ صفةِ العِزَّةِ ما يناسِبُ ذاتَهُ الحقيرَةِ، الوضِيعَةِ، الفقِيرَةِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا له مِنْ كمالِ هٰذه الصِّفةِ مُنتهَىٰ ذلك، ليسَ له فيها مثِيلٌ، وليْسَ له فيها مشابِهٌ علىٰ الوجْهِ التَّامِّ؛ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

هٰذه الأنواعُ الثَّلاثةُ مِن التَّوحيدِ ذكرَها الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هٰذا الكتابِ، لٰكِنْ لمَّا كانتِ التَّصانيفُ قبْلَهُ اعتنَىٰ فيها العلماءُ -أعنِي علماءُ السُّنَّةِ والعقيدةِ- ببيانِ النَّوعيْنِ الأوَّلِ والثَّالِثِ؛ وهمَا توحِيدُ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ= لم يبسُطِ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ القوْلَ فيهما، وإنَّما بسَطَ القَولَ فيما النَّاسُ بحاجَةٍ إليه، ويفتقِدُونَ التَّصنِيفَ فيه، وهٰذه طريقَةُ الإمامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّ كتاباتِه المختلفةَ وإنَّ

(1) هو رؤبة بن العجَّاج.

مؤلفاتِ الشَّيخِ إنَّما كانتْ للحاجةِ؛ ليستْ للتَّكاثرِ، أو الاستكثارِ، أو للتَّفنُّنِ، وإنَّما كَتَبَ فيما النَّاسُ بحاجَةٍ إليه، لم يكتُبْ لأجْلِ أنْ يكتُبَ، ولكنْ كتَبَ لأجْلِ أن يَدعُوَ، وبيْنَ الأمرين فرْقٌ.

فإذن الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هٰذا الكتابِ بيَّنَ توحيدَ الإلهيَّةِ والعبوديَّةِ، وبيَّنَ أفرادَه مِنَ التَّوكُّلِ، والخوْفِ، والمحبَّةِ، والرَّجاءِ، والرَّغبةِ، والاستعانَةِ، والاستغاثَةِ، والذَّبحِ، والنَّذرِ، ونحوِ ذلكَ، كلُّ هٰذه العباداتِ لله سبحانَهُ دونَ مَنْ سِواهُ.

والشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا بسَطَ ذلك، بيَّنَ أيضًا ضدَّهُ؛ وهو الشِّركُ.

فهذا الكتابُ -كتابُ التَّوحيدِ- الَّذي فيه بيانُ توحِيدِ العبادَةِ، والرُّبوبيَّةِ، والأسماءِ والصِّفاتِ، وفيهِ أيضًا بيانُ ضدِّ ذلك؛ وضِدُّ التَّوحيدِ: الشِّركُ.

والشِّركُ: اتِّخاذُ الشَّريكِ؛ يعني: أنْ يجعَلَ واحدًا شريكًا لآخرَ، يقالُ: أشْركَ بينهما. إذا جعلهُما اثنينِ، أو: أشرَكَ فِي أمرِه غيرَه. إذا جعلَ ذلكَ الأمرَ لاثنين، فالشِّركُ فيه تشرِيكٌ، واللهُ جَلَّوَعَلَا نهىٰ عنِ الشِّركِ كما سيأتِي.

الشِّركُ في كلامِ أهلِ العلمِ -مُبيِّنين ما دلَّتْ عليه النُّصوصُ- يُقسَمُ إلىٰ قسمين باعتبارٍ، ويُقسمُ إلىٰ ثلاثةٍ باعتبارٍ آخرَ.

الشِّركُ يُقسمُ إلىٰ: ○ شرْكٍ أكبرَ. ○ وشركٍ أصغرَ.

ويُقسمُ أيضًا باعتبارٍ آخرَ إلىٰ: ○ شركٍ أكبرَ. ○ وشركٍ أصغرَ. ○ وشركٍ خفيٍّ.

والشِّركُ: هو اتِّخاذُ الشَّريكِ مع اللهِ جَلَّوَعَلَا في الرُّبوبيَّةِ، أو في العبادةِ، أو في الأسماءِ والصِّفاتِ.

والمقصودُ هنا: النَّهيُ عنِ اتِّخاذِ الشَّريكِ معَ اللهِ جَلَّوَعَلَا في العبادةِ، والأمرُ بتوحيدِه سبحانَهُ.

التَّقسيمُ الأوَّلُ: أنْ يكونَ الشِّركُ أكبرَ وأصغرَ.

- **الأكبرُ**: هو المخرِجُ مِنَ الملَّةِ.
- **والأصغرُ**: ما حَكم الشَّارعُ عليه بأنَّه شركٌ، وليسَ فيه تنديدٌ كاملٌ يُلحِقُه بالشِّركِ الأكبرِ، وعبَّر عنه بعضُ العلماءِ بقولِه: ما كانَ وسيلةً إلىٰ الشِّركِ الأكبرِ.

علىٰ هٰذا يكونُ الشِّركُ الأكبرُ ثَمَّ مِنه ما هو ظاهِرٌ، وثمَّ منه ما هو باطِنٌ خفِيٌّ:

- **الظَّاهرُ مِن الشِّركِ الأكبرِ** كشرْكِ عُبَّادِ الأوثانِ والأصنامِ، وعُبَّادِ القُبور والأمواتِ والغائبين.
- **والباطِنُ** كشرْكِ المتوكِّلينَ علىٰ المشايِخِ، أو علىٰ الآلهَةِ المختلفَةِ، أو كشرْكِ وكُفرِ

المنافقينَ؛ لأنَّ المنافقين مُشركونَ في الباطِنِ، فشِركُهم خفِيٌّ، ولكنَّهُ أكبرَ، وفِي الباطِنِ ولـيسَ في الظَّاهِرِ.

الشِّركُ الأصغَرِ علىٰ هٰذا التَّقسيمِ، منه ما هو ظاهِرٌ، ومنه ما هو باطِنٌ خفِيٌّ:

- **الظَّاهِرُ مِنَ الشِّركِ الأصغَرِ** كلُبْسِ الحلْقَةِ والخيْطِ، وكالتَّمائِم، وكالحَلِف بغيرِ الله، ونحـوِ ذلك مِن الأعمالِ والأقوالِ.
- **والبَاطِنُ** مِنْ ذلكَ الخفيِّ كيسِيرِ الرِّياءِ، ونحوِ ذلكَ.

فيكونُ الرِّياءُ علىٰ هٰذا التَّقسيمِ:

- مِنْه ما هو أكبر؛ كرياءِ المنافقين ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:142].
- ومنه رياءُ المؤمنين؛ رياءُ المسلمين حيثُ يتصنَّعُ في صلاتِه، أو يحبُّ التَّسميع أو المراءاة.

التَّقسيمُ الثَّاني للشِّركِ أنْ يكونَ ثلاثةَ أقسامٍ: أكبرُ، أصغرُ، خفيٌّ، وهٰذا التَّقسيمُ يُعنىٰ به أنَّ:

- **الأكبرَ**: ما هُوَ مخرِجٌ مِن الملَّةِ، ممَّا فيه صرْفُ العبادةِ لغيْرِ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ.
- **والأصغَرَ**: ما كان وسيلةً لذلكَ الشِّركِ الأكبرِ، فيه تنديدٌ لا يبلُغُ به مَن ندَّدَ أنْ يخرُجَ مِنَ الإسـلامِ، وقد حَكمَ الشَّارِعُ علىٰ فاعلِهِ بالشِّركِ، أو حقيقةَ الحالِ أنَّهُ ندَّدَ وأشرَكَ.
- **والشِّركَ الخفيَّ**: هو يسيرُ الرِّياءِ ونحوُ ذلك في هٰذا التَّقسِيمِ.

مِن أهلِ العلمِ مَن يقولُ بالأوَّلِ، ومِنهم مَن يقولُ بالثَّاني، وهما متساويانِ؛ أحدُهما يوافِقُ الآخرَ، لـيس بينهما اختلافٌ:

فإذا سمِعتَ مَنْ يقولُ: إنَّ الشِّركَ أكبرُ وأصغرُ، فهٰذا صحيحٌ.

وإذا سمعتَ -وهو قولُ أئمَّةِ الدَّعوةِ-: إنَّ الشِّركَ أكبرُ وأصغرُ وخفيٌّ، فهٰذا أيضًا صحيحٌ.

إذا تبيَّنَ ذلك، فالشِّـركُ يُعبَّرُ عنه بالتَّنديدِ، ولهٰـذا قـال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:22]، وقالَ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما سئلَ: أيُّ الذَّنبِ أعظمَ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**».

التَّنديدُ منه تنديدٌ أعظمُ، ومنه تنديدٌ ليس فيه صرفُ العبادةِ لغيرِ الله:

فإذا كان التَّنديدُ في جعْلِ العبادةِ لغيْرِ اللهِ، صارَ التَّندِيدُ أكبرَ، صار شركًا أكبرَ.

وإذا كان التَّنديدُ فيه جعْلُ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا نِدًّا لله في عملٍ ولا يبلُـغُ ذلـك الشِّـركَ الأكـبرَ، فإنَّـهُ يكـونُ تنديدًا أصغرَ وهو الشِّركُ الأصغرُ.

هٰذه مقدِّماتٌ وتعاريفُ مهمَّةٌ بينَ يدي شرْحِ هٰذا الكتابِ العظيمِ.

قال إمامُ هٰذه الدَّعوةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كِتَابُ التَّوْحِيد، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى**)، (**قولِ**) هٰذه كما في «صحيح البخاري» تنطِقُها إمَّا:

- علىٰ العطْفِ؛ (كِتَابُ التَّوحِيدِ، وَقَولِ اللهِ)، يعني: وكتابُ قولِ الله.
- أو علىٰ الاستئنافِ؛ (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ).

[الدَّليل الأوَّل] قال: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾)، هٰذه الآيةُ فيها بيانُ التَّوحيدِ؛ وجهُ ذلك أنَّ السَّلفَ فسَّرُوا ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، يعني: إلَّا ليوحِّدُونِ، دليلُ هٰذا الفَهم، أنَّ الرُّسُلَ إنَّما بُعِثَتْ لأجْلِ التَّوحيدِ؛ توحيدِ العبادةِ، فقولُه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني: إلَّا ليوحِّدونِ.

قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا﴾ هٰذا فيه حصرٌ، ومعلوم أنَّ ﴿مَا﴾ النَّافية مع ﴿إِلَّا﴾ تفيدُ الحصْرَ والقصْرَ، معنىٰ الكلام: خَلقتُ الجنَّ والإنسَ لغايةٍ واحدةٍ هي العبادةُ دون ما سِواه، ففِيهِ قصرُ علَّةِ الخلْقِ علىٰ العبادَةِ.

وقولُه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ﴿إِلَّا﴾ هٰذه تسمَّىٰ: **أداةُ استثناءٍ مُفرَّغٍ**، مفرَّغٍ مِن أعمِّ الأحوالِ -كما يقولُ النُّحَاةُ-، يعني: وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ لشيءٍ أو لغايةٍ مِنَ الغاياتِ أبدًا إلَّا لغايةٍ واحدةٍ، وهي أنْ يعبدونِ.

وقولُه: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ اللَّامُ هٰذه تسمَّىٰ: **لامُ التَّعليلِ**؛ ولامُ التَّعليلِ هٰذه قد يكونُ المعنىٰ تعليلُ غايةٍ، أو تعليلُ عِلَّةٍ.

تعليلُ غايةٍ يكون ما بعدَها مطلوبًا؛ لكن قد يكونُ وقد لا يكونُ، ويسمِّيها بعضُ العلماءِ: لامُ الحكمةِ.

وفرقٌ بين العلَّةِ والحكمةِ، يعني: ما الحكمةُ مِن خلْقِ الجنِّ والإنسِ؟ أنْ يَعبدُوا اللهَ وحدهُ دون ما سواه.

هٰذا التَّعليل بقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ قلنَا: تعليلَ غايةٍ.

مثلا قلتُ لكَ: لِمَ أحضرتَ الكتاب؟ قلتَ: أحضرتُه لأقرأ، فيكون العلَّة أو الحكمة من الإحضار القراءة، قد تقرأ، وقد لا تقرأ.

بخلاف اللَّام الَّتي يكونُ معناهَا العلَّة الَّتي يترتَّبُ عليها معلولُها، والَّتي يقول العلماء في نحوها: الحكْمُ دائرٌ مع علَّته وجودًا وعدمًا. أي: تلك علَّةُ القياسِ الَّتي لا يتخلَّفُ فيها المعلولُ عنِ العلَّةِ.

فهُنا اللَّامُ هٰذه لامُ علَّةِ الغايَةِ؛ لأنَّ من الخلق من وُجد وخلقه الله جَلَّوَعَلَا؛ لكن عبَدَ غيره، ولام الحكمةِ شرعيَّةٌ؛ ما بعدها يكون مطلوبًا شرعًا، قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ نفهمُ من هٰذا أنَّ هٰذه الآية دالَّةٌ علىٰ التَّوحيد، من جهة أنَّ الغاية من الخلق هو التَّوحيد، والعبادة هنا هي التَّوحيد.

حقيقة العبادة الخضوع والذُّلُّ، فإذا انضاف إليها المحبَّةُ والانقيادُ صارت عبادةً شرعيَّةً؛ قال طَرَفة في وصف ناقةٍ:

تُبارِي عِتاقًا ناجِياتٍ وأَتْبَعَتْ وَظيفًا وَظيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ(1)

المور: الطَّريق، والمُعبَّد: هو الَّذي ذُلِّل من كثرة وطء الأقدام عليه، وقال أيضًا في «معلَّقته»:

إلىٰ أنْ تحامَتْني العَشيرةُ كُلُّها وأُفرِدْتُ إِفْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ(2)

يعني الَّذي صار ذليلًا، لأنَّه أُصيب بالمرض فجُعل بعيدًا عن باقي الأبعرة، فصار ذليلًا لعدم المخالطة.

في الشَّرع العبادة: هي امتثالُ الأمر والنَّهي علىٰ جهة المحبَّة والرَّجاء والخوفِ.

قال بعض العلماء: إنَّ العبادة هي ما أُمر به من غير اقتضاءٍ عقليٍّ، اطِّرادٍ عُرفيٍّ. وهٰذا تعريف الأصوليِّين.

وقال شيخُ الإسلام في بيان معناها، في أوَّل رسالة «العبوديَّة»: العبادة اسمٌ جامعٌ لما يحبُّه الله ويرضاهُ من الأقوال والأعمال الظَّاهرةِ والباطنةِ.

إذن دِلالة هٰذه الآية، أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد العبادة يجب أن يكون لله وحده دون ما سواه؛ لأنَّ الَّذي خلقهم، خلقهم لأجل أن يعبدوه، فكونُهم يعبدون غيره، وهو الَّذي خلقهم هٰذا من الاعتداء والظُّلم؛ لأنَّه ليس مَن يخلق كمن لا يخلق؛ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النَّحل:17].

[الدَّليل الثَّاني] قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:36]) هٰذه الآية تفسيرٌ للآية قبلها، الآيةُ قبلها فيها بيانُ معنىٰ العبادة، فيها بيانُ

(1) يقول: هي تُباري إبلًا كرامًا مُسرعاتٍ في السَّير وتُتبع وظيفَ- مابين الرُّسغ إلىٰ الرُّكبة- رجلِها وظيف يدها فوق طريقٍ مُذلَّلٍ بالسُّلوك والوطء بالأقدام والحوافر والمناسم في السَّير. «شرح المعلَّقات السَّبع» الزُّوزني، دار اليقظة العربيَّة بيروت، 1969، ص120.

(2) يقول: فتجنَّبتني عشيرتي كما يُتجنَّب البعير المَطليُّ بالقطران وأفردتني لمَّا رأت أنِّي لا أكفُّ عن إتلاف المال والاشتغال باللَّذَّات. الزُّوزني، المصدر السَّابق، ص137.

الغرض من الخلق، وأنَّه لأجل العبادة، هٰذه العبادةُ أُرسلت بها الرُّسل بدليل قولِه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

بُعثت الرُّسل بهاتين الكلمتين ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، إثباتٌ، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، نفيٌ، وهٰذا معنىٰ التَّوحيد، وهو أنَّه مشتملٌ علىٰ إثباتٍ ونفيٍ، لا إلٰه إلَّا الله؛ اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطَّاغوت؛ لأنَّ النَّفيَ فيه اجتناب الطَّاغوت، وهو كلُّ إلـهٍ عُبد بالبَغي والظُّلم والعُدوان، والإثباتُ؛ إثباتُ العبادة في الله وحده دون ما سواهُ، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ التَّوحيد المُثبَت، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي الإشراك.

والطَّاغوت: فَعَلُوتٌ من الطُّغيان، وهو كلُّ ما جاوز به العبد حدَّه من مَتبوعٍ أو مَعبودٍ أو مُطاعٍ.

[الدَّليل الثَّالث] قال: (وَقَوْلُـهُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23])، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ﴿وَقَضَىٰ﴾ -كما فسَّرها عددٌ من الصَّحابة- هنا بمعنىٰ أمرَ ووصَّىٰ، وأمر ووَصَّىٰ فيهما معنىٰ القولِ دون حروف القولِ، فتكون ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ (أنْ) هنا تفسيريَّةٌ، يعني أمر ووصَّىٰ، بماذا؟ بـ: لا تعبدوا إلَّا إيَّاه وبالوالدَين إحسانًا.

قوله: (لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)، هٰذا معنىٰ (لَا إلـه إلَّا الله) بالمطابقة؛ لأنَّ (لَا) نَفيٌ في الجملتين وهنا ﴿تَعْبُدُوا﴾، وفي كلمة التَّوحيد (إلـهَ) والإلـهُ هو المعبود، (لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) يعني: أُحصُروا العبادة فيه وحدَه دون ما سواهُ، أمر بهٰذا ووصَّىٰ بهٰذا، وهٰذا معنىٰ التَّوحيد؛ فإنَّ دِلالة الآية علىٰ التَّوحيد ظاهرةٌ؛ في أنَّ التَّوحيد إفرادُ العبادة لله، أو تحقيق كلمة (لا إلـه إلَّا الله)، وهٰذا الَّذي دلَّت عليه هٰذه الآية.

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يعني: وأحسِنوا بالوالدَين إحسانًا.

[الدَّليل الرَّابع] قال: (وَقَوْلُـهُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النِّساء:36]) هٰذا أيضًا فيه إثباتٌ ونفيٌ، فيه أمرٌ ونهيٌ، أمَّا الأمرُ ففي قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، والنَّهيُ في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وقد مرَّ معك دِلالةُ قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، مع النَّفي علىٰ توحيدِ الله.

قولُه هنا: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ لاحظْ أنَّ ﴿لَا﴾ هنا نافيةٌ، ومن المتقرِّر في علم الأصول، أنَّ النَّفي إذا تسلَّط علىٰ نكرةٍ فإنَّه يُفيد العُموم، و﴿لَا﴾ بعدها نكرةٌ، وهو المصدر المُسْتكِنُّ في الفعل؛ لأنَّ الفعل المضارع مُشتملٌ علىٰ مصدرٍ وزمنٍ، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ يعني: لا إشراكًا به، فـ﴿تُشْرِكُوا﴾ مُتضمِّنَةٌ لمصدرٍ، والمصدر نكرةٌ، فيكون قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ يعني: بأيِّ نوعٍ منَ الشِّرك، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾،

و﴿شَيْـًٔا﴾ أيضًا هنا نكرةٌ في سياق النَّهي، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فدلَّت علىٰ عموم الأشياء، فصار -إذنْ- عندنا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ثَمَّ عمومان:

- **الأوَّل**: دلَّت الآية علىٰ النَّهي عن جميع أنواع الشِّرك؛ وذلك لأنَّ النَّهي تسلَّط علىٰ الفعل، والفعلُ فيه مصدرٌ مُسْتكِنٌّ، والمصدر نكرةٌ.
- **والثَّانية**: أنَّ مفعول (تُشْرِكُ)؛ ﴿شَيْـًٔا﴾، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةٌ، والنَّكرة جاءت في سياق النَّهي، وذلك يدلُّ علىٰ عموم الأشياء، يعني: لا الشِّركُ الأصغرُ مأذونٌ به، ولا الأكبرُ، ولا الخفيُّ، لدِلالة قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ﴾، وكذلك ليس مأذونًا أن يُشرك لا بمَلَكٍ، ولا بنبيٍّ، ولا بصالحٍ، ولا بعالمٍ، ولا بطالحٍ، ولا بقريبٍ، ولا ببعيدٍ، بدِلالة قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ وهٰذا استدلالٌ ظاهرُ الوضوح في الدِّلالة علىٰ التَّوحيد بالجمع بين النَّفي والإثبات.[1]

[الدَّليل الخامس] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ يعني: يا مَن حرَّم بعض الأنعام، وافترىٰ علىٰ الله في ذلك ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ قال العلماء: (أنْ) هنا تفسيريَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه وصَّاكم؛ لأنَّ (أنْ) التَّفسيريَّة تتعلَّق كما ذكرتُ لك بكلمةٍ فيها معنىٰ القول دون حروفِ القولِ وحدَّدوها بقوله: ﴿وَصَّىٰكُم﴾ لأنَّه في آخر الآي جاء: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في الآية الأولىٰ، ثمَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في الآية الثَّانية، ثمَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في الآية الثَّالثة كلُّها فيها الوصيَّة.

فإذن يكون تقدير الكلام: قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم وصَّاكم ألَّا تُشرِكوا به شيئًا. يعني: أمركم، والوصيَّة هنا شرعيَّةٌ، وإذا كانت الوصيَّة من الله شرعيَّةً، فهي أمرٌ واجبٌ، فقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ دلالتها علىٰ التَّوحيد كدلالة آية النِّساء قبلَها.

[الدَّليل السَّادس] ثمَّ ساق الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر ابن مسعودٍ قال: (قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ)، (الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ)، يعني الَّتي كانت من آخر ما وصَّىٰ به، من آخر ما أمر به، يعني الَّتي لو قُدِّر أنَّه وصَّىٰ وختَم علىٰ هٰذه الوَصيَّة، وفُتحتْ بعد وفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وانتقالِه إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ، لكانت هٰذهِ الآياتُ الَّتي فيها

(1) هنا ينتهي الوجه الأوَّل للشَّريط الأوَّل ويبدأ الوجه الثَّاني.

الوصايا العشرُ.

هٰذا من ابن مسعودٍ للدِّلالة علىٰ عِظم شأن هٰذه الآيات، الَّتي افتُتِحت بالنَّهي عن الشِّرك، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتدأ دعوته بالأمر بعبادة الله وحده والنَّهي علىٰ الشِّرك، واختتمها أيضًا -كما دلَّ عليه كلامُ ابنِ مسعودٍ هٰذا- بالأمر بالتَّوحيد، والنَّهي عن الشِّرك؛ فدلَّ علىٰ أنَّ ذلك أولىٰ المَطالب، وأوَّلُ المَطالب، وأهمُّ المَطالب.

[الدَّليل السَّابع] قال بعد ذلك: (وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا») هٰذا موطن الشَّاهد، «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» وهٰذا قد مرَّ بيانُ معناه؛ لكنَّ الشَّاهدَ من هٰذا الحديثِ، ومناسبةَ الابتداءِ؛ ابتداءُ كتاب التَّوحيد أنَّه أتىٰ فيه بلفظ (حَقٌّ)، «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟» ثمَّ قال: (قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»)، هٰذا الحقُّ؛ حقٌّ واجبٌ لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ الكتابَ والسُّنَّة؛ بل ولأنَّ المرسلين جميعًا أتوا بهٰذا الحقِّ وببيانه، وأنَّه أوجبُ الواجبات علىٰ العباد.

ثمَّ قال: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ» هٰذا حقٌّ أحقَّه الله علىٰ نفسِه، باتِّفاق أهل العلم، وبإيجابه علىٰ نفسه في بعض أقوالهم، كما قاله الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.

«حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ» هل هٰذا حقٌّ واجبٌ أم لا؟ نقول: نعم؛ هو حقٌّ واجبٌ، لكن بإيجاب الله ذلك الحقَّ علىٰ نفسِه، والله جَلَّ وَعَلَا يُحرِّم علىٰ نفسه ما يشاءُ، بما يُوافق حِكمته، ويوجب علىٰ نفسه ما يشاء بما يُوافق حِكمته.

«إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا»، حرَّم الله الظُّلم علىٰ نفسه، كذلك أَوجب علىٰ نفسه أشياء.

بعض أهل العلم تحاشىٰ لفظ الإيجاب علىٰ الله، وقال: يعبَّر بأنَّه حقٌّ يَتفضَّلُ به، حقُّ تفضُّلٍ لا حقُّ إيجابٍ. وهٰذا ليس بمُتَعَيِّنٍ؛ لأنَّ الحقَّ الواجبَ، أوجبَه الله علىٰ نفسه، والعبادُ لا يوجبون علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا شيئًا من الحقوق، وهو جَلَّ وَعَلَا أوجبه علىٰ نفسه؛ لأنَّه تفضَّلَ علىٰ عباده بذلك، والله جَلَّ جَلَالُهُ لا يُخلِف الميعادَ.

2- بَابٌ

فَضلُ التّوحيدِ ومَا يُكَفّرُ مِن الذّنُوب

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام].

[2] وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

[3] وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

[4] وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: [يَا رَبِّ](1) كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هٰذا؟ قَالَ: يَا مُوسَىٰ؛ لَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي - وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

[5] وَلِلتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَّنَهُ - عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، [إِنَّكَ] لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

هٰذا (بَابٌ فَضْلُ التّوحيدِ ومَا يُكَفّرُ مِنَ الذّنُوب)، التَّوحيد بأنواعه له فضلٌ عظيمٌ علىٰ أهله، ومن أعظم فضله أنَّه به تُكفَّرُ الذُّنوبُ، ولهٰذا قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في التَّبويب (بَابٌ فَضْلُ التّوحيدِ ومَا يُكَفّرُ مِنَ الذّنُوب)، (مَا يُكَفّرُ)، (مَا) هنا مَوصولةٌ؛ مَوصولٌ حرفيٌّ، يعني: تُقدَّر مع ما بعدها بمصدرٍ، يكون المعنىٰ: بابُ فضلِ التَّوحيد وتكفيرِه الذُّنوبَ، فالتَّوحيد يُكفِّر الذُّنوب جميعًا، لا يُكفِّر بعض الذُّنوب دون بعضٍ، فإنَّ التَّوحيدَ حسنةٌ عظيمةٌ، لا تُقابلها معصيةٌ إلَّا وأحرق نورُ تلك الحسنةِ أثَرَ تلك المعصية، إذا كَمُل ذلك النُّور.

(بَابٌ فَضْلُ التّوحيدِ ومَا يُكَفّرُ مِنَ الذّنُوب) يعني: وتكفيرِه الذُّنوبَ، فالتَّوحيد يعني من كمَّله؛ كمَّل توحيدَ الرُّبوبيَّة وتوحيدَ الإلهيَّة وتوحيدَ الأسماء والصِّفات، فإنَّه تُكفَّر ذُنوبُه -كما سيأتي في الباب بعدَه- أنَّه من حقَّق التَّوحيد دخل الجنَّة بغير حسابٍ، وكلَّما زادَ التَّوحيد كلَّما محا من الذُّنوب بمقدار

(1) غير موجودة في نسخة الشيخ صالح العصيمي.

عِظَمه، وكلَّما زاد التَّوحيد كلَّما أمِنَ العبدُ في الدُّنيا وفي الآخرة بمقدار عِظَمِه، وكلَّما زاد العبدُ في تحقيق التَّوحيد كلَّما كان مُتعرِّضًا لدخول الجنَّة علىٰ ما كان عليه من العمل؛ لهٰذا ساقَ الإمـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية الأنعام، فقال: (**بَابٌ فَضْلِ التَّوحيدِ ومَا يُكفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ**).

من أهل العلم من قال: إنَّ قولَه: (**ومَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ**)، (**مَا**) هنـا موصـولٌ اسـميٌّ؛ يعنـي: والَّـذي يُكفِّره من الذُّنوب، وهٰذا أيضًا سائغٌ ظاهرُ الصِّحَّة.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] (**وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]**)، الظُّلم هنا هو الشِّرك، كما جاء في «الصَّحيحين» من حديث ابن مسعودٍ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في هٰذه الآية حينما استعظمَ الصَّحابةُ هٰذه الآية وقالوا: يا رسول؛ أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلمٍ؟ فقال: «**لَيْسَ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، الظُّلْمُ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا لِقَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]»، فالظُّلمُ هنا في مراد الشَّيخ الشِّركُ، فيكون معنىٰ الآية بما يُناسب هٰذا الباب: الَّذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانهم بشركٍ، أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون. ففضْل الَّذي آمَنَ -يعني وَحَّد- ولم يَلبِس إيمانَه بشركٍ -لم يَلبِس توحيده بشركٍ- أنَّ له الأمن التَّامَّ والاهتداءُ التَّامَّ.

وجـهُ الدَّلالـة أنَّ قولَـه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، أنَّ قولَـه: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ هنـا: نكـرةٌ في سياق ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾، وهٰذا يدلُّ علىٰ عمومِ أنواع الظُّلم.

هل العموم هنا العموم المخصوص أو العموم الَّذي يُراد به الخُصوصُ؟ هنا يُراد العموم الَّذي يُراد به الخصوصُ؛ لأنَّنا قلنا -فيما سبق لك آنفًا-: إنَّ النَّكرة في سياق النَّفي أو النَّهي تدلُّ علىٰ العمومِ.

العموم عند الأصوليِّين:

- تارةً يكون باقيًا علىٰ عمومه، هٰذه حالةٌ.
- وتارةً يكون عمومًا مَخصوصًا، يعني: دخله التَّخصيصُ.
- وتارةً يكون عمومًا مُرادًا به الخُصوصُ، يعني: لفظُه عامٌّ؛ ولكنْ يُراد به الخصوصُ.

وهٰذا الثَّالث هو الَّذي أراد به الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه الاستدلال من الآية، فيكون **الظُّلمُ** هنـا -صـحيحٌ- نكرةٌ في سياق (**لم**) تدلُّ علىٰ العموم؛ لكنْ عمومٌ مُرادٌ به الخصوصُ، وهو خصوصُ أحد أنـواع الظُّلـم؛ وهو الشِّرك، فيصير العموم في أنواع الشِّرك، لا في أنواع الظُّلم كلِّها؛ لأنَّ من أنواع الظُّلم:

ما هو من جهة ظلمِ العبدِ نفسَه بالمعاصي.

ومن جهة ظلم العبدِ غيرَه بأنواع التَّعديَّات.

ومنه ما هو ظلمٌ من جهة حقِّ الله جَلَّوَعَلَا بالشِّرك.

فهٰذا هو المُراد بهٰذا العموم، فيكون **عمومًا** في أنواع الشِّرك.

وبهٰذا يحصل وجهُ الاستدلال من الآية، فيكون المعنىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾، يعني: توحيدَهم، بنوعٍ من أنواع الشِّرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ هنا هو الأمنُ التَّامُّ في الدُّنيا، المُراد به أمنُ القلب، وعدمُ حزنِه علىٰ غير الله جَلَّوَعَلَا، والاهتداءُ التَّامُّ في الدُّنيا والآخرة، وكلَّما صار ثَمَّ نقصٌ في التَّوحيد؛ بغشيان العبد بعضَ أنواع الظُّلم الَّذي هو الشِّرك؛ الشِّرك الأصغرُ أو الشِّرك الخفيُّ، وسائرُ الشِّرك، ونحوُ ذلك، فيذهب منه من الأمنِ والاهتداء بقدرِ ذلك، هٰذا من جهة تفسير الظُّلم بأنَّه الشِّركُ.

فإذا فسَّرتَ الظُّلم بأنَّه جميع أنواع الظُّلم، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة، فإنَّه يكون هناك مقابلةٌ بين الأمن والاهتداء، وبين حصول الظُّلم، فكُلَّما انتفىٰ الظُّلم، وُجِد الأمنُ والاهتداءُ، كلَّما كَمُل التَّوحيدُ وانتفت المعصيةُ، عظُم الأمنُ والاهتداءُ، وإذا زاد الظُّلم، قلَّ الأمن والاهتداء، بحسب ذلك.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»)، مناسبةُ هٰذا الحديث للباب قولُه: «عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» وقولُه: «عَلَىٰ مَا كَانَ» يعني: علىٰ الَّذي كان عليه من العملِ، ولو كان مقصِّرًا في العمل، وعنده ذُنوبٌ وعِصيانٌ، فإنَّ فضل توحيدِه لله وشهادتِه لله بالوَحدانيَّة، ولنبيِّه بالرِّسالة، ونفيِ إشراك المُشركين بعيسىٰ، وإقرارِه بالغيب وبالبعث، فإنَّ ذلك له فضلٌ عليه؛ وهو أن يُدخلَه اللهُ الجنَّةَ، ولو كان مُقصِّرًا في العمل، وهٰذا من فضل التَّوحيد علىٰ أهلِه.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ**»)، «حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ»، قولُه: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ)» المُراد بالقول هنا، الَّذي معه تمامُ الشُّروط، كقول النَّبيِّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**» يعني: إذا أتىٰ ببقيَّة الأركانِ والواجباتِ، قولُه هنا: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ)» يعني: باجتماع شروطِها، وبالإتيان بلازمِها، «يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ» ليُخرج حالَ المنافقين لأنَّهم حينَ قالوها لا يبتغون بذلك وجهَ الله فإنَّ الله حرَّم عليه النَّار.

وقولُه: «حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ» التَّحريم في نصوص الكتاب والسُّنَّة -تحريمُ النَّار- يأتي علىٰ درجتين: **الأولىٰ تحريمٌ مُؤبَّدٌ، والثَّانية تحريمٌ بعدَ أمدٍ:**

- **التَّحريم المُؤبَّد**: يقتضي أنَّ من حرَّم اللهُ عليه النَّار، فإنَّه إذا كان التَّحريمُ تحريمًا مُؤبَّدًا فإنَّه لن يدخلها، يغفرُ الله له، أو يكونُ من الَّذين يدخلون الجنَّة بلا حسابٍ ولا عذابٍ.
- **[التَّحريم بعد أمدٍ]**: إذا كان التَّحريم بعد أمدٍ، يعني ربَّما يدخلُها ثمَّ يَحْرُمُ عليه البقاء فيها.

وهٰذا الحديث يحتملُ الأوَّل، ويحتمل الثَّاني، «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)»، والَّذي أتىٰ بالتَّوحيد، وانتهىٰ عن ضدِّه، وكانت عنده بعض الذُّنوب والمعاصي، ومات من غير توبةٍ، فهو تحت المشيئة؛ إن شاء اللهُ عذَّبهُ، ثمَّ حرَّم عليه النَّار، وإن شاء اللهُ غَفرَ له، وحرَّم عليه النَّار ابتداءً.

فإذن وجهُ الشَّاهد من الحديث للباب، أنَّ هٰذه الكلمة وهي كلمة التَّوحيد، وسيأتي بيانُ معناها مُفصَّلًا إن شاء الله تعالىٰ، هٰذه الكلمةُ لمَّا ابتغىٰ بها صاحبُها وجهَ الله، وأتىٰ بشروطها، وبلوازمها، تفضَّل اللهُ عليه، وأعطاه ما يستحقُّه من أنَّه حرَّم عليه النَّار، وهٰذا فضلٌ عظيمٌ، نسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يجعلنا من أهله.

[الدَّليل الرَّابع] حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ بعد ذلك فيه («قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هٰذا؟») في هٰذا الحديث دِلالةٌ علىٰ أنَّ أهل الفضلِ والرِّفعةِ في الدِّين والإخلاصِ والتَّوحيدِ قد يُنبَّهون علىٰ شيءٍ من مسائل التَّوحيد، فهٰذا موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -وهو أحدُ أولي العزم من الرُّسُل-، وهو كليم الله جَلَّوَعَلَا، أراد شيئًا يختصُّ به غيرَ ما عند النَّاس، وأعظم ما يختصُّ به أولياءُ الله وأنبياؤُه ورسلُه وأولو العزمِ منهم، هو كلمةُ التَّوحيد: (لا إلٰه إلا الله)، فأراد شيئًا أخصَّ، فعُلِم أنَّه لا أخصَّ من كلمة التَّوحيد؛ فهي أفضل شيءٍ، وهي الَّتي دُلَّ عليها أُولو العزم من الرُّسلِ، ومَنْ دونهم من النَّاسِ.

«قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هٰذا؟ قَالَ: يَا مُوسَىٰ؛ لَوْ أَنَّ السَّمٰوَات السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي -» يعني: ومن في السَّمٰوات السَّبع؛ من الملائكة؛ ومن عُبَّادِ الله غيرَ الله جَلَّوَعَلَا، «وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ» يعني لو تمثَّلتِ السَّمٰواتُ أجسامًا، والأرض جسمًا، والجميعُ سيوضعُ في ميزانٍ لـه كِفَّتان، وجاءت (لا إله إلَّا الله) في الكفَّة الأخرىٰ؛ كما قال هنا: «وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ» لـ« مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ »، (لا إلٰه إلَّا الله) كلمة توحيدٍ فيها ثِقَلٌ لميزان من قالها، وعظمٌ في الفضل لمن اعتقدها، وما دلَّت عليه، فلهٰذا قال: «مَالَتْ بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)».

وجه الدِّلالة أنَّه لو تُصُوِّر أنَّ ذُنوب العبد بلغت ثِقلَ السَّمٰوات السَّبع، وثِقلَ ما فيها من العُبَّاد

والملائكة، وثِقلَ الأرض، لكانت (لا إلٰه إلَّا الله) مائلةً بذلك الثِّقلِ من الذُّنوب.

وهٰذا هو الَّذي دلَّ عليه حديث البطاقة؛ حيث جُعِلَ علىٰ أحد العُصاة سجلَّاتٌ عظيمةٌ، فقيل: له هل لك من عملٍ؟ فقال: لا، فقيل له: بلىٰ، ثمَّ أُخرجت له بطاقةٌ فيها (لا إله إلَّا الله) فوُضعت في الكفَّة الأخرىٰ فطاشت سجلَّاتُ الذُّنوب وثقُلتِ البطاقةُ.

وهٰذا الفضلُ العظيم لكلمة التَّوحيد إنَّما هو لمن قَويَت في قلبه؛ ذلك أنَّها في قلب بعض العباد تكون قويَّةً؛ لأنَّه مُخلصٌ فيها، مُصدِّقٌ، لا ريبَ عنده فيما دلَّت عليه، مُعتقدٌ ما فيها، مُحبٌّ لما دلَّت عليه، فيقوىٰ أثرُها في القلب ونورُها، وما كان كذلك فإنَّها تُحرِقُ ما يُقابلها من الذُّنوب، وأمَّا من لم يكن من أهل تمامِ الإخلاصِ فيها فإنَّه لا تطيشُ له سجلَّاتُ الذُّنوب.

فإذن يكون هٰذا الحديث، وحديث البطاقة، يدلُّ علىٰ أنَّ (لا إلٰه إلَّا الله) لا يُقابلها ذنبٌ، ولا تُقابلها خطيئةٌ؛ لكنْ هٰذا في حقِّ من كمَّلها وحقَّقها بحيث لم يُخالطها في قلبه في معناها ريبٌ ولا تَردُّدٌ؛ ومعناها مَشتمِلٌ علىٰ الرُّبوبيَّة بالتَّضمُّن، وعلىٰ الأسماء والصِّفات باللُّزوم، وعلىٰ الإلهيَّة بالمُطابقة.

فإذن يكون من يَكمُل له الانتفاع بهٰذه الكلمة، ولا يُقابلها ذنوبٌ وسجلَّاتٌ ولو كانت في ثِقل السَّمٰوَاتِ وما فيها والأرضِ، يكون ذلك في حقِّ من كمَّل ما دلَّت عليه من التَّوحيد، وهٰذا معنىٰ هٰذا الحديثِ وحديثِ البِطاقةِ.

[**الدَّليلُ الخامِس**] وهٰذا أيضًا هو الَّذي دلَّ عليه الحديثُ الآخِر في الباب (عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، [إِنَّكَ] لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»)، وهٰذا من فضل التَّوحيدِ وتكفيرِه الذُّنوبَ، ومُناسبة هٰذا الحديث للباب ظاهرةٌ، وهي أنَّه من أتىٰ بذنوبٍ عظيمةٍ ولو كانت كقُراب الأرض خطايا؛ يعني: كعِظَمِ وقدْر الأرض خطايا، ولكنَّه لقي الله لا يُشرك به شيئًا، لأتىٰ اللهُ لذلك العبد بمقدار تلك الخطايا مغفرةً، وهٰذا لأجل فضل التَّوحيد وعِظَم فضل الله جَلَّوَعَلَا علىٰ عباده لأنْ هداهم إليهِ ثمَّ أثابهم عليهِ.

هٰذا بعضُ ما تيسَّر، وأسأل الله جَلَّوَعَلَا لي ولكم التَّوفيقَ والرَّشَدَ والسَّدادَ.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ.



[الأسئلة]

[**سؤال (1)**: وهٰذا يقول: قولُه: «وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي» قد يستدلُّ به أهل البدع علىٰ أنَّ الله في كلِّ

مكانٍ، نرجو التَّوضيحَ بارك الله فيكم.

الجواب: في قوله جَلَّوَعَلَا في الحديث القُدسيِّ «يَا مُوسَىٰ؛ لَوْ أَنَّ السَّمٰوَات السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي»، «السَّمٰوَات السَّبْعَ» معروفةٌ طباقٌ بعضُها فوق بعضٍ، «وَعَامِرَهُنَّ» هي من العِمارة المعنويَّة يعني من عَمَرها بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ وذكرِ الله وعبادتِه، وقد جاء في الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ**» ففيها عُمَّارٌ كثيرون عَمَرُوها بعبادة الله جَلَّوَعَلَا، قد قال جَلَّوَعَلَا في أوَّل سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾، فالله جَلَّوَعَلَا هو المعبودُ سبحانه في السَّمٰوات وهو معبودٌ سبحانه في الأرض.

فقولُه هنا: «لَوْ أَنَّ السَّمٰوَات السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي» يعني: من يَعمُر السَّمٰوات، والله جَلَّوَعَلَا في هٰذا الاستثناء في قوله: «غَيْرِي» يعني: إلَّا أنا، هٰذا يحتمل أن يكون الاستثناءُ راجعًا إلىٰ الذَّات أو راجعًا إلىٰ الصِّفات، ومعلومٌ أنَّ الأدلَّة دلَّت علىٰ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا علىٰ عرشه مستوٍ عليه بائنٌ من خلقه جَلَّوَعَلَا، والسَّمٰوَاتُ من خلقِه.

فعُلم من ذلك أنَّ قوله: «وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي» راجعٌ إلىٰ عِمارة السَّماء بصفات الله جَلَّوَعَلَا وبما يستحقُّه سبحانه من التَّعلُّق والعُبوديَّة، وما فيها من علمِ الله ورحمتِه وقُدرتِه وتصريفِه للأمر وتدبيرِه ونحوِ ذلك من المعاني.][1]



(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الرَّابع من باب ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم.

الدَّرسُ الثَّاني

الحمْدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومن اهتدىٰ بهداه.

أمَّـا بعـد..

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

3- بَابٌ
مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾[النَّحل].

[2] وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾[المؤمنون].

[3] وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰن قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هٰذا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هٰذه أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

هٰذا الباب (بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وقد ذكر في الباب قبله (فَضْلُ التّوحيدِ ومَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ)، وهٰذا الباب أرفع رُتبةً من بيان فضل التَّوحيد، فإنَّ فضل التَّوحيد يشتركُ فيه أهلُه.

وأهلُ التَّوحيد هم أهلُ الإسلام، فلكلٍّ من التَّوحيد فضلٌ، ولكلِّ مسلمٍ نصيبٌ من التَّوحيد، وله

بالتَّالي نصيبٌ من فضل التَّوحيد، وتكفيرِ الذُّنوب.

أمَّا خاصَّة هٰذه الأمَّة فهمُ الَّذين حقَّقوا التَّوحيد، ولهٰذا عَطَفَ هٰذا الباب علىٰ ما قبله؛ لأنَّه أخصُّ (**بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**).

وتحقيقُ التَّوحيد هو مدارُ هٰذا الباب، تحقيقُه بمعنىٰ تحقيقِ الشَّهادتين: لا إلٰه إلَّا الله، محمَّدٌ رسول الله. **ومعنىٰ تحقيقِ الشَّهادتين تصفيةُ الدِّين -يعني: ما يَدينُ به المرءُ- من شوائب الشِّركِ والبِدعِ والمعاصي.**

فصار تحقيقُ التَّوحيد يرجع إلىٰ ثلاثةِ أشياء:

الأوَّل: تركُ الشِّركِ بأنواعه الأكبرِ والأصغرِ والخفيِّ.

والثَّاني: تركُ البدع بأنواعها.

والثَّالث: تركُ المعاصي بأنواعها.

وتحقيقُ التَّوحيد صار تصفيتُه من: أنواع الشِّرك، وأنواعِ البدعِ، وأنواعِ المعاصي.

وتحقيقُ التَّوحيد يكون علىٰ هٰذا علىٰ درجتين:

- درجةٌ واجبةٌ.
- ودرجةٌ مُستحبَّةٌ.

وعليها يكون الَّذين حقَّقوا التَّوحيد علىٰ درجتين أيضًا:

فالدَّرجة الواجبة: أنْ يترك ما يجبُ عليه تركُه من الثَّلاث الَّتي ذكرت؛ يتركُ الشِّركَ خفيَّه وجَليَّه صغيرَه وكبيرَه، ويتركُ البدعَ ويتركُ المعاصي، فهٰذه درجة واجبة.

والدَّرجة المُستحبَّة من تحقيق التَّوحيد: وهي الَّتي يتفاضَلُ فيها النَّاس من المُحقِّقين للتَّوحيد أعظمَ تفاضلٍ، ألَا وهي: ألَّا يكون في القلب شيءٌ من التَّوجُّه أو القصدِ لغير الله جَلَّوَعَلَا؛ يعني: أن يكون القلبُ مُتوجِّهًا إلىٰ الله بكُليَّته، ليس فيه التفاتٌ إلىٰ غير الله؛ نُطْقُه لله وفعلُه وعملُه لله؛ بل وحركةُ قلبه لله جَلَّجَلَالُهُ، وقد عبَّر عنها بعض أهل العلم -أعني هٰذه الدَّرجة المُستحبَّة-: أن يترك ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأسٌ، يعني: في مجال أعمالِ القلوب، وأعمالِ اللِّسان، وأعمالِ الجَوارح.

فإذن رجع تحقيقُ التَّوحيد -الَّذي هٰذا فضلُه؛ وهو أنْ يدخل أهلُه الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ-،

إلىٰ تَيْنِكَ المَرتبتين، وتحقيقُه تحقيقُ الشَّهادتين: لا إلٰه إلَّا الله، محمَّدٌ رسول الله؛[1] لأنَّ في قوله: (لا إله إلَّا الله) الإتيانُ بالتَّوحيد والبعدُ عن الشِّرك بأنواعه. ولأنَّ في قوله: (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله) البعدَ عن المعصية والبعدَ عن البدع؛ لأنَّ مُقتضىٰ الشَّهادة بأنَّ محمَّدًا رسولُ الله= أن يُطاع فيما أمر، وأن يُصدَّق فيما أخبر، وأن يُجتَنب ما عنه نهىٰ وزجر، وألَّا يُعبدَ اللهُ إلَّا بما شرع.

فمن أتىٰ شيئًا من المعاصي والذُّنوب ثمَّ لم يتُب منها أو لم تُكفَّر له فإنَّه لم يُحقِّقِ التَّوحيدَ الواجب، وإذا أتىٰ شيئًا من البدع فإنَّه لم يُحقِّق التَّوحيد الواجب، وإذا لم يأتِ شيئًا من البدع، ولكن حسَّنها بقلبه، أو قال لا شيء فيها، فإنَّ حركة القلب كانت في غير تحقيق التَّوحيد، في غير تحقيق شهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله فلا يكون من أهل تحقيق التَّوحيد.

كذلك أهل الشِّرك بأنواعه ليسوا من أهل تحقيق التَّوحيد.

وأمَّا مرتبة الخاصَّة الَّتي ذكرتُ، ففيها يتنافس المُتنافسون، وما ثَمَّ إلَّا عفوُ الله ومغفرتُه ورضوانه.

(**بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**) استدلَّ الشَّيخ في هٰذا الباب بآيتين وبحديثٍ.

[**الدَّليل الأوَّلُ**] أمَّا الآيةُ الأولىٰ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾[النَّحل]) هٰذه الآية فيها الدِّلالة علىٰ أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مُحقِّقًا للتَّوحيد؛ وجهُ الدِّلالة أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا وصفه بصفاتٍ:

الأولىٰ: أنَّه كان أُمَّةً، **والأُمَّة هو الإمام** الَّذي جمع جميع صفاتِ الكمال البشريِّ وصفاتِ الخير، وهٰذا يعني أنَّه لم ينقُصْ من صفات الخير شيئًا، وهٰذا هو معنىٰ تحقيق التَّوحيد.

والأُمَّة تُطلق في القرآن إطلاقاتٍ، ومن تلك الإطلاقات أن يكون معنىٰ الأُمَّة الإمام المُقتدىٰ به في الخير، وسُمِّي أمَّةً لأنَّه يقوم مقام أمَّةٍ في الاقتداء ولأنَّه يكون من سار علىٰ سيره غير مستوحشٍ ولا متردِّدٍ، لأنَّه ليس مع واحدٍ فقط وإنَّما هو مع أُمَّةٍ.

الوصف الثَّاني الَّذي فيه تحقيق التَّوحيد: أنَّه قال: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ وهاتان صفتان؛ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ صفةٌ، ﴿حَنِيفًا﴾ صفةٌ؛ ولكنَّ هٰذه وهٰذه متلازمتان؛ لأنَّ القُنوت لله معناه دوام الطَّاعة وملازمة الطَّاعة لله جَلَّ وَعَلَا، فهو ملازمٌ الطَّاعة لله جَلَّ وَعَلَا، ﴿حَنِيفًا﴾ هٰذا فيه النَّفي، ففي قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ الإثبات في لزوم الطَّاعة ولزوم أفراد التَّوحيد، وفي قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ النَّفي.

---

(1) انتهىٰ الشَّريط الأوَّل.

قال العلماء: الحنيف هو ذو الحَنَفِ، وهو الميل عن طريق المُشركين. مائلًا عن طريق المُشركين، مائلًا عن هدي وسبيل المُشركين.

فصار -إذن- عنده ديمومةٌ وقنوتٌ ومُلازمةٌ للطَّاعة وبُعْدٌ عن سبيل المُشركين، ومعلومٌ أنَّ سبيل المُشركين الَّذي صار إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حنيفًا عن ذلك السَّبيل -يعني مائلًا عن ذلك السَّبيل بعيدًا عنه-، معلومٌ أنَّه يشتمل علىٰ الشِّركِ والبدعة والمعصية، فهي ثلاثُ أخلاقِ المشركين؛ شركٌ وبدعةٌ ومعصيةٌ من غير إنابةٍ ولا استغفارٍ.

قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُ﴾، ﴿يَكُ﴾ هٰذه هي (يَكُنْ)، وفي النَّفي يجوز حذف النُّون -نون (يَكُنْ)- في مثل هٰذا ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وفي آيةٍ أخرىٰ [﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف].]، فهما جائزان في اللُّغة إذا جاءت (يَكُنْ) في سياق النَّفي كما هو مَعلومٌ.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ جمع تصحيحٍ للمُشرِك، والمُشرِك اسم فاعل الشِّرك، و(أل) -كما هو معلومٌ في العربيَّة- إذا جاءت قبل اسم الفاعل، أو اسم المفعول، فإنَّها تكون موصولةً كما قال ابن مالكٍ في «الألفيَّة»:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (أَلْ) وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الْأَفْعَالِ قَلْ

والاسم الموصول عند الأصوليِّين يدلُّ علىٰ العموم، فكان إذن المعنىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: ولم يكُ فاعلًا للشِّرك بأنواعه؛ لم يكُ منهم، ولم يكُ من الَّذين يفعلون الشِّرك بأنواعه.

وأيضًا دلَّ قولُه: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ علىٰ أنَّه ابتعد عنهم؛ لأنَّ (مِنْ) تحتمل أن تكون **تبعيضيَّةً**؛ فتكون المُباعدةُ بالأجسام، ويحتمل أن تكون **بيانيَّةً**؛ فتكون المُباعدةُ بمعنىٰ الشِّرك.

المقصود أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ استحضر هٰذه المعاني من الآية، فدلَّته الآية علىٰ أنَّها في تحقيق التَّوحيد، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ ذلك لأنَّ من جمع تلك الصِّفاتِ فقد حقَّق التَّوحيد، ومن حقَّق التَّوحيدَ دخل الجنَّة بغير حسابٍ.

في تفسير إمامِ الدَّعوة المُصنِّفِ الشَّيخِ مُحمَّد بن عبد الوهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ في تفسيره لآخر سورة النَّحل؛ فسَّر هٰذه الآية فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ إبراهيم ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالكُ الطَّريق من قلَّة السَّالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للمُلوك ولا للتُّجَّار المُترَفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كحال العلماء المَفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كثَّر سوادَهم وزعم أنَّه من المُسلمين.

وهو من التَّفاسير الرَّائقة، الفائقة، البعيدة المعاني، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥﴾[فصِّلت].

[الدَّليل الثَّاني] وقال بعد ذلك: (وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾) هٰذه من آياتٍ من سورة المؤمنون، فهي في مدح خاصَّةِ المؤمنين، ووجه الاستدلال من الآية علىٰ الباب أنَّه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾ نفيٌ للشِّرك، كما ذكرتُ لكم من قبلُ: أنَّ النَّفي إذا تسلَّط علىٰ الفعل المضارع فإنَّه يُفيد عموم المصدر الَّذي إستكنَّ في الفعل؛ يعني كأنَّه قال جَلَّوَعَلَا: والَّذين هم بربِّهم لا يفعلون شِركًا، أو لا يُشركون لا بشركٍ أكبرَ، ولا أصغرَ، ولا خفيٍّ.

والَّذي لا يُشرك هو المُوَحِّدُ، فصار عندنا لازمٌ وهو أنَّ من لم يُشركْ أيَّ نوعٍ من أنواع الشِّرك، فإنَّه ما ترك الشِّرك إلَّا لتوحيده.

قال العلماء: قدَّم هنا قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة تستلزم العبوديَّة. فصار عدمُ الإشراك في الرُّبوبيَّة معناه عدمُ الإشراك في الطَّاعة وعدمُ الإشراك في العُبوديَّة، وهٰذا وصفُ الَّذين حقَّقوا التَّوحيد؛ لأنَّه يلزم من عدم الإشراك ألَّا يُشرِك هواه، وإذا أشرك المرءُ هواه أتىٰ بالبدع أو أتىٰ بالمعصية، فصار نفيُ الشِّرك نفيًا للشِّرك بأنواعه، ونفيًا للبدعة، ونفيًا للمعصية، وهٰذا هو تحقيقُ التَّوحيد لله جَلَّوَعَلَا.

فإذن الآية دالَّةٌ علىٰ ما ترجم به الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ من قوله: (**بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**)، وأولئكَ قال فيهم الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] أمَّا الحديث فهو حديثٌ طويلٌ، وموضع الشَّاهد منه؛ قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («**فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هٰذه أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**») هٰذه في صفةُ الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، وهٰذه صفةٌ من صفاتهم، وتلك الصِّفة خاصَّةٌ بهم لا يلتبس أمرُهم بغيرهم؛ لأنَّ هٰذه الصِّفة كالشَّامة يُعرفون بها.

من همُ الَّذين حقَّقوا التَّوحيد؟ قال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، [وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]» فذكر أربع صفاتٍ:

- **الأولىٰ أنَّهم** «لَا يَسْتَرْقُونَ»: ومعنىٰ «لَا يَسْتَرْقُونَ» لا يطلبون الرُّقية، والطَّالب للرُّقية في قلبه ميلٌ للرَّاقي حتَّىٰ يرفعَ ما به من جهة السَّبب. وهٰذا النَّفي «لَا يَسْتَرْقُونَ»؛ لأنَّ النَّاس في شأن الرُّقية تتعلَّق قلوبُهم جدًّا أكثر من تعلُّقهم بالطِّبِّ ونحوِه، فالرُّقية عند العرب في الجاهليَّة -وهكذا حالُ أكثر النَّاس- لهم تعلُّقٌ بها، فالقلب يتعلَّقُ بالرَّاقي، ويتعلَّق بالرُّقية، وهٰذا يُنافي كمالَ التَّوكُّل علىٰ الله جَلَّجَلَالُهُ.

وأمَّا ما جاء في بعض الرِّوايات أنَّهم الَّذين «لَا يَرْقُونَ» فهٰذا غلطٌ؛ لأنَّ الرَّاقي مُحسِنٌ إلىٰ غيره، وهي لفظةٌ شاذَّةٌ، والصَّواب ما جاء في هٰذه الرِّواية من أنَّهم «الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ»، يعني: لا يطلبون الرُّقية؛ وذلك لأنَّ طالب الرُّقية يكون في قلبه ميلٌ إلىٰ هٰذا الَّذي رقاه وإلىٰ الرُّقية، ونَوْعُ تَوَكُّلٍ أو نوع استرواحٍ لهٰذا الَّذي يَرقي أو للرُّقية.

- قال: «وَلَا يَكْتَوُونَ»: **والكيُّ مكروهٌ في أصلِه**؛ لأنَّ فيه تعذيبًا بالنَّار، مع أنَّه مأذونٌ به شرعًا؛ لكنْ فيه كراهةٌ. والعرب تعتقدُ أنَّ الكَيَّ يُحدث المقصود دائمًا، فلهٰذا تتعلَّقُ قلوبُهم بالكَيِّ، فصار تعلُّق القلب بهٰذا الكَيِّ من جهة أنَّه سببٌ يؤثِّر دائمًا، ومعلومٌ أنَّ الكَيَّ يُؤثِّر بإذن الله جَلَّوَعَلَا إذا اجتمعت الأسباب وانتفت الموانع. فالنَّفي لأجل أنَّ في الكيِّ بخصوصه ما يتعلَّق النَّاس به من أجله.
- قال: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ»: والطِّيَرَة شيءٌ يَعرض علىٰ القلب من جرَّاء شيءٍ يحدث أمامه، إمَّا أن يجعلَه يُقدمُ علىٰ أمرٍ، أو أن يُحجمَ عنه، وهٰذه صفةُ من لم يكنِ التَّوكُّل في قلبه عظيمًا.
- قال بعدها: «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»: وهي جامعةٌ للصِّفات السَّابقة.

هٰذه الصِّفات لا يُعنىٰ بذكرها أنَّ الَّذين حقَّقوا التَّوحيد لا يُباشرون الأسباب، كما فهمه بعضُهم من أنَّ تحقيق التَّوحيد أو أنَّ الكمال ألَّا يُباشر سببًا الْبتَّة، أو ألَّا يتداوىٰ الْبتَّة، هٰذا غلطٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رُقِي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولأنَّه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ تَداوىٰ، وأمر بالتَّداوي، وأمر أيضًا بعضَ الصَّحابةِ بأنْ يكتوي ونحو ذلك، فليس فيه أنَّ أولئك لا يُباشرون الأسباب مُطلقًا، أو لا يُباشرون الدَّواء، إنَّما فيها ذكر هٰذه الثَّلاث بخصوصِها؛ لأنَّها يكثر تَعلُّق القلب والتفاتُه إلىٰ الرَّاقي أو إلىٰ الكَيِّ أو الكاوي أو إلىٰ التَّطيُّر، ففيها إنقاصٌ من التَّوكُّل.

أمَّا التَّداوي فهو مشروعٌ، إمَّا واجبٌ أو مُستحَبٌّ، وفي بعض الأحوال يكون مُباحًا، وقد قال النَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ وَلَا تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»، المقصودُ من هٰذا أنَّ التَّداوي فعلًا، يعني: أنْ يفعلَ

التَّداوي وأنْ يطلُب الدَّواء، ليس خارمًا لتحقيق التَّوحيد؛ ولكنَّ الَّذي هو من صفةِ أهل تحقيق التَّوحيد أنَّهم لا يسترقون -بخصوصِ الرُّقية-، ولا يكتوون -بخصوصِ الكَيِّ-، ولا يتطيَّرون، وأمَّا ما عدا ذلك ممَّا أُذِن به فلا يدخل فيما يختصُّ به أهل تحقيق التَّوحيد.

فإذن يكون الأظهر **عندي**؛ ممَّا في هٰذا الحديث أنَّه مخصوصٌ بهٰذه الثَّلاثة «لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ»، أمَّا الأسبابُ الأخرىٰ المَأذونُ بها فلا تدخلُ في صفةِ الَّذين حقَّقوا التَّوحيدَ.

قال: (فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ») هٰذا فيه دليلٌ علىٰ أنَّ أهل تحقيق التَّوحيد قليلٌ، وليسوا بكثيرٍ؛ ولهٰذا جاء عديدهم في هٰذا الحديث بأنَّهم سبعون ألفًا، قد جاء في بعض الرِّوايات عند الإمام أحمدَ وعند غيرِه، بأنَّ الله جَلَّوَعَلَا أعطىٰ النَّبيَّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع كلِّ ألفٍ من السَّبعين ألفًا أعطاه سبعين ألفًا، فيكون العددُ قَرابةَ خمسةِ ملايينَ من هٰذه الأمَّةِ، فإنْ كان ذلك الحديث صحيحًا -وقد صحَّح إسنادَه بعضُ أهل العلم- فإنَّه لا يكون للعدد في هٰذا الحديث مفهومٌ، أو كان قبل سؤال النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُزاد في عدد أولئك الَّذين حقَّقوا التَّوحيد.

ما معنىٰ أن يُزاد في عددهم؟ يعني أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يمنُّ علىٰ أناسٍ من هٰذه الأمَّة أكثر من السَّبعين ألفًا ممَّن سيأتون، فيوفِّقُهم لعمل تحقيق التَّوحيد، والله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يُوفِّقُ، وهو الَّذي يَهدي، ثمَّ هو الَّذي يُجازي فما أعظمه من مُحسنٍ، برٍّ، كريمٍ، رحيمٍ.



[الأسئلة]

[**سؤال** (2): من يوصي أحدًا بالبحث عن راقٍ يرقي له، دون أن يطلب الرُّقية من الرَّاقي بنفسه، هل هٰذا يدخل في الَّذين «يَسْتَرْقُونَ»؟

الجواب: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم، الحمد لله والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهُداه.

أمَّا بعد:

فإنَّ قول النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في وصف السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بلا حسابٍ ولا عذابٍ قال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ» يعني: لا يطلبون الرُّقية، وفَهْمُ جواب السُّؤال يتبعُ فهمَ التَّعليلِ؛ ذلك أنَّ أولئك كانوا لا يسترقون: يعني لا يطلبون الرُّقية لأجل ما قام في قلوبِهم من الاستغناء بالله وعدمِ الحاجة

إلىٰ الخلقِ، ولم تتعلَّق قلوبُهم بالخلق في هٰذا الأمر الَّذي سيَرفعُ ما بهم.

وكما ذكرتُ لك أنَّ مدار العلَّة علىٰ تعلُّق القلب بالرَّاقي أو بالرُّقية في رفع ما بالمَرقيِّ من أذًىٰ أو في دفع ما قد يُتوقَّعُ من السُّوء.

وعليه فيكونُ الحالان سواءً؛ يعني: إن كان طلبَ بنفسه أو طلب بغيره فإنَّه طالبٌ، والقلبُ مُتعلِّقٌ بمن طَلب منه الرُّقية إمَّا بالأصالة أو بواسطةٍ.][1]

(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الرَّابع من باب ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم.

4- بَابٌ
الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النِّساء:48].

[2] وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾[إبراهيم].

[3] وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ».

[4] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو [مِنْ دُونِ ا](1)للهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[5] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

الباب الثَّالث الَّذي بعد (بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ) هو: (بَابٌ الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ)، وكلُّ من حقَّق التَّوحيد، فلا بدَّ أن يخاف من الشِّرك، ولهٰذا سيِّدُ المُحقِّقين للتَّوحيد محمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يُكثِرُ منَ الدُّعاء بأن يُبعَد عنه الشِّرك، وكذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من دُعائه بألَّا يُدركه الشِّرك أو عبادةُ الأصنام.

فمُناسبة هٰذا الباب لما قبله ظاهرةٌ؛ من أنَّ تحقيق التَّوحيد عند أهله معه الخوفُ من الشِّرك، وقلَّ من يكون مُخاطرًا بتوحيده، أو غير خائفٍ منَ الشِّرك ويكون علىٰ مراتب الكمال؛ بل لا يوجدُ، فكلُّ مُحقِّقٍ للتَّوحيد، كلُّ راغبٍ فيه، حريصٍ عليه، يخافُ من الشِّرك، وإذا خافَ من الشِّرك فإنَّ الخوف -وهو فزعُ القلب، وهلعُه، وهربُه، من ذلك الشَّيء- فإنَّ هٰذا الَّذي يخافُ من الشِّرك سيسعىٰ في البُعد عنه.

والخوف من الشِّرك يُثمرُ ثمراتٍ:

- منها أن يكون مُتعلِّمًا للشِّرك بأنواعه، حتَّىٰ لا يقع فيه.
- ومنها أن يكون مُتعلِّمًا للتَّوحيد بأنواعه، حتَّىٰ يقومَ في قلبه الخوفُ من الشِّرك، ويَعْظُم، ويستمرَّ علىٰ ذلك.
- ومنها أنَّ الخائفَ من الشِّرك يكون قلبُه دائمًا مُستقيمًا علىٰ طاعة الله، مُبتغِيًا مرضاةَ الله، فإنْ عصىٰ، أو غفل، كان استغفارُه استغفارَ من يَعلمُ عِظَمَ شأنِ الاستغفار، وعِظَمَ حاجتِه للاستغفار؛ لأنَّ

---

(1) غير موجودة في نسخة الشيخ صالح العصيمي.

الَّذين يستغفرون أنواعٌ، لكنْ من عَلم حقَّ الله جَلَّوَعَلَا، وسعىٰ في توحيده، وتعلَّم ذلك، وسعىٰ في الهرب من الشِّرك، فإنَّه إذا غفَل وجدَ أنَّه أشدُّ ما يكون حاجةً إلىٰ الاستغفار.

لهٰذا؛ لصلاح القلب بوَّب الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا الباب (**بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**)، وكأنَّه قال لك: إذا كنتَ تخافُ من الشِّرك كما خاف منه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكما توعَّد الله أهل الشِّرك بأنَّه لا يغفرُ شركَهم، فإذن تعلَّم ما سيأتي في هٰذا الكتاب، فإنَّ هٰذا الكتاب إنَّما هو لأجل الخوف من الشِّرك، ولأجل تحقيق التَّوحيد.

فهٰذا الكتابُ موضوعٌ لتحقيقِ التَّوحيد، وللخوف من الشِّرك والبعدِ عنه، فما بعد هذين البابين؛ (**بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ**)، و(**بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**)، ما بعدَ ذلك تفصيلٌ لهاتين المسألتين العظيمتين؛ تحقيقِ التَّوحيد، والخوفِ من الشِّرك ببيانِ معناهُ وبيانِ أنواعِه.

ذكرتُ لك -فيما سبق- أنَّ الشِّركَ هو إشراكُ غير الله معه في نوعٍ من أنواع العبادة، وقد يكون أكبرَ، وقد يكون أصغرَ، وقد يكون خفيًّا.

[**الدَّليلُ الأوَّل**] قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾) هٰذه الآية من سورة النِّساء فيها قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

والمَغفرَة: هي السَّتر لما يُخاف وُقوعُ أثرِه.

وفي اللُّغة: يُقال غَفَرَ إذا سَتَرَ، ومنه سُمِّي ما يوضع علىٰ الرَّأس: مِغْفَرَةً؛ لأنَّه يستر الرَّأس ويقيه الأثر المكروهَ من وقع السَّيف ونحوه علىٰ الرَّأس.

فمادَّة (المَغفرَة) راجعةٌ إلىٰ سَتر الأثر الَّذي يُخاف منه، والشِّرك أو المعصية لها أثرُها إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخرة، أو فيهما جميعًا.

وأعظم ما يُمَنُّ به علىٰ العبد أن يُغفر ذنبُه، وذلك بأنْ يُستَر عليه، وأنْ يُمحىٰ أثرُه، فلا يُؤاخذُ به في الدُّنيا، ولا يؤاخذُ به في الآخرة، ولولا المغفرةُ لهلك النَّاسُ.

قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ يعني أبدًا، ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ يعني: أنَّه بوعدِه هٰذا لم يجعل مغفرَته لمن أشرك به.

قال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾:

♦ **قال العلماء**: في هٰذه الآية دليلٌ علىٰ أنَّ المغفرة لا تكون لمن أشرك شركًا أكبرَ أو أشرك شركًا أصغرَ، فإنَّ الشِّرك لا يدخلُ تحت المغفرة؛ بل يكون بالمُوازنة، ما يُغفر إلَّا بالتَّوبة؛ فمن مات علىٰ ذلك

غيرَ تائبٍ فهو غيرُ مغفورٍ له ما فعله من الشِّرك، قد يُغفر غيرُ الشِّرك كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فجعلوا الآية دليلًا علىٰ أنَّ الشِّرك الأكبرَ والأصغرَ لا يدخلُ تحت المشيئة.

وجه الاستدلال من الآية أنَّ قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ هٰذه ﴿أَن﴾ موصولٌ حرفيٌّ مع ﴿يُشْرَكَ﴾ فِعلٌ، وتُقَدَّر ﴿أَن﴾ المَصدريَّة مع ما بعدها من الفعل -كما هو معلومٌ- بمصدرٍ؛ والمصدرُ نكرةٌ وقع في سياق النَّفي، وإذا وقعت النَّكرة في سياق النَّفي عمَّت، قالوا: فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الشِّرك هنا الَّذي نُفيَ الأكبرُ والأصغرُ وأيضًا الخفيُّ، كلُّ أنواع الشِّرك لا يغفرُها الله جَلَّوَعَلَا؛ لعِظم خطيئة الشِّرك؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي خلق، وهو الَّذي رزق، وهو الَّذي أعطىٰ، وهو الَّذي تفضَّل، فكيف يتوجَّه القلبُ عنه إلىٰ غيره؟ لا شكَّ أنَّ هٰذا ظلمٌ وهو ظلمٌ في حقِّ الله جَلَّوَعَلَا، ولذلك لم يُغفرْ.

وهٰذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ وأكثرِ علماء الدَّعوة.

♦ قال آخرون من أهل العلم: إنَّ قوله هنا: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ دالَّةٌ علىٰ العموم، ولكنْ هٰذا عمومٌ مخصوصٌ؛ هٰذا عمومٌ مُرادٌ به خصوصُ الشِّرك الأكبرِ ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ يعني: الشِّركَ الأكبرَ فقط دونَ غيرِه، وأمَّا ما دون الشِّرك الأكبرِ فإنَّه يكون داخلًا تحت المشيئة، فيكون العموم في الآية مُرادًا به الخصوصُ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ القرآن فيه هٰذا اللَّفظ ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ونحوُ ذلك، ويُراد به الشِّرك الأكبرُ دون الأصغرِ غالبًا، فالشِّركُ غالبًا ما يُطلق في القرآن علىٰ الأكبرِ دون الأصغرِ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[المائدة]، ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ هنا ﴿يُشْرِكْ﴾ أيضًا فعلٌ داخلٌ في سياق الشَّرط فيكون عامًّا. فهل يدخل الشِّرك الأصغرُ والخفيُّ فيه؟ بالإجماع لا يدخلُ؛ لأنَّ تحريم الجنَّة وإدخال النَّار والتَّخليد فيها إنَّما هو لأهل الموت علىٰ الشِّرك الأكبرِ، فدلَّنا ذلك علىٰ أنَّ المُراد بقوله: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أنَّهم أهلُ الإشراك الشِّرك الأكبر، فلم يدخل الأصغرُ، ولم يدخل ما دونه أو أنواع الأصغرِ، فيكون إذن فهم آية النِّساء علىٰ فهم آية المائدة ونحوِها، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[الحجُّ] في الشِّرك الأكبرِ، ونحوِ ذلك.

فيكون -إذنْ- علىٰ هٰذا القول، المُراد بما نُفيَ هنا أن يُغفر الشِّرك الأكبرُ.

ولمَّا كان اختيار إمام الدَّعوة كاختيار عددٍ من المُحقِّقين؛ كشيخ الإسلام وابن القيِّم وكغيرِهما: أنَّ

العموم هنا للأكبرِ والأصغرِ والخفيِّ؛ بأنواع الشِّركِ. قام الاستدلالُ بهٰذه الآية صحيحًا؛ لأنَّ الشِّرك أنواعٌ، وإذا كان الشِّرك بأنواعه لا يُغفر فهٰذا يوجب الخوف منه أعظم الخوف؛ إذا كان الرِّياء لا يُغفر، إذا كان الشِّركُ الأصغر؛ الحَلِف بغير الله، أو تعليقُ التَّميمة أو حلقةٍ أو خيطٍ، أو نحوِ ذلك من أنواع الشِّرك الأصغرِ؛ ما شاء اللهُ وشئتَ، نسبةُ النِّعم إلىٰ غيرِ الله، إذا كان لا يُغفرُ؛ فإنَّه يُوجبُ أعظم الخوف منه، كذلك الشِّرك الأكبرُ.

وإذا كان كذلك، فيجتمع -إذنْ- في الخوف من الشِّرك مَن همْ علىٰ غيرِ التَّوحيد؛ يعني من يعبُدون غير الله، ويستغيثون بغيرِ الله، ويتوجَّهون إلىٰ غيرِ الله، ويذبحون لغير الله، وينذُرون لغيرِ الله، ويحبُّون محبَّة العبادة لغيرِ الله، ويَرجون غير الله رجاءَ العبادة، ويخافون خوف السِّرِّ من غيرِ الله، إلىٰ غير ذلك، يكون هؤلاء أوْلىٰ بالخوف من الشِّرك؛ لأنَّهم وقعوا فيما هو متَّفقٌ عليه في أنَّه لا يُغفرُ.

كذلك يقع في الخوف، ويكون الخوف أعظمَ ما يكون في أهل الإسلام الَّذين قد يُشركون بعض أنواع الشِّرك من الشِّرك الخفيِّ والشِّرك الأصغرِ بأنواعه وهم لا يشعُرون أو وَهُمْ لا يَحذرون.

فيكون الخوف إذا علِم العبد المسلم أنَّ الشِّرك بأنواعه لا يُغفر وأنَّه مؤاخذٌ به؛ فليستِ الصَّلاة إلىٰ الصَّلاة يُغفر بها الشِّرك الأصغرُ، وليس رمضانُ إلىٰ رمضانَ يُغفر به الشِّرك الأصغرُ، وليستِ الجمعةُ إلىٰ الجمعةِ يُغفر بها الشِّرك الأصغرُ.

فإذن يُغفر بماذا؟ يُغفر بالتَّوبة فقطْ، فإن لم يتُبْ فإنَّه ثمَّ الموازنة بين الحسنات وبين السَّيِّئات، وما ظنُّكم بسيِّئةٍ فيها التَّشريك بالله مع حسناتٍ، من ينجو من ذلك؟ ليس ثَمَّ إلَّا من عظُمتْ حسناته فزادت علىٰ سيِّئةٍ ما وقع فيه من أنواع الشِّرك، ولا شكَّ أنَّ هٰذا يوجب الخوف الشَّديد؛ لأنَّ المرء علىٰ خطرٍ في أنَّه تُوزنُ حسناتُه وسيِّئاتُه، ثمَّ يكون في سيِّئاته أنواعُ الشِّرك، وهي -كما هو معلومٌ عندكم- أنَّ الشِّرك بأنواعه من حيثُ الجنسُ أعظمُ من الكبائرِ؛ كبائرِ الأعمال المَعروفةِ.

إذن وجه الاستدلال من آية النِّساء أنَّ قولَه جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أنَّ فيها عمومًا يشمل أنواع الشِّرك جميعًا، وهٰذه لا تُغفرُ، فيكون ذلك موجِبًا للخوف من الشِّرك، وإذا وقع وحصل الشِّرك في القلب، فإنَّ العبد يطلب معرفةَ أنواعه حتَّىٰ لا يُشرك، ومعرفةَ أصنافه وأفراده حتَّىٰ لا يقع فيها، وحتَّىٰ يُحذِّر أحبابَه ومن حولَه منها.

لذلك كان أحبَّ الخلقِ أو أحبَّ النَّاسِ وخيرَ النَّاسِ للنَّاسِ من يُحذِّرهم من هٰذا الأمر، ولو لم يشعُرُوا ولو لم يعقلوا، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:110]؛ لأنَّهم يدلُّون الخلقَ

علىٰ ما يُنجيهم، فالَّذي يُحبُّ للخلق النَّجاة هو الَّذي يُحذِّرهم من الشِّرك بأنواعه، ويدعوهم إلىٰ التَّوحيد بأنواعه؛ لأنَّ هٰذا أعظمُ ما يُدعىٰ إليه.

ولهٰذا لمَّا حصل من بعض القُرىٰ في زمن إمام الدَّعوة تردُّدٌ، وشكٌّ، ورجوعٌ عن مُناصرة الدَّعوة، وفهموا ما جاء به الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتبوا للشَّيخ، وغلَّظوا، وقالوا: إنَّ ما جئت به ليس بصحيحٍ وأنَّك تُريد كذا وكذا، قال في آخرها بعد أن شرح التَّوحيد وضدَّه ورغَّب ورهَّب، قال في آخرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ولو كنتم تَعقلون حقيقةَ ما دعوتُكم إليه لكنتُ أغلىٰ عندكم من آبائِكم وأمَّهاتِكم وأبنائِكم ولكنَّكم قومٌ لا تَعقلون.**

وهٰذا صحيحٌ، ولكنْ لا يعقله إلَّا من عرف حقَّ الله جَلَّوَعَلَا، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وأجزىٰ له المَثوبة وجزاه عنَّا وعن المُسلمين خير الجزاء ورفع درجته في المهديِّين والنَّبيِّين والصَّالحين.

[الدَّليل الثَّاني] ثمَّ ساق الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هٰذه الآية قولَ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ الَّذي دعا بهٰذه الدَّعوة هو إبراهيمُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ، ومرَّ معنا في الباب قبلَه أنَّ إبراهيم قد حقَّق التَّوحيد، وقد وصفه الله بأنَّه كان أمَّةً، قانتًا لله، حنيفًا، وبأنَّه لم يكُ من المُشركين، فمن كان علىٰ هٰذه الحالِ، هل يطمئنُّ من أنَّه لن يعبدَ غيرَ الله؟ ولن يعبدَ الأصنامَ؟ أم يظلُّ علىٰ خوفِه؟ حال الكُمَّل الَّذين حقَّقوا التَّوحيد هل هم يطمئنُّون أم يخافون؟

هٰذا إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ -كما هو في هٰذه الآية- خاف الشِّركَ، وخاف عبادَة الأصنام، فدعا الله بقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾[إبراهيم]، فكيف بمن دون إبراهيمَ ممَّن ليس من السَّبعين ألفًا وهم عامَّةُ هٰذه الأمَّةِ؟ والواقع أنَّ عامَّة الأمَّة لا يخافون من الشِّرك، فمن الَّذي يخافُ؟ هو الَّذي يَسعىٰ في تحقيق التَّوحيد.

قال إبراهيم التَّيميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -من سادات التَّابعين- لمَّا تلا هٰذه الآية قال: **ومن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيمَ**. إذا كان إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ هو الَّذي حقَّق التَّوحيد، وهو الَّذي وُصف بما وُصف به، وهو الَّذي كسَرَ الأصنام بيده، ويخاف؟ فمن يأمنُ البلاء بعدَه؟

إذن ما ثمَّ إلَّا غرورُ أهلِ الغرور، وهٰذا يوجب الخوف الشَّديد؛ لأنَّه ما أُعطي إبراهيم الضَّمانَ علىٰ ألَّا يُشرِك، وعلىٰ ألَّا يَزيغ قلبه، مع أنَّه سيِّد المُحقِّقين للتَّوحيد في زمانِه؛ بل وبعد زمانِه إلىٰ نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو سيِّدُ ولدِ آدمَ، ومع ذلك خافَ.

قوله هنا: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾، ﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ جمع صنمٍ.

والصَّنم: هو ما كان علىٰ صورةٍ ممَّا يُعبد من دون الله، يُصوِّر صورةً علىٰ شكلِ وجهِ رجلٍ، أو علىٰ شكلِ جسمِ حيوانٍ أو رأسِ حيوانٍ، أو علىٰ شكلِ صورةِ كوكبٍ أو نجمٍ، أو علىٰ شكل الشَّمس والقمر ونحوِ ذلك، فإذا صوَّر صورةً فتلك الصُّورة يُقال لها: صنمٌ.

والوثن: هو ما عُبد من دون الله ممَّا هو ليس علىٰ شكل صورةٍ؛ فالقبر وثنٌ وليس بصنمٍ، ومَشاهد القُبور عند عُبَّادها هٰذه أوثانٌ وليست بأصنامٍ.

وقد يُطلق علىٰ الصَّنم أنَّه وثنٌ كما قال جَلَّوَعَلَا في قصَّة إبراهيم في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت:17]، قد يُطلق علىٰ قلَّةٍ، وقال بعض أهل العلم: هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعًا، فصار في بعض الآيات ذكرُ الأصنام لعبادَتِهم الأصنامَ، وفي بعض الآيات ذكرُ الأوثان لعبادَتِهم الأوثانَ، والأوَّل أظهرُ؛ لأنَّه قد يُطلق علىٰ الصَّنم أنَّه وثنٌ، ولهٰذا قال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» فدعا الله ألَّا يجعل قبرَه وثنًا، فصار الوثن ما يُعبَد من دون الله، ممَّا ليس علىٰ هيئةِ صورةٍ.

[**الدَّليلُ الثَّالثُ**] قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ».**) الرِّياء قسمان: رياء المُسلم ورياء المُنافق.

رياءُ المُنافق: رياءٌ في أصل الدِّين، يعني رَاءَىٰ بإظهار الإسلام وأبْطَنَ الكفر، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾[النِّساء].

ورياءُ المُسلم المُوحِّد: أن يُحَسِّنَ صلاته من أجل نظر الرَّجل، أو أن يُحَسِّنَ تلاوتَه لأجل التَّسميع؛ أن يُمدح ويُسمَّع لا لأجل التَّأثير. فالرِّياء مُشتَقٌّ من الرُّؤية، فما كان من جهة الرُّؤية، يعني: أن يُحسِّن عبادةً لأجل أن يُرَىٰ من المُتعبِّدين، يُطيل في صلاته، يُطيل في ركوعه في سجوده، يقرأ في صلاته أكثر من العادةِ من أجل أن يُرَىٰ ذلك منه، يقوم اللَّيل لأجل أن يقول النَّاس عنه أنَّه يقوم اللَّيل، هٰذا شركٌ أصغرُ.

والشِّرك الأصغرُ هٰذا الَّذي هو الرِّياء: قد يكون مُحبِطًا لأصل العمل الَّذي تعبَّد به، وقد يكون مُحبِطًا للزِّيادة الَّتي زادها:

- فيكون مُحبِطًا لأصل العمل الَّذي تعبَّد به إذا ابتدأ النِّيَّةَ بالرِّياء؛ يعني فيما لو صلَّىٰ دخل الصَّلاة لأجل أن يُرىٰ أنَّه يُصلِّي، ليس عنده رغبةٌ في أن يصلِّيَ الرَّاتبة، لكن لمَّا رأىٰ أنَّه يُرىٰ ولأجل أن يُمدح بما يراه النَّاس منه صلَّىٰ، فهٰذا عمله يعني تلك الصَّلاة حابِطةٌ ليس له فيها ثوابٌ.
- وإن جاء الرِّياء في أثناء العبادة، فإنَّ ما زاده لأجل الرُّؤية يبطل كما قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**قَالَ اللهُ**

تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

الشَّاهد من الحديث قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» هو أخوف الذُّنوب الَّتي خافها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ أهل التَّوحيد؛ لأنَّهم ما داموا أهل توحيدٍ فإنَّهم ليسوا من أهل الشِّرك الأكبر، فبقي ما يُخاف عليهم الشِّركُ الأصغرُ، والشِّرك الأصغرُ تارةً يكون في النِّيَّات، وتارةً يكون في الأقوال، وتارةً يكون في الأعمال، يعني في القلب يكون الشِّرك الأصغر وفي المقال وفي الفِعال أيضًا، وسيأتي في هٰذا الكتاب بيان أصنافٍ من كلِّ واحدةٍ من هٰذه الثَّلاث.

إذن النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» فهو أخوف الذُّنوب علىٰ هٰذه الأمَّة، لماذا خافَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكان أعظم الذُّنوب خوفًا؟ لأجل أثرِه وهو أنَّه لا يُغفَر، ولأجل أنَّ النَّاس قد يَغفلون عنه، فلهٰذا خافه عليهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والشَّيطانُ حِرْصه علىٰ أهل التَّوحيد أنْ يُدخل فيهمُ الشِّرك الأصغر من جهة الرِّياء، ومن جهة الأقوال والأعمال والنِّيَّات، أعظم من فرحه بغير ذلك من الذُّنوب.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] بعد ذلك ساق حديث ابن مسعودٍ قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو [مِنْ دُونِ ا]للهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ».) وجه الاستدلال منه أنَّه قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو [مِنْ دُونِ ا]للهِ نِدًّا» ودعوة النِّدِّ من دون الله من الشِّرك الأكبر؛ لأنَّ الدُّعاء عبادةٌ، وهو أعظم عبادة، فقد جاء في الحديث الصَّحيح «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» وفي معناه حديث أنسٍ الَّذي في السُّنن «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» فهو أعظم أنواع العبادة، فمن مات وهو يَصرفُ هٰذه العبادة أو شيئًا منها لغير الله -ندٍّ من الأنداد- فقد استوجب النَّار.

وقوله: «دَخَلَ النَّارَ» يعني كحال الكُفَّار خالدًا فيها؛ لأنَّ الشِّرك الأكبر إذا وقع من المُسلم فإنَّه ولو كان أصلح الصَّالحين يُحبِط العمل، قد قال جَلَّ وَعَلَا لنبيِّه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الزُّمر]، فلو أشرك النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -فإنَّ الله عظيمٌ والله أكبرُ وخلقه هم المحتاجون إليه العبيد له سبحانه- فلو أشرك النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لحبِط عملُه ولكان في الآخرة من الخاسرين، أفلا يوجب هٰذا أن يخاف ممن هو دونه ممَّن يدَّعي الصَّلاح والعلم من الشِّرك؟ بل قد شاع في هٰذه الأمَّة أنَّ بعض المُنتسِبين إلىٰ العلم يدعو إلىٰ الشِّرك ويحضُّ عليه ويُبغِّض ويُكرِّه في التَّوحيد، وهٰذا كما قال الله جَلَّ وَعَلَا عن أسلافهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الزُّمر].

فإذن وجه الاستدلال ظاهرٌ، «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو [مِنْ دُونِ ا]للهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ»، وذلك يوجب الخوف لأنَّ قصدَ المُسلم؛ بل قصدَ العاقل أن يكون ناجيًا من النَّار ومُتعرِّضًا لثواب الله بالجنَّة.

لفظ «مِنْ دُونِ اللهِ» يكثر في القرآن والسُّنَّة، و«مِنْ دُونِ اللهِ» عند علماء التَّفسير وعلماء التَّحقيق يُراد بها شيئان:

الأوَّل: أن تكون بمعنىٰ (مَعَ)، «مِنْ دُونِ اللهِ» يعني: مع الله، وعبَّر عن المَعيَّة بلفظ «مِنْ دُونِ اللهِ» لأنَّ كلَّ من دُعِيَ مع الله فهو دون الله جَلَّوَعَلَا، فهم دونَه، والله جَلَّوَعَلَا هو الأكبرُ هو العظيمُ، وفي هٰذا دليلٌ علىٰ بشاعة عملِه.

والثَّاني: أنَّ قوله: «مِنْ دُونِ اللهِ» يعني غير الله؛ «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو [مِنْ دُونِ] اللهِ» يعني وهو يدعو إلـهًا غير الله، فتكون «مِنْ دُونِ اللهِ» يعني أنَّه لم يعبد الله وأشرك معه غيرَه؛ بل دعا غيرَه استقلالًا، فشملت من دون الله الحالين: من دعا الله ودعا غيرَه، ومن دعا غيرَ الله وتوجَّه إليه استقلالًا.

قال: (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

[**الدَّليلُ الخامس**] (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»). «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ذكرتُ لكم بالأمس أنَّ قوله: «لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» هٰذا فيه نوعان من العموم:

- عمومٌ في أنواع الشِّرك، فهي منفيَّةٌ.
- وعمومٌ في المُتوجَّه إليهم في المُشرَك بهم في قوله: (شَيْئًا).

«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ» يعني بأيِّ أنواعٍ من الشِّرك.

«بِهِ شَيْئًا» يعني لم يتوجَّه إلىٰ أيِّ أحدٍ، لا لملكٍ ولا لنبيٍّ ولا لصالحٍ ولا لجِنِّيٍّ ولا لطالحٍ ولا لحجرٍ ولا لشجرٍ إلىٰ غيرِ ذلك.

«دَخَلَ الْجَنَّةَ» يعني أنَّ الله جَلَّوَعَلَا وعده بدخول الجنَّة برحمته سُبحانه وتفضُّله وبوعدِه الصَّادق الَّذي لا يُخلَف.

قال: «وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» فكلُّ مشركٍ متوعَّدٌ بالنَّار؛ بل وجهُ الدِّلالة كما يستقيم مع استدلال الشَّيخ بالآية بأنَّ من لقيَ الله وهو علىٰ شيءٍ من الشِّرك الأكبرِ أو الأصغرِ أو الخفيِّ فإنَّه سينال العقوبةَ والعذابَ في النَّار والعياذُ بالله.

قال: «وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» هٰذه فيها عمومٌ أيضًا كما ذكرنا؛ لأنَّ «مَنْ» شرطيَّةٌ و«يُشْرِكُ» فيها نكرةٌ وهي عامَّةٌ لأنواع الشِّرك و«شَيْئًا» عامَّةٌ في المُتوجَّه إليه.

«مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» وهنا دخولُ النَّار هل هو أبديٌّ أم أمديٌّ؟ بحسب الشِّرك:

- فإن كان الشِّركُ أكبرَ ومات عليه؛ فإنَّه يدخل النَّار دخولًا أبديًّا.
- وإن كان الشِّركُ ما دون الشِّرك الأكبرِ أصغرُ أو خفيٌّ؛ فإنَّه مُتوعَّدٌ بالنَّار وسيدخل النَّار ويخرج منها لأنَّه من أهل التَّوحيد.

هل يدخل الشِّركُ الأصغر في الموازنة أم لا؟ ذكرتُ لك في أوَّل الدَّرس أنَّ الشِّرك الأصغر يدخل في الموازنة؛ موازنة الحسنات والسَّيِّئات، وأنَّه إذا رَجَحت حسناته أنَّه لا يُعذَّب علىٰ الشِّرك الأصغر؛ لكنْ هٰذا ليس في كلِّ الخلق؛ لكنْ منهم من يُعذَّب علىٰ الشِّرك الأصغر؛ لأنَّ الموازنة بين الحسنات والسَّيِّئات ليست في كلِّ الخَلْق وليست في كلِّ الذُّنوب؛ بل قد يكون من الذُّنوب ما يَستوجب النَّار ولو رَجَحت الحسنات علىٰ السَّيِّئات، فإنَّه يَستوجب الجنَّة؛ ولكن لابدَّ من أن يُطهَّر في النَّار.

وهٰذا دليلٌ علىٰ وجوب الخوف من الشِّرك؛ لأنَّ مَنْ لَقِيَ الله يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ.

إذا كان كذلك وهٰذا يشمل الشِّرك الأكبرَ والأصغرَ والخفيَّ فإنَّ المرء يجب عليه أن يهرَب أشدَّ الهرب من ذلك.

والشِّرك الأصغرُ والخفيُّ يستعيذُ المرء بالله جَلَّوَعَلَا منه، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا أَعْلَمُهُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ**». لأنَّه إذا علم فأشرك فإنَّه سيترتَّب الأثرُ الَّذي ذكرناه وهو عدمُ المغفرةِ، ففي هٰذا الدُّعاء الَّذي علَّمَناه رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه التَّفريق بين الشِّرك الأصغر مع العلم والشِّرك الأصغر مع الجهل، فقال: «**أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا أَعْلَمُهُ**»؛ لأنَّ أمر الشِّرك الأصغرِ مع العلم عظيمٌ، فيستعيذ المرء بالله من أن يشرك شركًا أصغرَ وما هو أعلىٰ منه من باب أولىٰ وهو يعلمُ، وقال: «**وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ** »، لأنَّ المرء قد يكون شيءٌ علىٰ فلتاتِ لسانِه وهو لا يعلمُ ولم يقصد ذلك ويستغفر الله جَلَّوَعَلَا منه.

هٰذا يدلُّكم علىٰ أنَّ الشِّرك أمرُه عظيمٌ، ولا يتهاون أحدٌ بهٰذا الأمر؛ لأنَّ من تهاون بالشِّرك وبالتَّوحيد فإنَّه تَهاونَ بأصل دين الإسلام؛ بل تهاونَ بدعوة النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مكَّة سنين عددًا؛ بل تهاونٌ بدعوة الأنبياء والمُرسَلين فإنَّهم اجتمعوا علىٰ شيءٍ ألَا وهو العقيدة وهو توحيد العبادةِ والرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ، وأمَّا الشَّرائعُ فشتَّىٰ.

ولهٰذا الحذرَ كلَّ الحذرِ من الشِّرك بأنواعه وأن تتعلَّم ضدَّه، وأن تتعلَّم أيضًا أفراد الشِّرك وأفراد التَّوحيد، وإنَّما يستقيم العلم بذلك إذا تعلَّمت الأفراد، أمَّا التَّعلُّم الإجماليُّ لذلك فهٰذا كما يُقال: نحن علىٰ الفطرة. لكن إذا أتت الأفراد ربَّما رأيت بعض النَّاس فيما بين ظَهرانيكم يخوضون في بعض الأقوال أو الأعمال الَّتي هي من جنس الشِّرك وهم لا يَشعُرون؛ وذلك لعدم خوفهم وهرَبهم من الشِّرك.

نسأل الله جَلَّوَعَلَا العفو والعافية.

فإذن احرص علىٰ تعلُّم هٰذا الكتاب ومُدارسته، وعلىٰ كثرة مُذاكرته، وفهم ما فيه من الحُجج والبيِّنات؛ لأنَّه هو خيرُ ما يكون في صدرك بعد كتاب الله جَلَّوَعَلَا وسنَّة نبيِّه صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنَّ به إن شاء الله سببًا عظيمًا من أسباب النَّجاة والفلاح.

هٰذا وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ.

الدَّرس الثَّالثُ

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آله وصحْبِه ومن اهتدىٰ بهداه.

أمَّا بعدُ..

فأسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا لي ولكُم العِلْمَ النَّافِعَ، والعملَ الصَّالحَ، وأنْ يستعمِلنَا فيما يحِبُّ ويَرْضَىٰ، وأنْ يجعَلَ العلْمَ حُجَّةً لنَا لا حُجَّةً علينَا.

قال المصنِّفُ رَحِمَهُٱللَّهُ:

5- بَابٌ

الدُّعَاءُ إلى شَهَادَةِ ألاَّ إلَه إلاَّ اللّهُ

[1] **وَقَوْلُ اللّهِ تَعَالَى:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[يوسف:108] **الآيَةَ.**

[2] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَـمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَـىٰ الْـيَمَنِ قَـالَ لَـهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ - فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْـمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»، أَخْرَجَاهُ.

[3] وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**».

«**يَدُوكُونَ**»؛ أَيْ: يَخُوضُونَ.

هٰذا الباب هو (**بَابٌ الدُّعَاءُ إلى شَهَادَةِ ألاَّ إلَه إلاَّ اللّهُ**) باب الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد.

وقد ذكر في الباب قبله (**بَابٌ الْخَوفُ مِنَ الشِّرْكِ**)، وقبله ذكر (**بَابٌ مَنْ حقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**) و(**بَابٌ فَضْلُ التّوحيدِ ومَا يُكفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ**).

ولمَّا ذكر بعدهما (**بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**) اجتمعت معالمُ حقيقة التَّوحيد في النَّفس؛ في نفس المُوحِّد، فهل من اجتمعت حقيقةُ التَّوحيد في قلبه بأن عرف فضله وعرف معناه وخاف من الشِّرك، ومعنىٰ ذلك أنَّه استقام علىٰ التَّوحيد وهرب من ضدِّه؟ هل يبقىٰ مُقتصِرًا علىٰ نفسه أم إنَّه لا تتمُّ حقيقة التَّوحيد في القلب إلَّا بأن يدعو إلىٰ حقِّ الله الأعظمِ ألَا وهو إفرادُه جَلَّوَعَلَا بالعبادةِ وبما يستحقُّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من نعوتِ الجلال وأوصاف الجمال؟

بوَّب الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ بهٰذا الباب ليدلَّ علىٰ أنَّ من تمام الخوف من الشِّرك ومن تمام التَّوحيد أن يدعو المرءُ إلىٰ التَّوحيد، فإنَّه لا يتمُّ في القلب حتَّىٰ تدعوَ إليه، وهٰذه حقيقة شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله؛ لأنَّ الدَّعوة إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله عُلمت حيث شهِد العبدُ المُسلم لله بالوحدانيَّة.

قال: أشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله. وشهادتُه معناها اعتقادُه ونُطْقه وإخبارُه الغير بما دلَّت عليه، فلابدَّ إذن في حقيقة الشَّهادة وفي تمامها من أن يكون المرءُ من أن يكون المكلَّفُ المُوحِّدُ داعيًا إلىٰ التَّوحيد.

لهٰذا ناسب أن يذكر هٰذا الباب بعد الأبواب قبله.

ثمَّ له مناسبةٌ أخرىٰ لطيفةٌ وهي: أنَّ ما بعدَ هٰذا الباب هو تفسيرٌ للتَّوحيد وبيانُ أفرادِه، وتفسيرٌ للشِّرك وبيانُ أفرادِه، فيكون -إذن- الدَّعوة إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد دعوةٌ إلىٰ تفاصيل ذلك، وهٰذا من المُهمَّات؛ لأنَّ كثيرين من المُنتسِبين للعلم من أهلِ الأمصار يُسلِّمون بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد إجمالًا؛ ولكن إذا أتىٰ التَّفصيل في بيان مسائل التَّوحيد، أو جاء التَّفصيل لبيانِ أفرادِ الشِّرك فإنَّهم يُخالفون في ذلك وتَغلبُهم نفوسُهم في مواجهة النَّاس في حقائق أفراد التَّوحيد وأفراد الشِّرك.

إذن فالَّذي تميَّزت به هٰذه الدَّعوة؛ دعوة الإمام المُصلح رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ الدَّعوة إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله دعوةٌ تفصيليَّةٌ ليست إجماليَّةً، أمَّا الإجمال فيدعو إليه كثيرون؛ نهتمُّ بالتَّوحيد ونبرأ من الشِّرك؛ لكن لا يذكرون تفاصيل ذلك، والَّذي ذكره الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ في بعض رسائله أنَّه لمَّا عَرَضَ هٰذا الأمر يعني الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد عَرضَه علىٰ علماءِ الأمصارِ قال: وافَقوني علىٰ ما قلتُ وخالَفوني في مسألتين؛ في مسألة التَّكفير وفي مسألة القتال. وهاتان المسألتان سببُ المخالفةِ مخالفةِ أولئك العلماءِ فيها أنَّهما فرعان ومُتفرِّعتان عن البيان والدَّعوة إلىٰ أفراد التَّوحيد والنَّهي عن أفراد الشِّرك.

إذن الدُّعاء إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله هو الدُّعاء إلىٰ ما دلَّت عليه من التَّوحيد، والدُّعاء إلىٰ ما دلَّت عليه من نفي الشَّريك في العبادة وفي الرُّبوبيَّة وفي الأسماء والصِّفات عن الله جَلَّوَعَلَا.

وهٰذه الدَّعوة دعوةٌ تفصيليَّةٌ لا إجماليَّةٌ، ولهٰذا فصَّل الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ في هٰذا الكتاب أنواع التَّوحيد

وأفراد توحيد العبادة، وفصَّل الشِّرك الأكبرَ والأصغرَ وبيَّن أفرادًا من ذا وذاك.

يأتي تفسير شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله في الباب الَّذي بعده؛ لأنَّه بابُ تفسير التَّوحيد وشهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقَوْلِ اللهِ تعَالَى:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾) هٰذه الآية من آخر سورة يوسفَ هي في الدَّعوة إلىٰ الله، وسورة يوسفَ كما هو معلومٌ مِن تأمُّلِها في الدَّعوة إلىٰ الله من أوَّلها إلىٰ آخرها؛ موضوعُها الدَّعوة، ولهٰذا جاء في آخرها قواعد مهمَّةٌ في حال الدُّعاة إلىٰ الله وحال الرُّسل الَّذين دعوا إلىٰ الله، وما خالف به الأكثرون الرُّسل، واستيئاسِ الرُّسل من نصرهم، ونحوِ ذلك من أحوال الدُّعاة إلىٰ الله.

في آخر تلك السُّورة، قال الله جَلَّوَعَلَا لنبيِّه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أنَّني أدعو إلىٰ الله، فمُهمَّةُ الرُّسل هي الدَّعوة إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وأحسنُ الأقوال قولُ من دعا إلىٰ الله، وأحسنُ الأعمال عملُ من دعا إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصِّلت]، قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هٰذه الآية ما معناه: هَذَا حَبِيبُ الله، هَذَا وَلِيُّ الله،هَذَا صَفْوَةُ الله، هَذَا خِيرَةُ الله، هَذَا أَحَبُّ الْخَلْق إِلَىٰ الله، أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَته، وَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ مَا أَجَابَ اللهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَته، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَته، وَقَالَ : إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا خَلِيفَةُ الله. وهٰذا أمرٌ عظيمٌ في أنَّ الدَّاعيَ إلىٰ الله هو أحسن أهل الأقوال قولًا، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾.

قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ هٰذا موطن الشَّاهد فإنَّه دعاءٌ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا لا إلىٰ غيره، وهٰذه فيها فائدتان:

الأولىٰ: أنَّ الدَّعوة إلىٰ الله دعوةٌ إلىٰ توحيدِه، دعوةٌ إلىٰ دينِه، كما سيأتي تفسير هٰذه الكلمة في الحديثين بعدها؛ حديثِ ابن عبَّاسٍ بإرسال معاذٍ إلىٰ اليمن، وحديثِ سهلِ بن سعدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في إعطاء عليٍّ الرَّاية.

الثَّانية: أنَّ في قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ التَّنبيه علىٰ الإخلاص، وهٰذا يحتاجه من أراد الدُّعاء إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله والدُّعاء إلىٰ الإسلام؛ يعني الدَّعوة إلىٰ الإسلام، يحتاج أن يكون مُخلصًا في ذلك، ولهٰذا قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل هٰذا الباب: (في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ التَّنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأنَّ كثيرين وإن

دعوا إلىٰ الحقِّ فإنَّما يدعون إلىٰ أنفسهم، أو نحوُ ذلك).

قال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ والبصيرةُ هي العلمُ؛ البصيرةُ للقلب كالبصر للعين يُبصر بها المعلومات والحقائق، فكما أنَّك بالعين تُبصر الأجرام والذَّوات، فالمعلومات تُبصَر بالبصيرة؛ بصيرةِ القلب والعقل، يعني أنَّه دعا علىٰ علمٍ وعلىٰ يقينٍ وعلىٰ معرفةٍ لم يدعُ إلىٰ الله علىٰ جهالةٍ.

قال: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ يعني أدعو أنا إلىٰ الله ومن اتَّبعني ممَّن أجاب دعوتي فإنَّهم يدعون إلىٰ الله أيضًا علىٰ بصيرةٍ، وهٰذا أيضًا من مناسبة إيراد الآية تحت هٰذا الباب؛ لأنَّ من اتَّبع النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون إلىٰ الله.

فإذن المُتَّبِعون للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المُوحِّدون لابدَّ لهم من الدَّعوة إلىٰ الله؛ بل هٰذه صفتُهم الَّتي أمر اللهُ نبيَّه أن يُخبر عن صفتِه وعن صفتِهم، قال: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمَّدُ، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ فهٰذه إذن خصلةُ أتباع الأنبياء أنَّهم لم يخافوا من الشِّرك فحسبُ، ولم يعلموا التَّوحيد ويعملوا به فحسبُ؛ بل أنَّهم دعوا إلىٰ ذلك.

وهٰذا أمرٌ حتميٌّ؛ لأنَّ من عرف عِظم حقِّ الله جَلَّ وَعَلَا فإنَّه يغار علىٰ حقِّ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يغار علىٰ حقِّ مولاهُ، يغارُ علىٰ حقِّ من أحبَّه فوق كلِّ محبوبٍ أن يكون توجُّه الخلق إلىٰ غيره بنوعٍ من أنواع التَّوجُّهات، فلابدَّ -إذن- أن يدعوَ إلىٰ أصل الدِّين وأصل الملَّة الَّذي اجتمعت عليه الأنبياءُ والمرسلون ألَا وهو توحيدُه جَلَّ وَعَلَا في عبادتِه وفي ربوبيَّته وفي أسمائِه وصفاتِه جَلَّ وَعَلَا وعزَّ سُبحانه.

[الدَّليلُ الثَّاني] ثمَّ ساق الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: (لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ -») هٰذا موطن الشَّاهد وهو أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر معاذًا إذا دعا أن يكون أوَّلُ الدَّعوة إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، وفسَّرتها الرِّواية الأخرىٰ للبخاريِّ في كتاب التَّوحيد من «صحيحه» قال: «إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ» فشهادة ألَّا إله إلَّا الله الدَّعوة إليها مأمورٌ بها، وهي الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمر معاذًا أن يدعوَ أهل اليمنِ وهم من أهلِ الكتابِ؛ يعني: من أهل الكتابِ الَّذي هو التَّوراةُ والإنجيلُ؛ بعضُهم يهودٌ وبعضُهم نصارىٰ، أمَّا المُشركون فهم فيهم قليلٌ؛ بل أكثرهم علىٰ أحد أتباع المِلَّتين.

قال العلماء: في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا [أَهْلَ] الْكِتَابِ» فيه توطينٌ وفيه توطئةٌ للنَّفس أن يُهيِّئ نفسَه لمُناظرتهم، ومعاذ بن جبلٍ من العلماء بدين الإسلام ومن عُلماء الصَّحابة رضوان

الله عليهم أجمعين، فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذلك ليهيِّئ نفسَه لمُناظرَتِهم ولدعوتِهم، ثـمَّ أمـره أن يكـون أوَّلُ الدَّعوة إلىٰ أنْ يُوحِّدوا الله جَلَّ وَعَلَا.

في قوله هنا: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ُمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هٰذه تُقرأ علىٰ وجهين:

♦ الأوَّل: « فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْـهِ شَـهَادَةَ أَلَّا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ»، فتكـون «أَوَّلُ» اسـمَ «يَكُـنْ» وتكـون «شَهَادَةَ» هي الخبرُ، وهٰذا من جهة المعنىٰ معناه: أنَّه أخبره عن الأوَّليَّة، فابتدأ بالأوَّليَّـة ثـمَّ أخـبره بـذلك الأوَّل.

♦ والضَّبط الثَّاني أو القراءة الثَّانية أن تقرأها هكذا «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْـهِ شَـهَادَةُ أَلَّا إِلَـهَ إِلَّا الله» فيكون «أَوَّلَ» خبرَ «يَكُنْ» مُقدَّمٌ و«شَهَادَةُ» اسمَ «يَكُنْ» مؤخَّرٌ مرفوعٌ، وهٰذا معنـاه الإخبـار عـن الشَّـهادة بأنَّها أوَّل مـا يُدعىٰ إليه.

وهٰذان الوجهان جائزان والمَشهور هو الوجه الثَّاني هٰذا بِجَعْل (أَوَّلَ) منصوبةً؛ وذلك لأنَّ مقـام ذكـر الشَّهادة والابتداءَ بها هو الأعظمُ وهو المقصودُ ليلتفت السَّامعُ والمُتلَقِّي وهو معاذٌ إلىٰ ما يُـراد أن يُخـبر عنه من جهة الشَّهادة.

فإذن موطن الشَّاهد من هٰذا الحديث ومُناسبة إيراد هٰذا الحديث في الباب هـو ذكـر أنَّ أوَّل مـا يُـدعىٰ إليه هو التَّوحيد وهو شـهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] ثمَّ ساق أيضًا حديث سهلِ بن سعدٍ الَّذي في «الصَّحيحين» (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ) باتَ، **البيتوتةُ هي المُكث في اللَّيل معه نومٌ أو ليس معه نومٌ**؛ (بَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ) يعني: يخوضون في تلك اللَّيلة، باتوا؛ يعني: ظلُّوا ليلًا يتحدَّثون من دونِ نومٍ لشدَّة هٰذا الفضل الَّذي ذكره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.(1)

قال: (فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ») هٰذا موطنُ الشَّاهد، والمُناسبةُ في إيراد هٰذا الحديث في الباب قال: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ

---

(1) انتهىٰ الشَّريط الثَّاني.

عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ» الدَّعوة إلىٰ الإسلام هي الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد؛ لأنَّ أعظم أركان الإسلام شهادةُ ألَّا إله إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وضَمَّ إليها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنْ يدعوَهم أيضًا إلىٰ حقِّ الله فيه؛ يعني: إلىٰ ما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، قال: «**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ**» يعني في الإسلامِ من جهة التَّوحيد، ومن جهة الفرائضِ واجتنابِ المُحرَّمات، ولهٰذا كانتِ الدَّعوة إلىٰ الإسلام يجبُ أن تكون في أصلِه وهو التَّوحيدُ وبيانُ معنىٰ الشَّهادتين، ثمَّ بيانُ المُحرَّمات والواجبات؛ لأنَّ أصل الأصول هو المُقدَّم فهو أوَّل واجبٍ.

لاحظ أنَّ الآيةَ آيةَ سورةِ يوسفَ فيها بيانُ أنَّ كلَّ الصَّحابةِ دعاةٌ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا دعاةٌ إلىٰ التَّوحيد.

وحديث معاذٍ فيه أنَّ معاذًا كان من الدُّعاة إلىٰ الله، وفُصِّل فيه نوع تلك الدَّعوة إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

وكذلك حديث سهلِ بن سعدٍ الَّذي فيه قصَّة عليٍّ فيه الدَّعوة إلىٰ الإسلام.

فيكون هٰذان الحديثان كالتَّفصيل لقوله في الآية ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فالدَّعوة علىٰ بصيرةٍ هي الدَّعوة إلىٰ شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، إلىٰ أن يُوحِّدوا الله، الدَّعوة إلىٰ الإسلام وما يجب علىٰ العِباد من حقِّ الله فيه.



البابُ الَّذي بعدَه هو:

6- **بَابٌ**

تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةُ أَلاَّ إِلَه إِلاَّ اللهُ

[1] وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾[الإسراء].

[2] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾[الزُّخرف].

[3] وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التَّوبة:31]الآيَةَ.

[4] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة:165] الآيَةَ.

[5] وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ= حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وَشَرْحُ هٰذه التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

(**بَابٌ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةُ أَلاَّ إِلَه إِلاَّ اللهُ**)، مرَّ معنا أنَّ التَّوحيد هو شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، ولهٰذا قال العلماء: العطف هنا: (**التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةُ أَلاَّ إِلَه إِلاَّ اللهُ**) هٰذا من عطف المُترادِفات؛ ولكنْ هٰذا فيه نظرٌ من جهةِ أنَّ التَّرادفَ غيرُ موجودٍ -التَّرادفَ الكاملَ-، لكنَّ التَّرادف النَّاقص موجودٌ.

فإذن فهو من قبيل عطف المُترادفات الَّتي معناها واحدٌ؛ لكن يختلف بعضها عن بعضٍ في بعض المعنىٰ.

فالتَّوحيد مرَّ معنا تعريفُه في أوَّل الكتاب، وقوله: (**بَابٌ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ**)؛ يعني: الكشفَ والإيضاحَ عن معنىٰ التَّوحيد.

فقد قُلت لك إنَّ التَّوحيد: هو اعتقادُ أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا:

- واحدٌ في رُبوبيَّته، لا شريك له.
- واحدٌ في أُلوهيَّته، لا ندَّ له.
- واحدٌ في أسمائه وصفاته، لا مِثْل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشُّورىٰ].

ويشمل ذلك أنواع التَّوحيد جميعًا، فإذن التَّوحيد اعتقادُ أنَّ الله واحدٌ في هٰذه الثَّلاثةَ أشياء.

(**وَشَهَادَةِ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه**)؛ يعني: تفسير شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله، هٰذه الشَّهادة أعظم كلمةٍ قالها مكلَّفٌ ولا شيء أعظمُ منها؛ وذلك لأنَّ معناها هو الَّذي قامت عليه الأرضُ والسَّمٰوَات، وما تعبَّد المُتعبِّدون إلَّا لتحقيقِها ولامتثالِها.

شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله.

الشَّهادة:

- تارةً تكون شهادةَ حضورٍ وبصرٍ.
- وتارةً تكون شهادة عِلمٍ.

يعني يشهد علىٰ شيءٍ حضرَه ورآه أو يشهد علىٰ شيءٍ علِمَه.

هٰذان نوعان بمعنىٰ الشَّهادة، فإذا قال قائلٌ: أشهدُ. فيحتمل أنَّه سيأتي بشيءٍ رآه أو بشيءٍ علمَه.

و(أشهد ألَّا إله إلَّا الله) هٰذه شهادةٌ علميَّةٌ، ولهٰذا في قوله: أشهد. العلم.

والشَّهادة في اللُّغة وفي الشَّرع وفي تفاسير السَّلف لآيِ القرآن الَّتي فيها لفظُ (شَهِدَ) كقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾[آل عمران]، وكقولِه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾[الزُّخرف] (شَهِدَ) تتضمَّن أشياء:

الأوَّل الاعتقاد بما سيَنطق به: الاعتقادُ بما شهده؛ شهد ألَّا إلٰه إلَّا الله؛ يعني: اعتقد بقلبه معنىٰ هٰذه الكلمة، وهٰذا فيه العلمُ وفيه اليقينُ؛ لأنَّ الشَّهادة فيها الاعتقادُ، والاعتقادُ لا يُسمَّىٰ اعتقادًا إلَّا إذا كان ثمَّ علمٌ ويقينٌ.

الثَّاني التَّكلُّم بها ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾[آل عمران:18]، صار اعتقادًا وصار أيضًا إعلامًا ونُطقًا بها.

والثَّالث الإخبار بذلك والإعلام به: فيَنطقُه بلسانه من جهة الواجب، وأيضًا لا يُسمَّىٰ شاهدًا حتَّىٰ يُخبِر غيرَه بما شهد.

هٰذا من جهة الشَّهادة.

فإذن يكون (أشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله) معناها: أعتقدُ وأتكلَّمُ وأُعلمُ وأخبرُ بألَّا إله إلَّا الله، فافترقت -إذن- عن حال الاعتقاد، وافترقت -إذن- عن حال القَول، وافترقت -إذن- عن حال الإخبار المُجرَّد عن الاعتقاد، فلا بدَّ من الثَّلاثة مُجتمعَةً.

ولهٰذا نقول في الإيمان: إنَّه اعتقادُ الجنانِ، وقولُ اللِّسان، وعملُ الجوارحِ والأركان.

(لا إلٰه إلَّا الله) هٰذه هي كلمة التَّوحيد وهي مُشتملةٌ من حيث الألفاظ علىٰ أربعة ألفاظٍ:

الأوَّل: **لا**، الثَّاني: **إلٰه** . الثَّالث: **إلَّا**. الرَّابع لفظ الجلالة: **الله**.

أمَّا (**لا**) هنا فهي النَّافية للجنس؛ تنفي جنس استحقاق الألوهيَّة عن أحدٍ إلَّا الله جَلَّوَعَلَا، يعني: في ذا السِّياق.

وإذا أتىٰ بعد النَّفي (**إلَّا**) -وهي أداة الاستثناء- صارت تُفيد معنًىٰ زائدًا وهو الحصرُ والقصرُ.

فيكون المعنىٰ: الإلـهيَّة الحقَّة أو الإلـه الحقُّ هو الله بالحصر والقصر، ليس ثمَّ إلـهٌ حقٌّ إلَّا هو دون من سواه.

وكلمة (**إلـه**) من جهة الوزن فِعَال، قالوا: فعالُ تأتي أحيانًا بمعنىٰ فاعِلٍ، وتأتي أحيانًا بمعنىٰ مفعولٍ.

وننظر هنا فنجد كلمة (أَلَهَ) في اللُّغة بمعنىٰ: عَبَدَ.

وقال بعض اللُّغويِّين: أَلَهَ، يألَهُ فلانٌ إذا تحيَّر، وسُمِّي عندهم الإلـه إلـهًا؛ لأنَّ الألباب تحيَّرت في كُنْهِ وصفه وكُنْهِ حقيقته. وهٰذا القول ليس بجيِّدٍ.

بل الصَّواب: كلمة **إلـهٍ** فِعَالٌ بمعنىٰ مفعولٍ يعني المعبود فإلٰهٌ معناها المعبود، ويدلُّ علىٰ ذلك ما جاء في قراءة ابن عبَّاسٍ أنَّه قرأ في سورة الأعراف ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ إِلـهَتَك﴾ [الأعراف:127] كان ابن عبَّاسٍ يقرؤُها هكذا ﴿وَيَذَرَكَ وإلـهَتَك﴾، قال: لأنَّ فرعون كان يُعبد ولم يكن يَعبدُ فصوَّب القراءة بـ﴿وَيَذَرَكَ وإلـهَتَك﴾ بمعنىٰ وعِبادتك، وقراءتُنا وهي قراءة السَّبعة ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ يعني المُتقدِّمين.

فهٰذا معناه أنَّ ابن عبَّاسٍ فهم الإلَهَة معنىٰ العبادةِ، قد قال الرَّاجز في شعره المعروف الَّذي ذكرتُه لكم من قبل:

لِلهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

يعني من عبادتي.

فإذن يكون الإلهُ هو المعبودَ، لا إلـه؛ يعني: لا معبودَ، إلَّا الله، هنا لا معبود، لا النَّافية للجنس كما تعلمون تحتاج إلىٰ اسمٍ وخبرٍ؛ لأنَّها تعمل عمل إنَّ؛

عَمَلَ إِنَّ اجْعَلْ لِلَا فِي نَكِرَهْ ....

فأين خبر لا النَّافية للجنس؟ كثيرٌ من النَّاس من المُنتسبين للعلم قدَّرُوا الخبر: لا إلٰه موجودٌ إلَّا الله.

وهٰذا يحتاج إلىٰ مُقدِّمةٍ قبله وهو أنَّ المُتكلِّمين الأشاعرةَ والمعتزلةَ ومن ورثوا علوم اليونان قالوا: إنَّ كلمة (إلـه) هي بمعنىٰ: فاعلٍ؛ لأنَّ فِعَال تأتي بمعنىٰ مفعولٍ أو فاعلٍ، فقالوا: هي بمعنىٰ آلِـهْ والآلِـهُ هو القادر، ففسَّروا الإلـه بأنَّه القادر علىٰ الاختراع، ولهٰذا تجد في عقائد الأشاعرة ما هو مسطورٌ في شرح العقيدة السَّنوسيَّة الَّتي تُسمَّىٰ عندهم بـ«أمِّ البراهين» قال مانصُّـه فيهـا: الإلـه هـو المستغني عمَّا سواه المُفتقِر إليه كلُّ ما عَداه. قال: فمعنىٰ لا إلٰه إلَّا الله لا مُستغنيًا عمَّا سواه و لا مُفتقِرًا إليـه كـلُّ مـا عَـداه إلَّا الله، ففسَّروا الألوهيَّةَ بالرُّبوبيَّةِ، وفسَّروا الإلـهَ بالقادر علىٰ الاختراع أو بالمُستغني عمَّا سواه المُفتقِر إليـه كلُّ ما عَداهُ.

وبالتَّالي يُقدِّرون الخبر موجود؛ لا إله موجودٌ؛ يعني: لا قادر علـىٰ الاخـتراع والخلـق موجـودٌ إلَّا الله، لا مستغنيًا عمَّا سواهُ ولا مُفتقرًا إليه كلُّ ما عداه موجـودٌ إلَّا الله؛ لأنَّ الخلـقَ جميعًـا مُحتـاجون إلـىٰ غيرهم.

وهٰذا الَّذي قالوه هو الَّذي فتح باب الشِّرك في المُسلمين؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ التَّوحيد هو إفراد الله بالرُّبوبيَّة، فإذا اعتقد أنَّ القادر علىٰ الاختراع هو الله وحده صار مُوحِّدًا، إذا اعتقد أنَّ المستغنيَ عمَّا سواه والمُفتقرَ إليه كلُّ ما عَداهُ هو الله وحده صار عندهم مُوحِّدًا، وهٰذا من أبطل الباطل أين حال مُشركي قريشٍ الَّذين قال الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:61] وفي آيةٍ أخرىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[الزُّخرف:9]، ونحوِ ذلك من الآيات وهي كثيرةٌ كقوله ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ ﴾ الآيات من سورة يونس، هٰذا معلومٌ أنَّ مشركي قريشٍ لم يكونوا يُنازعون في الرُّبوبيَّة.

فإذن صارت هٰذه الكلمةُ دالَّةً علىٰ غير ما أراد أولئك وهو ما ذكرناه آنفًا من أنَّ معنىٰ (لا إله) يعني: لا معبود.

فيكون الخبر:

إمَّا أن يكون تقديرُه موجودٌ، فيكون المعنىٰ لا معبودَ موجودٌ إلَّا الله، وهٰذا باطلٌ لأنَّنا نرىٰ أنَّ المَعبودات كثيرةٌ فقد قال جَلَّوَعَلَا مُخبِرًا علىٰ قول الكُفَّار ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ ﴾ [ص:5] فالمعبودات

كثيرةٌ والمعبودات موجودةٌ، فإذن تقدير الخبر بموجودٍ غلطٌ.

ومن المعلوم أنَّ المُتقرِّر في علم العربيَّة أنَّ خبر لا النَّافية للجنس يكثُرُ حذفه في لُغة العرب وفي نصوص الكتاب والسُّنَّة؛ ذلك أنَّ خبر (لا) النَّافية للجنس يُحذف إذا كان المَقامُ يدلُّ عليه، وإذا كان السَّامع يعلم ما المقصود من ذلك.

وقد قال ابن مالكٍ في آخر باب لا النَّافية للجنس حينما ساق هٰذه المسألة:

(وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ) يعني باب لا النافية للجنس:

وَشَاعَ فِـي ذَا الْبَـابِ إِسْـقَاطُ الْخَبَـرْ   إِذَا الْمُـرَادُ مَـعْ سُـقُوطِهِ ظَهَـرْ

إذا ظهر المرادُ مع حذف الخبر فإنَّك تحذف الخبر لأنَّ الكلام الأنسب أن يكون مُختصَرًا، كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَا عَدْوَىٰ، ولَا طِيرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفرَ، وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ**» أين الخبر؟ كلُّها محذوفاتٌ لأنَّها معلومةٌ لدىٰ السَّامع.

فإذن الخبر هنا معلومٌ وهو أنَّه ليس الخبرُ موجودًا؛ يعني يُقدَّر بموجودٍ لأنَّ الآلـهة عُبدت مع الله موجودةٌ، فيُقدَّر الخبر بقولك: (بحقٍّ) أو (حقٌّ)، لا إلٰه بحقٍّ يعني لا معبودَ بحقٍّ أو لا معبود حقٌّ إلَّا الله، إن قدَّرت الظَّرف فلا بأس، أو قدرت كلمةً مفردةً حقٌّ لا بأس.

لا معبود حقٌّ إلَّا الله، هٰذا كلمة التَّوحيد، فيكون إذن كلُّ من عُبد غيرَ الله جَلَّوَعَلَا عُبد نعم؛ ولكن هل عبد بالحقِّ أو عُبد بالباطل والظُّلم والطُّغيان والتَّعدِّي؟ عُبد بالباطل والظُّلم والطُّغيان والتَّعدِّي، وهٰذا يفهمه العَربيُّ من سماع كلمة (لا إلـه إلَّا الله).

ولهٰذا بئس قومٌ -كما قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ-: بئس قومٌ أبو جهلٍ أعلمُ منهم بـ: (لا إلـه إلَّا الله) يَفهم هٰذه الكلمة وأبىٰ أن يقولَها، ولو كانت كما يزعُم كثيرٌ من أهل هٰذا العصرِ وما قبله لقالوها بسهولةٍ ولم يدروا ما تحتها من المعاني؛ لكن يعلم أنَّ معناها (لا معبود حقٌّ إلَّا الله)، وأنَّ عبادة غيره إنَّما هي بالظُّلم ولن يُقِرَّ بالظُّلم علىٰ نفسه، وبالبغي ولن يُقِرَّ بأنَّه باغٍ مُتعدٍّ، وبالتَّعدِّي والعُدوان، وهٰذا هو حقيقةُ معنىٰ: (لا إلـه إلَّا الله).

وفيها الجمع بين النَّفي والإثبات كما سيأتي في بيان آية الزُّخرف ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

[الدَّليل الأوَّلُ] قال الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: 57]) هٰذه الآية تفسيرٌ للتَّوحيد، وذلك أنَّنا

عرَّفنا التَّوحيد بأنَّه إفرادُ الله بالعبادة وهو توحيد الإلهيَّة، وهٰذه الآيةُ اشتملت علىٰ الثَّناء علىٰ خاصَّةِ عبادِ الله لأنَّهم وحَّدوا الله بالإلهيَّة، وهٰذه مناسبةُ الآية للباب؛ فقد وصفهم الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾، و﴿يَدۡعُونَ ﴾ بمعنىٰ: يَعبُدون؛ لأنَّ الدُّعاء هو العبادة، والدُّعاء نوعان كما سيأتي تفصيلُه:

- دعاءُ مسألةٍ.
- ودعاءُ عبادةٍ.

قال هنا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ يعني يَعبُدون، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ هي القصد والحاجةُ؛ يعني أنَّ حاجاتهم يبتغونها إلىٰ ربِّهم ذي الرُّبوبيَّة الَّذي يملك الإجابة، وفي قول الله جَلَّوَعَلَا في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ سُئل ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا -وهي من مسائل نافع بن الأزرق المَعروفة- سُئل عن قوله: ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ في قوله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ ما معنىٰ الوسيلة؟ قال: الوسيلةُ الحاجةُ. فقالا: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمعا إلىٰ قول الشَّاعر -وهو عنترة- يُخاطِب امرأةً:

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ أَنْ يَأْخُذُوكِ تكَحِّلِي وَتُخَضِّبِي

(لهم إليكِ وسيلةٌ) يعني: لهم إليكِ حاجةٌ.

ووجه الاستدلال من آية المائدة: أنَّه قال: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ قدَّم الجارَّ والمَجرورَ علىٰ لفظ ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، وتقديمُ الجارِّ والمُجرورِ -وحقُّه التَّأخيرُ- يُفيد الحصرَ والقصرَ، وعند عددٍ من علماء المعاني يُفيد الاختصاصَ.

وهٰذا أو ذاك فوجهُ الاستدلال ظاهرٌ في أنَّ قوله في آية الإسراءِ ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أنَّ حاجاتهم إنَّما يبتغونها عند الله، وقد اختصَّ الله عَزَّوَجَلَّ بذلك فلا يتوجَّهون إلىٰ غيره، وقد حصَروا وقصَروا التَّوجُّه في الله جَلَّوَعَلَا.

وقد جاء بلفظِ الرُّبوبيَّة دون لفظِ الأُلوهيَّة؛ يعني: قال: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ ولم يقُلْ يبتغون إلىٰ الله الوسيلةَ؛ لأنَّ إجابة الدُّعاء والإثابة هي من مُفرَدات الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ ربوبيَّة الله علىٰ خلقه تقتضي أنْ يُجيب دُعاءَهم وأنْ يُعطيَهم سُؤلَهم؛ لأنَّ ذاك من أفرادِ الرُّبوبيَّة.

فإذنْ ظهرَ من قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أنَّ فيها تفسيرُ التَّوحيدِ؛ وهو أنَّ كلَّ حاجةٍ من الحاجات إنَّما تُنْزِلها بالله جَلَّوَعَلَا، ﴿يَدۡعُونَ ﴾؛ يَعبُدون وهم إنَّما يطلُبون حاجاتِهم من الله جَلَّوَعَلَا، فلا

يعبُدون بنوعٍ من العبادات ويتوجَّهون به لغيرِ الله، فإذا نحروا فإنَّما ينحَرون يبتغون إلىٰ ربِّهم الحاجة، وإذا صلَّوا فإنَّما يصلُّون يَبتغون إلىٰ ربِّهم الحاجةَ، وإذا استغاثوا فإنَّما يستغيثون بالله يبتغون إليه الحاجة دونما سواهُ، إلىٰ آخر مُفرداتِ توحيدِ العِبادة.

فهٰذه الآية دالَّةٌ بظهورٍ علىٰ أنَّ قوله: ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أنَّه هو التَّوحيد.

وقد استشكلَ بعضُ أهلِ العلم إيراد هٰذه الآية في هٰذا البابِ، وقال: ما مُناسبة هٰذه الآية لهٰـذا البـابِ؟ وبما ذكرتُ لك تتَّضح المناسبة جَليًّا.

قال جلَّ علا: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وهٰذه حالُ خاصَّةٌ عبادِ الله أنَّهم جمعـوا بين العبادة وبين الخوف وبين الرَّجاء، فيرجون رحمتَه ويخافون عذابَه، وهـم إنَّمـا توجَّهـوا إليـه وحـده دونَما سواهُ، فأنزَلوا الخوفَ والمَحبَّةَ والدُّعاءَ والرَّغبَ والرَّجاءَ بالله جَلَّوَعَلَا وحدَه دونَما سواهُ، وهٰذا هو تفسير التَّوحيد.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُـهُ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الزُّخرف]) وجه الاستدلال من هٰذه الآية في قولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هٰذه الجملةُ فيها البراءةُ وفيها الإثباتُ؛ البراءةُ ممَّا يعبُدون، قال بعض أهل العلم: تبرَّأ من العبادة ومن المَعبودين قبل أن يتبرَّأ من العابدينَ؛ لأنَّه إذا تبرَّأ من أولئك فقد بلغ به الحَنَقُ والكراهةُ والبغضاءُ والكُفرُ بتلك العبادة مبلغَها الأعظمَ، وقد جاء تفصيلُ ذلك في آية المُمتحِنةِ كما هو معلومٌ.

إذن مناسبةُ هٰذه الآيةِ للبابِ أنَّ قولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ اشتملت علىٰ نفيٍ وإثباتٍ، فهي مُساويةٌ لكلمةِ التَّوحيد؛ بل هي دِلالةُ كلمة التَّوحيد، ففي هٰذه الآية تفسيرُ شهادة (ألَّا إلـه إلَّا الله)، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا بعدها ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[الزُّخرف:28] ما هٰذه الكلمة؟ هي قول: (لا إلـه إلَّا الله). كما عليه تفاسير السَّلف.

فإذن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هٰذا فيه النَّفي الَّذي نعلمه مـن قولـه: (لا إلــه)، فتفسير شهادة ألَّا إلـه إلَّا الله في هٰذه الآية:

- (لا إلـه) معناها: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.
- (إلَّا الله) معناها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فإذن في آية الزُّخرف هٰذه أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شرح لهم معنىٰ كلمة التَّوحيد بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾.

والبراءة هي: الكُفرُ والبَغضاءُ والمُعاداةُ. تبرَّأ من عبادةِ غيرِ الله إذا أبغضَها وكفر بها وعاداها، وهٰذه لابدَّ منها، لا يصحُّ إسلامُ أحدٍ حتَّىٰ تقوم هٰذه البراءةُ في قلبِه؛ لأنَّه إنْ لم تقُم هٰذه البراءةُ في قلبِه فلا يكون مُوحِّدًا، **البراءةُ هي: أن يكون مُبغِضًا لعبادة غيرِ الله، كافرًا بعبادةِ غيرِ الله، مُعاديًا لعبادة غيرِ الله**، كما قال هنا: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾.

أمَّا البراءةُ من العابدين، فإنَّها من اللَّوازم وليست من أصلِ كلمةِ التَّوحيد؛ البراءةُ من العابدين، فقد يُعادي وقد لا يُعادي، وهٰذه لها مقاماتٌ منها ما هو مُكفِّرٌ، ومنها ما هو نوعُ موالاةٍ ولا يصلُ بصاحبِه إلىٰ الكفرِ.

إذن تحصَّل لك أنَّ البراءةَ الَّتي هي مُضَمَّنَةٌ في النَّفي (**لا إلٰه**) بُغضٌ لعبادة غيرِ الله، وكفرٌ بعبادة غيرِ الله، وعداوةٌ لعبادة غيرِ الله، وهٰذا القدر لا يستقيمُ إسلامُ أحدٍ حتَّىٰ يكون في قلبِه ذلك.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ وهٰذا استثناءٌ كما هو الاستثناء في كلمة التَّوحيد (لا إلـه إلَّا الله).

قال بعض أهل العلم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ذَكَر الفَطْر دون غيره؛ لأنَّ في ذلك التَّذكير بأنَّه إنَّما يستحقُّ العبادةَ من فَطرَ، أمَّا من لم يَفطِر ولم يَخلُق شيئًا فإنَّه لا يَستحقُّ شيئًا من العبادةِ.

إذن مُناسبةُ هٰذه الآية ظاهرةٌ للباب ووجهُ الاستدلال منها ومعنىٰ البراءة ومعنىٰ النَّفي والإثبات فيها وفي كلمة التَّوحيد.

[**الدَّليلُ الثَّالثُ**] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التَّوبة:31].)

﴿أَرْبَابًا ﴾ جمعُ ربٍّ، **والرُّبوبيَّة هنا هي العبادةُ**؛ يعني اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم معبودين، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ يعني: مع الله، وذلك لأنَّهم أطاعوهم في تحليلِ الحرام وتحريمِ الحلال، والطَّاعة من التَّوحيد، فَرْدٌ من أفراد العبادة أن يُطيع في التَّحليل والتَّحريم، فإذا أطاع غير الله في التَّحليل والتَّحريم فإنَّه قد عَبدَ ذلك الغيرَ، فهٰذه الآية فيها ذكرُ أحد أفراد التَّوحيد، أحدِ أفرادِ العبادةِ وهو الطَّاعة، وسيأتي إيرادُها في بابٍ مُستقِلٍّ -إنْ شاء الله تعالىٰ- مع بيان ما تشتملُ عليه من المَعاني.

[**الدَّليلُ الرَّابعُ**] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:165])، أثبت الله جَلَّ وَعَلَا أنَّهم اتَّخذوا من دون الله أندادًا؛ يعني: مع الله أو من دونه أندادًا جعلوهم

يَستحقُّون شيئًا من العبادات، ووصفهم بأنَّهم ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني: المُشركين ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

وقوله هنا: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، المُفسِّرون من السَّلف فمن بعدهم هنا علىٰ قولين:

- منهم من يقول: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ هي: كلُّها في الَّذين اتَّخذوا أندادًا؛ يعني: يحبُّون أندادَهم كحبِّهم لله.
- وقال آخرون: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: يُحبُّونهم كحبِّ المُؤمنين لله، فالكافُ بمعنىٰ مِثْلَ هنا كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:74] ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ الكافُ هنا اسمٌ بمعنىٰ مثْلَ لأنَّه عَطِف عليها اسمٌ آخر، قال: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني: ساوَوا محبَّة تلك الآلـهة بمحبَّة الله، فهم يحبُّون الله حبًّا عظيمًا؛ ولكنَّهم يحبُّون كذلك تلك الآلـهة حبًّا عظيمًا، وهٰذا التَّساوي هو الشِّرك، والتَّسويةُ هٰذه هي الَّتي جعلتهم من أهل النَّار، كما قال جَلَّوَعَلَا في سورة الشُّعراء مُخبِرًا عن قول أهل النَّار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾، ومعلومٌ أنَّهم ما سوَّوْا تلك الآلهة بربِّ العالمين في الخَلق والرِّزق ومُفرداتِ الرُّبوبيَّة وإنَّما سوَّوهم بربِّ العالمين في المحبَّة والعبادةِ.

فإذن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني يُحبُّونهم محبَّةً مثل محبَّتهم لله، وهٰـذا الوجهُ أرجحُ من الوجه الآخر الَّذي تقديرُه كحبِّ المؤمنين لله، والَّذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله.

وجهُ الاستدلال للآية ومناسبتُها للباب ظاهرةٌ: في أنَّ التَّشريك في المحبَّة مُنافٍ لكلمة التَّوحيد، مُنافٍ للتَّوحيد من أصلِه؛ بل حَكَم الله عليهم بأنَّهم اتَّخذوا أندادًا من دون الله، ووَصفهم بأنَّهم اتَّخذوا الأنداد في المحبَّة، والمحبَّة مُحرِّكةٌ؛ وهي: الَّتي تبعث علىٰ التَّصرُّفات.

فإذن هنا فيه ذكرٌ للمحبَّة. والمحبَّة نوعٌ من أنواع العبادة ولمَّا لم يُفردوا الله بهٰذه العبادة صاروا متَّخذين أندادًا من دون الله، وهٰذا معنىٰ التَّوحيد ومعنىٰ شهادةِ (ألَّا إلٰه إلَّا الله).

[الدَّليلُ الخامسُ] ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ».**) في هٰذا الحديث بيان التَّوحيد وشهادة ألَّا إله إلَّا الله؛ ذلك أنَّ ثمَّة فرقًا بين قول (لا إله إلَّا الله) وبين التَّوحيد وشهادة ألَّا إله إلَّا الله، فالتَّوحيد والشَّهادة أرفعُ درجةً ومُختلفٌ عن مُجرَّد القولِ، وهٰذا الحديثُ فيه قيد زائدٌ عن مُجرَّد القَول؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**»:

▪ فيكون الواو هنا تعطفُ، ويكون ما بعدَها غيرَ ما قبلَها؛ لأنَّ الأصل في العطف المُغايَرةُ، ويكون «كَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» هٰذه زيادةٌ علىٰ مُجرَّد القَول، فيكون قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ومع قولِه: «كَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» يعني: تبرَّأ ممَّا يُعبَد من دونِ الله. هٰذا قولٌ.

▪ والقول الثَّاني: الواوُ هنا ليست عاطفةً عطفَ مُغايَرةِ شيءٍ عن شيءٍ أصلًا، وإنَّما هي من باب عطف التَّفسير؛ يعني يكون ما بعدَها بعضَ ما قبلَها، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة:98]، ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بعضُ الملائكةِ فعطفَهم وخصَّهم بالذِّكر، وأظهر اسم جبريلَ وميكالَ لبيان أهمِّيَّة هذين الاسمين وأهمِّيَّة المَلَكين؛ لأنَّ أولئك اليهود لهم كلامٌ في جبريلَ وميكالَ.

المقصود أن يكون العطف هنا عطف خاصٍّ بعد عامٍّ أو عطفَ تفسيرٍ؛ لأنَّ ما بعدَها داخلٌ فيما قبلَها، وهٰذا تفسيرٌ لقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فيكون إذن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» علىٰ هٰذا القول الثَّاني مُتضمِّنةٌ للكفر بما يُعبَد من دون الله.

وهٰذا هو الَّذي ذكرتُه لك في معنىٰ البراءةِ في آية الزُّخرف ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قُلنا: البراءة تتضمَّنُ البُغضَ والكُفرَ والمُعاداةَ؛ الكفرَ بما يُعبَد من دون الله، وهٰذا تفسيرٌ ظاهرٌ لكلمة التَّوحيد.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» هٰذا تفسيرٌ، وهٰذا الوجه الثَّاني هو الأظهرُ والأنسبُ لسياق الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ بل هو الَّذي يتوافق مع ما قبلَه من الأدلَّة.

قال: «حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» ذلك أنَّه صار مُسلمًا، «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» صار مُسلمًا، والمُسلم لا يحلُّ دمُه إلَّا بإحدىٰ ثلاثٍ، ولا يحلُّ مالُه؛ ولهٰذا قال هنا: «حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ».

إذن يظهرُ لك من هٰذه التَّرجمة وما فيها من الآيات والحديث أنَّ تفسيرَ التَّوحيد وتفسيرَ شهادةِ ألَّا إله إلَّا الله تحتاجُ منك إلىٰ مزيد عنايةٍ ونظرٍ وتأمُّلٍ وتأنٍّ حتَّىٰ تفهمَه بحُجَّته وببيانِ وجهِ الحُجَّة في ذلك.

بعد ذلك قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ([وَشَرْحُ] هٰذه التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ) فالكتابُ كلُّه هو تفسيرٌ للتَّوحيد وتفسيرٌ لكلمة (لا إله إلَّا الله)، وبيانُ ما يُنافي أصل التَّوحيد وبيانُ ما يُنافي كمال التَّوحيد، وبيانُ الشِّرك الأكبرَ والشِّرك الخفيِّ وشرك الألفاظِ، وبيانُ بعض مُستلزمات التَّوحيد؛ توحيدِ العبادةِ من الإقرارِ لله بالأسماء والصِّفات، وبيانُ ما يتضمَّنه توحيدُ العبادة من الإقرار لله جَلَّوَعَلَا بالرُّبوبيَّة.

هٰذا وآمل من الإخوة إذا خرجت أَلَّا يتبعني أحدٌ؛ لأنَّ فيه شيئًا من الإحراج.

هٰذا وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ.



الدَّرسُ الرَّابع

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آلِه وصحبِه ومنِ اهتدَىٰ بهداه.

أمَّا بعدُ..

قال المصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

7- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَلاَءِ أَوْ دَفْعِهِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمر:38] الآيَةَ.

[2] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هٰذه؟»، قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

[3] وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

[4] وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

[5] وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف].

هٰذا بابٌ شَرع به الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفصيلِ ما سبقَ، فقال: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَلاَءِ أَوْ دَفْعِهِ**) هٰذا شروعٌ في بيانِ التَّوحيد ببيان ضدِّه، ومن المَعلومِ أنَّ الشَّيء يُعرَف ويتميَّز بشيئَين:

- بحقيقتِه.
- وبمعرفةِ ضدِّه.

والتَّوحيدُ يتميَّز بمعرفتِه في نفسِه؛ بمعرفةِ معناهُ وأفرادِه، وبمعرفةِ ضدِّه أيضًا، وقد قال الشَّاعر:

.... وَبِضِدِّهَــــا تَتَمَيَّـــزُ الْأَشْــــيَاءُ[1]

وهٰذا صحيحٌ، فإنَّما التَّوحيد يُعرَف حسنُه بمعرفةِ قُبحِ الشِّرك.

والإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بذكر ما هو مُضادٌّ للتَّوحيد، وما يُضادُّ التَّوحيد منه:

♦ مَا يُضادُّ أصلَه، وهو الشِّركُ الأكبرُ الَّذي إذا أتىٰ به المُكلَّف، فإنَّه ينقُض توحيدَه؛ يعني: يكون مُشركًا شركًا أكبرَ مُخرجًا من المِلَّة، هٰذا يُقال فيه يُنافي التَّوحيد، أو يُنافي أصلَ التَّوحيدِ.

♦ والثَّاني ما يُنافي كمال التَّوحيدِ الواجبِ: وهو ما كان من **جهة الشِّرك الأصغرِ** يُنافي كمالَه، فإذا أتىٰ بشيءٍ مِنه فقد نافىٰ بذلك كمالَ التَّوحيدِ؛ لأنَّ كمال التَّوحيد إنَّما يكون بالتَّخلُّص من أنواع الشِّركِ جميعًا. وكذلك الرِّياءُ فإنَّه من أَفراد الشِّركِ الأصغرِ؛ أعني: **يسيرَ الرِّياء**، وهٰذا يُنافي كمالَ التَّوحيد،

ومنها أشياءُ يقول العلماء فيها: إنَّها **نوع شركٍ**، فيُعبِّرون عن بعضِ المسائلِ من الشِّركيَّات أنَّها نوع شركٍ أو نوع تشريكٍ.

فصار عندَها في ألفاظِها في هٰذا الباب أربعةٌ:

الأوَّل: الشِّرك **الأكبر**.

الثَّاني: الشِّرك **الأصغر**.

الثَّالث: الشِّرك **الخفيُّ**.

الرَّابع: قولُهم **نوعُ شركٍ أو نوعُ تشريكٍ**: وذلك من مثل ما سيأتي في قولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النَّحل:83]، وفي نحوِ قولِه: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ ﴾[الأعراف] في قصَّةِ آدمَ وحوَّاءَ حينَ عبَّدَا ابنَهما للشَّيطان، فهٰذا في الطَّاعة كما سيأتي بيانُه مُفصَّلًا إن شاء الله.

بدأ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفصيل الشِّرك ببيان صورٍ من الشِّرك الأصغر الَّتي يَكثُر وقوعُها.

وقدَّم الأصغرَ علىٰ الأكبرِ انتقالًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ؛ لأنَّ الشُّبهةَ في الأدنىٰ ضعيفةٌ بخلاف الشُّبهة في الأعلىٰ؛ يعني أنَّ تَعلُّقَ المُتعلِّق بالخَيطِ، تعلُّقُ المُتعلِّق بالتَّميمة، هٰذا شُبهته أضعفُ، فتعلُّق

---

(1) هذا من الشِّعر السَّائر المَعروفِ لأبي الطَّيِّب المُتنبِّي قال:

وَنَذِيمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ

في قصيدة يُثنِي بها ويَمدحُ بها أبا عليٍّ هارونَ بنَ عبد العزيز الكاتبَ أحدَ المُتنسِّكةِ الَّذين مالوا إلىٰ التَّصوُّف. ذكره الشَّيخ صالحُ آلُ الشَّيخ في شرحِه لمسائلِ الجاهليَّةِ.

ذلك المُتعلِّق بغير الله إذا وَعَىٰ أنَّه تَعلَّق بغير الله فإنَّه يكون مُقدِّمةً مُهمَّةً ومنتِجةً للمطلوب في إقناعه بأنَّ التَّعلُّق بغير الله في الشِّرك الأكبر أنهَّ قبيحٌ.

أمَّا إذا أتىٰ إلىٰ ما هو من جهة الشِّرك الأكبرِ كالتَّعلُّق بالأولياءِ ودعائِهم وسؤالِهم، أو الذَّبح للجنِّ أو الذَّبح للأولياء فإنَّه يكون هناكَ شبهةٌ؛ وهي: أنَّ أولئك لهم مقاماتٌ عند الله جَلَّوَعَلَا، والنَّاسُ الَّذين يتوجَّهون إلىٰ أولئك ويُشركون بهم الشِّرك الأكبرَ المُخرِجَ من الملَّةِ -والعياذ بالله-، يقولون: هؤلاء لهم مقاماتٌ عند الله، وإنَّما أردنا الوسيلةَ. كحال المُشركين في زمن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الَّذين قال الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزُّمر:3].

فإذن الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ بدأ بما هو من الشِّرك الأصغر انتقالًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ حتَّىٰ يكون ذلك أقوىٰ في الحُجَّة وأمكنَ في النُّفوس من جهةِ ضرورةِ التَّعلُّقِ بالله وإبطال التَّعلُّق بغيره.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ**) (**مِن**) هٰذه تبعيضيَّةٌ؛ تعني هٰذه الصُّورة الَّتي في الباب هي بعض الشِّرك.

هل هي بعض أفرادِه، أو بعض أنواعِه؟ هي هٰذه وهٰذه، فما ذُكر، وهو لُبسُ الحلقةِ أو الخيطِ أحد نوعي الشِّرك وهو الشِّرك الأصغرُ، وهو أحد أفراد الشِّرك بعُمومِه؛ لأنَّها صورةٌ من صور الإشراك.

قال: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا**) نحوُ الحلقةِ والخيطِ مثل الخرزِ والتَّمائمِ والحديدِ، ونحوِ ذلك ممَّا قد يُلبَسُ، كذلك ممَّا يُعلَّق أيضًا في البيوتِ أو في السَّيارات أو يُعلَّق علىٰ الصِّغار، ونحو ذلك ممَّا فيه لُبسٌ أو تعليقٌ، كلُّ ذلك يدخل في هٰذا الباب وأنَّه من الشِّرك.

قال: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ**)، (**الْحَلْقَة**) إمَّا أن تكون من صُفرٍ؛ يعني: من نُحاسٍ، وإمَّا تكونُ من حديدٍ، أو تكون من أيِّ معدنٍ، و(**الْخَيْطِ**) مجرَّدُ خيطٍ يَعقِدُه في يده والخيطُ معروفٌ.

الحلقةُ والخيطُ كانا عند العرب فيهما اعتقاداتٌ، في أشباههما مثل التَّمائم وغيرِها يعتقدون أنَّ من تَعلَّق شيئًا من ذلك أثَّر فيه ونفع:

- إمَّا من جهة دفع البلاء قبل وُقوعِه.
- وإمَّا من جهة رفع البلاء أو المرض بعد وُقوعِه.

ولهٰذا قال الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ**)؛ لأنَّ الحالتين موجودتان:

منهم من يُعلِّق قبل أن يأتي البلاءُ ليدفعه، وهو أعظمُ، أن يُعلِّق خيطًا، أن يُعلِّق حلقةً، يَلبِسُ حلقةً أو

يَلبِسُ خيطًا ليدفع الشَّيء قبل وقوعِه، وهٰذا أعظمُ؛ لأنَّه يعتقد أنَّ هٰذه الأشياءَ الخسيسةَ الوضيعةَ تدفع قدر الله جَلَّوَعَلَا.

وكذلك منها أن يَلْبَسَ ليرفع البلاء بعد حصوله؛ مرضَ فلَبِسَ خيطًا ليرفع ذلك المرضَ، أصابته عينٌ فلبس خيطًا ليرفع تلك العين، وهكذا في أصنافٍ شتَّىٰ من أحوال النَّاس في ذلكَ، واعتقاداتُ النَّاس كثيرةٌ.

هٰذه (**لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْـخَيْطِ**) من الشِّرك، لِمَ كان شركًا؟ قلنا: إنَّه شركٌ أصغرُ، لم كان شركًا أصغرَ؟ لأنَّه تعلَّق قلبُه بها وجعلَها سببًا لرفعِ البلاء أو سببًا لدفعِه.

والقاعدة في هٰذا الباب: أنَّ إثبات الأسباب المُؤثِّرة لا يجوز إلَّا:

- أن يكون من جهة الشَّرع، لا يجوز إثباتُ سببٍ إلَّا أنْ يكون سببًا شرعيًّا.
- أو أن يكون سببًا قد ثبت بالتَّجرُبة الواقعةِ أنَّه يُؤثِّر ظاهرًا لَا خفيًّا.

فهٰذا من لَبِسَ فإنَّه جعل سببًا ليس بمأذونٍ به في الشَّرع، وكذلك من جهة التَّجرُبة لا يحصلُ ذلك علىٰ وجه الظُّهور؛ وإنَّما هو مُجرَّدُ اعتقادٍ ممَّن لبِسَ في هٰذا الشَّيء، فقد يوافِقُ القدرُ أنَّه يُشفىٰ حين لَبِسَ أو بعد لُبسِه أو يُدفع عنه أشياءٌ يعتقد أنَّها ستأتيه فيبقىٰ مُعلَّقًا بذلك، ويُثبت أنَّ تلك سببٌ من الأسباب= وهٰذا باطلٌ.

إذن صار لُبس الحلقة والخيط ونحوِهما لرفعِ البلاء أو دفعِه شركًا أصغرَ؛ لأنَّ من لبِسَها تعلَّقَ قلبُه بها وجعلَها تدفعُ أو تنفعُ أو جعلها تُؤثِّر في رفع الضَّرر عنه أو في جلب المنافع له، وهٰذا إنَّما يستقلُ به الله جَلَّوَعَلَا وحدَه إذْ هو النَّافع الضَّارُّ، وهو جَلَّوَعَلَا الَّذي يُفيض الرَّحمة ويُفيض الخير أو يُمسك ذلك.

وأمَّا الأسبابُ الَّتي تكون سببًا لمُسبَّباتها فهٰذه لابدَّ أن يكون مأذونًا بها في الشَّرع، ولهٰذا بعض العلماء يعبِّر عمَّا ذكرتُ بقوله: من أثبت سببًا -يعني: يُحدث المسبَّب يُحدث النَّتيجة- لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا، فقد أشرك؛ يعني: الشِّركَ الأصغرَ، هٰذه القاعدةُ في الجملة صحيحةٌ، قد تُشكل بعضُ الأمثلة قد يُشكل هل تدخلُ أو لا تدخلُ، لكن هو المقصود من هٰذا الباب؛ أنَّ إثبات الأسبابِ لابدَّ أنْ يكون أتىٰ من جهةِ الشَّرع وإمَّا من جهة التَّجرُبة الظَّاهرة، مثلَ دواء الطَّبيب، ومثل الانتفاع ببعض الأسباب الَّتي فيها الانتفاعُ ظاهرًا؛ تتدفَّأ بالنَّار أو تتبرَّد بالماء، أو نحوُ ذلك، هٰذه أسبابٌ ظاهرةٌ بيِّنٌ أثرها؛ لكنْ إذا كان السَّبب من جهةِ التَّعلُّق الَّذي لم يأذن به الشَّرع فإنَّ التَّعلُّق القلبيَّ بشيءٍ لم يأذن به الشَّرع يكون نوع شركٍ إذا كان لدفعِ البلاءِ أو لرفعِه.

وهٰذا مرادُ الشَّيخ بهٰذا الباب؛ فإنَّ لُبس الخيط والحلقة من الشِّرك الأصغرِ.

كلُّ أصناف الشِّرك الأصغرِ قد تكون شركًا أكبر بحسَبِ حالِ من فعلها؛ اللُّبسُ، تعليقُ التَّمائم، الحَلِف بغيرِ الله، قولُ ما شاء الله وشئتَ، ونحوُ ذلك من الأعمالِ والاعتقاداتِ أو الأقوالِ، الأصلُ فيها أنْ نقول: هي شركٌ أصغرُ، قد تكون تلك شركًا أكبرَ بحسب الحالِ؛ يعني: إنِ اعتقدَ في الحلقةِ و الخيطِ أنَّها تؤثِّر بنفسِها فهٰذا شركٌ أكبرُ، إذا اعتقد أنَّها ليست سببًا؛ ولكنْ هي تُؤثِّرُ بنفسِها؛ لأنَّ هٰذه تدفعُ بنفسِها، تدفعُ المرض بنفسِها، تدفعُ العين بنفسِها أو ترفعُ المرض بنفسِها، أو ترفعُ العين بنفسِها، وليست أسبابًا؛ ولكنْ هي بنفسِها مُؤثِّرةٌ، فهٰذا شركٌ بالله شركٌ أكبرُ؛ لأنَّه جعل التَّصرُّف في هٰذا الكون لأشياء مع الله جَلَّوَعَلَا، ومعلومٌ أنَّ هٰذا من أفراد الرُّبوبيَّة فيكون ذلك شركًا في الرُّبوبيَّة.

إذن عمادُ هٰذا الباب من جهة تعلُّقِ القلب، تعلَّقَ بهٰذه الأشياء بالحلْقةِ أو الخيطِ لدفعِ ما يَسُوؤُه أو لرفعِ ما حلَّ به من مصايبَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق بعد ذلك: (وَقولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: 38]) قوله جَلَّوَعَلَا في هٰذه الآية من سورة الزُّمر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

العلماءُ يقولون: إنَّ الفاء إذا جاءت بعد همزة الاستفهامِ فإنَّها تكون عاطفةً علىٰ جملةٍ محذوفةٍ يدلُّ عليها السِّياقُ.

وهٰذه الآية أوَّلها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾[الزُّمر: 38]؛ يعني: قُل: أتُقِرُّون بأنَّ الَّذي خلق السَّمٰوَاتِ والأرضَ هو الله وحدَه فتدعون غيرَه؟ فتتوجَّهون لغيرِه؟ أتُقِرُّون بذلك فتفعلون هٰذه الأشياءَ؟ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أو يكون التَّقدير: أتُقِرُّون بأنَّ الله هو الواحدُ في ربوبيَّتِه؛ هو الَّذي خلق السَّمٰوَاتِ والأرضَ وحدَه، إذا أقرَرْتم فرأيتم هٰذه الأشياء الَّتي تتوجَّهون لها من دونِ الله، هل تدفعُ عنكم المَضارَّ؟ أو هل تجلِبُ لي ضُرًّا؟ أو تجلبُ لكم رحمةً من دون إذْنِ الله؟

فإذن تكون هنا الفاء ترتيبيَّةً رتَّبت ما بعدَها علىٰ ما قبلَها، وهٰذا هو المقصودُ أيضًا من الاحتجاجِ؛ لأنَّ طريقةَ القرآنِ أنَّه يحتجُّ علىٰ المُشركين بما أقرُّوا به من توحيد الرُّبوبيَّة علىٰ ما أنكروه من توحيد الإلهيَّة، وهم أقرُّوا بالرُّبوبيَّة فرتَّب علىٰ إقرارِهم أنَّه يَلزمُهم أنْ يُبطلوا عبادةَ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا.

قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿تَدْعُونَ﴾ يعني: تَعبُدون، وقد تكون العبادةُ بدعاءِ المسألةِ، وقد تكون بأنواعِ العبادةِ الأخرىٰ، أو نقول: ﴿تَدْعُونَ﴾ هٰذه تشملُ دُعاء المسألةِ ودُعاء العبادةِ لأنَّه حالتان من أحوال أهلِ الإشراك بالله.

﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَّا﴾ هنا عامَّةٌ؛ لأنَّها هنا اسمٌ موصولٌ بمعنىٰ: الَّذي؛ أرأيتم الَّذي تدعونَه من دون الله، والَّذي يدعونَه من دون الله الَّذي شمِلتهُ هٰذه الآيةُ أنواعٌ، وهو كلُّ ما دُعيَ مِنْ دونِ الله ممَّا جاء بيانُه في القرآن، وجاء في القرآنِ بيانُ أنَّ الأصنافَ الَّتي أُشرِكَ بها من دون الله جَلَّوَعَلَا وتوجَّه لها بالعبادة أنواعٌ:

الأوَّل: الأنبياءُ، بعضُ الأنبياء والرُّسل والصَّالحين كما قال جَلَّوَعَلَا في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾[المائدة:116] الآيات، فهٰذا في هٰذا النَّوع.

ونوعٌ آخرُ: اتَّخذوا الملائكةَ كما جاء في آخر سورة سبأٍ بيانُ ذلك ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[سبأ]. هٰذا في الملائكة نوعٌ آخرُ.

أيضًا: كانوا يتوجَّهون للكواكبِ؛ الشَّمسِ والقمرِ؛ يعني طائفةٌ من النَّاس كانوا يتوجَّهون لهٰذه الأشياءِ فيعبُدونَها.

أيضًا من الأنواع: أنَّهم كانوا يتوجَّهون للأشجارِ والأحجارِ.

ومن الأنواع: أنَّهم كانوا يتوجَّهون للأصنامِ والأوثانِ.

فإذن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيه توجُّه أولئك في كلِّ ما أشركوا به من دونِ الله جَلَّوَعَلَا، في كلِّ ما أشركوا به مع الله جَلَّوَعَلَا في نوعٍ من أنواع العبادة.

يُفيدنا ذلك في معرفةِ وجهِ الاستدلالِ من هٰذه الآيةِ كما سيأتي.

قال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أبطل أن يكونَ لتلكَ الآلهةِ بأنواعِها إضرارٌ أو نفعٌ، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟ لا يستطيعون، إن أرادنيَ اللهُ جَلَّوَعَلَا برحمةٍ هل هٰذه تدفعُ رحمةَ الله؟ لا تستطيعُ أيضًا.

فإذن بَطَل أنْ يكون ثمَّ تعلُّقٌ بتلك الآلهة العظيمةُ الَّتي يُظنُّ أنَّ لها مقاماتٌ عندَ الله جَلَّوَعَلَا موجبةٌ

لشفاعتِها.

إذا تبيَّن ذلك، فقد قال بعضُ أهل العلم: إنَّ هٰذه الآية في الشِّرك الأكبرِ، فلِم جعلها الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صدر بيان أصنافٍ من الشِّرك الأصغرِ؟

والجوابُ علىٰ ذلك من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ إيرادَ الآياتِ في الشِّرك الأكبر من جهةِ معناهُ والتَّعلُّقِ بغيرِه، ووجوبِ التَّعلُّق بالله جَلَّ وَعَلَا ونحوِ ذلك، هٰذا يوردُه السَّلف فيما هو من الشِّرك الأصغرِ، فالآيات الَّتي في الشِّرك الأكبرِ تُورَد في إبطال الشِّركِ الأصغرِ، بجامع أنَّ في كِلا الشِّركين تعلُّقٌ بغير الله جَلَّ وَعَلَا، **فإذا بطَل في الأعظمِ بطَل التَّعلُّق فيما هو دونَه من باب أولىٰ**.

الثَّاني: أنَّ هٰذه الآية في الشِّركِ الأكبرِ؛ ولكنَّ المعنىٰ الَّذي دارتْ عليه هو:

أنَّه في إبطال إضرارِ أحدٍ من دونِ الله.

أو أنَّ الله إذا أصاب أحدًا بضُرٍّ أنَّ ثَمَّ مَنْ يستطيع أن يرفعَه بدونِ إذنِ الله.

أو إذا أراد اللهُ رحمةَ أحدٍ أنَّ ثَمَّ من يصرِفُ تلك الرَّحمةَ بدون إذنِه جَلَّ وَعَلَا.

وهٰذا المعنىٰ الَّذي هو التَّعلُّق بما يضرُّ وبما ينفعُ، هو المعنىٰ الَّذي من أجله تعلَّق المُشرك الشِّرك الأصغرَ بالحلقةِ أو بالخيطِ؛ لأنَّه ما علَّق الخيطَ ولا علَّق الحلقةَ أو لبِسَ الحلقةَ والخيطَ إلَّا لأنَّه يعتقد أنَّ في الحلقة تأثيرًا من جهةِ رفع البلاءِ أو دفعِ الضُّرِّ وأنَّها تجلِبُ النَّفع وتدفعُ الضُّرَّ، وهٰذه الأشياء مَهينةٌ أشياءٌ وَضيعةٌ، فإذا نُفيَ عن الأشياءِ العظيمةِ كالأنبياءِ والمُرسلينَ والملائكةِ والصَّالحينَ أو الأوثانِ الَّتي لها روحانيَّاتٌ كما يقولون، فإنَّ انتفاءَ النَّفع والضُّرِّ عمَّا سِواها ممَّا هو أدنىٰ لاشكَّ أنَّه أظهرُ في البُرهان وأَبْيَنُ.

طبعًا في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ هنا بضُرٍّ هٰذه نكرةٌ في سياق الشَّرط، وهٰذا يعمُّ جميع أنواعِ الضَّرر؛ يعني فغيرُ الله جَلَّ وَعَلَا لا يستطيع أنْ يرفعَ ضُرًّا أنزله اللهُ إلَّا بإذنِه سُبحانَهُ.

ثمَّ ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَّة أحاديثَ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هٰذه؟»، قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**») مُناسبة الحديث للباب ظاهرةٌ؛ وهي أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ بحسب ما كان يعتقد أهلُ الجاهليَّةِ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا هٰذه؟» هٰذا السُّؤال:

من أهل العلم من قال: إنَّه استفهامُ إنكارٍ؛ ولكنَّ الرَّجلَ ما فهم أنَّه إنكارٌ فهمَ أنَّه استفصالٌ فلذلك أجابَ، فقال: (مِنَ الْوَاهِنَةِ).

وقال آخرون من أهل العلم: قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا هٰذه؟» يحتملُ أنْ يكون استفهامَ استفصالٍ أو استفهامَ إنكارٍ، فلهٰذا أجاب الرَّجلُ فقال: (مِنَ الْوَاهِنَةِ).

في القَول الأوَّل للإنكارِ الشَّديد، وهو الأظهرُ من حيثُ دلالةُ السِّياق عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السِّياق ما ذَكر الحالةَ الأُخرىٰ.

والحالةُ الأُخرىٰ الَّتي يُمكنُ أنْ يكون لَبِسَها من أجلِه أن تكون للتَّحلِّي، والتَّحلِّي بالصُّفْرِ غيرُ أنْ يلبَسَه لدفعِ البلاءِ أو رفعِه.

المقصودُ أنَّ الاستفصالَ هنا بقوله: «مَا هٰذه؟» هٰذا السُّؤال لا يعني أنَّه يحتملُ أنْ يكون اللُّبسُ شركًا، ويحتملُ أنْ يكونَ اللُّبس غيرَ شركٍ؛ ولكنَّ هٰذا للإنكارِ، وإذا كان استفهامَ استفصالٍ فإنَّه لأجلِ أنَّه يكون قد يُلبَس لأجلِ التَّحلِّي، لا لأجلِ التَّعلُّقِ؛ تَعلُّقِ القلبِ بذلك، فلمَّا أجاب (مِنَ الْوَاهِنَةِ) تعيَّن علىٰ كِلا القولين أنَّه لبِسَها لأجلِ تعلُّقه بها لرفعِ المرضِ أو لدفعِه.

والواهنةُ نوعُ مرضٍ من الأمراضِ يَهَن الجسمَ ويطرَحُه ويُضعِفُ قُوَاهُ.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «انْزِعْهَا» هٰذا أمرٌ، وإنكارُ المُنكرِ يكونُ باللِّسان إذا كان المأمورُ بِهِ يُطيعُ، إذا كان المأمورُ بِهِ يُطيع الأمرَ فإنَّك تأمُرُه باللِّسان ولا تُنكر عليه باليدِ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهُ وِلايةٌ وينزع هٰذا المُنكرَ بيدِه؛ لكنْ علمَ من حالِ ذاكَ أنَّه يمتثلُ الأمرَ، فقال له «انْزِعْهَا».

فلا تعارُضَ بين هٰذا وبين ما سيأتي من أنَّ حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قطع خيطًا من رجلٍ، فإنَّ ذلك مَبنيٌّ علىٰ حالٍ أُخرىٰ، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمرَه فامتثلَ ذلكَ الأمرَ.

قال: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»؛ يعني: أنَّ ضررَها أقربُ من نفعِها، وهٰذا في جميع أنواع الشِّرك، فإنَّ ما أُشرِكَ به ضررُه أعظمُ من نفعِه لو فُرِضَ أنَّ فيه نفعًا.

فقد قال العلماء هنا: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا» يعني: لو كان فيها أثرٌ، فإنَّ أثرَها الإضرارُ بدنيًّا، وإنَّ أثرَها أيضًا الإضرارُ روحيًّا ونفسيًّا حيثُ تُضعِف الرُّوحَ والنَّفسَ عن مُقابلةِ الوَهَنِ والمرضِ؛ لأنَّه يكون المرءُ أضعفَ ويتعلَّقُ بهٰذه الحلْقةِ أو بذلكَ الخيطِ.

قال: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا» وهٰذا حال كلُّ من أُشرِكَ فإنَّه من ضررٍ إلىٰ ضررٍ أكثرُ منه ولو ظَنَّ أنَّه في انتفاعٍ.

ثمَّ قال: «**فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**» هٰذا القولُ منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ حالَ المُعلِّق يختلفُ:

- قد يكون علَّقها اعتقادًا فيها استقلالًا.
- وقد يكون علَّقها من جهةِ التَّسبُّبِ.

والاستقلالُ إذا كان الَّذي رُئي في يدِ الصَّحابيِّ لا شكَّ أنَّه منفيٌّ؛ ولكنَّ العبرةَ هُنا في هٰذا اللَّفظ بالفائدةِ منه لغيرِه، فإنَّ من ماتَ وهي عليهِ قد يحتملُ أنَّه علَّقها لأجلِ الاستقلالِ أو علَّقها لأجلِ التَّسبُّب، وبالتَّالي يكون الفلاحُ علىٰ قسمين:

القسمُ الأوَّلُ: الفلاحُ المنفيُّ هو الفلاح المُطلَقُ؛ وهو: دخولُ الجنَّة والنَّجاةُ من النَّار، وهٰذا في حال من أشرك الشِّركَ الأكبرَ بأنِ اعتقدَ أنَّ تلك الحلْقةَ من الصُّفْر أو ذلكَ الخيطَ الَّذي يُعلَّق أنَّه ينفعُ استقلالًا.

أو يكون المنفيُّ نوعًا من الفلاحِ أو مُطلَقِ الفلاحِ؛ درجةٌ من درجاتِ الفلاح ذلك إذا كان فاعلُه جعل سببًا ممَّا لم يجعله الله جَلَّوَعَلَا سببًا لا شرعًا ولا قدرًا؛ يعني كان مُشركًا الشِّركَ الأصغرَ، فإنَّه يكونُ الفلاحُ هنا المرادُ به مُطلقُ الفلاحِ؛ يعني: درجةٌ من درجاتِ الفلاحِ.

وهٰذان لفظان يكثُران في كُتب أهل العلم وفي التَّوحيد بخصوصِه:

الأوَّل: مُطلقُ الشَّيء.

والثَّاني: الشَّيء المُطلقُ.

يقول مثلًا: التَّوحيدُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ التَّوحيد.

الإسلامُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ الإسلامِ.

الإيمانُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ الإيمانِ.

الشِّركُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ الشِّرك.

الفلاحُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ الفلاحِ.

الدُّخولُ المُطلَقُ، ومُطلَقُ الدُّخولِ.

التَّحريمُ المُطلَقُ -يعني: تحريمَ دخولِ الجنَّة أو النَّار- ومُطلَقُ التَّحريمِ.

ومِن المُهمِّ أنْ تعلم أنَّ:

الشَّيء المُطلَق: هو الكاملُ؛ الإيمانُ المُطلَقُ هو الكاملُ، الإسلامُ المُطلَقُ هو الكاملُ، التَّوحيدُ

المُطلَقُ هو الكاملُ، الفلاحُ المُطلَقُ هو الكاملُ.

أمَّا **مُطلَقُ الشَّيء**: فهو أقلُّ درجاتِه أو درجةٌ من درجاتِه، فمُطلَقُ الإيمانِ هٰذا أقلُّ درجاتِه.

فنقولُ مثلًا: هٰذا يُنافي الإيمانَ المُطلَقَ؛ يعني: يُنافي كمالَ الإيمانِ، أو نقولُ: هٰذا يُنافي كمالَ الإيمانِ، أو نقول: يُنافي مُطلَقَ الإيمانِ. يُنافي أقلَّ درجاتِ الإيمانِ فهو يُنافي الإيمانَ من أصلِه.

فإذن هنا نقول: الفلاحُ المَنفيُّ يحتملُ أنْ يكونَ الفلاحَ المُطلَقَ، يعني: كلَّ الفلاحِ أو درجةً من درجاتِه بحسبِ حالِ المُعلِّق، فكلُّ من لبِسَ حلْقةً أو خيطًا ومات عليه من غير توبةٍ فإنَّه لن يُفلحَ أبدًا، لن يفلحَ؛ يعني: لن يكون مُفلِحًا، وهٰذا الفلاحُ بحسب اعتقادِه:

إنْ كان مُعتقِدًا فيها كما ذكرتُ أنَّها تنفعُ باستقلالٍ فهو من أهل النَّار.

أو كان اعتقدَ أنَّها سببٌ فهو من أهل النَّار كعصاةِ المُوحِّدين.[1]

[**الدَّليلُ الثَّالثُ**] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»**) المقصودُ من هٰذا الحديث ذِكرُ لفظِ التَّعلُّق، و«تَعَلَّقَ» يعني: أنَّه علَّق وتعلَّق قلبُه بما علَّقَ، لفظُ «تَعَلَّقَ» يشملُ التَّعليق وتعلُّقَ القلب بما عُلِّق، فهو لبِس وتعلَّق قلبُه بما لبس، علَّق في صدرِه وتعلَّقَ قلبُه بما علَّق.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ» **والتَّميمة** لها بابٌ يأتي إن شاء الله تعالىٰ؛ لكنْ هي نوعُ خرَزَاتٍ وأشياءِ توضَعُ علىٰ صدورِ الصِّغارِ، أو يضعُها الكبارُ لأجلِ دفعِ العينِ أو دفعِ الضَّررِ أو الحَسدِ أو أثرِ الشَّياطينِ ونحوِ ذلك.

قال: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ» وهنا دعا عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ألَّا يُتم الله له؛ لأنَّ التَّميمة أُخذَت من تمامِ الأمرِ، سُمِّيتْ تميمةً لأنَّه يُعتَقد فيها أنَّها تُتمُّ الأمرَ، فدعا عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بألَّا يُتمَّ الله جَلَّ وَعَلَا له المُراد.

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» **والودع** نوعٌ من **الصَّدفةِ والخَرَزِ** يوضع علىٰ صدورِ النَّاس، أو يُعلَّق علىٰ العَضُدِ ونحوِ ذلك؛ لأجل أيضًا دفعِ العينِ ونحوِها من الآفاتِ أو رفعِ العينِ ونحوِها من الآفاتِ.

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» يعني فلا تركَه وذلكَ، ولا جعلَه في دَعَةٍ وسكونٍ وراحةٍ،

(1) انتهىٰ الشَّريط الثَّالث.

ودعاؤه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه ذلكَ؛ لأنَّه أشركَ بالله جَلَّ وَعَلَا.

[الدَّليلُ الرَّابع] قال: (وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ») لأنَّ تعليقَ التَّمائم والتَّعلُّق بها شركٌ أصغرُ بالله جَلَّ وَعَلَا وقد يكون أكبرَ بحسب الحالِ كما سيأتي.

[الدَّليلُ الخامس] قال: (وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾[يوسف]) مُناسبةُ هٰذا الحديثِ أو الأثرِ للبابِ ظاهرةٌ مِن أنَّ حذيفة الصَّحابيَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأىٰ رجلًا في يدهِ خيطٌ، هٰذا الخيطُ (مِنَ الحُمَّىٰ)، (مِنَ) هنا تعليليَّةٌ؛ يعني علَّق الخيط لأجلِ رفع الحُمَّىٰ أو لأجلِ دفعِ الحُمَّىٰ.

و(مِنْ) لها استعمالاتٌ شتَّىٰ مرَّ بنا في أوَّل البابِ أنَّها تبعيضيَّةٌ، وهنا أيضًا أنَّها تعليليَّةٌ، لها أحوالٌ كثيرةٌ جمعها ابنُ أمِّ قاسمٍ في نظمِه لبعضِ حروفِ المعاني بقولِه:

أَتَتْنَا (مِنْ) لَتَبْيِينٍ وَبَعْضٍ ... وَتَعْلِيلٍ وَبَدْءٍ وَانْتِهَاءِ
وَزَائِدَةٍ وَإِبْدَالٍ وَفَصْلٍ ... وَمَعْنَىٰ عَنْ وَعَلَىٰ وَفِي وَبَعْدِ

فمنها أنَّ (منْ) تكونُ للتَّعليل، فقولُه: (رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ) يعني لأجلِ دفعِ الحُمَّىٰ أو لأجلِ رفعِ الحُمَّىٰ، فـ(مِنْ) تعليلٌ لوضعِ الخيطِ في اليدِ.

قال: (فَقَطَعَهُ) وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذا مُنكرٌ عظيمٌ يجبُ إنكارُه ويجبُ قطعُه.

قال: (وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾[يوسف]). قال السَّلفُ في هٰذه الآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ يعني: بأنَّ الله هو الرَّبُّ وهو الرَّزَّاقُ وهو المُحيِي وهو المُميتُ؛ يعني توحيدَ الرُّبوبيَّةِ، ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ به جَلَّ وَعَلَا في العبادةِ، فليس توحيدُ الرُّبوبيَّة بمُنْجٍ؛ بلْ لا بدَّ أنْ يُوحِّد الله في العبادة.

وهٰذا الدَّليل في الشِّرك الأكبرِ، وقد قال المُصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الصَّحابة يستدلُّون بما نزلَ في الشِّرك الأكبر علىٰ الشِّرك الأصغر.



[الأسئلة]:

[سُؤال (3)]: وهٰذا يقول: قرأتُ في كتابٍ من أحدِ المُؤلِّفين ينقلُ فيه: إذا خِفتَ علىٰ ولدِك أو علىٰ نفسِك منَ العينِ فضعْ مثلًا نقطةً سوداءَ علىٰ الجبهةِ لتصرِفَ عنك العينَ.

الجواب: اعتقاداتُ النَّاس في دفعِ العينِ لا حصْرَ لها، والجامعُ لذلك أنَّ كلَّ شيءٍ يفعلُه النَّاس ممَّا

يعتقدونَه سببًا وليس هو بسببٍ شرعيٍّ ولا قدريٍّ فإنَّه لا يجوز اتِّخاذُه، وهٰذا يختلفُ عمَّا جاء عن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه رأىٰ غلامًا صغيرًا حسنَ الصُّورة وخافَ عليه العينَ فقال لأهلِه: دسِّمُوا نُونته. ففعلُوا هٰذا مِنْ إظهارِ عَدمِ الحُسنِ، ليسَ التَّدسيمُ -وهو وضعُ النُّقطة في بعض الوجهِ-، ليس لأجلِ أن تدفعَ تلك النُّقطةُ العينَ؛ ولكنْ لأجلِ أنْ يظهرَ بمظهرٍ ليس بحسنٍ، فلا تتعلَّقَ النُّفوسُ الشِّرِّيرةُ به.

فإذا كان وضع هٰذه النُّقطةَ في الَّتي ذكرَ لأجلِ اعتقادِ أنَّها تدفعُ العينَ هٰذا من اتِّخاذ الأسبابِ الشِّركيَّة الَّتي لا تجوزُ.

وإنْ كانَ لأجلِ إظهارِ عدمِ الحسنِ في تلكَ الصُّورةُ الجميلةُ أو ذلك الجسدُ المُعافَىٰ، أو نحوُ ذلكَ فإنَّ هٰذا لا بأسَ به، والله أعلمُ.][1]



(1) مأخوذُ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّابع من بابِ الشَّفاعة.

8- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

[1] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ: قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ».

[2] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلادِ عَنِ الْعَيْنِ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلْهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

[3] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

[4] وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ [سَـ]تَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

[5] وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ.

[6] وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

(**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**) تلحظ أنَّ البابَ الأوَّلَ قال فيه الإمامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ**)، وهنا قال: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**).

ولم يقلْ: بابٌ من الشِّركِ الرُّقى والتَّمائمُ؛ ذلك لأنَّ:

الرُّقى منها ما هو جائزٌ مشروعٌ، ومنها ما هو شركٌ.

والتَّمائمُ منها ما هو مُتَّفقٌ عليه أنَّه شركٌ، ومنها ما قد اختلفَ الصَّحابةُ فيه هل هو من الشِّرك أم لا؟

لهٰذا عبَّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**) وهٰذا من أدبِ التَّصنيفِ العالي.

الرُّقى: جمع رُقيةٍ، والرُّقية معروفةٌ قد كانت العربُ تستعملُها، **وحقيقتُها أنَّها أدعيةٌ وألفاظٌ تُقال أو تُتلى ثمَّ يُنْفَثُ بها**، ومنها ما له أثرٌ عضويٌّ في البدن، ومنها ما له أثرٌ على الأرواحِ. ومنها ما هو جائزٌ

مشروعٌ، ومنها ما هو شركٌ.

والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَقَىٰ ورُقِيَ؛ رقىٰ غيرَه ورَقىٰ نفسَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورُقِيَ أيضًا؛ رقاه جبريلُ ورَقَتْه عائشةُ ونحوُ ذلك.

فهٰذا الباب معقودٌ لبيان حكمِ الرُّقىٰ، قال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**)، وقد رخَّص الشَّرع من الرُّقىٰ بالَّتي ليس فيها شركٌ؛ بالرُّقىٰ الَّتي خَلَتْ من الشِّرك، وقد قال بعضُ الصَّحابةِ للنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يسألُه عن الرُّقىٰ فقال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ. لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ**».

قال العلماءُ: الرُّقية تجوزُ بثلاثةِ شروطٍ أُجمِعَ عليها:

الأوَّل: أن تكون بالقرآنِ أو بأسماء الله أو بصفاتِه.

الثَّاني: أن تكون بالكلامِ العربيِّ؛ أي: بلسانٍ عربيٍّ مَعلوم؛ يُعلَمُ معناهُ.

والثَّالث: ألَّا يعتقدَ أنَّها تنفعُ بنفسِها؛ بل الله جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي ينفعُ بالرُّقىٰ.

قال بعضُ العلماءِ: يدخل في الأوَّل السُّنَّةُ أيضًا بما ثبتَ في السُّنَّةِ؛ يعني: يكون الشَّرطُ الأوَّل: أن تكون من القرآن أو بالسُّنَّة أو بأسماءِ الله وبصفاتِه.

هٰذه شروطٌ ثلاثةٌ لكون الرُّقىٰ جائزةً بالإجماعِ.

إذا لم تكن من الأوَّل أو الثَّاني، يعني إذا تخلَّف الأوَّل أو الثَّاني ففيها خلافٌ بين أهل العلم.

والثَّالث لابُدَّ منه؛ شرطٌ مُتَّفقٌ عليه، من أنَّ الرُّقىٰ لابدَّ لمن تعاطاها ألَّا يعتقدَ فيها.

وأمَّا من جهةِ كونِها بأسماءِ الله وصفاتِه أو بالكتابِ والسُّنَّةِ أو أن تكون بلسانٍ عربيٍّ مفهومٍ فإنَّ هٰذا مُختَلفٌ فيه.

وقال بعضُهم: يسوغُ أنْ تكونَ الرُّقيةُ بما يُعلَمُ معناهُ ويصحُّ المعنىٰ بلغةٍ أخرىٰ، لا يُشتَرطُ أنْ تكون بالعربيَّة، ولا يُشتَرطُ أن تكون من القرآن أو السُّنَّة.

وهٰذه مسائلُ فيها خلافٌ وبحثٌ، ومن جهة تأثيرِ أيضًا غير القرآنِ علىٰ المَرقيِّ، وفي هٰذا مسائلُ نُرْجِئُ تفصيلَ ذلك إلىٰ موضعٍ آخر إنْ شاء اللهُ.

المَقصودُ أنَّ الرُّقىٰ الجائزةَ هي بالإجماعِ؛ هي ما اجمعتْ فيه ثلاثةُ شروطٍ.

وأمَّا الرُّقىٰ الشِّركيَّةُ فهي الَّتي فيها استعاذةٌ أو استغاثةٌ بغيرِ اللهِ، أو كان فيها شيءٌ من أسماءِ الشَّياطين، أو اعتقدَ المَرقيُّ فيها بأنَّها تؤثِّرُ بنفسِها، فتكونُ الرُّقيةُ غيرَ جائزةٍ، ومن الرُّقىٰ الشِّركيَّة، قد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» كما سيأتي.

إذن الحاصلُ من ذلك أنَّ الرُّقىٰ منها ما هو جائزٌ مشروعٌ ومنها ما هو شركيٌّ، علمتَ ضابطَ الجائزِ المَشروعِ، وعلمتَ ما هو من جهةِ الشِّركِ.

(**وَالتَّمَائِمَ**) التَّمائمُ جمعُ تميمةٍ وقد ذُكرَ تفسيرُها مُختصرًا من قبلُ، وهي تجمعُ أنواعًا كثيرةً، فالتَّمائمُ تجمعُ كلَّ ما يُعلَّقُ أو يُتَّخذُ ممَّا يُرادُ منه تتميمُ أمرِ الخيرِ للعبدِ أو دفعُ الضَّررِ عنهُ، ويَعتقدُ فيه أنَّه سببٌ، ولم يجعلِ الله جَلَّوَعَلَا ذلك الشَّيء سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

فالتَّميمةُ شيءٌ يُعلَّقُ، إمَّا جلدٌ مثلًا، يكون من جلدٍ خاصٍّ يُعلَّق علىٰ الصَّدرِ، أو يكون فيه أذكارٌ وأدعيةٌ وتعوُّذاتٌ تُجعلُ أيضًا مُعلَّقةً علىٰ الصَّدر أو في العَضُدِ، أو خَرَزاتٌ وحبالٌ ونحوُ ذلك تُجعَلُ علىٰ الصَّدر تُعلَّقُ، أو شيءٌ يُجعل علىٰ باب البيتِ أو يُجعَلُ في السَّيَّارة أو يُجعلُ في مكانٍ ما، يَجمعُ التَّمائم أنَّها شيءٌ يُرادُ منه تتميمُ أمرِ الخيرِ وتتميمُ أمرِ دفعِ الضُّـرِّ، وذلك الشَّيءُ لم يُؤذَنْ به شرعًا ولم يُؤذَنْ به أيضًا قدَرًا.

فإذن فالتَّميمةُ ليست خاصَّةً بصورةٍ مُعيَّنةٍ؛ بل تشملُ أحوالًا كثيرةً، تشملُ أصنافًا عديدةً.

منها ممَّا هو في زمنِنا الحاضرِ ما تراه علىٰ كثيرين من شيءٍ يُعلِّقونه في صدورِهم، يُعلَّقُ شيءٌ ثمَّ تكون جلدةٌ صغيرةٌ في الصَّدر، أو علىٰ العَضُدِ، أو يَربِطُ في البطنِ تميمةً لدفعِ مثلًا أمراضِ البطنِ أو الإسهالِ أو التَّقيُّءِ ونحوِ ذلك.

أو شيءٌ يُتَّخذُ في السَّيَّارة، كما ترىٰ بعض السَّيَّارات فيها رأسُ دُبٍّ مثلًا، أو أرنبٍ أو يضعُ بعض الأشكالِ كحذوةِ الفرسِ، أو يضعُ خرزًا علىٰ المرايةِ الأماميَّةِ، أو يضعُ مِسبحةً علىٰ شكلٍ مُعيَّنٍ من خشبٍ ونحوِ ذلك، هٰذه وأصنافُها من أنواعِ التَّمائمِ، ولها أشكالٌ كثيرةٌ تختلفُ مع اختلاف الأزمانِ، ويُحدِث منها النَّاسُ شيئًا كثيرًا.

أو يلبَسُ سلسلةً وعليها شكلُ عينٍ صغيرةٍ، أو يُعلَّق علىٰ مدخلِ البابِ رأسَ ذئبٍ أو رأسَ غزالٍ، أو يضعُ علىٰ مَطْرَق البابِ حذوةَ فرسٍ.

هٰذه من التَّمائمِ الَّتي يُريدُ منها أصحابُها أن تدفعَ عنهم العينَ، أو أنْ تجلبَ لهم نفعًا.

بعضُ النَّاس يقولُ: أُعلِّقُ ولا أستحضرُ هٰذه المعاني؛ أعلِّـق هٰـذا في السَّـيَّارة للزِّينـةِ، أُعلِّقـهُ في البيـتِ للجمالِ، ونحوِ ذلك من قولِ طائفةٍ قليلةٍ من النَّاس.

ونقولُ: إنْ علَّق التَّمائم للدَّفعِ أو الرَّفعِ فإنَّه شركٌ أصغرُ إن اعتقدَ أنَّها سببٌ، وإنْ علَّقها للزِّينة فهوَ مُحرَّمٌ لأجلِ مُشابَهتِه من يُشركُ الشِّركَ الأصغرَ.

فإذنْ دارَ الأمـرُ علىٰ أنَّ التَّمائمَ كلَّها مَنهيٌّ عنها، سواءٌ اعتقدَ فيها أو لم يَعتقدْ؛ لأنَّ حالَه إن اعتقدَ فهـو في شركٍ أصغرَ، وإنْ لم يعتقدْ فإنَّه شـابهَ أولئكَ المُشركينَ، وقد قـال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَـنْ تَشَـبَّهَ بِقَـوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ: قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ») هٰذا الحديثُ وجهُ الاستدلال منه علىٰ أنَّ تعليقَ القلادةِ من الوترِ علىٰ البعيرِ مأمورٌ بقطعِه، والأمرُ بقطعِه لأجلِ أنَّ العربَ تعتقدُ أنَّها تدفعُ العينَ عن الأبعرةِ، تدفعُ العينَ عن النَّعمِ، فيُعلِّقونَ الأوتارَ علىٰ شكلِ قلائدَ ورُبَّما ناطوا بالأوتارِ أشياءَ إمَّا خَرَزٌ وإمَّا شعرٌ أو نحوُ ذلك ليدفعَ، فهٰذا نوعٌ من أنواعِ التَّمائمِ.

فمُناسبةُ هٰذا الحديثِ للبابِ ظاهرةٌ؛ وهي أنَّ قوله: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ: قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ» ظاهرٌ في النَّهيِ عن التَّمائمِ، وأنَّ هٰذا النَّوعَ يجبُ قطعُه، لم يجب قطعُه؟ لأنَّ في تعليقِه اعتقادَ أنَّه يدفعُ أو يجلبُ النَّفع، وهٰذا الاعتقادُ اعتقادٌ شركيٌّ.

[الدَّليلُ الثَّـاني] قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُـولُ: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ».) هٰذا الحديثُ فيه التَّأكيدُ، قال: (إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ) ومعلـومٌ أنَّ دخول (إِنَّ) علىٰ الجملةِ الخَبريَّةِ يُفيد تأكيدَ ما تَضمَّنتهُ. و(الرُّقَىٰ) هنا لَمَّا دخلتْ عليها الألفُ والـلَّام عمَّت.

فهٰذا الحديثُ أفاد أنَّ كلَّ الرُّقىٰ من الشِّرك، وأنَّ كلَّ التَّمائمِ من الشِّركِ، وأنَّ كلَّ التِّوَلَـةِ مـن الشِّـركِ، قال: إنَّ الرُّقىٰ شِركٌ. فكلُّ الرُّقىٰ شركٌ، وقال: إنَّ التَّمائمَ شركٌ. فإذنْ كلُّ التَّمائمِ شركٌ، وقـال: إنَّ التِّوَلَـةَ شركٌ. فإذن كلُّ أنواعِ التِّوَلَةِ شركٌ.

فهٰذا العمومُ خُصَّ في الرُّقىٰ بالنَّصِّ وحدَها، خُصَّ في الرُّقىٰ لقوله: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ يَكُـنْ شِـرْكٌ» وبأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَقَىٰ ورُقِيَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فإذنْ الرُّقىٰ دلَّ الدَّليلُ علىٰ أنَّ العموم هٰهنا مَخصوصٌ، وليس كلُّ أنواعِ الرُّقية شركٌ؛ بل بعـضُ أنـواعِ الرُّقيةِ وهي الَّتي اشتملتْ علىٰ شركٍ.

فإذنْ العمومُ هنا مخصوصٌ بأنَّه خرج من ذلك ما لم يكـن فيـه شـركٌ «لَا بَـأْسَ بِـالرُّقَىٰ مَـا لَـمْ تَكُـنْ شِرْكًا»، وفي لفظٍ آخرَ قال: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ».

أمَّا التَّمائمُ فلم يأتِ دليلٌ يخصُّ نوعًا من نوعٍ؛ بل يبقىٰ هٰذا اللَّفظُ علىٰ عمومِه «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» فما جاء ما يخصُّ نوعًا من التَّمائم دونَ نوعٍ من الشِّرك، فتكونُ إذن التَّمائمُ بأنواعِها شركٌ؛ لأنَّ ما لم يرد فيه تخصيصٌ من الشَّارع فإنَّ العمومَ يجب أن يبقىٰ؛ لأنَّ التَّخصيص شرعٌ، وهٰذا الشَّرع لابدَّ أن يأتيَ من الشَّارع، فنُبقي العمومَ علىٰ عمومِه.

قال: (وَالتِّوَلَةَ)، التِّوَلَةُ كما فسَّرها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَىٰ زَوْجِهَا) نوعٌ من الشِّرك. هو يُسمَّىٰ عند العامَّةِ والصَّرفِ والعطفِ، نوعٌ من السِّحرِ يُصنَعُ فيجلبُ شيئًا ويدفع شيئًا بحسبِ اعتقادِهم، وهي في الحقيقةِ نوعٌ من أنواعِ التَّمائم؛ لأنَّها تُصنع ويكونُ السَّاحر هو الَّذي يَرْقِي فيها الرُّقيَةَ الشِّركيَّةَ، فيجعلُ المرأةَ تحبُّ زوجَها أو يجعلُ الرَّجُلَ يحبُّ زوجتَه.

وهٰذا نوعٌ من أنواعِ السِّحر، والسِّحرُ شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا وكفرٌ، وهٰذا أيضًا عمومٌ وكلُّ أنواعِه شركٌ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».)، «شَيْئًا» هنا نكرةٌ في سياقِ الشَّرطِ فتعمُّ جميعَ الأشياءِ، فكلُّ منْ علَّقَ شيئًا وُكِلَ إليهِ، فمنْ أخرجَ صورةً من صورِ التَّعليقِ كانت الحُجَّةُ عليه؛ لأنَّ هٰذا الدَّليل عامٌّ، فهٰذا الدَّليل فيه أنَّ منْ تعلَّقَ أيَّ شيءٍ من الأشياءِ فإنَّه يَوكَلُ إليه، والعبْدُ إذا وُكِلَ إلىٰ غير الله جَلَّوَعَلَا فإنَّ الخسارةَ أحاطتْ به من جَنَباتِه، والعبدُ إنَّما يكونُ عِزُّه ويكونُ فلاحُه ونجاحُه وحُسنُ قصدِه وحسنُ عملِه أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالله وحدَه؛ يتعلَّقُ بالله وحدَه في أعمالِه، في أقوالِه، في مستقبلِه، في دفعِ المَضارِّ عنه، قلبُه يكون أُنسُه باللهِ، وسرورُه باللهِ وتعلُّقهُ باللهِ وتفويضُ أمرِه إلىٰ اللهِ وتوكُّلُه علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

ومن كان كذلك وتوكَّلَ علىٰ الله وطردَ الخلقَ من قلبِه، فإنَّه لو كادَته السَّمٰوَاتُ والأرضُ [ومن بينَهـا] لجعلَ له من بينِها مخرجًا؛ لأنَّه توكَّل وفوَّض أمرَه علىٰ الله العظيم جَلَّجَلَالُهُ وتقدَّستْ أسماؤُه.

فقال هنا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» فإذا تعلَّق العبدُ تميمةً وُكِل إليها، وما ظنُّك بمنْ وُكِلَ إلىٰ خرقةٍ أو إلىٰ خَرَزٍ أو إلىٰ حذوةِ حصانٍ أو إلىٰ شكلِ حيوانٍ ونحوِ ذلك لا شكَّ أنَّ خسارتَه أعظمُ الخسارةِ.

قال هنا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا» وجهُ الاستدلالِ كما ذكرتُ لكَ من أنَّه ذكرَ نتيجةَ التَّعلُّق وهو أنَّه يوكَلُ إلىٰ ذلك الشَّيءِ، فمن تعلَّق شيئًا وُكِل إليه، وإذا وُكِلَ إليه فمعنىٰ ذلك أنَّهُ خسِرَ في ذلكَ.

الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما ذكرتُ لك- ما صدَّر الباب بحكمٍ، فيكون الاستدلالُ بهٰذه علىٰ ما دلَّت عليه الأحاديثُ.

قال: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الأَوْلادِ) يتَّقُون به (عَنِ الْعَيْنِ) شيءٌ يشملُ أيَّ شيءٍ يُعلَّقُ دونَ صفةٍ

مُعيَّنةٍ، بعضُ العلماءِ قال: التَّمائمُ خرزٌ. وبعضُهم قال: جلدةٌ ونحوُ ذلك، وهٰذا ليس بجيِّدٍ؛ بل التَّمائمُ اسمٌ يعمُّ كلَّ ما يُعلَّق لدفعِ العينِ لاتِّقاء الضَّررِ أو لجلبِ خيرٍ نفسيٍّ.

قال: (لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ)، (إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ) بمعنىٰ: أنَّه جعلَ في منزلِه مصحفًا ليدفعَ العينَ، أو علَّقَ علىٰ صدرِه شيئًا -سورةَ الإخلاصِ أو آيةَ الكرسيِّ- ليدفعَ العينَ أو ليدفعَ الضَّرر عنهُ، هٰذا من حيث التَّعليقُ تميمةٌ، فهل هٰذه التَّميمةُ جائزةٌ أم غيرُ جائزةٍ؟ قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ التَّمائم إذا كانت من القرآنِ فقد اختلفَ فيها السَّلفُ. فقال بعضُهم بجوازِها: (رخَّص فيها بعضُ السَّلفِ)؛ يعني ببعضِ السَّلفِ بعضَ كبارِ الصَّحابةِ ومالَ إليه بعضُ أهلِ العلمِ الكبارِ، وبعضُهم لم يُرخِّصْ فيها كابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكأصحابِ ابنِ مسعودٍ الكبارِ إبراهيمَ وعلقمةَ وعَبِيدةَ والرَّبيعِ بن خيثمٍ والأسودِ وأصحابِ ابن مسعودٍ جميعًا. فالسَّلف اختلفوا في ذلك.

ومن المعلوم أنَّ القاعدةَ أنَّ السَّلف من الصَّحابة ومنْ بعدَهم إذا اختلفوا في مسألةٍ وجبَ الرُّجوعُ فيها إلىٰ الدَّليل.

والدَّليلُ دلَّ علىٰ أنَّ كلَّ أنواعِ التَّمائم مَنهيٌّ عنها «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»، إنَّ التَّمائمَ شركٌ؛ «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، فمن تعلَّق القرآنَ؛ من علَّقَه كان داخلًا في المنهيِّ عنه؛ لكنْ لمَّا كان مُعلِّقًا للقرآنِ بأنَّه لم يُشركْ لأنَّه علَّق شيئًا من صفات الله جَلَّوَعَلَا وهو كلامُ الله جَلَّوَعَلَا، فما أشرك مخلوقًا؛ لأنَّ الشِّرك معناهُ أن تُشركَ مخلوقًا مع الله جَلَّوَعَلَا، والقرآنُ ليس بمخلوقٍ؛ بل هو كلامُ الله جَلَّوَعَلَا منه بدأ وإليه يعودُ.

فإذن صارَ تعليقُ التَّميمةِ من القرآنِ خرجتْ؛ لأجلِ كونِ القرآنِ ليس بمخلوقٍ من العموم، وهو قوله: إنَّ التَّمائمَ شركٌ.

فبقيَ هل هي مَنهيٌّ عنها أم غيرُ منهيٍّ عنها؟ قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» ونُهِي عن التَّمائمِ بأنواعِها، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ تخصيصَ القرآنِ بالإذنِ من بين التَّمائمِ ومن بينِ ما يُعلَّقُ يحتاجُ إلىٰ دليلٍ فيه؛ لأنَّ إبقاءَ العمومِ علىٰ عمومِه هٰذا إبقاءٌ لدلالةِ ما أراد الشَّارع الدَّلالة عليهِ من الألفاظ اللُّغويَّة، والتَّخصيصُ نوعٌ من أنواعِ التَّشريعِ لابدَّ فيه من دليلٍ واضحٍ.

لهٰذا صارت الحجَّةُ مع من يجعلُ التَّمائمَ الَّتي من القرآنِ ممَّا لا يُرخَّصُ فيه كابنِ مسعودٍ وكغيرِه من الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم، وكذلكَ هو قول عامَّةِ أهلِ العلمِ، وهو روايةٌ عن الإمامِ أحمدَ اختارَها المُحقِّقونَ من أصحابِه، وعليها المَذهبُ عند المُتأخِّرينَ.

بقي أن نقولَ: إنَّ في إجازةِ اتِّخاذِ التَّمائمِ من القرآنِ، إنَّ في تجويزِها مَفاسدَ، وفي تجويزِ اتِّخاذ التَّمائمِ من القرآنِ أنواعًا من المنكرِ:

الأوَّلُ: أنَّه إذا اتُّخذتِ التَّميمةُ من القرآن، فإنَّنا إذا رأينا من عليهِ التَّميمةُ فسيشتبهُ علينا الأمرُ، هل هٰذه تميمةٌ شركيَّةٌ أم من القرآنِ؟

وإذا وردَ الاحتمالُ فإنَّ المُنكِر علىٰ الشِّركيَّات يضعفُ يقولُ: احتمالُ أنَّها من القرآنِ،

فإجازةُ تعليقِ التَّمائمِ من القرآنِ فيه إبقاءُ التَّمائم الشِّركيَّةِ؛ لأنَّ حقيقةَ التَّميمةِ الَّتي تُعلَّقُ أنَّها تكونُ مَخفيَّةً غالبًا في جلدٍ، أو في نوعٍ من القماشِ ونحوِ ذلك، فإذا رأينا صورةَ التَّعليقِ وقُلنا: هٰذا يحتملُ أن يكونَ كذا، فإذا استفصلت منهُ وقلتَ لهُ: هل هٰذه تميمةٌ شركيَّةٌ أو من القرآنِ؟

معلومٌ أنَّ صاحبَ المُنكرِ دائمًا سيختارُ أن تكون من القرآنِ حتَّىٰ ينجوَ من الإنكارِ؛ لأنَّه يعتقدُ في هٰذه؛ يُريدُ أن يسلمَ له تعليقُها، فهٰذا من المفاسدِ العظيمةِ؛ أنَّ في إبقائِها إبقاءً للتَّمائمِ الشِّركيَّةِ، وفي النَّهي عنها سدٌّ لذريعةِ الإشراكِ بالتَّمائمِ الشِّركيَّةِ، ولو لم يكن إلَّا هٰذا لكان كافيًا.

الثَّاني: أنَّ الجهلة من النَّاس إذا علَّقوا التَّمائم من القرآنِ فإنَّهم يتعلَّقون بها؛ يتعلَّقُ قلبُهم بها، ولا تكونُ عندَهم مُجرَّد أسبابٍ، وإنَّما تكونُ عندَهم فيها خاصِّيَّةٌ من الخصائصِ الَّتي تقوم بنفسِها يأتي بالشَّيء أو تدفعُ الشَّيءَ، وهٰذا لاشكَّ فتحٌ لبابِ اعتقاداتٍ فاسدةٍ علىٰ النَّاس يجبُ أيضًا وَصْدُهُ، ومنَ المَعلومِ أنَّ الشَّريعةَ جاءت بسدِّ الذَّرائعِ.

أيضًا من المَفاسدِ المُتحقِّقةِ عامَّةً في ذلكَ أنَّه إذا علَّق شيئًا من القرآنِ فإنَّه يَمتهنُه، ينامُ عليه أو يدخلُ به مواضعَ قذرةً، أو يكونُ معهُ في حالاتٍ لا يكون من الحسَنِ أن يكونَ معهُ قرآنٌ فيها أو آياتٌ، وهٰذا ممَّا ينبغي اجتنابُه وتركُه.

إذنْ فتحصَّلَ أنَّ تعليقَ التَّمائمِ بالدَّليل وبالتَّعليل لا يجوزُ؛

فما كان منها من القرآنِ فنقولُ: يَحرُمُ علىٰ الصَّحيح، ولا يجوزُ، ويجبُ إنكارُه.

وما كان منها من غيرِ القرآنِ وتعلَّقَ تمائمَ عامَّةً فهٰذا نقول: إنَّه من الشِّرك بالله لقولِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

والتَّخصيصُ نوعٌ من العلمِ يجبُ أن يكون فيه دليلٌ.

نقفُ عند هٰذا والله أعلمُ، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ.

الدَّرسُ الْخامِسُ

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهُداه.

أمَّا بعد:

[الدَّليلُ الرَّابعُ] وَقفْنا عند قولِه: (وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِك، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ») هٰذا الحديثُ في بابِ ما جاءَ في الرُّقىٰ والتَّمائم فيه ذكرُ تقلُّدِ الوَتَرِ وأنَّ مُحمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بريءٌ ممَّن تقلَّد وَتَرًا.

وقد مرَّ معنا في أوَّل الباب في حديثِ أبي بشيرٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَرْسَلَ رَسُولًا: «أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ: قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ»). وهٰذا في معناهُ.

وقولُه: «تَقَلَّدَ وَتَرًا» التَّقليدُ بالوَتَرِ هٰذا له مَفهومٌ، وهو أنَّ النَّهيَ ليس راجعًا إلىٰ القلادةِ من حيثُ هي؛ بل إلىٰ القلادةِ الَّتي يُعتَقدُ فيها أنَّها تدفعُ العينَ، وخصَّ الوَتَرَ منها هنا لأنَّه كان أهلُ الجاهليَّة يُقلِّدونَ الأوتارَ وينوطون بها بعضَ الخِرقِ أو بعضَ الشَّعرِ أو بعضَ العظامِ لكيْ تدفعَ العينَ عن الأبعرةِ.

وأمَّا مُجرَّدُ التَّقليدِ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشعرَ هديَه وأيضًا فُتِلت له قلائدُ وعلَّقَ القلائدَ لبيان أنَّ ما أرسلَه إلىٰ مكَّة هَديٌ.

فالتَّقليدُ هنا خُصَّ بالوَتَرِ فيُقالُ: القلادةُ الَّتي تُجعلُ علىٰ الحيوانِ أو علىٰ غيرِه إذا كانت ممَّا يُعتقَدُ فيها أو يَختصُّ بها أهل الاعتقاداتِ فإنَّه يُنهىٰ عنهَا، ولهٰذا قيَّدها في حديثِ أبي بشيرٍ الأوَّلِ قال: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ» و(مِنْ) هٰهنا بيانيَّةٌ، وكذلكَ هنا قال: «أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا»، وهٰذا واضحُ المعنَىٰ مِنْ أنَّه جعلَ الوَتَرَ الَّذي قُلِّدَ تميمةً.

وقولُه في ذلك: «فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ» هٰذا من الألفاظِ الَّتي تدلُّ أنَّ الفعلَ من الكبائرِ؛ لأنَّ من الأدلَّة علىٰ أنَّ فعلًا ما من الكبائرِ أو عملًا ما أو قولًا ما من الكبائرِ أنْ يُقالَ فيه: اللهُ ورسولُه منه بريئان، أو يتبرَّأ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه؛ لأنَّ ذلك يدلُّ علىٰ عِظمِ المعصيةِ، والشِّركُ الأصغرُ من الكبائرِ كما أنَّ الشِّرك الأكبرَ من الكبائرِ، والكبائرُ العَمليَّةُ الَّتي ليسَ معها اعتقادٌ -يعني: كبائرُ من جهةِ العملِ- كالزِّنىٰ والسَّرقةِ وشربِ الخمرِ الَّتي ليسَ معها اعتقادٌ، هٰذه من حيث الجنسُ أقلُّ مرتبةً -من حيثُ جنسُ المُحرَّمِ والكبيرةِ - من الشِّرك الأصغرِ فضلًا عن الشِّرك الأكبرِ، ولهٰذا نقولُ: الشِّركُ الأصغرُ اتِّخاذ

التَّمائمِ أو نحوُ ذلكَ هٰذا جنسُه أعظمُ -من حيثُ الذَّنبُ والكبيرةُ- من جنسِ الكبائرِ العمليَّةِ الَّتي لا يَصْحَبُ فاعلَها حينَ فعلِها اعتقادٌ؛ يعني أنْ يعتقدَ في شيءٍ ما، نُريدُ بذلك تقييدَ ذلك بنحوِ الزِّنىٰ والسَّرقةِ وشربِ الخمرِ وأكلِ الرِّبا وما أشبهَ ذلك.

[الدَّليلُ الْخامسُ] قال: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»)؛ يعني: كان كتحريرِ رقبةٍ، وهٰذا فيه فضيلةُ قطعِ التَّمائمِ؛ وذلك لأنَّها شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا، والشِّركُ الأصغرُ مُدخلٌ للنَّار من حيثُ الوعيدُ، والتَّوعُّد عليه بالنَّار جاءَ في نحوِ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النِّساء:48]، ونحوُ قوله: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارِ»، وفي نحو قوله: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

وإذا قطعَ التَّميمة من عُنُقِه فهو في مقامِ إعتاقِ رقبةِ ذاك الَّذي قُطعتْ منهُ التَّميمة من النَّار؛ لأنَّه استوجبَ بذلك الفعلِ الوعيدَ بالنَّار فإذا قَطع تميمةً فكان جزاؤُه من جنسِ فعلِه، فكما أنَّه أعتقَ رقبةَ هٰذا المسلمِ من النَّار فأُثيبَ بأنَّ له مثلُ إعتاقِ رقبةٍ.

وهٰذا القولُ من سعيدِ بن جُبيرٍ مَحمولٌ علىٰ أنَّه ممَّا سمعه من الصَّحابة رضوانُ الله عليهم؛ لأنَّ هٰذا ممَّا لا يُقال بالرَّأي، وإذا كان كذلكَ فله حكمُ المُرسلِ، فيكون هٰذا مُرسلًا؛ لأنَّه إذا كان ممَّا لا يُقال بالرَّأي لأنَّ فيه فضيلةً خاصَّةً جعلَها سعيدُ بن جبيرٍ لمن قطعَ تميمةً من رقبةِ إنسانٍ، فيكونُ ذلكَ من قبيلِ المُرسلِ؛ يعني: من قبيلِ المَرفوعِ، وسعيدُ بن جبيرٍ تابعيٌّ من أصحابِ ابنِ عبَّاسٍ فيكون مُرسلًا، ففيه الكلامُ في حُجِّية المُرسلِ والإمامُ أحمدُ ومالكٌ والشَّافعيُّ يحتجُّون بالمُرسلِ، وكذلكَ الإمامُ أبو حنيفةَ يحتجُّ بالمُرسلِ، منهم من يجعلُ له شروطًا كالشَّافعيِّ، ومنهم من يحتجُّ بالمُرسلِ إذا كان المعنىٰ معروفًا في البابِ، وهٰذا ما هو موجودٌ هنا.

قال بعضُ أهل العلمِ: قولُ التَّابعيِّ في الأشياءِ الَّتي لا تُدرَكُ بالاجتهادِ ولا يُناطُ بها الرَّأيُ يكونُ محمولًا علىٰ أنَّه قولُ صحابيٍّ؛ يعني أنَّه سمعَه من الصَّحابيِّ فيكونُ اجتهادَ صحابيٍّ.

وهٰذا ليسَ بقويٍّ لأنَّه إذا كان مَحمولًا علىٰ أنَّه سمعَه من الصَّحابيِّ، فنقولُ: أيضًا الصَّحابيُّ لا يقولُه من جهةِ الرَّأيِ، فلا بدَّ إذنْ أن يكون سمِعهُ؛ لأنَّ مثلَ هٰذا لا يدخلُ فيه الاجتهادُ، والأوَّل هو المعروفُ وأنَّ هٰذه الصِّيغةَ من قبيلِ المُرسلِ.

[الدَّليلُ السَّادسُ] قال: (وَلَهُ) لوكيعٍ (عَنْ إِبْرَاهِيمَ) وهو النَّخعيُّ تلميذُ ابن مسعودٍ قال: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ) إبراهيمُ النَّخعيُّ عالمٌ من أهلِ الكوفةِ بعد ابن مسعودٍ،

وكان إذا قال: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)، (كَانُوا) هٰذا يرجعُ إلىٰ أصحابِ ابن مسعودٍ، **إبراهيمُ النَّخعيُّ أظنُّه لم يأخذْ من ابن مسعودٍ وإنَّما أخذَ عن تلامِذةِ ابن مسعودٍ**؛[1] فيعني بقوله: (كَانُوا يَكْرَهُونَ) أصحابَ ابن مسعودٍ كالأسودِ وعلقمةَ وكالرَّبيعِ ابن خيثمٍ وعُبيدةَ السَّلمانيِّ ونحوِ هؤلاء.



[الأسئلة]

سؤال (4): هٰذا أيضًا يسألُ يقول: ما حكمُ من يضع آيـة الكرسـيِّ في السَّـيَّارة، أو يضـعُ مُجسَّـمًا فيـه أدعيةٌ؛ أدعيةُ ركوبِ السَّيَّارة أو أدعيةُ السَّفر وغيرُها من الأدعية؟

الجواب: نقول: هٰذا فيه تفصيلٌ:

فإن كان وضعَ هٰذه الأشياءَ ليتحفَّظها ويتذكَّر قراءَتها فهٰذا جائزٌ، كمن يضعُ المُصحفَ أمامَ السَّيَّارة أو يضعُه معه لأجلِ أنَّه إذا صارت فرصةٌ هو أو من معه أن يقرأ فيه، فهٰذا جائزٌ لا بأسَ به.

لكنْ إن وضعَها تَعلُّقًا لأجلِ أنْ تدفعَ عنه فهٰذا هو الكلامُ في مسألةِ تعليقِ التَّمائمِ من القرآنِ فلا يجوز ذلك علىٰ الصَّحيح ويَحرُمُ.

سؤال (5): ما رأيُ فضيلتِكم ببعضِ الأواني الَّتي يُكتبُ عليها بعضُ الآيـات، والَّتـي تُبـاع في بعـض المَحلَّات التِّجاريَّةِ؟

الجواب: هٰذه الأواني يَختلفُ حالُها:

إن كان يستخدمُها؛ لأجلِ أنْ يتبرَّكَ بما كُتِبَ فيها من الآياتِ فيجعلُ فيها ماءً ويشربهُ؛ لأجـلِ أنَّ المـاءَ يلامسُ هٰذه الآياتِ، فهٰذا من الرُّقيةِ غيرِ المَشروعةِ؛ لأنَّ الرُّقيـةَ المَشـروعةِ مـا كانـت الآيـاتُ في المـاءِ، وهٰذه الآياتُ لم تنحلَّ في الماءِ؛ لأنَّها من معدنٍ أو من نحاسٍ، والتصاقُ المـاءِ بتلـكَ الكتابـاتِ آيـاتٍ أو أدعيةٍ لا يجعلُ الماءَ بذلك مُباركًا أو مَقروءًا فيه، فإذا اتُّخذت لذلكَ فهٰذا من الرُّقية غير المَشروعةِ.

وأمَّا إذا أخذها للزِّينةِ أو لجعلِها في البيتِ أو لتعليقِها فهٰذا كرهَهُ كثيرٌ من أهل العلمِ؛ لأنَّ القرآنَ ما نزل لتُزيَّن به الأواني أو تُزيَّن به الحيطانُ، وإنَّما نزل للهدايةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:9].

سؤال (6): بعضُ النَّاس يضعُ المُصحفَ في درجِ السَّيَّارة وذلك بقصدِ أنَّ للمُصحفِ أثرًا في ردِّ العيـن

(1) قال سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه: إبراهيم بن يزيد النخعي من التابعين من أصحاب أصحاب ابن مسعود.

والبلاءِ نرجو التَّوضيح؟

الجواب: إذا كان يقصدُ من وضعِ المصحفِ في درجِ السَّيَّارة أو علىٰ طبلونِ السَّيَّارةِ الأماميِّ أو خلفَ السَّيَّارةِ أنْ يدفع عنه وجودُ المُصحفِ العينَ، فهٰذا من اتِّخاذ المُصحفِ تميمةً، وقد مرَّ معكم بالأمسِ حكمُ التَّمائمِ من القرآن، وأنَّ الصَّحيح لا يجوزُ أن يُجعلَ القرآنُ تميمةً ولا أنْ يُجعلَ القرآنُ لوجودِه يعني المُصحفَ دافعًا للعينِ؛ لكنَّ الَّذي يدفعُ العينَ قراءةُ القرآنِ والأدعيةِ المَشروعةِ والاستعاذةُ بالله جَلَّوَعَلَا ونحوُ ذلك ممَّا جاءَ في الرُّقية.

فتحصَّل من أنَّ وضعَ القرآنِ لهٰذه الغايةِ داخلٌ في المَنهيِّ عنهُ، وهو من اتِّخاذ التَّمائمِ من القرآن، لمَّا كانَ القرآنُ غيرَ مخلوقٍ وهو كلامُ الله جَلَّوَعَلَا لم تَصرْ هٰذه التَّميمةُ شركيَّةً، وإنَّما يُنهىٰ عنها؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يستعمل هٰذا ولم يَجعلْ في عُنقِ أحدٍ من الصَّحابة لا الصِّغارِ ولا الكبارِ، ولا أذِنَ ولا وجَّه بأنْ يُجعلَ القرآنُ في شيءٍ من صدورِهم أو في عَضُدِ أحدِهم أو في بطنِه، ومَعلومٌ أنَّ مثل هٰذا لو كان دواءً مَشروعًا أو رُقيةً سائغةً أو تميمةً مأذونًا بها لرُخِّص فيها، سيَّما مع شدَّة حاجةِ الصَّحابةِ إلىٰ ذلك.

وتعليقُ القرآنِ أيسرُ من البحث عن راقٍ يَرقي ويُطلبُ منه ورُبَّما يُكافَأُ علىٰ رُقيتِه، فلمَّا كان هٰذا أيسرَ والنَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يُرشدهم إلىٰ الأيسرِ وقد بعثَ مُيسِّرًا، عُلمَ مع ضميمةِ الأدلَّةِ الَّتي ذكرتُها لكم بالأمسِ أنَّ هٰذا من جنسِ غيرِ المشروعِ. واللهُ أعلمُ.

[**سؤال (7)**: ما حكمُ من يضعُّ علىٰ السَّيَّارات أو المنازلِ عباراتٍ مثلَ: ما شاء اللهُ أو تبارك اللهُ أو هٰذا من فضلِ ربِّي؟

الجواب: هٰذا له نفسُ حكمِ تعليقِ بعضِ الآيِ أو الآيِ علىٰ الحيطانِ أو في السَّيَّارات أو نحوِ ذلك.

فإنْ كان المقصودُ منها الإرشادُ إلىٰ عملٍ شَرعيٍّ مسنونٍ فهٰذا مشروعٌ أو مُباحٌ.

وأمَّا إنْ كانَ القصدُ منها الحِفظُ أنْ تحفظَه وأنْ تحرُسَه من العينِ أو من الأذىٰ فهٰذا راجعٌ إلىٰ اتِّخاذ التَّمائمِ من القُرآنِ ونحوِه.][1]

[**سؤال (8)**: بعضُ أصحابِ السَّيَّارات الخاصَّة كاللِّيموزين وسيَّارات النَّقل الكبيرةِ يضعون علىٰ أطرافِ السَّيَّارة خرقًا سوداءَ اعتقادًا منهم بأنَّها حروزٌ تمنعُهم الحوادثَ، فهل نقومُ بنزعِها أم ماذا نفعلُ؟

الجواب: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله وعلىٰ آله وصحبه

---

(1) مأخوذٌ من الوجهِ الثَّاني للشَّريط السَّابع من بابِ الشَّفاعة.

ومن اهتدىٰ بهُداهُ.

أمَّا بعد:

فإذا كان الأمرُ كما وصفَهُ السَّائلُ من جهةِ وضعِ تلك الشَّاراتِ أو الخرقِ ومن جهةِ اعتقادِ أهلِها فيها فيجبُ نزعُها، ومن نزعَها فله فضلُ نزعِ التَّمائمِ من أماكنِها، أو تخليصِ أصحابِها منها؛ لكنَّ هٰذا متوقِّفٌ علىٰ أنْ يعلَمَ أنَّهم وضعوها لهٰذا الغرضِ، فإنَّ وضعَ الشَّارات لمثل هٰذا الغرضِ غيرُ مَعروفٍ أنَّه لأجل دفع التَّمائمِ، فإذا كان بعضُ النَّاس يستعملُها لدفعِ الشَّرِّ ويستعملُها لأنَّها تمائمُ، فهٰذه يجب نزعُها، ومن رآها لا يحلُّ له أن يتعدَّاها حتَّىٰ ينزعَها لأنَّها اعتقادٌ في غيرِ الله ولأنَّها نوعٌ من أنواعِ المُنكرِ واعتقادُ ذلك فيها كبيرةٌ من الكبائرِ وشركٌ أصغرُ بالله جَلَّوَعَلَا.][1]



(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الثَّامن.

9- بَابٌ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

[1] وقَوْلُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ ﴾[النَّجم] الآيَات.

[2] عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ ﴾ [الأعراف]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا وقَوْلُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ الآيات).

(بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا) يعني ما حكمُه؟

الجوابُ: هو مشركٌ؛ يعني: بابُ من تبرَّك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوِهما فهو مشركٌ.

وقوله: (مَنْ تَبَرَّكَ)، التَّبرُّك: تفعُّلٌ من البركةِ، وهو طلبُ البركةِ، والبركةُ مَأخوذةٌ من حيثُ الاشتقاقُ من مادَّة (بُرُوكٍ) أو من كلمةِ (بِرْكَةٍ).

أمَّا **البُروكُ**؛ فبُروكُ البعيرِ يدلُّ علىٰ مُلازَمتِه وثُبوتِه في ذلك المكانِ.

والبِرْكةُ؛ وهي: مجمتعُ الماءِ يدلُّ علىٰ كثرةِ الماءِ في هٰذا المَوضعِ وعلىٰ لُزومِه لهُ وعلىٰ ثباتِه في هٰذا المَوضعِ.

فيكونُ إذًا معنىٰ **البَركَةِ كثرةُ الشَّيءِ الَّذي فيه الخيرُ وثباتُه ولُزومُه**.

فالتَّبرُّك: **هو طلبُ الخيرِ الكثيرِ وطلبُ ثباتِه وطلبُ لُزومِه**، تبرَّكَ يعني طلبَ البَركةَ، والنُّصوص في القرآن والسُّنَّة دلَّت علىٰ أنَّ البَركةَ من الله جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ الخلقَ لا أحدَ يُباركُ أحدًا وإنَّما هو جَلَّ وَعَلَا يباركُ قال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الفرقان:1]؛ يعني عَظُم خيرُ من نزَّل الفُرقانَ علىٰ عبدِه وكثُرَ ودامَ وثبتَ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك:1]، وقال سبحانه: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ [الصافات:113]، وقال: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾[مريم:31]، فالَّذي يُباركُ هو الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يجوزُ للمخلوقِ أنْ يقولَ: باركتُ علىٰ الشَّيءِ؛ أو أبارِكُ فعلَكم؛ لأنَّ لفظَ البَركةِ ومعنىٰ البَركةِ، إنَّما من اللهِ؛ لأنَّ الخيرَ كثرتُه

وثباتُه ولُزومُه إنَّما هو من الَّذي بيدِه الأمرُ.

والنُّصوص في الكتاب والسُّنَّة دلَّت علىٰ أنَّ البَركةَ الَّتي أعطاها اللهُ جَلَّوَعَلَا للأشياء:

- إمَّا تكون الأشياء هٰذه أمكنةً أو أزمنةً.
- وإمَّا أن تكون تلك الأشياءُ من بني آدمَ؛ يعني مخلوقاتٌ آدميَّةٌ.

أمَّا الأمكنةُ والأزمنةُ: فظاهرٌ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا حينَ بارك بعضَ الأماكنِ كبيتِ الله الحرامِ، وكما حَوْلَ بيتِ المَقدسِ ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:1]، والأرضِ المُباركةِ ونحوِ ذلك، أنَّ معنىٰ أنَّها المباركةُ أنْ يكونَ فيها الخيرُ الكثيرُ اللَّازمُ الدَّائمُ لها، ليكونَ ذلك أشجعَ في أنْ يُلازمَها أهلُها الَّذين دُعوا إليها.

وهٰذا لا يعني أن يُتمسَّح بأرضِها، أو أنْ يُتمسَّح بحيطانِها، فهٰذه بَركةٌ لازمةٌ لا تنتقلُ بالذَّات؛ فبَركةُ الأماكنِ أو بَركةُ الأرض ونحوُ ذلك هي بركةٌ لا تنتقلُ بالذَّات؛ يعني: إذا لَمستَ الأرض أو دُفنتَ فيها أو تبرَّكتَ بها فإنَّ البَركةَ لا تنتقلُ بالذَّات، وإنَّما الأرضُ المُباركةُ من جهةِ المعنىٰ.

كذلك بيتُ الله الحرامِ هو مُبارَكٌ لا من جهةِ ذاتِه؛ يعني أن يُتمسَّح به فتنتقلَ البَركةُ، وإنَّما هو مباركٌ من جهةِ ذاتِه من جهةِ المعنىٰ؛ يعني اجتمعتْ فيه البَركةُ الَّتي جعلَها الله في هٰذه البِنيةِ من جهةِ تعلُّق القُلوبِ بها وكثرةِ الخيرِ الَّذي يكونُ لمن أرادها وأتاها وطافَ بها وتعبَّد عندَها.

حتَّىٰ الحجرُ الأسودُ هو حجرٌ مبارَكٌ، ولكنَّ بركتَه لأجلِ العبادةِ؛ يعني أنَّه من استلمَه تعبُّدًا مُطيعًا للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في استلامِه لهُ وفي تقبيلِه فإنَّه ينالُه به بَركةُ الاتِّباع، وقد قال عمرُ رَضِۦَاللَّهُعَنۡهُ لمَّا قبَّل الحجرَ: إنِّي لأعلمُ أنَّك حجرٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ -قوله: (لا تنفعُ ولا تضرُّ)؛ يعني: لا يَنقلُ لأحدٍ شيئًا من النَّفع ولا يدفعُ عن أحدٍ شيئًا من الضُّرِّ- ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُقبِّلُك ما قبَّلتُك. هٰذا من جهةِ الأمكنِة.

وأمَّا الأزمنَةُ: فمعنىٰ كونِ الزَّمـانِ مُباركًا؛ مثلَ شهرِ رمضانَ أو بعضِ أيَّام الله الفاضلةِ؛ يعني أنَّ من تعبَّد فيها ورَامَ الخيرَ فيها، فإنَّه ينالُه من كثرةِ الثَّوابِ ما لا ينالُه في غير ذلكَ الزَّمانِ.

والقسمُ الثَّاني البَركةُ المَنوطةُ ببني آدمَ: والبَركةُ الَّتي جعلَها الله جَلَّوَعَلَا في النَّاس إنَّما هي بَركةٌ فيمن آمنَ؛ لأنَّ البَركةَ منَ الله جَلَّوَعَلَا، وجعلَ بركتَه للمُؤمنينَ بِهِ، وسادةُ المُؤمنينَ هم الأنبياءُ والرُّسلُ، والأنبياءُ والرُّسل بَركتُهم بَركةٌ ذاتيَّةٌ؛ يعني: أنَّ أجسامهم مُباركةٌ، فالله جَلَّوَعَلَا جعلَ جسدَ آدمَ مُباركًا، وجعلَ جسدَ إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مُباركًا، وجعلَ جسد نوحٍ مُباركًا، وهكذا جسدُ عيسىٰ وموسىٰ عليهم جميعا الصَّلاة والسَّلام، جعلَ أجسادَهم مُباركةً؛ بمعنىٰ: أنَّه لو تبرَّكَ أحدٌ من أقوامِهم بأجسادِهم إمَّا

بالتَّمسُّح بها أو بأخذِ عَرَقِها أو بأخذِ بعضِ الشَّعر= فهٰذا جائزٌ؛ لأنَّ الله جعلَ أجسادَهم مُباركةً.

وهكذا النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ محمَّدُ بن عبدِ الله جسدُه أيضًا جسدٌ مُباركٌ، ولهٰذا جاءت الأدلَّة في السُّنَّة أنَّ الصَّحابة كانوا يتبرَّكونَ بعَرَقِه، يتبرَّكون بشَعرِه، وإذا توضَّأ اقتتلوا علىٰ وَضوئِه، وهكذا في أشياء شتَّىٰ.

ذلك لأنَّ أجسادَ الأنبياءِ فيها بَركةٌ ذاتيَّةٌ يمكن معها نقلُ أثرِ هٰذه البَركةِ أو نقلُ البَركةِ والفَضلِ والخيرِ من أجسادِهم إلىٰ غيرِهم.

وهٰذا مَخصوصٌ بالأنبياءِ والرُّسل، أمَّا غيرُهم فلم يَردْ دليلٌ علىٰ أنَّ ثَمَّ من أصحابِ الأنبياءِ مَنْ بَركتُهم بَركةٌ ذاتيَّةٌ، حتَّىٰ أفضلُ هٰذه الأمَّةِ أبو بكرٍ وعمرُ فقد جاءَ بالتَّواتُرِ القطعيِّ أنَّ الصَّحابةَ والتَّابعين والمُخَضرمين لم يكونوا يتبرَّكون بأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ بجنسِ تَبرُّكِهم بالنَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتَّبرُّك بالشَّعر أو بالوَضوء أو بالنُّخامةِ أو بالعَرَقِ أو بالملابسِ ونحوِ ذلك.

فعلمنا من ذلك التَّواترِ القطعيِّ أنَّ بركةَ أبي بكرٍ وعمرَ إنَّما هي بركةُ عملٍ، ليست بركةَ ذاتٍ تنتقلُ كما هي بركةُ النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولهٰذا جاء في الحديثِ الصَّحيح الَّذي رواهُ البُخاريُّ في «صحيحِه» أنَّ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ**»، فدلَّ علىٰ أنَّ في كلِّ مسلمٍ بَركةً، وأيضًا فيه -يعني: في «البُخاريِّ»- قال أحدُ الصَّحابة: **مَا هُذِهِ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ**. هٰذه البَركةُ الَّتي أُضيفت لكلِّ مسلمٍ وأضيفت لآل أبي بكرٍ بَركةُ عملٍ، هٰذه البَركةُ راجعةٌ إلىٰ الإيمانِ وإلىٰ العلمِ والدَّعوةِ والعملِ.

فنقول: كلُّ مسلمٍ فيه بَركةٌ، هٰذه البَركةُ ليست بَركةَ ذاتٍ، وإنَّما هي بركةُ عملٍ، بَركةُ ما معه من الإسلامِ والإيمانِ وما في قلبِه من الإيقانِ والتَّعظيمِ لله جَلَّوَعَلَا والإجلالِ له، والإتِّباعِ لرَسولِه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

هٰذه البَركة بَركةُ العلمِ أو بَركةُ العملِ أو بَركةُ الصَّلاحِ لا تنتقلُ، وبالتَّالي يكون التَّبرُّك بأهلِ الصَّلاح هو الاقتداءُ بهم في صلاحِهم؛ التَّبرُّك بأهلِ العلمِ هو الأخذُ من علمِهم والاستفادةُ من علومِهم، وهكذا، ولا يجوزُ أنْ يُتبرَّك بهمْ بمعنىٰ يُتمسَّح بهمْ أو يُتبرَّك بريقِهم؛ لأنَّ أفْضَلَ الخلْقِ من هٰذه الأمَّةِ لم يفعلوا ذلك مع خيرِ هٰذه الأمَّة أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ. وهٰذا أمرٌ مقطوعٌ به.

تبرُّك المُشركين أنَّهم كانوا يرجون كثرةَ الخيرِ ودوامَ الخيرِ ولُزومَ الخيرِ وثَباتَ الخيرِ بالتَّوجُّه إلىٰ الآلهة.

وهٰذه الآلهة:

- يكون منها الصَّنمُ الَّذي من الحجارةِ.
- ويكون منها القبرُ من التُّرابِ.
- ويكون منها الوَثنُ.
- ويكون منها الشَّجرُ.
- ويكون منها البقاعُ المُختلِفةُ؛ غارٌ أو عينُ ماءٍ أو نحوُ ذلك.

هٰذه التَّبرُّكات المُختلِفة جميعُها تبرُّكاتٌ شِركيَّةٌ، ولهٰذا جاء الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (**بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا**)، (**مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ**) الشَّجر جمعُ شجرةٍ والشَّجر معروفٌ والحجرُ معروفٌ، ذلك أنَّ المُشركين كانوا يتبرَّكون بالأشجارِ والأحجارِ، حتَّىٰ في أوَّل الدَّعوة في هٰذه البلادِ كانت الأشجارُ كثيرةً الَّتي يُتبرَّكُ بها والأحجارُ كثيرةٌ.

قال: (**وَنَحْوِهِمَا**) يعني نحو الشَّجرِ والحجرِ مثلَ البقاعِ المُختلِفةِ أو غارٍ مُعيَّنٍ أو قبرٍ مُعيَّنٍ أو عينٍ ما أو نحوِ ذلك من الأشياءِ الَّتي يَعتقِدُ فيها أصلَ الجهالةِ.

ما حكمُه؟ الجواب: أنَّه مُشركٌ كما صرَّح به الشَّيخ عبد الرَّحمٰن بن حسنٍ في شرحِه «فتحِ المجيدِ».

بابُ من تبرَّك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوِهما فهو مُشركٌ.

الشُّرَّاح في هٰذا الموضعِ لم يُفصِحوا هل شرك المتبرِّك بالشَّجر أو الحجر شركٌ أكبرُ؟ أو شركٌ أصغرُ؟

وإنَّما أدار المعنىٰ الشَّيخ سليمانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**التَّيسير**» بعد أنْ ساقَ تفسيرَ آية النَّجم ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾، قال في آخرِه: مناسبةُ الآيةِ للتَّرجمةِ أنَّه إنْ كان التَّبرُّك شركًا أكبرَ فظاهرٌ، وإنْ كان شركًا أصغرَ فالسَّلف يستدلُّون بالآيات الَّتي نزلت في الأكبرِ علىٰ الأصغرِ.

وتحقيقُ هٰذا المقام: أنَّ التَّبرُّك بالشَّجرِ أو الحجرِ أو بالقبرِ أو ببقاعٍ مُختلفةٍ قد يكون شركًا أكبرَ وقد يكون شركًا أصغرَ:

♦ يكون شركًا أكبرَ: إذا طلبَ بَركتَها مُعتقدًا أنَّ هٰذا الشَّجرَ أو الحجرَ أو القبرَ إذا تمسَّح به أو تمرَّغ عليهِ أو التصق به يتوسَّطُ له عندَ الله، فإذا اعتقدَ فيه أنَّه وسيلةٌ إلىٰ الله، فهٰذا اتِّخاذُ إلـهٍ مع الله جَلَّ وَعَلَا وشركٌ أكبرُ، وهٰذا هو الَّذي كان يزعمُه أهلُ الجاهليَّة للأحجارِ والأشجارِ الَّتي يعبُدونها، وبالقُبور الَّتي يتبرَّكون بها، يعتقِدون أنَّهم إذا عكفوا عندَها وتمسَّحوا بها وبالقُبور أو نثروا التُّراب عليها فإنَّ هٰذه البقعةَ أو صاحبَ هٰذه البقعةِ أو الرَّوحانيَّةَ؛ الرُّوح الَّتي تخدمُ هٰذه البُقعةَ أنَّه يتوسَّط له عند الله جَلَّ وَعَلَا، فهٰذا

راجعٌ إلىٰ اتِّخاذ أندادٍ مع الله جَلَّوَعَلَا، قد قال سبحان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزُّمر:3].

♦ ويكون **التَّبرُّك شركًا أصغرَ**: إذا كان هٰذا التَّبرُّك بنثرِ التُّراب عليه، أو إلصاقِ الجسمِ بذلك، أو التَّبرُّك بعينٍ ونحوِها، إذا كان من جهةِ أنَّه جعلَه سببًا لحصول البَركةِ، بدونِ اعتقادِ أنَّه يوصل إلىٰ الله؛ يعني جعلَه سببًا مثلَ ما يجعل لابسُ التَّميمةِ أو لابسُ الحلْقةِ أو لابسُ الخيطِ، جعلَ تلكَ الأشياءَ سببًا، فإذا أخذَ ترابَ القبرِ ونثره عليه لاعتقادِه أنَّ هٰذا التُّرابَ مُباركٌ وإذا لامسَ جسمَه فإنَّ جسمَه يتباركُ من جهة السَّببيَّة فهٰذا شركٌ أصغرُ؛ لأنَّه ما صرفَ عبادةً لغير الله جَلَّوَعَلَا، وإنَّما اعتقدَ ما ليس سببًا مأذونًا به شرعًا سببًا.

وأمَّا إذا تمسَّح بها -كما هي الحالُ الأولىٰ- تمسَّح بها وتمرَّغ والتصقَ بها لتُوصله إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فهٰذا شركٌ أكبرُ مُخرجٌ من الملَّة.

ولهٰذا قال الشَّيخ سليمانُ -كما ذكرتُ لك-:

- إنْ كان الشِّرك شركًا أكبرَ فظاهرٌ في الاستدلالِ بالآية.
- وإن كان شركًا أصغرَ فالسَّلف يستدلُّون بما نزل في الأكبرِ علىٰ ما يُريدون من الاستدلالِ في مسائلِ الشِّرك الأصغرِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وقولُ الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ الآيات)، ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ هٰذه الثَّلاث ذَكرتُ لكم أنَّ الهمزةَ من قبل -يعني بالأمسِ- أنَّ همزةَ الاستفهامِ إذا أتىٰ بعدَها فاءٌ فإنَّه يكونُ بينها وبين الفاءِ جملةٌ دلَّ عليها السِّياقُ، فمن أوَّل سورةِ النَّجم إلىٰ هٰذا الموضعِ يدلُّ علىٰ المحذوفِ.

قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾، ﴿ٱللَّٰتَ﴾ هٰذه صخرةٌ بيضاءُ عند أهل الطَّائف، وما هُدمت إلَّا بعد أن أسلمت ثقيفُ؛ أرسلَ لها النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المُغيرةَ بن شعبةٍ فهدَمَها وكسَّرها، وكان عليها بيتٌ ولها سَدَنَةٌ ولها خدمٌ.

المقصود أنَّ ﴿ٱللَّٰتَ﴾ صخرةٌ وُصفتْ بأنَّها بيضاءُ.

وفي قراءة ابن عبَّاسٍ وغيرِه من السَّلف قرؤُوها ﴿اللَّاتَّ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَّ﴾، واللَّاتُّ هٰذا رجلٌ كان يلتُّ السَّويق، وكان يُعطيهم السَّويق:

- في روايةٍ علىٰ صخرةٍ، فعظَّموا تلكَ الصَّخرة.
- وفي روايةٍ أخرىٰ -يعني: عن السَّلف- أنَّه كان يلتُّ لهم السَّويق فلمَّا مات عكفوا علىٰ قبره.

فتحصَّل من هٰذا أنَّ اللَّاتَ صخرةٌ، وإذا قُرئت اللَّاتَّ فيكون قبرًا أو صخرةً كان يَتعبَّد عندها ويتصدَّق ذاك الَّذي كان يلتُّ السَّويق.

﴿ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ شجرةٌ كانت بين مكَّة والطَّائف، وكانت في الأصل شجرةً ثمَّ بُني بناءٌ علىٰ ثلاث سَمُرَاتٍ، وكان هناك لها سدنةٌ وكانت امرأةٌ كاهنةٌ هي الَّتي تخدمُ ذلك الشِّرك، ولمَّا فتح النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّة أرسل إليها خالدَ بن الوليدِ فقطع الأشجارَ الثَّلاثَ؛ السَّمُرَاتُ الثَّلاث، وقتلَ من قتلَ، فلمَّا رجع وأخبر النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال له «**ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا**»، فرجع فرآه السَّدنةُ ففرُّوا إلىٰ الجبلِ، ثمَّ رأىٰ مرأةً ناشرةً شعرَها عُريانةً -هي: الكاهنة الَّتي كانت تخدمُ ذلك الشِّرك وتُحضر الجنَّ لإضلال النَّاس في ذلك المَوضعِ-، فرآها فعلاها بالسَّيف حتَّىٰ قتلها، فرجع إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تِلْكَ الْعُزَّىٰ**».

المَقصود أنَّ العزىٰ اسمٌ لشجرةٍ كانت في ذلك المَوضعِ، وفي الحقيقة تَعلُّقُ النَّاس كان بتلك الشَّجرةِ وبالمرأةِ الَّتي كانت تخدِمُ ذلك الشِّرك، فلو قُطعت الأشجارُ وبقيت المرأةُ فإنَّ المرأةَ ستُغري النَّاس مرَّةً أُخرىٰ بما تذكُرُه لهم أو ما تحكيه لهم أو ما تُجيب به مَطلبَهم عن طريق الجنِّ، فيكون الشِّرك ما انقطعَ، ولهٰذا قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تِلْكَ الْعُزَّىٰ**». يعني في الحقيقة هي المرأةُ الَّتي تُغري النَّاسَ بذلكَ وإلَّا فهي شجرةٌ.

كذلك (**مَنَاةُ**) قال: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾، ﴿ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ يعني الوضيعةَ الحقيرةَ، (**مَنَاةُ**) هٰذه أيضًا صخرةٌ، سُمِّيت (**مَنَاة**) لكثرةِ ما يُمْنىٰ عليها من دماءٍ تعظيمًا لهَا.

وجه مناسبةِ الآية للتَّرجمة أنَّ اللَّاتَ صخرةٌ ومَنَاةَ صخرةٌ والعُزَّىٰ شجرةٌ، وما كان يفعلُه المُشركون عند هٰذه الثَّلاث فهو عينُ ما يفعلُه المُشركون في الأزمنة المُتأخِّرةِ عند الأشجارِ والأحجارِ والغيرانِ والقُبور، ومن قرأ شيئًا ممَّا يصنعُه المشركون عَلمَ غُربةَ الإسلامِ في هٰذه البلادِ قبل هٰذه الدَّعوةِ، وأنَّ النَّاس كانوا علىٰ شِركٍ عظيمٍ، وإذا تأمَّلت أحوالَ ما حولَك من البلادِ الَّتي ينتشرُ فيها الشِّرك وجدتَّ مَنْ اتَّخذ الأشجارَ والأحجارَ آلهةً ويَتبرَّك بها الشَّيءَ الكثيرَ.

أعظمُ من ذلكَ اتِّخاذُ القُبور آلهةً يُتوجَّه إليها ويُتعبَّدُ عندَها.

[الدَّليلُ الثَّاني] ثمَّ ساق حديثَ أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قال: (عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾[الأعراف]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ) هٰذا الحديثُ حديثٌ صحيحٌ عظيمٌ.

والمُشركون كانت لهم سِدرةٌ - شجرةٌ- لهم فيها اعتقادٌ، واعتقادُهم فيها يشملُ ثلاثة أشياءٍ:

الأوَّل: أنَّهم كانوا يُعظِّمونها.

الثَّاني: أنَّهم كانوا يَعكُفُون عندَها.

الثَّالث: أنَّهم كانوا يَنوطون بها الأسلحةَ رجاءَ نقلِ البَركةِ من الشَّجرة إلىٰ السِّلاح؛ حتَّىٰ يكونَ أمضىٰ وحتَّىٰ يكونَ خيرُه لحاملِه أكثرَ.

وفِعْلُهم هٰذا شركٌ أكبرُ؛ لأنَّهم عظَّموها وعكفُوا عندَها، **والعُكوفُ عبادةٌ؛ وهو: مُلازمةُ الشَّيء علىٰ وجهِ التَّعظيمِ والقُربةِ**، والثَّالثُ أنَّهم طلبوا منها البَركةَ.

فصار شركُهم أكبرَ لأجلِ هٰذه الثَّلاث مُجتمعةً.

الصَّحابة رضوانُ الله عليهم الَّذين كانوا حديثي عهدٍ بكُفرٍ قالوا: (اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) ظنُّوا أنَّ هٰذا لا يدخلُ في الشِّرك وأنَّ كلمةَ التَّوحيد لا تَهدمُ هٰذا الفعلَ.

ولهٰذا قال العلماءُ: قد يغيبُ عن بعضِ الفُضلاءِ بعضُ مسائلِ الشِّرك؛ لأنَّ الصَّحابة وهم أعرفُ النَّاس باللُّغة، هؤلاءِ الَّذين كانَ إسلامُهم بعدَ الفتحِ خَفِيَتْ عليهم بعضُ أفرادِ توحيدِ العبادةِ.

فقال رسولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾**) شبَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وانتبَه لهٰذا- المَقالةَ بالمَقالةِ.

معلومٌ أنَّ أولئكَ عبدوا غيرَ اللهِ؛ عبدوا ذاتَ الأنواطِ، وأمَّا أولئكَ فإنَّما طلبوا بالقولِ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شبَّه القولَ بقولِ قومِ موسىٰ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ ولم يفعلوا ما طلبوا، ولمَّا نهاهم النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهَوا، ولو فعلوا ما طلبوا لكان شركًا أكبرَ؛ **لكن لمَّا قالوا وطلبوا دونَ فعلٍ صارَ قولُهم شركًا أصغرَ؛ لأنَّه كان فيه نوعُ تَعلُّقٍ بغيرِ الله** جَلَّ وَعَلَا.

لهٰذا نقول: إنَّ أولئكَ الصَّحابة الَّذين طلبوا هٰذا الطَّلب لمَّا نهاهم النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهَوْا، وهم لا

يعلمون أنَّ هٰذا الَّذي طلبوه غيرُ جائزٍ، وإلَّا فلا يُظنُّ بهم أنَّهم يُخالفون أمرَ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ويرغبون في معصيتِه.

فإذن صار الشِّركُ في مَقالِهم، وأمَّا الفعلُ فلم يفعلوا شيئًا من الشِّرك، وهٰذا الَّذي قالوهُ قال العلماء: هو شركٌ أصغرُ وليس بشركٍ أكبرَ، ولهٰذا لم يأمرهم النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بتجديدِ إسلامِهم.

دلَّ علىٰ ذلك قولُه: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ**» فشبَّه المَقالةَ بالمَقالةِ، وقد قال الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ في المسائلِ: إنَّهم لم يكفُروا، وأنَّ الشِّركَ منه أكبرُ ومنه أصغرُ؛ لأنَّه لم يأمُرهم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بتجديدِ الإسلامِ.

ظاهرٌ من هٰذا أنَّ الشِّرك الأكبرَ الَّذي كان فيه المُشركون لم يكنْ راجعًا إلىٰ التَّبرُّك بذاتِ الأنواطِ فقطْ، وإنَّما كان بالتَّعظيمِ والعُكوفِ والتَّبرُّكِ بالتَّعليقِ، وقد قلتُ لك: إنَّ التَّبرُّك بالشَّجرِ والحجرِ ونحوِ ذلك إذا كان فيه اعتقادُ أنَّ هٰذا الشَّيء يُقرِّب إلىٰ اللهِ، وأنَّه يرفعُ الحاجةَ إلىٰ الله، أو أنْ تكونَ حاجاتُهم أرجىٰ إجابةً، وأمورُهم أحسنَ إذا تبرَّكوا بهٰذا المَوضعِ، فهٰذا شركٌ أكبرُ، وهٰذا الَّذي كان يصنعُه أهلُ الجاهليَّةِ لهٰذا قلتُ لك إنَّ فعلَهم يشملُ ثلاثةَ أشياءٍ:

- التَّعظيم -**تعظيم العبادةِ**- وهٰذا لا يجوز إلَّا لله؛ تعظيمُ أنَّ هٰذا يتوصَّل ويتوسَّط لهم عند الله جَلَّوَعَلَا وهٰذا لا يجوزُ وهٰذا من أنواعِ العبادةِ، واعتقادٌ شِركيٌّ.
- والثَّاني أنَّهم عكفوا عندَها ولازَموا، **والعُكوفُ والمُلازمةُ** نوعُ عبادةٍ، فإذا عَكف ولازم تقرُّبًا ورَجاءً ورَغبةً ورهبة ومَحبَّةً هٰذا نوعٌ من العبادةِ.
- والثَّالث **التَّبرُّك**.

فإذن يكون الشِّركُ الأكبرُ ما ضمَّ هٰذه الثَّلاث.

وإذا تأمَّلتَ ما يصنعُه عُبَّادُ القُبور والخُرافيُّون في الأزمنة المُتأخِّرةِ وفي زمانِنا هٰذا، وجدتَ أنَّهم يصنعون كما كان المُشركون الأوَّلون يصنَعون عندَ اللَّات وعندَ العُزَّىٰ وعندَ مَناةٍ وعندَ ذاتِ أنواطٍ، فإنَّهم يعتقدون في القبرِ؛ بل يعتقِدونَ في الحديدِ الَّذي يُسيَّجُ به القبرُ، فالمَشاهِدُ المُختلِفَةُ في البلادِ الَّتي يفشو فيها الشِّرك أو يظهر فيها الشِّرك، تجد أنَّ النَّاس يعتقِدون في الحائطِ الَّذي علىٰ القبرِ، أو في الشُّبَّاكِ الحديديِّ الَّذي يُحيط بالقبرِ، فإذا تمَسَّحوا به كأنَّهم تمسَّحوا بالمقبُور، واتَّصلت روحُهم بأنَّه سيتوسَّط لهم لأنَّهم عظَّموهُ، هٰذا شركٌ أكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا لأنَّه رجع إلىٰ تعلُّقِ القلبِ في جلبِ النَّفعِ وفي دفعِ الضَّرِّ بغير الله جَلَّوَعَلَا وجعلِه وسيلةً إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا كفعل الأوَّلين الَّذين قال الله فيهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ

إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزُّمر:3].

وأمَّا في الحالِ الأُخرىٰ -الَّتي نبَّهتُكَ في أوَّل المقامِ عليها- مِن أنَّه يجعلُ بعضَ التَّمسُّحات أسبابًا، مثلَ ما ترىٰ بعضَ النَّاس الجهلةِ يأتي في الحرمِ ويتمسَّحُ بأبوابِ الحرمِ الخارجيَّةِ، أو ببعضِ الجُدرانِ، أو ببعضِ الأعمدةِ.

فهٰذا إنْ ظنَّ أنَّ ثَمَّ روحًا في هٰذا العَمودِ، أو هناك أحدٌ مدفونٌ بالقربِ منه، أو ثمَّ من يخدِمُ هٰذا العمودَ من الأرواح الطَّيِّبةِ -كما يقولون-، فتمسَّح لأجلِ أنْ يصلَ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا فهٰذا شركٌ أكبرُ.

وأمَّا إذا تمسَّح باعتقادِ أنَّ هٰذا المقامَ مُباركٌ وأنَّ هٰذا سببٌ قد يشفيهِ، إذنْ قُلنا: إذا كان يتمسَّح بجعلِه سببًا فهٰذا يكونُ شركًا أصغرَ.

وإذا كان تعلَّق قلبُه بهٰذا المُتمسَّحِ به والمُتبرَّكِ به وعَظَّمَه ولازمَه واعتقدَ أنَّ ثمَّة روحًا هنا، أو أنَّه يتوسَّل به إلىٰ الله فإنَّ هٰذا شركٌ أكبرُ.(1)



[الأسئلة]

[سؤال (9)]: ما معنىٰ قولِهم الشِّرك الأصغرُ أكبرُ من الكبائرِ؟ وكيفَ يكونُ كذلكَ والشِّركُ الأكبرُ من الكبائرِ إذ هو من الكبائرِ؟ فنرجو إزالةَ الإشكالِ.

الجواب: هٰذا أيضًا أوضحتُه بالأمس: وهو أنَّ الكبائرَ قسمان:

- قسمٌ منها راجعٌ إلىٰ جهةِ الاعتقادِ، والعملِ الَّذي يصحبُه اعتقادٌ.
- وقسمٌ منها راجعٌ إلىٰ جهةِ العملِ الَّذي لا يصحبُه اعتقادٌ.

مثال الأوَّل الَّذي يصحبُه اعتقادٌ: أنواعُ الشِّرك بالله من الاستغاثةِ بغيرِه، ومن الذَّبح لغيرِ الله، ومن النَّذرِ لغيرِ الله ونحوِ ذلك، فهٰذه الأعمالُ ظاهرةٌ هي كبائرُ يصحبُها اعتقادٌ جعلَها شركًا أكبرَ، فهي في ظاهرِها صرفُ عبادةٍ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا، وقام بقلبِ صاحبِها الشِّرك باللهِ بتعظيمِ هٰذا المَخلوقِ وجعلِه يستحقُّ هٰذا النَّوعَ من العبادةِ إمَّا علىٰ جهةِ الاستقلالِ أو لأجلِ أن يتوسَّط.

والقسمُ الثَّاني الكبائرُ العمليَّة الَّتي تُعمَل لا علىٰ وجهِ اعتقادٍ، مثلَ الزِّنىٰ وشُربِ الخمرِ والسَّرقةِ وأكلِ الرِّبا وأكلِ مالِ اليتيمِ والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ ونحوِ ذلك من الكبائرِ والموبِقاتِ، فهٰذه تُعمَل دون اعتقادٍ لهٰذا صارت الكبائرُ علىٰ قسمين.

(1) انتهىٰ الشريط الرابع.

نقول: الشِّرك الأصغرُ، ومن باب أولىٰ الشِّرك الأكبرُ هٰذا جنسُه أكبرُ من الكبائر؛ يعني العمليَّة، فأنواع الشِّرك الأصغرِ ولو كان لفظيًّا مثلَ قولِ: ما شاء الله وشئتَ، مثلَ الحَلِف بغيرِ الله، أو نسبةِ النِّعمِ إلىٰ غيرِ الله، أو نسبةِ اندفاعِ النِّقمِ إلىٰ غيرِ الله، أو تعليقِ التَّمائمِ ونحوِ ذلك. هٰذه من حيثُ الجنسُ أعظمُ -هي كبائرُ- من كبائرِ العملِ الَّذي لا يُصاحبُه اعتقادٌ؛ وذاك لأنَّ الأعمال تلكَ كالزِّنىٰ والسَّرقةِ ونحوِها من الكبائرِ العمليَّةِ هٰذه ليس فيها سوءُ ظنٍّ بالله جَلَّوَعَلَا وليس فيها صرفُ عبادةٍ لغيرِ الله أو نسبةُ شيءٍ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا، وإنَّما هي من جهةِ الشَّهوات، والأخرىٰ هي من جهةِ الاعتقادِ لغيرِ الله وجعلِ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا نِدًّا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأعظمُ الذَّنب أن يجعلَ المرءُ لله ندًّا وهو خلقَه جَلَّوَعَلَا.

سؤال (10): لماذا لم يُبيِّن الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الشِّرك للصَّحابة قبل أن يقعوا فيه في حديث ذاتِ الأنواطِ؟

الجواب: من المعلوم أنَّ الشَّريعة جاءت بالإثباتِ المُفصَّل والنَّفي المُجمَلِ، والنَّفيُ إذا كان مُجمَلًا فإنَّه يندرج تحتَه صورٌ كثيرةٌ يُدخلها من فهم النَّفي في الدِّلالة، فلا يَحتاجُ مع النَّفي علىٰ أن يُنبَّه كلَّ فَردٍ فردٍ.

لهٰذا نقول: من فهم (لا إله إلَّا الله) لم يُحتجْ إلىٰ أنْ يُفصَّل له كلَّ مسألةٍ من المسائل، فمثلًا النَّذر لغيرِ الله ليس فيه حديثٌ: النَّذر لغيرِ الله شركٌ، والذَّبحُ لغيرِ الله ليسَ فيه حديثٌ: الذَّبح لغيرِ الله شركٌ، ونحوُ ذلك من الألفاظِ الصَّريحةِ، وهكذا في العُكوف عند القُبور، أو العُكوف والتَّبرُّك عند الأشجارِ والأحجارِ، لم يأتِ فيها شيئًا صَريحًا؛ لكنَّ نفيَ إلٰهيَّة غيرِ الله جَلَّوَعَلَا يدخلُ فيها عندَ من فهم معنىٰ العبادةِ كلُّ الصُّورِ الشِّركيَّةِ.

ولهٰذا الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ فهموا ما دخل تحت هٰذا النَّفي، ولم يطلب ذاتَ أنواطٍ كما للمشركين ذاتُ أنواطٍ إلَّا من كان حديثَ عهدٍ بكفرٍ؛ يعني لم يُسلِمْ إلَّا قريبًا، وهم قلَّةٌ ممَّن كانوا مع النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مسيره إلىٰ حُنينٍ.

والإثبات يكون مُفصَّلًا، وتفصيلُ الإثبات:

تارةً يكون بالتَّنصيص.

وتارةً يكون بالدِّلالة العامَّة من وجوبِ إفرادِ الله جَلَّوَعَلَا بالعبادةِ، مثلًا ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓ﴾[1] ونحوِ ذلك من الآيات.

والأدلَّة الخاصَّةُ بالعبادة كقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ٧﴾[الإنسان]، وكقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢﴾[الكوثر]، وكقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:9]، فهٰذه أدلَّة إثباتٍ تُثبتُ أنَّ تلك المسائلَ من العباداتِ، وإذا كانت من العبادات فقَوْلُ: (لا إلـه إلَّا الله) يقتضي بالمُطابقة أنَّه لا تُصرفُ العبادة إلَّا لله جَلَّ وَعَلَا.

إذن فيكون ما طلبه أولئك من القَول الَّذي يعملونه راجعًا إلىٰ عدمِ فهمهم أنَّ تلك الصُّورة داخلةٌ فيما نُفي لهم مُجمَلًا بقوله: لا إله إلَّا الله.

سؤال (11): فضيلة الشَّيخ: ما حكم التَّبرُّك بالصَّالحين وبماء زمزمَ والتَّعلُّق بأستارِ الكعبةِ؟

التَّبرُّك بالصَّالحين قسمان:

- تبرُّكٌ بذواتِهم، بعَرَقِهم، بسؤرِهم -يعني بقيَّة الشَّراب-، بلُعابِهم الَّذي اختلطَ بالنَّوىٰ مثلًا أو ببعضِ الطَّعام، أو التَّبرُّك بشعرِهم، أو نحوِ ذلك، فهٰذا لا يجوزُ وهو من البدع المُحدثَةِ، وقد ذكرت لكم أنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يعملون مع أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ -وهم سادةُ أولياء هٰذه الأمَّة- شيئًا من ذلك، وإنَّما فعله الخُلوف الَّذين يفعلون ما لا يُؤمرون ويتركون ما أُمِروا به.
- والقسم الثَّاني بركةُ عملٍ: وهي الاقتداء بالصَّالحين في صلاحِهم، والاستفادةُ من أهل العلم، التَّأثُّر بأهل الصَّلاح، وهٰذا أمرٌ مَطلوبٌ، والتَّبرُّك بالصَّالحين بهٰذا المعنىٰ مَطلوبٌ شرعًا.

أمَّا التَّبرُّك بالذَّات كما كان يُفعل مع النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهٰذا ليس لأحدٍ إلَّا للنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

أمَّا التَّبرُّك بماء زمزمَ فإنَّ شُرْبَ ماءِ زمزمَ بما جاء به الدَّليل ولِمَا جاء به الدَّليلُ لا بأس به، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في ماء زمزمَ: «**إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفاءُ سُقْمٍ**» فمن شربَها طعامًا أو شفاءَ سُقمٍ شربَ بما دلَّ عليه الدَّليل، كذلك شربُها لغرضٍ من الأغراض الَّتي يُريد أن يُحقِّقها لنفسِه فهٰذا أيضًا جائزٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**».

فإذن: أن يجعلَ ماءَ زمزمَ سببًا لأشياءٍ يُريدها، فهٰذا راجعٌ إلىٰ أنَّه سببٌ أُذنَ به شرعًا.

ولو شربَ ماءً آخرَ مثلًا، ماء صحَّةٍ وأراد بشربِ هٰذا الماء أن يحفظ القرآنَ، فيكونُ هٰذا اعتقادًا

---

(1) الأعراف:59، 65، 73، 85، هود:50، 61، 84، المؤمنون:23، 32.

خاطئًا؛ لأنَّه ما جاء فيه الدَّليل هو الَّذي يَجعلُ ذلك السَّبب مُؤثِّرًا أو جائزًا أن يُعتقَد أنَّه مُؤثِّرٌ.

أمَّا **التَّعلُّق بأستارِ الكعبةِ** رجاءَ البَركة هٰذا من وسائلِ الشِّرك ومن الشِّرك الأصغرِ كما ذكرتُ لكم بالأمسِ إذا اعتقد أنَّ ذلك التَّبرُّك سببٌ.

أمَّا إذا اعتقدَ أنَّ الكعبةَ ترفع أمره إلىٰ الله أو أنَّه إذا فعلَ ذلك عَظُم قدرُه عندَ الله وأنَّ الكعبةَ يكون لها شفاعةٌ عندَ الله أو نحوُ تلك الاعتقادات الَّتي فيها اتِّخاذُ الوسائل إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فهٰذا يكون التَّبرُّك علىٰ ذاك النَّحو شركًا أكبرَ.

ولهٰذا يقول كثيرٌ من أهل العلم: إنَّ أنواعَ هٰذا التَّبرُّك بحيطانِ المسجدِ المُحرَّمِ أو بالكعبةِ ونحوِ ذلك، أو بمقامِ إبراهيمَ التَّمسُّح بذلكَ رجاءَ البَركةِ من وسائلِ الشِّرك؛ بل هو من الشِّرك، من وسائلِ الشِّرك الأكبرِ، بل هو من الشِّرك يعني الشِّرك الأصغرَ كما قرَّر ذلك الإمامُ الشَّيخ مُحمَّد بن إبراهيمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.][1]

[**سؤال** (12): وهٰذا يقول: ما رأيُكم في امرأةٍ طلبت من قريبٍ لها ذاهبٍ إلىٰ مكَّةَ أنْ يشتريَ لها كفنًا من هناك وأن يغسل الكفن بماءِ زمزمَ، يقول: وهٰذا الأمر مُنتشرٌ، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: هٰذا تبرُّكٌ بما يُباع في مكَّة واعتقادٌ فيه، وهٰذا باطلٌ، ولا يجوز؛ لأنَّ ما يُباع في مكَّة ليس له خُصوصيَّةٌ في البَركةِ وليس له خُصوصيَّةٌ في النَّفع؛ بل هو وما يُباع في غيرِه سواءٌ، هو وما يُباع في غيرِ الحرمِ سواءٌ.

وأمَّا غسلُه بماء زمزمَ لرجاءِ أنْ يكون ذلك الكفنُ فيه من بركة ماءِ زمزمَ فكذلك هٰذا غلطٌ؛ لأنَّ بَركة ماءِ زمزمَ مُقيَّدةٌ بما وردَ فيه الدَّليل، ليست بَركةً عامَّةً إنَّما هي بَركةٌ خاصَّةٌ بما جاء فيه الدَّليل، ولهٰذا الصَّحابة رضوانُ الله عليهم لم يكونوا يستعملون ماءَ زمزمَ إلَّا فيما جاءت به الأدلَّة من مثل: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**» ومن مثل قولِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في زمزمَ: «**إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سُقْمٍ**»، أمَّا التَّبرُّك بها في غير ذلك فهٰذا ليس له أصلٌ شرعيٌّ.

سؤال (13): وهٰذا يقول: ما حكم الاغتسال بماء زمزمَ والماءِ المَقروءِ فيه بالقرآنِ في بيوتِ

---

(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الخامسِ. قال الشيخ صالح العصيمي في تعليقه علىٰ تحفة الناسك: **الالتزام؛ هو أن يُلصق الإنسان بدنه بالبيت ويضع خدَّه الأيمن عليه**، ويبقىٰ وراء هذا الالتزام في هذا المحل الوارد عن السَّلف؛ النَّظر إلىٰ التعلُّق بأستار الكعبة، والمراد **بالتعلق بأستار الكعبة؛ التزام جهات الكعبة الأخرىٰ غير هذا الموضع**، فإنَّ هذا الموضع ثبتت فيه الآثار، وأمَّا سائر الجهات فلا أعلم فيها أثرًا خاصًّا، لا من المرفوع ولا من الموقوف؛ **لكن الَّذي يظهر والله أعلم**؛ جواز التعلق بأستار الكعبة.

وذكر الشيخ أيضا في مناسج الحج لأبن عبد السلام أنه فرق بين التمسح بأستار الكعبة رجاء البركة وهو ممنوع، وبين التعلق بها لتعظيم الدعاء وهو جائز. انظر الاختيارات الفقهية علىٰ الرابط: https://t.me/wwwattafreegh/1845

الخلاءِ؟

الجواب: لا بأسَ في ذلك؛ لأنَّه ليس فيه قرآنٌ مكتوبٌ وليس فيه المُصحفُ مكتوبًا، وإنَّما فيه الرِّيحُ، النَّفس، الهواءُ، الَّذي خالطه المُصحف أو خالطتْه القراءةُ، ومن المَعلوم أنَّ أهلَ مكَّة في أزمنتِهم الأولىٰ كانوا يستعملون ماءَ زمزمَ ولم يكن عندَهم غيرُ ماءِ زمزمَ.

فالصَّواب ألَّا كراهةَ في ذلكَ وأنَّه جائزٌ، والماءُ ليس فيه قرآنٌ، إنَّما فيه نفسٌ بالقرآنِ وفرقٌ بين المَقامين.][1]

(1) مأخوذٌ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّابع من بابِ الشَّفاعة.

10- **بَابٌ**

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللّٰه

[1] **وَقَوْلِ اللّٰه تَعَالَى:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام] **الآيَةَ.**

[2] **وَقَوْلِـــهِ :** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾[الكوثر].

[3] عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[4] وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا؛ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قال بعد ذلك: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللّٰه**) من الوعيد وأنَّه شركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا.

وقولُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللّٰه**)، (**الذَّبْح**) مَعروفٌ وهو إراقةُ الدَّم، و(**لِغَيْرِ اللّٰه**) اللَّام هٰذه يعني مُتقرِّبًا به إلىٰ غيرِ الله، ذبحَ لأجلِ غير الله.

الذَّبحُ فيه شيئان مُهمَّان، وهما نُكتةُ هٰذا الباب وعقدتُه:

الأوَّل: الذَّبح باسمِ الله، أو الذَّبح بالإهلالِ باسمِ ما.

والثَّاني: أن يذبحَ مُتقرِّبًا لما يُريد أنْ يتقرَّب إليه.

فإذن ثَمَّ تسميةٌ، وثَمَّ قصدٌ.

♦ أمَّا التَّسميةُ فظاهرٌ أنَّ ما ذُكرَ اسمُ الله عليه فإنَّه جائزٌ ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾[الأنعام]، وأنَّ ما لم يُذكر اسمُ الله عليه فهٰذا الَّذي أُهِلَّ لغيرِ الله؛ يعني ذُكر غيرُ اسمِ الله عليه فهٰذا أُهِلَّ لغيرِ لله به، ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[البقرة:173]، ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾(1).

---

(1) المائدة:3، النَّحل:115.

التَّسميةُ على الذَّبيحةِ من جهةِ المعنىٰ استعانةٌ، فإذا سمَّىٰ اللهَ فإنَّه استعانَ في هٰذا الذَّبح بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ الباء في قولِك: (باسم الله). يعني أذبحُ مُتبرِّكًا ومُستَعينًا بكلِّ اسمٍ لله جَلَّوَعَلَا، أو بالله جَلَّوَعَلَا الَّذي له الأسماءُ الحسنىٰ.

فإذن جهةُ التَّسمية جهةُ استعانةٍ.

♦ وأمَّا القصد فهٰذه جهة عُبوديَّةٍ ومَقاصدَ. فذبحُ باسم الله لله، كانت الاستعانة بالله والقصد من الذَّبح أنَّه لوجهِ الله تقرُّبًا لله جَلَّوَعَلَا.

فصارت الأحوالُ عندنا أربعةٌ:

الأوَّل: أن يذبحَ باسمِ الله لله، وهٰذا هو التَّوحيد.

الثَّانية: أن يذبحَ باسمِ الله لغيرِ الله، وهٰذا شركٌ في العبادة.

الثَّالثة: أن يذبحَ باسمِ غيرِ الله لغيرِ الله، وهٰذا شركٌ في الاستعانةِ، وشركٌ في العبادةِ أيضًا.

الرَّابعة: أن يذبحَ بغيرِ اسم الله ويجعل الذَّبيحةَ لله وهٰذا شركٌ في الرُّبوبيَّة.

فإذن الأحوالُ عندنا أربعةٌ إمَّا أن يكون تسميةٌ مع القصد لله جَلَّوَعَلَا وحدَه وهٰذا هو التَّوحيدُ وهو العبادةُ.

فالواجب أن يذبح لله قصدًا، تَقرُّبًا، وأنْ يُسمِّي الله جَلَّوَعَلَا علىٰ الذَّبيحةِ:

- فإنْ لم يسمِّ الله جَلَّوَعَلَا وترك التَّسميةَ عمدًا فإنَّ الذَّبيحة لا تحلُّ.
- وإن لم يقصد بالذَّبيحة التَّقرُّب إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا ولا التَّقرُّب لغيره، وإنَّما ذبحَها لأجلِ أضيافٍ عندَه أو لأجلِ أن يأكلَها؛ يعني ذبحَها لقصدِ اللَّحم لم يقصدْ بها التَّقرُّب فهٰذا جائزٌ وهو من المأذونِ فيه؛ لأنَّ الذَّبح لا يُشترط فيه أن ينويَ الذَّابحُ التَّقرُّب بالذَّبيحة إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

فإذن صار عندَك في المسألةِ الأولىٰ أو **الحال الأولىٰ** -مهمَّةٌ-: أن تعلم أنَّ ذكرَ اسم الله علىٰ الذَّبيحة واجبٌ، وأن يكون قصدُك بالتَّقرُّب بهٰذه الذَّبيحة -إن نويتَ بها تَقرُّبًا- أن يكون لله لا لغيرِه، وهٰذا مثلُ ما يُذبَح من الأضاحي أو يُذبَح من الهديِ أو عقيقةً، أو نحو ذلك ممَّا يذبحُه المرءُ تعظيمًا لله جَلَّوَعَلَا، ونحوَ ذلك ممَّا أُمرَ به شرعًا فهٰذا تذبحُه لله؛ يعني: أن يقصدَ التَّقرُّب لله بالذَّبيحةِ، فهٰذا من العباداتِ العظيمةِ الَّتي يُحبُّها الله جَلَّوَعَلَا، وهي عبادةُ النَّحر والذَّبح.

قد يذبحُ باسمِ الله؛ لكن يقول: أُريدُها للأضيافِ أُريدُها للَّحم آكلُ لحمًا ولم أتقرَّب بها لغيرِ الله، أيضًا لم أتقرَّب بها لله، فنقول: هٰذه الحالةُ جائزةٌ لأنَّه سمَّىٰ: باسم الله، ولم يذبح لغيرِ الله، فليس داخلًا

في الوعيد ولا في النَّهي؛ بل ذلكَ من المأذونِ فيه.

الحال الثَّانية: أن يذبحَ باسمِ الله ويقصدَ بالتَّقرُّب أنَّ هٰذه الذَّبيحة لغيرِ اللهِ، فيقول مثلًا: باسمِ الله وينحرُ الدَّم، وهو ينوي بإزهاقِ النَّفس وبإراقةِ الدَّم ينوي التَّقرُّب لهٰذا العظيمِ المدفونِ، لهٰذا النَّبيِّ أو لهٰذا الصَّالح، فهو لو ذبحَ بسمِ الله فإنَّ الشِّرك حاصلٌ من جهة أنَّه أراق الدَّم تعظيمًا للمدفونِ، تعظيمًا لغيرِ الله، كذلكَ يدخل فيه أنْ يذكُرَ اسمَ الله علىٰ الذَّبيحةِ أو علىٰ المَنحورِ ويكون قصدُه بالذَّبح أنْ يتقرَّبَ به للسُّلطانِ أو للمُلوكِ أو لأميرٍ ما، وهٰذا يحدثُ عند بعضِ الباديةِ أو كذلك بعضِ الحضرِ إذا أرادوا أنْ يُعظِّموا ملكًا قادمًا، أميرًا قادمًا، أو أن يُعظِّموا سُلطانًا أو شيخَ قبيلةٍ فإنَّهم يستقبلونَه بالجِمَالِ، يستقبلونَه بالبقرِ، يستقبلونَه بالشِّياهِ يعني بالضَّأنِ، الخرفانِ، ويذبحونَها في وجهِه فيسيلُ الدَّم عند إقبالِه، هٰذا ذبحٌ ولو سمَّىٰ اللهَ عليه لكنْ تكونُ الذَّبيحة قُصِدَ بها غيرُ الله جَلَّوَعَلَا وهٰذه أفتىٰ العلماءُ بتحريمِها؛ لأنَّ فيها إراقةَ دمٍ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا فلا يجوزُ أكلُها ومن بابِ أَوْلىٰ قبل ذلكَ لا يجوزُ تعظيمُ أولئكَ بمثلِ هٰذا التَّعظيمِ؛ لأنَّ إراقةَ الدَّم إنَّما يُعظَّم به اللهُ جَلَّوَعَلَا وحدَه؛ لأنَّه هو الَّذي سبحانَه يَستحقُّ العبادةَ والتَّعظيمَ بهٰذه الأشياءِ وهو الَّذي أجرىٰ الدِّماءَ في العروقِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الحال الثَّالثة: أن يُذكرَ غيرُ اسم الله وأنْ يُقصدَ بالذَّبيحة غيرُ الله جَلَّوَعَلَا، فيقول مثلًا باسم المسيحِ ويحرِّك يدَه ويقصدُ بها التَّقرُّب للمسيحِ، فهٰذا الشِّرك جمع شركًا في الاستعانةِ وشركًا في العبادةِ، أو أنْ يذبحَ باسم البدويِّ، أو باسمِ الحُسينِ، أو باسمِ السَّيِّدةِ زينبَ أو باسمِ العَيدروسِ أو باسمِ المَرغناني أو نحوِ ذلك من النَّاس الَّذين تَوجَّهَ إليهم بعضُ الخلقِ بالعبادةِ، فيذبحُ باسمِها ويقصدُ بها هٰذا المخلوقَ؛ يعني ينوِي حينَ ذبح أن يُريقَ الدَّم تقرُّبًا لهٰذا المَخلوقِ.

فهٰذا الشِّرك جاء من جهتين:

الجهةُ الأولىٰ: جهةُ الاستعانةِ.

والجهةُ الثَّانية: جهةُ العبوديَّةِ والتَّعظيمِ وإراقةِ الدَّم لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا.

والرَّابع: أن يذبحَ باسمِ غيرِ الله ويجعلَ ذلك لله جَلَّوَعَلَا، وهٰذا نادرٌ، وربَّما حصل من أنَّه يذبحُ للبدويِّ، أو يذبحُ للعيدروسِ أو يذبحُ للشَّيخ عبد القادرِ أو نحو ذلك ثمَّ ينوي بهٰذا أن يتقرَّب إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، وهٰذا في الحقيقة راجعٌ إلىٰ الشِّرك في الاستعانةِ والشِّركِ في العبادةِ.

قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعرِضِ كلامٍ له في هٰذه المسائلِ قال: ومَعلومٌ أنَّ الشِّرك في العبوديَّةِ أعظمُ من الاستعانةِ بغيرِ الله. فهٰذه المَراتبُ أعظمُها كلُّها شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

والحال الثَّانيةُ صورةٌ منها أن يذبحَ لسُلطانٍ أو نحوِه. بعضُ العُلماء ما أطلق عليها أنَّها شركٌ وإنَّما قال تحرُم لأجلِ أنَّه لا يقصد بذلكَ تعظيمَ ذلك كتعظيمِ الله جَلَّوَعَلَا.

المَقصودُ أنَّ الشِّرك بقصدِ الذَّبحِ لغيرِ الله شركٌ في العبوديَّةِ، والشِّرك بذكرِ غيرِ اسمِ الله علىٰ الذَّبيحةِ شركٌ في الاستعانةِ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[الأنعام]؛ يعني: إنْ أطَعتمُوهم في الشِّرك فإنَّكم لمُشركون كما أنَّهم مُشركون.

نُكمل إن شاء الله بقيَّة الباب غدًا بإذن الله.

الدَّرسُ السَّادسُ

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم.

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله، وعلىٰ آله وصحبِه، ومن اهتدىٰ بهُداه.

أمَّا بعدُ،

فأُنبِّه علىٰ مسألةٍ ألا وهي أنَّ الكلامَ في مسائلِ التَّوحيد تقريرًا واستدلالًا وبيانَ وجهِ الاستدلالِ من الأمورِ الدَّقيقةِ، والتَّعبيرَ عنها يحتاجُ إلىٰ دقَّةٍ من جهةِ المُعبِّر وأيضًا من جهةِ المُتلقِّي.

أقول هٰذا؛ لأنَّ بعضَ الإخوةِ استشكلوا بالأمسِ وقبلَه واليومَ أيضًا بعضَ العبارات، ومدارُ الاستشكال أنَّهم ما دقَّقوا فيما قيلَ؛ إمَّا أنْ يحذِفوا قيدًا، أو يحذِفوا كلمةً، أو يأخذَ المعنىٰ الَّذي دَّل عليه الكلامُ ويُعبِّر عنه بطريقتِه، وهٰذا غيرُ مُناسبٍ.

لهٰذا ينبغي أن يكونَ المُتلقِّي لهٰذا العلمِ دقيقًا فيما يسمعُ؛ لأنَّ كلَّ مسألةٍ لها ضوابطُها ولها قيودُها، وأيضًا بعضُ المسائلِ يكون الكلامُ عليها تارةً مُجمَلًا، وفي بعضِ ما سمعَه المُتلقِّي يكونُ سمعَ أحدَ الأحوالِ وهي فيها تفصيلٌ، ويكونُ الكلامُ عليها من حيثُ الإجمالُ غيرَ الكلامِ عليها من حيثُ التَّفصيلُ.

نواصل الحديث علىٰ (بابِ ما جاء في الذَّبح لغير الله).

[الدَّليلُ الأوَّلُ] الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (وَقولِ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾[الأنعام]) هٰذه الآيةُ فيها أنَّ عبادةَ الصَّلاة وعبادةَ النُّسُكِ وهو الذَّبح لله جَلَّوَعَلَا، وقال هنا: ﴿قُلْ إِنَّ﴾ و(إِنَّ) من المُؤكِّداتِ، ومجيءُ التَّأكيد في الجُملِ الخَبريَّةِ معناهُ أنَّ من خوطِب بذلك مُنكِرٌ لهٰذا الأمرِ أو منزَّلٌ منزلةَ المُنكِرِ له.

ولهٰذا يكون الاستدلالُ بهٰذه الآية علىٰ أنَّه خوطبَ بها من يُنكِر أنَّ الصَّلاة لله وحدَه استحقاقًا وأنَّ الذَّبح لله وحدَه استحقاقًا، وهم المُشركون، فدلَّ علىٰ أنَّ هٰذه الآيةَ في التَّوحيد؛ يعني في توحيدِ الذَّبح لأجلِ الله جَلَّوَعَلَا وأنَّ الذَّبح لغيره مُخالِفٌ لما يستحقُّه الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا.

قال هنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ والنُّسُك هو الذَّبحُ أو النَّحرُ؛ يعني التَّقرُّب بالدَّم، والتَّقرُّب بالدَّم لله جَلَّوَعَلَا عبادةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ الذَّبائحَ أو المَنحوراتِ -الإبلُ؛ البقرُ، الغنمُ من الضَّأن والماعز- هٰذه ممَّا تعظُم في نفوسِ أهلِها.

ونحرُها تقرُّبًا إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا والصَّدقةُ بها عبادةٌ عظيمةٌ:

- فيها إراقةُ الدَّم لله.
- وفيها تعلُّقُ القلبِ بحسنِ الثَّواب من الله جَلَّوَعَلَا.
- وفيها حسنُ الظَّنِّ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.
- وفيها التَّخلُّص من الشُّحِّ والرَّغبُ فيما عندَ الله سبحانَه بإزهاقِ نفسٍ ما هو عزيزٌ عندَ أهلِه.

ولهٰذا كان النَّحرُ والذَّبحُ عبادةٌ من العبادات العظيمةِ الَّتي يُحبُّها الله جَلَّوَعَلَا.

وهٰذه الآيةُ دلَّت علىٰ أنَّ النَّحر والصَّلاة عبادتان؛ لأنَّه جعلَ النَّسيكةَ لله، والله جَلَّوَعَلَا له من أعمالِ خلقِه العباداتُ.

فلهٰذا صارَ وجهُ الدِّلالة أنَّ قولَه: ﴿وَنُسُكِي﴾ فيه دِلالةٌ علىٰ أنَّ النُّسُك عبادةٌ من العبادات وأنَّه مُستحَقٌّ لله جَلَّوَعَلَا.

قولُه: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اللَّام هنا المُتعلِّقةُ بقولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لامُ الاستحقاقِ.

لأنَّ اللَّام في اللُّغة وفيما جاء من الاستعمالِ في القرآنِ:

- تأتي لام المِلْكِ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾[الكهف:٧٩]؛ يعني: يَملِكونها.
- أو تكون لامَ الاختصاصِ وهو شبه المِلْكِ.
- أو تكون لامَ الاستحقاقِ مثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: جميعُ أنواعُ المَحامِدِ مُستحَقَّةٌ لله.

كذلك اللَّام هنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ...لِلَّهِ﴾ يعني: مستحَقَّةٌ لله جَلَّوَعَلَا.

قال سبحانَه: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾، وهنا ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ تكون اللَّام هٰذه -مع أنَّها واحدةٌ-؛ لكن لكيْ يكون معناها رجوعُها للأوَّل غيرَ معناها في رجوعِها للمَحيىٰ والمَماتِ، فإنَّ الله جَلَّوَعَلَا قال في هٰذه الآية من آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ المَحيىٰ والمَماتُ يعني الإحياءُ والإماتةُ وهٰذه بيدِ الله جَلَّوَعَلَا ولله مِلْكًا فهو الَّذي يَملِكها سبحانَه؛ لأنَّها من أفرادِ رُبوبيَّتِه جَلَّوَعَلَا علىٰ خلقِه.

فهٰذه الآية لما اشتملت عليه من هٰذه الألفاظِ الأربعِ دلَّت علىٰ توحيدِ الإلـهيَّة وعلىٰ توحيدِ الرُّبوبيَّة؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ هٰذا توحيدُ الإلهيَّة، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ هٰذا توحيدُ الرُّبوبيَّة لله، اللَّام إذا أرجعتها للأوَّليين الصَّلاة والنُّسك صارَ معناها الاستحقاقُ، وإذا أرجعتها للأخيرِ صار معناها المِلْكُ، ولهٰذا يقول أهلُ التَّفسير هنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقًا، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ لله مِـلْكًا

وتدبيرًا وتصرُّفًا.

قال: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ وهٰذا وجهُ استدلالٍ ثالثٌ بحيثُ قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ يعني: فيما مرَّ؛ لا شريكَ له في الصَّلاة والنُّسك فلا يُتوجَّه بالصَّلاة والنُّسك إلىٰ أحدٍ مع الله جَلَّوَعَلَا أو من دونِه، وكذلكَ لاشريكَ له في المِلْكِ في المَحيىٰ والمَماتِ؛ بل هو المُتفرِّد سبحانَه بأنواع الجلال وأنواع الكمال وهو المُستحِقُّ للعبادةِ وهو ذو الملكوتِ الأعظمِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلُــهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾[الكوثر].)، قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فأمر بالصَّلاة وأمر بالنَّحر، وإذا أمرَ به فهو داخلٌ في حدِّ العبادةِ؛ لأنَّ **العبادةَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاهُ من الأقوالِ والأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ**، والصَّلاة أمر بها الله جَلَّوَعَلَا وهي مَحبوبةٌ لديه إذنْ، والنَّحر أمر الله جَلَّوَعَلَا به فهو مَحبوبٌ ومَرضيٌّ له إذن، فيكون إذنْ النَّحر عبادةٌ لله جَلَّوَعَلَا، وفي التَّعريف الآخرِ أنَّ **العبادةَ هي كلُّ ما يتقرَّبُ به العبدُ لله جَلَّوَعَلَا مُمتثلًا به الأمرَ والنَّهيَ**، صادقًا علىٰ هٰذا؛ لأنَّ النَّحر يُعمل تقرُّبًا إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا بامتثالِ الأمرِ والنَّهي.

قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[الكوثر:1]، ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو الخيرُ العظيمُ الَّذي منه النَّهر الَّذي في الجنَّة، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ الفاءُ هٰذه سببيَّةٌ؛ يعني بسببِ ذلك أشكر الله جَلَّوَعَلَا بتوحيدِه بأنْ صلِّ إلىٰ ربِّك الَّذي أعطاك ذلك الخيرَ الكثيرَ وتقرَّب إليه بالنَّحر وبنَسك النَّسائكِ لله سبحانه؛ لأنَّ الخيرَ إنَّما أسداه جَلَّوَعَلَا وحدَه.

إذن وجه الدِّلالة من هٰذه الآية علىٰ هٰذا الباب أنَّ النَّحرَ عبادةٌ وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ يعني وانْحر لربِّكَ، فصارَ النَّحرُ لغيرِ الله والذَّبحُ لغير الله خارجًا عمَّا أمر الله به، فهو إذا صرفٌ للعبادةِ لغير الله جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ) الشَّاهد من هٰذا قولُه: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» وهٰذا وعيدٌ يدلُّ علىٰ أنَّ الذَّابحَ لغيرِ الله ملعونٌ، **واللَّعْنُ هو الطَّردُ والإبعادُ من رحمةِ الله جَلَّوَعَلَا**، فإذا كان الله هو الَّذي لعنَ فيكون قد طُردَ وأُبعدَ من رحمة الله الخاصَّةِ، يكون جَلَّوَعَلَا قد طردَ وأبعدَ هٰذا الملعونَ من رحمتِه جَلَّوَعَلَا الخاصَّةِ، أمَّا الرَّحمةُ العامَّةُ فهي تشملُ المسلمَ والكافرَ وجميعَ أصنافِ الخلقِ.

وإن كان دعاءٌ باللَّعن عليه «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» كأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال داعيًا علىٰ من ذبحَ لغير الله جَلَّ وَعَلَا باللَّعن وهو الطَّردُ والإبعادُ من رحمةِ الله جَلَّ وَعَلَا.

هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الذَّبح لغيرِ الله من الكبائر، ومن المعلوم اقترانُ ذنبٍ من الذُّنوب باللَّعن يدلُّ علىٰ أنَّه من الكبائرِ من كبائر الذُّنوب، وهٰذا ظاهرٌ من جهة أنَّ الذَّبحَ لغيرِ الله شركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ يستحقُّ صاحبُه اللَّعنَ والطَّردَ والإبعادَ من رحمةِ الله جَلَّ وَعَلَا.

فقوله: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»، اللَّام هٰذه يعني من أجل غيرِ الله تقرُّبًا إليه وتعظيمًا، فذبحَ لغيرِ الله تقرُّبًا إلىٰ ذلك الغيرِ وتعظيمًا إلىٰ ذلك الغيرِ، وهٰذا وجهُ مناسبةِ هٰذا الحديثِ لبابِ ما جاء في الذَّبح لغيرِ الله؛ يعني من الوعيدِ وأنَّه شركٌ ومن الوعيدِ أنَّ صاحبَه مَلعونٌ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] الحديثُ الآخر قال: (وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا؛ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ) وجه الدِّلالة من هٰذا الحديث أنَّ التَّقريب للصَّنم بالذَّبح كان سببًا لدخولِ النَّار، وذلك من حيثُ ظاهرُ المعنىٰ أنَّ من فعلَه كان مُسلمًا فدخلَ النَّارَ بسببِ ما فعل وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الذَّبحَ لغيرِ الله شركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا -شركٌ أكبرُ-؛ لأنَّ ظاهرَ قولِه دخلَ النَّارَ؛ يعني: استوجبَها مع من يخلدُ فيها.

ووجهُ الدِّلالة أيضًا أنَّ تقريب هٰذا الَّذي لا قيمةَ له -وهو الذُّباب- يدلُّ علىٰ أنَّ من قرَّبَ ما هو أبلغُ وأعظمُ منفعةً وأعظمُ عند أهلِه وأغلىٰ أنَّه سببٌ أعظمُ لدخول النَّار، وقولُه هنا: (قَرِّبْ) يعني: اذبَحْ تقرُّبًا، والْحَظْ هنا أنَّهم لم يُكرهوهم بالفعل، فالحديثُ لم يدلَّ علىٰ أنَّهم أُكرِهوا؛ لأنَّه قال: (مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا)، فظاهرُ قوله: (لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ)؛ يعني: أنَّهم لا يأذنون لأحدٍ بمجاوزَتِه عند ذلك الطَّريق حتَّىٰ يُقرِّب، وهٰذا ليس إكراهًا إذ يُمكن أن يقولَ سأرجع من حيث أتيتُ، ولا يجوز ذلك المَوضعَ ويتخلَّص من ذلكَ.

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإكراه بالفعلِ لم يحصُل من أولئك، فلا يدخلُ هٰذا في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾[النَّحل:106]؛ لأنَّه ليس في الحديث دلالةٌ -كما هو ظاهرٌ- علىٰ حصولِ الإكراهِ وإنَّما قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ

شَيْئًا»، «**لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ**» ما صفةُ عدم السَّماح بعدم المُجاوزَةِ؟ هل هو أنَّه لا يَجوزُه حتَّىٰ يُقتلَ أو يُقرِّبَ؟ أو لا يَجوزُه حتَّىٰ يُقرِّب أو يرجعَ؟

بعض العلماء استظهر من قولِه في آخرِ الحديث من قتلِهم لأحدِ الرَّجلين: أنَّهُ لا يَجوزُه حتَّىٰ يُقتلَ، وأنَّ هٰذا عُلِم بالسِّياقِ، فصارَ ذلك نوعَ إكراهٍ. فلهٰذا **استشكَلُوا** كونَ هٰذا الحديث دالًّا علىٰ أنَّ من فعلَ هٰذا الفعلَ يدخلُ النَّار مع أنَّه مُكرَهٌ.

والجوابُ عن هٰذا الإشكالِ: أنَّ هٰذا الحديثَ علىٰ هٰذا القولِ -وهو أنَّه حصلَ منهم الإكراهُ بالقتلِ- أنَّ هٰذا الحديثَ فيمن كان قبلَنا، ورُفع الإكراهُ أو جوازُ قولِ كلمةِ الكُفرِ أو عملِ الكُفرِ مع اطمئنانِ القلبِ بالإيمانِ هٰذا خاصٌّ بهٰذه الأمَّةِ، هٰذا أجاب به بعضُ أهلِ العلمِ.

والثَّاني وهو ما قدَّمتُ: أنَّ السِّياق ليس بمُتعيِّنٍ علىٰ أنَّهم هدَّدوه بالقتلِ، وإذا كان غير مُتعيِّنٍ بأنَّهم هدَّدوه بالقتلِ فإنَّه لا يُحملُ علىٰ شيءٍ مُجمَلٍ لم يُعيَّن، ودلالةُ قولِه هنا: (فَضَرَبُوا عُنُقَهُ) يعني فيمن لم يُقرِّب فدخلَ الجنَّة ربَّما لأنَّه أهانَ صنمَهم بقوله: (مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ).

لهٰذا استشكلَ هٰذا الحديثَ طائفةٌ من أهل العلم وهو بحمدِ الله ليس فيه إشكالٌ؛ لأنَّه:

- إمَّا أنْ يُحمَلَ علىٰ أنَّه كان فيمن كان قبلَنا فلا وجهَ إذنْ لدخولِ الإكراهِ.
- أو يُحمَل علىٰ أنَّهم لم يُكرهوه حين أرادَ المُجاوزَةَ؛ ولكنْ قتلوهُ لأجلِ قولِه: (مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ).

إذن هٰذا البابُ وهو قوله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ**) ظاهرٌ في الدِّلالة علىٰ أنَّ التَّقرُّب لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا بالذَّبح أنَّه شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا في العبادةِ، فمن ذبح لغير الله تقرُّبًا وتَعظيمًا فهو مُشركٌ الشِّركَ الأكبرَ المُخرجَ من الملَّةِ.



[**الأسئلة**]

[**سؤال** (14)]: وهٰذا يقولُ: تقول أهلي: اذبحِ الذَّبيحةَ ووزِّعُها علىٰ المَساكينِ لدفعِ البلاءِ. فهل تجوزُ تلكَ النِّيَّةُ؟

الجواب: هٰذا فيه تفصيلٌ: ذلك أنَّ ذبحَ الذَّبائحِ:

إذا كان من جهة الصَّدقة ولم يكن لدفعِ شيءٍ مُتوقَّعٍ أو لرفعِ شيءٍ حاصلٍ؛ ولكن من جهةِ الصَّدقةِ وإطعامِ الفقراءِ، فهٰذا لا بأس به، داخلٌ في عمومِ الأدلَّةِ الَّتي فيها الحضُّ علىٰ الإطعامِ وفضيلةُ إطعامِ

المساكين.

وأمَّا إنْ كان الذَّبحُ؛ لأنَّ في البيتِ مريضًا فيذبحُ لأجلِ أن يرتفعَ ما بالمريضِ من أذًى، فهٰذا لا يجوزُ ويَحرُم. قال العلماء: سدًّا للذَّريعةِ. ذلك لأنَّ كثيرين يذبحون حينَ يكون بهم مرضٌ لظنِّهم أنَّ المرضَ كان بسببِ الجنِّ أو كانَ بسببِ مُؤْذٍ من المُؤْذين، إذا ذبح الذَّبيحة وأراقَ الدَّم فإنَّه يندفعُ شرُّه أو يرتفعُ ما أحدث، وهٰذا لا شكَّ أنَّه اعتقادٌ مُحرَّمٌ ولا يجوزُ.

والذَّبيحةُ لرفعِ المرضِ والصَّدقة بها عن المريض. قال العلماء: هي حرامٌ ولا تجوزُ سدًّا للذَّريعة، وللشَّيخ العلَّامة سعدِ بن حمدِ بن عتيقٍ رسالةٌ خاصَّةٌ في الذَّبح للمريضِ.

كذلك إذا كان الذَّبح لدفعِ أذًىٰ مُتوقَّعٍ، مثلًا كان بالبلدِ داءٌ مُعيَّنٌ فذبحَ لدفعِ هٰذا الدَّاءِ، أو كان في الجهاتِ الَّتي حول البيتِ ثَمَّ شيءٌ يُؤذي، فيذبحُ لينفدعَ ذلك المُؤذي؛ إمَّا لصٌّ مثلًا يتسلَّط علىٰ البُيوت، أو أذًىٰ يأتي للبيوت فيذبحُ ويتصدَّقُ بها لأجلِ أن يندفعَ ذلك الأذىٰ، هٰذا أيضًا غيرُ جائزٍ ومَنهيٌّ عنه سدًّا للذَّريعة؛ لأنَّ من النَّاس من يذبحُ لدفع أذىٰ الجنِّ وهو شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

فإذن تحصَّل من ذلك أنَّ قول النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ**» فيما رواهُ أبو داودَ وغيرُه، وقد حسَّنه بعضُ أهلِ العلمِ وضعَّفه آخرون، أنَّ معنىٰ «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ**» يعني: بغيرِ إراقةِ الدَّم، فيكون إراقةُ الدَّم مَخصوصًا من ذلك من المُداواةِ بالصَّدقة؛ لأجلِ ما فيه من وسيلةٍ إلىٰ الاعتِقادات الباطِلةِ.

ومَعلومٌ أنَّ الشَّريعة جاءت لسدِّ الذَّرائع جميعًا -يعني: الذَّرائعَ المُوصلَةَ إلىٰ الشِّرك-، وجاءت أيضًا بفتح الذَّرائع المُوصلةِ للخيرِ، فما كان من ذريعةٍ يوصل إلىٰ الشِّرك والاعتقادِ الباطلِ فإنَّه يُنهىٰ عنه.][1]

سؤال (15): فضيلة الشَّيخ ممَّا يقعُ فيه كثيرٍ من النَّاس أنَّه إذا حصل له أمرٌ، ونجا منه، فإنَّه يجب عليهِ أن يتصدَّق.

الجواب: الصَّدقة في مثلِ هٰذا ليس لها حكمُ الوُجوبِ، والشُّكرُ لله جَلَّوَعَلَا علىٰ نعمِه، إذا نُجِّيَ العبدُ من بلاءٍ، أو حصلت له مسرَّةٌ يكون تارةً بالسُّجودِ، وتارةً بالصَّلاة، أو بالصَّدقة شكرًا لله جَلَّوَعَلَا علىٰ نعمِه، وهٰذا كلُّه من المُستحَبِّ، وليس من الواجبِ، إلَّا إذا كان ثمَّ نذْرٌ، نذرَ أنَّه إن نُجِّي من كذا وكذا، فإنَّه سيتصدَّق، فهنا يكون ألزمَ نفسَه بعبادةٍ ألَا وهي الصَّدقةُ إذا حصل له كذا وكذا؛ فتكونُ واجبةً بالنَّذر.

(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الرَّابع، من بابِ ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم.

أمَّا أصلُ الصَّدقة فهو مُستَحبٌّ، وإذا كانت في مُقابلة نعمةٍ، أو اندفاعِ نقمةٍ، فهي أيضًا مُستَحبَّةٌ، وليست بواجبةٍ، لا تجبُ إلَّا إذا نذرَ وتحقَّق الشَّرط.

سؤال (16): فضيلة الشَّيخ إذا كان الذَّبح لا يجوزُ لدفع المرضِ فكيف نجمعُ بينه وبين الحديث: «دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ»؟

الجواب: هٰذا أجبت عنه بالأمسِ.

سؤال (17): وهٰذا يقولُ: عندَنا عادةٌ وهي أنَّ من حصلَ بينَه وبينَ شخصٍ عداوةٌ أو بغضاءُ بتعدٍّ من أحدِهما علىٰ الآخر، فيطلُبون من أحدِهما أنْ يذبحَ ويسمُّون ذلك ذبحَ صُلحٍ، فيذبحُ؛ ويُحضِرون معهم من حصلت معه هٰذه العداوةُ، فما حكم ذلك؟

الجواب: ذبحُ الصُّلح الَّذي تعملُه بعض القبائلِ في صورتِه المُشتهِرةِ المَعروفةِ لا يجوزُ؛ لأنَّهم يجعلون الذَّبح أمامَ من يُريدون إرضاءَه، ويُريقون الدَّم تعظيمًا له أو إجلالًا لإرضائِه. وهٰذا يكون مُحرَّمًا؛ لأنَّه لم يُرِق الدَّمَ لله جَلَّوَعَلَا وإنَّما أراقَه لأجلِ إرضاءِ فلانٍ، وهٰذا الذَّبح مُحرَّمٌ والذَّبيحةُ أيضًا لا يجوزُ أكلُها؛ لأنَّها لم تُهَلَّ أو لم تُذبَح لله جَلَّوَعَلَا وإنَّما ذُبحَتْ لغيرِه.

فإن كان الذَّبحُ الَّذي هٰذا صفتُه من جهةِ التَّقرُّب والتَّعظيم صار شركًا أكبرَ، وإنْ لم يكُنْ من جهةِ التَّقرُّب والتَّعظيم صارَ مُحرَّمًا؛ لأنَّه لم يَخلُص من أنْ يكون لغيرِ الله.

فصارَ عندَنا في مثلِ هٰذه الحالةِ وكذلك في الذَّبح للسُّلطان ونحوِه في المسألةِ الَّتي مرَّت علينا بالأمسِ أن يكون الذَّبحُ في مَقْدَمه وأن يُراق الدَّم بقُدومِه وبحَضرتِه، هٰذا قد يكون علىٰ جهةِ التَّقرُّب والتَّعظيم، فيكونُ الذَّبح حينَئذٍ شركًا أكبرَ بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه ذَبَحَ وأَراقَ الدَّمَ تعظيمًا للمخلوقِ وتَقرُّبًا إليه.

وإن لم يذبحْ تقرُّبًا أو تعظيمًا وإنَّما ذبحَ لغايةٍ أُخرىٰ مثلَ الإرضاءِ؛ ولكنَّه شابهَ أهلَ الشِّرك فيما يذبحونَه تقرُّبًا وتعظيمًا، فنقول: الذَّبيحةُ لا تجوزُ ولا تحلُّ والأكلُ منها حرامٌ.

ويمكن للإخوة الَّذين يشيعُ عندَهم في بلادِهم أو في قبائلِهم مثلُ هٰذا المُسمَّىٰ (ذبحُ الصُّلحِ) ونحوُه أن يبدِّلوه بخيرٍ منه وهو أن تكون وليمةٌ للصُّلح، فيذبحون للضِّيافة؛ يعني: يذبَحون لا بحضرةِ من يُريدون إرضاءَه، ويَدعونَهم ويُكرِمونَهم، وهٰذا من الأمرِ المُرغَّبِ فيه فيكون الذَّبحُ كما يَذبحُ المُسلم عادةً لضيافةِ أضْيَافِه ونحوِ ذلك.

سؤال (18): فضيلة الشَّيخ يوجد بعضُ السَّاعات مكتوبٌ عليها لفظُ الجلالةِ، فهل يجوزُ الدُّخول بها إلىٰ الخلاء؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب: العُلماء يقولون: ويُكره دخولُه الخلاءَ بشيءٍ فيه ذكرُ الله، في آدابِ دخـول الخـلاءِ في الفقـهِ، فاصطحابُ شيءٍ ممَّا فيه ذكرُ الله إلىٰ الخلاءِ مكروهٌ. نكتفي.

[**سؤال (19)**: وهٰذا يقول: ما الحكمُ إذا ذبح العبدُ ذبيحةً من أجلِ أنَّ الله قد شافىٰ مريضَه وخرجَ مـن المُستشفىٰ؟

الجواب: هٰذا يرجعُ إلىٰ نيَّتِه في ذبحِ هٰذه الذَّبيحة، فإذا كانتْ بعد الانتهاءِ من المرضِ وبعدَ أن ارتفعَ المرضُ وعُوفيَ وشُفيَ ذلكَ المريضُ بفضلِ الله جَلَّوَعَلَا وبنعمتِه، فهٰذا يختلفُ حالُه:

إذا قصد أنَّها شكرٌ الله جَلَّوَعَلَا يتصدَّقُ بلحمِها فهٰذا حسنٌ لأنَّ المرضَ قد انتهىٰ وارتفعَ فهو لا يقصدُ بها الاستشفاء، وإنَّما هي نوعُ شكرٍ لله جَلَّوَعَلَا، أو دعا عليها أحدًا من أقربائِه أو مِن مَن يحبُّون ذلك المريضَ، ونحوِ ذلك فهٰذا من بابِ الإكرامِ.

وأمَّا إذا كانت مَقاصدُه أو نيَّاتُه في هٰذا الذَّبح أن يدفعَ رجوعَ هٰذا المرضِ مرَّةً أُخرىٰ، أو أن يدفعَ شـيئًا من انتكاسات المرضِ أن يدفعَ شيئًا ممَّا يُخافُه، فهٰذا داخـلٌ في عـدم الجـوازِ سـدًّا لذريعـةِ الاعتقـادات الباطلةِ.][1]



(1) مأخوذٌ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّابع من باب الشَّفاعة.

٦١- بَابٌ

لا يُذْبحُ للهِ بِمَكانٍ يُذْبَحُ فيه لِغَيْرِ اللهِ

[1] وَقولُ اللهِ تَعالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[التوبة].

[2] عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

قال الإمامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بابٌ لا يُذْبحُ للهِ بِمَكانٍ يُذْبحُ فيه لِغَيْرِ اللهِ)، وقولُه هنا: (لا يُذْبَحُ) هٰذا علىٰ جهةِ النَّفي المُشتمِل علىٰ النَّهي؛ لأنَّ من أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ أنَّه يُتركُ صراحة النَّهي إلىٰ صريحِ النَّفيِ ليدلَّ بدلالةٍ أبلغَ علىٰ أنَّ النَّفيَ والنَّهيَ جميعًا مَقصودان، فكأنَّه لا يَصحُّ أن يقعَ أصلًا، ولهٰذا أتىٰ بصيغةِ النَّفي (بَابٌ لا يُذْبحُ للهِ).

وقال بعضُ أهلِ العلمِ يحتملُ أنْ تكون علىٰ وجهِ النَّهيِ (بَابٌ لا يُذْبَحْ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فيهِ لِغَيْرِ اللهِ).

وقولُه (للهِ)؛ (لا يُذْبحُ للهِ) يعني أنَّه تكونُ النَّسيكةُ أو أنْ تكونَ الذَّبيحةُ مُرادًا بها وجهُ الله جَلَّ وَعَلَا، (بِمَكانٍ يُذْبَحُ فيه لِغَيْرِ اللهِ)، قال الإمامُ: (بِمَكَانٍ) والباءُ هنا لها معنًىٰ زائدًا علىٰ كلمةِ (في)، وهٰذا المعنىٰ الزَّائدِ أنَّها أَفهمَتْ معنىٰ الظَّرفيَّةِ ومعنىٰ المُجاورةِ جميعًا؛ لأنَّ الباء تكون للمُجاورة أيضًا كما تقول: مَررتُ بزيدٍ؛ يعني: بمكانٍ قريبٍ من مكانِ زيدٍ أو مكانٍ مُجاورٍ لمكانِ زيدٍ، والظَّرفيَّة بـ(في) تُفيد أنَّه في نفسِ المكانِ، واستعمالُ حرفِ الباءِ يُفيد أنَّه مُجاورٌ لذلكَ المكانِ.

وهٰذان المَعنيان جميعًا مَقصودانِ وهو أنَّه لا يُذبحَ لله:

- بمُجاورةِ المكانِ الَّذي يُذبحُ فيه لغيرِ الله.
- ولا في نفسِ المكانِ الَّذي يُذبحُ فيه لغيرِ الله.

لأنَّ الجميعَ فيها اشتراكٌ مع الَّذين يَذبحون لغيرِ الله جَلَّ وَعَلَا.

قال هنا: (بَابٌ لا يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فيهِ لِغَيْرِ اللهِ) صورةُ المسألةِ أنَّ (مكانًا ما) يُذبحُ فيه لغيرِ الله، مثلًا عند قبرٍ أو عند مَشهدٍ أو عند مكانٍ مُعظَّمٍ، المُشركون أو الخُرافيُّون اعتادوا أن يكون هٰذا

المكانُ ممَّا يتقرَّبون فيه بالذَّبح لهٰذا الصَّنمِ أو الوثنِ أو القبرِ أو البُقعةِ...إلىٰ آخره، فإذا كانوا يتقرَّبون لهٰذا المكانِ للقبرِ أو نحوِه، ويذبَحون لصاحبِ هٰذا القبرِ؛ يعني: من أجلِه، فإنَّه لا يحلُّ أنْ يذبحَ المُسلمُ المُوحِّدُ في هٰذا المكانِ، ولو كانت ذبيحتُه مُخلِصًا فيها لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّه يكونُ قد شابهَ أولئكَ المُشركين في تعظيمِ الأمكنةِ الَّتي يتعبَّدون فيها بأنواع العباداتِ فيَصرفونَها لغيرِ الله جَلَّ وَعَلَا.

فالذَّبحُ لله وحدَه دونما سواهُ بإخلاصٍ في المكان الَّذي يُتقرَّبُ فيه لغيرِ الله لا يحلُّ ولا يجوزُ؛ بل هو من وسائلِ الشِّرك وممَّا يُغري بتعظيمِ ذلكَ المكانِ، **وحكمُه أنَّه مُحرَّمٌ ووَسيلةٌ من وسائلِ الشِّرك.**

قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ورفعَ درجاتِه في الجنَّةِ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾**) هٰذا النَّهيُ عن القيامِ في مسجدِ الضِّرارِ الَّذي بناهُ المُنافقون، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[التَّوبة:١٠٨] مسجدُ الضِّرار أُقيمَ إرصادًا ومُحادَّةً لله ورسولِه وتفريقًا بينَ المُؤمنينَ، فهو مكانٌ أُقيم علىٰ الخيانةِ وعلىٰ مُضادَّةِ الإسلامِ وأهلِه.

فلهٰذا لمَّا كانت هٰذه هي غايةٌ من أقامَه فإنَّ مُشاركتَهم فيه بالصَّلاة لا تجوزُ؛ لأنَّه إقرارٌ لهم أو تكثيرٌ لسوادِهم وإغراءٌ للنَّاس بالصَّلاة فيه، فنهىٰ الله جَلَّ وَعَلَا نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونهىٰ المُؤمنين عن أن يصلُّوا في مسجدِ الضِّرار.

مناسبة الآية للباب ظاهرةٌ وهو أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا نهىٰ عن أنْ يُصلِّيَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجدِ الضِّرار، ومَعلومٌ أنَّ صلاتَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصلاةَ المؤمنينَ معهُ هي خالصةٌ لله جَلَّ وَعَلَا دونَ من سواهُ، ونُهوا مع أنَّهم مُخلِصون ليس عندَهم نيَّةُ الإضرارِ ولا التَّفريقِ ولا الإرصادِ؛ لكن نُهوا لأجلِ هٰذه المُشاركةِ والمُشابهةِ الَّتي تُغري بإتيانِ ذلك المكانِ.

وهٰذه هي الصُّورة المَوجودةُ لمن ذبحَ لله بمكانٍ يُذبحُ فيه لغيرِ الله؛ فإنَّه وإنْ كان مُخلِصًا لكن دعا إلىٰ تعظيم ذلك المكانِ بفعلِه.

هنا **إشكالٌ** أو إيرادٌ وهو أنَّه جاء الإذنُ عن الصَّحابة بالصَّلاة في الكنيسة،[1] وقد صلَّىٰ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كنيسةِ بيتِ المَقدس، والصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم منهم من صلَّىٰ ببعضِ كنائسِ البلادِ، فصلاتُهم في الكنائس لله جَلَّ وَعَلَا أليست مُشابهةً للصَّلاة في مسجدِ الضِّرار أو للذَّبح لله في مكانٍ يُذبَحُ فيه لغيرِ الله؟

---

(1) قال ابنُ عبد البرِّ: وكذلكَ أجمعوا علىٰ أنَّ من صلَّىٰ في كنيسةٍ أو بَيعةٍ في موضعٍ طاهرٍ أنَّ صلاتَه ماضيةٌ جائزةٌ. «التَّمهيد» (ج5ص229).

الجواب: أنَّ هٰذا الإيرادَ ليس بوجيهٍ؛ ذلكَ أنَّ النَّهيَ عن صلاةِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجدِ الضِّرار وعن الذَّبح لله في مكانٍ يُذبَحُ فيه لغيرِ الله هٰذا لأجلِ أنَّ صورةَ العبادةِ واحدةٌ، فصورةُ الذَّبح من المُوحِّد ومن المُشرِك واحدةٌ وهي إمرارُ السِّكين -آلة الذَّبح- علىٰ المَوضعِ وإزهاقُ الدَّم[1] في ذلك المكانِ، وهٰذا يحصلُ من المُوحِّد ومن المُشرِك غير المُوحِّد، الصُّورة واحدةٌ، ولهٰذا لا يُميَّز بين هٰذا وهٰذا، كذلك صلاةُ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو صلَّىٰ والصَّحابةُ في مسجدِ الضِّرار صلاتُهم مُشابهةٌ من حيثُ الصُّورةُ لصلاةِ المُنافقين رجع الاختلاف إلىٰ اختلافِ ما في القلبِ، والنِّيَّات ومَقاصدُ القلوب لا تُشرح للنَّاس ولهٰذا تقعُ المَفسدةُ ولا تحصلُ المَصلحةُ.

وأمَّا الصَّلاة في الكنيسةِ فإنَّ صورةَ الفعل مُختلفةٌ؛ لأنَّ صلاة النَّصارىٰ ليست علىٰ هيئةِ وصورةِ صلاةِ المُسلمين، فيَعلَمُ من رأىٰ المسلم يُصلِّي أنَّه لا يُصلِّي صلاةَ النَّصارىٰ وليسَ فيه إغراءٌ بصلاةِ النَّصارىٰ ومُشاركتُهم فيها، فهٰذا الفَرقُ بين المسألتين.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا) هٰذا الحديث فيه أنَّ رجلًا نذرَ أن ينحرَ إبلًا ببُوانةَ، (بُوانةُ) اسمُ مَوضعٍ؛ نذر أن ينحرَ في هٰذا الموضعِ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استفصلَه؛ لأنَّ المَقامَ يقتضي الاستفصالَ، يتبادرُ إلىٰ الذِّهن لمَ خصَّ هٰذا الرَّجلُ بُوانةَ بأنْ يَنحرَ فيها الإبلَ؟ لمَ؟ قد يكون لأنَّ فيها عيدًا من أعيادِهم أو لأنَّ فيها وثنًا من أوثانِ الجاهليَّةِ يُعبَدُ أو كان في ذلك المَوضعِ، لأنَّ التَّخصيصَ في الغالبِ يكون لغرضِ العبادةِ، لهٰذا استفصلَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا) هٰذا السُّؤال يدلُّ علىٰ أنَّه لو وُجدَ هٰذا الوصفُ وهو أنَّه كان ثمَّة وثنٌ من أوثانِ الجاهليَّةِ يُعبَدُ لم يَجُزِ النَّحرُ في ذلك المَوضعِ، وهو المُراد من إيرادِ هٰذا الحديث في البابِ.

(فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا) نستفيدُ من ذلك أنَّه لو كان فيها وثنٌ لمَنع ذلكَ الرَّجلَ من النَّحرِ وهو دِلالة التَّرجمةِ، («فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟») **العيدُ هو المكانُ أو**

---

(1) الشيخ يريد: إراقة الدم وإزهاق الروح.

الزَّمان الَّذي يعودُ أو يُعاد إليه.

فالعيدُ قد يكونُ مكانيًّا بأنَّه اسمٌ للمكان الَّذي يُعتادُ المَجيءُ إليه ويُرجع إليـهِ في وقـتٍ مُعتـادٍ، ولهٰـذا قال النَّبيُّ ﷺ في المكـان: «**لَا تَجْعَلُـوا قَبْـرِي عِيـدًا**»؛ يعنـي: هٰـذا المكـانُ لا تجعلـوه مكانًـا تعتادونَ المَجيءَ إليه.

وكذلك الأزمنةُ تكونُ أعيادًا لأنَّه تعودُ في وقتٍ مُعيَّنٍ.

فقوله: («**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»)؛ يعني عيدٌ مَكانيٌّ؛ لأنَّه قـال: («**فَهَـلْ كَـانَ فِيهَـا عِيـدٌ مِـنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»؟) ويحتملُ أيضًا أن يكون عيدًا زمانيًّا.

وأعيادُ المُشركين من ناحيةِ الأمكنةِ أو الأزمنةِ مَعلومٌ أنَّها راجعةٌ إلىٰ أديانِهم، وديـنُهم شـركيٌّ، فـإذن يكونُ المعنىٰ أنَّهم يتعبَّدون في تلك الأعياد بعباداتِهم الشِّركيَّةِ، وممَّا يُفعل في أعيادِ المُشركين وأعظـمُ مـا يُفعلُ التَّقرُّبُ بالذَّبح وإراقةُ الدِّماء، فدلَّ علىٰ أنَّ مُشاركةَ المُشركين في مكانٍ يتقرَّبون فيه لغيرِ الله بصـورةٍ مُشابِهةٍ لفعلِهم ظاهرًا أنَّ هٰذا لا يجوزُ؛ لأنَّه مُشاركَةٌ لهم في الفعلِ الظَّاهرِ ولو كان مُخلِصًا لا يـذبحُ إلَّا لله أو لا يصلِّي إلَّا لله جَلَّ وَعَلَا.

فقال رسول الله ﷺ: «**أَوْفِ بِنَـذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَـاءَ لِنَـذْرٍ فِي مَعْصِيَـةِ اللهِ**» قال العلماء قوله هنا: (**فَإِنَّهُ لَا وَفَـاءَ لِنَـذْرٍ فِي مَعْصِيَـةِ اللهِ**) ترتيبُ ما بعد الفاءِ علىٰ ما قبلَها بالفاءِ يدلُّ علىٰ أنَّ سببَ الإذن بالوفاءِ بالنَّذر أنَّ ما قبلَه ليسَ بمعصيةٍ، والاستفصالُ يدلُّ علىٰ أنَّ الذَّبح لله في مكانٍ فيه وثنٌ يُعبَد أو في عيدٍ من أعيادِ المُشركين يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّه معصيةٌ لله جَلَّ وَعَلَا، وبهٰذا يستقيمُ ما أراده الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من الاستدلالُ والاستشهادُ بهٰذا الحديث تحت ذلك الباب.



[الأسئلة]

[**سؤال** (20): هل يدخلُ في (**بَابٌ لَا يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ**) ما يحصلُ وخاصَّةً في أوربا وأمريكا من شراءِ كثيرٍ من المُسلمين لكنائسَ قديمةٍ ثمَّ تعديلِها لتكونَ مساجدَ أو هدمِ الكنيسةِ وبناءِ مسجدٍ مكانَها؟ نرجو التَّوجيه وجزاكُم الله خيرًا.

الجواب: لا يدخلُ في ذلك؛ لأنَّ مسجدَ النَّبيِّ ﷺ الَّذي الصَّلاة فيه مُضاعفةٌ أُقيمَ علىٰ مكانٍ فيه قُبور المُشركين، بعد أن نُبشت تلك القُبور وأُزيلَ الرُّفاتُ أُقيم المسجدُ في ذلك المكانِ.

والكنيسةُ الَّتي عُبدَ فيها غيرُ الله جَلَّ وَعَلَا إذا حُوِّلت إلىٰ مسجدٍ فهٰذا من أعظمِ الطَّاعاتِ، ومن أحبِّ

الأعمال إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

وذكرتُ لكم أنَّ الفرقَ بين هٰذه وبين (**لا يُذْبَحُ للّٰهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللهِ**) أنَّ الذَّبح صورتُه مُشتركةٌ، الصُّورةُ الظَّاهرةُ واحدةٌ، وإنَّما الاختلافُ في النِّيَّات، ولهٰذا مُنع من ذلك، وأمَّا عبادةُ المسلمين وصلاتُهم وهيئةُ مَساجدِهم وجُلوسِهم إلىٰ آخر تلك الهيئاتِ مُخالفٌ لما عليه النَّصارىٰ.

فإبدالُ الكنيسة بمسجدٍ هٰذا أمرٌ مَطلوبٌ إذا تمكَّن المُسلمون منه، وهٰذا الَّذي فعلَه المسلمون في الأندلُس؛ بل وفي بعضِ البلاد الأخرىٰ كالشَّامِ ومصرَ.][1]



(1) من الوجه الثَّاني من الشَّريط السَّادس.

12- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾[الإنسان].

[2] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾[البقرة].

[3] وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».

قال: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ)، (مِنَ الشِّرْكِ)، (من) هٰهنا تَبعيضيَّةٌ، (مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ)، (النَّذْرُ) مُبتَدأٌ مُؤخَّرٌ، النَّذرُ لغيرِ الله كائنٌ من الشِّرك، والشِّرك هنا المَقصودُ به الشِّرك الأكبرُ؛ النَّذرُ لغيرِ الله شركٌ أكبرُ بالله جَلَّ وَعَلَا، ووجهُ كون النَّذر شركًا بالله جَلَّ وَعَلَا أنَّ النَّذر المُطلَقَ والمُقيَّدَ إيجابُ عبادةٍ علىٰ المُكلَّفِ؛ لأنَّ النَّذرَ هو إلزامُ المُكلَّفِ نفسَه بعبادةٍ لله جَلَّ وَعَلَا، هٰذه حقيقةُ النَّذرِ، فالنَّذرُ إلزامٌ بعبادةٍ، فهو عبادةٌ و يُلزِمُ المرءُ نفسَه بعبادةٍ إمَّا مُطلقًا أو بقَيدٍ.

[الدَّليل الأوَّل] ويدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ النَّذرَ عبادةٌ أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا مدحَ الَّذين يوفونَ بالنَّذر فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الوفاءَ بالنَّذر أمرٌ مَشروعٌ واجبٌ أو مُستَحبٌّ، وهو مَحبوبٌ لله جَلَّ وَعَلَا؛ يعني من حيثُ الدِّلالةُ، وإلَّا فإنَّ الوفاءَ بالنَّذرِ واجبٌ لأنَّه إلزامٌ بالطَّاعة، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ».

فإذن الوفاءُ بالنَّذر مدحَ الله أهلَهُ وإذا كان كذلكَ فيكونُ عبادةً لأنَّه مَحبوبٌ لله جَلَّ وَعَلَا.

[الدَّليل الثَّاني] وكذلكَ قولُه: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ هٰذا يدلُّ علىٰ مَحبَّةِ الله جَلَّ وَعَلَا لذلكَ الَّذي حصلَ منهم تعظيمًا لله جَلَّ وَعَلَا للنَّذر، وإنْ كان كذلك فإنَّه عبادةٌ من العباداتِ وإذا صُرِف النَّذرُ لغير الله جَلَّ وَعَلَا كان شركًا لله جَلَّ وَعَلَا.

هٰهنا سؤالٌ مَعروفٌ في هٰذا المَقامِ: وهو أنَّ النَّذر مكروهٌ، قد كره النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّذر وسُئل عنه فكَرِهَه وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»، فكيف إذنْ يَكونُ عبادةً وقد كَرِهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

والجواب: أنَّ النَّذر قسمان: نذرٌ مُطلَقٌ، ونذرٌ مُقيَّدٌ.

والنَّذرُ المُطلقُ: هو أنْ يُلزِم العبدُ نفسَه بعبادةِ لله جَلَّ وَعَلَا، هكذا بلا قيدٍ؛ يعني يقولُ مثلًا: لله عليَّ نذرٌ أن أُصلِّيَ رَكعتين، ليس في مُقابلِه شيءٌ يحدثُ في المُستقبَلِ أو شيءٌ حدثَ له، فيُلزِمُ نفسَه بعبادةٍ

صلاةٍ أو عبادةِ صيامٍ أو نحوِ ذلك، فهٰذا النَّذر المُطلَقُ وهو إلزامُ العبدِ نفسَه بطاعةِ لله جَلَّوَعَلَا أو بعبادةٍ ليس هو الَّذي كَرِهَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ الَّذي كَرِهَه وصفهُ بقولِه: «**إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» وهٰذا هو:

النَّذرُ المُقيَّدُ: الَّذي يَجعلُ إلزامَ نفسِه بطاعةِ لله جَلَّوَعَلَا مُقابَلًا بشيءٍ يُحدثُه اللهُ جَلَّوَعَلَا له ويُقدِّرُه ويَقضيه له، يقول مثلًا: إنْ شفىٰ الله مريضي فللَّه عليَّ نذرٌ أنْ أتصدَّق بكذا وكذا، إن نجحتُ فسأصلِّي ليلةً، إن عُيِّنتُ في هٰذِه الوظيفةِ فسأصومُ أسبوعًا ونحوُ ذلك، فهٰذا كأنَّه يشترطُ به علىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فيقولُ: يا ربِّي إنْ أعطيْتَني كذا وكذا صُمتُ لك، إنْ أنجحْتَني صلَّيتُ أو تَصدَّقتُ، إن شَفَيْتَ مَريضي فعلتُ كذا وكذا، وهٰذا بالمُقابَلةِ، وهٰذا هو الَّذي وصفَه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقولِه: «**إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» لأنَّ البخيلَ هو الَّذي لا يَعملُ العبادةَ حتَّىٰ يُقاضىٰ عليها، فصار ما أعطاهُ الله من النِّعمة أو دفعَ عنه من النِّقمة كأنَّه في حسِّ ذلك النَّاذرِ قد أُعطِيَ الأجرَ وأُعطِيَ ثمنَ تلكَ العبادةِ.

وهٰذا يَستحضرُه كثيرٌ من العَوامِّ والَّذين يستعملون النُّذورَ فإنَّهم يظنُّون أنَّ حاجاتِهم لا تحصلُ إلَّا بالنَّذر. وقد قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه من أهلِ العلم: إنَّ من ظنَّ أنَّه لا تحصلُ حاجةٌ من حاجاتِه إلَّا بالنَّذر فإنَّه في اعتقادٍ مُحرَّمٍ؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ الله لا يُعطي إلَّا بمُقابلٍ، وهٰذا سوءُ ظنٍّ بالله جَلَّوَعَلَا، وسوءُ اعتقادٍ فيه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ بل هو المُتفضِّلُ المُنعمُ علىٰ خلقِه.

فإذن إذا تبيَّن ذلكَ، فالنَّذرُ المُطلَقُ لا يدخلُ في الكراهةِ، وإذا قُلنا النَّذرُ عبادةٌ فنظر فيه إلىٰ جهةِ المُطلَقِ وإلىٰ جهةِ عدمِ التَّقييدِ فيما إذا قُيِّدَ ووَفَّىٰ بالنَّذر فإنَّه يكون قد تعبَّد الله بتلكَ العبادةِ وألزمَ نفسَه بها، فيكونُ النَّذرُ علىٰ ذلك نَذرًا يظهرُ أنَّه عبادةٌ لله جَلَّوَعَلَا، والكراهةُ إنَّما جاءت لصفةِ الاعتقادِ لا لصفةِ أصلِ العبادةِ، فإنَّه في النَّذر المُقيَّد إذا قال: إنْ كان كذا وكذا فللَّه عليَّ كذا وكذا= الكراهةُ راجعةٌ إلىٰ ذلك التَّقييدُ لا إلىٰ أصلِ النَّذرِ.

دلَّ علىٰ ذلك التَّعليلُ حيثُ قال: «**فَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» إذنْ فلا إشكالَ إذن، والنَّذرُ عبادةٌ من العباداتِ العظيمةِ.

وهنا قاعدةٌ في أنواع الاستدلالِ علىٰ أنَّ عملًا من الأعمالِ صرفُه لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا شركٌ أكبرُ، وذلكَ أنَّ الاستدلالَ له نوعان:

- فكلُّ دليلٍ من الكتابِ أو السُّنَّة فيه إفرادٌ لله بالعبادة يكون دليلًا علىٰ أنَّ كلَّ عبادةٍ لا تصلُح إلَّا لله، هٰذا نوعٌ من الأدلَّة، كلُّ دليلٍ فيه إفرادُ الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة، يصلُح أن تَستدِلَّ به علىٰ أنَّ عبادةً ما لا يجوزُ

صرفُها لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا، بأيِّ مُقدِّمةٍ؛ بأن تقولَ دلَّ الدَّليلُ علىٰ وجوبِ صرفِ العبادةِ لله وحدَه وعلىٰ أنَّه لا يجوزُ صرفُ العبادةِ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّ من صرفَها لغير لله جَلَّوَعَلَا فقد أشركَ، وتلك العبادةُ الخاصَّةُ -مثلًا عندنا هنا النَّذرُ تقولُ: هٰذه عبادةٌ من العبادات، فهي داخلةٌ في ذلك النَّوعِ من الأدلَّةِ.

- والنَّوع الثَّاني من الاستدلالِ: أنْ تستدلَّ علىٰ المسائلِ بأدلَّةٍ خاصَّةٍ وردت فيها، تستدلُّ علىٰ الذَّبح بأدلَّةٍ خاصَّةٍ وردت في الذَّبح، تستدلُّ علىٰ وجوبِ الاستغاثة بالله وحدَه دون ما سواهُ علىٰ أدلَّةٍ خاصَّةٍ بالاستغاثةِ، وعلىٰ أدلَّةٍ خاصَّةٍ بالاستعاذة ونحو ذلك.

فإذن الأدلَّة علىٰ وجوبِ إفراد الله بجميعِ أنواعِ العبادةِ تفصيلًا وإجمالًا، وعلىٰ أنَّ صرفَها لغير الله شركٌ أكبرُ يستقيمُ بهذين النَّوعين من الاستدلالِ.

استدلالٌ عامٌّ بكلِّ آيةٍ أو حديثٍ فيها أمرٌ بإفراد الله بالعبادةِ والنَّهيُ عن الشِّرك فتُدخلُ هٰذه الصُّورة فيها لأنَّها عبادةٌ بجامعِ تعريف العبادةِ.

والثَّاني أنْ تستدلَّ علىٰ المسألة بخصوصِ ما ورد فيها من الأدلَّة.

لهٰذا قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ**) واستدلَّ عليها بخصوصِ أدلَّةٍ وردت في النَّذرِ.

والآيات الَّتي قدَّمها في أوَّل الكتابِ؛ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:23]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذَّاريات]، وكقوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النِّساء:36]، وكقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[الأنعام:151]، هٰذه أدلَّةٌ تصلحُ لأنْ تَستدلَّ بها علىٰ أنَّ صرفَ النَّذرِ لغيرِ الله شركٌ، فتقول: النَّذر لغير الله عبادةٌ والله جَلَّوَعَلَا نهىٰ أن تُصرفَ العبادةُ لغيره، وأنَّ من صرفَ العبادةَ لغير الله فهو مُشركٌ، وتقول: النَّذر عبادةٌ لأنَّه كذا وكذا لأنَّه داخلٌ في حدِّ العبادةِ حيثُ إنَّه يرضاهُ الله جَلَّوَعَلَا ومدحَ المُوفينَ به.

الدَّليل الخاصُّ أنْ تستدلَّ بخصوصِ ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّة من الأدلَّة علىٰ النَّذر، ولهٰذا الشَّيخ هنا أتىٰ بالدَّليل التَّفصيليِّ وفي أوَّل الكتاب أتىٰ بالأدلَّة العامَّة علىٰ كلِّ مسائلِ العبادةِ.

وهٰذا من الفقه الدَّقيق في التَّصنيف وفِقْهِ الأدلَّة الشَّرعيَّة من أنَّ المُستدِلَّ علىٰ مسائلِ التَّوحيدِ ينبغي له أن يُدرك التَّنويعَ؛ لأنَّ في تنويعَ الاستدلالِ وإيرادَ الأدلَّة من جهةٍ ومن جهةٍ أخرىٰ ثالثةٍ ورابعةٍ ما يُضعفُ حجَّة الخُصومِ الَّذين يدعون النَّاس لعبادةِ غير الله وللشِّرك به جَلَّوَعَلَا، وإذا أتيت مرَّةً بدليلٍ عامٍّ ومرَّةً بدليلٍ خاصٍّ ونوَّعت فإنَّه يَضِيق، ثُمَّ إذا ليس ثمَّ دليلٌ واحدٌ فربَّما أوَّلَه لكَ أو ناقشك فيه فيحصلُ

ضعفٌ عند المُستدِلّ، أمَّا إذا انتبَهَ لمَقاصدِ أهل العلمِ وحفظ الأدلَّة فإنَّه يَقوىٰ علىٰ الخُصوم والله جَلَّوَعَلَا وعدَ عبادَه بالنَّصرِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾[غافر]، وقد قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كشف الشُّبهات»: والعامِّيُّ من المُوحِّدين يغلبُ الألف من علماءِ المُشركين. وهٰذا صحيحٌ فإنَّ عند العَوامِّ الَّذين علموا مسائلَ التَّوحيد وأخذوها عن أهلِها عندَهم من الحُجَجِ ووضوحِ البَيِّنات في ذلك ما ليسَ عندَ بعض المُتعلِّمين.

* قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾) وجهُ الاستدلالِ ظاهرٌ؛ وهو أنَّ الله جَلَّوَعَلَا مدحَ الموفين بالنَّذر، ومَدحُه للموفين بالنَّذر يقتضي أنَّ هٰذه العبادةَ مَحبوبةٌ له جَلَّوَعَلَا وأنَّها مشروعةٌ وما كان كذلك فهو من أنواع العبادات، فيكون صرفُه لغير الله جَلَّوَعَلَا شركًا أكبرَ.

* كذلك (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾[البقرة]) دالٌّ علىٰ أنَّ النَّذر عَظَّمَه الله جَلَّوَعَلَا بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ وعظَّم أهلَه، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الوَفاءَ به عبادةٌ مَحبوبةٌ لله جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ») وجهُ الدِّلالة من هٰذا الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أوجب الوَفاءَ بالنَّذر فقال: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ) وذلك إيجابُ الوفاءِ بالنَّذر الَّذي يكون علىٰ طاعةٍ؛ كأنْ يقول: لله عليَّ أنْ أُصلِّيَ كذا وكذا. هٰذا يجبُ عليه أنْ يُوفيَ بهٰذا النَّذر أو أنْ يكونَ نذرًا مُقيَّدًا فيقول: إن شفىٰ الله مريضي فللَّه عليَّ أنْ أتصدَّق بمِائةِ ريالٍ. فهٰذا يجب عليه أنْ يوفيَ بنذرِه لله جَلَّوَعَلَا، وإيجابُ ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّه عبادةٌ مَحبوبةٌ؛ لأنَّ الواجب من أنواع العباداتِ، وأنَّ ما كان وسيلةً إليه فإنَّه أيضًا عبادةٌ لأنَّ الوسيلةَ للوَفاءِ بالنَّذر هو النَّذرُ، فلولا النَّذرُ لم يأت الوفاءُ، فأُوجب الوفاءَ ولأجلِ أنَّ المُكلَّفَ هو الَّذي ألزم نفسَه بهٰذه العبادةِ.

قال: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ» لأنَّ إيجابَ المُكلَّفِ علىٰ نفسِه معصيةَ لله جَلَّوَعَلَا، هٰذه مُعارِضةٌ لنَهي الله جَلَّوَعَلَا عن العِصيانِ، وإذا نذرَ العبدُ العصيانَ فإنَّ النَّذر -كما هو مَعلومٌ في الفقه- قد انعقدَ ويجبُ عليه ألَّا يَفيَ بتلكَ المَعصيةِ لكنْ يجبُ عليه أن يُكفِّر عن ذلك كفَّارةَ يمينٍ ومَحَلُّ ذلك بابُ النَّذر في كتبِ الفقهِ.

المَقصودُ من هٰذا أنَّ استدلالَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالشِّقِّ الأوَّل وهو قوله: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»

وهٰذا ظاهرٌ، وكذلك في قوله: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»[1] وأوجبَ عليه كفَّارة يمينٍ فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ أصلَه مُنعقِدٌ، وإنَّما انعقدَ لكونِه عبادةً، وإذا كان عبادةً فصرفُها لغير الله شركٌ أكبرُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا.

النَّذرُ لله جَلَّ وَعَلَا عبادةٌ عظيمةٌ -كما ذكرنا-، والنَّذرُ لغيرِ الله جَلَّ وَعَلَا أيضًا عبادةٌ، فإذا توجَّه النَّاذرُ لغير الله بالنَّذر فقد عبدَه، وإذا توجَّه النَّاذرُ لله جَلَّ وَعَلَا بالنَّذر فقد عبدَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا، فالنَّذرُ إذا كان لله أو كان لغيرِ الله فهو عبادةٌ، فإذا كان لله فهو عبادةٌ لله جَلَّ وَعَلَا، وإذا كان لغيرِ الله فهو عبادةٌ لذلك الغيرِ.

ونكتفي بهٰذا القدر، وأسألُ الله جَلَّ وَعَلَا لي ولكم الانتفاعَ، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



[الأسئلة]

[سؤال (21): هل يُعتبرُ نذرًا مُطلقًا أم مُقيَّدًا إذا حصل للعبدِ مَنفعةٌ مثلَ نجحَ أو حصلَ علىٰ وظيفةٍ ونذرَ أن يصومَ ثلاثةَ أيَّامٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع العلمِ أنَّه لم ينذر قبلَ نجاحِه أو حصولِه علىٰ الوظيفةِ.

الجواب: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، الحمد لله والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهُداه، أمَّا بعدُ؛

فالنَّذرُ المُطلقُ: هو الَّذي لم يُعلَّق بشيءٍ سيحصلُ في المُستقبلِ.

والنَّذرُ المُقيَّدُ: هو المُعلَّق الَّذي عُلِّق الوفاءُ به بحصول شيءٍ من الله جَلَّ وَعَلَا **للعبدِ، وهٰذا يكون في المُستقبَلِ**؛ إن شفىٰ الله مريضي فسأصومُ ثلاثةَ أيَّامٍ، إن نجحتُ فسأصومُ، هٰذا هو النَّذرُ المُعلَّقُ المُقيَّدُ.

أمَّا المُطلَقُ فهو أن ينذر نذرًا لله جَلَّ وَعَلَا تبرُّعًا منه، إمَّا بسببِ حادثةٍ حدثتْ أو نعمةٍ تجدَّدتْ، أو نَقمةٍ اندَفعتْ أو بدون سببٍ، فهٰذا كلُّه يدخلُ في المُطلَقِ، أمَّا المُقيَّدُ فهو المُعلَّقُ بشرطٍ في المُستقبَلِ.][2]



(1) انتهىٰ الشَّريط الخامس.

(2) من الوجه الثَّاني من الشَّريط السَّادس.

الدَّرسُ السَّابِعُ

13- بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[الجن].

[2] وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: [سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ]: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، المَلكُ الحقُّ المُبينُ، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ، نشهدُ له بالرِّسالةِ، وبأنَّه بلَّغها وأدَّىٰ الأمانةَ، ونصحَ الأمَّة، وجاهدَ في الله حقَّ الجهادِ، وتركنا بعدَه علىٰ بيضاءَ ليلُها كنهارِها لا يزيغُ عنها إلَّا هالكٌ، صلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آلِه وصحبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدِّين.

أمَّا بعدُ، فهٰذا البابُ ترجمه الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بقوله: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ**) وهٰذا البابُ مع البابِ الَّذي قبلَه والأبوابِ أيضًا الَّتي سلفت كلُّها في بيانِ قصدِ هٰذا الكتابِ وبيانِ الغرضِ من تأليفه وأنَّ التَّوحيد إنَّما يُعرَفُ بضدِّه، فمن طلب التَّوحيد فليطلُب ضدَّ التَّوحيدِ؛ لأنَّه -أعني التَّوحيد- يجمع بين الإثباتِ والنَّفي يجمع بين الإيمانِ بالله وبينَ الكُفرِ بالطَّاغوتِ، فمن جمعَ بين هذين فإنَّه قد عرف التَّوحيد، ولهٰذا الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فصَّل في أفرادِ توحيدِ العبادةِ وفصَّل في أفرادِ الشِّركِ، فبيَّن أصنافَ الشِّرك الأصغرِ القولَ والعملَ وبيَّن أصنافَ الشِّركِ الأكبرِ العَمليِّ و الاعتِقاديِّ، فذكر الذَّبح لغيرِ الله وذكر النَّذرَ لغيرِ الله، والذَّبحُ والنَّذرُ عبادتانِ عظيمتانِ، وعبادةُ الذَّبح وعبادةُ النَّذر ظاهرةٌ:

عبادةُ الذَّبح فعليَّةٌ عمليَّةٌ.

والنَّذر قوليَّةٌ إنشاءً وعمليَّةٌ وفاءً.

فذكرَ العمليَّات أو الذَّبح من العمليَّات؛ يعني من أنواعِ الشِّرك الأكبرِ الَّذي يكون من جهةِ العملِ، وذكر النَّذرَ لغيرِ الله وهو يحصلُ بالقولِ.

والذَّبحُ والنَّذرُ، العملُ والقولُ كلٌّ منهُما معه اعتقادُ تعظيمِ المَخلوقِ كتعظيمِ الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:165]، وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ [الشُّعراء].

وعطف علىٰ ذلك (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ**) والاستعاذةُ بغيرِ الله تكونُ بالقَولِ الَّذي معه اعتقادٌ، فهي مناسبةٌ لأنْ تكون بعدَ (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ**).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**مِنَ الشِّرْكِ**) (مِنْ) هٰهنا تبعيضيَّةٌ -كما ذكرنا فيما سبقَ مِن هٰذه الأبوابِ-، وهٰذا الشِّركُ هو الشِّركُ الأكبرُ؛ من الشِّركِ الأكبرِ الاستعاذةُ بغيرِ الله؛ لأنَّ الألف واللام أو اللام وحدها الداخلة علىٰ (**الشِّرْكِ**) هذه تعود إلىٰ المعبود وهو أنَّ الاستعاذةَ بغيرِ الله شركٌ أكبرُ بالله جَلَّجَلَالُهُ.

الاستعاذة: طلبُ العياذِ، يُقال: استعاذَ إذا طلب العياذَ، والعياذُ طلبُ ما يؤمِّنُ من الشَّرِّ، الفرارُ من شيءٍ مَخوفٍ إلىٰ ما يُؤمِّنُ منه أو إلىٰ من يُؤمِّن منه.

ويُقابلُها اللِّياذ؛ وهو الفرارُ إلىٰ طلبِ الخيرِ أو التَّوجُّه والاعتصامُ والإقبالُ لطلبِ الخيرِ.

ومادَّةُ (استفعلَ) مثلَ ما هٰهنا استعاذَ -وكما سيأتي-، استغاثَ، استعانَ- ونحو هٰذه المادَّةِ هي مَوضوعةٌ في الغالبِ للطَّلب، فغالبُ مجيءِ السِّين والتَّاء للطَّلب؛ استسقىٰ إذا طلب السُّقيا، واستغاثَ إذا طلب الغَوثَ، واستعاذَ إذا طلبَ العياذَ.

قُلنا في الغالبِ؛ لأنَّها تأتي أحيانًا للدِّلالة علىٰ كثرةِ الوصفِ في الفعلِ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التَّغابُن:6]، ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ ليسَ معناها طلبُ الغِنىٰ، وإنَّما جاءَ بالسِّين والتَّاء هنا للدِّلالة علىٰ عِظَم الاتِّصاف بالوَصفِ الَّذي اشتملَ عليه الفعلُ وهو الغِنىٰ.

فهٰذه المادَّةُ: استغاثَ، واستعاذَ، واستعانَ، وأشباهُ ذلكَ فيها طلبٌ، والطَّلبُ من أنواعِه التَّوجُّه والدُّعاء، إذا طلبَ فإنَّ هناكَ مَطلوبًا منه، والمَطلوبُ منه لمَّا كان أرفعَ درجةً من الطَّالبِ كان الفعلُ المُتوجِّه إليه يُسمَّىٰ دُعاءً، ولهٰذا في حقيقةِ اللُّغة وفي دِلالة الشَّرع:

الاستعاذةُ: طلبُ العَوْذِ أو طلب العياذِ، وهو الدُّعاء المُشتمِل علىٰ ذلكَ.

والاستغاثةُ هو طلبُ الغَوْثِ؛ دعاءٌ مشتملٌ علىٰ ذلكَ.

وهكذا في كلِّ ما فيه طلبٌ نقول: إنَّه دعاءٌ. وإذا كان دعاءً فإنَّه عبادةٌ، والعبادةُ لله جَلَّوَعَلَا بالإجماعِ ولِمَا دلَّت عليه النُّصوص ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجنُّ]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:23]، ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّساء:36].

إذن فكلُّ فعلٍ من الأفعالِ أو قولٍ من الأقوالِ فيه طلبُ عبادةٍ، لِمَ؟ لأنَّه دعاءٌ لأنَّ كلَّ طلبٍ دعاءٌ.

فالَّذي يطلبُ شيئًا:

- إذا طلبَه مِن مُقارنٍ فيُقالُ: هٰذا **التماسٌ**.
- إذا طلبَه ممَّن هو دونَه يُقالُ: هٰذا **أمرٌ**.
- وإذا طلبَه ممَّن هو أعلىٰ منه فهٰذا **دُعاءٌ**.

والمُستعيذُ والمُستغيثُ لا شكَّ أنَّه طالبٌ ممَّن هو أعلىٰ منه لحاجَته إليه، فلهٰذا كلُّ دليلٍ فيه ذكرُ إفرادِ الله جَلَّوَعَلَا بالدُّعاء أو للعبادةِ دليلٌ علىٰ خصوصِ هٰذه المسألةِ وهي أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ من العباداتِ العظيمةِ، وإذْ كانت كذلكَ فإنَّ إفرادَ الله بها واجبٌ.

قال هنا: (**مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللّٰهِ**)، وقوله: (**الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللّٰهِ**) هٰذا الغيرُ يشملُ كلَّ ما يتوجَّه النَّاسُ إليه بالشِّرك، ويدخلُ في ذلكَ بالأوَّليَّة ما كانَ المُشركون الجاهليُّون يتوجَّهون إليه بذلك من الجنِّ ومن الملائكةِ ومن الصَّالحين ومن الأشجارِ والأحجارِ ومن الأنبياءِ والرُّسلِ إلىٰ غيرِ ذلك.

هل قوله هنا: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللّٰهِ**) (**الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللّٰهِ**) هل هذا المَقصودُ منه: أنَّ الاستعاذةَ جميعًا لا تصلحُ إلَّا لله، وأنَّه لو استعاذَ بمخلوقٍ فيما يقدرُ عليه أنَّه يدخلُ في الشِّرك؟

الجواب: هٰذا فيه تفصيلٌ.

ومن أهلِ العلمِ من قال: الاستعاذةُ لا تصلُحُ إلَّا لله، وليسَ ثَمَّ استعاذةٌ بمخلوقٍ فيما يقدرُ عليه؛ لأنَّ **الاستعاذةَ توجُّهُ القلبِ واعتصامُه والتِجاؤُه ورَغبةُ ورَهبةُ** فيها هٰذه المعاني جميعًا، فهي توجُّهٌ للقلبِ، وهٰذه المَعاني جميعًا لا تصلُح إلَّا لله جَلَّوَعَلَا.

وقال آخرون: قد جاءت أدلَّةٌ بأنَّه يُستعاذُ بالمخلوقِ فيما يقدرُ عليه؛ لأنَّ حقيقةَ الاستعاذةِ طلبُ انكفاف الشَّرِّ، طلبُ العياذِ وهو أنْ يُعيذَ من شرٍّ أحدقَ به، وإذا كان كذلك فإنَّه قد يكونُ المَخلوقُ يَملِكُ شيئًا من ذلكَ، قالوا: فإذن تكونُ الاستعاذةُ بغيرِ الله شركًا أكبرَ إذا كان ذلكَ المَخلوقُ لا يقدرُ علىٰ أن يُعيذَ، أو لا يَقدرُ علىٰ الإعاذةِ ممَّا طَلَبَ إلَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا.

والَّذي يظهرُ من ذاكَ أنَّ المَقامَ -كما ذكرتُ لك فيه تفصيلٌ-، وذاكَ أنَّ الاستعاذةَ فيها عملٌ ظاهرٌ وفيها عملٌ باطنٌ:

فالعملُ الظَّاهرُ أن يَطلُبَ العَوْذَ؛ أن يطلُبَ العياذَ وهو أن يُعصَمَ من هٰذا الشَّرِّ أو ينجوَ من هٰذا الشَّرِّ.

وفيها عملٌ باطنٌ وهو توجُّهُ القلبِ وسكينتُه واضطرارُه وحاجتُه إلىٰ هٰذا المُستعاذِ به واعتصامُه بهٰذا المُستعاذِ به وتفويضُ أمرِ نجاتِه إليه.

إذا كان هٰذان في الاستعاذةِ:

فإذا قيل: الاستعاذةُ لا تصلُح إلَّا بالله، لا يُستعاذُ بمَخلوقٍ مُطلقًا، يُعنىٰ أنَّه لا يُستعاذُ به من جهةِ النَّوعين جميعًا؛ لأنَّ منه القلبُ -يعني: النَّوعين معًا-؛ لأنَّ منه عملُ القلبِ، وعمل القلب الَّذي وصفتُ، بالإجماع لا يصلُّح إلَّا لله جَلَّوَعَلَا.

وإذا قيل: الاستعاذةُ تصلُح بالمَخلوقِ فيما يقدرُ عليه، فهٰذا لِمَا جاء في بعض الأدلَّة من الدِّلالة علىٰ ذلكَ، وهٰذا إنَّما يُرادُ منه الاستعاذةُ بالقولِ ورَغبُ القلبِ في أنْ يَخْلُصَ ممَّا هو فيه من البلاءِ، وهٰذا يجوزُ أن يُتوجَّه به إلىٰ المَخلوقِ.

فإذن حقيقةُ الاستعاذةِ تجمَعُ الطَّلبَ الظَّاهرَ وتجمعُ المعنىٰ الباطنَ، ولهٰذا اختلفَ أهلُ العلمِ فيها، فالَّذي ينبغي أن يكونَ منك دائمًا علىٰ ذُكر أنَّ توجُّه أهلِ العباداتِ الشِّركيَّةِ لمن يُشركون به من الأولياءِ أو الجنِّ أو الصَّالحينَ أو الطَّالحينَ أو غيرِ ذلك أنَّهم جمعوا بين القولِ باللِّسان وبينَ أعمالِ القُلوبِ الَّتي لا تصلُحُ إلَّا لله جَلَّوَعَلَا.

وبهٰذا يبطلُ ما يقولُه أولئك الخُرافيُّون من أنَّ الاستعاذةَ بهم إنَّما هي فيما يقدِرون عليه، وأنَّ اللهَ أقدَرَهم علىٰ ذلك، فيكونُ إبطالُ مقالِهم راجعًا إلىٰ جهتين:

الجهةُ الأولىٰ أن يُبطَل قولُهم في الاستعاذةِ وفي أشباهِها أنَّ هٰذا الميْتَ أو هٰذا الجنَّ يقدرُ علىٰ هٰذا الأمرِ، وإذا لم يقتنِع بذلكَ أو حصل هنالكَ إيرادُ اشتباهٍ فيه.

فالأعظمُ أن يتوجَّهَ المُوردُ إلىٰ الأدلَّة السُّنيَّة أن يتوجَّه إلىٰ أعمالِ القلبِ وأنَّ هٰذا الَّذي توجَّه إلىٰ ذلك الميْتِ أو الوليِّ قد قامَ بقلبٍ من العُبوديَّات ما لا يصلُح إلَّا لله جَلَّجَلَالُهُ.

إذن فنقولُ: الاستعاذةُ لغيرِ الله شركٌ أكبرُ لأنَّها صرفُ العبادةِ لغيرِ الله جَلَّجَلَالُهُ، فإن كان ذلكَ في الظَّاهر مع طُمأنينةِ القلبِ بالله وتوجُّه القلبِ إلىٰ الله وحُسنِ ظَنِّه بالله وأنَّ هٰذا العبدَ إنَّما هو سببٌ أنَّ القلبَ مُطمئِنٌّ فيما عندَ الله، فإنَّ هٰذه تكون استعاذةً بالظَّاهر، وأمَّا القلبُ فإنْ لم تقُم به حقيقةُ الاستعاذةِ، وإذا كان كذلكَ كان هٰذا جائزًا.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[الجنُّ]) ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ هٰذه معطوفةٌ علىٰ أوَّل السُّورة وهو ما أوحىٰ الله جَلَّوَعَلَا إلىٰ نبيِّه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجنُّ:1]، ثمَّ بعد آياتٍ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ومعنىٰ ﴿رَهَقًا﴾ هنا يعني: خوفًا واضطِرابًا في القلبِ أوجبَ لهم الإرهاقَ والرَّهَقَ في الأبدانِ

والأرواحِ، فلمَّا كان كذلك تعاظمتِ الجنُّ وزادَ شرُّها، قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وقد كان المُشركون إذا نزلوا بوادٍ أو بمكانٍ مَخوفٍ كانوا يعتقِدون أنَّ لكلِّ مكانٍ مَخوفٍ جنيًّا أو سيِّدًا من الجنِّ يخدمُ ذلك المكانَ هو له ويسيطرُ عليه، فكانوا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا قالوا نعوذُ بسيِّد هٰذا الوادي من سُفهاءِ قومِه يعنون الجنَّ فعاذوا بالجنِّ لأجل أنْ يكُفَّ عنهم الشَّرَّ مُدَّة مَقامِهم، لهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، ﴿فَزَادُوهُمْ﴾؛ يعني: زادَ الجنُّ الإنسَ خوفًا واضطِرابًا وتعبًا في الأنفُسِ والأرواحِ وإذا كان كذلكَ كان هٰذا ممَّا هو من العُقوبَةِ عليهم، والعُقوبةُ إنَّما تكونُ علىٰ ذنبٍ، فدلَّت الآيةُ علىٰ ذمِّ أولئك، وإنَّما ذُمُّوا لأنَّهم صَرفوا تلك العبادةَ لغير الله جَلَّوَعَلَا، واللهُ سبحانه أمرَ أن يُستعاذَ به دونَ ما سواهُ فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾[الفلق]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾[النَّاس].وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾[المؤمنون]، والآيات في ذلك كثيرة كقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾(1) فعُلِمَ من التَّنصيص علىٰ المُستعاذِ به وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا علىٰ أنَّ الاستعاذةَ حصلت باللهِ وبغيرِه وأنَّ اللهَ أمر نبيَّه أن تكونَ استعاذتُه به وحدَه دونَ ما سِواهُ، وذكرتُ لكم أصلَ الدَّليل في ذلكَ أنَّ الإستعاذةَ عبادةٌ وإذا كانت عبادةً فتدخلُ فيما دلَّت عليه الآياتُ من إفرادِ العبادة بالله وحدَه.

وفي قولِه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ثَمَّ قولٌ آخرُ -وهو قولُ قتادةَ وبعضِ السَّلف- من أنَّ ﴿رَهَقًا﴾ معناها إثمًا؛ فزادوهم إثمًا، وهٰذا أيضًا ظاهرٌ من جهة الإستدلالِ إذا كانت الإستعاذةُ موجِبةً للإثمِ، فهي إذن عبادةٌ إذا صُرِفت لغيرِ الله، وعبادةٌ مَطلوبةٌ إذا صُرِفت لله جَلَّجَلَالُهُ، وهٰذا يستقيمُ مع التَّرجمة من أنَّ الاستعاذةَ بغيرِ الله شركٌ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ) وجهُ الدِّلالة من هٰذا الحديث أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بيَّن فضلَ الاستعاذةِ بكلماتِ الله فقال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)» وجعلَ المُستعاذَ منهُ المَخلوقاتُ الشِّرِّيرةُ، والمُستعاذُ به هو كلماتُ الله، وقد استدلَّ أهلُ العلمِ -حين ناظروا المُعتزلَةَ وردُّوا عليهم- استدلُّوا بهٰذا الحديثِ علىٰ أنَّ كلماتِ الله ليْست بمَخلوقةٍ قالوا: لأنَّ المَخلوقَ لا يُستعاذُ

(1) الأعراف:200، فصِّلت:36.

به والإستعاذةُ به شركٌ. كما قاله الإمـامُ أحمدُ وغيرُه من أئمَّة السُّنَّة.

فوجهُ الدِّلالة من الحديث إجماعُ أهل السُّنَّة علىٰ الاستدلالِ به علىٰ أنَّ الاستعاذةَ بالمَخلوقِ شركٌ، وأنَّه لمَّا أمرَ بالاستعاذةِ بكلماتِ الله فإنَّ كلماتِ الله جَلَّوَعَلَا ليست بمَخلوقةٍ.

قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَـرِّ مَـا خَلَـقَ)» فالمَقصودُ بـ(كَلِمَـاتِ اللهِ التَّامَّاتِ) هنا: الكلماتُ الكونيَّةُ الَّتي لا يُجاوزُهنَّ برٌّ ولا فاجرٌ وهي المَقصودةُ بقولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾[الكهف:109]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان:27].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الأنعام:115]، وفي قراءةٍ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هٰذه الآيةُ في الكلماتِ الشَّرعيَّة وكذلك في الكلماتِ الكَونيَّة.

إذن فقولُه: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ) يعني الكلماتِ الكَونيَّةَ، (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) يعني من شرِّ الَّذي خلقَه الله جَلَّوَعَلَا، وهٰذا العمومُ المَقصودُ من شرِّ المَخلوقاتِ الَّتي فيها شرٌّ، وليست كلُّ المَخلوقاتِ فيها شرٌّ؛ بل ثمَّ مَخلوقاتٌ طيِّبةٌ ليس فيها شرٌّ كالجنَّة والمَلائكةِ والرُّسلِ والأنبياءِ والأولياءِ، وهناك مَخلوقاتٌ خُلِقتْ وفيها شرٌّ فاستُعيذَ بالله جَلَّوَعَلَا بكلماتِ الله جَلَّوَعَلَا من شرِّ الأنفُسِ الشِّرِّيرةِ والمَخلوقاتِ الَّتي فيها شرٌّ.



14- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَه

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[يونس].

[2] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[العنكبوت].

[3] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾[الأحقاف].

[4] وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[النمل:62] الآيَةَ.

[5] وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هٰذا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ».

قولُه: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)، (مِنَ الشِّرْكِ) -كما ذكرنا فيما سبقَ- يعني الشِّركَ الأكبرَ، (أَنْ يَسْتَغِيثَ) يعني الاستغاثةَ؛ لأنَّ (أَنْ) مع الفعلِ تُؤوَّلُ بمَصدرٍ: بابٌ من الشِّركِ الاستغاثةُ بغيرِ الله، أو استغاثةٌ بغيرِ الله، أو دعاءُ أو دعوةُ غيرِه أو دعاءُ غيرِه. وهٰذا ظاهرٌ في أنَّ الاستغاثةَ كما ذكرنا طلبٌ، والطَّلب نوعٌ من أنواع الدُّعاء.

ولهٰذا قال العلماءُ: إنَّ في قوله: (أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ) بعدَ (أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ) فيه عطفٌ للعامِّ علىٰ الخاصِّ، ومن المَعلومِ أنَّ الخاصَّ قد يُعطفُ علىٰ العامِّ وأنَّ العامَّ قد يُعطفُ علىٰ الخاصِّ.

وقوله: (أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ) هٰذا أحدُ أفرادِ الدُّعاء كما ذكرنا؛ لأنَّ الاستغاثة طلبٌ والطَّلبُ دعاءٌ، (أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ) هٰذا عامٌّ الَّذي يشملُ الاستغاثةَ ويشملُ الاستعاذةَ ويشملُ أصنافًا كثيرةً من أنواع الدُّعاء.

(أَنْ يَسْتَغِيثَ) الاستغاثةُ هي طلبُ الغَوْثِ، والغَوْثُ يحصلُ لمن وقعَ في شدَّةٍ وكَرْبٍ يَخشىٰ معه

المَضرَّةَ الشَّديدةَ أو الهَلاكَ، فيُقال: أغاثَهُ إذا فزِعَ إليه وأعانَهُ علىٰ ما به وخلَّصهُ منه، كما قال جَلَّوَعَلَا في قصَّة موسىٰ ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:15] ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني من كانَ من شيعةِ موسىٰ طلبَ الغَوْثَ من موسىٰ علىٰ من كانَ عدوٌّ لهما جميعًا، فأغاثَهُ موسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

فإذن الاستغاثةُ طلبُ الغَوْثِ، وطلبُ الغَوْثِ لا يصلُح إلَّا من الله فيما لا يقدِرُ عليه إلَّا الله جَلَّجَلَالُهُ؛ لأنَّ الاستغاثةَ يُمكنُ أن تُطلبَ من المَخلوقِ لأنَّه يقدرُ عليها.

بعضُ العلماء يقولُ: نضبطُ ذلك بقولِنا: الاستغاثةُ شركٌ أكبرُ إذا استغاثَ بالمَخلوقِ فيما لا يقدرُ عليه ذلك المَخلوقُ.

وقال آخرون: الاستغاثةُ شركٌ أكبرُ إذا استغاثَ بالمَخلوقِ فيما لا يقدرُ عليه إلَّا الله.

وهاتان مُختلِفتان، والأصحُّ منهما الأخيرةُ؛ لأنَّ المرءَ إذا استغاثَ بالمَخلوقِ فيما لا يَقدرُ عليه إلَّا اللهُ، والمَخلوقُ يعلمُ أنَّ هٰذا لا يقدرُ عليه إلَّا الله فإنَّه شركٌ أكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا، أو في حقيقةِ الأمرِ أنَّه لا يقدِرُ عليه إلَّا الله.

أمَّا قول من قالَ من أهل العلمِ: إنَّ الاستغاثةَ شركٌ أكبرُ إذا استغاثَ بالمَخلوقِ فيما لا يقدِرُ عليه، فإنَّ هٰذا يَرِدُ عليه أنَّ ثمَّة أشياءَ قد يكونُ في الظَّاهر يقدرُ عليها المَخلوقُ؛ ولكنْ في الحقيقةِ لا يَقدرُ عليها، فإذنْ يَكونُ هٰذا الضَّابطُ غيرَ مُنضَبِطٍ.

لأنَّ مثلًا من وقعَ في شدَّةٍ وهو في غرقٍ مثلًا وتوجَّه لرجلٍ يراهُ بأنَّه يُغيثُه، فقال: أستغيثُ بك، أستغيثُ بك، أستغيثُ بك، وذاكَ لا يُحسنُ السِّباحةَ ولا يحسنُ الإنجاءَ من الغرقِ، فهٰذا استغاثَ بالمَخلوقِ فيما لا يَقدرُ عليه المَخلوقُ. فهل يكون شركًا أكبرَ؟ لا، لِمَ؟ لأنَّ الإغاثةَ عادةً من الغرقِ ونحوِه يصلُح أنْ يكونَ المَخلوقُ قادرًا عليها.

فيكون الضَّابط الثَّاني هو الصَّحيح هو أنْ يُقالَ: **الاستغاثةُ بغيرِ الله شركٌ أكبرُ إذا كان استغاثَ فيما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ.**

أمَّا إذا استغاثَ فيما يقدرُ عليه غيرُ الله من المَخلوقين؛ لكنَّ هٰذا المَخلوقَ المُعيَّنَ لم يقدرْ علىٰ هٰذا الشَّيءِ، فإنَّه لا يكونُ شركًا؛ لأنَّه ما اعتقدَ في المَخلوقِ شيئًا لا يصلُح إلَّا لله جَلَّجَلَالُهُ.

فإذن نقولُ: الاستغاثةُ بغيرِ الله:

- إذا كانت فيما لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ فهي شركٌ أكبرُ.

- وإذا كانت فيما يقدِرُ عليه المَخلوقُ فهي جائزةٌ، كما حصل من صاحبِ موسىٰ إذِ استغاثَ بموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال: (**أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ**) الدُّعاءُ كما ذكرتُ لك هو العبادةُ، والدُّعاء نوعانِ: دعاءُ مَسألةٍ، ودعاءُ عبادةٍ.

☜ نعني **بدعاءِ المَسألةِ**: ما كان فيه طلبٌ وفيه سؤالٌ يَرفعُ يديه لله جَلَّوَعَلَا ويدعو، هٰذا يُسمَّىٰ دعاءَ مَسألةٍ، وهو الَّذي يغلُب عندَ عامَّةِ المُسلمينَ في تَسميةِ الدُّعاء، إذا قيل: دعا فلانٌ؛ يعني: سألَ ربَّه جَلَّوَعَلَا.

☜ والنَّوع الثَّاني **دعاءُ العبادةِ**: كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجنُّ]، يعني لا تعبدوا معَ الله أحدًا أو لا تسألوا مع الله أحدًا، وكما قالَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**».

دعاءُ المَسألةِ غيرُ دعاءِ العبادةِ؛ دعاءُ العبادةِ كحال من صلَّىٰ، كحال من زكَّىٰ، كلُّ صنفٍ من أصنافِ العبادةِ يُقال له: دعاءٌ؛ لكنَّه دعاءُ عبادةٍ.

قال العلماء: **دعاء المسألة متضمِّنٌ لدعاء العبادة، ودعاءُ العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة.**

يعني أنَّ من سألَ الله جَلَّوَعَلَا شيئًا فهو داعٍ دعاءَ مَسألةٍ، وهٰذا مُتضمِّنٌ أنَّه يعبُد اللهَ؛ لأنَّ الدُّعاءَ دعاءَ المَسألةِ أحدُ أنواعِ العبادةِ، فدعاءُ المَسألةِ مُتضمِّنٌ للعبادةِ؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا يحبُّ من عبادِه أنْ يَسألُوه.

دعاءُ العبادةِ مُستلزِمٌ لدعاءِ المَسألةِ؛ يعني من صلَّىٰ فيلزمُ أنَّه أنشأَ الصَّلاة أنَّه يسألُ الله القَبولَ يسألُ الله الثَّوابَ، فيكونُ دعاءُ المَسألةِ مُتضمِّنًا لدعاءِ العبادةِ ودعاءُ العبادةِ مُستلزِمًا لدعاءِ المَسألةِ.

إذا تقرَّر ذلك فهٰذا التَّفصيلُ أو هٰذا التَّقسيمُ مُهمٌّ جدًّا في الحُجَّة في القرآنِ وفي فهمِ الحُججِ الَّتي يُريدُها أهلُ العلمِ؛ لأنَّه قد حصلَ من الخُرافيِّين والدَّاعين إلىٰ الشِّرك أنَّهم يُؤوِّلون الآيةَ الَّتي في الدُّعاءِ بالمَسألةِ، أو الآية الَّتي في المَسألةِ بالدُّعاءِ.

وإذا تبيَّن لك ذلك يعني ما ذكرْنا فإنَّه لا انفكاكَ في الحقيقةِ بين دعاءِ المَسألةِ ودعاءِ العبادةِ، فهٰذا هو ذاكَ إمَّا بالتَّضمُّنِ أو باللُّزومِ، ومَعلومٌ أنَّ دلالةَ التَّضمُّنِ واللُّزومِ دِلالاتٌ لُغويَّةٌ واضحةٌ جاءت في القرآن وجاءت في السُّنَّة.

ثمَّ ساقَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعضَ الأدلَّةِ علىٰ أنَّ الدُّعاءَ إنَّما يُتوجَّهُ به إلىٰ اللهِ وأنَّ الاستغاثةَ إنَّما يُتوجَّه بها إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا فيما لا يقدرُ عليه إلَّا الله.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[يونس]).

قالَ في أوَّلِها: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ هٰذا نهيٌ، والنَّهيُ توجَّهَ إلىٰ الفعل ﴿تَدْعُ﴾ وإذا كان كذلكَ فإنَّه يعمُّ أنواعَ الدُّعاءِ، وقد ذكرتُ لك أنَّ الدُّعاءَ منه دعاءُ مسألةٍ ومنه دعاءُ عبادةٍ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا جاءت في سياقِ النَّهيِ أو في سياق النَّفيِ أو في سياق الشَّرطِ فإنَّها تعمُّ، و﴿تَدْعُ﴾ نكرةٌ لأنَّها فعلٌ مُشتملٌ علىٰ مصدرٍ، والمصدرُ حدثَ نكرةً.

فإذن هٰذا يعمُّ نوعي الدُّعاءِ وهٰذا مرادُ الشَّيخ أو أحدُ مُراداتِه من الاستدلالِ بهٰذه الآيةِ.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني نهىٰ الله جَلَّ وَعَلَا أن يُتوجَّهَ لغيرِ الله بدعاءِ المسألةِ أو بدعاءِ العبادةِ؛ يعني بالطَّلب أو بأيِّ نوعٍ من أنواعِ العباداتِ، فلا طلبَ يصلُح فيما لا يُقدرُ عليه إلَّا منه جَلَّ وَعَلَا، يدخل في ذلك الاستعاذةُ ويدخل في ذلك الاستغاثةُ الَّتي هي طلبُ الغَوْثِ.

كذلك دعاءُ العبادةِ بأنواعِه من الصَّلاةِ والزَّكاةِ والتَّسبيحِ والتَّهليلِ والسُّجودِ وتلاوةِ القرآن لا تصلُح إلَّا لله، كذلكَ الذَّبحُ، النَّذرُ، أنواعُ أعمال القلوب، التَّوكُّل، محبَّةُ العبادةِ ورجاءُ العبادةِ وخوفُ السِّرِّ، كلُّها أنواعُ العبادةِ من أنواعِ دُعاءِ العبادةِ، فهٰذه الآيةُ دلَّت علىٰ النَّهي أن يتوجَّه أحدٌ إلىٰ من هو دونَ الله جَلَّ وَعَلَا بدُعاءِ مسألةٍ أو بدُعاءِ عبادةٍ.

وكان أعظمُ هٰذا النَّهي أنْ وُجِّه إلىٰ المُصطفىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي هو إمامُ المُتَّقين وإمامُ المُوحِّدين.

قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ذكرتُ لك من قبلُ أنَّ قولَه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تشملُ مع الله أو مَنْ دونَ الله استقلالًا.

قال: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ يعني: الَّذي لا ينفعُك ولا يضرُّك، و﴿مَا﴾ تشملُ العُقلاءَ وغيرَ العُقلاءِ يعني تشملُ أنْ يُعنىٰ بها الملائكةُ والأنبياءُ والرُّسلُ، ويُعنىٰ بها الصَّالحون، ويُعنىٰ بها ما لا يعقلُ كالأصنامِ والأحجارِ والأشجارِ، وهٰذا من جهةِ دِلالةِ اللُّغةِ.

قال الله جَلَّ وَعَلَا لنبيِّه: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ يعني: إنْ دعوت من دون الله أحدًا، وذلك الأحدُ موصوفٌ بأنَّه لا ينفعُك ولا يضرُّك، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهٰذا إذا كان في حقِّ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الَّذي كمَّل الله له التَّوحيدَ إذا حصل منه الشِّركُ فإنَّه يُصبح ظالمًا ويُصبِح مُشركًا وحاشاه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ذلك،

فهٰذا تخويفٌ لمن هو دونَه ممَّن لم يُعصَم ولم يُعطَ العِصمةَ من ذلكَ.

قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ يعني: إنْ دَعوتَ مِن دونِ الله ما لا ينفعُك ولا يضرُّك، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ يعني بسببِ تلك الدَّعوةِ، ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والظَّالمون جمع تصحيحٍ للظَّالم، والظَّالمُ اسمُ فاعلٍ للظُّلم، والظُّلم المُرادُ به هنا الشِّركُ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان].

ثمَّ قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الغرضُ مِن أنْ يسألَ أحدٌ غيرَ الله في إنجاءِ ما به طلبُ كشفِ الضُّرِّ، الغرضُ مِن أنْ تستغيثَ بغيرِ الله طلبُ كشفِ الضُّرِّ، الغرضُ من أنْ يستعيذَ بغيرِ الله طلبُ كشفِ الضُّرِّ؛ ولهٰذا ذكَر اللهُ جَلَّوَعَلَا القاعدةَ العامَّةَ في ذلك الَّتي تقطعُ عروقَ الشِّرك من القلبِ حيثُ قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، إذا مسَّكَ الله بضُرٍّ فمن يكشفُ الضُّرَّ؟ يكشفُه من قدَّره ومن قضاه عليك، فهٰذا يقطعُ التَّوجُّه لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا؛ ولكن ما دام أنَّه أذِنَ فيما يقدِرُ عليه المَخلوقُ أنْ يُتوجَّه عليه بطلبِ الغَوْثِ أو طلبِ السُّقيَا أو نحوِ ذلك فإنَّه يكونُ ممَّا رُخِّص به والحمدُ لله.

قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ﴿بِضُرٍّ﴾ هنا أيضًا نكرةٌ جاءت في سياق الشَّرطِ فيعمُّ جميعَ أنواعِ الضُّرِّ، سواءٌ كان ضُرًّا في الدِّين أو كان ضُرًّا في الدُّنيا، سواءٌ كان ضُرًّا في الدُّنيا من جهةِ الأبدانِ أو من جهةِ الأموالِ أو من جهةِ الأولادِ أو من جهةِ الأعراضِ أو من أيِّ شيءٍ، فـ﴿إِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الضُّرِّ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ في الحقيقةِ الَّذي يكشفُ الضُّرَّ هو الله جَلَّوَعَلَا، لا يكشفُ البلوىٰ إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا كان المَخلوقُ يقدرُ علىٰ ذلك الكشفِ فإنَّما هو من جهةِ أنَّه سببٌ جعله الله سببًا يقدرُ علىٰ أنْ يكشفَ بإذنِ الله جَلَّوَعَلَا، وإلَّا فالكاشفُ حقيقةً هو الله جَلَّوَعَلَا، والمَخلوقُ ولو كان يقدرُ فإنَّما قدرَ بإقدارِ الله له إذ هو سببٌ من الأسباب، فإذن ولا يكشفُ علىٰ الحقيقة إلَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا.

وإذا تبيَّن ذلك ظهرَ لك وجه استدلالِ المُصنِّف لهٰذه الآية هو مناسبةُ الآيةِ للتَّرجمةِ من عدَّة جهاتٍ كما ذكرنا.

[الدَّليل الثَّاني] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾[العنكبوت: 17])

الدُّعاءُ من أعظمِ ما يتعلَّق به الخلقُ إذا كان من جهةِ طلبِ الرِّزق؛ لأنَّ طلبَ الرِّزقِ أعظمُ أسباب الحياةِ، فإذا لم يكن عندَه رزقٌ فإنَّه يوشكُ علىٰ الهلاكِ، ولهٰذا ذكر الإمامُ هٰذه الآية الَّتي فيها توحيدُ طلبِ الرِّزق

لَمَ؟ لأنَّ مُعظمَ حالِ المُستغيثين إنَّما هي لطلبِ الرِّزق، والرِّزقُ اسمٌ عامٌّ يشملُ كلَّ ما يصلُح أن يُرزَقَ؛ يعني أن يُمنحَ ويُعطىٰ، فيدخلُ في ذلك الصِّحَّةُ والعافيةُ، يدخلُ في ذلك المالُ ويدخل في ذلك الطَّعامُ، يدخلُ في ذلك البيتُ، يدخلُ في ذلك الدَّوابُّ، ويدخلُ في ذلك أنواعُ ما يحتاجُه المرءُ.

قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أصلُ تركيبِ الكلامِ: فابتغوا الرِّزقَ عند الله، و﴿ٱبْتَغُواْ﴾ فعلُ أمرٍ و﴿ٱلرِّزْقَ﴾ مَفعولٌ و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الأصلُ أن يتأخَّرَ علىٰ المَفعولِ؛ قال علماءُ المعاني من علومِ البلاغةِ: إنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الاختصاصَ، فابتغوا عند الله الرِّزقَ واجعلوا ذلك الابتغاءَ مُختصًّا بالله جَلَّوَعَلَا، هكذا يفهمُ العربيُّ هٰذه الآية ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ يعني فليكن ابتغاؤُكم الرِّزقَ من عندِ الله وحدَه، فلا تستغيثوا بغيرِه في طلبِ رزقٍ، ولا تستنجدوا بغيرِه في طلبِ رزقٍ وإنَّما ذلكَ لله جَلَّوَعَلَا.

ثمَّ قال: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ ليجمعَ أصنافَ السُّؤالِ بما يشملُ دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العبادةِ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] ثمَّ قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥﴾[الأحقاف]) دِلالةُ الآية ظاهرةٌ في الدُّعاء؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهي ظاهرةٌ في أنَّ ثمَّ داعٍ وثمَّ مَدعوٌّ والمَدعو غيرُ الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾.

وجه الدِّلالةِ من الآيةِ أن استعملَ كلمةَ ﴿يَدْعُواْ﴾ فجاء الوصفُ بأبشع الضَّلالِ علىٰ من دعا من دونِ الله أمواتًا غير أحياءٍ، والدَّليلُ علىٰ أنَّه أراد الأمواتَ ولم يُرِدِ الأصنامَ والأحجارَ أنَّه قال: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فجعلَ غايةَ الاستجابةِ إلىٰ يومِ القيامةِ؛ المنعُ من الاستجابةِ إلىٰ يوم القيامةِ، وهٰذه في الأمواتُ؛ لأنَّ الميْتَ إذا كان يومُ القيامةُ نُشِرَ وصارَ يسمعُ ورُبَّما أجابَ من طلبَه إذْ هو حيٌّ يكون في ذلكَ المقامِ حيٌّ وربما كان قادرًا، وأمَّا الميْت -من هو في البَرزخِ- فهو الَّذي يصدقُ عليه وصفُ الله جَلَّوَعَلَا بقوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

ولفظ (مَن) في اللُّغة الأصلُ فيها أنَّها للعقلاءِ، هكذا يقولُ النُّحاة.

ونقولُ الأصحُّ: أن يُقال: (مَن) الأصلُ فيها في اللُّغة لمن يَعلمُ؛ يعني عند علماءِ النَّحوِ يقولون من للعُقلاءِ وما لغير العُقلاءِ والأصحُّ أن نقولَ: (من) لمن يعلمُ لأنَّها يدخلُ فيها الله جَلَّوَعَلَا في بعضِ الآياتِ.

فإذن (مَن) لمن يصحُّ أن يعلمَ وهؤلاءِ هم من كانوا بشـرًا يُخاطِبون ويُخَاطَبون ويعلَمـون ويُعلَـم منهم، قال: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ وهٰذا الوصفُ ليس للأصنامِ إنَّما هـو للأمـواتِ، ثمَّ قـال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ ولـذلكَ قـال جَلَّوَعَلَا في سـورةِ النَّحـلِ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَقَوْلُـهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:62]) هٰذه الآيةُ من سورةِ النَّمل فيها أنَّ إجابةَ المُضطرِّ في الدُّعاء إنَّما هي لله جَلَّوَعَلَا، قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فهٰذا في الدُّعاء دعاءِ المسألةِ، قال: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وكشفُ السُّوءِ يكون تارةً بالاستغاثةِ، وتـارةً بغيـر ذلك، ولهٰذا يكون هٰذا القدرُ من الآية يصلُح لما ترجم به المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من اللَّفظين: لفـظِ الاسـتغاثةِ والدُّعاءِ، في قوله: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ هٰذا في الاسـتغاثةِ، وفي قولـه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هٰـذا في دعوةِ غيرِ الله معه.

قال بعدها: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ وهٰذا اسـتفهامٌ إنكـاريٌّ ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ينكرُ عليهم أن يتَّخذوا إلهًا مع الله، بأيِّ شيءٍ؟ بأن يدعوا غيـرَ الله أو يتوجَّهـوا في كشـفِ السُّـوء لغيـرِ الله فيما لا يقدرُ عليه إلَّا الله، ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾[النَّمل].

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ) بعضُهم هنا هو أبو بكرٍ الصِّديقُ كما جاء في بعض الرِّواياتِ (قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِنْ هٰذا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لا يُسْتغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتغَاثُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ») من طلب الصَّحابةِ الاستغاثةَ بالنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هٰذا طلبٌ جائزٌ؛ لأنَّهم طلبوا الإغاثةَ من النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فيما يقدرُ عليه؛ لأنَّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في هٰذا المَقامِ يقدِرُ أن يُغيثَ بالأمرِ بقتل المُنافقِ أو الأمرِ بسجنِه أو بتهديدِه أو بأخذِ عقوبةٍ عليه؛ لأنَّه كان يُؤذي المؤمنين بتعزيرٍ أو بغيرِه.

فإذن استغاثتُهم إنَّما هي في قولِهم: (قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ) استغاثتُهم برسولِ الله فيما يقدرُ عليه؛ لكنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علَّمهم الأدبَ في ذلكَ وعلَّمهم الأكملَ في ذلك حيثُ قال: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ»، وحقيقةُ الاستغاثةِ علىٰ وجهِ الكمالِ إنَّما هي بالله جَلَّوَعَلَا لا بنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فكأنَّه حصل منهم نوعُ التفاتٍ للنَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فيما يقدرُ عليه، فبيَّن لهم أنَّ الواجبَ عليهم أنْ يستغيثوا بالله جَلَّوَعَلَا أوَّلًا؛ فقال: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي» و«لَا يُسْتَغَاثُ بِي» هٰذا نفيٌ فيه

معنىٰ النَّهيِ؛ يعني لا تَستغيثوا بي إنَّما استغيثوا بالله في هٰذا الأمرِ، وإذا أغاثَهم الله جَلَّوَعَلَا كفَّ شرَّ ذلك المُنافقِ عنهم.

هٰذا الحديث بعضُ العلماءِ قال: إنَّ في إسنادِه ابنَ لَهيعةَ وحالُه معروفٌ، وإيرادُ الأئمَّةِ أئمَّةِ الحديثِ للأحاديث الَّتي قد يكونُ في إسنادِ بعضِها مَقالٌ، هٰذا هو الصَّواب إذا كان ما في الحديثِ من المعنىٰ قد عَضَدتْه الأدلَّةُ من القرآن أو من السُّنَّة.

وما في هٰذا الحديث من قول النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**»، قد دلَّت عليه الآياتُ الَّتي سَلَفَتْ، وهٰذا صنيعُ أهلِ الحديثِ، صنيعُ الرَّاسخين في العلم من أهلِ الحديثِ كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ في معرضِ كلامٍ له في «الفتاوىٰ» قال: **أهلُ الحديثِ لا يستدلُّون بحديثٍ ضعيفٍ في أصلٍ من الأصول؛ بل إمَّا في تأييدِه** -يعني في تأييدِ ذلك الأصلِ- **أو في فرعٍ من الفروعِ.**

وهٰذا هو صنيعُ الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ في هٰذا الكتابِ، فإنَّهم يستدلُّون بأحاديثَ هي من جهةِ المعنىٰ الَّتي اشتملَت عليه صحيحةٌ، فقد ساقَ شيخ الإسلام ابن تيميَّة هٰذا الحديثَ مُستدِلًّا به في ردِّه علىٰ البَكريِّ المَعروفِ بالاستغاثَةِ، كتابُ «الاستغاثةِ الكُبرىٰ» أو «الرَّدُّ علىٰ البَكريِّ»، وقال: إنَّ هٰذا حديثٌ هو في معنىٰ ما جاءَ في النُّصوصِ.

فقولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي**» يعني لا تَستغيثوا بي إنَّما استغيثوا باللهِ؛ لأنَّ «**لَا يُسْتَغَاثُ**» نفيٌ وهنا يُراد به النَّهيُ.

هٰذا الباب ظاهرٌ في المُناسبة لما قبلَه ولما بعدَه أيضًا في أنَّ الاستغاثةَ بغيرِ الله نوعٌ من أنواعِ الدُّعاء، وأنَّ الدُّعاء عبادةٌ وإنَّ الاستغاثةَ عبادةٌ وصرفُ العبادةِ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا كفرٌ وشركٌ.

يدلُّ علىٰ أنَّ الدُّعاء عبادةٌ قولُ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى ﴾[البقرة:186]، وقولُه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ الإجابةُ؛ إجابةُ الدَّعوةِ يكون في السُّؤال؛ يعني: إذا سُئلَ أجابَ، ويكونُ أيضًا بالعطاءِ والإثابةِ فيما إذا عُبِدَ، فيُجيبُ الدَّعوةَ بإعطاءِ السَّائلِ سُؤلَه، ويجيبُ أيضًا الدُّعاءَ بإثابةِ الدَّاعي العابدِ علىٰ عبادتِه.

ولهٰذا يُفسِّر السَّلفُ الآيات الَّتي فيها إجابةُ الدُّعاء ونحو ذلك بأنَّ فيها إعطاءَ سُؤلِ السَّائل وإثابةَ العابدِ؛ لأنَّ الصَّحابةَ والسَّلفَ يعلمون أنَّ الدُّعاءَ يشملُ هٰذا وهٰذا ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ فهنا ﴿دَعَانِ ۖ﴾؛ يعني: سألَني أو عبدَني مع أنَّها في السُّؤال ظاهرةٌ في الدُّعاء بيِّنةٌ.

والآياتُ في مثل ذلك كثيرةٌ كقوله جَلَّوَعَلَا –قال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[مريم]، وقال بعدَها جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾[مريم:49]، إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ﴾، قال الله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ، والعبادةُ هي الدُّعاء، والدُّعاء يُفسَّرُ تارةً بدعاءِ المَسألةِ ودعاءِ العبادةِ، وهٰذا حاصلٌ وهٰذا حاصلٌ من أولئك لأصنامِهم وأوثانِهم.

الباب الَّذي بعدَه وهو (**بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾**).



15- بَابٌ

[1] **قَوْلِ اللهِ تعَالَى:** ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾[الأعراف] **الآيَةَ**

[2] **وَقَوْلِـهِ:** ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤ ﴾[فاطر].

[3] وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[آل عمران:128].

[4] وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ -: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

[5] وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْـزِلَ عَلَيْـهِ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾[الشُّعراء]، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ - عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

هٰذا الباب (**بَابٌ قَوْلِ اللهِ تعَالَى:** ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾) هٰذا البابُ إيرادُه بعد الأبوابِ المُتقدِّمةِ من أحسنِ الإيرادِ ومن أعظمِه فقهًا ورسوخًا في العلم؛ ذلكَ أنَّ بُرهانَ وجوبِ توحيدِ الله جَلَّ وَعَلَا في إلهيَّته هو ما رُكِزَ في الفطَرِ من أنَّه جَلَّ وَعَلَا واحدٌ في رُبوبيَّته، والرُّبوبيَّة وأنَّ الله واحدٌ في رُبوبيَّته هٰذه يُقرُّ بها المُشركون ويُقرُّ بها كلُّ أحدٍ، فهي البُرهانُ علىٰ أنَّ المُستحِقَّ للعبادةِ هو من توحَّد في الرُّبوبيَّة.

فهٰذا البابُ والبابُ الَّذي بعدَه أيضًا بُرهانٌ لاستحقاقِ الله العبادةَ وحدَه دونَ ما سواهُ بدليلٍ فِطريٍّ ودليلٍ واقعيٍّ ودليلٍ عَقليٍّ.

ومن المَعلومِ أنَّ الأدلَّةَ العقليَّةَ عندنا أهلَ السُّنَّة والجماعةِ نأخذُها من الكتابِ والسُّنَّة؛ لأنَّ في الكتاب

والسُّنَّة من الأدلَّة العقليَّة ما يُغني عن تكلُّفِ أدلَّةٍ عقليَّةٍ أُخرىٰ لمن تأمَّل ذلك في نصوصِ الوَحيين.

فهٰذا البابُ في بيانِ أنَّ الَّذي يخلقُ هو اللهُ وحدَه، والَّذي يرزقُ هو اللهُ وحدَه، والَّذي يملِك هو اللهُ وحدَه وأنَّ غيرَ الله جَلَّ وَعَلَا ليس له نصيبٌ من الخلقِ وليس له نصيبٌ من الرِّزقِ، وليس له نصيبٌ من الإحياءِ، وليس له نصيبٌ من الإماتةِ وليس له نصيبٌ من الأمرِ، وليس له مِلكٌ حقيقيٌّ في أمرٍ من الأمور ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، حتَّىٰ أعلىٰ الخلق مقاما وهو النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ يعني: لست مالكًا لشيءٍ من الأمرِ، ليس من الأمرِ شيءٌ تملِكُه، اللَّام هنا لامُ المِلكِ، فمن الَّذي يملِكُه إذن؟ هو اللهُ جَلَّ وَعَلَا، فإذا كان النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُنفىٰ عنه ذلكَ فإنَّ نفيَه عمَّن هو دونَه من بابِ أولىٰ.

والَّذين توجَّهوا إلىٰ أصحابِ القُبور أو إلىٰ الصَّالحينَ والأولياءِ والأنبياءِ في داخلِهم زعْمٌ بأنَّهم يملِكون أشياءَ، إمَّا أن يملِكوا شيئًا من الرِّزق أو يملِكوا شيئًا من التَّوسُّط والشَّفاعة بدونِ إذنٍ منَ الله جَلَّ وَعَلَا ومشيئَتِه.

فإذن هٰذا البابُ أحدُ الأبوابِ الَّتي فيها البُرهانُ علىٰ استحقاقِ الله للعبادةِ وحدَه دونَ ما سِواهُ، والقرآنُ فيه كثيرٌ من البَراهين علىٰ أنَّ المُستحِقَّ للعبادةِ هو الله جَلَّ وَعَلَا وحدَه دون ما سِواه، فمن تلك الأدلَّة والبَراهينِ ما في القرآن من أدلَّةٍ فيها إقرارُ المُشركين بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، كلُّ ذلك النَّوع من الأدلَّة فيه دليلٌ علىٰ أنَّ المُستحِقَّ للعبادةِ هو من أقررتم له بالرُّبوبيَّة.

ومن الأدلَّةِ والبَراهينِ علىٰ ذلك ما في القرآن من أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ نصرَ رُسله وأولياءَه علىٰ أعدائِهم وأنَّ كلَّ طائفةٍ من طوائفِ الشِّرك ذلَّتْ وخضعتْ وغُلِبتْ أمامَ طوائفِ أهل الإيمانِ، أمامَ جُنْدِ الله جَلَّ وَعَلَا من الرُّسل وأتباعِ الرُّسلِ والأنبياءِ، وهٰذا نوعٌ آخرُ من الأدلَّة أنَّه ما مِن طائفةٍ مُوحِّدةٍ بعثَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا إمامَها ورسولَها بقتالِ المُشركينَ إلَّا وظهرَت عليهم، إلَّا وغلبَتهم حتَّىٰ صارتْ العاقبةُ لهم، وهٰذا أمرٌ في القرآنِ كثيرٌ وأدلَّتهُ كثيرةٌ، قصصُ الأنبياءِ، وقصصُ القُرىٰ، وكلُّ قَريةٍ خالفَت رسولَها عوقِبتْ، وهكذا كلُّ القُرىٰ، هٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ التَّوحيد هو الحقُّ وأنَّ الشِّرك باطلٌ.

من الأدلَّة نوعٌ آخرُ في القرآن-من البَراهين نوعٌ آخرُ في القرآن- مِن أنَّ المَخلوقَ ضعيفٌ، أنَّ العابدَ الَّذي يسمعُ هٰذا القرآنَ، كلَّ مَخلوقٍ، كلَّ مُكلَّفٍ يَعلمُ من نفسِه الضَّعفَ، وأنَّه جاء إلىٰ الحياةِ بغيرِ اختيارِه؛ بل الله جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي أتىٰ به إلىٰ هٰذه الحياةِ، وأنَّه سيخرجُ من هٰذه الحياةِ بغيرِ اختيارِه أيضًا، فهو إذن مَقهورٌ، ويعلمُ قطعًا أنَّ الَّذي قهرَه وأذلَّه وجعلَه علىٰ هٰذه الحالةِ ليس هو تلك الآلهةُ وإنَّما هو

اللهُ جَلَّوَعَلَا وحدَه هو الَّذي يُحيي ويُميت، وهٰذا إقرارٌ عامٌّ يعلمُه كلُّ أحدٍ من فِطرتِه.

من الأدلَّة والبَراهينِ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا له الأسماءُ الحسنىٰ وله الصِّفاتُ العُلىٰ وأنَّه ذو النُّعوت الكاملَةِ وذو النُّعوت الجليلةِ -نُعوتِ الجلالِ ونُعوتِ الجمالِ ونُعوتِ الكمالِ-، وهو سبحانَه له الكمالُ المُطلَقُ في كلِّ اسمٍ له وفي كلِّ نَعتٍ ووَصفٍ له، له الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا يعتريهِ نقصٌ في وجهٍ من الوجوهِ.

هٰذا البابُ ذكر فيه الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدَ أنواع أدلَّةِ الرُّبوبيَّةِ أو بَراهينِ التَّوحيدِ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا هو الواحد في رُبوبيَّته.

والباب الَّذي يليه هو (**بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾[سبإ]**) فيه دليلٌ علىٰ عَظمةِ الله جَلَّوَعَلَا في صِفاتِه.

وفي هٰذا الكتابِ تنويعٌ أيضًا -كما سيأتي- لبراهينِ التَّوحيدِ -توحيدِ العبادةِ- بأدلَّةٍ من القرآنِ مُتنوعَةٍ، ونكملُ إن شاء الله في الدَّرس القادمِ شرحَ هٰذا البابِ، والَّذي يليه، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارِكَ علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ.

الدرس الثامن

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آلِه وصحبِه ومن اهتدىٰ بهُداه.

(بَــابُ قَــوْلِ اللهِ تَعَــالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعـراف]، وَقَوْلُــهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[فـاطر]) ذكرنـا لكـم بالأمسِ أنَّ هٰذا البابَ مع البابِ الَّذي يليه مُناسبَتُه لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ هذين البابين هما بُرهـانٌ للتَّوحيـد؛ برهانٌ لاستحقاقِ الله جَلَّوَعَلَا العبادةَ وحدَه وعلىٰ بُطلانِ عبادةِ ما سِواه.

وهٰذا البُرهان هو بتقريرِ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا واحدٌ في رُبوبيَّته، ودليلُ ذلك الفطرةُ ودليلُ ذلك العقلُ ودليلُ ذلك أيضًا النَّصُّ من الكتاب والسُّنَّة، فلا أحدَ يُنكرُ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هو مالكُ المُلكِ، وهو الَّذي بيدِه تصريفُ الأمرِ كيف يشاءُ، إلَّا شِرذمةٌ قليلةٌ من النَّاس -كما قال الشَّهرستانيُّ وغيرُه- لا يصحُّ أن تُنسبَ لهم مَقالةٌ.

فالنَّاس مَفطورون علىٰ الإقرارِ بالرَّبِّ وعلىٰ الإقرارِ بأنَّهم مخلوقون، وإذا كان كذلكَ فإنَّ الحُجَّةَ عليه في وجوبِ توحيدِ الألوهيَّة أنَّ الله جعلَ في فِطرِهم الإقرارَ بأنَّ الله واحدٌ في رُبوبيَّته، ولهٰذا المُشركون لا يُنكرون أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ واحدٌ في خلقِه، واحدٌ في رَزْقِه؛ يعني: أنَّه هو الخلَّاقُ وحدَه، وأنَّه هو الرَّزاقُ وحدَه، وأنَّه جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يُحيي و يُميتُ، وهو الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، وهو الَّذي بيدِه مَلكوتُ السَّمٰوَاتِ و الأرضِ، وهو الَّذي يُنبتُ النَّباتَ، وهو الَّذي يُنزلُ الماءَ، إلىٰ آخر أفرادِ تدبيره جَلَّوَعَلَا للأمر، وأفرادِ توحيدِ الرُّبوبيَّة.

فالبُرهانُ علىٰ أنَّ الله هو المُستحِقُّ للعبادةِ وحدَه أنَّه جَلَّوَعَلَا هو مالكُ المُلكِ وحدَه، وهو الَّذي يُدبِّرُ هٰذا المَلكوتَ وحدَه، وهو الَّذي خلقَ العبادَ والعبادُ صائرون إليه، وأمَّا الآلهةُ الَّتي توجَّه إليها العبادُ بالعبادةِ من الأنبياءِ والأولياءِ أو الملائكةِ، فإنَّما هم مَخلوقون مَربوبون لا يَخلُقون شيئًا وهم يُخلَقون، وأيضًا لا يَستطيعون نصرًا لمن سألَهم، وإنَّما ذلكَ لله جَلَّوَعَلَا.

فإذا كان أولئكَ ليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ، وليسَ لهم من المُلك شيءٌ، وليس لهم من الخلقِ شيءٌ، وليس لهم من تدبيرِ الأمر شيءٌ، وإنَّما تدبيرُ أمرِ السَّمٰوَات وتدبيرُ أمرِ الأرض بيدِ الله وحدَه دونَما سواه، فإنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه هو الَّذي يفعلُ تلك الأفعالَ، وهو الَّذي يتَّصف بتلك الصِّفاتِ، هو الَّذي وحَّده العبادُ في رُبوبيَّته.

فإذا كان كذلك فيجبُ أن يكون إذن واحدًا في أفعالِهم؛ لئلا يتوجَّهوا في العبادةِ إلَّا إليه وحدَه.

وهٰذا كثيرٌ في القرآن جدًّا، فإنَّك تجدُ في القرآن أنَّ أعظمَ الأدلَّةِ والبَراهينِ علىٰ المشركين في إبطالِ عبادتِهم لغيرِ الله وفي إحقاقِ عبادةِ الله وحَده دونَما سِواه أنَّهم يُقِرُّون بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، فالإقرارُ بتوحيد الرُّبوبيَّة بُرهانُ توحيدِ الإلهيَّة، فالله جَلَّوَعَلَا احتجَّ في القرآن علىٰ المشركين بما أقرُّوا به من توحيدِ الرُّبوبيَّة علىٰ ما أنكروه من توحيدِ الإلـهيَّة.

ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[يونس]؛ يعني: أتُقرُّون بذلكَ فلا تتَّقون الشِّرك -لأنِّي ذكرتُ لكم أنَّ الفاءَ إذا أتت بعد الهَمزةِ فهي تعطفُ ما بعدَها علىٰ جملةٍ مَحذوفةٍ دلَّ عليها السِّياقُ-، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ يعني: أتُقِرُّون بأنَّ الله واحدٌ في رُبوبيَّته فلا تتَّقون الشِّرك به؟ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ باعترافِكم وبإيقانِكم، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾[يونس:32]، وهٰذا نوعُ احتجاجٍ بما أقرُّوا به وهو توحيدُ الرُّبوبيَّة علىٰ ما أنكروه وهو توحيدُ الإلـهيَّة.

كذلك الآياتُ العظيمةُ في سورة النَّملِ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ هنا إنكارٌ عليهم، أنكرَ لماذا؟ لأنَّ ما سبق يُقِرُّون به، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يُقِرُّون بأنَّ الَّذي خلقَها هو اللهُ، فإذن كيف يتَّخذون إلهًا مع الله، كان هٰذا إنكارًا، من الَّذي أنزلَ لهم من السَّماء ماءً فأنبت لهم به حدائقَ ذاتَ بَهجةٍ؟ هو اللهُ، فإذن كيف يتَّخذونه إلٰهًا معه، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾، هٰذا إنكارٌ عليهم، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ يعني: يعدِلُون بالله غيرَه أو يعدِلُون غيرَ الله جَلَّوَعَلَا به؛ يعني: يُساوون هٰذا بهٰذا، أو ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يعني يُصرَفون عن الحقِّ ويُصرَفون عنه إلىٰ غيرِه، فكيف يعدلُون عن الحقِّ إلىٰ غيرِه أو كيف يعدِلون بالله غيرَه من الآلهة.

وهكذا الآيةُ الَّتي بعدَها قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾[النَّمل:61]، جوابُ المُشركين علىٰ هٰذا السُّؤال ﴿أَمَّن﴾ جوابُهم هو اللهُ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[النَّمل]، ثمَّ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النَّمل:62] رجع من الآيات الَّتي في الآفاقِ وفيما حولَهم إلىٰ الشَّيء الَّذي يَعلمونَه علمَ اليقينِ

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[النَّمل]،

ثمَّ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[النَّمل]، وفي الحقيقةِ أنَّه لا برهانَ لهم، ولهٰذا قال في آيةِ المؤمنون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[المؤمنون:117]، ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ فكلُّ إلهٍ لا بُرهان له، ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾؛ يعني: لا حُجَّةَ قائمةٌ علىٰ أنَّه إلـهٌ وإنَّما اتَّخذه البشرُ بالطُّغيان وبالظُّلم، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

فهٰذا الباب قائمٌ علىٰ هٰذه الحُجَّة، ولهٰذا من أعظمِ الحُجَّة علىٰ المُشركين وعلىٰ الَّذين توجَّهوا إلىٰ الأمواتِ، توجَّهوا إلىٰ المَقبُورين بطلبِ تفريجِ الكُرُبات وطلبِ إغاثةِ اللَّهَفات وطلبِ إنجاحِ الحاجاتِ وسؤالِ ما يحتاجُه النَّاس، أعظمُ الحُجَّة عليهم أنْ تحتجَّ عليهم بتوحيدِ الرُّبوبيَّة.

وهؤلاء المُشركون في هٰذه الأزمنة زادوا -كما قال الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ في «القواعدِ الأربعِ»- علىٰ مُشركي الجاهليَّة بأنَّهم اعتقَدوا أنَّ لتلك الآلهةِ، لتلكَ الأمواتِ، أنَّ لهم تصرُّفًا في الكَون أيضًا، فنسبوا إليهم شيئًا من الرُّبوبيَّة ولم يجعلوا توحيدَ الرُّبوبيَّة أيضًا خالصًا.

وهٰذا البُرهان برهانٌ عظيمٌ ينبغي لك أن تتوسَّع في دلائلِه وأن تعلمَ الحُجَّة في القرآنِ منه؛ لأنَّ القرآن كثيرًا ما يحتجُّ بهٰذا البُرهان وهو توحيدُ الرُّبوبيَّة علىٰ ما ينكرُه المُشركون وهو توحيدُ الإلهيَّة.

[الدَّليلُ الأوَّل] من ذلك ما ساقَه الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ في هٰذا الباب قال: (**قَوْلِ اللهِ تعالَى**: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾) هٰذا إنكارٌ وتوبيخٌ لهم كيف يُشركون الَّذي لا يَخلُقُ وهم يُخلَقون ومن الَّذي خلقَهم؟ هو الله جَلَّوَعَلَا، هو الَّذي خلقَ من عُبد، وهو الَّذي خلقَ العابدَ أيضًا، فالَّذي يَستحِقُّ العبادةَ وحدَه دون ما سِواه إنَّما هو الله ذو الجلالِ والإكرامِ، قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ لأنَّ النَّصرَ في الحقيقةِ إنَّما هو من عندِ الله جَلَّوَعَلَا، لو أرادَ الله أن يمنعَ نصرَ النَّاصرِ لَمنعَه.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (**وَقَوْلُهُ**: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآيات) قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهٰذا موطنُ الشَّاهِد، وقولُه: ﴿مَا

يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ حتَّىٰ هٰذا القِطميرُ وهو غلافُ النَّواة أو الحبلُ الواصلُ من أعلىٰ النَّواةِ إلىٰ ظهرِ الثَّمرةِ هٰذا لا يملِكونَه، فغيرُه ممَّا هو أعلىٰ منه من بابِ أَولىٰ وأَولىٰ، وحتَّىٰ هٰذا الشَّيءُ الحقيرُ لا يملِكون ممَّا لا يحتاجُه النَّاسُ ولا يطلُبونه، فكيف إذن يَطلُبون منهم أشياءَ لا يَملكونَها؟ قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا ... ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ اسمٌ موصولٌ يعمُّ كلَّ ما دُعي من دونِ الله - الملائكةَ أو الأنبياءَ والرُّسلَ أو الصَّالحينَ من الأمواتِ أو الطَّالحينَ أو الجنَّ أو الأصنامَ والأشجارَ والأحجارَ-؛ كلّ ما دُعيَ وما دُعيَ فإنَّه لا يملِكُ ولو قطميرًا لا يملِكُ هٰذا، فإذن لم يُسألُ؟ فالواجبُ أن يُتوجَّه بالسُّؤال لمن يملِكُ ذلك.

[الدَّليلُ الثَّالثُ والرَّابع] ذكرَ الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ بعدَ ذلك عدَّة أحاديثَ في هٰذا البابِ، وهٰذه الأحاديثُ مَدارُها علىٰ بيانِ قولِ الله جَلَّوَعَلَا ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾[آل عمران: 128]، ووجهُ الإستدلالِ من هٰذه الأحاديثِ وإيرادِ هٰذه الآية: أنَّ هٰذا النَّفيَ توجَّه إلىٰ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ سيِّدُ ولدِ آدمَ، ليس لك يا مُحمَّدُ من الأمرِ شيءٌ، واللَّام في قولِه: ﴿ لَكَ ﴾ لامُ الاستحقاقِ أو لامُ المِلك؛ يعني لا تَستحِقُّ شيئًا أو لا تَملِك شيئًا؛ يعني: لا تَستحِقُّه بذاتِك وإنَّما بما أمرَ الله جَلَّوَعَلَا وبما أذِنَ به، فتعظيمُ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومَحبَّةُ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ هي فرعٌ عن مَحبَّةِ الله وعن تعظيمِ الله جَلَّوَعَلَا، فما هو أبعدُ أو أعظمُ ممَّا أذن الله به فليسَ له ذلكَ، أو كذلك المِلكُ؛ مِلكُ الأشياء أو مُلك شيءٍ من الأمرِ فإنَّه ليس له عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ذلك قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾، ولو كان له عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الأمرِ شيءٌ لنصرَ نفسَه وأصحابَه يومَ أُحُدٍ؛ ولكن في يوم أحدٍ حصلَ ما حصلَ فأنزل الله جَلَّوَعَلَا قولَه: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[آل عمران].

كذلك الحديثُ الآخرُ لمَّا لعنَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قنوتِ الفجرِ فلانًا وفلانًا من النَّاس الَّذين آذوا المؤمنين نزل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾؛ يعني: لستَ تملِكُ شيئًا من الأمرِ.

وهكذا الحديثُ الَّذي بعدَه.

وهٰذه الأحاديثُ دالَّةٌ علىٰ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نُفيَ عنه أن يملِك شيئًا من ملكوتِ الله، وإذا كان كذلكَ فإنَّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قد بلَّغ ذلكَ وبيَّنه، ومن هو دونَه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من بابِ أَولىٰ، فالملائكةُ أَولىٰ أنْ يُنفىٰ عنهم ذلكَ، والأنبياءُ أَولىٰ أن يُنفىٰ عنهم ذلكَ، وكذلكَ الصَّالحون من أتباعِ الرُّسلِ وأتباعِ مُحمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كذلك أَولىٰ أن يُنفىٰ عنهم ذلك.

فإذا كان كذلكَ بَطلَت كلُّ التَّوجُّهاتِ إلىٰ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا، ووجبَ أن يُتوجَّه بالعبادةِ وبأنواع العبادةِ من الدُّعاءِ والإستغاثةِ والإستعاذةِ والذَّبحِ والنَّذرِ وأنواعِ التَّوجُّهات إلىٰ الحقِّ جَلَّوَعَلَا وحدَه دونَ ما سِواه.

[الدَّليلُ الخامسُ] الحديث الأخير لمَّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشُّعراء]، قال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ - عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» وهٰذا ظاهرٌ في أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لا يستطيعُ أن يفعلَ شيئًا بما ينفعُ به الأقربينَ إلَّا ما جعلَ اللهُ له من الرِّسالةِ وبلاغِ وأداءِ الأمانةِ، وأمَّا أنَّه يُغني عنهم من الله شيئًا؛ يُغني عنهم العذابَ، يُغني عنهم النَّكالَ، يُغني عنهم العُقوبةَ فالله جَلَّوَعَلَا لم يَجعلْ لأحدٍ من خلقِه من مَلكوتِه شيئًا، وإنَّما هو سبحانَه المُتفرِّدُ بالمَلكوتِ والجَبروتِ والمُتفرِّدُ بالكمالِ والجمالِ والجلالِ.



16- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾[سبأ].

[2] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْـمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟، قَالُوا: الْـحَقَّ؛ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

[3] وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمٰوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمٰوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرَائِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ».

هٰذا البابُ -كما ذكرنا بالأمسِ- مُناسبتُه لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ فيه بُرهانًا علىٰ أنَّ المُستحِقَّ للعبادةِ هو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ؛ ذلك أنَّه هو المُتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ، وهٰذا البابُ فيه ذِكرٌ لصفةٍ أو لصفاتِ الجلال للهِ جَلَّ وَعَلَا، والله سبحانه كلُّ من في السَّمٰوَاتِ ومن في الأرضِ خائفٌ منه وجِلٌ منه في الحقيقةِ إذْ هو الجليلُ سبحانه، ولذلكَ كان الأعرفُ به في السَّماء الملائكةُ فإنَّ الملائكةَ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ٥٠﴾[النَّحل]، وقالَ جَلَّ وَعَلَا في وصفِهم أيضًا: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾[الأنبياء]، فصفاتُ الجلالِ لله جَلَّ وَعَلَا وصفاتُ الكمالِ له سُبحانَه وصفاتُ الجمالِ له سُبحانَه هٰذه كلُّها دلائلُ علىٰ أنَّه هو المُستحِقُّ للعبادةِ وحدَه دونَ ما سِواه.

فمن المُتَّصفُ بالعَظمةِ علىٰ كمالِها؟

من الَّذي يُهابُ منه ويُخافُ علىٰ الحقيقةِ؟

من الَّذي يكونُ كلُّ ما في السَّمٰوَات وما في الأرضِ علىٰ وفقِ أمرِه؟

هو اللهُ جَلَّوَعَلَا.

إذن هو جَلَّوَعَلَا ذو الأسماءِ الحُسنىٰ وذو الصِّفاتِ العُلىٰ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا في آية سبأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿فُزِّعَ﴾؛ يعني: أُزيل الفَزَعُ عن قلوبِ الملائكةِ، فالملائكةُ مع أنَّهم مُقرَّبون إلَّا أنَّهم شديدو المَعرفةِ بالله جَلَّوَعَلَا، شديدو العلمِ به، عظيمٌ علمُهم بالرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، وممَّا يعلمونَه عن الله جَلَّوَعَلَا أنَّه هو الجبَّارُ وأنَّه هو الجليلُ سُبحانَه وأنَّه ذو المَلكوتِ، فلهٰذا يشتدُّ فزعُهم منه سُبحانَه؛ لأنَّه لا غِنًىٰ بهم عنه جَلَّوَعَلَا طرفةَ عينٍ.

والصِّفاتُ الَّتي فيها هٰذا البُرهانُ هي صفاتُ الجلالِ لله جَلَّوَعَلَا، وصفاتُ الجلالِ هي الصِّفات الَّتي تورثُ الخوفَ في القلبِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ تنقسمُ إلىٰ أقسامٍ مُتنوِّعةٍ باعتباراتٍ، ومن تقسيماتِ الصِّفات أنَّها تنقسمُ إلىٰ صفاتِ جلالٍ وصفاتِ جمالٍ.

فالصِّفات الَّتي تُحدِثُ في القلبِ الخوفَ والهلعَ والرَّهبةَ من الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا هٰذه تُسمَّىٰ صفاتِ الجلالِ، والَّذي يتَّصف بصفاتِ الجلالِ علىٰ الحقيقةِ هو الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه هو الكاملُ في صفاتِه سُبحانَه، فإذا كان كذلكَ كان الكاملُ في صفاتِه هو المُستحِقُّ للعبادةِ.

وأمَّا البشرُ، أمَّا المَخلوقون فإنَّهم ناقصون في صفاتِهم يعلمون أنَّ حياتَهم ليست حياةً كاملةً، وإنَّما هي حياةٌ إذا عرض لها أيُّ عارضٍ صارَ المَخلوقُ ميتًا، وإذا عرضَ له أيُّ عارضٍ صارَ مريضًا، إذا عرضَ له أيُّ عارضٍ صارَ ضعيفًا لا يستطيعُ أنْ يعملَ شيئًا، فهم ضعافٌ فُقراءُ مُحتاجون ليستْ لهم صفاتُ الكمالِ، وهٰذا دليلُ نقصِهم ودليلُ عجزِهم ودليلُ أنَّهم مَقهورون مَربوبون، فيجبُ أنْ يتوجَّه العبادُ إلىٰ من له صفاتُ الكمالِ ونُعوتُ الجلالِ والجمالِ، وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا وحدَه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

هٰذا المُراد من هٰذا البابِ، وهٰذا ظاهرٌ بحمدِ الله.



17- بَابٌ

الشَّفَاعَةُ

[1] وَقَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام].

[2] وَقَوْلُـهُ: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ ﴾[الزمر:44].

[3] وَقَوْلُـهُ: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[البقرة:255].

[4] وَقَوْلُـهُ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النَّجم].

[5] وَقَوْلُـهُ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[سبأ].

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَىٰ اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْـمُشْرِكُونَ، فَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾.

* فَهٰذِه الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْـمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

* وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهٰذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ». انْتَهَىٰ كَلَامُهُ.

هٰذا (**بَابٌ الشَّفَاعَةِ**)، وإيرادُ هٰذا البابِ بعدَ البابينِ قبلَه مُناسبٌ جدًّا؛ ذلكَ أنَّ الَّذين يسألونَ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويَستغيثون به ويَطلُبون منه أو يَسألون غيرَه من الأولياءِ أو الأنبياءِ إذا أقمتَ عليهم

الحُجَّةَ بما ذُكر من توحيدِ الرُّبوبيَّة، قالوا: نحنُ نعتقدُ ذلك؛ ولكنَّ هؤلاءِ مُقرَّبون عندَ الله مُعظَّمون، ورفعَهم جَلَّ وَعَلَا عندَهم ولهم الجاهُ عند الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وإذا كانوا كذلكَ فهم يشفَعون عندَ الله؛ لأنَّ لهم جاهًا عندَه، فمن توجَّه إليهم أرضَوه بالشَّفاعة وهم ممَّن رفعَهم الله، ولهٰذا يَقبلُ شفاعتَهم.

فكأنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأىٰ حالَ المشركين وحالَ الخُرافيِّين واستحضرَ حُجَجَهم وهو كذلكَ؛ إذ هو أَخْبَرُ أهل هٰذه العُصورِ المُتأخِّرةِ بحُجَجِ المُشركين.

استحضرَ ذلك فقالَ: لم يبقَ إلَّا الشَّفاعةُ لهم إذا حاجَجتم فهٰذا بابُ الشَّفاعةِ.

والشَّفاعةُ في الأصلِ مَأخوذةٌ من الشَّفعِ، والشَّفعُ هو الزَّوجُ؛ لأنَّ الشَّافع طالبٌ، فصار مع صاحبِ الطَّلبِ الأصليِّ شفعًا، فواحدٌ يُريد شيئًا فأتىٰ الثَّاني يشفعُ له فصار شفعًا، فسُمِّيت شفاعةً لأنَّه بعدَ أن كان صاحبُ الطَّلبِ واحدًا صار شفعًا بعد أنْ كان فردًا، فسُمِّيت شفاعةً لذلك.

والشَّفاعةُ هي الدُّعاء، وطلبُ الشَّفاعة هو طلبُ الدُّعاء، فإذا قال قائلٌ: أستشفعُ برسولِ الله. كأنَّه قال: أطلبُ من الرَّسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يدعوَ لي عندَ الله. فالشَّفاعةُ طلبٌ، ولهٰذا من استشفعَ فقد طلبَ الشَّفاعةَ، فالشَّفاعةُ دعاءٌ، وهي طلب الدُّعاء أيضًا.

فلهٰذا صارَ كلُّ دليلٍ تقدَّم لنا، وكلُّ دليلٍ في الكتابِ أو في السُّنَّة فيه إبطالُ أنْ يُدعىٰ مع الله جَلَّ وَعَلَا إلـهٌ آخرُ يصلُح أنْ يكونَ دليلًا للشَّفاعة؛ يعني: لإبطالِ الاستشفاعِ بالمَوتىٰ وبالَّذين غابوا عن دارِ التَّكليفِ، لأنَّ حقيقةَ الشَّافعِ أنَّه طالبٌ، ولأنَّ حقيقةَ المُستشفِعِ أنَّه طالبٌ، فالشَّافع في ظنِّ المُستشفِع يدعو، والمُستشفِعُ يدعو من أرادَ منه الشَّفاعةَ؛ يعني: إذا أتىٰ آتٍ إلىٰ قبرِ نَبيٍّ أو قبرِ وليٍّ أو نحوِ ذلك فقالَ: استشفعُ بك أو أسأَلُك الشَّفاعةَ. يعني طلبَ منه ودعاهُ أن يدعُوَ له.

فلهٰذا صارَ صرفُها أو صارَ التَّوجُّه بها إلىٰ غير الله جَلَّ وَعَلَا شركًا أكبرَ؛ لأنَّها في الحقيقةِ دعوةٌ لغير الله؛ لأنَّها في الحقيقة سؤالٌ من هٰذا الميْتِ، سؤالٌ والتَّوجُّه بالطَّلبِ والدُّعاءِ من غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا، فيتوجَّه إلىٰ غيرِ الله بالسُّؤالِ والطَّلبِ والدُّعاءِ.

إذن فالشَّفاعةُ عرفتَ معناها، وأنَّ التَّوجُّهَ إلىٰ غيرِ الله بالشَّفاعة -يعني بطلبِ الشَّفاعةِ- شركٌ أكبرُ إذا كان هٰذا المُتوجَّه إليه من الأمواتِ، أمَّا إذا كان حيًّا فإنَّه في دارِ التَّكليفِ يُطلَب منه أن يَشفعَ عندَ الله بمعنىٰ أن يدعُوَ وقد يُجاب دُعاؤُه وقد لا يُجابُ، أو كما يحصلُ أنْ يشفعَ بعضُ النَّاس لبعضٍ بالشَّفاعةِ الحسنةِ أو بالشَّفاعةِ السَّيِّئةِ، من يشفعُ شفاعةً حسنةً ومن يشفعُ شفاعةً سيِّئةً، فهٰذا يحصلُ لأنَّهم في دارِ تكليفٍ ويقدِرون علىٰ الإجابةِ، وقد أذنَ الله في طلبِ الشَّفاعة منهم بأنْ يدعوا، لهٰذا كان الصَّحابةُ في عهد

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُبَّما أتىٰ بعضُهم النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطلبَ أن يشفعَ له -يعني: أن يدعُوَ له.

مَسألةُ الشَّفاعةِ من المسائلِ الَّتي تخفىٰ علىٰ كثيرين، ولهٰذا وقعَ بعضُ أهلِ العلم في أغلاطٍ من جهةِ طلبِ الشَّفاعةِ من النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأوردوا قصصًا في كتبِهم فيها استشفاعٌ بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دونَ إنكارٍ -كما فعل النَّوويُّ وكما فعل ابنُ قُدامةَ في «المُغني» ونحوُ ذلك-، وهٰذا لا يُعدُّ خلافًا في المسألةِ؛ لأنَّ هٰذا الخلافَ راجعٌ إلىٰ عدمِ فهمِ حقيقةِ هٰذا الأمر.

ومَسألةُ الشَّفاعةِ مَسألةٌ فيها خفاءٌ، ولهٰذا يقولُ أهلُ العلم من أئمَّة الدَّعوةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إقامةُ الحُجَّة في مَسائل التَّوحيدِ تَختلفُ بحسبِ قوَّةِ الشُّبهةِ، فأقلُّ الشُّبُهات ورودًا وأيسرُ الحُجَجِ قُدومًا علىٰ المُخالفِ فيما يتعلَّقُ بأصلِ دعوةِ غير الله معه، وبالاستغاثةِ بغيرِ الله وبالذَّبحِ لغيرِ الله ونحوِ ذلك، ومن أكثرِها اشتباهًا إلَّا علىٰ المُحقِّق من أهلِ العلم مَسألةُ الشَّفاعةِ.

ولهٰذا الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أتىٰ بهٰذا البابِ وقال: (بَابُ الشَّفَاعَةِ)، وبيَّن لكَ بما ساقَ من الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة أنَّ الشَّفاعة لا تصحُّ إلَّا بشروطٍ، فالشَّفاعة الَّتي تنفعُ فإنَّها لا تصحُّ إلَّا بشروطٍ، وكذلك هناكَ شفاعةٌ مَنفيَّةٌ، ليست كلُّ شفاعةٍ تُقبَلُ، وإنَّما هناك شفاعةٌ تُقبَلُ وهناكَ شفاعةٌ تُرَدُّ، تُقبَلُ بشروطٍ وتُرَدُّ أيضًا بأوصافٍ.

فإذن صار عندنا أنَّ الشَّفاعةَ في القرآن والسُّنَّة قسمان: شفاعةٌ مَنفيَّةٌ وشفاعةٌ مُثبَتةٌ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] أمَّا **الشَّفاعةُ المَنفيَّةُ**: فهي الَّتي نفاها الله جَلَّ وَعَلَا عن أهلِ الإشراكِ، كما ساق الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **أوَّل الدَّليل** قال: (وَقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾) فهٰذه الشَّفاعةُ مَنفيَّةٌ، وهي مَنفيَّةٌ عن الجميعِ، عن الَّذين يخافون؛ عن أهلِ التَّوحيدِ وعن غيرِهم.

أمَّا عن أهلِ التَّوحيدِ فهي مَنفيَّةٌ إلَّا بشروطٍ وهي إذنُ الله للشَّافعِ أن يشفعَ، ورِضاهُ جَلَّ وَعَلَا عن الشَّافع وعن المَشفوعِ له.

فإذن قوله هنا: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ يعني: أنَّ الشَّفيعَ في الحقيقةِ هو الله جَلَّ جَلَالُهُ دونَ ما سِواه.

[**الدَّليلُ الثَّاني**] ولهٰذا أعقبَها بالآيةِ الأُخرىٰ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزُّمر:44]، فالشَّفاعةُ جميعًا مِلكٌ لله، وأهلُ الإيمان وغيرُهم في الحقيقةِ ليس لهم من دونِ الله وليٌّ ولا شفيعٌ، ليس أحدٌ يشفعُ لهم من دونِ الله جَلَّ وَعَلَا؛ بل لابدَّ أن تكونَ الشَّفاعةُ بالله؛ يعني: بإذنِه وبرِضاه.

فإذن إذا تقرَّر ذلك، فإنَّه إذا نُفيَت الشَّفاعةُ عن أحدٍ سِوىٰ الله جَلَّوَعَلَا وأنَّ الَّذي يملِكُ الشَّفاعةَ إنَّما هو اللهُ جَلَّوَعَلَا وحدَه، فإذن بطلَ التَّعلُّقُ -تعلُّق قلوبِ الَّذين يسألون المَوتىٰ الشَّفاعةَ- بطَلَ تعلُّقُهم بمَسألةِ الشَّفاعةِ لأنَّ الشَّفاعةَ مِلكٌ للهِ وهٰذا لا يملِكُها.

[الدَّليلُ الثَّالثُ والرَّابعُ] هل تنفع الشَّفاعةُ مُطلقًا أم لابدَّ أيضًا من قيودٍ؟

نعم الشَّفاعةُ تنفعُ؛ لكن لا بدَّ من شروطٍ، ولهٰذا أورد الآيتين بعدَها، قال جَلَّوَعَلَا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة:255]، قال: (وَقَوْلِـــهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النَّجم]).

فوجهُ الاستدلالِ من الآيةِ الأُولىٰ أنَّ فيها قيدُ الإذنِ؛ فليس لأحدٍ أنْ يشفعَ إلَّا بشرطِ أنْ يأذنَ الله له ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ يعني: لا أحدَ يشفعُ عندَ الله إلَّا بإذنِه لا الملائكةُ ولا الأنبياءُ ولا المُقرَّبونَ، وإنَّما الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يملِكُ الشَّفاعةَ.

إذا كان كذلك وأنَّه لا بدَّ من إذنِه جَلَّوَعَلَا، فمن الَّذين يأذنُ الله جَلَّوَعَلَا لهم؟

لا أحدَ -إذن- يَبتدئ بالشَّفاعةِ دون أن يُؤذن له، فإذا كان كذلكَ فإذن رجعَ الأمرُ إلىٰ أنَّ الله هو الَّذي يُوفِّقُ للشَّفاعةِ وهو الَّذي يأذنُ بها، ولا أحدَ يَبتدئُ بالشَّفاعةِ.

كذلك الآيةُ الأُخرىٰ قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ يعني: من الشَّافعين ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ يرضىٰ قولَ الشَّافع ويرضىٰ أيضًا عن المَشفوعِ له.

هٰذه الشُّروطُ فائدتُها -وهي فائدةُ هٰذا البابِ- أنَّه لا أحدَ يتعلَّقُ -إذن- بأنَّ هٰذا الَّذي طُلبَت منهُ الشَّفاعةُ أنَّ له مَقامًا عندَ الله يملِكُ به أن يشفعَ، كما يعتقدُ أهلُ الشِّرك في أنَّ آلهتَهم تشفعُ ولابدَّ أن تشفعَ، فاعتقادُ المُشركين الَّذين بُعثَ إليهم رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سواءٌ أكانوا من الأمِّيِّين أم منْ أهلِ الكتابِ يَعتقدون أنَّ من توجَّهوا له بالشَّفاعةِ من الآلهة أنَّه يشفعُ جزمًا، إذا تُوجِّه إليه وتُذُلِّل له وتُقرِّب إليه بالعباداتِ وطُلبَت منه الشَّفاعةُ عندَ الله فانَّه يشفعُ جزمًا، وأنَّ الله جَلَّوَعَلَا لا يردُّ شفاعتَه.

فهٰذه الآيات فيها إبطالٌ لدَعوىٰ أولئكَ المُشركين في أنَّه ثَمَّ أحدٌ يملِكُ الشَّفاعةَ بدونِ إذن الله وبدون رضاهُ عن المَشفوعِ له.

وإذا ثبتَ أنَّه لا أحدَ يملِكُها وأنَّ من يشفعُ إنَّما يشفعُ بإكرام الله له وبإذنِه جَلَّوَعَلَا له، فإذن كيف يتعلَّقُ المُتعلِّقُ بهٰذا المَخلوقِ؟ إنَّما يتعلَّقُ بالَّذي يملكُ الشَّفاعةَ، ولهٰذا شفاعةُ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يومَ

القيامةِ حاصلةٌ لكن نَطلُبُها ممَّن؟ نطلبُها من الله؛ فنقول: اللَّهُمَّ شفِّع فينا نبيَّكَ. لأنَّه هو الَّذي يفتحُ ويُلهم النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يشفعَ في فلانٍ وفي فلانٍ؛ فيمن سألوا الله أن يَشفعَ لهم النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[الدَّليلُ الخامسُ] لهٰذا أعقبها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآية سبأ قال (وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ])، هٰذه ثلاثُ حالاتٍ:

◆ **الحالةُ الأولىٰ**: أن يدعُو الَّذين زعموهم من دونِ الله، وأن ينظُروا هل يَملِكون مثقالَ ذرَّةٍ في السَّمٰواتِ أو في الأرضِ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فإذن المِلكُ الاستقلاليُّ لهم نُفِيَ.

◆ **والثَّانية**: قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أيضًا نُفِيَ أن يكونوا شركاءَ لله في المُلكِ، في تدبيرِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ، في مِلكِ شيءٍ في السَّمٰوَاتِ والأرضِ.

فنُفي أوَّلًا أنْ يملِكوا استقلالًا.

ونُفي ثانيًا أنْ يملِكوا شركةً.

◆ قال جَلَّوَعَلَا بعدَها: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ الظَّهير هو المُعاونُ والمُؤازِرُ والوَزيرُ، قال: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ جَلَّوَعَلَا ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من تلكَ الآلهةِ من وزيرٍ ولا مُعاوِنٍ؛ لأنَّه يتبادرُ إلىٰ ذهنِ بعض النَّاسِ أنَّ ثمَّةَ من يُعينُ اللهَ علىٰ أمرِه مثلُ الملائكةِ أو مثلُ الأنبياءِ، فإذا تُوُجِّه إلىٰ أولئكَ بالدُّعاء وبالطَّلب كان التَّوجُّه إلىٰ من يُعين اللهَ، فيكونُ إذا طلبَ من الله فإنَّ الله لا يرُدُّه لأنَّه يُعينُه.

بنوا ذلك علىٰ تشبيهِ الخالقِ جَلَّوَعَلَا بما يَحصُلُ من المَخلوقين، فإنَّ المَلِكَ في هٰذه الدُّنيا أو الحاكمَ أو الأميرَ إذا كان له من يُعينُه ومن يُظاهرُه وشفعَ لأحدٍ فإنَّه لا يردُّ شفاعتَه لأنَّه يحتاجُه؛ فلأجلِ هٰذه الحاجةِ لا يردُّ الأميرُ أو المَلكُ شفاعةَ من له ظهيرٌ، من كان له ظهيرٌ، فيظنُّ المشركون أنَّ بعضَ تلكَ الآلهةِ مُعاوِنَةٌ لله جَلَّوَعَلَا، فنفىٰ اللهُ هٰذا الاعتقادَ الجاهليَّ، ونفىٰ أخيرًا آخرَ اعتقادٍ وهو أنَّ تلك الآلهةِ تملِكُ الشَّفاعةَ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[سبأ]، فنفىٰ آخر ما نفىٰ الشَّفاعةَ وأثبتَها بشرطٍ قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾.[1]

---

(1) انتهىٰ الوجهُ الأوَّل من الشَّريط السَّابع.

فالشَّفاعة تنفعُ بشرطِ أن يأذنَ اللهُ، فإذن لا يبتدئُ هٰذا الشَّافعُ فيشفعُ.

فإذا كان كذلك توجَّه السُّؤال إذن الآن: من يَأذنُ الله لهم؟ إذا كان ليسَ له شـريكٌ، ولـيسَ لـه ظهيـرٌ، وليسَ عندَه شفيعٌ إلَّا بإذنِه، فمن ذا الَّذي -إذن- يشفعُ عنـدَه بإذنِـه، مـن هـم، ومـن الَّـذي يـأذنُ لـه الله جَلَّوَعَلَا؟

فالجواب: فيما قالَه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة فيما ساقه الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ بعدَ ذلكَ.

إذن فالآيات الَّتي سبقَتْ من أوَّلِ الباب إلىٰ هنا رتَّبها الإمامُ رَحِمَهُٱللَّهُ ترتيبًا مَوضوعيًّا:

فالآياتُ الأُوَلُ وجهُ الاستدلالِ منها أنَّ الشَّفاعةَ مِلكٌ لله -الآيةُ الأولىٰ والثَّانيةُ- وأنَّه ليس لأحدٍ شيءٌ من الشَّفاعةِ؛ يعني ليسَ أحدٌ يملِكُ شيئًا من الشَّفاعةِ، فإذا كان لا يملِكُ إذن من يشفعُ، كيف يشفعُ؟ يشفعُ بأنْ يُعطىٰ الشَّفاعةَ، يُؤذنَ له بالشَّفاعةِ، يُكرَمَ بالشَّفاعةِ.

من يشفعُ؟ هل يَشفعُ استقلالًا؟ نفىٰ شفاعةَ الاستقلالِ وأثبتَ الشَّفاعةَ بشرطين وهو شرطُ الإذنِ والرِّضىٰ.

إذا كان كذلك فمن الَّذي يُؤذَنُ له؟ ومن الَّذي يُرضَىٰ له أن يشفعَ؟ ومن الَّذي يُرضىٰ عنه أن يُشفَّع فيه؟

هٰذه ثلاثةُ أسئلةٍ جوابُها في كلامِ شيخ الإسلام، حيثُ قال المصنِّفُ رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَىٰ اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِـلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

فَهٰذه الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ)، (مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني عن جميع الخلقِ إلَّا لمن أثبتَ اللهُ جَلَّوَعَلَا له الاستحقاقَ أو أنْ يكونَ نائلًا تلكَ الشَّفاعةَ؛ يعني الأصلُ ألَّا شفاعةَ إلَّا لمن رَضيَ الله قولَه أو أذنَ له جَلَّوَعَلَا، قال: (كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ).

قولُ الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: (فَهٰذه الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْـمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَـا الْقُـرْآنُ) يعني مُنتفِيَةٌ بدونِ شروطٍ لأنَّ المُشركين يعتقدون أنَّها تحصلُ بدونِ إذنٍ مـن الله ولا رِضـاهُ؛ لأنَّ الشَّـافع عندَهم يملِكُ الشَّفاعةَ، ولكنْ هي تحصُلُ بالشَّرط كما أثبتَ ذلك الكتاب والسُّنَّة.

قال: (أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْـمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»).

فالدَّليلُ الأوَّلُ من السُّنَّة في أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو سيِّدُ ولدِ آدمَ لا يَشفعُ حتَّىٰ يُؤذنَ له: يَا مُحَمَّدُ (**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**) هٰذا في دليلِ الإذنِ، من الَّذي يُؤذَنُ له؟ يُؤذَنُ للنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ويُؤذَنُ لغيرِه، لا يَبتدئون وإنَّما يَستأذنون في الشَّفاعةِ فيُؤذَنُ لهم لِمَ؟ لأنَّهم لا يَملِكونَها وإنَّما الَّذي يملِكُها عندَ الله إنَّما هو اللهُ جَلَّوَعَلَا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

من الَّذي يُؤذَنُ في الشَّفاعة فيه؟ من الَّذين يَرضىٰ عنهم في الشَّفاعةِ؟ جاء بالحديث الآخر حيثُ قال أبو هريرة للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ») فهٰذا الَّذي يَرضىٰ عنه فيشفَعُ فيه بعد إذنِ الله جَلَّوَعَلَا هو صاحبُ الإخلاصِ؛ هم أهلُ التَّوحيدِ.

فإذن تلكَ الشَّفاعةُ مُنتفيَةٌ عن أهلِ الشِّركِ ولهٰذا قال: (فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ).

فإذا كان كذلك يكونُ الَّذي توجَّه إلىٰ المَوتىٰ؛ إلىٰ الرُّسلِ أو إلىٰ الأنبياءِ أو إلىٰ الصَّالحينَ أو الطَّالحينَ يطلبُ منهم الشَّفاعةَ فإنَّه مُشركٌ؛ لأنَّه توجَّه بالدُّعاء لغيرِ الله، وأولئكَ لا يَملِكون الشَّفاعةَ وإنَّما يشفعون بعدَ الإذنِ والرِّضىٰ، والرِّضىٰ يكونُ عن أهلِ التَّوحيدِ وأهلُ التَّوحيدِ هم الَّذين لا يَسألون الشَّفاعةَ أحدًا من المَوتىٰ.

فإذن كلُ من سألَ ميْتًا الشَّفاعةَ فقد حرَمَ نفسَه الشَّفاعةَ لأنَّه أشركَ بالله جَلَّوَعَلَا، والشَّفاعةُ المُثبتَةُ إنَّما هي لأهلِ الإخلاصِ ليس لأهلِ الشِّركِ فيها نصيبٌ.

ونقف عند هٰذا وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.

الدرس التاسع

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبِه ومن اهتدىٰ بهُداه.

أمَّا بعدُ،

بقيَ في بابِ الشَّفاعةِ الأسطرُ الأخيرةُ من كلامِ شيخ الإسلامِ ابن تيميَّةَ، فوقفنا عند قوله: (وَحَقِيقَتُهُ) يعني حقيقةُ الشَّفاعةِ (أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْـمَقَامَ الْـمَحْمُودَ.) هٰذا في حقيقةِ الشَّفاعةِ، فإنَّا ذكرنا لكم أنَّ الشَّفاعة نُفي أنْ يملِكَها أحدٌ إلَّا الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمر:44]، اللَّام هٰذه لامُ المِلكِ؛ يعني: الَّذي يملِكُ الشَّفاعةَ هو اللهُ جَلَّوَعَلَا، فقال: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾[الأنعام:51]، فإنَّ الشَّفاعةَ إنَّما هي لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وجاءَ في الأدلَّة أنَّ الشَّفاعةَ مَنفيَّةٌ عن المُشركين وأنَّ الشَّفاعةَ النَّافعةَ إنَّما هي لأهلِ الإخلاصِ بشرطين: الإذن والرِّضىٰ.

إذا تقرَّر ذلك: فما حقيقةُ الشَّفاعةِ؟ يعني: ما حقيقةُ حُصولِها وكيفَ تحصُلُ؟

الجوابُ في كلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ في قوله: (وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهْلِ الإِخْلَاصِ) يعني: أنَّ الَّذين شُفعَ لهم إنَّما ذلك بتفضُّلِ الله جَلَّوَعَلَا عليهم وهم أهلُ الإخلاصِ، حيثُ جاء في حديثِ أبي هريرةَ؛ قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: (لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**» أو قال: «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ**»، فأهلُ الإخلاصِ هم الَّذين يُكرمُهم اللهُ بالشَّفاعةِ، فالمُتفضِّلُ بالشَّفاعة هو اللهُ جَلَّوَعَلَا.

فإذا ثبتَ ذلك انقطعَ القلبُ من التَّعلُّق بغيرِ الله لأجلِ الشَّفاعةِ، فإنَّ الَّذين توجَّهوا إلىٰ المَعبوداتِ المُختلفَةِ -إلىٰ الأولياءِ إلىٰ الصَّالحينَ إلىٰ الملائكةِ إلىٰ غيرِ ذلك- توجَّهوا إليهم رجاءَ الشَّفاعةِ، كما قالَ جَلَّوَعَلَا عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[يونس:18]، فإذا بطل أن تكونَ لهم الشَّفاعةُ وأنَّ المُتفضِّلَ بالشَّفاعةِ هو الله جَلَّوَعَلَا فإنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ إنَّما يتفضَّلُ علىٰ أهلِ الإخلاصِ فيغفرُ لهم بواسطةِ من دعا، بواسطةِ دُعاءِ الَّذي أذنَ له أنْ يَشفعَ.

وهٰهنا سؤالٌ: لِمَ لَمْ يتفضَّل اللهُ عليهم أنْ غفرَ لهم بدونِ واسطةِ الشَّفاعةِ؟

والجوابُ عن ذلك ما ذكره شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّة هنا بقوله: (لِيُكْرِمَهُ) فهو إظهارُ فضلِ الشَّافعِ، إظهارُ إكرامِ الله جَلَّوَعَلَا للشَّافعِ في ذلك المَقامِ، إذْ -كما هو مَعلومٌ- أنَّ الشَّافعَ الَّذي قُبلت شفاعتُه ليسَ

في المَقامِ مثلَ المَشفوعِ له، فاللهُ جَلَّوَعَلَا يُظهرُ إكرامَه لمن أذنَ له أن يشفعَ، ويُظهرُ رحمتَه بالشَّافعِ؛ لأنَّ الشَّافعَ له قرابةٌ يُريدُ أن يشفعَ لهم، له أحبابٌ يريدُ أن يشفعَ لهم، لذلكَ الشَّفاعةُ يومَ القيامةِ لأهلِ الكبائرِ ليست خاصَّةً بالنَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ بل يشفعُ الأنبياءُ وتشفعُ الملائكةُ ويشفعُ أيضًا الصَّالحون، فهٰذه شفاعاتٌ مُختلفَةٌ في أهلِ الكبائرِ بإكرام الله جَلَّوَعَلَا للشَّافعِ ورحمةً بالشَّافع، وأيضًا رحمةً بالمَشفوعِ له وإظهارُ فضلِ الله جَلَّوَعَلَا علىٰ الشَّافعِ والمَشفوعِ له.

هٰذه هي حقيقةُ الشَّفاعةِ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يتفضَّلُ فيقبلُ الشَّفاعةَ بإذنِه، يتفضَّلُ علىٰ الشَّافعِ ويُكرِمُه بـأن يشفعَ، يتفضَّلُ ويرحمُ المَشفوعَ له فيقبلُ فيه الشَّفاعةَ.

فإذن هي كلُّها دالَّةٌ -لمن كان له قلبٌ- علىٰ عِظَمِ الله جَلَّوَعَلَا وتفرُّدِه بالمِلكِ وتَفـرُّدِه بتـدبيرِ الأمـرِ وأنَّه الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هو الَّذي له الشَّفاعةُ كلُّها، هو الَّذي له مِلكُ الأمرِ كُلِّه، ليسَ لأحدٍ منه شيءٌ، وإنَّما يُظهِر فضلَه ويُظهِر إحسانَه ويُظهِر رحمتَه ويُظهِر كرمَه لتتعلَّق القلوبُ به.

فبطل -إذن- أن يكونَ ثمَّةَ تعلُّقٌ للقلبِ بغيرِ الله جَلَّوَعَلَا لأجل الشَّفاعةِ، فالَّذين تعلَّقـوا بالأوليـاءِ أو تعلَّقوا بالصَّالحينَ أو بالأنبياءِ أو بالملائكةِ لأجلِ الشَّفاعة هٰذهِ هي حقيقةُ الشَّفاعةِ من أنَّها فضـلٌ مـن الله جَلَّوَعَلَا وإكرامٌ.

فإذا كان كذلكَ وجبَ أن تتعلَّقَ القلوبُ به سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ في رجاءِ الشَّفاعةِ؛ إذ هو المُتفضِّلُ بهـا علـىٰ الحقيقةِ، والعبادُ مُكرَمون بها لا يَبتدئونَ بالقَولِ ولا يَسبقونَ بالقَولِ، وإنَّما يَجِلُون ويَخافون ويُثنون علـىٰ اللهِ ويَحمدون حتَّىٰ يُؤذَنَ لهم بالشَّفاعةِ.

ثمَّ قال شيخُ الإسلامِ: (فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ) الَّتي نفاها القرآنُ في مثلِ قولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾[الأنعام:51]، هٰذه شفاعةٌ مَنفيَّةٌ، هيَ الشَّفاعةُ الَّتي فيها شركٌ، كذلك الشَّفاعةُ للمُشركين مَنفيَّةٌ لأنَّهم لم يُرضَ عنهم.

فالشَّفاعةُ الَّتي فيها شركٌ من جهةِ الطَّلبِ أو من جهةِ من سُئلَ له بأنْ كان ذلك مُشركٌ فإنَّها مَنفيَّةٌ عن أهلِها لا تنفعُهم.

فإذن يثبُت في ذلك أنَّ الَّذي هو حقيقٌ بالشَّفاعةِ هو الَّـذي أنعـمَ عليـه بـالإخلاصِ ووفَّقـه لتَعظيمِـه وتعليقِ القلبِ به وحدَه دونَ ما سِواه.

فإذن كلُّ مُشركٍ الشَّفاعةُ عنه مَنفيَّةٌ؛ كلُّ مُشركٍ الشِّركَ الأكبرَ فالشَّفاعةُ عنه مَنفيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ فضـلٌ من الله لأهلِ الإخلاصِ.

أمَّا الشَّفاعةُ المُثبَتةُ فهي الَّتي أُثبتتْ؛ يَعني: جاءَ إثباتُها بشرطِ الإذنِ والرِّضَىٰ.

قال شيخُ الإسلامِ بعدَ ذلك: (وَلِهٰذا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ) وهٰذهِ هي الشَّفاعةُ المُثبَتةُ، أثبتَها بإذنِه في مَواضِعَ يعني بشرطِ الإذنِ.

والإذنُ: إذنٌ كَونيٌّ، وإذنٌ شَرعيٌّ.

فالمَأذونُ له لا يمكن أن تحصُلَ منه الشَّفاعةُ إلَّا أنْ يأذنَ الله له كَونًا بأن يشفعَ، فإذا منعَه الله كَونًا أن يشفعَ ما حصلت منه الشَّفاعةُ ولا تحرَّك بها لسانُه.

كذلك الإذنُ الشَّرعيُّ في الشَّفاعةِ بأن تكونَ الشَّفاعةُ ليس فيها شركٌ وأن يكون المَشفوعُ له ليسَ من أهل الشِّركِ، **ويُخصُّ من ذلك** أبو طالبٍ حيثُ يشفعُ له النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تخفيفِ العذابِ عنه، فهي ليست شفاعةً في الانتفاعِ بالإخراجِ من النَّار إنَّما هي في تخفيفِ العذابِ، وهي خاصَّةٌ هٰذه بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما أَوْحىٰ الله جَلَّ وَعَلَا إليه وأذنَ له بذلكَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في آخرِ كلامِه: (وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلاصِ) وَهٰذِهِ هِيَ الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ.

فتبيَّن في هٰذا البابِ أنَّ الشَّفاعةَ الَّتي تعلَّقت بها قلوبُ الخُرافيِّين والمُتعلِّقين بغيرِ الله أنَّ ذلكَ باطلٌ وأنَّ قولَهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:18]، هٰذا قولٌ باطلٌ إذِ الشَّفاعةُ الَّتي تنفعُ إنَّما هي لأهلِ الإخلاصِ، وما دام أنَّهم طلبوا الشَّفاعةَ من غير الله فقد سألوا غيرَ الله جَلَّ وَعَلَا الشَّفاعةَ، وهٰذا مُؤذِنٌ بحرمانِهم من الشَّفاعةِ فإنَّما هي لأهلِ الإخلاصِ.

وخلاصةُ البابِ أنَّ تعلُّقَ أولئكَ بالشَّفاعةِ إنَّما هو عليهم ليسَ لهم؛ لأنَّهم لمَّا تعلَّقوا بالشَّفاعةِ حُرِموها لأنَّهم تعلَّقوا بشيءٍ لم يأذن الله جَلَّ وَعَلَا به شرعًا بأن استَخدَموا الشَّفاعاتِ الشِّركيَّةَ وتوجَّهوا إلىٰ غيرِ الله وتعلَّقت قلوبُهم بغيرِ الله.



[الأسئلة]

[**سؤال** (22): رجلٌ عنده ولدٌ مريضٌ مرضًا لم يجد له علاجًا فقال: أذهبُ إلىٰ مكَّةَ وأضعُ ولدي عند البيتِ ادعوا له بالشِّفاءِ، ثمَّ وقتَ الظُّهر سوف أعزمُ مائةَ شخصٍ من فقراءِ الحرمِ علىٰ الغداءِ وأقول: ادعوا الله أنْ يشفي ولدِي. فما رأيُكم في هٰذا العملِ؟

الجوابُ: هٰذا العملُ فيه: تصدُّقٌ ودعوةُ الفقراءِ إلىٰ الطَّعام، وفيه طلبُ الدُّعاء مِنهم لولدِه.

والتَّصدُّق بالطَّعام هٰذا من جنسِ المَشروعِ كما ذكرتُ لكم، فإنْ كان فيه من الذَّبائح فعلىٰ التَّفصيلِ الَّذي مرَّ من قبلُ سواءُ أكانت دجاجًا أو كان ضأنًا أو غيرَ ذلك ممَّا يُذبَح؛ يعني ممَّا فيه إراقةُ دمٍ، وإنْ كان أطعمَهم طعامًا لإشباعِهم والتَّصدُّق عليهم، هٰذا هو القصدُ.

وطلبَ منهم الدُّعاءَ، وهي المَسألةُ الثانيةُ فهٰذا راجعٌ إلىٰ: هل يُشرعُ طلبُ الدُّعاءِ من الغيرِ بهٰذه الصِّفةِ؟

والظَّاهرُ أنَّ هٰذا من جنسِ ما هو غيرُ مَشروعٍ، وإذا قلنا: غيرُ مشروعٍ يعني: ممَّا ليسَ بمُستحَبٍّ ولا واجبٍ، وهل يجوزُ ذلكَ أم لا؟

طلبُ الدُّعاءِ من الآخرين قالَ العُلماءُ فيه: الأصلُ فيه الكراهةُ.

والَّذي يتأمَّل ما رُوي عن الصَّحابةِ وعن التَّابعينِ فيمن طَلبَ منهم الدُّعاء أنَّهم قَهروه ونَهوه، وقالوا: أنحنُ أنبياءُ؟! ! كما قال حُذيفةُ، وكما قال معاذُ، وكما قال غيرهما، ومالكُ بن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورحمَه إمامُ دارِ الهجرةِ كان ربَّما طُلِب منه الدُّعاء فنهىٰ من طلبَ منه الدُّعاءَ، لم؟ لأنَّه إذا عَرف عند النَّاس أنَّ فلانًا يطلبُ منه الدُّعاء بخصوصِه، فإنَّ القلوبَ تتعلَّق بذلك، وإنَّما يتعلَّقُ في طلب الدُّعاءِ بالأنبياءِ أمَّا من دونَهم فلا يتعلَّقُ بهم في هٰذا الأمرِ.

لهٰذا اختارَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ طلبَ الدُّعاءِ من المُسلمِ الحيِّ يكونُ مَشروعًا إذا قُصِد به نفعُ الدَّاعي ونفعَ المَدعوِّ له، إذا قصدَ الطَّالبُ أن ينفعَ الجهتين، ينفعُ الدَّاعيَ وينفعُ المَدعُو له فهٰذا مُحسنٌ وطالبٌ لنفسِه، فهٰذا من المَشروعِ، وهٰذا هو الَّذي يُحملُ عليه ما جاء في السُّنَّة فيما رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وغيرُهما أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لعمرَ لمَّا أراد أن يعتمرَ قال له: «**لا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**» وهٰذا الحديثُ إسنادُه ضعيفٌ، وقد احتجَّ به بعضُ أهلِ العلمِ، وظاهرٌ أنَّ معناه أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أرادَ أن ينفعَ عمرَ بهٰذه الدَّعوةِ، فالطَّالبُ للدُّعاء مُحتاجٌ إلىٰ غيرِه.

المَقصودُ من هٰذا أنَّ فعلَ هٰذا السَّائل لأجلِ ولدِه الأَوْلىٰ تركُه لأجلِ ألَّا يتعلَّق قلبُه بأولئك في دُعائِهم.

ومن العلاج المُناسبِ أنْ يلتزمَ بين الرُّكنِ والمَقامِ؛ يعني: بين الحجرِ الأسودِ وبينَ آخرِ حدِّ بابِ الكعبةِ وهو المُلتَزم، يلتزِمُ ويُلصقُ بطنَه وصدرَه وخدَّه ببيتِ الله جَلَّوَعَلَا، ويقفُ بالبابِ مُخبِتًا مُنيبًا سائلًا الله جَلَّوَعَلَا، مُنقطعًا عن الخلقِ، عالمًا أنَّه لا يَشفي من الدَّاء في الحقيقة إلَّا الله جَلَّجَلَالُهُ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يَشفي وهو الَّذي يُعافي كما قال: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ

بَعۡدِهِۦۚ﴾[فاطر:2]، فهٰذا أعظمُ أثرًا إن شاءَ اللهُ من فعلِه الَّذي يُريد أن يفعلَه من دعوةِ أولئك، فالتَّضرُّع لله في أوقاتِ الإجابةِ وفي الأماكنِ الفاضلةِ وفي الأزمنةِ الفاضلةِ نرجو أن يكونَ معه إجابةُ الدُّعاء وشفاءُ المرضِ.][1]

[**سؤال (23)**: ما الفرقُ بين التَّوسُّلِ والشَّفاعةِ؟ نرجو التَّوضيحَ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب: بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم، الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبِه ومن اهتدىٰ بهُداه.

أمَّا بعدُ:

التَّوسُّل هو اتِّخاذُ الوسيلةِ، والوسيلةُ هي الحاجة نفسُها أو من يُوصل إلىٰ الحاجةِ، قد يكون ذلك التَّوسُّل باستشفاعٍ؛ يعني بطلبِ الشَّفاعةِ؛ يعني يصلُ إلىٰ حاجتِه -بحسب ظنِّه- بالاستشفاعِ، وقد يصلُ إلىٰ حاجتِه -بحسبِ ظنِّه- بغيرِ الاستشفاعِ، فيتوسَّلُ مثلًا بالذَّواتِ يسأل الله بالذَّاتِ، يسألُ الله بالجاهِ، يسألُ الله بحرمةِ فلانٍ، مثلًا ما يقول: أسألك اللَّهمَّ بنبيِّك مُحمَّدٍ، بعد وفاتِه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو يقول: أسألُك اللَّهمَّ بأبي بكرٍ أو بعمرَ أو بالإمامِ أحمدَ أو بابن تيميَّةَ -أو إلىٰ آخره- بالوليِّ الفُلانيِّ، بأهل بدرٍ، بأهل بيعةِ الرِّضوانِ، يسألُه بهم.

هٰذا هو الَّذي يسمونه توسلا، وهٰذا التَّوسُّل معناه أنَّه جعلَ أولئكَ وسيلةً، وأحيانًا يقول لفظَ (الحُرمةِ) أسألُك بحُرمتهم أسألُك بجاهِهم ونحوِ ذلك.

أمَّا **الاستشفاعُ** فهو أن يسألَهم الشَّفاعةَ، يطلبُ منهم أن يشفعوا له.

وتحصَّل من ذلك أنَّ التَّوسُّلَ يختلفُ عن الاستشفاعِ؛ فإنَّ المُستشفِعَ طالبٌ للشَّفاعةِ، والشَّفاعةُ إذا طلبَها من العبدِ فيكون قد سألَ غيرَ الله، وأمَّا المُتوسِّلُ بحسب العُرفِ -عُرفِ الاستعمالِ- المُتوسِّلُ يسألُ الله لكن يجعلُ ذلك بوسيلةِ أحدٍ.

فالاستشفاعُ سؤالٌ لغيرِ الله، وأمَّا الوَسيلةُ فهي سؤالُ الله بفلانٍ؛ بحُرمتِه، بجاهِه.

والتَّوسُّل بالذَّواتِ وبالجاهِ وبالحُرمةِ لا يجوزُ لأنَّه اعتداءٌ في الدُّعاء ولأنَّه بدعةٌ مُحدَثةٌ، وهو وسيلةٌ إلىٰ الإشراكِ.

وأمَّا الاستشفاعُ بالمَخلوقِ الَّذي لا يملِكُ الدُّعاءَ وهو المَيْتُ أو الغائبُ أو نحوُ ذلك فهٰذا طلبٌ

(1) مأخوذٌ من الوجه الأوَّل من الشَّريط الرَّابع من بابِ ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم.

ودعاءٌ لغيرِ الله وهو شركٌ أكبرُ.

فالتَّوسُّل بحسبِ العُرفِ هٰذا من البدعِ المُحدَثةِ ومن وسائلِ الشِّركِ.

وأمَّا طلبُ الشَّفاعةِ من غيرِ الله فهو دُعاءِ غيرِ الله وهو شركٌ أكبرُ.

الجاهليُّون والخُرافيُّون والقُبوريُّون يُسمُّون عباداتِهم جميعًا من طلبِ الشَّفاعةِ ومن الذَّبحِ والنَّذرِ ومن الإستغاثةِ ودُعاءِ المَوتىٰ يُسمُّونَها تَوسُّلًا، وهٰذا غلطٌ علىٰ اللُّغةِ وعلىٰ الشَّرعِ.

والكلامُ في أصلِه ما يصحُّ المعنىٰ به لُغةً، وبيْنَ التَّوسُّلِ والشَّفاعةِ في أصلِ ما يصحُّ لغةً، أمَّا إذا أخطأ النَّاسُ وسمَّوا العباداتِ المُختلفةَ توسُّلًا فهٰذا غلطٌ من عندِهم.][1]

[**سؤال (24)**: وهٰذا يقولُ: بعضُ العلماءِ أجازَ التَّوسُّل، ودليلُهم حديثُ الأعمىٰ، فكيف يُردُّ عليهم؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب: حديثُ الأعمىٰ رواه التِّرمذيُّ وغيرُه وهو حديثٌ حسنٌ، وهناك روايةٌ أخرىٰ طويلةٌ في «مُعجم الطَّبرانيِّ الصَّغير» لهٰذا الحديث، وفيها زيادةٌ: أنَّ أحدَ الصَّحابةِ وهو عثمانُ بن حَنيفٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه أرشدَ إلىٰ استعمالِ ذلك الدُّعاء بعدَ وفاتِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

القدرُ الأوَّل وهو أنَّ الأعمىٰ توسَّل بالنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في حياتِه، هٰذا صحيحٌ وجارٍ علىٰ الأصول، حيث إنَّ التوسُّلَ بالنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في حياتِه توسُّلٌ بدُعائِه، وهو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يملِكُ ذلك ويستطيعُه ويقدرُ عليه.

أمَّا توسُّلٌ بالنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أي بدُعائِه أو بذاتِه بعد وفاتِه فإنَّه لا يجوزُ؛ لأنَّه من طلبَ الشَّيء ممَّا لا يملِكُه.

والرِّوايةُ الَّتي في «الطَّبرانيِّ الصَّغيرِ» ضعيفةٌ وفيها مَجاهيلُ، ولذلك ليست بحُجَّةٍ فيما ورد في استعمالِ الصَّحابةِ ذلكَ بعدَ وفاتِه.

والَّذي يدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ ذلك خاصٌّ بالأعمىٰ وعلىٰ أصلِ الاستشفاعِ أنَّه رحمةٌ من الله جَلَّوَعَلَا للمُستشفِع وفضلًا منه عليه وإزالةُ عمَّا به أنَّ ذلكَ الأعمىٰ رأىٰ النُّورَ وأبصرَ بعد دُعاءِ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ له، وتوجَّه ذلك الأعمىٰ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا أنْ يُجيب فيه دُعاءَ نبيِّه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

الصَّحابة الآخرون الَّذين كانوا مَكفوفين لم يدعوا بهٰذا الدُّعاءِ، فكان في المدينةِ أناسٌ عدَّةٌ كُفَّت

(1) مأخوذٌ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّابع من نفسِ الباب (باب الشَّفاعة)

أبصارُهم، منهم ابن أمِّ مَكتومٍ وجماعةٌ فما دعوا بهٰذا الدُّعاء، وإنَّما كانَ ذلك خاصًّا بذلك الأعمىٰ.

فالعلماءُ لهم بذلك توجيهان:

التَّوجيهُ الأوَّل: أنَّ ذلك الدُّعاءَ كان خاصًّا بذلك الأعمىٰ؛ بدليلِ عدم استعمال بقيَّة الصَّحابةِ ذلك الدُّعاءَ، وعدمِ إرشادِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لهم أن يُزال ما بهم من عمىٰ البصرِ بذلك الدُّعاءِ.

والتَّوجيهُ الثَّاني: أنَّ ذلك خاصٌّ بحياتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يكون بعد وفاتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهٰذا الثَّاني والأوَّل جميعًا ظاهرةٌ صحيحةٌ والصَّحابةُ فهموا ذلك.

ولهٰذا ثبت في البُخاريِّ وغيرِه أنَّ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا أجدبوا قالَ وهو يخطبُ الاستسقاءَ: (اللَّهمَّ إنَّا كنَّا إذا أجدبْنا توسَّلنا بنبيِّك، وإنَّا نتوسَّلُ إليك اليومَ بعمِّ نبيِّك، يا عبَّاس قُمْ فادعُ اللهَ لنا).

قال العلماءُ: انتقلَ عُمرَ من الفاضلِ وهو النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ المفضولِ وهو العبَّاسُ عمُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعلَّةٍ شرعيَّةٍ، وهو أنَّ الدُّعاء من الحيِّ مُمكنٌ وأمَّا من غيرِ الحيِّ -حياةَ الدُّنيا المَعروفةَ- فإنَّه غيرُ مُمكنٍ، وإلَّا يكون عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ انتقلَ من الفاضلِ إلىٰ المَفضولِ بغير علَّةٍ شرعيَّةٍ، وهٰذا مُمتنعٌ فقهًا للصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم.][1]



(1) مأخوذٌ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّابع.

18- بَابٌ

[1] **قَوْلُ اللهِ تعالَى:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: 56]

[2] فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الْـمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:113].

وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

(**بَابٌ قَوْلِ اللهِ تعالَى:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص:56]).

مُناسبةُ هٰذا البابِ لكتاب التَّوحيدِ أنَّ الهدايةَ من أعزِّ المطالب وأعظمِ ما تَعلَّق به الَّذين تعلَّقوا بغير الله أن يكونَ لهم النَّفعُ في الاستشفاعِ وفي التَّوجُّه في الدُّنيا والأخرىٰ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهو سيِّدُ ولدِ آدمَ وهو أفضلُ الخلقِ عندَ ربِّه جَلَّ وَعَلَا- نُفِيَ عنه أن يملِكَ الهدايةَ وهي نوعٌ من أنواعِ المَنافعِ، فدلَّ علىٰ أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ له من الأمرِ شيءٌ؛ كما جاء في ما سبق في (**باب قوْلِ اللهِ تعالَى:** ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾[**الأعراف**]) في سببِ نزولِ قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[آل عمران: 128].

فإذا كان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ له من الأمر شيءٌ ولا يستطيعُ أن ينفعَ قرابَته، «**يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» إذا كان هٰذا في المُصطفىٰ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنَّه لا يُغني من الله جَلَّ وَعَلَا عن أحبابِه شيئًا وعن أقاربِه شيئًا، وأنَّه لا يملِكُ شيئًا من الأمر، وأنَّه ليس بيدِه هدايةُ التَّوفيقِ، فإنَّه أنْ يَنتفِيَ ذلك وما دونَه عن غيرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أوْلىٰ، فبطُلَ -إذن- كلُّ تعلُّقٍ للمُشركين من هٰذه الأمَّةِ بغيرِ الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ كلَّ من تعلَّقوا به هو دونَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالإجماعِ.

فإذا كانت هٰذه حالُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما نُفِيَ عنهُ فإنَّ نَفيَ ذلك عن غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بابِ أَولىٰ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال هنا: (بَابُ قَوْلُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[القصص:56])، ﴿لَا﴾ هنا نافيةٌ، وقولُه: ﴿تَهۡدِي﴾ الهدايةُ المَنفيَّةُ هنا هي هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ الخاصِّ والإعانةِ الخاصَّةِ، هي الَّتي يُسمِّيها العلماءُ **هدايةَ التَّوفيقِ والإلهامِ**، ومعناها أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يجعلُ هدايةَ التَّوفيقِ، معناها أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يجعل في قلبِ العبدِ من الإعانةِ الخاصَّةِ علىٰ قَبولِ الهُدىٰ ما لا يجعلُه لغيرِه.

فالتَّوفيقُ إعانةٌ خاصَّةٌ لمن أرادَ اللهُ توفيقَه، بحيثُ يقبلُ الهُدىٰ ويسعَىٰ فيه، فجَعْلُ هٰذا في القلوبِ ليس إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ إذ القلوب بيدِ الله يُقلِّبُها كيف يشاءُ، حتَّىٰ من أحبَّ لايستطيعُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يجعلَهُ مُسلمًا مُهتديًا، فمِن أنفعِ قرابتِه له أبو طالبٍ ومع ذلك لم يستطِعْ أن يهديَه هدايةَ توفيقٍ، فالمَنفيُّ هنا هو هدايةُ التَّوفيقِ.

والنَّوعُ الثَّاني من الهدايةِ المُتعلِّقةِ بالمُكلَّفِ **هدايةُ الدِّلالةِ والإرشادِ**، وهٰذه ثابتةٌ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بخصوصِه، ولكلِّ داعٍ إلىٰ الله ولكلِّ نبيٍّ ورسولٍ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾[الرَّعد]، وقال جَلَّوَعَلَا في نبيِّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[الشُّورىٰ]، ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾؛ يعني: لتدلُّ وتُرشدُ إلىٰ صراطٍ مُستقيمٍ بأبلغِ أنواعِ الدِّلالةِ وأبلغِ أنواعِ الإرشادِ، الدِّلالةُ والإرشادُ المُؤيَّدان بالمُعجزاتِ والبَراهين والآياتِ الدَّالَّةِ علىٰ صدقِ ذلك الهادي وصدقِ ذلك المُرشِدِ.

فإذن الهدايةُ المُنتفيَةُ هي هدايةُ التَّوفيقِ، وهٰذا يعني أنَّ النَّفعَ وطلبَ النَّفعِ في هٰذه المَطالبِ المُهمَّةِ يجبُ أن يكون من الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّ مُحمَّدًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع عِظمِ شأنِه عندَ ربِّه وعِظمِ مَقامِه عند ربِّه وأنَّه سيدُ ولد آدمَ وأنَّه أفضلُ الخلقِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأشرفُ الأنبياءِ والمُرسلين إلَّا أنَّه لا يملِكُ من الأمرِ شيئًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فبَطَل -إذن- تعلُّق القلوبِ في المَطالبِ المُهمَّة في الهدايةِ وفي المغفرةِ وفي الرِّضوانِ وفي البُعدِ -بُعدِ الشُّرورِ- وفي جلبِ الخيراتِ إلَّا بالله جَلَّوَعَلَا فإنَّه هو الَّذي تتعلَّق القلوبُ به جَلَّوَعَلَا خُضوعًا وإنابةً ورَغبًا ورَهبًا وإقبالًا عليه وإعراضًا عمَّا سواه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال بعد ذلك: (فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الْـمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ) إلىٰ أن قال: (فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ

بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) في هٰذا القدرِ من الفائدةِ أنَّ هٰذه الكلمة كلمةَ (لا إلٰه إلَّا اللهُ) ليست مُجرَّدةً عن المعنىٰ، تنفعُ من قالَها ولو لم يُقِرَّ بمعناها، والعربُ لصَلابتهم وعزَّتِهم ورُجولتِهم ومَعرفتِهم بما يقولون، كانوا إذا تكلَّموا بكلامٍ يَعونَ ما يتكلَّمون به، يعونَ كلَّ حرفٍ وكلَّ كلمةٍ خوطِبوا به أو نَطقوا به هم، فلمَّا قيل لهم: قولوا: (لا إله إلَّا الله)، مع أنَّها كلمةٌ يسيرةٌ لكن أَبَوْا؛ لأنَّهم يعلَمون أنَّ هٰذه الكلمةَ معناها إبطالُ إلـهةِ من سِوىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، ولهٰذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾[الصَّافَّات] الآياتُ، وكذلك قولُه في أوَّل سورةِ ص فجاءَ قولُ الله جَلَّ وَعَلَا مُخبِرًا عن قولهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[ص:5] استنكروا لا إله إلَّا الله، وهٰذا هو الَّذي حصلَ مع أبي طالبٍ حيثُ قال له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) فلو كانت مُجرَّدةً من المعنىٰ عندَهم أو يمكنُ أن يقولَها دون اعتقادِ ما فيها ورضًىٰ بما فيها ويقينٍ وانتفاءِ الرَّيبِ لَقالَها؛ ولكن ليسَ هٰذا هو المَقصودُ من قولِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ بل المَقصودُ هو قولُها مع تمامِ اليقينِ بها وانتفاءِ الرَّيبِ والعلمِ والمَحبَّةِ إلىٰ آخر الشُّروطِ.

(فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟) وهٰذا فيه والعياذُ بالله ضررُ جليسِ السُّوء علىٰ المُجالِسِ له، (فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ») وهٰذا هو موطنُ الشَّاهد من هٰذا الحديثِ، ومُناسبةُ هٰذا الحديثِ لهٰذا البابِ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) واللَّام هنا هي الَّتي تقعُ في جوابِ القسمِ، فثَمَّ قسمٌ مُقدَّرٌ تقديرُه: والله لأستغفرنَّ لكَ. وحصل من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن استغفرَ لعمِّه؛ ولكن هل نفعَ عمَّه استغفارُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له؟ لم ينفعْه ذلك، وطلبُ الشَّفاعةِ والاستشفاعِ هو من جنسِ طلبِ المَغفرةِ، **فالاستغفارُ طلبُ المَغفرةِ، والشَّفاعةُ قد يكون منها طلبُ المَغفرةِ فرُدَّت**، رُدَّ ذلك لأنَّ المَطلوبَ له المُستشفَع له هو مُشركٌ؛ لأنَّ المُستشفَع له المَشفوعَ له مُشركٌ بالله، والاستغفارُ والشَّفاعةُ لا تنفع أهلَ الشِّركِ، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملِكُ أن ينفع مُشركًا بمغفرةِ ذُنوبِه أو أن ينفعَ أحدًا ممَّن توجَّه إليه بشركٍ في إزالةِ ما به من كُرباتٍ أو جلب الخيراتِ له، لهٰذا قال: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ) فأنزلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ

بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [التَّوبة].

وهٰذا ظاهرٌ في المَقامِ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا نهىٰ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفرَ للمُشركين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ في الكتابِ والسُّنَّة تأتي علىٰ استعمالَين:

الاستعمالُ الأوَّل: النَّهيُ.

والاستعمالُ الثَّاني: النَّفيُ.

النَّهيُ: مثلَ هٰذه الآيةِ وهي قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ هٰذا نهيٌ عن الاستغفارِ لهم، وكذلك قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التَّوبة:122].

والنَّفيُ: كقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص] ونحوِ ذلك من الآيات.[1]

فإذن ﴿ مَا كَانَ ﴾ من القرآن تأتي علىٰ هذين المَعنيَيْن، وهنا المُرادُ بها النَّهيُ؛ نهيٌ أن يستغفرَ أحدٌ لمُشركٍ.

وإذا كان كذلكَ، فالمَّيِّتُ الَّذي هو من الأولياءِ، من الأنبياءِ، من الرُّسلِ فإذا نُهيَ في الحياةِ الدُّنيا أن يستغفرَ لمُشركٍ، فهو أيضًا لو فُرِضَ أنَّه يَقدرُ علىٰ الاستغفارِ في حال البَرزخِ فإنَّه لن يَستغفرَ لمُشركٍ، ولن يغفر اللهُ لمشركٍ، توجَّه إليه بالاستشفاعِ أو توجَّه إليه بالاستغاثةِ أو بالذَّبحِ أو بالنَّذرِ أو تألَّهَه أو توكَّلَ عليه أو أنزلَ به حاجاتِه من دونِ الله جَلَّوَعَلَا.

قال: (وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾).



[الأسئلة]

[سؤال (25)]: ما حكمُ عملِ احتفالٍ بسيطٍ بمُناسبةِ انتهاءِ عقد أحدِ العاملين بالشَّركةِ، سواءٌ كان مُسلمًا أو غيرَ مُسلمٍ، وحُجَّة بعضِهم في عملِ الاحتفالِ لغيرِ المُسلم أنَّه من بابِ دعوتِه إلىٰ الإسلامِ، مع العلمِ أنَّه خلالَ وجودِه في العملِ لم يُقدَّم له كتابٌ أو شريطٌ لدعوتِه إلىٰ الإسلام ممَّن يحتجُّون لهٰذا القَولِ، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: تلك الاحتفالاتُ المَقصودُ منها إكرامُ مَن أُقيمت له، فإذا كان مُسلمًا فإكرامُ المُسلمِ من

(1) انتهىٰ الشَّريط السَّابع.

حقوقِه المُستحبَّة، وإذا كان غيرَ مُسلمٍ فله حالتان:

الحالةُ الأولىٰ: أن يكون ممَّن لم يُظهرْ للإسلامِ عداوةً؛ بل وأظهرَ في الإسلامِ رغبةً وهو مُسالمٌ لأهل الإسلامِ ومُحبٌّ لأهلِ الخيرِ، محبٌّ لأهلِ الدِّين والصَّلاحِ، كما يظهرُ من بعضِهم، فهٰذا الغالبُ علىٰ قلبِه أنَّه يَصلُح أن يُدعىٰ للإسلامِ؛ لأنَّه قريبٌ سَلِمَ من البغضاءِ والعداوةِ الَّتي تحجُزه عن قبولِ الحقِّ لو عُرِضَ عليه.

فهٰذا النَّوع إذا كان قَصْدُ من عملِ الاحتفالِ أن يكونَ بدايةً لدعوتِه وأن يكون في الاحتفالِ شيءٌ من الدَّعوةِ إلىٰ الإسلام ببيانِ مَحاسنِه وبيانِ بُطلانِ الأديانِ الأُخرىٰ ونحوِ ذلك، فهٰذا بحسَبِ قصدِ فاعلِه، وأصلُ الإكرام لغيرِ المُسلمِ لا يجوزُ.

وأمَّا إن كانَ مُعاديًا أو لم يُظهرْ قَبولًا للإسلامِ، أو عُرفَ من سيرتِه حين بقيَ أنَّه -يعني: حينَ بقيَ تلك المُدَّةَ في المُؤسَّسة أو الشَّركةِ- أنَّه لا يحبُّ الخيرَ؛ بل ربَّما أظهرَ صُدودًا عن أهلِ الخيرِ، وأظهر عدمَ قبولٍ لبعض أوامرِ الشَّرع الَّتي يُحكَم بها، فهٰذا لا يجوزُ إكرامُه؛ لأنَّ إكرامَه من مُوالاتِه؛ ومُوالاتُه -مُوالاةُ الكافرِ مُحرَّمةٌ-؛ لأنَّه يُكرَم مع بقائِه علىٰ عداوتِه وعلىٰ بُغضِه.

والأصلُ في هٰذا قولُ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[المُمتحنة] فهٰذه الآيات فيها بيانُ حال الصِّنفَيْن؛ لهٰذا النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ ربَّما أجابَ دعوةَ يَهوديٍّ أو يَهوديَّةٍ، وربَّما أتىٰ بعضَ أهلِ الكتابِ، وربَّما أهدىٰ إليهم، بل وحثَّ علىٰ الهَديَّة للجارِ، وهٰذا لأجلِ التَّرغيبِ في الخيرِ، والتَّرغيبِ في الإسلامِ.

المَقصودُ أنَّ الإكرامَ بتلك الحفلاتِ لا يجوزُ، إلَّا إذا كان ثَمَّ مَصلحةٌ شَرعيَّةٌ راجحةٌ يُقدِّرُها أهلُ العلم إذا وُصفَ الحالُ لهم، وأمَّا ما عدا ذلكَ فلا يجوزُ إقامةُ الحفلاتِ لهم؛ لأنَّها نوعُ موالاةٍ للكُفَّار.][1]



(1) من الوجه الثَّاني من الشَّريط السَّادس.

19- بَابٌ
مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

[1] وَقَوْلُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[النِّساء:171].

[2] فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا -فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾[نوح]-؛ قَالَ: (هٰذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ؛ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْـمُ عُبِدَتْ).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ).

[3] وَعَنْ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». أَخْرَجَاهُ.

[4] ... قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ».

[5] وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ الْـمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا.

هٰذا (بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)، هٰذا البابُ جاء بعد الأبوابِ قبلَه من أوَّل الكتابِ إلىٰ هنا، والشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ بيَّن أصولًا فيما سبقَ؛ بيَّن شيئًا من البَراهين علىٰ التَّوحيدِ، وبيَّن ما يتعلَّق به المُشركون وأبطلَ أصولَ اعتقاداتِهم بالشَّريكِ أو الظَّهيرِ أو الشَّفيعِ ونحوِ ذلك، فإذا كان هٰذا الاعتقادُ مع ما أُوردَ من النُّصوصِ بهٰذه المَثابةِ من الوُضوحِ والبيانِ وأنَّ النُّصوص دالة علىٰ ذلك دلالة واضحة، فكيف -إذن- دخل الشِّركُ؟ كيف صار النَّاسُ إلىٰ الشِّركِ بالله جَلَّوَعَلَا؟ والأدلَّةُ علىٰ انتفائه وعلىٰ عدم جوازِه وعلىٰ بُطلانِه واضحةٌ ظاهرةٌ، وأنَّ الرُّسُلَ جميعًا بُعثتْ ليُعبَد اللهُ وحدَه دون ما سواه ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[النَّحل:36]؟ فما سببُ الغوايةِ، ما سببُ الشِّرك؟ هٰذا الَّذي يُبيِّن من أوضحِ الواضحاتِ، الأبوابُ السَّالفةُ دالَّةٌ بظهورٍ ووضوحٍ علىٰ إحقاقِ عبادةِ الله وحدَه وعلىٰ إبطالِ عبادةِ كلِّ من سِوىٰ الله جَلَّجَلَالُهُ وتقدَّست أسماؤُه.

فإذن: ما سببُ وقوعِ الشِّرك؟ كيف وقعَ الشِّركُ في الأُمم؟

جاء الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهٰذا البابِ وما بعدَه ليُبيِّن أنَّ سببَ الشِّرك وسببَ الكُفرِ هو الغلوُّ الَّذي نهىٰ الله جَلَّوَعَلَا عنه ونهىٰ عنهُ رسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، سواءٌ في هٰذه الأمَّةِ أم في أممٍ من قبلُ، فسببُ وقوعِ الشِّرك هو الغلوُّ في الصَّالحين، هٰذا أحدُ أسبابِ وقوعِ الكُفرِ والشِّركِ؛ بل هو سببُها الأعظمُ.

قال هنا: (**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**) هٰذا ذكرٌ للأسبابِ بعد ذكرِ الأصولِ والعقائدِ.

قال هنا: (**هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**) الغلوُّ مأخوذٌ مِن غلا في الشَّيء، يغلو غُلُوًّا إذا جاوزَ به حدَّه، وقد جاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا رمىٰ الجمراتِ بحَصَياتٍ قال: «**بِمِثْلِ هٰذِهِ فَارْمُوا وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**» يعني مُجاوزةِ الحدِّ حتَّىٰ في حجمِ تلكَ الحصاةِ وفي مِقدارِ الحصىٰ، قال: «**بِمِثْلِ هٰذِهِ فَارْمُوا**» فإذا جاوزَ في المِثليَّةِ بأنْ رمىٰ بكبيرةٍ فإنَّه قد غلا؛ يعني: جاوزَ الحدَّ الَّذي حُدَّ له في ذلكَ. **فإذنْ الغلوُّ هو مُجاوزةُ الحدِّ.**

قال هنا: (**الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**) معناه: أنَّ سببَ كفرِ بني آدمَ وتركِهم دينَهم الَّذي أمرَهم الله به هو مُجاوزةُ الحدِّ الَّذي أُذن به في الصَّالحين.

والصَّالحون يشملُ الأنبياءَ والرُّسلَ، ويشملُ أيضًا الأولياءَ، ويشملُ كلَّ من اتَّصفَ بالصَّلاحِ في الأممِ، وأصلُ كلمةِ (الصَّالحون) أصلُها جمعُ الصَّالحِ، **والصَّالحُ؛** هو: **اسمُ من قامَ به الصَّلاح،** والصَّلاح في الكتابِ والسُّنَّة:

- تارةً يكون بمعنىٰ نَفي الفسادِ؛ ما يُقابلُ الفسادَ.
- وتارةً بمعنىٰ ما يُقابلُ السَّيِّئات.

فيُقالُ: صالحٌ، بمعنىٰ ليسَ بذي فسادٍ، ويُقالُ أيضًا: صالحٌ بمعنىٰ ليسَ بسيِّءٍ، فهٰذا جاءَ وهٰذا جاءَ.

والصَّالحون هنا المُرادُ بهم أهلُ الصَّلاحِ؛ يعني أهلَ الطَّاعةِ والإخلاصِ لله جَلَّوَعَلَا الَّذين اجتنَبوا الفسادَ واجتنَبوا السَّيِّئاتِ، وهم الَّذين اشتركوا في فعلِ الطَّاعاتِ وتركِ المُحرَّماتِ أو كانوا من السَّابقين بالخيراتِ، فاسمُ الصَّالحِ يقعُ شرعًا علىٰ المُقتصِدِ وعلىٰ السَّابقِ بالخيراتِ؛ فالمُقتصِدُ صالحٌ والسَّابقُ بالخيراتِ صالحٌ، وكلٌّ درجاتٌ عند الله جَلَّوَعَلَا.

قال: (**هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**)؛ يعني: مُجاوزةُ الحدِّ في الصَّالحينَ، ما هو الحدُّ الَّذي أَذِن به الشَّرع في الصَّالحين حتَّىٰ نعلمَ ما الَّذي يكونُ مُجاوزةً له؟ الصَّالحون أُذِن في حقِّهم بأنْ يحَبُّوا في الله، وأن

يوقَّروا في الله، وأنْ يُقتَدَىٰ بهم في صلاحِهم وفي علمِهم، وإذا كانوا من الرُّسلِ والأنبياءِ فإنَّه يؤخذُ بشرائِعِهم وبما أُمروا به ويُتبعُ ذلك ويُقتدىٰ بآثارِهم.

هٰذا هو الحدُّ الَّذي أُذن به؛ احترامٌ ومَحبَّةٌ ومُوالاةٌ لهم ودفعٌ عنهم ونُصرةٌ لهم ونحوُ ذلك من المعاني.

أمَّا الغلوُّ فيهم بأن يُجاوَزَ ذلك الحدُّ فهو بحرٌ لا ساحلَ له، فممَّا حصلَ من الغلوِّ فيه أنَّهم جُعلتْ فيهم خصائصُ الإلهيَّة، جُعلَ بعضُ البشرِ أنَّه يعلمُ سرَّ اللَّوحِ والقلمِ، وأنَّه من جودِهِ الدُّنيا وضرَّتُها كما قال البُوصيريُّ في قصيدَتِه المَشهورةِ:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

وهٰذا ليسَ إلَّا للهِ جَلَّوَعَلَا، وهذا من الغُلوِّ المَنهيِّ عنه.

كذلكَ قولُه في النَّبيِّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ غاليًا فيه أعظمَ الغُلوِّ قال:

لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا ... أَحْيَىٰ اسْمُهُ حِينَ يُدْعَىٰ دَارِسَ الرِّمَمِ

يقولُ إنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ لم يعطَ آيةً تُناسبُ قدرَه، قال الشُّرَّاح: حتَّىٰ القرآنُ لا يُناسِبُ قدرَ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والعياذُ بالله، يقولون القرآنُ المَتلوُّ بخلافِ غير المَتلوِّ عندَ الأشاعرةِ؛ لأنَّهم يُفرِّقون بين هٰذا وهٰذا.

فهٰذا البوصيريُّ يغلو ويقول: (لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ) يعني النَّبيَّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ (لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا)؛ يعني: في العظمة (أَحْيَىٰ اسْمُهُ حَينَ يُدْعَىٰ دَارِسَ الرَّمَمِ) لكانَ لا يُناسبُ قدرَه إلَّا إذا ذُكرَ اسمُه علىٰ ميْتٍ قد درسَ وذهبَ رَميمُه في الأرضِ وذهبَتْ عِظامُه لتجمَّعتْ هٰذه العِظامُ وحَيِيَ لأجلِ ذكرِ اسمِ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليه.

هٰذا من أنواعِ الغُلوِّ الَّذي يحصلُ من الَّذين يعبُدون غيرَ الله جَلَّوَعَلَا ويتوجَّهون إلىٰ الأنبياءِ والرُّسلِ ويجعلونَ في حقِّهم من خصائصِ الأُلوهيَّة ما لا إذْنَ لهم به؛ بل هو من الشِّركِ الأكبرِ بالله جَلَّوَعَلَا ومن سوءِ الظَّنِّ بالله ومن تشبيهِ المَخلوقِ بالخالقِ، وهٰذا كفرٌ والعياذُ بالله.

يُقابلُ ذلك -هناكَ حدٌّ مأذونٌ به، وهناك غلوٌّ- والحالةُ الثَّالثةُ الجفاءُ، الجفاءُ في حقِّ الصَّالحين وهٰذا بعدمِ مُوالاتهم وعدمِ احترامِهم وعدمِ إعطائِهم حقَّهم وتركِ مَحبَّةِ الصَّالحين.

فكلُّ تقصيرٍ في الأمرِ يُعدُّ جفاءً، وكُلُّ زيادةٍ فيه يعدُّ غلوًّا.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَوْلُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النّساء:171]) قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ مُناسبتُه للبابِ ظاهرةٌ؛ أي: أنَّه نهىٰ

أهلَ الكتابِ عن الغُلوِّ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ ووجهُ الاستدلالِ أنَّه قال: ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾، و﴿تَغۡلُواْ﴾ هنا فعلٌ جاءَ في سياقِ النَّهي، وهٰذا يعمُّ جميعَ أنواعِ الغُلوِّ في الدِّين، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ يعني: لا تَغلُوا بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الغُلوِّ في الدِّين، فنُهوا عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ الغُلوِّ، هٰذا موطنُ الشَّاهدِ ووجهُ الاستدلالِ من الآيةِ علىٰ الحديثِ.

وإذا كان كذلك، دخلَ في هٰذا العُمومِ الغُلوُّ في الصَّالحين، والمُتأمِّلُ لحال أهلِ الكتابِ ولمَّا قصَّ اللهُ جَلَّوَعَلَا من أخبارِهم يجدُ أنَّهم قد غَلَوْا في صالِحيهم، قد غلا النَّصارىٰ في عيسىٰ عَلَيْهِالسَّلَامُ وفي أمِّه وفي حوارِيِّيه، وقد غلا اليهودُ أيضًا في عُزيرٍ وفي أصحابِ موسىٰ وفي أحبارِهم وفي رُهبانِهم وهكذا.

فحصل الغُلوُّ من أهلِ الكتابِ، تارةً بأن جعلوا الرُّسلَ والأنبياءَ لهم خصائصُ الألوهيَّةِ من جهةِ التَّوجُّه لهم، وقد قال اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة]، وفي آخرِ سورة المائدةِ أيضًا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ يعني: تنزيهًا وتعظيمًا لك أن أقول لهم ذلكَ وذلكَ من الشِّرك فكيفَ أقولُ لهم ذلك قال: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾[المائدة]، وهٰذا كلُّه في التَّوحيد، فحصلَ أنْ غلا أتباعُ الرُّسل وأتباعُ الأنبياء في الأنبياءِ والرُّسلِ وغَلَوا أيضًا في الصَّالحين من أتباعِهم وجعلوا لهم بعضَ خصائصِ الإلهيَّةِ؛ جعلوا لهم الشَّفاعةَ، جعلوا لهم نصيبًا من المُلكِ أو أنَّهم يُدبِّرون الأمرَ أو أنَّهم يَصرِّفون شيئًا من المَلكوتِ، فيعتقدُ الآن بعضُ الصُّوفيَّة أنَّ للكونِ أقطابًا أربعةً وأنَّ ربَّما في ربعِ العالمِ المُسؤولُ عن فلانٍ وفي الرُّبعِ الثَّاني المُسؤولُ عن فلانٍ وإلىٰ آخره، فجعلوا لهم نصيبًا من المُلكِ، جعلوا لهم نصيبًا من الرُّبوبيَّة، وجعلوا لهم أيضًا نصيبًا من الإلهيَّة؛ قد تقرَّبوا إليهم بأنواعِ القُربات من الذَّبحِ والاستغاثةِ والتَّذلُّلِ والخُضوعِ والمَحبَّةِ والتَّوكُّلِ والرَّغبِ والرَّهبِ وخوفِ السِّرِّ، إلىٰ آخرِ أنواعِ العباداتِ القلبيَّةِ والعمليَّةِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا -فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾[نوح]، قَالَ: (هٰذه أَسْمَاءُ

رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ)) إلىٰ آخرِ ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

هٰذه القصَّةُ أو هٰذا الأثرُ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مَحمولٌ علىٰ الرَّفعِ؛ لأنَّ هٰذا خبرٌ غَيبيٌّ، وهٰذا الخبرُ الغَيبيُّ فيه أنَّه لا يُستقىٰ إلَّا من مِشكاةِ النُّبوَّةِ.

ووَدٌّ وسُواعٌ ويَغوثُ ويَعوقُ ونَسرٌ هٰذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قومِ نوحٍ، نوحٌ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أتىٰ بالرِّسالة بأن يُعبَدَ اللهُ وحدَه دون ما سِواه بالتَّوحيدِ، فكيف دخلَ الشِّركُ في قومِ نوحٍ؟

في القرآنِ ذكرٌ لأصلين من أصولِ الشِّركِ -وثَمَّ غيرُهما أيضًا:

الأصلُ الأوَّلُ: شركُ قومِ نوحٍ.

والأصلُ الثَّاني: شركُ قومِ إبراهيمَ.

وشركُ قومِ نوحٍ كان بالصَّالحين؛ بالغُلوِّ في الصَّالحينَ وأرواحِ الصَّالحينَ، فجاءَهم الشَّيطانُ من جهةِ روحِ ذلك العبدِ الصَّالح وأثرِ تلكَ الرُّوحِ وأنَّ من تَعلَّقَ به فإنَّه يشفعُ له، ثمَّ ساقَهم من ذلك التَّعظيمِ إلىٰ الصُّوَرِ والأنصابِ والأوثانِ والأصنامِ.

والنَّوعُ الثَّاني: شركُ قومِ إبراهيمَ، وذلكَ شركٌ في التَّأثير من جهةِ النَّظرِ في الكواكبِ ومن يُؤثِّر ويُحرِّك، فهٰذا شركٌ في الرُّبوبيَّةِ، وما تبعَه من الشِّركِ في الإلهيَّةِ؛ لأنَّهم جعلوا لِتلكَ الكواكبِ أصنامًا وجَعلوا لها صُوَرًا، جعلوها أوثانًا فعبدُوها من دونِ الله جَلَّوَعَلَا وتوجَّهُوا إليها.

وأمَّا قومُ نوحٍ فكانَ شركُهم في الصَّالحين، في الغُلوِّ في الصَّالحينَ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ هنا في بيانِ أصلِ وقوعِ هٰذا الشِّركِ (فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ؛ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ)).

الشَّاهدُ من هٰذا أنَّ أولئكَ توجَّهوا إلىٰ الصُّوَرِ -صُوَرِ الصَّالحين- فكانوا أهلَ علمٍ يعلمون أنَّهم إذا اتَّخذوا الصُّوَرَ فإنَّهم لن يعبُدوها؛ لكنْ كانت الصُّوَرُ تلكَ للصَّالحين وللمُعظَّمين وسيلةً وطريقًا وسببًا لأنْ عُبِدَت في المُستقبَل لمَّا نُسيَ العلمُ، والشَّيطانُ ربَّما أتىٰ إلىٰ الصُّورةِ فجعلَ في عَينَي النَّاظرِ إليها والمُخاطِبِ لها أنَّها تتحدَّثُ وأنَّ فمَ المُصوَّر يتكلَّمُ وأنَّه يُسمَعُ منه وأنَّه يُسمَعُ منه كلامٌ ونحوُ ذلك من الأشياءِ وأصنافِ التَّصرُّفاتِ الَّتي تجعلُ القلوبَ تتعلَّقُ بتلكَ الرُّوحانيَّات -كما يقول- وتلكَ الأرواحِ، فيُغرىٰ أولئكَ بهم.

وهٰذا هو الَّذي حصلَ عند القومِ الَّذين عَكفوا علىٰ القُبور وعبدوا أهلَها مع الله جَلَّوَعَلَا، يأتي ويقولُ: ذهبتُ إلىٰ القبرِ الفُلانيِّ فكلَّمني أبي. وهو شيطانٌ نطقَ علىٰ لسانِ أبيه، وربَّما تصوَّر بصورةِ أبيه فخرجَ له في ظلامٍ ونحوِه، فيُحدِّثُه أبوه بصوتِه الَّذي يعرفُه، أو يُحدِّثُه العالمُ أو الوَليُّ بصوتِه الَّذي يعرفُه منه، فتقعُ الفتنةُ وهٰذا من الشَّيطانِ.

ولهٰذا قال ابنُ عبَّاسٍ هنا كلمةً تُبيِّن السَّببَ في ذلك فقال: (أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) والوَحيُ إلقاءٌ في الخفاءِ، الشَّيطانُ ما يتحدَّثُ علنًا، (أَوْحَىٰ) يعني ألقىٰ في خفاءٍ، الوَحيُ؛ هو: **إلقاءُ الخبرِ في خفاءٍ**، فألقىٰ في رُوعِهم، ألقىٰ في أنفُسِهم، ذلك الأمرَ فكان سببًا للشِّركِ بالله جَلَّوَعَلَا.

أوَّلُ الأمرِ ما عُبدَتْ، جُعلت وسائلُ الشِّركِ من الصُّوَرِ والأنصابِ والتَّسميةِ بأسماءِ الصَّالحينِ، وكان ذلك وسيلةً إلىٰ الشِّرك، لم تُعبَد جعلوا الوسائلَ؛ لكنْ عندَهم من العلمِ ما يحجزُهم عن أن يعبُدوا أولئكَ الصَّالحينَ؛ لكن لمَّا نُسِيَ العلمُ عُبدَتْ.

وهٰذا الفعلُ الَّذي فعلوه بإيحاءِ الشَّيطانِ كان من الغُلوِّ في أولئك الصَّالحين، وهٰذا وجهُ الشَّاهدِ من أنَّهم لمَّا ماتوا عَكفوا علىٰ قُبورهم أو صَوَّروا تلك الصُّوَرَ أو نصبوا الأنصابَ في أماكنِهم ليتذكَّروهم ويكونُ أنشطَ لهم في العبادةِ أو العلمِ؛ ولكنَّهم لمَّا فعلوا ذلكَ كان ذلكَ سببًا من أسبابِ العبادةِ؛ لأنَّهم غَلَوْا في الصَّالحين. وهٰذا مُرادُ الشَّيخِ رَحِمَهُٱللَّهُ من إيرادِ هٰذا الأثرِ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَعَنْ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»)، قولُه: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ) فيه نهيٌ عن إطرائِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

والإطراءُ: هو مُجاوزةُ الحدِّ -أيضًا- في المَدحِ.

الغُلوُّ عامٌّ في أشياءَ كثيرةٍ قد يكونُ في المدحِ، قد يكونُ في الذَّمِّ، قد يكونُ في الفهمِ، قد يكونُ في العلمِ، قد يكونُ في العملِ.

لكنَّ **الإطراءَ الغُلوُّ في المَدحِ، الغُلوُّ في الثَّناءِ، الغُلوُّ في الوصفِ**، والنَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ نهىٰ عن إطرائِه كإطراءِ النَّصارىٰ ابنَ مريمَ، وقال: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

قولُه هنا: «**كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ**».

- الكافُ هنا بعضُ النَّاسِ يظنُّ أنَّها كافُ المِثليَّة؛ يعني: لا تُطروني بمثلِ ما أطرَتِ النَّصارىٰ ابنَ مريمَ ويقولُ: إنَّ النَّصارىٰ أطرَتِ ابنَ مريمَ في شيءٍ واحدٍ وهو أنْ قالوا: إنَّه ولدٌ لله جَلَّوَعَلَا. والنَّبيُّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهيَ أن تُجعَلَ له رُتبةُ البُنوَّةِ، فإذا كان كذلكَ ما عداهُ فجائزٌ وهٰذا هو قولُ الخُرافيِّين، كما قال البوصيريُّ في هٰذا المَقام:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَىٰ فِي نَبِيِّهِمِ وَاحْكُمْ كَمَا شِئْتَ فِيهِ وَاحْتَكِمِ(1)

يعني لا تقُلْ: إنَّه ولدٌ لله أو أنَّه ابنُ الله، وبعدَ ذلكَ قلْ ما شئتَ غيرَ مَلومٍ وغيرَ مُثرَّبٍ عليك.

◆ الوجه الثَّاني: -وهو الفهمُ الصَّحيحُ وهو الَّذي يدلُّ عليه السِّياقُ- أنَّ الكافَ هنا هي كافُ القياسِ، لا تُطروني إطراءً كما أطرَتِ النَّصارىٰ ابنَ مريمَ، **وكافُ القياسِ هي كافُ التَّمثيلِ النَّاقصِ** بأن يكونَ هناك شَبَهٌ بين ما بعدَها وما قبلَها في أصلِ الفعلِ «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ» فهنا نهىٰ أنْ يُطرَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما حصلَ أنَّ النَّصارىٰ أطرَتْ، فهوَ تمثيلٌ للحدثِ بالحدثِ، لا تمثيلٌ أو نهيٌ عن نوعِ الإطراءِ، قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ» فنهىٰ عن إطراءٍ له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأجلِ أنَّ النَّصارىٰ أطرَتِ ابنَ مريمَ فقادَهم ذلكَ إلىٰ الكُفرِ والشِّركِ بالله وادِّعاءِ أنَّه ولدٌ لله جَلَّ وَعَلَا، ولهٰذا قال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

فإذن الكافُ هنا ليسَتْ كافَ التَّمثيلِ الكاملِ بأن يكونَ ما بعدَها مُماثِلًا لما قبلَها تمامًا؛ يعني في الوَصفِ، وإنَّما هي كافُ التَّمثيلِ الَّذي يكونُ ما بعدَه مُشتركًا مع ما قبلَه في المعنىٰ، وهي القياسيَّةُ الَّتي تجمعُها العلَّةُ، ولهٰذا يقولُ الفُقهاءُ كما هو المَعلومُ: هٰذا كذا كهٰذا، يقولُ مثلًا: نبيذُ غيرِ التَّمرِ والعنبِ كنبيذِ التَّمرِ والعنبِ. مُساواةً بين هٰذا وهٰذا لوجودِ أصلِ المَعنىٰ بينَهُما، وهنا نَهيٌ عن الإطراءِ لأجلِ وجودِ أصلِ الإطراءِ في الاشتراكِ بينَ إطراءِ النَّصارىٰ وما سبَّبه من الشِّركِ وإطراءِ ما لو أُطريَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سيُسبِّبُه من الشِّركِ.

والأمَّةُ في الأكثر من طوائِفِها خالَفت ذلك وأطرَتِ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إطراءً حتَّىٰ بلغَ أنْ جعلوا من علومِه علمَ اللَّوحِ والقَلمِ، وأنْ جعلوا من جُودِه الدُّنيَا وضَرَّتَها، وأنْ جعلوا له من المِلْكِ نصيبًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتعالىٰ عمَّا يقولُ الظَّالمون عُلُوًّا كبيرًا.

أرشدَهم بقوله: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» وهٰذا هو الكمالُ في حقِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنْ يكونَ رسولًا، هٰذا أشرفُ مَقاماتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال المُؤلِّفُ: (**قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ**

(1) دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَىٰ فِي نَبِيِّهِمِ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ

كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ») هٰذا نهيٌ عن الغُلوِّ بأنواعِه وأنَّ من قبلَنا إنَّما أهلكَهم الغُلوُّ؛ أهلكَهم من جهةِ الدِّينِ، وأهلكَهم أيضًا من جهةِ الدُّنيا أنَّهم غَلَوا في دينِهم، فالغُلوُّ سببٌ لكلِّ شرٍّ والاقتصادُ سببٌ في كلِّ فلاحٍ وخيرٍ، والغُلوُّ مَنهيٌّ عنهُ بجميع صُوَرِه في الأقوالِ والأعمالِ، أقوالِ القلبِ وأعمالِ القُلوبِ، وكذلكَ أقوالُ اللِّسانِ وأعمالُ الجوارحِ فالغُلوُّ سببٌ للهلاكِ -هلاكِ العبدِ في دينِه ودُنياهُ.

[الدَّليلُ الخامس] قال: (وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا) هٰذه الكلمة «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» يعني الَّذين تنطَّعوا فيما يَأتون به -في أفعالِهم أو أقوالِهم-، وهم الَّذين جاوزوا الحدَّ في ذلكَ، وابتَغَوْا علمَ شيءٍ أو تكلَّفوا شيئًا لم يأذنْ به اللهُ، فزادوا عمَّا أذنَ لهم فأتَوْا بأشياءَ لم يُؤذَنْ لهم فيها.

والتَّنطُّعُ والإطراءُ والغُلوُّ مُتقاربَةٌ يجمعها الغُلوُّ؛ الغُلوُّ يشملُ الإطراءَ ويشملُ التَّنطُّعَ، فكلُّ تنطُّعٍ وكلُّ إطراءٍ غُلوٌّ، والغُلوُّ اسمٌ جامعٌ لهٰذه جميعًا.

فالشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ في هٰذا البابِ بيَّن أنَّ سببَ كفرِ بني آدمَ وسببَ تركِهم دينَهم هو الغُلوُّ في الصَّالحينَ بأنْ جاوزوا الحدَّ فيهم.

جاوزَ قومُ نوحٍ الحدَّ في الصَّالحينَ فيهم فعَكفوا علىٰ قُبورهم وألَّهوها فصارتْ آلهةً.

والنَّصارىٰ غَلَتْ في رسولِهم عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وفي الحَواريِّين وفي البَطارقةِ حتَّىٰ جعلوهم آلهةً مع الله جَلَّوَعَلَا؛ يَستغيثون بهم ويُؤلِّهونَهم ويَسألونَهم ويَعبدونَهم.

وكذلك في هٰذه الأمَّةِ جُعلَ للنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ نصيبٌ من خصائصِ الإلٰهِ وهٰذا هو عينُ ما نهىٰ عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقولِه: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

وفي هٰذا القدرِ كفايةٌ وأسألُ اللهَ لي ولكم عمومَ الانتفاعِ والعلمِ والعملِ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



الدرس العاشر

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهُداهُ.

أمَّا بعد:

20- بَابٌ

مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟

[1] فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ».

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبور، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيل.

[2] وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: (لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعَنَةُ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ.

[3] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبور مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَدْ نَهَىٰ عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ؛ وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهَا: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا.

وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

[4] وَلِأَحْمَدَ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبور مَسَاجِدَ». رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

هٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟**)، هٰذا البابُ مع الأبوابِ بعدَه في بيانِ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ حَريصًا علىٰ هٰذه الأمَّةِ وكانَ بالمؤمنينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رؤوفًا رحيمًا، ومن تمامِ حرصِه علىٰ الأمَّة أنْ حذَّرهم كلَّ وسيلةٍ من وسائلِ الشِّركِ الَّتي تصلُ بهم إلىٰ الشِّركِ، وسدَّ جميعَ الذَّرائعِ الموصِلةِ إلىٰ الشِّركِ، وغلَّظ في ذلكَ وشدَّدَ فيه وأبدىٰ وأعادَ حتَّىٰ إنَّه بيَّن ذلكَ خشيةَ أن يَفوتَ تأكيدُه وهو في النَّزعِ وهو يُعاني سَكراتِ المَوتِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فهٰذه الأبوابُ في بيانِ وسائلِ الشِّركِ الأكبرِ، وأنَّ الشِّركَ الأكبرَ له وسائلُ وله ذرائعُ يجبُ سدُّها ويجبُ منعُها رِعايةً وحِمايةً للتَّوحيدِ؛ ولأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غلَّظ فيمن يفعلون شيئًا من تلكَ الوسائلِ أو الذَّرائعِ الموصِلةِ إلىٰ الشِّركِ.

هٰذا البابُ في بيانِ أحد الوسائلِ الموصِلةِ إلىٰ الشِّركِ والذَّرائعِ الَّتي يجبُ منعُها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابٌ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ**)، صورةُ ذلك: أنْ يأتيَ إلىٰ قبرِ رَجلٍ صالحٍ يعلمُ صلاحَه -إمَّا أن يكونَ من الأنبياءِ والمُرسلينَ، أو أنْ يكونَ من صالحي هٰذه الأمَّةِ، أو صالحي أمَّةٍ غيرِ هٰذه الأمَّةِ- فيتحرَّىٰ ذلك المكانَ لكيْ يَعبُدَ اللهَ وحدَه دونَ ما سِواه، فيأتي إلىٰ هٰذا القبرِ أو يأتي إلىٰ هٰذه البُقعةِ لكي يَعبُدَ الله فيها رجاءَ بركةِ هٰذه البُقعةِ، وهٰذا يروجُ عند كثيرينَ في أنَّ ما حولَ القُبور -قُبور الصَّالحينَ أو قُبور الأنبياءِ- مُباركٌ وأنَّ العبادةَ عندَها ليست كالعبادةِ عندَ غيرِها، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غلَّظ في ذلكَ مع أنَّ المُغلَّظ عليه لم يَعبُدْ إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا ولم يَعبُدْ صاحبَ القبرِ؛ لكنَّه اتَّخذَ ذلك المكانَ رجاءَ بَركتِه ورجاءَ تَنزُّلِ الرَّحماتِ -كما يقولون- ورجاءَ تَنزُّلِ النَّسماتِ والفضلِ من الله عليه واختارَه لأجلِ بَركتِه؛ ولكنَّه لم يَعبُدْ إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا، ومعَ ذلكَ لعنَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الصِّنفَ الَّذين يتَّخذون قُبورَ أنبيائِهم وصالِحيهم مَساجِدَ.

وقوله هنا: (**فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ**) يعني لم يُشرِكْ بالله، عبدَ الله وحدَه، صلَّىٰ لله مُخلِصًا، أو دعا الله مُخلِصًا، أو تضرَّعَ واستغاثَ واستعاذَ لله جَلَّ وَعَلَا مُخلِصًا عندَ قبرِ رجلٍ صالحٍ؛ لكنَّه تحرَّىٰ القبرَ لأجلِ البَركةِ.

والرَّجلُ الصَّالحُ -كما سبقَ أنْ ذكرنا- هو **المُقتصِدُ الَّذي أتىٰ بالواجباتِ وابتعدَ عن المُحرَّماتِ، وأعلىٰ منهُ درجةً السَّابقُ بالخيراتِ**، فالصَّالحونَ من الرِّجالِ والنِّساءِ مَقاماتٌ؛ هم درجاتٌ عندَ الله.

وبعضُ أهلِ العلمِ يُعبِّرون بتعريفِ الرَّجلِ الصَّالح بقولِه: **الصَّالحُ من عبادِ الله هو القائمُ بحقوقِ الله**

القائمُ بحقوقِ عبادِه. وهٰذا صحيحٌ؛ ولأنَّ المُقتصِدَ قائمٌ بحقوقِ الله قائمٌ بحقوقِ عبادِه، أتىٰ بالواجباتِ وانتهىٰ عن المُحرَّماتِ، وأعظمُ منه درجةً السَّابقُ بالخَيراتِ.

فأهل السَّبقِ بالخَيراتِ من العبادِ الصَّالحين لا يجوزُ أن تُعظَّمَ قُبورهم وأن يُغلَىٰ فيها بظنٍّ أنَّ البُقعةَ الَّتي حولَ القبرِ بُقعةٌ مُباركةٌ؛ لأنَّ هٰذا جاء فيه الوعيدُ الَّذي يأتي في هٰذا البابِ وغلَّظَ فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: (**فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟**) يعني: هٰذا التَّغليظُ جاءَ فيمنِ اتَّخذَ قُبور الأنبياءِ والصَّالحينَ مَساجِدَ، ومن أسرجَ علىٰ القُبور أو من عظَّمَ القُبور وعظَّمَ من فيها وعبدَ الله جَلَّ وَعَلَا عندَها؛ عبدَ الله وحدَه، جاءَ فيه اللَّعنُ وجاءَ فيه أنَّه من شِرارِ الخلقِ عندَ الله.

فكيف إذا توجَّه ذلكَ العابدُ، إلىٰ صاحب القبرِ يَدعوه، أو يَرجوه، أو يَخافُه، أو يأملُ منه، أو يستغيثُ به، أو يُصلِّي له، أو يَذبحُ له، أو يَستشفِعُ به؟ لاشكَّ أنَّ هٰذا أعظمُ وأعظمُ في التَّغليظِ من عبادةِ الله وحدَه عندَ قبرِ رجلٍ صالحٍ.

لهٰذا قال الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: من تأمَّلَ هٰذه الأحاديثَ الَّتي ستَرِدُ فإنَّه – هٰذا مُقتضىٰ كلامِ الشَّيخِ في التَّبويبِ- يجدُ أنَّ التَّغليظَ يكون أشدَّ وأشدَّ لو كانَ في القلوبِ إيمانٌ ومَحبَّةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون أشدَّ وأشدَّ إذا عُبِدَ صاحبُ ذلكَ القبرِ، فإذا صُلِّيَ له هل هو بمَنزلةِ من صلَّىٰ عندَه؟ ذاكَ وسيلةٌ وهٰذا غايَةٌ هٰذا شركٌ أكبرُ، فأولئكَ شرارُ الخلقِ عندَ الله مع أنَّهم فعلوا وسائلَ الشِّركِ ووسائلَ المُحرَّماتِ، فكيف بمن فعلَ الشِّركَ الأكبرَ بعينِه وتوجَّه إلىٰ قُبور الصَّالحينَ واتَّخذَها أوثانًا مع الله جَلَّ وَعَلَا؟ لاشكَّ أنَّ هٰذا أبلغُ وأبلغُ في التَّغليظِ؛ وذلكَ لأنَّه من الشِّركِ الأكبرِ المُخرِجِ مِن ملَّةِ الإسلامِ إذا فعلَه مُسلمٌ.

قال: (**فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟**)، (**عَبَدَهُ**)؛ يعني: عبدَ القبرَ أو عبدَ الرَّجلَ؛ لأنَّ العبادةَ -عبادةَ القُبوريِّينَ- تارةً تتوجَّه إلىٰ القبرِ، وتارةً تتوجَّه إلىٰ صاحبِ القبرِ؛ بل وتارةً تتوجَّه إلىٰ ما حولَ القبرِ، فالأبنيَةُ المُحاطَةُ بالقُبور في قُبور الأولياءِ عندَهم الَّتي بُنِيَتْ علىٰ القُبور وصارت مَشاهِدَ تارةً تُتَّخَذُ تلكَ السُّتورُ الحديديَّةُ أنَّها آلهةٌ، فإذا تمسَّحوا بها رَجَوْا منها البَركةَ واتَّخذوها وسيلةً إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، يَعكُفون عندَها فيتَّخذونَ تلكَ المَشاهِدَ أوثانًا يَعبُدونَها ويَرجونَها ويَخافونَها، وإذا ضمَّ أحدُهم إلىٰ صدرِه تلكَ المَشاهِدَ أو الحديدَ أو السُّتورَ ونحوَ ذلك فكأنَّه صارَ مُقرَّبًا عند الله وقُبِلَتْ وَسيلَتُه تلكَ، وهٰذا نوعٌ من أنواعِ اتِّخاذِ المَشاهِدِ أوثانًا.

كذلك اتِّخاذُ القُبور أوثانًا، أو اتِّخاذُ الرَّجلِ الصَّالحِ الَّذي هو مُتبرِّئٌ من أولئكَ ومن عبادتِهم له، يتَّخذونَهم آلهةً مع الله إذا توجَّهوا إليهم بالعبادةِ، وقد علِمْنا أنَّ العبادةَ مَعناها واسعٌ، وأنَّه قد تكونُ

بالصَّلاة له، أو بدَعوتِه، بسُؤالِه، بطلبِه كشفَ المُدْلَهِمَّاتِ أو جلبَ الخَيراتِ، أو الذَّبحِ له، أو وضعِ النُّذورِ له ونحوِ ذلك من أنواعِ العبادةِ.

وهٰذا هو الواقعُ عندَ أولئكَ الَّذين يعبُدون الأوثانَ وقُبور الصَّالحينَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْـحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ») أمُّ سلمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لمَّا كانت في الحَبَشَةِ رأت كنيسةً، ورأت في تلكَ الكنيسةِ صُوَرَ الصَّالحينَ، فذكرت ذلكَ لرسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ»، قد يكون نبيًّا من أنبيائِهم أو عبدًا من عبادِ الله الصَّالحينَ فيهم، ماذا عمِلوا معه؟ قال: «بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا» فيجعَلون المَسجِدَ وهو مكانُ العبادةِ في اللُّغةِ بما يدخلُ فيه الكنيسةُ.

مكانُ العبادةِ يُقالُ له: مَسجِدٌ، والمَسجِدُ مكانُ السُّجودِ، والسُّجودُ هو الخُضوعُ والتَّذلُّلُ لله جَلَّوَعَلَا، فالمَسجِدُ يُطلَقُ علىٰ كلِّ مكانٍ يُعبَدُ فيه، كلُّ مكانٍ يُتَّخذُ لعبادةِ الله جَلَّوَعَلَا، كما قال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» فمكانُ العبادةِ يُقالُ له: مَسجِدٌ.

فالكنيسةُ هنا قال النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في شأنِها بَنَوْا علىٰ قبرِه مَسجِدًا؛ يعني: مكانًا للعبادةِ.

فإذن الكنائسُ بُنِيَتْ علىٰ القُبور -قُبور أولئكِ الصَّالحينَ- وصَوَّروا فيها الصُّوَرَ، جعلوا صورةَ ذلك العبدِ علىٰ قبرِه أو فوقَ قبرِه علىٰ الحائطِ؛ لكي يدلُّوا النَّاسَ علىٰ عبادةِ الله بتعظيمِ ذلك الرَّجلِ الصَّالحِ وتعظيمِ قبرِه، فاتَّخذوا البناءَ علىٰ القُبور الَّذي هو وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ الأكبرِ ومن البدعِ الَّتي يُحدِثُها الخلوفُ بعد الأنبياءِ، اتَّخذوا ذلكَ فوقَ القُبور وتعبَّدوا فيها، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أُولَئِكِ شِرَارُ الْـخَلْقِ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا»، «أُولَئِكِ» الخطابُ لأمِّ سلمةَ، والخطابُ إذا توجَّهَ إلىٰ مُؤنَّثٍ تُكسَرُ فيه الكافُ -كافُ الخطابِ- «أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ» من هم شرارُ الخلقِ عندَ الله؟ هم الَّذين عظَّموا الصَّالحينَ فبَنَوْا علىٰ قُبورهم مَساجِدَ، هل في هٰذا الحديثِ أنَّهم توجَّهوا بالعبادةِ لأولئكَ الصَّالحينَ؟ لا؛ إنَّما عظَّموا قُبور الصَّالحينَ وجعلوا لهم صُوَرًا، فجمعوا بينَ فِتْنَتَيْنِ فتنةِ القُبور وفتنةِ الصُّوَرِ.

وفتنةُ الصُّوَرِ وسيلةٌ من وسائلِ حُدوثِ الشِّركِ الأكبرِ.

وكذلك فتنةُ القُبور بالبناءِ عليها، وبتَعظيمِها، وبإرشادِ النَّاسِ لها، هٰذا وسيلةٌ إلىٰ أنْ يُعتقَدَ في صاحبِ القبرِ أنَّ له شيئًا من خصائصِ الإلهيَّةِ، أو أنَّه يتوسَّطُ عندَ الله جَلَّوَعَلَا في الحاجاتِ، كما حصلَ

ذلك فِعلًا.

قال المُصنِّفُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبور، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ) وهٰذا هو الواقعُ، وهٰذا التَّغليظُ في أنَّهم شرارُ الخلقِ عندَ الله.

هٰذا نفهمُ منه التَّحذيرَ: تَحذيرُ هذه الأمَّةِ أن يَبْنُوا علىٰ قبرِ أحدٍ مَسجِدًا؛ لأنَّه إن بُنِيَ علىٰ قبرِ أحدٍ مَسجِدٌ، فإنَّه من بنىٰ ذلكَ ودلَّ الخلقَ علىٰ تعظيمِ ذلكَ القبرِ فإنَّه من شرارِ الخلقِ عندَ الله، وقد قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ».

فإذًا وجهُ الدِّلالةِ من هٰذا الحديثِ أنَّه قالَ: «أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ» وهٰذا تغليظٌ فيمن عبدَ اللهَ في الكنيسةِ الَّتي فيها القُبور والصُّوَرُ، والقُبور والصُّوَرُ من وسائلِ الشِّركِ بالله جَلَّ وَعَلَا.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَلَهُمَا عَنْهَا) يعني عن عائشةَ (قَالَتْ: (لَـمَّا نُـزِلَ بِرَسُـولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعني نزلَ به المَوتُ (طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعَنَةُ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ») هٰذا الحديثُ من أعظمِ الأحاديثِ الَّتي فيها التَّغليظُ في وسائلِ الشِّركِ وبناءِ المَساجِدِ علىٰ القُبور واتِّخاذِ قُبور الأنبياءِ والصَّالحينَ مَساجِدَ.

ووَجهُ ذلكَ أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو في ذلكَ الغَمِّ وتلكَ الشدَّةِ ونزولِ سكراتِ المَوتِ به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُعانيها لم يَغفلْ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ بل اهتمَّ اهتمامًا عظيمًا وهو في تلكَ الحالِ بتحذيرِ الأمَّةِ من وسيلةٍ من وسائلِ الشِّركِ، وتوجيهِ اللَّعنِ والدُّعاءِ علىٰ اليَهودِ والنَّصارىٰ بلَعنةِ الله؛ لأنَّهم اتَّخذوا قُبور أنبيائِهم مَساجِدَ، سببُ ذلك أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في تلك الحال يخشىٰ أن يُتَّخذَ قبرُه مَسجِدًا كما اتُّخِذت قُبور الأنبياءِ قبلَه مَساجِدَ.

ومن الَّذي اتَّخذ قُبور الأنبياءِ مَساجِدَ؟ شرارُ الخلقِ عندَ الله من اليَهودِ والنَّصارىٰ الَّذين لعنَهم النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: «لَعَنَةُ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ»، **واللَّعنةُ هي الطَّردُ والإبعادُ من رحمةِ الله،** وذلك يدلُّ علىٰ أنَّهم فعلوا كبيرةً من كبائرِ الذُّنوبِ وهٰذا كذلكَ؛ فإنَّ البناءَ علىٰ القُبور واتِّخاذَ قُبور الأنبياءِ مَساجِدَ؛ هٰذا من وسائلِ الشِّركِ وهو كبيرةٌ من الكبائرِ، قال: «اتَّخَذُوا قُبورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، فإذن سببُ اللَّعنِ أنَّهم اتَّخذوا قُبور الأنبياءِ مَساجِدَ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَلعنُ ويُحذِّرُ وهو في ذلك المَوقفِ العَصيبِ، فقام ذلكَ مَقامَ آخرِ وصيَّةٍ أوصىٰ بها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ألَّا تُتَّخذَ القُبور مَساجِدَ فخالفَ كثيرٌ من الفِئامِ في هٰذه الأمَّةِ وصيَّةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: «اتَّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» اتِّخاذُ القُبور مَساجِدَ يكونُ علىٰ أحدِ ثلاثةِ صُوَرٍ:

الصُّورةُ الأولىٰ: أن يَسجُدَ علىٰ القبرِ؛ يعني يجعـلَ القـبرَ مكـانَ سُـجودِه، «اتَّخـذُوا قُبـور أَنْبِيَـائِهِمْ مَسَاجِدَ» يعني جعلوا القبرَ مكانَ السَّجودِ، هٰذه صورةٌ، وهٰذه الصُّورةُ في الواقعِ لم تحصـل بانتشـارٍ؛ لأنَّ قُبور الأنبياءِ في اليَهودِ والنَّصارىٰ لم تكنْ مُباشِرةً للنَّاس يُمكنُ أن يَصِلُوا إلىٰ القبرِ وأنْ يسجُدوا عليهِ؛ بـل كانوا يُعظِّمون قُبور أنبيائِهم فلا يُصَلُّون عليها مُباشرةً؛ لكنَّ قولَه: «اتَّخَذُوا قُبـور أَنْبِيَـائِهِمْ مَسَـاجِدَ» أبلـغُ صورةٍ أن يُتَّخذَ القَبْرُ نفسُه مَسجِدًا يعني يُصلِّي عليهِ مُباشرةً، وهٰذه أفضعُ تلك الأنـواعِ، وهـي الَّتـي تـدلُّ علىٰ أعظمِ وسيلةٍ من وسائلِ الشِّركِ والغُلوِّ بالقبرِ.

الصُّورةُ الثَّانيةُ: أن يُصلِّيَ إلىٰ القبرِ، أنْ يتَّخذَ القبرَ مَسجِدًا؛ يعني: أنْ يكون أمامَ القبرِ يُصلِّي إليه، فإنَّه اتَّخذَ القبرَ -وما حولَه له حُكمُه- اتَّخذهُ مكانًا للتَّذلُّلِ والخُضوعِ، والمَسجِدُ لا يُعنىٰ به مكانُ السُّجودِ الذي هو وضعِ الجبهةِ علىٰ الأرضِ فقط وإنَّما يعني به مكانَ التَّذلُّلِ والخُضوعِ، فاتَّخذوا قُبورهم مَساجِدَ يعني جَعلوها قِبلةً لهم، ولهٰذا نهىٰ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُصلَّىٰ إلىٰ القبرِ لأجلِ أنَّ الصَّلاةَ إليه وسيلةٌ من وسائلِ التَّعظيمِ، وهٰذا يُوافِقُ قولَ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ في البابِ: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ**) قولُه: (عندَ قبرِه) نفهمُ منه هٰذه الصُّورةَ الَّتي هي أنْ يكونَ أمامَه القبرُ بينَه وبينَ القِبلةِ تعظيمًا للقبرِ.

الصُّورةُ الثَّالثةُ: أن يتَّخذَ القبرَ مَسجِدًا بأنْ يجعلَ القبرَ في داخلِ بناءٍ وذلك البناءُ هو المَسجِدُ، فإذا دُفِنَ النَّبيُّ قام أولئكَ بالبناءِ عليه، فجعلوا حولَ قبرِه مَسجِدًا واتَّخذوا ذلكَ المكانَ للتَّعبُّدِ وللصَّلاةِ فيه، هٰذه هي الصُّورةُ الثَّالثةُ، وهي أيضًا مُوافقتُه لقولِ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ: (**عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ**).

وهٰذا يُبيِّن لك بعضَ المُناسبةِ في إيرادِ هٰذا الحديثِ تحتَ البابِ.

قال: **قَالَتْ عَائِشَةُ**: (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) يعني ما سببُ اللَّعنِ؟ لماذا لعنَ النَّبـيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اليَهـودَ والنَّصارىٰ في ذلكَ المَقامِ العظيمِ -وهو أنَّه في سَكَراتِ المَوتِ-؟ السَّببُ أنَّه يُريدُ أن يُحذِّرَ الصَّحابةَ مـن ذلكَ، قالت: (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا)، وقد قبلَ الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم تحذيرَه وعَمِلُوا بوَصيَّتِه.

قالت: (وَلَوْلَا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ)، (أُبْرِزَ قَبْرُهُ)؛ يعني: أُظهِرَ وجُعِلَ قبرُه مـع سـائرِ القُبـور في البقيـعِ أو نحوِ ذلك؛ ولكنْ كان من العِلَلِ الَّتي جعلتهم لا ينقلُونَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من مكانِه الَّذي يُتوفَّىٰ فيـهِ قولُـه هنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («لَعَنَةُ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَـنَعُوا،

وَلَوْلَا ذَٰلِكَ (لَأُبْرِزَ) [1] قَبْرُهُ) فهٰذه أحدُ العِلَّتين.

والعِلَّةُ الثَّانيةُ قولُ أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إنَّه سمعَ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ يُقْبَرُونَ حَيْثُ يُقْبَضُونَ».

قالت: (غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ) هنا أو (خُشِيَ) تُروىٰ بالوجهين، (غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ) يعني: عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ (أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) يعني أن يُتَّخذَ قبرُه مَسجِدًا، ويجوزُ أن تقرأها (غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) يعني خشيَ الصَّحابةُ أن يُتَّخذَ قبرُه مَسجِدًا، وهٰذا تنبيهٌ علىٰ إحدىٰ العِلَّتين.

الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم قبلوا هٰذه الوصيَّةَ، وجعلوا دفنَه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في مكانِه، وحُجرةُ عائشةَ الَّتي دُفِنَ فيها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كانت عائشةُ تُقيمُ أو أقامتْ جِدارًا بينَها وبين القُبور، فكانت غرفةُ عائِشةَ فيها قِسمانِ قسمٌ فيه القبرُ وقسمٌ هي فيه.

كذلك لمَّا تُوفِّيَ أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ودُفِنَ بعدَ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -من جهةِ الشَّمالِ-، كانت أيضًا في ذلكَ المَقامِ في جزءٍ من الغُرفةِ من الحُجرةِ.

ثمَّ بعد ذلك لمَّا دُفِنَ عمرُ تركتِ الحُجرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

ثمَّ أُغلقتِ الحُجرةُ، فلم يكن ثمَّ بابٌ فيها يُدخَلُ وإنَّما كان فيها نافذةٌ صَغيرةٌ، وكانت الحُجرةُ -كما تَعلمونَ- من بناءٍ ليس من حَجَرٍ ولا من بناءٍ مُجَصَّصٍ وإنَّما كانت من البناءِ الَّذي كان في عهدِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من خشبٍ ونحوِ ذلك.

ثمَّ بعد ذلكَ لمَّا جاءت الزِّيادةُ في المسجدِ النَّبويِّ في عهدِ الوليدِ بن عبدِ الملكِ، وكان أميرُ المدينةِ يومَ ذاك عمرُ بن عبد العزيزِ رَحِمَهُٱللَّهُ، وأخذوا شيئًا من حُجَرِ زوجاتِ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بقيت حُجرةُ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كذلكَ، فأخذوا من الرَّوضةِ -رَوضةِ المَسجِدِ- أخذوا منها شيئًا وجعلوا عليه بناءً، فبَنَوْهُ من ثلاثِ جهاتٍ، جدارٌ آخرُ غيرَ الجدارِ الأوَّلِ، بَنَوْهُ من ثلاثِ جهاتٍ، وجعلوا الجهةَ الَّتي تكونُ شمالًا -يعني من جهةِ الشَّمالِ- جعلوها مُسنَمَةً؛ جعلوها مُثلَّثةً قائمةً هكذا، وصارَ عندنا الآنَ جداران:

الجدارُ الأوَّلُ مُغلقٌ تمامًا، وهو جدارُ حُجرةِ عائشةَ.

والجدارُ الثَّاني الَّذي عُمِلَ في زمنِ عُمرَ بن عبدِ العزيزِ رَحِمَهُٱللَّهُ ورضي عنه في زمنِ الوليدِ بن

---

(1) في نسخة الشيخ صالح آل الشيخ: أبرز. دون لام.

عبدِ الملكِ، جعلوا جهةَ الشَّمالِ -وهي عكسُ جهةِ القِبلةِ- جعلوها مُسنَمةً؛ لأنَّه في تلكَ الجهةِ جاءت التَّوسِعةُ وسَّعوها من جهةِ الشَّمالِ، فخشوا أن يكونَ ذلكَ الجدارُ مُربَّعًا يعني: مُسَامِتًا للمُستقبِلِ؛ فيكون إذا استقبلَه أحدٌ استقبالًا للقبرِ، فجعلوه مُثلَّثًا يبعدُ كثيرًا عن الجدارِ الأوَّلِ وهو جدارُ حُجرةِ عائشةَ؛ لأجلِ ألَّا يُمكنَ أحدًا أن يَستقبلَ لبُعدِ المَسافةِ؛ ولأجلِ أنَّ الجدارَ صارَ مُثلَّثًا.

ثمَّ بعدَ ذلك بأزمانٍ جاءَ جدارٌ ثالثٌ أيضًا وبُنِيَ حولَ ذينِكَ الجِدارَينِ، وهو الَّذي قال فيهِ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «النُّونيَّة» في وصفِ دُعاءِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قولِه: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» قال:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّىٰ غَدَتْ أَرْجَاؤُه بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

فالنَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صارَ قبرُه في ثلاثةِ جُدرانٍ، وكلُّ جدارٍ ليسَ فيه بابٌ، ولا يُمكنُ لأحدٍ حتَّىٰ في زمنِ الصَّحابةِ أن -يعني: في زمنِ المُتأخِّرينَ منهم في عهدِ الوليدِ وما قبلَه- لا يُمكنُ أنْ يدخُلَ ويقفَ علىٰ القبرِ بنفسِه؛ لأنَّه صارَ ثَمَّ جداران وكلُّ جدارٍ ليسَ له بابٌ.

ثمَّ بعد ذلك وُضِعَ الجدارُ الثَّالثُ وهٰذا الجدارُ أيضًا كبيرٌ مَرتفِعٌ إلىٰ فوقٍ، وُضعَتْ عليه القُبَّةُ فيما بعدُ، وهٰذا الجدارُ أيضًا ليس له بابٌ.

فلا يستطيعُ الآن أحدٌ أن يدخُلَ إلىٰ القبرِ أو أن يصلَ إلىٰ القبرِ أو أن يتمسَّحَ بالقبرِ أو أن يرىٰ قبرَ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

ثمَّ بعد ذلك وُضِعَ السُّورُ الحَديديُّ هٰذا، وهٰذا السُّورُ الحَديديُّ بينَه وبينَ الجدارِ الثَّالثِ -الَّذي ذكرتُ لكم- بينه نحوُ مترٍ ونصفٍ في بعضِ المناطقِ ونحوُ مترٍ في بعضِها وبعضُها نحوُ مترٍ وثمانينَ إلىٰ مترينِ في بعضِها، يضيقُ ويزدادُ؛ لكن من مشىٰ فإنَّه يمشي بينَ ذلكَ الجدارِ الحَديديِّ وبين الجدارِ الثَّالثِ.

فقبرُ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، عملَ المُسلمونَ بوصيَّتِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وأُبعِدَ تمامًا فلا يُمكنُ أن يصلَ أحدٌ إلىٰ القبرِ، ولا يُمكنُ أيضًا أن يُتَّخذَ ذلك القبرُ مَسجِدًا.

ولهٰذا لمَّا جاء الخُرافيُّون في الدَّولةِ العُثمانيَّةِ جعلوا التَّوسعةَ الَّتي هي من جهةِ الشَّرق جعلوا فيها مَمَرًّا لكي يُمكنَ من يريدُ أن يَطوفَ بالقبرِ أو أن يُصلِّيَ في تلك الجهةِ، ذلك المَمَرَّ الشَّرقيَّ -الَّذي هو قدرُ مترينِ أو نحوُ ذلك أو يزيدُ قليلًا-، ذلك المَمَرُّ الشَّرقيُّ في عهدِ الدَّولةِ السُّعوديَّة الأولىٰ وما بعدَها مُنِعَ

من الصَّلاة فيه، فكأنَّه أُخرج من كونِه مَسجِدًا؛ لأنَّه إذا كانَ من مَسجِدِ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فلا يجوزُ أن يَمنُعوا أحدًا من الصَّلاة فيه، فلمَّا منعوا أحدًا من الصَّلاة فيه جَعلوا له حُكمَ المَقبرةِ ولم يَجعلوا له حُكمَ المِسجِدِ، فلا يُمكنُ لأحدٍ أن يُصلِّيَ فيه بل يُغلقونَهُ وقتَ الصَّلاةِ أمَّا وقتَ السَّلامِ أو وقتَ الزِّيارَةِ فإنَّهم يَفتحونَه للمُرورِ.

فإذن تبيَّنَ بذلكَ أنَّ قبرَ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يُتَّخذْ مَسجِدًا، وإنَّما دخلَتْ الغُرَفُ في التَّوسعةِ في عهد التَّابعينَ في المسجدِ؛ ولكنْ جِهتُها الشَّرقيَّةُ خارِجةٌ عن المَسجِدِ فصارت كالشَّيءِ الَّذي دخلَ في المَسجِدِ؛ ولكنْ حيطانٌ مُتعدِّدةٌ تمنعُ أن يكون القبرُ في داخلِ مسجدِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وإنَّما فيه أربعُ جداراتٍ تفصلُ بين المَسجِدِ وبينَ قبرِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ يعني: مكانَ الدَّفنِ.

وأعظمُ من ذلكَ ممَّا يدلُّ علىٰ أخذِ الصَّحابةِ والتَّابعين ومن بعدَهم بوصيَّةِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هٰذه، وسدِّ الطُّرقِ المُوصَلةِ إلىٰ الشِّرك به عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وباتِّخاذ قبره مَسجِدًا: أنَّهم أخذوا من الرَّوضةِ الشَّريفةِ أخذوا من الرَّوضةِ الَّتي هي رَوضةٌ من رياضِ الجنَّةِ كما قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**» أخذوا منها قدرَ ثلاثَةِ أمتارٍ لكي يقومَ الجدارُ الثَّاني ثمَّ يقومَ الجدارُ الثَّالثُ ثمَّ يقومَ السُّورُ الحَديديُّ، وأكثرُ من ثلاثةِ أمتارٍ، فهٰذا من أعظمِ التَّطبيق وهو أنَّهم أخذوا من الرَّوضةِ وأجازوا أن يأخُذوا من المَسجِدِ لأجلِ أن يُحمَىٰ قبرُ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من أنْ يُتَّخذَ مَسجِدًا.

وهٰذا ولا شكَّ من أعظمِ الفقهِ فيمن فعلَ ذلكَ، ومن رحمةِ الله جَلَّوَعَلَا بهٰذه الأمَّةِ، ومن إجابةِ دعوةِ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقولِه فيما سيأتي بعد هٰذا البابِ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**».

إذن فقولُه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («لَعْنَةُ اللّه علىٰ الْيَهُود وَالنّصَارىٰ اتّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) فإنَّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يُتَّخذْ قبرُه مَسجِدًا.

واليومَ المَوجودُ قد يكونُ صورَتُه عندَ غيرِ المُتأمِّلِ وغيرِ الفقيهِ صُورَتُه صورةُ قبرٍ في داخلِ مَسجِدٍ، وفي الحقيقةِ ليست صُورَتُه وليستْ حَقيقتُهُ أنَّه قبرٌ في داخلِ المَسجِدِ؛ لوُجودِ الجُدرانِ المُختلفَةِ الَّتي تفصلُ بين المَسجِدِ وبينَ القبرِ؛ ولأنَّ الجهةَ الشَّرقِيَّةَ منه ليستْ من المَسجِدِ، وهٰذا لمَّا جاءت التَّوسِعةُ الأخيرةُ كان مُبتدَؤُها من جهةِ الشَّمالِ بعد نهايةِ الحُجرةِ بكثيرٍ حتَّىٰ لا تكونَ الحُجرةُ في وسطِ المَسجدِ من جهةِ أنَّه يكونُ ثمَّة تَوسِعةٌ من جهةِ الشَّرقِ وثمَّ الرَّوضةُ من جهةِ الغربِ فتكون وسطَ المَسجدِ فيكونُ ذلك من اتِّخاذِ قبرِه مَسجِدًا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

المَقصودُ من هٰذا البيانِ المُهمِّ -الَّذي ينبغي أن تَعيهُ جيِّدًا- أنَّ قبرَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما اتُّخِذَ مَسجِدًا؛ ولكنْ وصيَّتُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من التَّحذيرِ قد أُخِذَ بها في مَسجِدِه وفي قبرِه؛ ولكن خالفَتْها الأمَّة في قُبور الصَّالحين من هٰذه الأمَّة فاتَّخذوا قُبور بعضِ آل البيتِ مَساجِدَ وعَظَّموها كما تُعظَّمُ الأوثانُ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلِـمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَـمِعْتُ النَّبِـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْـلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَـدِ اتَّخَـذَنِي خَلِـيلًا، كَمَـا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا») سببُ ذلك أنَّ **الخُلَّةَ هـي أعظمُ درجاتِ المَحبَّةِ وهي الَّتي تتخلَّلُ الرُّوحَ وتتخلَّلُ القلبَ وشغافَ الصَّدرِ بحيثُ لا يكـون ثَـمَّ مكـانٌ لغيرِ ذلك الخليلِ**، لهٰذا النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ له من أصحابِه خليلٌ، قـال: «وَلَـوْ كُنْـتُ مُتَّخِـذًا مِـنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» وجهُ الشَّاهِدِ من هٰذا الحديثِ قولُـه بعـد ذلـك: «أَلَا وَإِنَّ مَـنْ كَـانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبور مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِـكَ» وهٰـذا أيضًا جاء في روايةٍ أُخرىٰ أيضًا: «كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبور أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ» وهٰذا هو الَّذي وقعَ في هٰذه الأمَّة، وهٰذا وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ، مُناسـبتُه للبـابِ ظـاهرةٌ مـن أنَّ تحـريمَ اتِّخـاذِ قُبـور الأنبيـاءِ والصَّالحين مَساجِدَ مع أنَّه قـد يكـونُ العابـدُ لا يَعبُـدُ إلَّا اللهَ لأنَّهـا وسـيلةٌ مـن وسـائلِ الشِّـركِ الأكـبرِ، والوسائلُ تُفضي إلىٰ ما بعدَها، وقد تقرَّرَ في القواعدِ الشَّرعيَّةِ وأجمعَ عليهـا المُحقِّقـونَ أنَّ سـدَّ الـذَّرائعِ الموصِلةِ إلىٰ الشِّركِ وإلىٰ المُحرَّماتِ واجبةٌ، فإنَّ الذَّريعـةَ الَّتـي توصِـلُ إلـىٰ مُحـرَّمٍ يجـبُ سـدُّها؛ لأنَّ الشَّريعةَ جاءت لسدِّ الأصولِ وسدِّ الذَّرائعِ بسدِّ أصولِ المُحرَّماتِ وسدِّ الذَّرائعِ إليهـا، فيجـبُ أن يُغلَـقَ كلُّ بابٍ من أبوابِ الشِّركِ باللهِ، ومن ذلكَ اتِّخاذُ قُبور الأنبياءِ والصَّالحينَ مَساجِدَ.

ولهٰذا لا تصحُّ الصَّلاةُ في مَسجِدٍ بُنِيَ علىٰ قبرٍ، المَسجِدُ الَّذي يُبنىٰ علىٰ قبرٍ فإنَّه لا تصحُّ الصَّلاةُ فيه؛ لأنَّ ذلكَ مُنافٍ لنهيِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نهىٰ وهم فعلوا، والنَّهيُ توجَّه إلىٰ بُقعةِ الصَّلاةِ فبطلتِ الصَّلاةُ، فالَّذي يُصلِّي في مَسجِدٍ أُقيمَ علىٰ قبرٍ صلاتُه باطِلةٌ لا تصحُّ لقولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبور مَسَاجِدَ» يعني بالبناءِ عليها وبالصَّلاةِ حولَها «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

قال: (فَقَدْ نَهَىٰ عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ؛ وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهَا: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا») يعني الصَّلاةُ عندَ القُبور لا تجوزُ سواءٌ صلَّىٰ إليها أو صلَّىٰ عندَها رَجاءَ بَركةِ ذلك المكانِ أو لـم يَرجُ بَركةَ ذلك المكانِ وإنَّما صلَّىٰ صلاةً

نافِلَةً غيرَ صلاةِ الجنازةِ عندَها، كلُّ هٰذا لا يجوزُ سواءٌ كان ثمَّ بناءٌ علىٰ القبرِ كمَسجِدٍ أو كان قبرًا أو قبرَينِ في غيرِ بناءٍ عليهما فإنَّ الصَّلاة لا تجوزُ، ولهٰذا جاء في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَجْعَلُوهَا قُبورًا**» وفي البُخاريِّ أيضًا مُعلَّقًا من كلامِ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه رأىٰ أَنَسَ يُصلِّي عندَ قبرٍ فقال له: القبرَ القبرَ. يعني: احذرِ القبرَ، احذرِ القبرَ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الصَّلاةَ عندَ القُبور لا تجوزُ؛ لأنَّها وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ، وأعظمُ إذا كان ثمَّ بُنيانٌ واتِّخاذٌ لما حولَ القبرِ من الأَبنيَةِ مَسجِدًا للصَّلاةِ والدُّعاءِ والقراءةِ ونحوِ ذلك.

قال: (وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهَا: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَـوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا. وَكُلُّ مَوْضِـعٍ قُصِدَتِ الصَّـلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسْـجِدًا، كَمَـا قَالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»).وهٰذا ظاهرٌ.

[**الدَّليل الرَّابع**] قال: (وَلِأَحْمَدَ - بِسَنِدٍ جَيِّدٍ - عَـنِ ابْـنِ مَسْـعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًـا: «**إِنَّ مِـنْ شِـرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبورَ مَسَاجِدَ**». رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ)؛ يعني: ابنَ حبَّانَ (فِي «صَحِيحِهِ») وجهُ الشَّاهِدِ من هٰذا أنَّه قال: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبور مَسَـاجِدَ» يعنـي أنَّهـم مـن شـرارِ النَّاسِ، فالَّذين يتَّخذون القُبور مَساجِدَ من شرارِ النَّـاسِ؛ وذلـكَ لأنَّ اتِّخـاذَ القُبـور مَسـاجِدَ كمـا ذَكرنـا وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، وقوله: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبور مَسَاجِدَ» هٰذا يَعمُّ كلَّ مُتَّخـذِ القبَـر مَسجِدًا -سواءٌ اتَّخذَه بالصَّلاةِ عليه أو بالصَّلاةِ إليه أو بالصَّلاةِ عندَه- فذلك القصـدُ للصَّـلاةِ عنـدَ القبـر يجعلُ من قَصَدَ في شرارِ النَّاس الَّذين وصفَهم النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك.

ومُناسبةُ هٰذا الحديثِ للبابِ ظاهرةٌ؛ فإنَّه ذكر أنَّ من شرارِ النَّاسِ الَّـذين يتَّخـذونَ القُبـور مَسـاجِدَ، والقَصدُ من اتِّخاذِ القبرِ مَسجِدًا أن يَعبُدَ اللهُ عندَ قبرِ ذلكَ الرَّجلِ الصَّالحِ، فكيف حـالُ الَّـذي توجَّـه إلـىٰ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالعبادةِ؟ القبرُ لا يُخلِصُ إليـه، والاسـتغاثةُ بـالنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتأليـهُ النَّبـيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هٰذا قد يقعُ بحسب الاعتقاداتِ وبحسب المُنـاداةِ، كمـا حصـلَ مـن الجـاهليِّين مُنـاداةُ المَلائكةِ واتِّخاذُ المَلائكةِ آلهةً مع الله جَلَّ جَلَالُهُ، كذلكَ اتِّخاذُ الأولياءِ مَعبودين هل هؤلاء مِن خيارِ النَّاسِ عندَ اللهِ؟ بل هم أشرُّ من الَّذين وصفَهم النَّبـيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقولِـه: «**مِـنْ شِـرَارِ النَّـاسِ مَـنْ تُـدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبور مَسَاجِدَ**» فإنَّ الَّذي اتَّخـذَ القـبرَ مَسـجِدًا مَلعـونٌ بلعنـةِ النَّبـيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولو كان لم يَعبُدْ إلَّا اللهَ جَلَّ وَعَلَا، فكيفَ حالُ الَّذي عبدَ صاحبَ ذلك القبرِ؟

نسألُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا العاقبةَ والسَّلامةَ من كلِّ وسائلِ الشِّركِ، تأمَّل هٰذا معَ ما فشا في بلادِ المسلمين من

البناءِ علىٰ القُبور والقِبابِ عليها، ومن بناءِ المَشاهِدِ وتعظيمِ ذلكَ وتوجيهِ النَّاسِ إليها، وذكرِ الحِكاياتِ الطَّويلةَ في مناقبِ أولئكَ الأَولياءِ، وفي إجابتِهم للدَّعواتِ وإغاثتِهم للَّهفاتِ ونحوِ ذلك، يتبيَّنُ لكَ غُربةُ الإسلامِ أشدَّ غُربةٍ في هٰذه الأزمنةِ وما قبلَها، كيفَ إذا قالوا: إنَّ ذلكَ جائزٌ وذلك تَوحيدٌ؛ بل كيف إذا اتَّهموا من نَهاهم عن ذلكَ بعدمِ المَعرفةِ وعدمِ الفهمِ وهو يَدعوهم إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا وهم يدعونَه إلىٰ النَّارِ نسألُ الله السَّلامةَ والعافيةَ.



21- بَابٌ

مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ

[1] رَوَىٰ مَالِكٌ فِي «الْـمُوطَّأِ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُـمَّ لَا تَجْعَـلْ قَبْـرِي وَثَنًـا يُعْبَـدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

[2] وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ قَالَ: «كَانَ يَلُـتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ».

[3] وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ».

[4] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبـور، وَالْمُتَّخِـذِينَ عَلَيْهَـا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

(**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**) الغُلوُّ في قُبور الصَّالحينَ وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ؛ بل يَصلُ الغُلوُّ إلىٰ أن يكون شِركًا بالله جَلَّ وَعَلَا وأنْ يُصيَّر ذلك القبرُ وثنًا يُعبَدُ، فالغُلوُّ درجاتٌ مرَّ علينا في الأبوابِ قبلَهُ بعضُ الغُلوِّ في القُبور، وهنا بيَّن أنَّ الغُلوَّ يصل إلىٰ أن يُصيِّر تلك القُبور أوثانًا تُعبَدُ من دونِ الله.

قُلنا: إنَّ الغُلوَّ هو مُجاوزةُ الحدِّ، والقُبور -قُبور الصَّالحينَ وغيرِ الصَّالحينَ- صفتُها في الشَّرع واحدةٌ، لم يُميِّز الشَّرعُ ولم يأتِ دليلٌ في الشَّريعةِ بأنَّ قبرَ الصَّالحِ يُميَّزُ عن قبرِ غيرِه؛ بل القُبور تتساوىٰ، هٰذا وهٰذا، لا يُفرَّق بين قبرِ صالحٍ وبين قبرِ طالحٍ؛ بل الصِّفةُ واحدةٌ وهي إمَّا أن يكونَ القبرُ في ظاهرِه مُسنَمًا وإمَّا أن يكون مُربَّعًا، وهٰذه الصُّورةُ من حيثُ الظَّاهرُ واحدةٌ.

نهىٰ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الكتابةِ عليها، وعن تجصيص القبر، وعن رفعِ القبر، في أنواعٍ من السُّننِ الَّتي جاءت في أحكامِ القُبور، وهٰذا لأجل سدِّ الطُّرقِ الَّتي توصلُ إلىٰ الغُلوِّ في قُبور الصَّالحينَ.

فإذن مُجاوزةُ الحدِّ في قُبور الصَّالحين هي مُجاوزةُ ما أُمِر به أو نُهيَ عنه في القُبور؛ لأنَّ قُبور الصَّالحينَ لا تختلفُ عن قُبور غيرِ الصَّالحينَ، **فالغُلوُّ فيها**:

- يكونُ بالكتابةِ عليها، يكونُ برفعِها، يكونُ بالبناءِ عليها، يكونُ بأن تُتَّخذَ مَساجِدَ.
- يكون الغُلوُّ فيها -ذلك الَّذي سبقَ كلُّه من جهةِ الوَسائلِ؛ يكونُ الغُلوُّ في قُبور الصَّالحين بأنْ يُجعَلَ القبرُ وسيلةً من الوسائلِ الَّتي تُقرِّبُ إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، ويُجعلَ القبرُ أو من في القبرِ شفيعًا

لهم عندَ الله جَلَّوَعَلَا، يُجعَلُ القبرُ له حقٌّ أن يُنذَرُ له، أو أن يُذبَح له، أو أن يُستشفَع بتُرابِه اعتقادًا أنَّه وسيلةٌ عندَ الله جَلَّوَعَلَا، ونحوُ ذلك من أنواعِ الشِّركِ الأكبرِ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

لهٰذا الغُلوُّ في قُبور الصَّالحين يكون بمُجاوزةِ ما أُذنَ فيها:

- من المُجاوزةِ ما هو من الوَسائلِ.
- ومن المُجاوزةِ ما هو من اتِّخاذِها أوثانًا من دونِ الله جَلَّوَعَلَا.

ولهٰذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبور الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**) وقوله: (**يُصَيِّرُهَا**) يعني يجعلُها؛ قد يكونُ جعلُ الوسائلِ للغاياتِ يعني أنَّ الغُلوَّ صارَ وسيلةً لاتِّخاذِها أوثانًا، وقد يكونُ أنَّ الغُلوَّ جعلُها وثنًا يُعبَدُ من دونِ الله جَلَّوَعَلَا.

وهٰذا هو الَّذي حصلَ ويُرىٰ في البلاءِ من أنَّ القُبور صارت أوثانًا تُعبَدُ من دونِ الله لمَّا أُقيمت عليها المَشاهِدُ القِبابُ ودُعيَ النَّاسُ إليها وذُبِحَ لها وقُبلت النُّذورُ لها وصار يُطافُ حولَها ويُعكَف عندَها، ونحوُ ذلك من أنواعِ الشِّرك الأكبرِ بالله.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (رَوَىٰ مَالِكٌ فِي «الْـمُوطَّأِ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»)، قولُه: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» هٰذه استعاذةٌ ودعاءٌ لخوفِ أنْ يقعَ ذلك، ولو كانَ ذلكَ لا يقعُ أصلًا ولا يُمكنُ أن يقعَ لما دعا النَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بذلكَ الدُّعاءِ العظيمِ؛ بل دعا ألَّا يُجعلَ القبرُ وثنًا يُعبَدُ كما جُعلت قُبور غيرِه من الأنبياءِ والمُرسلينَ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فإنَّ عددًا من قُبور الأنبياءِ والمُرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام اتُّخذِت أوثانًا تُعبَدُ.

قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» معنىٰ ذلك أنَّ القبرَ يُمكنُ أن يكونَ وثنًا يُعبدُ، قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، فالغايةُ أن يكونَ القبرُ وثنًا يُعبَدُ، ودعا النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بألَّا يكون، والوسيلةُ إلىٰ ذلك ما جاءَ بعدَ ذلكَ قال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبور أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» وهٰذا هو الغلوُّ؛ غُلوُّ الوسائلِ، فاتِّخاذُ قُبور الأنبياء مَساجِدَ غُلوٌّ من غُلوِّ الوسائلِ يُصيِّر تلكَ القُبور أوثانًا، فالنَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في هٰذا الحديث جمع بين ذِكرِ الوسيلة والتَّنفيرِ منها واشتدادِ غضبِ الله علىٰ من فعلِها، وذِكر نهاية ما تصلُ إليه بأصحابِها تلك الوسيلةُ وهي أن تكون القُبور أوثانًا تُعبَدُ من دونِ الله جَلَّوَعَلَا.

فإذن هٰذا الحديثُ فيه بيانُ أنَّ القبرَ يمكن أن يكون وثنًا.

والخُرافيُّون يقولـون: القُبـور لا يمكـن أن تكـون أوثانًـا، والأوثـانُ هـي أوثـانُ الجاهليَّـة وأصـنامُ الجاهليَّةِ.

ونقول: إنَّ الجاهليِّينَ إذا كانوا تعلَّقوا بأصنامٍ وبأحجارٍ وبأشجارٍ وبغيرِ ذلك من الأشـياءِ، واعتقـدوا فيها ووَصلوا فيها إلىٰ الشِّركِ الأكبرِ، مع أنَّ المُبرِّرَ العَقليَّ والمُبرِّرَ النَّفسيَّ غيرُ قَـويٍّ فيهـا، فـلأنْ تُتَّخـذَ قُبور الصَّالحين والأنبياءِ والمُرسلينِ أوثانًا أو أنْ يُتوجَّهَ إلىٰ أصحابِها بالعبادةِ ذلكَ مـن بـابِ أَولـىٰ؛ لأنَّ تعلُّقَ القُلوبِ بالصَّالحين أَولىٰ من تَعلُّقِها بالأحجارِ، تعلُّقُ القُلوبِ بالأنبياءِ والمُرسلينِ أَولىٰ من تَعلُّقِها بالجنِّ أو تَعلُّقِها بالأشجارِ أو بالأحجارِ أو نحوِ ذلك.

فإذن سببُ الشِّركِ ووسيلةُ الشِّركِ في القُبور أَولىٰ وأظهرُ مـن النَّظـرِ في الأصـنامِ ونحـوِ ذلـك؛ لأنَّهـا جميعًا من جهةِ اعتقادِ القلبِ وتـأثيرِ تلـك الأصـنامِ والأوثـانِ في الحـالَينِ جميعًـا في الشَّـفاعةِ عنـدَ الله، فأولَئـكَ المُشـركون يقولـون في آلهـتِهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:3]، وقـالوا أيضًـا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:18].

وأهلُ العصرِ أو العصورِ الَّتي فشا فيهـا الشِّـركُ إذا سـألتهم يقولـون: هٰـذا توسُّـلٌ وهٰـذا استشـفاعٌ. والحالُ واحدةٌ، والسَّبيلُ الَّذي جعل تلكَ القُبور أوثانًا هو اتِّخاذُ تلك مَساجِدَ والبناءُ عليها والحَثُّ علـىٰ مَجيئِها، وذكرُ الكراماتِ الَّتي تَحصُل عندَها أو إجابةُ الدَّعواتِ عندَها أو التَّبرُّك بها إلىٰ غيرِ ذلك.

[**الدَّليلُ الثَّاني**] قال: (وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَـنْ سُـفْيَانَ، عَـنْ مَنْصُـورٍ، عَـنْ مُجَاهِـدٍ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾[] قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ».) الشَّاهدُ قولُ مُجاهدٍ «فَمَـاتَ، فَعَكَفُـوا عَلَىٰ قَبْرِهِ» لأجلِ أنَّه رجلٌ كان ينفعُهم بلَتِّ السَّويقِ لهـم علـىٰ قـراءةِ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّـٰتَّ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ ووجـهُ المُناسبةِ ظاهرٌ من أنَّ صلاحَ ذلكَ الرَّجلِ جعلَهم يَغلُون في قبرِه فعكفوا علىٰ قبرِه، والعُكوفُ علىٰ القُبور يُصيِّرُها أوثانًا، العُكوفُ معناه لزومُ القبرِ بتعظيمِه واعتقادِ البَركةِ في لُزومِه والثَّوابِ والنَّفـعِ ودفـعِ الضُّـرِّ، هٰذا معنىٰ العُكوفِ.

[**الدَّليلُ الرَّابع**] قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبورِ، وَالْـمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.) وجهُ الدِّلالةِ من الحديثِ ظاهرةٌ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعنَ المُتَّخذين علىٰ القُبور المَساجِدَ والسُّرُجَ، المَساجِدُ مرَّ معنا الكلامُ عليها، والسُّرُجُ لأنَّها وسيلةٌ لتعظيمِ تلكَ القُبور ونوعٌ من أنواعِ الغُلوِّ فيها، فتُسرَجُ القُبور ويُجعَلُ عليها في الزَّمنِ

الماضي القَناديلُ، واليومَ تُجعَلُ عليها الأنوارُ العظيمةُ الَّتي تُبيِّنُ أنَّ هٰذا المكانَ مَقصودٌ وأنَّه مطلوبٌ ويُجعَلُ عليها من عُقودِ اللَّمباتِ وعُقودِ الأنوارِ والكشَّافاتِ الَّتي تسطعُ ما يدلُّ النَّاسَ علىٰ تعظيمِ هٰذا القبرِ، فهؤلاء مَلعونون بلَعنةِ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوزُ أن تُتَّخذَ السُّرُجُ علىٰ القُبور؛ لأنَّ اتِّخاذَ السُّرُجِ علىٰ القُبور من نوعِ الغُلوِّ فيها؛ ولأنَّه يوجَّه النَّاسُ إليها وذلك قد يكونُ بعدَه أن تُتَّخذَ آلهةً وأوثانًا مع الله جَلَّ وَعَلَا.



22- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْـمُصْطَفَى [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] جَنَابَ التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

[1] وَقَـــولِ اللهِ تَعَــالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[التوبة].

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبورا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

[3] وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْـحُسَيْنِ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبورا؛ وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي «الْـمُخْتَارَةِ».

هٰذا البابُ من جنسِ الأبوابِ قبلَه في حمايةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جنابَ التَّوحيدِ وفي سدِّه كلَّ طريقٍ يوصلُ إلىٰ الشِّركِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] وأتىٰ بآيةِ بَراءةَ وقولِ الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني عزيزٌ عليه عَنَتُكُم، عزيزٌ عليه العنتُ؛ يعني أن تكونوا في عَنَتٍ ومشقَّةٍ هٰذا عزيزٌ عليه لا يرغبُ فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عزيزٌ عليه عنتُ أمَّتِه، وهٰذا يُؤدِّي أن يأمُرَهم بكلِّ خيرٍ وأن ينهاهم عن كلِّ شرٍّ، وأن يحميَ حمىٰ ما أمرَهم به وما نهاهم عنه؛ لأنَّ النَّاسَ إذا أقدَموا علىٰ ما نُهوا عنه فإنَّهم أقدَموا علىٰ مَهلكتِهم وأقدموا علىٰ ما فيه عنتُهم في الدُّنيا وفي الأُخرىٰ، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عزيزٌ عليه عَنَتُهم، عزيزٌ عليه أن يقعوا في وبالٍ عليهم وفي مشقَّةٍ عليهم، ولهٰذا قال بعدها: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ لأنَّ هٰذه وهٰذه مُتلازِمَةٌ، ومن حرصِه علينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن كونِه يعزُّ عليه عَنَتُنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ حَمَىٰ حِمَىٰ التَّوحيدِ وحَمَىٰ جَنابَ التَّوحيدِ وسدَّ كلَّ طريقٍ قد نَصلُ بها إلىٰ الشِّركِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهٰذا وجهُ الاستدلالِ من الآيةِ علىٰ البابِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] وأمَّا حديثُ أبي هُريرةَ فوجهُ الشَّاهدِ منه: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» والعيدُ يكونُ عيدًا

مَكانيًّا كما جاء هنا ويكون عيدًا زَمانيًّا، «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» يعني: مكانًا تَعودون إليه في وقتٍ مَعلومٍ من السَّنَة، أو في أوقاتٍ مَعلومةٍ تعتادون المَجيءَ إلىٰ القبر، فإنَّ هٰذا قد يوصلُ إلىٰ أن يُعظَّمَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأن يُجعَلَ تعظيمُه كتَعظيمِ الله جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ اتِّخاذَ القُبور عيدًا من وسائلِ الشِّركِ، ولهٰذا قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

[الدَّليلُ الثَّالثُ] كذلك حديثُ عليِّ بنِ الحُسينِ في هٰذا المعنىٰ أنَّه قال: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا») في معنىٰ ما قبلَه، ونهىٰ الرَّجلَ الَّذي كان يَعتادُ المَجيءَ إلىٰ فُرجةٍ كانت عندَ القبرِ؛ لأنَّ اعتيادَه أنْ يدعوَ عندَ القبرِ هٰذا نوعُ غُلوٍّ ونوعُ وسيلةٍ من وسائلِ تعظيمِ القُبور واتِّخاذِها عيدًا، وهٰذا من وسائلِ الشِّركِ، فحَمَىٰ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حِمَىٰ التَّوحيدَ، وَحَمَىٰ جَنابَه وسدَّ كلَّ طريقٍ توصلُ إلىٰ الشِّركِ، حتَّىٰ في قبرِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذا كان كذلكَ فمِن بابِ أَولىٰ قُبور الصَّالحين وقُبور الأنبياءِ والمُرسلينَ غيرِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنَّهم أَولىٰ بذلك؛ لأنَّه أفضلُ خلقِ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فالَّذي حصلَ أنَّ هٰذه الأمَّة لم تَقبل في كثيرٍ مِن فئامِها حمايةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك، واتَّخذتِ القُبور مَساجِدَ، واتَّخذت القُبور عيدًا؛ بل بُنيَت عليها المَشاهِدُ؛ بلْ أسرَجَتْها؛ بل قبِلَت لها الذَّبائحَ والنُّذورَ وطِيفَ حَولَها وجُعلَت كالكعبةِ وجُعلَت الأمكنةُ حولَها مُقدَّسةً أعظمَ من تقديسِ بقاعِ الله المُباركةِ؛ بل إنَّ عُبَّادَ القُبورِ تجدُ عندَهم من الذُّلِّ والخُضوعِ والإنابةِ والرَّغبِ والرَّهبِ حين يأتون إلىٰ قبرِ النَّبيِّ أو قبرِ الرَّجلِ الصَّالحِ أو قبرِ الوَليِّ ما ليسَ في قُلوبِهم إذا كانوا في خَلوةٍ مع الله جَلَّ جَلَالُهُ وهٰذا عينُ المُحادَّة لله جَلَّ وَعَلَا ولرسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



الدرس الحادي عشر

23- بَابٌ

مَا جَاءَ أَنَّ بَعضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

[1] **وقَوْلُ اللهِ تعَالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النِّساء].

[2] **وقَوْلُهُ**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: 60].

[3] **وقَوْلُهُ**: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف].

[4] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟!**» أَخْرَجَاهُ.

[5] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**».

وَرَوَاهُ الْبُرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**».

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وأشهدُ ألَّا إله إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له هو الملكُ الحقُّ المُبينُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحبِه ومن اهتدىٰ بهُداهم إلىٰ يوم الدِّينِ.

أمَّا بعدُ،

فهٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هذه الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ**) و«كتابُ التَّوحيد» من أوَّل ما أخذنا إلىٰ هٰذا الموضعِ ذكرَ فيه الإمامُ مُحمَّدُ بن عبد الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَسائلَ كثيرةً من بيانِ وُجوبِ مَعرفةِ التَّوحيدِ والعلمِ به والخوفِ من الشِّركِ، وبيانِ بعضِ أفرادِ التَّوحيدِ وبعضِ أفرادِ الشِّركِ الأكبرِ والأصغرِ، ثمَّ بيَّن شيئًا ممَّا يتعلَّقُ بوسائلِ ذلك وما يتعلَّقُ بالصُّوَرِ المُختلفةِ الَّتي وقعت من هٰذا الشِّركِ في الأُممِ قبلَنا وعندَ الجاهليِّين؛ يعني: في الأُمِّيِّين وفي أهل الكتابِ، وكذلك ممَّا وقعَ في هٰذه الأمَّةِ.

ثمَّ ذكرَ وسائلَ ذلك وطُرُقَه الموصلةَ إلىٰ الشِّركِ وسائلَ الشِّركِ الَّتي توصلُ إليه وطُرُقَ الشِّركِ الَّتي الموصلة إليه.

بعد هٰذا يأتي احتجاجُ المُشركينَ والخُرافيِّين من أنَّ هٰذه الأمَّةَ حماها الله جَلَّوَعَلَا من أن تعود إلىٰ عبادةِ الأوثانِ، فاستحضرَ بعد كلِّ ما سبقَ أنَّ قائلًا يقولُ له: كلُّ هٰذا صحيحٌ؛ ولكنَّ هٰذه الأمَّة عُصِمَتْ أَنْ تقعَ في الشِّركِ الأكبرِ، وذلكَ لقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»، فلمَّا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**» علمنا أنَّ عبادةَ الشَّيطانِ لا تكونُ في هٰذه الأمَّة، وأنَّ الشِّركَ الأكبرَ لا يكون. هكذا قال الخُرافيُّون.

والجوابُ: أنَّ هٰذا الاحتجاجَ في غيرِ مَوضعِه، وفهمُ ذلكَ الدَّليلِ وذلكَ الحديثِ ليسَ علىٰ ذلك النَّحوِ، وجوابُ ما قالوا من أنَّ قولَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**» تقول: أَيِسَ الشَّيطانُ والشَّيطان لا يعلمُ الغيبَ وهو حريصٌ علىٰ إغواءِ بني آدمَ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[الإسراء]، هو أيِسَ؛ ولكن لم يُؤيِسْهُ الله جَلَّوَعَلَا أيِسَ بنفسِه لمَّا رأىٰ عزَّ الإسلامِ ولمَّا رأىٰ ظُهورَ التَّوحيدِ علىٰ الكفرِ في جزيرةِ العربِ، فأَيِسَ لمَّا رأىٰ ذلك؛ ولكن لم يُؤَيِّسْه الله جَلَّوَعَلَا من أنْ يُعبَدَ في جزيرةِ العربِ ثمَّ إنَّ في قولِه: «**أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ**» أنَّ المصلِّين لا شكَّ أنَّهم آمرونَ بالمَعروفِ ناهون عن المُنكرِ؛ لأنَّ المُصلِّي هو الَّذي أقامَ الصَّلاةَ، ومن أقام الصَّلاةَ فإنَّ الصَّلاةَ تنهىٰ عن الفَحشاءِ والمُنكرِ، وأعظمُ المُنكرِ الَّذي سيُنكرُه المُصلِّي هو الشِّركُ بالله جَلَّوَعَلَا، فإنَّ الشَّيطانَ ييأس أن يَعبُدَه من قامَ بالصَّلاة علىٰ حقيقَتِها وأقامَها كما أرادَ الله جَلَّوَعَلَا.

فإذن نقولُ: هٰذا الحديثُ ليس فيه أنَّ العبادةَ عبادةَ الشَّيطانِ لا تكون في هٰذه الأمَّةِ؛ بل فيه أنَّ الشَّيطانَ أيِسَ لمَّا رأىٰ عزَّ الإسلامِ؛ ولكنَّه لم يُؤيَّس ولهٰذا لمَّا كان بعدَ وفاةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقليلٍ، وارتدَّت طائفةٌ من العربِ كان ذلكَ من عبادةِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ عبادةَ الشَّيطانِ بطاعَتِه كما قال

جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾[يس]، وعبادةُ الشَّيطانِ كما في تفسيرِ الآية بطاعتِه في الأمرِ والنَّهي، طاعتِه في الشِّركِ وطاعتِه في تركِ الإيمانِ وتركِ لَوازمِه.

إذن هٰذا الدَّليلُ استحضرَه الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: إنَّ هٰذا الدَّليلَ ليسَ واقعًا كما زعمَه أولئكَ، والدَّليلُ علىٰ ذلك التَّفسيرِ ما جاء في الأدلَّة أنَّ بعضَ هٰذه الأمَّةِ يعبُدُ الأوثانِ، فيُصحِّحُ ما فهمنا من أنَّ معنىٰ الحديثِ أنَّ الشَّيطانَ أيِسَ بنفسِه ولم يُؤَيَّس، وإياسُه بنفسِه لأجلِ عدمِ اطِّلاعِه علىٰ علمِ الغيبِ مع حِرصِه علىٰ دعوةِ النَّاسِ إلىٰ عبادةِ غيرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وجلَّ وتقدَّسَ.

قال الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ**)؛ يعني: أنَّ عبادةَ الأوثانِ واقعةٌ في هٰذِهِ الأمَّةِ بنصِّ النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وقعت في الأمَمِ السَّالفةِ، فهٰذه الأمَّة تقعُ فيها عبادةُ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا، وقولُه: (**بَابٌ مَا جَاءَ**) يعني: من النُّصوصِ في الكتابِ وفي السُّنَّة، (**مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ**)، (**بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ**) هٰذا التَّبعيضُ؛ لأنَّ عبادةَ الأوثانِ لم تكن من الأمَّةِ كلِّها، وإنَّما كانت من بعضِ هٰذه الأمَّةِ، وإلَّا فلا تزالُ طائفةٌ من هٰذه الأمَّةِ ظاهرةٌ علىٰ الحقِّ كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ**»، فإذن قوله: (**بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ**) يعني ذلكَ البعضَ المَرذولَ، فنفهمُ منه أنَّ هناك من يقومُ بالاستمساكِ بالأمرِ الأوَّلِ الَّذي كان عليه الرَّسولُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان عليه صحابتُه في أمرِ التَّوحيدِ وأمرُ العبادةِ والسُّنَنِ.

(**بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ**) المَقصودُ بقوله (**هذه الأُمَّة**) أمَّة الدَّعوةِ أم أمَّة الإجابةِ؟

إذا قُلنا: أمَّة الدَّعوة فلا شكَّ أنَّ هناك من أمَّةِ الدَّعوةِ وهم جميعُ النَّاسِ؛ بل من الجنِّ والإنسِ أنَّ منهم من عبدَ الأوثانَ واستمرَّ علىٰ عبادتِها بعد بعثةِ النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يرضَ ببعثتِه ولم يقبلْ ذلكَ.

وإذا قُلنا: إنَّ المُرادَ بالأمَّةِ أمَّةُ الإجابةِ يعني أنَّ من أجابَ الرَّسولَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوتِه تتقادمُ بهم العهودُ حتَّىٰ يَرتدُّوا علىٰ أدبارِهم ويتركوا دينَهم كما جاء في بابٍ سلفَ في أنَّ سببَ كُفرِ بني آدمَ وتَركِهم دينَهم الغُلوُّ في الصَّالحينَ.

فإذن الظَّاهرُ هنا أنَّ قولَه: (**بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ**) يعني به: أمَّةَ الإجابةِ في أنَّهم يتركون دينَهم ويتوجَّهون إلىٰ الأوثانِ يعبُدونَها.

والأوثانُ جمعُ وثنٍ، والوثنُ هو كلُّ شيءٍ توجَّهَ إليه النَّاسُ بالعبادةِ، إمَّا بأنْ يدعوه مع الله جَلَّوَعَلَا، أو أن يستغيثوا به، أو أن يعتقِدوا فيه أنَّه ينفعُ ويضرُّ بدونِ إذنِ الله جَلَّوَعَلَا، أو أنَّه يُرجىٰ رجاءَ العبادةِ

ويُخافُ منه كخوفٍ من الله جَلَّ وَعَلَا خوفَ السِّرِّ ونحوِ ذلك من الأشياءِ، من اعتقدَ فيه ذلكَ فذلكَ الشَّيءُ وثنٌ من الأوثانِ، وقد يكونُ راضيًا بتلكَ العبادةِ وقد لا يكونُ راضيًا بتلكَ العبادةِ.

والوثنُ ليس مُصوَّرًا علىٰ شكلِ صورةٍ.

والصَّنمُ هو ما كان علىٰ شكلِ صورةٍ كما سبق أنْ ذَكرنا.

فالفرقُ بين الأوثانِ والأصنامِ أنَّ الأصنام هي الآلهةُ الَّتي صُوِّرتْ علىٰ شكلِ صُوَرٍ؛ كأنْ يجعلَ لنبيٍّ من الأنْبياءِ صورةً ويعبدَها أو يجعلَ لرَجلٍ من الرِّجالِ كبوذا ونحوِه صُورةً ويسجدَ لها ويعبُدَها هٰذه أصنامٌ، أو أن تكونَ أوثانًا والأوثانُ هي الأشياءُ الَّتي تُعبَدُ، قد يكونُ جدارًا، قد يكونُ قبرًا، قد يكونُ رجلًا ميْتًا، قد يكونُ صفةً من الصِّفاتِ يتَّخذُها مَعبودةً من دونِ الله، فكلُّ ما تَوجَّهَ إليه العبادُ بنوعٍ من أنواعِ العبادةِ فهو وثنٌ من الأوثانِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (**وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: 51].) (**الْجِبْتُ) اسمٌ عامٌّ لكلِّ ما فيه مُخالفةٌ لأمرِ الله جَلَّ وَعَلَا وأمرِ رسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاعتقادِ.**

قد يكونُ **الجِبتُ سِحرًا**، وهٰذا هو الَّذي فسَّرَها كثيرٌ من السَّلفِ بأنَّ الجِبتَ السِّحرُ.

وقد يكونُ **الجِبتُ الكاهنَ**.

وقد يكونُ **الجِبتُ الشَّيءَ المَرذولَ الَّذي يضُرُّ صاحبَه**.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ يعني يُؤمنون بالسِّحرِ ويُؤمنون بالباطلِ وعبادةِ غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا، (يُؤْمِنُونَ ... بالطَّاغُوتِ) **والطَّاغوتُ مُشتَقٌّ من الطُّغيانِ؛ وهو مُجاوزةُ الحدِّ، فالطَّاغيةُ هو الَّذي تَجاوزَ الحدَّ في أمرِ الدِّين بأنْ جعلَ ما لله لهُ.**

ولهٰذا يُعرِّف ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **الطَّاغوتَ** بأنَّه: **كلُّ ما تجاوزَ به العبدُ حدَّه، من مَعبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ.**

فإذا (تجاوزَ به العبدُ حدَّه)؛ يعني: حدَّ ذلكَ الشَّيءِ الَّذي توجَّهوا إليه -الَّذي أُذِن به شرعًا له- تَجاوزوا الحدَّ به، فتوجَّهوا إليه بالعبادةِ، أو اعتَقدوا فيه بعضَ خصائصِ الإلهيَّةِ من أنَّه يُغيثُهم كيفَ ما شاء، ومن أنَّه يملكُ غَوْثَهم، ويملكُ الاستشفاعَ لهم، ويملكُ أن يغفرَ لهم، وأن يُعطيَهم، ويملكُ أن يُقرِّبَهم إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا ونحوَ ذلك ممَّا لا يَملكُه المَعبودون، فإنَّ ذلكَ مُجاوزةٌ بذلكَ عن الحدِّ الَّذي جُعلَ له في الشَّرعِ، مُجاوزةُ الحدِّ في المَعبودين أو المَتبوعين، (ما تجاوزَ به العبدُ حدَّه من مَعبودٍ أو

مَتبوعٍ)، (أو مَتبوعٍ) مثل العُلماءِ أو القادةِ في أمرِ الدِّينِ، إذا تجاوزَ النَّاسُ بهم حدَّهم فصاروا يتَّبعونَهم في كلِّ ما قالوا وإن أحلُّوا لهم الحرامَ وحرَّموا عليهم الحلالَ أو جعلوا لهم السُّنَّةَ بدعةً أو البدعةَ سنَّةً وهم يعلمون أصلَ الدِّين؛ ولكنَّهم خالفوا لأجلِ ما قال فلانٌ= فإنَّ هٰذا قد تُجُوِّز به حدَّه.

فإنَّ حدَّ المَتبوعِ في الدِّين أن يكونَ آمرًا بما أمر به الشَّرعُ، ناهيًا عن ما نهىٰ عنه الشَّرعُ، فإذا أحلَّ الحرامَ أو حرَّم الحلالَ فإنَّه يُعتبرُ طاغوتًا، ومن اتَّبعَه فإنَّه يكونُ قد تجاوزَ به حدَّه وقد أقرَّ بأنَّه طاغوتٌ واتَّخذهُ كذلكَ، (أو مُطاعٍ) يُطاعُ كذلك من الأمراءِ والمُلوكِ والحُكَّامِ والرُّؤساءِ الَّذين يأمُرون بالحرامِ فيُطاعونَ ويأمُرون بتحريمِ الحلالِ فيُطاعونَ في ذلكَ، مع علمِ المُطيعِ بما أمرَ الله جَلَّوَعَلَا به، فهؤلاءِ اتَّخذوهم طَواغيتَ لأنَّهم جاوزوا بهم حدَّهم.

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيدخلُ في الطَّاغوتِ كلُّ هٰذهِ الأنواعِ الَّذين عبدوا والَّذين اتُّبِعوا والَّذين أُطيعوا.

ووجهُ المُناسبةِ من هٰذه الآية للبابِ أنَّ ذلكَ وهو الإيمانُ بالجِبتِ والطَّاغوتِ حصلَ ووقعَ من الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتابِ -من اليَهود والنَّصارىٰ-، والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبرَ أنَّ ما وقعَ في الأُمَمِ قبلَنا سيقعُ في هٰذه الأمَّةِ كما قال في حديث أبي سعيدٍ الآتي «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**» فمثَّلَ بشيءٍ صغيرٍ وهو دخولُ جحرِ الضَّبِّ الَّذي لا يُمكن أن يُفعل تنبيهًا علىٰ أنَّ ما هو أعلىٰ من ذلكَ سيقعُ من هٰذه الأمَّةِ كما وقعَ من الأُمَمِ قبلَنا.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[النِّساء] وهٰذا حصلَ من هٰذهِ الأمَّةِ، فإنَّ منهم من آمنَ بالسِّحرِ، ومنهم من آمنَ بعبادةِ غيرِ الله، ومنهم من أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحليلِ ما حرَّم اللهُ، وتحريمِ ما أحلَّ اللهُ، فكانوا بذلك مُتَّبعينَ سَنَنَ من كان قبلَهم، وحصلَ منهم إيمانٌ بالجِبتِ والطَّاغوتِ، كما حصلَ من الأُمَمِ قبلَهم.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال (وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:60]) وجهُ الشَّاهدِ من هٰذه الآيةِ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، علىٰ هٰذهِ القراءةِ ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فإنَّ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ مفعولُ ﴿عَبَدَ﴾، و﴿عَبَدَ﴾ تكونُ مَعطوفةً علىٰ قولِه: ﴿لَّعَنَ﴾؛ ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ أنْ قال: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، يعني كأنَّه قالَ بتقديمِ

وتأخيرٍ: من لعنَه اللهُ ومن عبدَ الطَّاغوتَ. وعبادةُ الطَّاغوتِ وقعت في أولئكَ المَلعونينَ، وبما أنَّ ما وقعَ في الأُمَمِ السَّالفةِ بخبرِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سيقعُ في هٰذه الأمَّةِ فإنَّنا نعلمُ أنَّ في هٰذه الأمَّةَ من سيَعبدُ الطَّاغوتَ كما عبدَها أولئك.

وعبادةُ الطَّاغوتِ عامَّةٌ -كما ذكرنا- يدخلُ فيها عبادةُ الأوثانِ من عبادةِ القُبورِ وتأليهِ أصحابِها والتَّوسُّلِ بهم إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا؛ يعني الاستشفاعَ بهم إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا أو طلبَ الشَّفاعةِ منهم، ونحوَ ذلك من الوسائلِ الشِّركيَّةِ أو ما هو من الشِّركِ الأكبرِ، فحصلت عبادةٌ للأوثانِ من القُبورِ ومن المَشاهِدِ ومن الأشجارِ ومن الأحجارِ، ونحوِ ذلك ممَّا اعتقدَ فيه الجَهَلةُ الَّذين تركوا دينَ مُحمَّدٍ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

[الدَّليلُ الثَّالِثُ] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف]) قصَّةُ أصحابِ الكهفِ مَعروفةٌ، وهٰذه الجُملةُ بعضُ آيةٍ من قصَّةِ أصحابِ الكهفِ، ولما حصل أنْ جعلَهم اللهُ جَلَّوَعَلَا آية ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾[الكهف]، ثمَّ أحياهم الله جَلَّوَعَلَا وأطلعَ النَّاسَ أنَّهم مكثوا أحياءَ هٰذه المدَّةَ الطَّويلةَ أنَّهم أماتَهم اللهُ ثمَّ أحياهم اعتَقدوا فيهم، ولمَّا اعتَقدوا فيهم وماتوا تنازعوا في أمرِهم، فمِنهم من قالَ: افعلوا لهم كذا ابنوا عليهم بُنيانًا، ومِنهم من قال: اجعلوا لهم فناءً ودارًا وعظِّموا مكانَهم، واختلفَ النَّاسُ فيهم في ذلكَ الزَّمانِ، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ مَن الَّذين غلبوا علىٰ أمرِهم؟ اختلفَ المُفسِّرون في ذلكَ.

فقال قائلونَ: هم مُسْلِمُو ذلك الزَّمانِ حصلَ منهم تعظيمٌ لأصحابِ الكهفِ ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾[الكهف:21]، وقالوا: اتِّخذوا عليهم مَسجِدًا تعظيمًا لهم ودِلالةً للنَّاسِ عليهم، فإذا كان هٰذا القولُ راجحًا فإنَّه من وسائلِ الشِّركِ بالله ويُؤدِّي إلىٰ عبادةِ تلك القُبورِ والاعتِقادِ في أصحابِ الكهفِ، وهٰذا القدرُ حصلَ في هٰذه الأمَّةِ.

والقولُ الثَّاني: أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ هم المُشركون؛ يعني: أتباعَ ذلك الدِّين لاعتقادِهم الجاهليِّ ولما في قُلوبِهم من الشِّرك والبدعِ الَّتي خالفوا بها أنبيائَهم قالوا: ابنوا عليهم مَسجِدًا، كما قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

والقولُ الثَّالثُ: وهو الَّذي رجَّحه ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ ورجَّحه أيضا عدد من أهل العلم أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ هم الكُبراءُ والأُمراءُ وأصحابُ النُّفوذِ فيهم؛ يعني: الَّذين كانت لهم الغَلَبةُ في الأمرِ،

والَّذي له الغَلَبَةُ في الأمرِ هو الَّذي يملِكُ الأمرَ والنَّهيَ في النَّاسِ وهم الكُبراءُ وأصحابُ النُّفوذِ ومُلوكُ ذلك الزَّمانِ وأُمراءُ ذلك الزَّمانِ، فأولئك عظَّموا أولئكَ الصَّالحينَ قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقد حصلَ هٰذا في تلكَ الأمَّةِ وما دام أنَّه حصلَ فإنَّه سيحصُل في هٰذه الأمَّة؛ لأنَّه ما من خَصلةٍ من الشِّرك حصلَت في الأُمَمِ قبلَنا إلَّا وحصلَت في هٰذه الأمَّة حتَّىٰ ادَّعىٰ بعضُ هٰذه الأمَّةِ أنَّه هو الله جَلَّ وَعَلَا وأنَّ الله يحلُّ فيه ونحوُ ذلك؛ بل قد ادَّعوا أنَّ روحَ الإلهِ تتناسخُ في أُناسٍ مُعيَّنينَ كما هو اعتقادُ طَوائفَ من الباطنيِّينَ ونحوِ ذلك.

[الدَّليل الرَّابع] وهٰذا كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».

وهٰذا الحديثُ وهو حديثُ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» قوله: «سَنَنَ» هٰذه تُروىٰ هكذا «سَنَنَ» بفَتحتين فتحُ السِّينِ والنُّونِ.

وتُروىٰ أيضا «سُنَنَ»، والسُّننُ جمع سُنَّةٍ وهي الطَّريقةُ؛ يعني كأنَّه قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» يعني طرائقَ من كانَ قبلَكم يعني في الدِّين.

وعلىٰ الضَّبطِ الآخرِ الَّذي أقرأُ به «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» السَّنَنُ مُفردٌ وهو السَّبيل والطَّريق يعني لتتَّبعُنَّ سبيلَ من كان قبلَكم.

واللَّام في قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ» هي الواقعُة في جوابِ القَسَمِ، نفهم من وجودُ اللَّام أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقسمَ علىٰ ذلك؛ فقالَ مُؤكِّدًا: والله لتتَّبعُنَّ سَنَنَ من كانَ قبلَكم؛ لأنَّ اللَّام هٰذه واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، فإذا رأيتَ اللَّام هٰذه المَفتوحةَ فهيَ الواقعةُ في جوابِ القَسَمِ؛ بل أقسمَ عليه والقَسَمُ مَحذوفٌ واللَّام واقعةٌ في جوابِه، لِمَ أقسمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ ليُؤكِّدَ هٰذا الأمرَ تأكيدًا عظيمًا بأنَّ هٰذه الأمَّةَ ستتَّبعُ طريقةَ وسبيلَ من كان قبلَها من الأُمَمِ، وهٰذا تحذيرٌ لأنَّ الأُمَمَ السَّالفةَ إمَّا أن تكونَ من أهل الكتاب -اليَهودِ والنَّصارىٰ-، وهؤلاءِ قد وصفَهم اللهُ جَلَّ وَعَلَا بأنَّهم مَغضوبٌ عليهم وضالُّونَ، فإذا اتُّخذَت سبيلُهم سبيلًا في هٰذه الأمَّةِ مَعنىٰ ذلك أنَّ هٰذه الأمَّةَ تعرَّضَت للغضبِ واللَّعنةِ، وهٰذا حصلَ في هٰذه الأمَّةِ، فإنَّ مِنهم من سلكَ سبيلَ اليَهودِ ومِنهم من سلكَ سبيلَ النَّصارىٰ.

ولهٰذا قالَ بعضُ السَّلفِ: **من فسدَ من عُلمائِنا ففيهِ شَبَهٌ من اليَهودِ ومن فسدَ من عُبَّادِنا ففيه شبهٌ من النَّصارىٰ**. لأنَّ اليَهودَ خالفوا علىٰ علمٍ، والنَّصارىٰ خالَفَتْ علىٰ ضَلالةٍ، وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، والمغضوبُ عليهم هم اليَهودُ والضَّالُّون هم النَّصارىٰ كما

فسَّرها النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» يعني من التَّساوي، القُذَّةُ والقُذَّةُ تكونُ في السَّهمِ، وتكونُ هٰذه مُساويةً لتلكَ، لا تُفرِّقُ بين واحدةٍ والأُخرىٰ، فإذا نظرتَ في هٰذه ونظرتَ في هٰذه وَجدتَ أنَّهما مُتماثلانِ، وَجدت أنَّ هٰذه وهٰذه مُتماثِلتان لا فرقَ بينَهما، وهٰذا هو الواقعُ فإنَّ في هٰذهِ الأمَّةِ وقعَ التَّماثُل، ففي هٰذه الأمَّةِ حصلَ من مثلِ ما حصلَ من الأُمَمِ قبلَنا في أبوابِ الرُّبوبيَّةِ وفي أبوابِ الإلهيَّةِ وفي الأسماءِ والصِّفاتِ وكذلكَ في العملِ وكذلكَ في السُّلوكِ وكذلكَ في أفعالِ الله جَلَّ وَعَلَا، فكلُّ شيءٍ كانَ فيمن قبلَنا وقعَ في هٰذه الأمَّةِ نسألُ الله جَلَّ وَعَلَا السَّلامةَ والعافية.

قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!» أَخْرَجَاهُ.) يعني: البُخاريَّ ومُسلمًا، وجهُ الدِّلالةِ من هٰذا الحديثِ ظاهرةٌ؛ بل عمادُ هٰذا الباب علىٰ هٰذا الحديثِ من أنَّ كلَّ كُفْرٍ وشركٍ وقعَ في الأُمَمِ السَّالفةِ فسيقعُ في هٰذه الأمَّةِ، الأُمَمُ السَّالفةُ عَبَدَتِ الأوثانَ وكفرَت بالله جَلَّ وَعَلَا فسيقعُ في هٰذه الأمَّةِ من يعبدُ الأوثانَ ومن يكفرُ بالله جَلَّ وَعَلَا في الرُّبوبيَّةِ وفي الإلهيَّةِ وفي الأسماءِ والصِّفاتِ وفي أفعالِ الله جَلَّ وَعَلَا وفي الحُكمِ والتَّحاكُمِ، وهكذا في أنواعٍ كثيرةٍ ممَّا حصلَ فيمن قبلَنا، حتَّىٰ في أمورِ السُّلوكِ والبدعِ؛ بل حتَّىٰ في أمورِ الأخلاقِ والعاداتِ الَّتي قد تتَّصلُ بالدِّين؛ فإنَّه سلكَت هٰذه الأمَّةُ مسلكَ الأُمَمِ قبلَها مُخالِفةً نهيَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال بعدَ ذلك: (وَلِـمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وساقَ الحديثَ حديثَ ثوبانَ وهو حديثٌ طويلٌ ووجهُ الشَّاهِدِ منه قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ» والأئمَّةُ المُضلُّونَ هم الَّذين اتَّخذهم النَّاسُ أئمَّةً، قد يكونُ من جهةِ الدِّين، وقد يكونُ من جهةِ الوِلايةِ -يعني: ولايةَ الحُكمِ-، والأئمَّةُ المُضلُّون يَملِكون زمامَ النَّاسِ فيضلُّون النَّاسَ بالبدعِ وبالشِّركيَّات ويُحسِّنونها لهم حتَّىٰ تغدوَ في أعيُنِهم حقًّا، وكذلكَ أصحابُ النُّفوذِ وأصحابُ الحُكمِ فإنَّهم إذا كانوا مُضلِّينَ فإنَّ بيدِهم الأمرَ الَّذي يجعلُهم يَفرضون علىٰ النَّاسِ أشياءَ ويُلزمونَهم بأشياءَ مُضادَّةٍ لشرعِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمورِ العقيدةِ والتَّوحيدِ ومن أمورِ السُّلوكِ والعملِ ومن أمورِ الحُكمِ والتَّحاكُمِ، وهكذا وقعَ في هٰذه الأمَّةِ وخوفُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الأئمَّة المُضلِّينَ وقعَ ما خافَ منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكثُر الأئمَّةُ المُضلُّونَ في الأمَّة؛ الأئمَّةُ المُضلُّونَ من جهةِ الإتِّباعِ والأئمَّةُ المُضلُّونَ من جهةِ الطَّاعةِ.

قال: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ» هٰذا نصٌّ صحيحٌ من روايةِ البُرقانيِّ في «صحيحِه» قال: «حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» يلحق بالمُشركينَ هل هو من جهةِ تركِ بلادِ المُسلمينَ والذَّهابِ إلىٰ أرضِ المُشركينَ؟ أم يلحقوا بالمُشركينَ في الصِّفاتِ والخصالِ؟ يَحتملُ هٰذا وهٰذا «حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» يعني من جهةِ تركِ بلادِ الإسلامِ والذَّهابِ إلىٰ بلاد المُشركينَ رِضًىٰ بهم وبدينِهم، أو «حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» من جهةِ الصِّفاتِ فيُشركونَ كما أشركَ المُشركونَ ويَرتدُّون علىٰ أدبارِهم.

قال: «حَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ» **الفئامُ؛ هي: الجماعاتُ الكَبيرةُ**، قال: «حَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ» وهٰذا ظاهرُ المُناسبةِ للبابِ في قَولِ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البابِ (**بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هٰذه الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ**).

إلىٰ أنْ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هٰذا الحديثِ: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً» هٰذه الطَّائفةُ المَنصورةُ هي الَّتي قالَ فيها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديثٍ آخرَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ**»، وهي الَّتي قال فيها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هٰذِهِ الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً. وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**» فالطَّائفةُ المَنصورةُ هي الفرقةُ النَّاجيةُ وهي الجماعةُ بجمعِ أحاديثِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسُمِّيت مَنصورةً؛ لأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا نصرَها علىٰ من ناوَأَها بالحُجَّةِ والبيانِ، نَصْرُها الَّذي وُعِدَت به ليس نصرًا بالسِّنانِ ولكنَّه نصرٌ بالحُجَّةِ والبيانِ، فَهُمْ وإن هُزِموا في بعضِ المَعاركِ أو أُزيلت دَولتُهم في بعضِ الأحيانِ فهم الظَّاهرونَ علىٰ مَن سِواهم بالحُجَّةِ والبيانِ، وهم المَنصورون بما أعطاهم الله جَلَّ وَعَلَا من الحُجَّةِ والنُّصوصِ والصَّوابِ والحقِّ علىٰ مَن سِواهم فهُمْ علىٰ الحقِّ وسِواهم علىٰ الباطلِ.

هٰذان اللَّفظان (فرقةٌ ناجيةٌ) و(طَائفةٌ مَنصورةٌ) اسمان لشيءٍ واحدٍ وإنَّما هو من بابِ تَنوُّعِ الصِّفاتِ، فقالَ عنها الطَّائفةُ المَنصورةُ هنا «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً»؛ لأنَّها مَوعودةٌ بالنَّصرِ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، فَهُمْ مَنصورون، كما قال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[الصَّافَّات]، فقولُهم هو المَنصورُ وهو الظَّاهرُ وحُجَّتُهم هي الظَّاهرةُ، وقد يكونُ

من النَّصرِ والتَّمكينِ في أرض الله ما أعطاهم اللهُ جَلَّوَعَلَا من ذلكَ، وهم أيضًا الفِرقةُ النَّاجيةُ الَّتي جاءت في حديثِ الافتراقِ، ناجيةٌ يعني مَوعودةٌ بالنَّجاةِ من النَّارِ، فهم مَوصوفونَ بالنَّصرِ ومَوصوفونَ بالنَّجاةِ من النَّارِ، ومَوصوفونَ بالنَّصرِ علىٰ عَدوِّهم بالحُجَّةِ والبَيانِ، وقد يكونُ مع ذلكَ نصرٌ بالسَّيفِ والسِّنانِ ونحوِ ذلك.



24- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾[البقرة:102].

[2] وَقَوْلُـهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾[النساء:51].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْـمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

[4] وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

[5] وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

[6] وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ.

[7] وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**) ومُناسبةُ ذكرِ السِّحرِ لـ«كتاب التَّوحيدِ» أنَّ السِّحرَ نوعٌ من الشِّركِ، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، فالسِّحرُ أحدُ أنواعِ الشِّركِ الأكبرِ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ فمُناسبتُه ظاهرةٌ أنَّه مُضادٌّ لأصلِ التَّوحيدِ.

والسِّحرُ في اللُّغةِ هو عبارةٌ عمَّا خَفِيَ ولطُفَ سببُه، خفيَ؛ يعني: صارَ سببُ ذلكَ الشَّيءِ خَفيًّا لا يقعُ بظهورٍ وإنَّما يقعُ علىٰ وجهِ الخفاءِ، ولهٰذا سُمِّيَ آخرُ اللَّيلِ سَحَرًا لذلك، وكذلكَ قيل في أكْلةِ آخرِ اللَّيلِ: سُحورٌ؛ وذلك لأنَّها تقعُ علىٰ وجهِ الخفاءِ وعدمِ الاشتهارِ والظُّهورِ من النَّاسِ.

فهٰذه اللَّفظةُ (سِحْرٌ) وما اشتُقَّ منه تدلُّ علىٰ خفاءٍ في الشَّيءِ، ولهٰذا فإنَّه في اللُّغةِ يُطلَقُ السِّحرُ علىٰ أشياءَ كثيرةٍ:

- منها: ما يكونُ من جهةِ المَقالِ.

- ومنها: ما يكونُ من الفعلِ.
- ومنها: ما يكونُ من جهةِ الاعتقادِ.

وسيأتي في هٰذا البابِ وفي الباب الَّذي بعدَه عن بيانِ شيءٍ من أنواعِ السِّحرِ ما يتَّصلُ بذلكَ.

وأمَّا السِّحرُ الَّذي هو كفرٌ أو شِركٌ أكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا فهو استخدامُ الشَّياطينِ والاستعانةُ بها لحصولِ أمرٍ بواسطةِ التَّقرُّب لذلك الشَّيطانِ بشيءٍ من أنواعِ العبادةِ.

والسِّحرُ عرَّفه الفُقهاءُ بقولِهم: السِّحرُ هو رُقًىٰ وعزائمُ وعُقَدٌ يُنفَثُ فيها، فيكونُ سِحرًا يضرُّ حقيقةً، ويُمرِضُ حقيقةً، ويَقتلُ حقيقةً.

فإذن حقيقةُ السِّحرِ أنَّه استخدامٌ للشَّياطينِ في التَّأثيرِ، ولا يُمكنُ للسَّاحرِ أن يصلَ إلىٰ إنفاذِ سحرِه حتَّىٰ يكونَ مُتقرِّبًا إلىٰ الشَّياطينِ، فإذا تقرَّبَ إليها خدمَته الجنُّ -يعني: شياطينَ الجنِّ- بأن أثَّرت في بدنِ المَسحورِ، فلكلِّ سِحرٍ خادمٌ من الشَّياطينِ يخدمُه، ولكلِّ ساحرٍ مُستَعانٌ به من الشَّياطينِ، فلا يُمكنُ للسَّاحرِ أن يكون ساحرًا علىٰ الحقيقةِ إلَّا وهو يتقرَّبُ إلىٰ الشَّياطينِ.

ولهٰذا نقولُ: السِّحرُ شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

وهناك شيءٌ قد يكون في الظَّاهرِ أنَّه سِحرٌ؛ ولكنَّه في الباطن ليسَ بسِحرٍ، وهٰذا ليسَ الكلامُ فيه، وإنَّما الكلامُ فيما كان من السِّحرِ بالاستعانةِ بالشَّياطينِ وباستخدامِ الرُّقَىٰ والتَّعويذاتِ والعُقَدِ والنَّفثِ فيها، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤﴾[الفلق]، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هنَّ السَّواحرِ اللَّاتي يَعقِدْنَ العُقَدَ ويَنْفُثْنَ فيها، خُصَّتِ الإناثُ بذلكَ بالاستعاذةِ؛ لأنَّ الغالبَ ممَّا يَستخدمُه في الجاهليَّة وعند أهلِ الكتابِ أنَّ الَّذي يستخدمُه النِّساءُ، فجرىٰ ذلكَ مَجرىٰ الغالبِ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤﴾، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ جمع **نفَّاثةٍ صيغةُ مُبالَغةٍ في النَّفثِ**؛ لأنَّها تُكثِرُ النَّفثَ في العُقْدَةِ وتنفُثُ برُقًىٰ وتعازيمَ وتَعويذاتٍ تَستخدِمُ فيها الجنَّ لتخدمَ هٰذه العُقْدَةَ الَّتي فيها شيءٌ من بدنِ المَسحورِ أو فيها شيءٌ يتعلَّقُ بالمَسحورِ حتَّىٰ يكونَ ذلك مُؤثِّرًا فيه.

وقد سَحَرَ يهوديٌّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مُشطٍ ومُشاطَةٍ؛ أي: في شيءٍ من شعرِه، وحتَّىٰ يُخيَّلَ للنَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنَّه يفعلُ الشَّيءَ ولا يَفعلُه من جهةِ نسائِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ يعني: كان سحرُ ذلكَ اليَهوديِّ مُؤثِّرًا في بدنِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ لكنَّه لم يكن مُؤثِّرًا في علمِه ولا في عقلِه ولا في روحِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وإنَّما في بدنِه يُخيَّلُ إليه أنَّه قد واقع نساءَه وهو لم يُواقِعْ ونحوُ ذلك.

هٰذا السِّحرُ الَّذي فيه استخدامُ الشَّياطينِ شركٌ وكفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا، قد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ

ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ ﴾، والَّذي تَلَتْهُ الشَّياطينُ علىٰ مُلكِ سُليمانَ هو ما قرأوا في كتبِ السِّحرِ وما يتَّصلُ بذلك من عملِ السِّحرِ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ فعلَّلَ كُفرَ الشَّياطينِ بقولِه: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾، قال سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾[البقرة:102] فإذن تعلُّم السِّحرِ، تعلُّمُه من جهةِ فهمِ كيفَ يكونُ السِّحرُ وكيف يَعملُ السِّحرُ هذا لا يمكن أن يكون إلَّا بالكُفرِ والشِّركِ.

لكنْ هناكَ مَرتبةٌ أنَّه يتعلَّم ذلكَ نَظريًّا ولا يَعملُه.

وهناك مَرتبةٌ أنَّه يتعلَّمُه ويعملُه ولو مرَّةً.

وهناك مَرتبةُ السَّاحرِ الَّذي يتعلَّمُ ويعملُه دائمًا.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ تعلُّمَه بمُجرَّدِه كُفرٌ.

ولهٰذا نقول: الصَّحيحُ أنَّ تَعلُّمَ السِّحرِ ولو بدونِ عملٍ شركٌ وكفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا بنصِّ الآية، لِمَ؟ لأنَّه لا يُمكنُ أن يتعلَّم السِّحرَ إلَّا بتَعلُّمِ الشِّرك بالله جَلَّوَعَلَا وكيفَ يُشرِكُ، وإذا تعلَّم الشِّركَ فهو مُشرِكٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

بعضُ العلماء يقولُ: السِّحرُ قسمان كقول الشَّافعيِّ وغيرِه:

- منه ما يكونُ بالاستعانةِ بالشَّياطينِ، فهٰذا كفرٌ وشِركٌ أكبرُ.
- ومنه بما يكونُ بالأدويةِ والتَّدخيناتِ فهٰذا فسقٌ ومُحرَّمٌ، ولا يكفرُ فاعلُه إلَّا إذا استحلَّه.

وهٰذا التَّقسيمُ من الشَّافعيِّ وممَّن تبعَه هو من جهةِ الواقعِ؛ يعني: نظروا في الَّذين يُمارسون ذلك، فمنهم من يقولُ: إنَّه ساحرٌ وليس كذلكَ من جهةِ السِّحرِ الشَّرعيِّ الحقيقيِّ؛ يعني السِّحرَ الَّذي وُصِفَ في الشَّرعِ، فيقولُ: هو ساحرٌ وهو يَستخدمُ أدويةً وتَعويذاتٍ، وفي الحقيقةِ هو مُشعوِذٌ لا يصدُقُ عليه اسمُ السَّاحرِ، وهٰذا فيما يفعلُ يُؤثِّرُ عن طريقِ الأدويةِ.

وأمَّا الصَّرفُ والعطفُ؛ يعني: جلبُ محبَّةِ امرأةٍ لزوجِها أو صرفُ محبَّةِ المرأةِ لزوجِها أو العكسُ فهٰذا من القسمِ الأوَّلِ؛ لأنَّه من نواقضِ الإسلامِ، فالسِّحرُ من نواقضِ الإسلامِ؛ لأنَّه شركٌ بالله ومنه الصَّرفُ والعطفُ؛ لأنَّه لا يمكنُ لأحدٍ أن يصلَ إلىٰ روحِ وقلبِ من يُراد صرفُه أو العطفُ إليه إلَّا

بالشِّركِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو الَّذي يُؤثِّرُ علىٰ النَّفسِ ولن يخدمَ الشَّيطانُ الإنسيَّ السَّاحرَ إلَّا بعد أن يُشركَ بالله جَلَّوَعَلَا.

إذن فتحصَّلَ أنَّ السِّحرَ بجميع أنواعِه فيه استخدامٌ للشَّياطينِ واستعانةٌ بها، والشَّياطينُ لا تخدمُ إلَّا من تقرَّبَ إليها، يتقرَّبُ إليها بأيِّ شيءٍ؟ بالذَّبحِ، يتقرَّبُ إليها بأيِّ شيءٍ؟ بالاستغاثةِ، يتقرَّبُ إليها بالاستعاذةِ ونحوِ ذلك؛ يعني: يصرفُ إليها شيئًا من أنواعِ العبادةِ.

بل قد نظرتُ في بعضِ كُتبِ السِّحرِ فوجدتُ أنَّ السَّاحرَ بحسبِ ما وَصفَ ذلك الكاتبُ لا يصلُ إلىٰ حقيقةِ السِّحرِ وتخدمُه الجنُّ كما ينبغي حتَّىٰ يُهينَ القرآنَ ويُهينَ المصحفَ، وحتَّىٰ يكفرَ بالله ويسبَّ الله جَلَّوَعَلَا ونبيَّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهٰذا قد ذكره بعضُ أيضًا من قد اطَّلعَ علىٰ حقيقةِ الحالِ.

إذن نقولُ: السِّحرُ شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلُّ ساحرٍ مُشركٌ، وقتلُ السَّاحرِ فيها سيأتي علىٰ الصَّحيحِ أنَّه قتل ردَّةٍ لا قتلُ تعزيرٍ كما سيأتي.

فالشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقدَ هٰذا البابَ (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**) لبيانِ تلكَ المَسألةِ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة:102]) وجهُ الاستدلالِ بهٰذه الآيةِ قولُه: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: ما له في الآخرةِ مِن نصيبٍ، الخلاقُ بمعنىٰ النَّصيبِ، ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يعني: اشترىٰ السِّحرَ، والاشتراءُ فيه دفعُ شيءٍ؛ يعني: أن يَأخُذَ شيئًا ويدفعَ عِوضَهُ، حقيقةُ الشِّراءِ أن تشتريَ سلعةً مثلًا تدفعُ ثمنَها تأخذُ مُثمَّنًا وتدفعُ ثمنًا.

والسَّاحرُ اشترىٰ، من تعلَّمَ السِّحرَ اشترىٰ، اشترىٰ أيَّ شيءٍ؟ اشترىٰ السِّحرَ، بَدَلَ أيِّ شيءٍ؟ بدلَ توحيده، فالثَّمنُ هو التَّوحيدُ، الثَّمنُ هو الإيمانُ بالله وحدَه والمُثمَنُ هو السِّحرُ؛ ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يعني: من دفعَ دينَه عوضًا عن ذلكَ الشَّيءِ الَّذي أخذَه وهو السِّحرُ، ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: من نصيبٍ، وهكذا المُشركُ ليسَ له في الآخرةِ من نصيبٍ.

فوجهُ الاستدلالِ ظاهرٌ من أنَّ السَّاحرَ قد جعلَ دينَه عوضًا عن ذلكَ الَّذي اشتراه وتعلَّمه وعملَ به.

[**الدَّليلُ الثَّاني**] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾[النساء:51]. **قَالَ عُمَرُ: الجِبتُ: السِّحْرُ**) وهٰذا في ذمِّ أهلِ الكتابِ، فإنَّ أهلَ الكتابِ لمَّا آمنوا بالسِّحرِ ذمَّهم اللهُ جَلَّوَعَلَا ولعنَهم وغضبَ عليهم، وهٰذا يكثُرُ في اليَهودِ، يكثُرُ السِّحرُ واستعمالُ السِّحرِ في اليَهودِ، ولهٰذا ذمَّهم الله جَلَّوَعَلَا ولعنَهم

وغضِبَ عليهم.

(قَالَ عُمَرُ) بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الْجِبْتُ: السِّحْرُ» وإذا كانَ الله جَلَّوَعَلَا ذمَّهم ولعنَهم وغضبَ عليهم لأجلِ ذلكَ فهٰذا يُفيدُ أنَّه من المُحرَّماتِ ومن الكبائرِ، وإذا كان فيه إشراكٌ بالله جَلَّوَعَلَا فظاهرٌ أنَّه شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا وهكذا جميعُ أصنافِه كذلكَ.

قال: (وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ) يعني الجِبتُ اسمٌ عامٌّ يشملُ أشياءَ كثيرةً كما ذكرنا ومن أبرزِها وأظهرِها عند اليَهودِ السِّحرُ، فيؤمنون بالجِبتِ يعني السِّحرَ؛ لأنَّه هو أظهرُ الأشياءِ عندَهم، ويؤمنون بالطَّاغوتِ يعني بالشَّيطانِ وهو كلُّ ما توجَّهوا إليه بالطَّاعةِ وبعُدَ عن الحقِّ وعن الصَّوابِ.

(وَقَالَ جَابِرٌ) -يعني ابنَ عبدِ اللهِ- (الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ) وهٰذا يأتي بيانُه في (بابِ ما جاءَ في الكُهَّانِ).

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ »).

وجهُ الاستدلالِ من ذلكَ أنَّ السِّحرَ من الموبِقاتِ.

والموبِقاتُ هي الَّتي تُوبِقُ صاحبَها وتجعلُه في هلاكٍ وخسارٍ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، وهي أكبرُ الكبائرِ هٰذه السَّبعُ.

وعطفُ السِّحرِ علىٰ الشِّركِ بالله ليس عطفًا بين مُتغايِرَينِ في الحقيقةِ، وإنَّما هو عطفٌ بين خاصٍّ وعامٍّ، فالشِّركُ بالله يكونُ بالسِّحرِ ويكوُن بغيرِه، فعطَفَ السِّحرَ علىٰ الشِّركِ للتَّنصيصِ عليه، والسِّحرُ -كما ذكرنا- أحدُ أفرادِ الشِّركِ بالله جَلَّوَعَلَا.

وعطفُ الخاصِّ علىٰ العامِّ أمثلَتُه كثيرةٌ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[البقرة]، هنا عطفَ جبريلَ وميكالَ علىٰ الملائكةِ وهٰذا من عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال بعد ذلك: (وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ»)، (حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ)، رُويَت هكذا (ضَرْبُهُ) وهو الأصحُّ، ورُويَتْ (ضَرْبَةٌ) حدُّ السَّاحرِ ضَربةٌ بالسَّيفِ، فعلىٰ روايةِ (ضَرْبَةٌ) لا يكونُ لها مَفهومٌ؛ يعني إن مات بضَربةٍ أو يُضرَبُ ضربتَين أو ثلاثًا لأنَّ العددَ لا مَفهومَ له.

قوله: (حَدُّ السَّاحِرِ) هنا لم يفصِّلْ بين ساحرٍ وساحرٍ فقال: (حَدُّ السَّاحِرِ)، ولم يأتِ في أدلَّةِ الكتابِ

والسُّنَّةِ التَّفصيلُ في اسمِ السَّاحرِ الَّذي يُحدُّ أو الَّذي وُصفَ بالكفرِ بين نوعٍ ونوعٍ من التَّأثير، فالأنواعُ الَّتي يستخدمُها السَّحرةُ ممَّا يصدُقُ عليه أنَّه سحرٌ في التَّأثيرِ، وفي الإمراضِ، وفي التَّفريقِ، وفي التَّأثيرِ علىٰ العُقولِ وعلىٰ القُلوبِ، ونحو ذلك من أنواعِ التَّأثيرِ الخفيِّ الَّذي يكونُ باستخدامِ الشَّياطينِ أو بأمورٍ خفيَّةٍ، فهٰذا كلُّه لا يُفرَّقُ فيه بين فاعلٍ وفاعلٍ والأدلَّةُ ما فرَّقَتْ.

فلهٰذا قال العلماءُ: الصَّحيحُ أنَّ السَّاحرَ من أيِّ نوعٍ حدُّهُ أن يُقتَلَ.

وهل حدُّه حدُّ كفرٍ وردَّةٍ أو حدٌّ لأجلِ أنَّه قَتَلَ فيكونُ حدًّا لأجلِ القتلِ أو حدَّ تعزيرٍ؟

اختلف العلماءُ في ذلك، والصَّحيحُ في هٰذه أنَّه في الجميعِ حدُّ ردَّةٍ؛ لأنَّ حقيقةَ السِّحرِ لابدَّ أن يكونَ فيه إشراكٌ بالله جَلَّوَعَلَا، فمن أشركَ بالله جَلَّوَعَلَا فقد ارتدَّ وحلَّ دمُه ومالُه.

شيخُ الإسلامِ له تفصيلٌ يقول فيه ما مُقتضاهُ: إنَّ السَّاحرَ قد لا تُدرَكُ حقيقةُ سحرِه، فيُتركُ أمرُه في قتلِه إلىٰ الإمامِ، إذا رأىٰ المصلحةَ في قَتْلِهِ قَتَلَهُ وإن لم يرَ المَصلحةَ في قتلِه لم يقتُلْهُ؛ ويعني بالمَصلحةِ المَصلحةَ الشَّرعيَّةَ.

فتحصَّل في ذلكَ أنَّه ثَمَّ أقوالٌ في حدِّ السَّاحرِ:

الأوَّلُ: أنه يقتل مطلقًا ردّة؛ لأنه لا يكون السحر إلَّا بشرك.

والقولُ الثَّاني: أنَّه يُقتَلُ ردَّةً إذا كان سحرُه بشركٍ، ويُقتَلُ حدًّا إذا كانَ سحرُه أدَّىٰ إلىٰ قتلِ غيرِه بغيرِ ما فيه إشراكٌ من مثلِ الأدويةِ والتَّعويذاتِ ونحوِ ذلك الَّتي ذَكرنا.

والثَّالثُ: القولُ الَّذي عُزِي لشيخِ الإسلامِ من أنَّه كالزِّنديقِ يُتركُ أمرُه إلىٰ الإمامِ بحسب ما يراهُ إنْ رأىٰ المَصلحةَ الشَّرعيَّةَ في قتلِه قتلَه وإلَّا عاقبَه بما دونَ القتلِ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْـخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ) هٰذا ظاهرٌ في الأمرِ بقتلِ السَّاحرِ والسَّاحرةِ بدون تفصيلٍ؛ ولأنَّ حقيقةَ السِّحرِ لا تكونُ إلَّا بشركٍ بالله جَلَّوَعَلَا وذلكَ ردَّةٌ.

[**الدَّليلُ السَّادسُ والسَّابع**] قال: (وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ. وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ. قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ») يعني أنَّ السَّاحرَ يجبُ أن يُقتلَ وهٰذا حدُّه، سواءٌ قلنا: يُقتَلُ لحدِّ الرِّدَّةِ أو يُقتلُ لحدِّ القتلِ أو يُقتلُ تعزيرًا، فالصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم أفتَوا بقتلِه وأمروا بقتلِه، وذلك بدون تفريقٍ، وهٰذا هو الواجبُ ألَّا يُفرَّقَ بين نوعٍ ونوعٍ.

والواجب علىٰ المُسلمينَ أنْ يَحذروا السِّحرَ بأنواعِه وأن يتعاونوا في الإبلاغِ براءةً للذِّمَّة وإنكارًا للمُنكرِ عن كلِّ مَنْ يعملون عندَه شعوذةً أو استخدامًا لشيءٍ من الخُرافاتِ أو السِّحرِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّه كما قال الأئمَّةُ: ما يدخلُ السَّحرةُ إلىٰ بلدٍ إلَّا ويفشو فيها الفسادُ والظُّلمُ والاعتداءُ والطُّغيانُ، ذلك لأنَّهم يَستخدمون الشَّياطينَ فتُطيعُ الشَّياطينُ السَّحرةَ، أعاذَنا الله مِنهم ومن أقوالِهم وأعمالِهم وتَأثيراتِهم.



[الأسئلة]

[**سؤال** (26): هل يجوزُ الذَّهابُ للعلاجِ عندَ من يزعمُ أنَّه يُعالجُ بمُساعدةِ جنٍّ مُسلمين، وهل هٰذه المُساعدةُ من الجنِّ للقارئ من الاستعانةِ الجائزةِ أم المُحرَّمةِ؟

الجواب: الاستعانةُ بالجنِّ -سواءٌ أكانوا مُسلمينَ أو غيرَ مُسلمينَ- وسيلةٌ من وسائلِ الشِّركِ، والاستعانةُ معناها طلبُ الإعانةِ، ولهٰذا من المُتقرِّرِ عندَ أهلِ العلمِ أنَّهم لا يَطلُبونَ الإعانةَ من مُسلمي الجنِّ، فلم يَطلُبِ الإعانةَ مِنهم الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم وهم أَوْلىٰ أن تخدمَهم الجنُّ وأن تُعينَهم.

وأصلُ الإستعانةِ من الجنِّ من أسبابِ إغراءِ الإنسِ بالتَّوسُّل إلىٰ الجنِّ وبرفعةِ مَقامِه وبالاستمتاع به، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ [الأنعام:128]، فحصل الاستمتاعُ -كما قال المُفسِّرونَ- من الجنِّ بالإنسِ لأنَّ الإنسيَّ يتقرَّبُ إليه ويخضعُ له ويذلُّ ويكونُ في حاجتِه، ويحصلُ الاستمتاعُ من الإنسيِّ بالجنِّيِّ بأنَّ الجنِّيَّ يخدمُه، وقد يكونُ مع ذلكَ الاستمتاعِ ذبحٌ من الإنسِ للجنِّ وتقرُّبٌ بأنواعِ العباداتِ أو -والعياذُ بالله- بالكفرِ بالله جَلَّوَعَلَا بإهانةِ المصحفِ أو بامتهانِه أو نحوِ ذلك.

ولهٰذا نقولُ: إنَّ تلكَ الاستعانةَ بأنواعِها لا تجوزُ، منها ما هو شركٌ وهي الاستعانةُ بشياطينِ الجنِّ يعني الكفَّارَ، ومنها ما هو وسيلةٌ إلىٰ الشِّركِ وهو الاستعانةُ بمُسلمي الجنِّ.

بعضُ أهلِ العلمِ كشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ قال: إنَّ الجنَّ قد تخدمُ الإنسيَّ، وهٰذا المَقامُ فيه نظرٌ وتفصيلٌ ذلكَ أنَّه ذكرَ في آخرِ كتابِ «النُّبوَّات»: أنَّ أولياءَ الله لا يستخدمونَ الجنَّ إلَّا بما فعلَه معهم رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنْ أمرَهم ونهاهم، أمَّا طلبُ خدمَتِهم وطلبُ إعانتِهم فإنَّه ليسَ من سجايا أولياءِ الله وليسَ من أفعالِ أولياءِ الله. قال: مع أنَّه قد تنفعُ الجنُّ الإنسَ وقد تُقدِّمُ له بعضَ الخدمةِ ونحوَ ذلك.

وهٰذا صحيحٌ، فحصلَ أنَّ المَقامَ فيه تفصيلٌ:

فإذا كان الاستخدامُ بطلبِ الخدمةِ؛ فهٰذا وسيلةٌ إلىٰ الشِّركِ إذا توجَّه إلىٰ جنِّيٍّ مُسلمٍ، ولا يجوزُ أن يُؤتىٰ إلىٰ أحدٍ يقرأُ يُعرفُ منه أنَّه يستخدمُ الجنَّ المُسلمين.

وإذا كانت الجنُّ تخدمُ بعضَ النَّاسِ بدونِ طلبِه فإنَّ هٰذا قد يحصلُ؛ لكنْ لم يكُنْ من خُلُقِ أولياءِ الله ولم يكُنْ ممَّا سخَّره الله جَلَّوَعَلَا لخاصَّةِ عبادِه، فلابدَّ أن يكونَ عندَ هٰذا نوعُ خللٍ حتَّىٰ كانت الجنُّ تُكثِرُ من خدمتِه وإخبارِه بالأمورِ ونحوِ ذلك.

فإذا كان ذلك بطلبٍ منه، فهٰذا لا يجوزُ وهٰذا نوعٌ من أنواعِ المُحرَّماتِ؛ لأنَّه نوعُ استمتاعٍ.

وإذا كان بغيرِ طلبٍ منه، فينبغي له أن يستعيذَ بالله من الشَّياطينِ، فيستعيذُ بالله من شرِّ مردةِ الجنِّ؛ لأنَّه قد يكونُ بعد ذلك فيه -يعني: فيما فعلَ في قبولِ ذلك الخبرِ واعتمادِه عليه وأُنسِه به لما تعلمُه الجنُّ منه- ليكونَ فيه فتحٌ لأبوابِ قلبِه بأن يتوسَّلَ بالجنِّ أو أن يَستخدمَهم.

إذا تبيَّن ذلك، فإنَّ خبرَ الجنِّ عندَ أهلِ العلمِ ضعيفٌ لا يجوزُ الاحتجاجُ به عندَ أهلِ الحديثِ، وذكرَ ذلك أيضًا الفُقهاءُ، وهٰذا صحيحٌ؛ لأنَّ البناءَ علىٰ الخبرِ وتصديقَ الخبرِ هو فرعٌ عن تعديلِ المُخبِرِ، والجنِّيُّ غائبٌ وعدالتُه غيرُ مَعروفةٍ وغيرُ مَعلومةٍ عندَ السَّامعِ، فإذا بنىٰ الخبرَ عمَّن جاءَ به له مِن الجنِّ وهو لم يَرَهُمْ ولم يتحقَّقْ عدالتَهم إلَّا بما سمعَ -وهي: لا تكفي-، فإنَّه قد يكونُ قد قَبِلَ خبرَ الفاسقِ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجرات]، والَّذين يقبَلُون إخبارَ الجنِّ وإعلامَ الجنِّ لهم ببعضِ الحوادثِ حصلَ منهم مَفاسِدُ مُتنوِّعةٌ كثيرةٌ، حيثُ إنَّهم جزموا بصحَّةِ ما أخبرتهم به الجنُّ، فربَّما حصلَ منهم قيلٌ وقالٌ -يعني من النَّاسِ في ذلك الَّذين أُخبروا بذلك- ويحصلُ بعدَ ذلك من جَرَّائِها مَفاسِدُ، وقد تفرَّقت بعضُ البُيوتِ من جرَّاءِ خبرِ قارئٍ جاهلٍ بأنَّ هٰذا الَّذي فعلَ كذا هو فُلانٌ باعتبارِ الخبرِ الَّذي جاءَه، ويكونُ الخبرُ الَّذي جاءَه من الجنِّيِّ خبرَ كذِبٍ، ويكونُ هو اعتمدَ علىٰ نبأِ هٰذا الَّذي لا يعلمُ عدالتَه وبنىٰ عليه وأخبرَ عليه وصارَ من جرَّائِه فُرقَةٌ واختلافٌ وتَفرُّقٌ وشَتاتٌ في البيوتِ.

ونعلمُ أنَّه قد ثبتَ في الحديثِ الصَّحيحِ الَّذي رواه مُسلمٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: أنَّ إبليسَ ينصبُ عرشَه علىٰ ماءٍ ويبعثُ سراياه، فيكونُ أحبَّ جنودِه إليه من يقولُ له: فرَّقتُ بين المرأةِ وزوجِها. وهٰذا في جملةِ التَّفريقِ بين المرأةِ وزوجِها؛ لأنَّه هو الغالبُ وأحبُّ ما يكونُ إلىٰ عدوِّ الله أن يُفرِّقَ بين المُؤمنين، ولهٰذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ الَّذي رواه أيضًا مُسلمٌ وغيرُه أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ**

المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ؛ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ».

فهٰذه المَسألةُ يجبُ عليكم كطلبةِ علمٍ أن تسعَوْا في إنكارِها، وأن تبذُلوا الجُهدَ في إقامةِ الحُجَّةِ علىٰ من يَستخدمُ الجنَّ ويتذرَّعُ بأنَّ بعضَ العلماءِ أباحَ ذلك، وهٰذا وسيلةٌ من وسائلِ الشِّرك بالله جَلَّوَعَلَا.

واقرأوا أوَّل كتابِ «**تاريخ نجدٍ**» **لابن بشرٍ** حيثُ قال: إنَّ سببَ دُخولِ الشِّركِ إلىٰ قُرىٰ نجدٍ أنَّه كان بعضُ الباديةِ إذا أتىٰ وقتُ الحصادِ أو أتىٰ وقتُ خرْفِ النَّخيلِ، فإنَّهم يقطُنون بجانبِ تلكَ القُرىٰ والأوديةِ ومعهم بعضُ الأعشابِ، فإذا كانوا كذلكَ ربَّما سألَهم جهلةُ تلك القُرىٰ حتَّىٰ حبَّبوا إليهم بعضَ الأفعالِ من جرَّاء سؤالِهم؛ حبَّبوا إليهم بعضَ الشِّركيَّاتِ أو بعضَ البدعِ، ثمَّ شيئًا فشيئًا حتَّىٰ فشا ذلك.

وعليه يكونُ من أسبابِ انتشارِ الشِّركِ في هٰذه الدِّيارِ؛ يعني: في نجدٍ وما حولَها -بحسبِ ما ذكر **ابنُ غنَّامٍ**(1)- يعني من جهةِ المُتطَبِّبينَ الجهلةِ أو من جهةِ القُرَّاءِ المُشعوِذينَ أو القُرَّاءِ الجهلةِ.

وقد حصل أيضًا في هٰذا أنَّ بعضَ من يَستخدمُ الجنَّ كثُرَ عندَه النَّاسُ، ولمَّا كثُرَ عندَه النَّاسُ صارَ يُعالج علاجًا نافعًا، وبعد ذلكَ تسخَّرتْ له فئاتٌ من الجنِّ أكثرَ من ضعفِ تأثيرِه، فلمَّا ضعُفَ تأثيرُه وعرفَ أنَّ ما عندَه من الحالات الَّتي تأتيهِ للقراءةِ أو للعلاجِ لم يستطِعْ شيئًا صارَ تعلُّقُه بالجنِّ أكثرَ، ولا زالَ ينحدِرُ ما في قلبِه من قوَّةِ اليقينِ وعدمِ الاعتمادِ بقلبِه علىٰ الجنِّ حتَّىٰ اعتمدَ عليهم شيئًا فشيئًا، ثمَّ حرَفوه والعياذُ بالله عن السُّنَّة وعمَّا يجبُ أن يكونَ في القلبِ من توحيدِ الله وإعظامِه وعدمِ استخدامِ الجنِّ في الأغراضِ الشِّركيَّةِ، فجعلوه يَستخدمُ الجنَّ في أغراضٍ شِركيَّةٍ وأغراضٍ لا تجوزُ بالاتِّفاقِ.

إذن فهٰذا ممَّا يجبُ وَصْدُه، ووسائلُ الشِّركِ يجبُ علينا أن نُنكرَها، وسائلُ الغِوايةِ يجبُ أن نُنكرَها، ووجودُ من يَستخدمُ الجنَّ ويُعلنُ ذلك ويطلبُ خدمتَهم بالإخبارِ= هٰذا مَبنيٌّ علىٰ الجهلِ في الحقيقةِ بالشَّرعِ وعلىٰ جهلٍ بوسائلِ الشِّركِ وما يُصلحُ المُجتمعاتِ وما يُفسِدُها واللهُ المُستعانُ.](2)



(1) لعل الشيخ حفظه الله يقصد ابن بشر.

(2) مأخوذٌ من الوجه الثَّاني للشَّريط السَّادس، وهنا ينتهي الشَّريط.

25- بَابٌ

بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

[1] قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْق، وَالطِّيَرَةَ؛ مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ».

وَالْجِبْتُ -قَالَ الْحَسَنُ-: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ». إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

[2] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

[3] وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

[4] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[5] وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

هٰذا (بَابٌ بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ) لمَّا ذكر الإمامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما جاءَ في السِّحرِ وما اتَّصلَ بذلك من حُكمِه وتفصيلِ الكلامِ عليه، ذكرَ أنَّ السِّحرَ قد يأتي في النُّصوصِ ولا يُرادُ منه السِّحرُ الَّذي يكونُ بالشِّركِ بالله جَلَّ وَعَلَا.

فإنَّ اسمَ السِّحرِ عامٌّ في اللُّغةِ يدخلُ فيه ذلك الاسمُ الخاصُّ الَّذي فيه استعانةٌ بالشَّياطينِ وتَقرُّبٌ إلىٰ الشَّياطينِ وعبادةُ الشَّياطينِ لتخدمَ السَّاحرَ، وقد يكون بأسماءٍ أُخَرَ يُطلِقُ عليها الشَّارعُ أنَّها سحرٌ وليست كالسِّحرِ الأوَّلِ في الحقيقةِ ولا في الحكمِ، وهو درجاتٌ.

فممَّا يُسمَّىٰ سحرًا: البيانُ، والبيانُ كما جاء في آخر الباب («إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»)، البيانُ ليس سحرًا فيه استعانةٌ بالشَّياطينِ؛ ولكنَّه داخلٌ في حقيقةِ السِّحرِ اللُّغويَّةِ؛ لأنَّه تأثيرٌ خفيٌّ علىٰ القُلوبِ، فإنَّ الرَّجلَ البليغَ ذا البيانِ وذا الإيضاحِ وذا اللِّسانِ الجميلِ الفصيحِ يُؤثِّر علىٰ القُلوبِ حتَّىٰ يَسبيها وربَّما قَلَبَ الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا ببيانِه، فسُمِّي سحرًا لخفاءِ وصولِه إلىٰ القلوبِ، وقلْبِ الرَّأي وفهمِ المُخاطَبِ من شيءٍ إلىٰ آخرَ.

كذلكَ ما ذكر من أنَّ الطِّيَرَةَ من السِّحرِ فالطِّيَرَةُ نوعُ اعتقادٍ، كذلكَ العيافةُ وهي شبيهةٌ بها أو بعضِ أنواعها، كذلك الخطُّ في الرَّملِ، ونحوُ ذلك من الأشياء الَّتي ربَّما أُطلقَ عليها أنَّها سحرٌ وهي ليست كالسِّحرِ الأوَّل في الحدِّ والحقيقةِ ولا في الحُكمِ.

إذن هٰذا البابُ قال فيه الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ**) وأنواعُ السِّحر منها ما هو شركٌ أكبرُ بالله جَلَّ وَعَلَا، وهو المُرادُ إذا قلنا: السِّحر، وهٰذه هي الحقيقةُ العُرفيَّةُ.

وهناك في ألفاظِ الشَّرعِ أشياءٌ يكون المَرجِعُ فيها إلىٰ الحقيقةِ اللُّغويَّةِ، وهناك أشياءٌ يكون المَرجِعُ فيها إلىٰ الحقيقةِ العُرفيَّةِ، ويكون هناك أشياءٌ المَرجِعُ فيها إلىٰ الحقيقةُ الشَّرعيَّةِ.

وهنا في هٰذا البابِ فيما يشملُ ما يُطلَقُ عليه لغةً أنَّه سحرٌ، ويُطلَقُ عليه عُرفًا أنَّه سحرٌ، ويُطلَقُ عليه شرعًا أنَّه سحرٌ.

فإذن التَّفريقُ بين هٰذه الأنواع مُهِمٌّ، ولهٰذا ذكر الإمامُ هٰذا الباب حتَّىٰ تُفرِّق بين نوعٍ وآخرَ، فالحدُّ الَّذي فيه حدُّ السَّاحرِ ضربُه بالسَّيفِ لا ينطبقُ علىٰ كلِّ هٰذه الأنواع الَّتي ستُذكَرُ؛ لأنَّها سحرٌ لغةً وليست بسحرٍ شرعًا.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال في الحديثِ الأوَّلِ قال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ؛ مِنَ الْجِبْتِ**»، «**الْعِيَافَةَ**» **مَأخوذةٌ من عيافِ الشَّيءِ وهو تركُه، عافَ الشَّيءَ يعافُه إذا تركَه فلم تبْغِهِ نفسُه.**

والعيافةُ كما فسَّرها عَوْفٌ: (**زَجْرُ الطَّيْرِ**)، وهٰذا أحدُ تفسيرِ العيافةِ، وزجرُ **الطَّيرِ أنْ يُحرِّكَ طيرًا حتَّىٰ ينظرَ إلىٰ أين تتحرَّكُ**، ويزجرُ الطَّيرَ في حركتِه، ثمَّ يفهم من ذلك الزَّجرِ هل هٰذا الأمرُ الَّذي سيُقدِمُ عليه أنَّه أمرٌ مَحمودٌ أو أمرٌ مَذمومٌ، أو يطَّلعُ بحقيقةِ زجرِ الطَّيرِ علىٰ مُستقبَلِ الحالِ، فهٰذا نوعٌ من الجِبْتِ وهو السِّحرُ لِمَ؟ ذكرتُ لكم أنَّ معنىٰ الجِبتِ هو الشَّيءُ المَرذولُ المَطَّرحُ الَّذي يصرفُ الواحدَ عن الحقِّ.

والسِّحرُ شيءٌ خفيٌّ يُؤثِّرُ علىٰ النُّفوسِ.

والعيافةُ من التَّأثُّر بالطَّير وبزجرِها وبانتقالِها من هنا إلىٰ هنا أو بحَركتِها شيءٌ خفيٌّ دخلَ في النَّفس فأثَّرَ عليها من جهةِ الإقدامِ أو الكفِّ، فصارَ نوعًا من السِّحرِ لأجل ذلكَ، وهو جِبتٌ لأنَّه شيءٌ مَرذولٌ أدَّىٰ إلىٰ الإقبالِ أو الامتناعِ.

والطِّيَرَة أعمُّ من العيافةِ؛ لأنَّ العيافةَ -علىٰ حسبِ تفسيرِ عَوفٍ وهو أحدُ تفسيراتِها- مُتعلِّقٌ بالطَّيرِ وحدَه، وأمَّا الطِّيَرَةُ فهو اسمٌ عامٌّ لما فيه تَشاؤُمٌ أو تفاؤلٌ بشيءٍ من الأشياءِ.

وسيأتي بابٌ مُستقِلٌّ لذكرِ أحكامِ الطِّيَرَةِ وصورتِها وما يقي مِنها يأتي إن شاء اللهُ تعالىٰ.

وحقيقةُ الطِّيَرَةِ أنَّه يرىٰ شيئًا كان في الأوَّلِ من الطَّيرِ تحرَّك يمينًا أو يسارًا، فلمَّا رآه تحرَّك يمينًا قال: هٰذا تفاؤلٌ أنَّني سأنجحُ في هٰذا العمل أو في هٰذا السَّفرِ، وإذا رآه تحرَّكَ شِمالًا قال: هٰذا معناهُ أنِّي سأنْضَرُّ في هٰذا السَّفرِ أو سيُصيبُني مَكروهٌ فرجعَ، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قد يتشاءمُ بحركةِ شيءٍ، بكلمةٍ يسمعُها، بشيءٍ في الجوِّ، بتصادُمِ سيَّارةٍ أمامَه، بسوادٍ في الجوِّ حصلَ أمامَه أو في ذلك اليومِ الَّذي سينتقلُ فيه، أو تشاءمَ بشيءٍ حصلَ له في أوَّل زواجِه ونحوِ ذلك من أنواعِ التَّشاؤُمِ، أو التَّشاؤُمِ بالأشهرِ أو بالأيَّامِ، هٰذا كلُّه من أنواعِ الطِّيَرَةِ.

ومتىٰ يكونُ طِيَرَةً؟ إذا ردَّه عن حاجتِه أو جعلَه يُقْبِلُ علىٰ حاجتِه، فإذا تشاءمَ وذلكَ التَّشاؤُمُ حينما سيْطَرَ علىٰ قلبِه جعلَه يُقبِلُ أو يَحجِمُ فإنَّه يكون مُتَطَيِّرًا.

وكذلك في بابِ التَّفاؤُلِ إذا رأىٰ شيئًا فجعلَه ذلك الشَّيءُ يُقدِمُ ولولا ذلك الشَّيءُ أنَّه رآه لَمَا جعله يُقدِمُ، فإنَّ ذلكَ أيضًا من الطِّيَرَةِ وهو نوعٌ من أنواعِ التَّأثيراتِ الخفيَّةِ علىٰ القُلوبِ، وذلك ضربٌ من السِّحرِ.

وأمَّا **الطَّرْقُ** فهو مَأخوذٌ من وضعِ طَرْقٍ في الأرضِ وهي في الخُطوطُ، فيأتي بخطوطٍ مُتنوِّعَةٍ ويخطُّها في الأرضِ، خطوطٌ كثيرةٌ ليس لها عددٌ، ثمَّ يبدأ الكاهنُ الَّذي يستخدمُ الخُطوطَ فيمسحُ خطًّا خطًّا، أو يمسحُ خطَّينِ خطَّينِ بسُرعةٍ، ثمَّ ينظرُ ما بقيَ فيقولُ: هٰذا الَّذي بقيَ يدلُّ علىٰ كذا وكذا، هٰذا الَّذي بقيَ يدلُّ علىٰ أنَّك ستَغتني، يدلُّ علىٰ أنَّك سيُصيبُك كذا وكذا ونحوُ ذلك، وهو نوعٌ من أنواعِ الكِهانَةِ، والكِهانَةُ ضَربٌ من السِّحرِ.

قال هنا: (وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ»، وَالْجِبْتُ -قَالَ الْحَسَنُ-: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ».) وهو من أنواعِ السِّحرِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يدعو إلىٰ ذلكَ بصَوتِه وبعَويلِه.

نقفُ عند هٰذا، ونُكمل إن شاءَ اللهُ يومَ السَّبتِ، ونرجو أن يكونَ من يوم السَّبتِ مع طولِ الزَّمنِ أنْ نَنتهيَ من هٰذا الكتابِ إن شاء اللهُ تعالىٰ في الأسبوعِ القادمِ، قد نختصرُ بعض الاختصارِ في بعضِ الأبوابِ لأجل أن يُنهىٰ الكتابُ مع عدم إخلالٍ -إن شاءَ اللهُ- بمَقاصدِ المُؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وأجزلَ له المَثوبةَ.

هٰذا وأسألُ الله لي ولكمُ العلمَ النَّافعَ والعملَ الصَّالحَ والإقبالَ علىٰ الخيراتِ، وصلَّىٰ الله وسلَّم وباركَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.

الدرس الثاني عشر

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله وعلىٰ آله وصحبِه ومن اهتدىٰ بهُداه.

اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعُنا وانفعْنا بما علَّمتَنا وزِدنا علمًا وعملًا ويقينًا وصلاحًا يا أرحمَ الرَّاحمينَ.

أمَّا بعدُ،

قد ذَكرنا أنَّ هٰذا البابَ عقَدَه الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لبيانِ أنَّ هناك من الأعمالِ ما أُطلِقَ عليه أنَّه سِحرٌ؛ ولكن لا يشترِكُ مع السِّحرِ الَّذي في البابِ قبلَه في جميعِ الأحكامِ، ثمَّ إنَّ بعضَ هٰذه الأنواعِ يجهلُ كثيرٌ من المُسلمينَ أنَّها من السِّحرِ فتارةً يدخلونَها في غيرِ باب السِّحرِ، وهي مع السِّحرِ مُشترِكةٌ في حقيقتِه وفي بيانِ أصلِه أو في أصلِه ووضعِه اللُّغويِّ.

[الدَّليلُ الثَّاني] وَقفنا عندَ قولِه: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ) هٰذا فيه بيانُ أنَّ تَعلُّمَ النُّجومِ تَعلُّمٌ للسِّحرِ، ويأتي في بابٍ خاصٍّ (**بابُ ما جاء في التَّنجيمِ**) أنواعُ تعلُّمِ النُّجومِ وما جعلَ الله جَلَّوَعَلَا النُّجومَ له.

قوله هنا: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً» يعني: من تعلَّم بعضًا من علمِ النُّجومِ؛ لأنَّ الشُّعبَةَ هي الطَّائفةُ من الشَّيءِ أو جزْء من أجزائِه، فكلُّ جزءٍ من أجزاءِ علمِ النُّجومِ الَّذي هو علمُ التَّأثيرِ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ، قال: «فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ» يعني: كلَّ ما زادَ في تَعلُّمِ علمِ النُّجومِ كلَّما زادَ في تَعلُّمِ السِّحرِ، حتَّىٰ يصلَ إلىٰ آخر حقيقةِ علمِ التَّأثيرِ -كما يُسمُّونَه- فيصبحُ سِحرًا وكِهانةً علىٰ الحقيقةِ.

ويأتي أنَّ التَّنجيمَ منه علمُ التَّأثيرِ وهو جعْلُ الكَواكبِ والنُّجومِ في حركتِها والتقائِها وافتراقِها وطُلوعِها وغُروبِها مُؤثِّرةً في الحوادثِ الأرضيَّةِ أو دالَّةً علىٰ ما سيَحدُثُ في الأرضِ، فيَجعلونَها دالَّةً علىٰ علمِ الغيبِ، دالَّةً علىٰ المُغيَّباتِ.

وهٰذا القدرُ من السِّحرِ؛ لأنَّه يشترِكُ معه في حقيقتِه؛ لأنَّه جعْلٌ للتَّأثيرِ لأمرٍ خفيٍّ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».) قولُه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ» أنَّ عقدَ العُقَدِ والنَّفثَ فيها من أنواعِ السِّحرِ، والنَّفثُ المَقصودُ به هنا النَّفثُ الَّذي فيه استعاذةٌ واستعانةٌ بالشَّياطينِ، فليس كلُّ نفثٍ في عُقدةٍ يَعقِدُ السِّحرَ؛ بل لابدَّ أن يكونَ النَّفثُ بأدعيةٍ مُعيَّنةٍ ورُقًىٰ شركيَّةٍ

وتعويذاتٍ وكلامٍ تَحْضُرُ الجنُّ عندَ تلاوتِه وتخدمُ هٰذه العُقدَةَ السِّحريَّةَ.

«مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ» علىٰ ما كان يتعاطاه النَّاسُ المَرَدَة في ذلكَ الزَّمانِ؛ زمانِ النَّبيِّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ من النَّفثِ في العُقَدِ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق] وهُنَّ السَّواحِرُ.

قال: «فَقَدْ سَحَرَ» لأنَّ الجنِّيَّ يخدمُ هٰذا السِّحرَ بالنَّفثِ في العُقدةِ، وفائدةُ العُقدةِ عندَ السَّحرةِ أنَّه لا ينحلُّ السِّحرُ ما دامت مَعقودةً، فينعقدُ الأمرُ الَّذي أراده السَّاحر بشيئين: العُقدَةُ وبالنَّفثِ. العُقدةُ عُقدةُ حبلٍ أو خيطٍ أو نحوِ ذلك، وبالنَّفث فيها بالأدعيةِ الشِّركيَّةِ والاستعانةِ بالشَّياطينِ.

ومن الأمورِ المُهمَّةِ أن تُعلَمَ في هٰذا الباب أنَّ العُقَدَ هٰذه تارةً تكونُ مَرئيَّةً واضحةً، وتارةً تكونُ صغيرةً جدًّا، وما كان صغيرًا جدًّا منها أو ما كان مَرئيًّا فإنَّه ينبغي لمن اطَّلع عليه أو نظرَ فيه أن يَحُلَّ العُقدةَ، فينتهي تأثيرُ السِّحرِ بإذنِ الله، أو يَضعُفُ تأثيرُه.

قال: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» هٰذا عامٌّ؛ لأنَّه رتَّبَ جزاءً علىٰ فعلٍ بصيغةِ (مَنْ) كأنَّه قال: كلُّ من سحرَ فقد أشركَ. يعني: سحرَ بذلك النَّحوِ الَّذي ذُكرَ؛ وهو: أنْ يَعقِدَ عُقدةً ثمَّ ينفُثَ فيها.

«وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» هٰذا دليلٌ لِما ذكرنا لكم في الباب قبلَه أنَّ كلَّ سحرٍ يعدُّ من أنواعِ الشِّركِ؛ لأنَّه لا يمكن أن يَحدُثَ السِّحرُ إلَّا بالنَّفثِ في العُقدِ أو باستحضارِ الجنِّ وبعبادةِ الجنِّ ونحوِ ذلك، وهٰذا شركٌ بالله.

قوله: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» ليسَ معناه: أنَّه أشركَ بعَقدِ العُقدةِ مثلًا، وإنَّما «فَقَدْ أَشْرَكَ» يعني: حينَ سَحرَ.

ومن المَعلومِ أنَّه قبلَ أن يَعقدَ العُقدَةَ وينفُثَ فيها فلا بدَّ من تَعلُّمِه؛ ولهٰذا يكون مُشركًا قبلَ أن يَعقِدَ وينفُثَ ما دام أنَّه تعلَّم ذلكَ ليعملَ به فإنَّه مُشرِكٌ بالله؛ لأنَّ تَعلُّمَه فيه الشِّركُ بالله جَلَّوَعَلَا.

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ » هٰذا مرَّ معنا مثالُه ومعنىٰ هٰذا الحديثِ وأنَّ القلبَ إذا تعلَّق شيئًا؛ بمعنىٰ: أحبَّه ورَضِيَه وتعلَّق القلبُ به فإنَّه يُوكَلُ إليه ويُجعَلُ هو السَّببُ الَّذي من أجلِه يجيءُ نفعُه أو يجيءُ ضرُّه.

ومَعلومٌ أنَّ كلَّ الأسباب الشِّركيَّةِ تعودُ علىٰ فاعلِها أو علىٰ الرَّاضي بها بالضُّرِّ لا بالنَّفعِ، والعبدُ إذا تخلَّىٰ عن الله جَلَّوَعَلَا ووُكِلَ إلىٰ نفسِه أو وُكِلَ إلىٰ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا فقد خابَ وخسِرَ وضُرَّ أعظمَ الضَّررِ، فسعادةُ العبدِ وعِظَمُ صلاحِ قلبِه وعِظَمُ صلاحِ روحِه بأن يكونَ تعلُّقه بالله جَلَّوَعَلَا وحدَه.

وقولُه هنا: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» فإنَّه من تعلَّق باللهِ فإنَّ اللهَ كافيهِ، من تعلَّق قلبُه باللهِ إنزالًا لحوائجِه بالله ورَغبًا فيما عندَ الله ورَهبًا ممَّا يخافُه ويؤذيه -يعني يؤذي العبدَ-؛ فإنَّ الله جَلَّوَعَلَا كافيهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطَّلاق:3]، وإذا تعلَّقَ العبدُ إلىٰ غيرِ الله فإنَّه يكونُ إلىٰ ذلك العبدِ، والعبادُ فقراءُ إلىٰ الله والله جَلَّوَعَلَا هو وليُّ النِّعمةَ ووليُّ الفضلِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر]، فمن أنزلَ حاجتَه بالله أفلحَ، ومَن تعلَّقَ قلبُه بالله أفلحَ، وأمَّا مَن تعلَّق بالخُرافاتِ أو تعلَّق بالأمورِ الشِّركيَّةِ كالسِّحرِ وكالذَّهابِ إلىٰ الأولياءِ وطلبِ المددِ منهم أو طلبِ الإغاثةِ منهم فإنَّه يُوكَلُ إلىٰ المَخلوقِ، ومن وُكِلَ إلىٰ المَخلوقِ فإنَّه يضرُّه ذلك أعظمَ الضَّررِ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[الحجّ:13].

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال بعد ذلكَ: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، (العَضْهُ) هكذا تُروىٰ في كُتبِ الحديثِ (العَضْهُ)، وفي كُتبِ غريبِ الحديثِ واللُّغةِ تُنطَقُ هكذا (العِضَهْ)، (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعِضَهْ؟) لأشباهِها في وزنِها، وهي كما فسَّرها النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ (النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ).

وأصلُ العَضْهْ في اللُّغةِ يُطلَقُ علىٰ أشياءَ ومنها السِّحرُ، والنَّميمةُ القالةُ بين النَّاسِ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ وهي كبيرةٌ من الكبائرِ ومُحرَّمٌ من المُحرَّماتِ.

ووجهُ الشَّبهِ بين النَّميمةِ وبين السِّحرِ أنَّ تأثيرَ السِّحرِ في التَّفريقِ بين المُتحابِّينَ أو في جمعِ المُتفارِقَينِ تأثيرُه علىٰ القُلوبِ خفيٌ، وهٰذا عملُ النَّمَّامِ فإنَّه يُفرِّقُ بين الأحبابِ؛ لأجلِ كلامٍ يسوقُه لهٰذا وكلامٍ يسوقُه لذاكَ، فيُفرِّقُ بين القُلوبِ فيجعلُ العَداوةَ والبَغضاءَ بين قلبِ هٰذا وهٰذا.

فحقيقةُ النَّميمةِ كما قال جَلَّوَعَلَا عن السِّحرِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة:102]، والنَّميمةُ هي القالةُ بين النَّاسِ، وهٰذا كما هو ظاهرٌ من أنواعِ السِّحرِ وهٰذا النَّوعُ مُحرَّمٌ لأنَّه كبيرةٌ من الكبائرِ؛ لأنَّ النَّميمةَ نوعٌ من أنواعِ الكبائرِ، والكبائرُ من أعظمِ الذُّنوبِ العمليَّةِ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»)، (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) قال عن البيانِ: إنَّ منه ما هو سِحرٌ.

والمَقصودُ بالبيانِ هنا التَّبيينُ عمَّا في النَّفسِ بالألفاظِ الفصيحةِ البَيِّنةِ الَّتي تأخذُ المَسامعَ والقُلوبَ، فتسحرُ القُلوبَ فتقلبُ ربَّما الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا، حتَّىٰ يَغدُوَ ذلك الَّذي يُعدُّ من أهلِ البيانِ

والفصاحةِ يَغدو في قلوبِ النَّاسِ أنَّ ما قالَه هو الحقُّ وأنَّ ما لم يَقُلْه أو ردَّه هو الباطلُ، وهٰذا ضربٌ من السِّحرِ؛ لأنَّه تأثيرٌ خفيٌّ علىٰ النُّفوسِ بالألفاظِ، هٰذا التَّأثيرُ الخَفيُّ بقلبِ الحقِّ باطلًا وقلبِ الباطلِ حقًّا تأثيرُه خَفيٌّ كتأثيرِ السِّحرِ في الخفاءِ، ولهٰذا قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

والصَّحيحُ من أقوالِ أهلِ العلم أنَّ هٰذا فيه ذمٌّ للبَيانِ وليسَ مَدحًا له، قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» علىٰ جهةِ الذَّمِّ.

وبعضُ أهلِ العلمِ قال: إنَّ ذلك علىٰ جهةِ المَدحِ؛ لأنَّه يصلُ بالتَّأثيرِ إلىٰ أن يُؤَثِّرَ تأثيرًا بالغًا كتأثيرِ السِّحرِ في النُّفوسِ، والتَّأثيرُ البالغُ إنْ كان من جهةِ البَيانِ يقولون فإنَّه جائزٌ، وهٰذا من جهةِ المدحِ له وبَيانِ عِظَمِ تأثيرِه.

ولكنَّ هٰذا فيه نظرٌ، والظَّاهرُ أنَّه لمَّا جعل البيانَ سحرًا عَلِمنا أنَّ الشَّرعَ ذمَّه، ولهٰذا أَوردَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هٰذا البابِ الَّذي اشتملَ علىٰ أنواعٍ مِن المُحرَّماتِ، فالَّذي يَستغلُّ ما آتاه الله جَلَّ وَعَلَا من اللِّسانِ والبَيانِ والفصاحةِ في قلبِ الباطلِ حقًّا وفي قلبِ الحقِّ باطلًا، هٰذا لا شكَّ أنَّه من أهلِ الوعيدِ ومَذمومٌ علىٰ فعلِه؛ لأنَّ البَيانَ إنَّما يُقصَدُ به نُصرةُ الحقِّ لا أن يجعلَ ما أبطلَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا حقًّا في أنفُسِ النَّاسِ وفي قُلوبِهم.

26- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

[1] رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

[2] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

[3] وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا - عَنْ ... : «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

[4] وَلِأَبِي يَعْلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

[5] وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

[6] وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَىٰ ... » إلىٰ آخره.

قال الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَىٰ الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

[7] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ -: «مَا أَرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

(بَابٌ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ) هٰذا البابُ أتىٰ بعدَ أبوابِ السِّحرِ؛ لأنَّ حقيقةَ عملِ الكاهنِ أنَّه يستخدمُ الجنَّ لإخبارِه بالأمورِ المُغيَّبَةِ، إمَّا الَّتي غابت في الماضي أو الأمورُ المُغيَّبَةُ في المُستقبَلِ الَّتي لا يَعلمُها إلَّا الله جَلَّ جَلَالُهُ، فالكاهنُ يجتمعُ مع السَّاحرِ في أنَّ كلًّا منهما يستخدمُ الجنَّ لغَرَضِه ويستمتعُ

بالجنِّ لغَرَضِه.

ومناسبةُ البابِ لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ الكِهانةَ استخدامٌ للجنِّ، واستخدامُ الجنِّ كفرٌ وشِركٌ أكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه لا يَجوزُ أن يستخدمَ الجنَّ في مثلِ هٰذه الأشياء، واستخدامُ الجنِّ في مثلِ هٰذه الأشياءِ لا يكونُ إلَّا بأنْ يُتقرَّبَ إلىٰ الجنِّ بشيءٍ من العباداتِ، فالكُهَّانُ لابدَّ حتَّىٰ يُخدَموا بذكرِ الأمورِ المُغيَّبَةِ لهم أن يتقرَّبوا إلىٰ الجنِّ ببعضِ العباداتِ؛ إمَّا بالذَّبحِ أو الاستغاثةِ أو بالكُفرِ بالله جَلَّوَعَلَا بإهانةِ المُصحفِ أو بسبِّ الله أو نحوِ ذلكَ من الأعمالِ الشِّركيَّةِ الكُفريَّةِ.

فالكِهانةُ صَنعةٌ مُضادَّةٌ لأصلِ التَّوحيدِ، والكاهنُ مُشركٌ بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه يستخدمُ الجنَّ ويَتقرَّبُ إلىٰ الجنِّ بالعباداتِ حتَّىٰ تَخدِمَه الجنُّ، حتَّىٰ تُخبرَه الجنُّ بالمُغيَّباتِ، هٰذا لا يُمكنُ إلَّا أن يتقرَّبَ إلىٰ الجنِّ بأنواعِ العباداتِ.

وأصلُ الكُهَّانِ في الجاهليَّةِ كانوا -كما مرَّ معنا في حديثِ جابرٍ في بابٍ سبقَ- أنَّ الكِهانةَ كانت مُنتشِرَةً في بلادِ العربِ في الجزيرةِ وفي غيرِها، والكُهَّانُ أناسٌ يُدَّعىٰ فيهم الوَلايَةُ والصَّلاحُ عندَهم وأنَّ عندَهم علمَ ما سيكون في المُستقبَلِ، أو عندَهم علمُ المُغيَّباتِ الَّتي ستحدُثُ للنَّاسِ أو تحدُثُ في الأرضِ، ولهٰذا كانت العربُ تُعظِّمُ الكُهَّانَ وكانت تخافُ من الكُهَّانِ وكانت تُعطي الكاهِنَ أجرًا عظيمًا لأجلِ ما يُخبرُ عنه.

والكاهنُ -كما ذكرنا- لا يصلُ إلىٰ حقيقةِ عملِه بأنْ يُخبِرَ عن الأمورِ المُغيَّبَةِ إلَّا باستخدامِ الجنِّ، والتَّقرُّبِ إلىٰ الجنِّ التَّقرُّباتِ الشِّركيَّةَ؛ فتستَمتِعُ الجنُّ به من جهةِ ما صَرفَ لها من العبادةِ، ويستمتعُ هو بالجنِّ من جهةِ ما يُخبِرُه به الجنُّ من الأمورِ المُغيَّبَةِ.

والجنُّ تصلُ إلىٰ الأمورِ المُغيَّبَةِ الَّتي تَصْدُقُ فيها عن طريقِ استِراقِ السَّمعِ، فإنَّ بعضَهم يركبُ بعضًا حتَّىٰ يسمعوا الوَحيَ الَّذي يُوحيه الله جَلَّوَعَلَا في السَّماءِ، فربَّما أدركَ الشِّهابُ الجنِّيَّ قبلَ أن يُلقي الكلمةَ لمَن تحتَه، وربَّما أدركَ الشِّهابُ الجنِّيَّ بعدَ أن ألقىٰ الكلمةَ فتأتي هٰذه الكلمةُ للجنِّ فيُعطونَها الكاهنَ فيكذِبُ معها الكاهنُ أو تكذبُ معها الجنُّ مِائةَ كِذبةٍ حتَّىٰ يَعظُمَ شأنُ الكاهنِ وتَعظُمَ عبادةُ الإنسِ للجنِّ.

وقبْل بِعثَةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانَ استراقُ السَّمعِ كثيرًا جدًّا، وبعدَ بِعثَتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حُرِسَت السَّماءُ من أن تسترقَ الجنُّ السَّمعَ؛ لأجلِ تنزُّلِ القرآنِ والوَحيِ حتَّىٰ لا يقعَ الاشتباهُ في أصلِ الوحيِ والنُّبوَّةِ، وبعدَ وفاةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقعُ الاستِراقُ؛ ولكنَّه قليلٌ بالنِّسبةِ لما كان عليه قبلَ

البِعثةِ.

فصارت عندَنا أحوالُ استِراقِ السَّمعِ ثلاثةٌ:

- قبلَ البِعثةِ كثيرٌ جدًّا.
- وبعدَ بِعثةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يحصُلْ استراقٌ من الجنِّ، وإن حصلَ فهو نادرٌ في غيرِ وحيِ الله جَلَّ وَعَلَا بكتابِه لنبيِّه.
- والحالةُ الثَّالثةُ بعدَ وفاتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رجعَ استراقُ السَّمعِ أيضًا؛ ولكنَّه ليس بالكثرةِ الَّتي كانت قبلَ ذلك؛ لأنَّ السَّماءَ مُلئتْ حرسًا شديدًا وشُهُبًا.

واللهُ جَلَّ وَعَلَا بيَّن ذلكَ في القرآنِ في آياتٍ كثيرةٍ من أنَّ النُّجومَ والشُّهُبَ تَرمي الجنَّ كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[الحجر]، ونحوِ ذلك من الآياتِ الَّتي فيها أنَّ الشُّهُبَ مُرْصَدَةٌ للجنِّ.

تَبيَّنَتْ لك حقيقةُ الكاهنِ، إذا ظهرَ ذلك، فالكاهنُ قد يُطلَقُ عليه العرَّافُ، وهٰذا الاسمُ (الكاهنُ أو العرَّافُ) اسمان مُتداخِلانِ، قد يكونُ أحدُهما يدلُّ علىٰ الآخرِ،

وعندَ بعضِ النَّاسِ أو في بعضِ الفئاتِ يُستخدَمُ الكاهنُ للإخبارِ بما يحصلُ في المُستقبَلِ،

ويُستخدَمُ كلمةُ أو لفظُ العرَّافِ لمن يُخبِرُ عن الغائبِ عن الأعيُنِ ممَّا حصلَ في الماضي من مثلِ مكانِ المَسروقِ أو السَّارقِ من هو، ونحوِ ذلك ممَّا هو غائبٌ عن الأنظارِ، وإنَّما يعلمُه العرَّافُ بواسطةِ الجنِّ.

والصَّحيحُ في ذلكَ ما ذكرَه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ أنَّ (العرَّافَ: اسمٌ للكاهنِ والمُنجِّمِ والرَّمَّالِ ونحوِهم، ممَّن يتكلَّمون في معرفةِ الأُمورِ بتلك الطُّرُقِ).

من تكلَّم بمعرفةِ الأمورِ المُغيَّبَةِ إمَّا الماضيةِ أو المُستقبَلَةِ بتلك الطُّرُقِ -طريقُ التَّنجيمِ، أو طريقُ الخطِّ في الرَّملِ، أو طريقُ الطَّرقِ علىٰ الحصىٰ، أو الخطُّ في الرَّملِ بطريقِ الطَّرقِ، أو بالوَدَعِ أو نحو ذلك من الأساليبِ أو بالخَشبةِ المَكتوبِ عليها أبا جاد، ونحوُ ذلك من قراءةِ الفِنجانِ أو قراءةِ الكفِّ- كلُّ من يُخبِر عن الأمورِ المُغيَّبَةِ بشيءٍ يَجعلَهُ وسيلةً لمعرفةِ الأمورِ المُغيَّبَةِ يُسمَّىٰ كاهنًا ويُسمَّىٰ عرَّافًا؛ لأنَّه لا يحصلُ له أمرُه إلَّا بنوعٍ من أنواعِ الكِهانةِ. وسيأتي ذلكَ إنْ شاء اللهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ**)؛ يعني: من العرَّافين والمُنجِّمينَ والَّذين يخُطُّون في الرَّملِ والَّذين يكتُبون علىٰ الخشبِ ونحوِ ذلك.

[الدَّليل الأوَّلُ والثَّاني والثَّالث] قال: (رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا») هٰذا الحديثُ نبَّه الشُّرَّاحُ علىٰ أنَّ لفظَه في مُسلمٍ «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» بدون كلمة «فَصَدَّقَهُ»، وكلمةُ «فَصَدَّقَهُ» في هٰذا الحديثِ مَوجودةٌ في مُسندِ الإمامِ أحمدَ، فالشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ ذكر هٰذا اللَّفظَ وعزاه لمُسلمٍ علىٰ طريقةِ أهلِ العلمِ في عزوِ الحديثِ لأحدِ صاحِبي الصَّحيحِ إذا كان أصلُه فيهما لاتِّحادِ الطَّريقِ أو نحوِ ذلكَ.

«مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» هٰذا الحديثُ فيه جزاءُ الَّذي يأتي العرَّافَ فيسألُ العرَّافَ، وقُلنا إنَّ العرَّافَ يشملُ اسم الكاهنِ ونحوِ ذلك، فـ«مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ» بمُجرَّدِ سؤالٍ ولم يُصدِّقهُ فإنَّه لا تُقبلُ له صلاةٌ أربعينَ يومًا.

والمَقصودُ من قوله: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» أنَّها تقعُ مُجزِّئةً لا يجبُ عليه قضاؤُها؛ ولكن لا ثوابَ له فيها؛ لأنَّ الذَّنبَ والإثمَ الَّذي حصَّلَه حينَ أتىٰ العرَّافَ فسألَه عن شيءٍ، يُقابِلُ ثوابَ الصَّلاةِ أربعين يومًا، فأسقطَ هٰذا هٰذا، ويدلُّ ذلك علىٰ عِظَمِ ذنبِ الَّذي يأتي العرَّافَ فيسألُ العرَّافَ عن شيءٍ ولو لم يُصدِّقْه، وهٰذا عندَ أهل العلم في حقِّ من أتىٰ العرَّافَ فسألَه عن شيءٍ رغبةً في الاطِّلاعِ.

أمَّا من أتىٰ العرَّافَ فسألَه للإنكارِ عليه وحتَّىٰ يتحقَّقَ أنَّه عرَّافٌ فلا يدخُلُ في ذلكَ؛ لأنَّ الوسائلَ لها أحكامُ المَقاصِدِ.

الحالُ الثَّانيةُ أن يأتِيَ العرَّافَ أو الكاهنَ فيسألَ عن شيءٍ فإذا أخبرَه الكاهنُ أو العرَّافُ صدَّقَه بما يقولُ.

فالحديثُ الأوَّلُ الذي عن بعضِ أزواجِ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه أنَّه «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

والحديثُ الثَّاني فيه أنَّه «كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

فيتَّضحُ بالحديثَينِ أنَّ الحالةَ الثَّانيةَ هي من أتىٰ العرَّافَ والكاهنَ فسألَه عن شيءٍ فصدَّقَه أنَّه كفرَ بما أُنزِلَ علىٰ مُحمَّدٍ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأنَّه لا تُقبَلُ له صلاةٌ أربعينَ يومًا.

وهٰذا الحالُ يدلُّ علىٰ أنَّ الَّذي أتىٰ الكاهنَ أو العرَّافَ فصدَّقَه، أنَّه لم يخرُجْ من المِلَّةِ؛ لأنَّه حدَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عدمَ قَبولِ صلاتِه بأربعينَ يومًا، والكافرُ الَّذي حُكِمَ عليه أنَّه كافرٌ كُفرًا أكبرَ ومُرتَدٌّ وخارجٌ من المِلَّةِ فإنَّ صلاتَه لا تُقبَلُ بتاتًا حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ الإسلامِ.

- قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ: دلَّ قولُه: «فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» علىٰ أنَّ قولَه: «كَفَرَ

بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمّدٍ» أنَّه كفرٌ أصغرُ وليس بالكفرِ المُخرِجِ من المِلَّةِ، وهٰذا القولُ صحيحٌ، وهو الَّذي يتعيَّنُ عند الجمعِ بين النُّصوصِ فإنَّ قولَ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَنْ أَتَىٰ عَرّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا» يدلُّ علىٰ أنَّه لم يَخرُجْ من الإسلامِ، والحديثُ الآخرُ وهو قولُه: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا، فَصَدّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ» يدلُّ علىٰ كُفرِه، فعَلِمنا بذلك علىٰ أنَّ كُفرَه كفرٌ أصغرُ وليسَ كُفرًا مُخرِجًا من المِلَّةِ.

وهٰذا أحدُ الأقوالِ من مَسألةِ كُفرِ من أتىٰ الكاهنَ فصدَّقَه بما يقولُ.

◆ والقَولُ الثَّاني أنَّه يُتوَقَّفُ فيه فلا يُقالُ: يَكفُرُ كُفرًا أكبرَ ولا يُقالُ: أصغرَ، وإنَّما يُقالُ: هو كُفرٌ، إتيانِ الكاهنِ وتصديقِه كُفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا ويُسكَتُ عن ذلك، ويُطلَقُ القَولُ كما جاء في الأحاديثِ، وهٰذا لأجلِ التَّهديدِ والتَّخويفِ وهٰذا حتَّىٰ لا يتجاسرَ النَّاسُ علىٰ هٰذا الأمرِ. وهٰذا هو مذهبُ الإمامِ أحمدَ، في المَنصوصِ عنه.

◆ والقَولُ الثَّالثُ من أقوالِ أهلِ العلمِ في ذلكَ أنَّ الَّذي يُصدِّقُ الكاهنَ كافرٌ كُفرًا أكبرَ، كفرُه مُخرِجٌ من المِلَّةِ إذا أتىٰ الكاهنَ فسألَه فصدَّقَه، أو صدَّقَ الكُهَّانَ بما يَقولون، قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ: كُفرُهُ كُفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ، وهٰذا القَولُ فيه نظرٌ من جهتَين:

الجهةُ الأولىٰ: ما ذكرناه من الدَّليلِ؛ من أنَّ قولَه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا) يدلُّ علىٰ أنَّه لم يَكفُر الكُفرَ الأكبرَ، ولو كان كَفرَ الكُفرَ الأكبرَ لم يُحدَّ عدمُ قبولُ صَلاتِه تلكَ المُدَّةَ من الأيَّام.

والثَّاني: أنَّ تصديقَ الكاهنِ فيه شُبهةٌ، وادِّعاءُ علمِ الغيبِ أو تصديقُ أحدٍ ممَّن يدَّعي علمَ الغيبِ كُفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا كفرٌ أكبرُ؛ لكنَّ هٰذا الكاهنَ الَّذي ادَّعىٰ علمَ الغيبِ -كما نعلمُ أنَّه يُخبِرُ بالأمورِ المُغيَّبَةِ فيما صَدَقَ فيه-، عن طريقِ استِراقِ الجنِّ للسَّمعِ، فيكونُ -إذن- هو نقلَ ذلكَ الخبرَ عن الجنِّ، والجنُّ نقلُوه عمَّن سَمِعوه في السَّماءِ، وهٰذِهِ شُبهةٌ قد يأتي الآتي الَّذي يأتي للكاهنِ ويقولُ: أنا أُصدِّقُه فيما أخبرَ من الغيبِ؛ لأنَّه قد جاءَه علمُ ذلكَ الغيبِ من السَّماءِ عن طريقِ الجنِّ، وهٰذه الشُّبهَةُ تمنعُ من التَّكفيرِ -تكفيرِ تصديقِ الكاهنِ، تكفيرِ من صدَّق الكاهنَ-، الكُفرَ الأكبرَ.

فصارَ عندَنا أيضًا أنَّ القَولَ الأظهرَ أنَّ كُفرَه كُفرٌ أصغرُ وليسَ بأكبرٍ لدِلالةِ الأحاديثِ ولظُهورِ التَّعليلِ في ذلكَ.

قال: «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» وهو القرآنُ؛ لأنَّه قد جاء في القرآنِ وما بيَّنَه

النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من السُّنَّة أنَّ الكاهنَ والسَّاحرَ والعرَّافَ لا يُفلحون وأنَّهم إنَّما يَكذِبون ولا يُصدَّقون.

[الدَّليلُ الرَّابعُ والخامسُ والسَّادس] قال: (وَلِأَبِي يَعْلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ») يأتي في بابِ ما جاءَ في التَّطيُّرِ «أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ»، «لَيْسَ مِنَّا» يدلُّ علىٰ أنَّ الفعلَ مُحرَّمٌ، وبعضُ أهلِ العلمِ يقول: إنَّ قولَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَيْسَ مِنَّا» يدلُّ علىٰ أنَّه من الكبائرِ، فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ» والطِّيَرَةُ من الكبائرِ «أَوْ تُكُهِّنَ»؛ يعني: ادَّعىٰ علمَ الغيبِ وادَّعىٰ أنَّه كاهنٌ أو أخبرَ بأمورٍ من المُغيَّبةِ يخدعُ من رآه بأنَّه كاهنٌ، قال: «أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ»؛ يعني: من رَضِيَ أن يُتكَهَّنَ له فأتىٰ فسألَ عن شيءٍ «أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وهٰذا كلُّه لأجلِ أنَّ تصديقَ الكاهنِ فيه إعانةٌ له علىٰ الشِّركِ الأكبرِ بالله جَلَّ وَعَلَا، هٰذا حكمُ الَّذي يأتي الكاهنَ.

أمَّا الكاهنُ فذكرنا حُكمَه فإنَّه مُشرِكٌ الشِّركَ الأكبرَ باللهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ له أن يُخبرَ بالأمورِ المُغيَّبةِ إلَّا بأن يُشرِكَ.

(قال الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَىٰ الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».) هٰذا الَّذي ذكرنا من أنَّ العرَّافَ عندَ بعضِ أهلِ العلمِ من يُخبرُ بأمورٍ سبقَتْ لكنَّها خفيَّةٌ غَيبيَّةٌ عن النَّاسِ؛ لكنَّها من حيثُ الوُجودُ وقعَتْ في مَلَكوتِ اللهِ.

قال: (وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ)؛ يعني: أنَّ العرَّافَ والكاهنَ اسمانِ لشيءٍ واحدٍ.

قال: (وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ، وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ) المُنَجِّمُ هو الَّذي يَستخدمُ علمَ التَّأثيرِ، يقولُ: ظهرَ نجمُ كذا والتقىٰ بنجمِ كذا فمَعناه أنَّه سيحدُثُ كذا وكذا، أو إذا وُلِدَ فلانٌ أو إذا وُلِدَ لفلانٍ ولدٌ في برجِ كذا فإنَّه سيحصُلُ كذا وكذا له من الفتنِ والفقرِ أو السَّعادةِ أو الشَّقاوةِ ونحوِ ذلك، فيستدلُّون علىٰ حركةِ النُّجومِ علىٰ حالِ الأرضِ وحالِ النَّاسِ فيها، وسَيَأتي تَفصيلُه إن شاءَ اللهُ. قال: (وَالرَّمَّالِ) الرَّمَّالُ هو صاحبُ الطَّرقِ أو يخطُّ في الرَّملِ أو يَستخدِمُ الحصىٰ علىٰ الرَّملِ يُقالُ له: رمَّالٌ، (وَنَحْوِهِمْ)؛ يعني: من مثلِ الَّذين يَقرَؤون الكفَّ ويَقرَؤون الفِنجانَ، أو في هٰذا العصرِ الَّذين يكتبُونَ في الصُّحُفِ والجرائدِ والمَجلَّاتِ البُروجَ وما يَحصلُ في ذلكَ البُرجِ، وأنتَ إذا وُلِدتَ في هٰذا

البُرجِ مَعناه سيحصُلُ لك في هٰذا الشَّهرِ كذا وكذا، هٰذه كلُّها من أنواعِ الكِهانَةِ كما سيَأتي.

[الدَّليلُ السَّابعُ] قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ -: «مَا أَرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».) ذلكَ لأنَّ كتابةَ (أَبَا جَادٍ) والنَّظَرَ في النُّجومِ؛ يعني: للتَّأثيرِ نوعٌ من أنواعِ الكِهانَةِ، والكِهانَةُ مُحرَّمةٌ وكفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

بَقِيَ أن نقولَ: إنَّ أصنافَ الكِهانَةِ كثيرةٌ جدًّا وجامعُها الَّذي يجمعُها أنَّه يَستخدِمُ الكاهنُ وسيلةً ظاهريَّةً عندَه ليُقنِعَ السَّائِلَ بأنَّه وصلَ إليه العِلمُ عن طريقِ أمورٍ ظاهريَّةٍ علميَّةٍ، تارةً يقولُ عن طريقِ النُّجومِ، وتارةً يقولُ عن طريقِ الخطِّ أو عن طريقِ الطَّرْقِ، أو عن طريقِ الوَدَعِ، أو عن طريقِ الفِنجانِ، أو عن طريقِ الكفِّ، أو عن طريقِ النَّظرِ في الأرضِ في حصًىٰ يجعلُه، أو عن طريقِ الخشبِ ونحوِ ذلك، هٰذه كلُّها وسائلُ يُغرُّ بها الكاهنُ من يأتيه.

في الحقيقةِ هي وسائلُ لا تُحصِّلُ العلمَ ذاكَ؛ ولكنَّ العلمَ جاءَه عن طريقِ الجنِّ فهٰذه الوسيلةُ إنَّما هي وسيلةٌ للضَّحكِ علىٰ النَّاسِ، وسيلةٌ لكي يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّها تُؤدِّي إلىٰ العلمِ، وأنَّ هؤلاءِ أصحابُ عِلمٍ وفهمٍ بهٰذه الأمورِ.

وفي الواقعِ هو لا يتحصَّلُ علىٰ العلمِ الغَيبِيِّ عن طريقِ خطٍّ أو عن طريقِ فِنجانٍ أو عن طريقِ النَّظرِ في البُروجِ أو نحوِ ذلك، وإنَّما يأتيه العِلمُ عن طريقِ الجنِّ، وهو يُظهِرُ هٰذه الأشياءَ حتَّىٰ يحصُلَ علىٰ المَقصودِ، حتَّىٰ تُصدِّقَه النَّاسُ أنَّه لا يَستخدِمُ الجنَّ؛ ولكنَّه وليٌّ من الأولياءِ.

كيف يستنتجُ هٰذه المُغيَّباتِ، كيفَ يستنتجُ المُغيَّباتِ من هٰذهِ الأمورِ الظَّاهريَّةِ؟ في بعضِ البلادِ كغربِ إفريقيا وبعضِ شمالِها ونحوِ ذلك، وهٰذا مُنتشِرٌ أيضًا في الشَّرقِ وفي كثيرٍ من البلادِ، يَجعلون من يتعاطىٰ هٰذه الأشياءَ وليًّا من الأولياءِ، ويقولونَ: المَلائكَةُ تُخبِرُه بكذا، فهو لا يَفعَلُ الفِعلَ إلَّا بإرشادٍ من المَلائكَةِ، فالَّذين يَفعلون هٰذه الأفعالَ من الأمورِ السِّحريَّةِ أو الكِهانيةِ عندَهم أنَّهم أولياءُ، ولهٰذا ترىٰ بعضَ الشُّرَّاحِ يذكرُ في مُقدِّمةِ هٰذه الأبوابِ أنَّ أولياءَ الله جَلَّوَعَلَا لا يَتعاطَونَ الشِّركَ ولا يَتعاطَونَ مثلَ هٰذه الأمورِ، فأولياءُ الله مُقيَّدونَ بالشَّرعِ وليسوا من أولياءِ الجنِّ.

[الأسئلة]

[سؤال (27)]: هناك رجلٌ في مَنطِقَتِنا يأتي إليه النَّاسُ عندَ فقْدِ أموالِهم، فيُعطيهم خيطًا مُعقَّدًا، ويقرأُ عليه، ويطلبُ مِنهم أن يضعوه في المكانِ الَّذي فقدَه، فما حُكمُ ذلك؟ وما حُكمُ الصَّلاةِ خلفَه؟

الجواب: هٰذا من الكِهانَةِ؛ لأنَّ هٰذا الَّذي يعملُ هٰذه الأشياءَ عرَّافٌ، أو كاهنٌ، وقد يكون ساحرًا -

أيضًا-، فلا يجوزُ عمل مثلِ هٰذا العملِ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يُعينَ أحدًا يدَّعي مَعرفةَ شيءٍ من علمِ الغَيبِ، والصَّلاةُ خلفَه لا تجوزُ؛ لأنَّ هٰذا إمَّا أن يكـون عرَّافًـا، أو كاهنًـا، أو سـاحرًا، وهـؤلاءِ لا تجـوزُ الصَّـلاةُ خلفَهم.][1]

(1) مأخوذٌ من الوجهِ الأوَّلِ من الشَّريطِ الأوَّل تحتَ باب ما جاءَ في الذَّبحِ لغيرِ الله.

27- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

[1] عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - وَأَبُو دَاوُدَ.

[2] وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؛ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هٰذا كُلَّهُ.

[3] وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِابْنِ الْـمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». انْتَهَىٰ.

[4] وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْـحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ الْـمُبَاحَةِ؛ فَهٰذا جَائِزٌ».

(**بَابٌ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ**)، النُّشْرَةُ مُتعلِّقَةٌ بالسِّحرِ، وأصلُها من النَّشْرِ؛ وهو: قيامُ المريضِ صحيحًا، النُّشْرَةُ اسمٌ لعلاجِ المَسحورِ، سُمِّيَت نُشرَةً لأنَّه يَنتشِرُ بها؛ أي: يقومُ، ويَرجعُ إلىٰ حالتِه المُعتادَةِ.

وقولُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ**)؛ يعني: من التَّفصيلِ؛ وهل النُّشرَةُ جميعًا وهي حلُّ السِّحرِ مَذمومَةٌ؟ أو أنَّ مِنها ما هو مَذمومٌ ومِنها ما هو مَأذونٌ به؟

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ، وهي أنَّه كما أنَّ السِّحرَ شركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا يَقدَحُ في أصلِ التَّوحيدِ، وأنَّ السَّاحرَ مُشرِكٌ الشِّركَ الأكبرَ بالله.

فالنُّشرَةُ الَّتي هي حلُّ السِّحرِ:

قد يكونُ من ساحرٍ،

وقد يكونُ من غير ساحرٍ بالأدويةِ المَأذونِ بها أو بالأدعيَةِ ونحوِ ذلك، فإذا كان من ساحرٍ فإنَّها مُناقِضَةٌ لأصلِ التَّوحيدِ ومُنافيَةٌ لأصلِه.

فإذن المُناسبةُ ظاهرةٌ في الصِّلَةِ بينَ هٰذا البابِ و(بابِ ما جاءَ في السِّحرِ)، وكذلكَ مُناسبَتُها لبابِ التَّوحيدِ؛ لأنَّ كثيرين ممَّن يَستعمِلون النُّشرَةَ يُشرِكونَ باللهِ جَلَّ وَعَلَا.

والنُّشرَةُ -كما سَمِعتُم- في البابِ قسمان: نُشرَةٌ جائزةٌ، ونُشرَةٌ مَمنوعةٌ.

النُّشرَةُ الجائزةُ: هي ما كانت بالقرآنِ أو بالأدعيَةِ المَعروفةِ أو بالأدويةِ عندَ الأطبَّاءِ ونحوِ ذلك، فإنَّ السِّحرَ يكونُ كما ذَكرنا عن طريقِ الجنِّ، والسِّحرُ يحصلُ منه إمراضٌ حقيقةً في البدنِ، ويحصُلُ منه تغييرٌ حقيقةً في العقلِ والذِّهنِ والفهمِ، وإذا كان كذلكَ فإنَّه يُعالَجُ بالمُضادَّاتِ الَّتي تُزيلُ ذلكَ السِّحرَ، فممَّا يُزيلُه القرآنُ، والقرآنُ هو أعظمُ ما ينفعُ في إزالَةِ السِّحرِ، كذلكَ الأدعيةُ والأورادُ ونحوُ ذلك ممَّا هو مَعروفٌ من الرُّقىٰ الشَّرعيَّةِ.

ونوعٌ من السِّحرِ يكونُ في البدنِ؛ يعني: من جهةٍ عُضويَّةٍ فهٰذا أحيانًا يُعالَجُ بالرُّقَىٰ والأدعيَةِ والقُرآنِ، وأحيانًا يُعالَجُ عن طريقِ الأطبَّاءِ العُضويِّينَ، وذلكَ لأنَّ السِّحرَ -كما قُلنا- يُمرِضُ حقيقةً فإذا أُزيلَ المَرضُ أو سببُ المَرضِ فإنَّه يَبطُلُ السِّحرِ، ولهٰذا قالَ لك ابنُ القيِّمِ في آخرِ الكلامِ: (وَالثَّانِي: النُّشْـرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهٰذا جَائِزٌ) لأنَّه يحصلُ منه المرضُ وإذا كان كذلكَ فإنَّه يُعالَجُ بما أذِنَ به شرعًا من الرُّقىٰ والأدويةُ المُباحَةُ.

والقسمُ الثَّاني من النُّشرَةِ: وهي الَّتي من أنواعِ الشِّركِ أن يُنشَّرَ عنه -بغيرِ الطَّريقِ الأوَّلِ- بطريقِ السِّحرِ، فيَحِلُّ السِّحرَ بسحرٍ آخرَ، يَحِلُّ السِّحرَ الأوَّل بسحرٍ آخرَ، وذكرنا أنَّ السِّحرَ لا يَنعقِدُ أصلًا إلَّا بأنْ يتقرَّبَ السَّاحرَ إلىٰ الجنِّيِّ أو أن يكونَ الجنِّيُّ يخدمُ السَّاحرَ الَّذي يُشركُ بالله دائمًا فيخدمُه،

كذلك حلُّ السِّحرِ لا بدَّ فيه من إزالةِ سببِه وهو خدمةُ شياطينِ الجنِّ للسِّحرِ، وهٰذا لا يُمكنُ إلَّا الجنَّ، فإنَّ السَّاحرَ الثَّاني الَّذي يُنَشِّرُ السِّحرَ ويرفعُ السِّحرَ لابدَّ أن يَستغيثَ أو أن يتوجَّه إلىٰ بعضِ جنِّه في أن يرفعَ أولٰئكَ الجنَّ الَّذين عقدوا هٰذا السِّحرَ أن يرفعوا أثرَه.

فصارَ إذن هٰذه الجهةُ أنَّها:

من حيثُ العقدُ والابتداءُ لا تكونُ إلَّا بالشِّركِ بالله،

ومن حيثُ الرَّفعُ والنَّشرُ لا تكونُ إلَّا بالشِّركِ بالله جَلَّوَعَلَا،

ولهٰذا قال: (لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ)؛ يعني: لا يُحَلُّ السِّحرُ بغير الطَّريقِ الشَّرعيَّةِ المَعروفةِ إلَّا ساحرٌ، لا يأتي أحدٌ ويقول أنا أحُلُّ السِّحرَ، هل تستخدِمُ القراءةَ والتِّلاوةَ والأدعِيةَ؟ قال: لا، قال: أنت طبيبٌ تُطِبُّ ذلكَ المَسحورَ؟ قال: لا، إذن فهو ساحرٌ، إذا لم يَستخدِمِ الطَّريقَ الثَّانيةَ فإنَّه لا يُمكنُ أن يَحُلَّ السِّحرَ إلَّا ساحرٌ؛ لأنَّه فكُّ أثرِ الجنِّ في ذلكَ السِّحرِ ولا يُمكنُ إلَّا عن طريقِ شياطينِ الجنِّ الَّذين يُؤثِّرون علىٰ ذاكَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ».)، (سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ)؛ السَّائلُ سألَه عمَّا كان مَعهودًا مَعروفًا عندَهم في هٰذا الاسمِ وهو اسمُ النُّشرَةِ، والَّذي كانَ مَعروفًا مَعهودًا هو أنَّ اسمَ النُّشرَةِ إنَّما هو من جهةِ السَّاحرِ، **النُّشرَةُ عندَ العربِ هو حلُّ السِّحرِ بمثلِه**، هٰذه هي النُشرَّةُ عندَ العربِ، ولهٰذا سُئِلَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن النُّشرَةِ فقال: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وقال العُلماءُ: (أل) ألفُ ولامُ التَّعريفِ في قولِه: (**النُّشْرَةُ**) هٰذه للعهدِ؛ يعني: النُّشرَةُ المَعهودُ استعمالُها وهي حلُّ السِّحرِ بمثلِه، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)؛ لأنَّ رفعَ السِّحرِ لا يكونُ إلَّا بعملِ شيطانٍ جنِّيٍّ ولهٰذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (هي)؛ يعني: الرَّفعَ والنَّشرَ من عملِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ العقدَ أصلًا من عملِ الشَّيطانِ والرَّفعَ والنَّشرَ من عملِ الشَّيطانِ.

فإذن هو سؤالٌ عن النُّشرَةِ الَّتي كانت تُستَخدَمُ في الجاهليَّةِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] (رَوَاهُ أَحْمَدُ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؛ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هٰذا كُلَّهُ)، (يَكْرَهُ هٰذا كُلَّهُ) يعني: أن تكونَ النُّشرَةُ عن طريقِ التَّمائمِ الَّتي فيها القرآنُ؛ لأنَّه مرَّ معنا فيما سبقَ أنَّ ابنَ مَسعودٍ كان يَكرهُ جميعَ أنواعِ التَّمائمِ حتَّىٰ من القُرآنِ كما قال إبراهيمُ النَّخعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانوا يَكرَهون التَّمائمَ كلَّها من القرآنِ ومن غيرِ القرآنِ. يعني: أصحابَ ابنِ مَسعودٍ، وابنُ مَسعودٍ كذلكَ، فابنُ مَسعودٍ كان يَكرَهُ التَّمائمَ من القرآنِ؛ وهو أن يُعلِّقَ شيءٌ من القرآنِ لأيِّ غرضٍ لدفعِ العينِ أو لإزالةِ السِّحرِ ورفعِ الضَّررِ، لهٰذا الإمامُ أحمدُ لمَّا قال أبو داود: (سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا)؛ يعني: عن النُّشرَةِ الَّتي تكونُ بالتَّمائمِ من القرآن (فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هٰذا كُلَّهُ).

أمَّا النُّشرَةِ باستخدامِ النَّفثِ والرُّقيَةِ من غيرِ تعليقٍ، فلا يُمكِنُ للإمامِ أحمدَ ولا لابنِ مَسعودٍ أنْ يَكرهوا ذلكَ؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ استخدَمَ ذلكَ وأذِنَ به عملًا في نفسِه وكذلكَ في غيرِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ».) يريدُ ابنُ المُسيَّبِ بذلكَ ما ينفعُ من النُّشرَةِ بالتَّعوُّذاتِ والأدعيةِ والقرآنِ والدَّواءِ المُباحِ ونحوِ ذلك، أمَّا النُّشرَةُ الَّتي هي بالسِّحرِ فابنُ مسعودٍ[1] أرفعُ من أن يقولَ: إنَّها جائزَةٌ ولم يَنْهَ عنها. والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ).

(1) لعل الشَّيخ حفظَه اللهُ يريدُ ابنَ المُسيَّبِ.

لهٰذا (قَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ»)، (أَمَّا مَا يَنْفَعُ) يعني من الأدويَةِ المُباحَةِ ومن الرُّقىٰ والتَّعويذاتِ الشَّرعيَّةِ وقراءةِ القرآنِ ونحوِ ذلك فهٰذا لم يَنْهَ عنه؛ بل أذِنَ فيه.

إذن فالسِّحرُ بلاءٌ، وسُئِلَ ابنُ المُسيَّبِ عن هٰذا الَّذي به طِبٌّ -يعني سِحرٌ- أو يأخذُ عن امرأتِه بصرفِ القلبِ عنها: أيُحَلُّ عنه أو يُنشَّرُ بأصلِ الحلِّ والنَّشرِ؟ يعني: أيجوزُ أن يُرفَعَ ذلكَ الطِّبُّ الَّذي به، أو ذلكَ الأخذُ عن امرأتِه بأيِّ وسيلةٍ؟ فقال: نعم؛ ما ينفعُ فلم ينه عنه إنَّما يُريدونَ به الإصلاحَ. وَمعلومٌ أنَّه يُريدُ بذلك ما أُذنَ به في الشَّرعِ من القِسمِ الَّذي ذَكرنا فيه من جوازِ مَن استخدَمَ الرُّقىٰ والتَّعوُّذاتِ والأدويةَ والدَّعواتِ المُباحةَ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ») وهٰذا بيَّنا معناه.

(قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ) هٰذه حقيقةُ النُّشرَةِ الشِّركيَّةِ، قال: (فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ) كما ذَكرْنا لكم سَلَفًا، (فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ) هٰذه حقيقةُ النُّشرَةِ الشِّركيَّةِ، قال: (وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهٰذا جَائِزٌ).

إذا تبيَّنَ ذلكَ فإنَّ حُكمَ حلِّ السِّحرِ بمثلِه أنَّه لا يجوزُ ومُحرَّمٌ؛ بل هو شِركٌ بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه لا يَحُلُّ السِّحرَ إلَّا ساحرٌ.

بعضُ العلماءِ من أتباعِ المَذاهبِ يرىٰ جوازَ حلِّ السِّحرِ بمثلِه إذا كان للضَّرورَةِ كما قال فُقهاءُ مَذهبِ الإمامِ أحمدَ في بعضِ كُتبِهم: ويجوزُ حلُّ السِّحرِ بمثلِه ضَرورةً.

وهٰذا القَولُ ليس بصَوابٍ؛ بل هو غَلطٌ؛ لأنَّ الضَّرورةَ لا تكونُ جائزةً ببذلِ الدِّينِ والتَّوحيدِ عِوَضًا عنها.

مَعروفٌ أنَّ الأُصولَ الخمسةَ أوَّلُها -يعني: الَّتي جاءت بها الشَّرائعُ- حفظُ الدِّينِ، وما هو دونَها مَرتبةً لا يُبذَلُ ما هو أعلىٰ لتَحصيلِ ما هو أَدنىٰ، وضَرورةُ الحِفاظِ علىٰ النَّفسِ هٰذه لا شكَّ أنَّها من الضَّروريَّاتِ الخمسِ؛ لكنَّها دونَ حفظِ الدِّين مَرتَبَةً، ولهٰذا لا يُقدَّمُ ما هو أدنىٰ علىٰ ما هو أعلىٰ، أو أنْ يُبذَلَ ما هو أعلىٰ لتَحصيلِ ما هو أدنىٰ من الضَّروريَّاتِ الخمسِ، والأنفُسُ لا يجوزُ حِفظُها بالشِّركِ، وهٰذا أن يموتَ هو علىٰ التَّوحيدِ لا شكَّ أنَّه خيرٌ له من أن يُعافىٰ وقد أتىٰ بشركٍ بالله جَلَّوَعَلَا.

والسِّحرُ لا يكونُ إلَّا بشِركٍ، والَّذي يأتي السَّاحرَ ويطلُبُ منه حلَّ السِّحرِ هٰذا مَعناه أنَّه رَضِيَ قولَه وعَمَلَه ورَضِيَ أن يعملَ به ذاكَ ورَضِيَ أن يُشرِكَ ذاكَ باللهِ لأجلِ مَنفعَتِه، وهٰذا غيرُ جائزٍ.

فإذن تحصَّلَ أنَّ السِّحرَ وُقوعًا وأنَّ السِّحرَ نشْرًا لا يكونُ إلَّا بالشِّركِ الأكبرِ بالله جَلَّوَعَلَا، وعليه فلا يَجوزُ أن يُحَلَّ لا من جهةِ الضَّرورةِ ولا من غيرِ الضَّرورةِ من بابِ أولىٰ بسحرٍ مثلِه؛ بل يُحَلُّ ويُنشَرُ بالرُّقىٰ الشَّرعيَّةِ.



28- **بَابٌ**

مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾[الأعراف].

[2] وَقَوْلُـهُ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾[يس].

[3] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا عَدْوَىٰ، وَلَا طِيَـرَةَ، وَلَا هَامَـةَ، وَلَا صَفَرَ**». أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «**وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ**».

[4] وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَدْوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَـأْلُ**» قَـالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**».

[5] وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**أَحْسَنُهَا: الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْـحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**».

[6] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّـلِ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

[7] وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قَالُوا: فَمَا كَفَّـارَةُ ذَلِـكَ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**».

[8] وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**».

هٰذا (**بابٌ ما جاءَ في التَّطيُّرِ**) ومرَّ معنا أنَّ الطِّيَرة من أنواعِ السِّحرِ، ولهٰذا جاء الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بهٰذا البابِ بعد الأبوابِ المُتعلِّقةِ بالسِّحرِ؛ لأنَّها من أنواعِه بنصِّ الحديثِ.

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ التَّطيُّرَ نوعٌ من الشِّرك بالله جَلَّ وَعَلَا بشَرطِه، والشِّركُ الَّذي يكونُ من جهةِ التَّطيُّرِ مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ الواجبِ لأنَّه شركٌ أصغرُ، **وحقيقةُ التَّطيُّرِ أنَّه التَّشاؤُمُ أو التَّفاؤُلُ بحركةِ الطَّيرِ من السَّوانحِ والبَوارحِ أو النَّطيحِ أو القَعيدِ، أو بغيرِ الطَّيرِ ممَّا يحدُثُ إذا أرادَ أحدٌ أن يذهبَ إلىٰ مكانٍ أو يَمضيَ إلىٰ سفرٍ أو يعقدَ له خيارًا**، فيستدلُّ بما يحدُثُ له من أنواعِ حركاتِ الطُّيورِ أو بما يحدُثُ له من الحوادثِ أنَّ السَّفرَ سفرٌ سعيدٌ فيَمضىٰ فيه، أو أنَّه سفرٌ سيِّئٌ وعليه فيه وَبَالٌ فيرجعُ عنه.

ولذلكَ ضابطُ الطِّيَرةِ الشِّركيَّةِ الَّتي من قامت في قلبِه وحصلَ له شرطُها وضابطُها فهو مُشركٌ الشِّـركَ

الأصغرَ ما جاء في آخرِ البابِ؛ أنَّه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ») فالطِّيَرةُ شركٌ وهي الَّتي تقعُ في القلبِ ويبني عليها المرءُ مَضَاءً في الفعلِ أو ردًّا عن الفعلِ.

فإذا خرجَ -مثلًا- من بيتِه وحصل أمامَه -وهو يَنوي سفرًا أو يَنوي رحلةً أو يَنوي القيامَ بصفقةِ تِجارةٍ ونحوِ ذلك- فحصل أمامَه حادثٌ، فهٰذا الحادثُ الَّذي حصلَ أمامَه من تصادُمِ سيَّارةٍ أو اعتداءٍ من واحدٍ علىٰ آخرَ أو نحوِ ذلك، جعلَ من هٰذا الحادثِ في قلبِه شُؤمًا، ثمَّ استدلَّ بهٰذا الحادثِ علىٰ أنَّه سيفشلُ في سفرِه أو في تِجارتِه أو أنَّه سيُصيبُه مَكروهٌ في سفرِه، فإذا رجعَ ولم يَمضِ فقد حصلَ له التَّطَيُّرُ الشِّركيُّ، أمَّا إذا وقع ذلك في قلبِه مُجرَّدَ وُقوعٍ، وحصلَ له نوعُ تشاؤُمٍ؛ ولكنَّه مضىٰ وتوكَّلَ علىٰ الله فهٰذا لا يكادُ يَسلَمُ منه أحدٌ، وكما جاء في حديثِ ابنِ مَسعودٍ «وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» كما سيأتي.

إذن فهٰذه حقيقةُ التَّطَيُّرِ الشِّركيِّ وضابطُه، وبيانُ أنَّ التَّطيُّرَ اسمٌ عامٌّ ليس خاصًّا بالطَّيرِ وحركاتِها.

مرَّ معنا العيافةُ فيما سبق في (بَابٌ مَا جَاءَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)، وأنَّ العيافةَ مُتعلِّقةٌ بالطَّيرِ كما فسَّرها عوفٌ الأعرابيُّ بقولِه: العيافةُ زجرُ الطَّيرِ. مُتعلِّقةٌ بالطَّيرِ من حيثُ أنَّه يُحرِّكُ الطَّيرَ ويزجُرُها حتَّىٰ ينظُرَ أينَ تتحرَّكُ.

وأمَّا الطِّيَرَةُ فهو أن يَتشاءمَ أو يَتفاءلَ ويمضي أو يرجع بحركةٍ تحصُلُ أمامَه ولو لم يزجُرْ أو يفعَلْ، أو بشيءٍ يحصُلُ أمامَه إمَّا من الطَّيرِ أو من غيرِه.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مَا جَاءَ فِي التَّطيُّرِ) يعني من أنَّه شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا إذا أمضىٰ أو ردَّ، وكفَّارةُ التَّطيُّرِ إذا وقع في القلبِ، ونحوِ ذلك من الأحكامِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾)

هٰذه بعضُ آيةٍ من آيةِ سورةِ الأعرافِ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾؛ يعني: إذا أتاهم خصبٌ وسَعةٌ وزيادةٌ في الأرزاقِ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾؛ يعني: نحنُ المُستحِقُّون لها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ يعني: أصابَهم جدبٌ أو نقصٌ في الأرزاقِ أو بلاءٌ قالوا: هٰذا بسببِ شُؤمِ موسىٰ ومن معه، فهم الَّذين بسبَبِهم وبسبَبِ أقوالِهم وأعمالِهم حصلَ لنا هٰذا السُّوءُ وهٰذه الوَيلاتُ. فتطيَّروا بهم؛ يعني جعلوهم سببًا لما حصلَ لهم، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾؛ يعني: ما يطيرُ عنهم من عملٍ صالحٍ أو طالحٍ وأنَّهم

يَستحقُّون الحسناتِ أو يستحقُّون السَّيِّئاتِ كلُّ هٰذا عندَ الله جَلَّوَعَلَا، أو أنَّ معنىٰ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أنَّ سببَ ما يأتيهم من الحسناتِ أو ما يأتيهم من السَّيِّئاتِ أنَّ ذلك من جهةِ القضاءِ والقدرِ فهو عندَ الله جَلَّوَعَلَا.

ومُناسبَةُ هٰذه الآية لهٰذا البابِ أنَّ هٰذه الخَصلةَ من صفاتِ أعداءِ الرُّسلِ من صفاتِ المُشركين، فالتَّطيُّرُ من صفاتِ أهل الإشراكِ، من صفاتِ أعداءِ الرُّسلِ، وإذا كان كذلكَ فهو مَذمومٌ ومن خصالِ المُشركين الشِّركيَّةِ، وهٰذه هي مناسبة إيرادِ الآيةِ تحت هٰذا البابِ من جهةِ أنَّه خَصلةٌ من خصالِ أعداءِ الرُّسلِ، وليست من خصالِ أتباع الرُّسلِ، وإنَّما أتباعُ الرُّسلِ فإنَّهم يُعلِّقون ذلك بما عندَ الله من القضاءِ والقدرِ، أو بما جعلَه الله جَلَّوَعَلَا لهم من ثوابِ أعمالِهم أو العقابِ علىٰ أعمالِهم كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

[الدَّليلُ الثَّاني] وكذلك ما أَوْرَدَه من الآيةِ الثَّانيةِ وهي قولُه: (وَقَوْلُـهُ: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾[يس:19]) وهي من سورةِ يس ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ الَّذي تطيَّرَ بأولئكَ هم المُشركونَ أصحابُ تلكَ القريةِ حيثُ قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾[يس]؛ قال أتباعُ الرُّسلِ: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾؛ يعني: حقيقةُ سببِ السَّيِّئاتِ عليكم أو سببُ قدومِ الحسناتِ عليكم هٰذه مِن شيءٍ فيكم، فالسُّوءُ الَّذي سيَنالُكم والعقابُ الَّذي سيَنالُكم مُلازمٌ لكم مُلازمَةَ ما يَطيرُ عنكم لكم، فما يَطيرُ عنكم من عملِ سوءٍ ومن مُعاداةٍ للرُّسلِ وتكذيبٍ للرُّسلِ، هٰذا مُلازمٌ لكم وستَتطيَّرون به، قال: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ لأنَّه من جهةِ أنَّهم فعلوا السَّيِّئاتِ وكذَّبوا الرُّسلَ وهٰذا سيَقعُ عليهم وبالُه.

ومُناسبةُ هٰذه الآية للبابِ كمُناسبةِ الآيةِ قبلَها من أنَّ هٰذه هي قَالَةُ المُشركينَ وأعداءِ الرُّسلِ.

[الدَّليلُ الثَّالث] قال: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَـالَ: «لَا عَـدْوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَـوْءَ، وَلَا غُـولَ».) مُناسـبةُ هٰـذا الحـديثِ للبـابِ قولُه: «وَلَا طِيَرَةَ» ومن المَعلومِ أنَّ المَنفيَّ هنا ليسَ هو وجودُ الطِّيَرةِ؛ لأنَّ الطِّيَرَةَ مَوجودةٌ من جهةِ اعتقادِ النَّاسِ ومن جهةِ استعمالِها؛ ولكنَّها باطلةٌ، كذلك العدوىٰ مَوجودةٌ من جهةِ الوُقوعِ.

ولهٰذا قالَ العلماءُ: النَّفيُّ هنا راجعٌ إلىٰ ما تَعتقِدُه العـربُ ويَعتقِـدُه أهـلُ الجاهليَّـةِ؛ بـأنَّ (لَا) نافيـةٌ للجنسِ واسمُها مَذكورٌ وخبرُها مَحذوفٌ لأجلِ العلمِ به، فإنَّ الجاهليِّينَ لا يُنازِعون في أصلِ وجودِ هٰـذه

الأشياءِ، فإنَّما الجاهليُّون يؤمنون بوجودِ هٰذه الأشياءِ ويُؤمنونَ أيضًا بتأثيرِها، فالمَنفِيُّ ليسَ هو وُجودُها وإنَّما هو تأثيرُها، فيكونُ التَّعبيرُ هنا: لا عَدوىٰ مُؤثِّرةٌ بطبعِها ونفسِها، وإنَّما تنتقِلُ العَدوىٰ بإذن الله جَلَّوَعَلَا، وأهلُ الجاهليَّةِ يعتقِدون أنَّ العَدوىٰ تنتقلُ بنفسِها، فأبطلَ ذلك اللهُ جَلَّوَعَلَا، فأبطلَ ذلكَ الاعتقادَ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا عَدْوَىٰ» يعني مُؤثِّرةٌ بنفسِها، «وَلَا طِيرَةَ» مُؤثِّرةٌ أيضًا، فإنَّ الطِّيرَةَ شيءٌ وَهميٌّ يكونُ في القلبِ لا أثرَ له في قضاءِ الله وفي قدرِه، فحركةُ الطَّائرِ يمينًا أو شمالًا أو السَّانحِ أو البارحِ أو النَّطيحِ أو القَعيدِ لا أثرَ لها في حكمِ الله وفي مَلَكوتِ الله وفي قضائِه وقدرِه، فإذنْ الخبرُ تُقدِّرُه بقولِه: ولَا طِيرَةَ مُؤثِّرةٌ؛ بل الطِّيَرَةُ شيءٌ وَهميٌّ، ولا هامةَ ولا صفرَ إلىٰ آخر الحديثِ.

وسبق أن ذكرتُ لكم أنَّ خبرَ (لا) النَّافيةِ للجنسِ يُحذَفُ كثيرًا في لُغةِ العربِ كما قال ابن مالكٍ في آخرِ بابِ لا النَّافيةِ للجنسِ في الألفيَّةِ:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الْخَبَرْ　　إِذَا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

وهٰذا مُهمٌّ في العربيَّةِ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا عَدْوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ») يعني لا عدوىٰ مُؤثِّرةٌ بنفسِها؛ بل بإذن الله جَلَّوَعَلَا ولا طِيرَةَ مُؤثِّرةٌ أصلًا، وإنَّما ذلكَ راجعٌ إلىٰ قضاءِ الله وقدرِه، قال: («وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ» قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»).

(الْفَأْلُ) كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحبُّهُ وفسَّرهُ بأنَّه الكلمةُ الطَّيِّبةُ؛ لأنَّ الكلمةَ الطَّيِّبةَ إذا سمِعَها فتفاءلَ بها أنَّه سيحصلُ له كذا وكذا من الخَيراتِ، ففيها أنَّها حُسنُ ظنٍّ بالله جَلَّوَعَلَا، الفألُ حُسنُ ظنٍّ بالله، والتَّشاؤُمُ سوءُ ظنٍّ بالله جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا صارَ الفألُ مَمدوحًا ومَحمودًا، وصارَ الشُّؤمُ مَذمومًا، والفألُ مَمدوحٌ من جهةِ أنَّه فيه تحسينُ الظَّنِّ بالرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، وهٰذا مَأمورٌ العبدُ به، لهٰذا كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَتفاءلُ، وكلُّ ذلكَ من تعظيمِ الله جَلَّوَعَلَا وحُسنِ الظَّنِّ به وتَعلُّقِ القلب به وأنَّه لا يَفعلُ للعبدِ إلَّا ما هو أصلحُ له.

[الدَّليلُ الخامِسُ] قال: (وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا: الْفَأْلُ») الطِّيَرَةُ يعني التَّأثُّرُ بالكلمةِ؛ لأنَّنا ذكرنا لكم أنَّ الطِّيَرَةَ عامَّةٌ تشملُ الأقوالَ والأعمالَ الَّتي تحصلُ أمام العبدِ، فإذا كان ثَمَّ تَطيُّرٌ فإنَّ أحسنَه الفألُ؛ يعني: أن يقعَ في قلبِه أنَّه سيحصُلُ له كذا وكذا من جرَّاءِ كلمةٍ سمعَها أو من جرَّاءِ فعلٍ حصلَ له أحسنُ ذلك الفألُ، وغيرُه مَذمومٌ، لِمَ كان الفألُ مَحمودًا ومَمدوحًا ومَأذونًا به؟ لِمَا ذكرنا من أنَّه إذا تطيَّرَ مُتفائِلًا فإنَّه مُحسِّنٌ الظَّنَّ بالله جَلَّوَعَلَا، وأمَّا الفألُ في نفسِه فهو مَطلوبٌ؛ لأنَّ التَّفاؤلَ يَشرحُ الصَّدرَ ويُؤنِسُ العبدَ ويُذهِبُ الضِّيقَ

الَّذي يُوحيهِ الشَّيطانُ ويُسبِّبُه الشَّيطانُ في قلبِ العبدِ، والشَّيطانُ يأتي للعبدِ فيجعلُه يَتوهَّم أشياءَ وأشياءَ كلُّها في مَضرَّتِه، فإذا فتحَ العبدُ علىٰ قلبِه بابَ التَّفاؤلِ أبعد عن قلبِه باب تأثيرِ الشَّيطانِ علىٰ النَّفسِ.

قال: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»، هٰذا خبرٌ؛ لكنَّه مُتضمِّنٌ للنَّهيِ، وقد ذكرتُ لكم أنَّ النَّهيَ قد يُعدَلُ عنه للخبرِ، كما أنَّ الأمرَ قد يُعدَلُ عنه إلىٰ الخبرِ لتأكيدِ النَّهيِ ولتأكيدِ الأمرِ، قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[النَّحل] هٰذا خبرٌ؛ لكنَّه كالأمرِ المُؤكَّدِ، هٰذا خبرٌ مُثبَتٌ، والخبرُ المَنفيُّ كقولِه هنا: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا» هٰذا خبرٌ؛ لكنَّ فيه النَّهيَ أنْ تَرُدَّ الطِّيَرَةُ مُسلمًا عن حاجتِه، فإذا ردَّته عن حاجتِه فقد حصلَ له الشِّركُ بالتَّطيُّرِ.

قال: «فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» هٰذا دعاءٌ عظيمٌ في دفعِ ما يأتي للقلبِ من أنواعِ التَّشاؤُمِ وأنواعِ الطِّيَرَةِ.

[الدَّليلُ السَّادسُ] قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»)، قال: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ» يعني الشِّركَ الأصغرَ بالله جَلَّوَعَلَا، قال: «وَمَا مِنَّا إِلَّا» يعني: إلَّا وقد أتىٰ لِقلبِه بعضُ التَّطيُّرِ؛ لأنَّ هٰذا من الشَّيطانِ، والشَّيطانُ يأتي القُلوبَ فيُغريها بما يُفسِدُها ومن ذلك التَّطيُّرُ، «وَمَا مِنَّا إِلَّا» يعني: ويَعرِضُ له ذلك «وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»؛ لأنَّ حَسناتِ التَّوكُّلِ وإتيانَ العبدِ بواجبِ التَّوكُّلِ يُذهِبُ عنه كَيدَ الشَّيطانِ بالتَّطيُّرِ.

فالواجبُ علىٰ العبدِ إذا عرضَ له شيءٌ من التَّشاؤُمِ ألَّا يرجعَ عمَّا أرادَ عملَه؛ بل يُعظِمُ التَّوكُّلَ علىٰ الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ هٰذه الأشياءَ الَّتي تحصلُ لا تدلُّ علىٰ الأمورِ المُغيَّبَةِ لأنَّها أمورٌ طَرأتْ ووافقت هكذا أمامَ العبدِ وليسَ لها أثرٌ فيما يحصلُ مُستقبلًا.

[الدَّليلُ السَّابعُ] قال: (وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ») هٰذا الضَّابطُ ذَكرناه لكم في أوَّلِ البابِ؛ أنَّ ضابطَ كَونِ الطِّيَرَةِ شركًا أن تَرُدَّ المُتطيِّرَ عن حاجتِه، فإذا لم تَرُدَّه عن حاجتِه فإنَّه لم يستأنسْ لها فلا حرجَ عليه في ذلكَ، إلَّا إنْ عَظُمَتْ في قلبِه فربَّما دخلَت في أنواعِ مُحرَّماتِ القُلوبِ، والَّذي يجبُ أن يُذهِبَه بالتَّوكُّلِ وتعظيمِ الرَّغبِ فيما عندَ الله وحُسنِ الظَّنِّ بالله جَلَّوَعَلَا، («قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»)، «وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ» يعني لن يحصلَ إلَّا قضاؤُك الَّذي قضَيْتَه، أو لن يحصُلَ ويُقضىٰ إلَّا ما قدَّرْتَه علىٰ العبدِ، والعلمُ -علمُ المُغيَّباتِ- إنَّما هو عندَ الله جَلَّوَعَلَا.

❀❀◈❀❀

29- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

[1] قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هٰذه النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْـمَ لَهُ بِهِ». انْتَهَىٰ.

[2] وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ.

[3] وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

[4] وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَـةٌ لَا يَـدْخُلُونَ الْـجَنَّةَ: مُـدْمِنُ الْـخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

(**بَابٌ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ**) يعني في حُكمِ التَّنجيم وأنَّه مُنقسمٌ إلىٰ جائزٍ ومُحرَّمٍ.

والمُحرَّمُ منه نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ وهو كفرٌ وشركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا، **فالتَّنجيمُ هـو ادِّعـاءُ مَعرفـةِ المُغيَّبـاتِ عن طريقِ النُّجوم**، هٰذا التَّنجيمُ المَذمومُ المُحرَّمُ الَّذي هو من أنواعِ الكِهانةِ والسِّحرِ.

وفيما يتعلَّمُه النَّاسُ أو فيما هو مَوجودٌ عند النَّاسِ وعندَ الخلقِ التَّنجيمُ ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: التَّنجيمُ الَّذي هو اعتقادُ أنَّ النُّجومَ فاعلةٌ مُؤثِّرةٌ بنفسِها، وأنَّ الحوادثَ الأرضيَّةَ مُنفعِلَةٌ ناتجةٌ عن النُّجومِ وعن إراداتِ النُّجومِ، وهٰذا تأليهٌ للنُّجومِ، وهو الَّذي كان يصنعُه الصَّابئَةُ ويجعلون لكُلِّ نجمٍ وكوكبٍ صورةً وتِمثالًا وتَحُلُّ فيها أرواحُ الشَّياطينِ فتأمرُ أولئك بعبادةِ تلكَ الأصنامِ والأوثانِ، وهٰذا بالإجماعِ **كُفرٌ أكبرُ وشركٌ** كشركِ قومِ إبراهيمَ.

النَّوعُ الثَّاني من التَّنجيمِ: هو ما يُسمَّىٰ علم التَّأثيرِ، وهو الاستدلالُ بحركةِ النُّجومِ والتِقائِها وافتراقِها وطُلوعِها وغُروبِها الاستدلالُ بذلكَ علىٰ ما سيحصلُ في الأرضِ، فيجعلونَ حركةَ النُّجومِ دالَّةً علىٰ ما سيقعُ مُستقبَلًا في الأرضِ، والَّذي يفعلُ هٰذه الأشياءَ ويُحسِنُها يُقالُ له: المُنجِّمُ، وهو من أنواعِ الكُهَّانِ؛ لأنَّ فيه أنَّه يُخبرُ بالأمورِ المُغيَّبَةِ عن طريقِ الاستدلالِ بحركاتِ الأفلاكِ وتَحرُّكِ النُّجومِ، وهٰذا النَّوعُ **مُحرَّمٌ وكبيرةٌ من الكبائرِ**، وهو نوعٌ من أنواعِ الكِهانةِ، وهي كفرٌ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ النُّجومَ ما خُلِقتْ لذلك، وهؤلاءِ تأتيهم الشَّياطينُ فتوحي إليهم بما يُريدونَ وبما سيحصلُ في المُستقبَلِ فيجعلون حركةَ النُّجومِ دليلًا علىٰ ذلكَ.

وقد أُبطل قولُ المُنجِّمينَ في أشياءَ كثيرةٍ من الواقعِ، ونحوِ ذلك كما في فتحِ عمُّوريَّةَ في قصيدةِ أبي تمَّامٍ المَشهورةِ:

السَّيفُ أصدقُ إنباءً مِن الكُتبِ ....

وغيرِها.

النَّوعُ الثَّالثُ ممَّا يدخُلُ في اسمِ التَّنجيمِ: ما يُسمَّىٰ بعلمِ التَّسييرِ؛ علمُ التَّسييرِ وهو أنْ يعلَمَ النُّجومَ وحركاتِ النُّجومِ؛ لأجلِ أن يعلمَ القِبلَةَ والأوقاتَ وما يصلُحُ من الأوقاتِ للزَّرعِ وما لا يصلُحُ، والاستدلالُ بذلك علىٰ وقتِ هُبوبِ الرِّياحِ، وعلىٰ الوقتِ الَّذي أجرىٰ فيه سنَّتَه أنَّه يحصلُ فيه من المطرِ كذا ونحوُ ذلك، فهٰذا يُسمَّىٰ علمَ التَّسييرِ، فهٰذا رخَّصَ فيه بعضُ العلماءِ، وسببُ التَّرخيصِ فيه أنَّه يجعلُ النُّجومَ وحركتَها أو التقاءَها أو افتراقَها أو طلوعَها أو غروبَها يجعلُ ذلكَ وقتًا وزمنًا لا يجعلُه سببًا، فيجعلُ هٰذه النُّجومَ علامةً علىٰ زمنٍ يَصلُحُ فيه كذا وكذا، والله جَلَّوَعَلَا جعلَ النُّجومَ علاماتٍ كما قال: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾[النَّحل]، فهي علامةٌ علىٰ أشياءَ يَحصُلُ طلوعُ النَّجمِ الفُلانيِّ، يحصُلُ أنَّه بطلوعِ النَّجمِ الفُلانيِّ يدخلُ وقتُ الشِّتاءِ، ليس بسببِ طُلوعِه لكن حينَ طلعَ استَدلَلْنا بطُلوعِه علىٰ دُخولِ الوقتِ، وإلَّا فهو ليسَ بسببٍ لحُصولِ البردِ وليس بسببٍ لحُصولِ الحرِّ وليس بسببٍ للمطرِ وليس بسببٍ لمُناسبةِ غرسِ النَّخلِ أو زرعِ المَزروعاتِ ونحوِ ذلك؛ ولكنَّه وقتٌ.

فإذا كان علىٰ ذلكَ فلا بأسَ به قولًا أو تعلُّمًا لأنَّه يجعلُ النُّجومَ وظُهورَها وغُروبَها يجعلُها أزمنةً وذلكَ مَأذونٌ به.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] (قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هٰذه النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ») كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾[فُصِّلت:12]، قال: ﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ والآياتُ علىٰ ذلك كثيرةٌ، قال: (وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا) حيثُ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [النَّمل:63]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ ونحوُ ذلك من الآياتِ، فهي علاماتٌ يُهتدَىٰ بها، يُهتدَىٰ بها علىٰ أيِّ شيءٍ؟ أو يُهتدَىٰ بها إلىٰ أيِّ شيءٍ؟ يُهتدَىٰ بها إلىٰ الجهاتِ جهةِ القِبلةِ، جهةِ الشَّمالِ، جهةِ الغَربِ، جهةِ الشَّرقِ، يُهتدَىٰ بها أيضًا علىٰ الاتِّجاهاتِ حيثُ تُعرَفُ أنَّ البلدَ الفُلانيَّةَ في اتِّجاهِ النَّجمِ الفُلانيِّ، فإذا أرادَ السَّائرُ ليلًا في البحرِ يتَّجِه نحو اتِّجاه هٰذا النَّجمِ فيعلمُ أنَّه مُتَّجِهٌ إلىٰ تلكَ البَلدةِ ونحوُ ذلك ممَّا أجرىٰ الله سنَّتَه به.

قال: (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْـمَ لَهُ بِهِ) وهٰذا صحيحٌ؛ لأنَّ

النُّجومَ خلقٌ من خلقِ الله ولا نفهَمُ سرَّها إلَّا بما أخبرَ الله جَلَّوَعَلَا به، فما أُخبرْنا به أخَذْناه، وما لم يُخبرْ به فلا يجوزُ أن نُكلِّفَ فيه ذلكَ، ولهٰذا قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا**»، والمُرادُ هنا بذكرِ النُّجوم يعني في غيرِ ما جاءَ به الدَّليلُ، إذا ذُكرَ القدرُ في غيرِ ما جاءت به الأدلَّةُ فأمسِكوا، وإذا ذُكِرَ أصحابي في غيرِ ما جاءَ به من فضلِهم وحُسنِ صحابتِهم وسابِقَتِهم ونحوِ ذلك من الدَّليلِ فأمسِكوا، وكذلك إذا ذُكِرَتِ النُّجومُ وما فيها بغيرِ ما جاءَ به الدَّليلُ فأمسِكوا؛ لأنَّ ذلكَ ذريعةٌ لأمورٍ مُحرَّمَةٍ.

[الدَّليلُ الثَّاني والثَّالثُ] قال: (وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ. وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.) الله جَلَّوَعَلَا جعلَ القمرَ منازلَ كما قال: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾[يس]، له ثمانٌ وعشرون مَنزلًا ينزلُ في كلِّ يومٍ مَنزلةً مِنها، تَعلُّمُ هٰذه المَنازلِ هل هو جائزٌ أم لا؟

مَنعه بعضُ السَّلفِ كراهةً.

ورخَّصَ فيه طائفةٌ من أهلِ العلمِ وهو الصَّحيحُ؛ لأنَّه جَلَّوَعَلَا امتنَّ علىٰ عبادِه بذلكَ قال: ﴿[هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ](1) مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[يونس:5] وظاهرُ الآية أنَّ حُصولَ المنَّةِ به في تعلُّمِه وذلكَ دليلُ الجوازِ.

[الدَّليلُ الرَّابع] قال: (وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**») ووجه الاستدلالِ من هٰذا الحديثِ قولُه: «وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» وقد مرَّ معنا أنَّ التَّنجيمَ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ كما قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**» وإذا صدَّقَ بالنُّجوم فإنَّه مُصدِّقٌ بالسِّحرِ، والمُصدِّقُ بالسِّحرِ لا يدخلُ الجنَّةَ، قال هنا: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ) وإدمانُ الخمرِ من الكبائرِ، قال: «وَقَاطِعُ الرَّحِمِ» وهي من الكبائرِ، «وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» وهو أيضًا من الكبائرِ.

ممَّا يدخلُ في التَّنجيم في هٰذا العصرِ بوضوحٍ مع غفلةِ النَّاسِ عنه: ما يَكثُرُ في المَجلَّاتِ ممَّا يُسمُّونَه **البروجَ**، يضَعُونَ صفحةً أو أقلَّ منها في الجرائدِ يَجعلون عليها رسمَ بُروجِ السَّنةِ: برجُ الأسدِ والعَقربِ والثَّورِ إلىٰ آخرِه، ويَجعلون أمامَ كلِّ بُرجٍ ما سيحصُلُ فيه، فإذا كان المرءُ أو المرأةُ مَولودًا في ذلكَ البُرجِ

(1) الشيخ قال: والقمر قدرناه.

يقولُ: سيحصُلُ لك في هٰذا الشَّهرِ كذا وكذا وكذا، وهٰذا هو التَّنجيمُ الَّذي هو التَّأثيرُ؛ الاستدلالُ بالنُّجومِ والبُروجِ علىٰ التَّأثيرِ في الأرضِ وعلىٰ ما سيحصُلُ في الأرضِ، وهو نوعٌ من الكِهانةِ، ووجودُه في المَجلَّاتِ والجرائدِ علىٰ ذلكَ النَّحوِ وجودٌ للكُهَّانِ فيها، فهٰذا يجبُ إنكارُه إنكارًا للشِّركيَّاتِ ولادِّعاءِ مَعرفَةِ الغَيبِ وللسِّحرِ وللتَّنجيمِ؛ لأنَّ التَّنجيمَ من السِّحرِ كما ذَكرنا، يجبُ إنكارُه علىٰ كلِّ صعيدٍ، ويجبُ أيضًا علىٰ كلِّ مُسلمٍ ألَّا يُدخلَهُ بيتَه، وألَّا يقرَأَه ولا يطَّلعَ عليه؛ لأنَّه وإنْ رأىٰ تلكَ البُروجَ وما فيها، ولو أنْ يعرف ذلكَ مَعرفةً فإنَّه يَدخلُ في النَّهي من جهةِ أنَّه أتىٰ إلىٰ الكاهنِ غيرَ مُنكِرٍ له.

فإذا أتىٰ لهٰذهِ البُروجِ وهو يعرفُ البُرجَ الَّذي وُلِدَ فيه؛ ولكن يقولُ: سأطَّلعُ ماذا قالوا عنِّي أو ماذا قالوا سيحصُلُ لمن وُلِدَ في هٰذا البُرجِ، فإنَّه يكونُ كمن أتىٰ كاهنًا فسألَه فإنَّه لا تُقبَلُ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً.

وإذا أتىٰ وقرأَ وهو يعلَمُ بُرجَهُ الَّذي وُلِدَ فيه أو يعلَمُ البُرجَ الَّذي يُناسِبُه وقرأَ ما فيه، فهٰذا سؤالٌ فإذا صدَّقَه به فقد كفرَ بما أُنزلَ علىٰ مُحمَّدٍ.

وهٰذا يَدلُّكَ علىٰ غُربةِ التَّوحيدِ بينَ أهلِه، وغُربَةِ فهم حقيقةِ هٰذا الكتابِ كتابِ التَّوحيدِ حتَّىٰ عندَ أهلِ الفِطرةِ وأهلِ هٰذه الدَّعوةِ، فإنَّه يجبُ إنكارُ ذلك علىٰ كلِّ صعيدٍ، وألَّا يؤثِّمَ المَرءُ نفسَه ولا مَن في بَيتِه بإدخالِ شيءٍ من الجَرائدِ الَّتي فيها ذلكَ في البُيوتِ؛ لأنَّ هٰذا مَعناهُ إدخالٌ للكَهنَةِ إلىٰ البُيوتِ، وهٰذا والعياذُ بالله من الكَبائرِ.

فواجبٌ إنكارُ ذلكَ وتَمزيقُه والسَّعيُ فيه بكلِّ سبيلٍ حتَّىٰ يُدحَضَ أولئكَ؛ لأنَّ علمَ التَّنجيمِ أهلُ البُروجِ أولئكَ هم من الكَهنَةِ.

والتَّنجيمُ له مَعاهِدُ مَعمورَةٌ في لبنانَ وفي غيرِها، يتعلَّمُ فيها النَّاسُ حركةِ النُّجومِ وما سيَحصُلُ بحساباتٍ مَعروفةٍ وجداولَ مُعيَّنةٍ، ويُخبِرونَ بأنَّه ما كان من في البُرجِ الفُلانيِّ فإنَّه سيحصُلُ كذا وكذا عن طريقِ تعلُّمٍ وَهميٍّ يُغرُّهم به رُؤوسُهم وكُهَّانُهم.

فالواجبُ علىٰ طلبةِ العلمِ أن يَسعَوْا في تَبصيرِ النَّاسِ في ذلكَ بالكلماتِ وبعدَ الصَّلواتِ وفي خُطَبِ الجُمَعِ؛ لأنَّ هٰذا ممَّا كثُرَ البلاءُ به والإنكارُ فيه قليلٌ، والتَّنبيهُ عليه ضعيفٌ والله المُستَعانُ.



30- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾[الواقعة].

[2] وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[3] وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

[4] وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هٰذه الآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾[الواقعة].

هٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**) والاستِسقاءُ بالأنواءِ هو نسبةُ السُّقيا إلىٰ الأنواءِ، **والأنواءُ هي النُّجومُ، يُقالُ للنَّجمِ: نوءٌ**، والعربُ والجاهليُّونَ كانوا يعتَقدون أنَّ النُّجومَ والأنواءَ سببٌ في نُزولِ المَطرِ فيَجعلونَها أسبابًا، ومنهم -وهم طائفةٌ قليلةٌ- من يجعلُ النَّوءَ والنَّجمَ هو الَّذي يأتي بالمَطرِ، كما ذكرتُ لك في حالَةِ الطَّائفةِ الأولىٰ من المُنجِّمينَ الَّذين يَجعلونَ المَفعولاتِ مُنفعِلَةً عن النُّجومِ وعن حركتِها.

فقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**) يعني: بابُ ما جاء في نِسْبَةِ السُّقيا إلىٰ النَّوءِ، وعبَّر بلفظِ الاستسقاءِ لأنَّه جاءَ في الحديثِ: «وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ».

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لما قبلَه من الأبوابِ أنَّ الاستسقاءَ بالأنواءِ نوعٌ من التَّنجيمِ؛ لأنَّه نسبةُ السُّقيا إلىٰ النَّجمِ؛ وذلك أيضًا من السِّحرِ؛ لأنَّ التَّنجيمَ من السِّحرِ بمعناه العامِّ.

ومُناسبةُ ذلك لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ الَّذي ينسبُ السُّقيا والفضلَ والنِّعمةَ الَّذي أتاهُ حينَما جاءَه المطرُ يَنسبُ ذلكَ إلىٰ النَّوءِ وإلىٰ النَّجمِ هٰذا مُلتَفِتٌ قلبُه عن الله جَلَّ وَعَلَا إلىٰ غيره، ومُتعلِّقٌ قلبُه بغيره، وناسبٌ النِّعمةَ إلىٰ غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا ومُعتَقِدٌ أنَّ النُّجومَ أسبابٌ لهٰذِه المُسبَّبات من نزولِ المطرِ ونحوه، وهٰذا منافٍ

لكمالِ التَّوحيدِ، فإنَّ كمالَ التَّوحيدِ الواجبِ يوجبُ علىٰ العبدِ أن يَنسِبَ النِّعمَ جميعًا إلىٰ الله وحدَه، وألَّا يَنسِبَ شيئًا منها إلىٰ غيرِ الله ولو كان ذلكَ الغيرُ سببًا، فينسبُ النِّعمةَ إلىٰ مُسديها ولو كان من أجرىٰ اللهُ علىٰ يَديْهِ تلكَ النِّعمَ سببًا من الأسبابِ؛ فإنَّه لا ينسبُها إلىٰ غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا، كيفَ وأنَّ النُّجومَ ليست بسببٍ أصلًا، ففي ذلكَ نوعانِ من التَّعدِّي:

أوَّلًا: أنَّها ليست بأسبابٍ.

والثَّاني: أن يجعلَها الله جَلَّ وَعَلَا أسبابًا وتُنسَبُ النِّعمُ والفضلُ والسُّقيا إليها.

وهٰذا مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ وكُفرٌ أصغرُ بالله جَلَّ وَعَلَا.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الواقعة]) قال علماءُ التَّفسيرِ: معنىٰ هٰذه الآيةِ وتجعلون شُكرَ رِزقِكم، شكرَ ما رزقكم الله من النِّعمِ ومن المَطرِ أنَّكم تُكذِّبونَ بأنَّ النِّعمةَ من عندِ الله بنِسبتِها لغيرِ الله جَلَّ وَعَلَا؛ تارةً بنِسبتِها إلىٰ الأنواء، أو نسبتها إلىٰ غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا. والواجبُ شكرًا لنعمِ الله جَلَّ وَعَلَا، وشكرًا لله جَلَّ وَعَلَا علىٰ ما رزقَ وأنعمَ وتفضَّلَ أنْ تُنسَبَ النِّعمُ جميعًا إلىٰ الله، وأن يُنسَبَ الفضلُ إلىٰ الرَّبِّ وحدَه دونَ ما سِواه.

[**الدَّليلُ الثَّاني**] قال: (وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ») وقولُه: «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ» هٰذا دليلٌ علىٰ ذمِّها وأنَّها من شعبِ الجاهليَّةِ، ومن المَعلومِ أنَّ شُعبَ الجاهليَّةِ جميعًا مَطلوبٌ من هٰذه الأمَّةِ أن تبتعدَ عنها؛ لأنَّ خِصالَ أهلِ الجاهليَّةِ مَذمومةٌ كما جاء في «صحيحِ البُخاريِّ» من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**» فكلُّ شُعبةٍ من شُعبِ أهل الجاهليَّةِ إذْ أُرجعت إلىٰ أهلِ الإسلامِ بعدَ أن أنقذَهم الله من ذلكَ ببعثةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وظهورِ القرآنِ والسُّنَّةِ وبيانِ الأحكامِ فإنَّه مُبتغٍ في الإسلامِ سنَّةَ الجاهليَّةِ وهو مِن أبغضِ الرِّجالِ إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

إذن قولُه: «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ» هٰذا دليلُ الذَّمِّ وليسَ الإخبارُ بأنَّها باقيةٌ دليلُ الإباحةِ، قال: «لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ» يعني: علىٰ وجهِ التَّكبُّرِ والرِّفعَةِ، «وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ» بالطَّعنِ في نسبِ فُلانٍ وفُلانٍ والتَّكذيبِ بنسبِ فُلانٍ وفُلانٍ بغيرِ دليلٍ شَرعيٍّ ومِن غيرِ حاجةٍ شَرعيَّةٍ، فإنَّ القاعدةَ الَّتي ذكرَها الإمامُ مالكٌ وغيرُه من أهلِ العلمِ أنَّ النَّاسَ مُؤتَمنونَ علىٰ أنسابِهم، فإذا كان لا يترتَّبُ علىٰ ذكرِ النَّسبِ، وأنَّ فُلانًا ينتسبُ إلىٰ آل فلانٍ أو إلىٰ القبيلةِ الفُلانيَّةِ إذا لم يترتَّبْ عليه أثرٌ شَرعيٌّ: إعطاءُ حقٍّ

لغيرِ أهلِه أو بميراثٍ أو بعقدِ نسبةٍ أو بزواجٍ ونحوِ ذلك فإنَّ النَّاسَ مُؤتَمنونَ علىٰ أنسابِهم، أمَّا إذا كان له أثرٌ فلا بدَّ من الإثباتِ سيَّمَا إذا كان مُخالفًا لما هو شائعٌ مُتواتِرٌ عند النَّاسِ، فالطَّعنُ في الأنسابِ من أمورِ الجاهليَّة، قال: «وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» وهو نسبةُ السُّقيا إلىٰ النُّجوم، ويشملُ أيضًا قولُه: «الِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» يشملُ ما هو أعظمُ من ذلكَ وهو أن تُطلَبَ السُّقيا من النُّجومِ كحالِ الَّذين يعتَقِدون أنَّ الحَوادِثَ الأرضيَّةَ تَحصُلُ بالنُّجومِ نفسِها، وأنَّ النُّجومَ هي الَّتي تُحدِثُ المُقدَّراتِ الأرضيَّةَ والمُنفَعِلاتِ الأرضيَّةَ.

قال: («وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ) **النِّيَاحَةُ من الكبائرِ؛ وهي: رفعُ الصَّوتِ عندَ المُصيبةِ وشقُّ الجَيبِ ونحوُ ذلك**، وهي مُنافِيَةٌ للصَّبرِ الواجبِ ومن خصالِ الجاهليَّةِ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ») قولُه: (عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ) سَماءٍ يعني: مَطرٍ، المَطرُ يُطلَقُ عليه سماءٌ؛ لأنَّه يأتي من جهةِ العُلوِّ ويُقالُ له سماءٌ كما قال الشَّاعرُ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

يعني إذا نزلَ المَطرُ.

قال (فَلَمَّا انْصَرَفَ) يعني من صلاةِ الصُّبحِ (أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.) هٰذه من الكلماتِ الَّتي تُقالُ في حياتِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وبعدَ وفاتِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فإذا سُئِلَ المرءُ عمَّا لا يعلَمُ فليَقُلْ: لا أدري أو فليَقُلْ الله أعلمُ، ولا يَقُلْ: الله ورسولُه أعلمُ؛ لأنَّ ذِكرَ علمِ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مُقيَّدٌ بحياتِه الشَّريفةِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، (قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ») هنا قسَّمَ العبادَ إلىٰ قِسمين:

مُؤمِنٌ بالله جَلَّوَعَلَا: وهو الَّذي نسبَ هٰذه النِّعمةَ وأضافَها إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وشكرَ اللهَ عليها، وعرفَ أنَّها من عندِ اللهِ، فشكرَ ذلك الرِّزقَ وحَمِدَ اللهَ وأثنىٰ عليه به.

والصِّنفُ الثَّاني **كافرٌ**: ولفظُ كافرٍ اسمُ فاعلِ الكُفرِ أو اسمُ من قامَ به الكُفرُ، وهٰذا قد يَصدُقُ علىٰ

الكُفرِ الأصغرِ أو الكُفرِ الأكبرِ.

فهم انقسَموا إلىٰ مُؤمنينَ وإلىٰ كافرينَ.

الكافرونَ مِنهم مَن كفرَ كُفرًا أصغرَ، ومِنهم مَن كَفرَ كُفرًا أكبرَ:

• فالَّذي كفرَ كُفرًا أصغرَ: هو الَّذي قال: (مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا) يَعتقِدُ أنَّ النَّوءَ والنَّجمَ والكَوكبَ سببٌ في المطرِ، فهٰذا كفرُه كفرٌ أصغرُ؛ لأنَّه ما اعتقدَ التَّشريكَ والاستقلالَ؛ ولكنَّه جعلَ ما ليسَ سببًا ونسبَ النِّعمةَ لغيرِ الله، وقولُه من أقوالِ أهل الكُفرِ وهو كُفرٌ أصغرُ بالله جَلَّوَعَلَا كما قال العلماءُ.

• والصِّنفُ الثَّاني كافرٌ بكُفرٍ أكبرَ: وهو الَّذي اعتقدَ أنَّ المطرَ أثرٌ من آثار الكواكبِ والنُّجومِ وأنَّها هي الَّتي تفضَّلَتْ بالمطرِ وهي الَّتي تحرَّكتْ بحركةٍ لمَّا توجَّه إليها عابِدُها فأنزلتِ المَطرَ إجابةً لدعوةِ عابدِها، وهٰذا كُفرٌ أكبرُ بالإجماعِ؛ لأنَّه اعتقادُ رُبوبيَّةٍ وإلهيَّةٍ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا.

قال: (فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ)؛ لأنَّه نسبَ النِّعمةَ لله وحدَه، ونِسبةُ النِّعمةِ لله وحدَه دلَّت علىٰ إيمانِه.

قال: (وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ) وكما ذكرتُ لك: الباءُ في قوله: (مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا) إن كانت للسَّببيَّة؛ لأنَّ الباءَ تأتي للسَّببِ مُطرْنَا بسببِ نوءِ كذا وكذا فهٰذا كُفرٌ أصغرُ، وأمَّا إذا كان المُرادُ أنَّ النَّوءَ هو الَّذي أتىٰ بالمَطرِ إجابةً لدعوةِ عابِديه أو لرَحمتِه بالنَّاسِ هٰذا كفرٌ أكبرُ بالله جَلَّجَلَالُهُ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هٰذه الآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾[الواقعة]) وهٰذا ظاهرٌ.

هنا تنبيهٌ في هٰذه المَسألةِ وهو ما يَحصلُ أحيانًا من بعضِ النَّاسِ من أنَّهم يقولون: في الوسْمِ -مثلًا- يأتي مطرٌ، والوَسمُ جاء معناه أنَّ الرِّياحَ فيه مَطرٌ ونجمُ السّهيل طلعَ فسيحصُلُ كذا ونحوُ ذلك، فهٰذا القولُ بما علمتَ له حالاتٌ:

الحال الأولىٰ أن يقولَ ذلكَ لأجلِ أنَّ النَّجمَ أو البُرجَ الَّذي أتىٰ هو زمنٌ جعل الله سنَّتَه فيه أنَّه يأتي فيه المَطرُ، فإذا كان هٰذا القولُ بأنَّ الوَسمَ جاء معناهُ هٰذا وقتُ المَطرِ، وإن شاءَ الله يجيءُ المَطرُ ونحوُ ذلك، فهٰذا جعلٌ للوَسمِ زمنًا وهٰذا جائزٌ.

وأمَّا إذا قالَ في ذلكَ: الوَسمُ جاء يأتي المَطرُ أو طلعَ النَّجمُ الفُلانيُّ يأتينا كذا وكذا، بجعلِ هٰذا

الفصلِ أو ذلك البُرجِ أو ذلك النَّجمِ سببًا، فهٰذا كُفرٌ، ونسبةٌ للنِّعمةِ لغيرِ الله، واعتقادُ تأثيرِ أشياءَ لا تأثيرَ لها.

فينبغي أن نُفرِّقَ بين ما يَستعمِلُه العَوامُّ فيه أنَّ المطرَ والبردَ والصَّيفَ ونحوَ ذلك في تعلُّقِه بالنُّجومِ تعلُّقُ الزَّمنِ ووقتٍ وظرفٍ، وما بين نِسبَتِه للشِّركِ والضَّلالِ الأفعالَ للنُّجومِ إمَّا استقلالًا وإمَّا علىٰ وجهِ التَّسبُّبِ.



31- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة: 167] الآيَةَ.

[2] وقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة:24].

[3] عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ.

[4] وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ.. » إِلَىٰ آخِرِهِ.

[5] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ(1) اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَىٰ أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

[6] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة]، قَالَ: «الْمَوَدَّةُ».

هٰذا البابُ والأبوابُ الَّتي بعدَه شروعٌ من الإمامِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكرِ العباداتِ القَلبيَّةَ وما يجبُ من أن تكونَ تلكَ العباداتُ لله جَلَّ وَعَلَا، فهٰذا في ذكرِ واجباتِ التَّوحيدِ ومُكمِّلاتِه وبعضِ العباداتِ القَّلبيَّةِ وكيفَ يكونُ إفرادُ الله جَلَّ وَعَلَا بها.

وابتدأَها ببابِ المَحبَّةِ، وأنَّ العبدَ يجبُ أنْ يكونَ الله جَلَّ وَعَلَا أحبَّ إليه من كلِّ شيءٍ حتَّىٰ من نفسِه، وهٰذه المَحبَّةُ المُرادُ منها مَحبَّةُ العبادةِ، وهي المَحبَّةُ الَّتي فيها تعلُّقٌ بالمَحبوبِ بما يكونُ معه امتثالٌ للأمرِ رغبةً واختيارًا، ورَغبٌ إلىٰ المَحبوبِ، واجتنابُ النَّهيِ رَغبةً واختيارًا، فمَحبَّةُ العبادةِ هي المَحبَّةُ

---

(1) في قوله: «فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ» فيها ضبطان بالفتح والكسر، ولكنَّ الأفضلَ القراءةُ بالفتحِ، لأنَّها في هٰذا المعنىٰ بالفتح اتِّفاقًا وبالكسرِ خِلافٌ، فالقراءةُ بالمتَّفَقِ أَوْلىٰ.

الَّتي تكونُ في القلبِ، يكونُ معها الرَّغبُ والرَّهبُ، يكونُ معها الطَّاعةُ، يكونُ معها السَّعيُ في مراضي المَحبوبِ والبُعدِ عمَّا لا يُحبُّ المَحبوبُ، والمُوحِّدُ ما أتىٰ للتَّوحيدِ إلَّا بشيءٍ وقرَ في قلبِه من محبَّةِ الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه دلَّته رُبوبيَّةُ الله جَلَّوَعَلَا وأنَّه الخالقُ وحدَه وأنَّه ذو المَلَكوتِ وحدَه وأنَّه ذو الفضلِ والنِّعمَةِ علىٰ عبادِه وحدَه من أنَّه مَحبوبٌ، وأنَّه يجبُ أن يُحَبَّ، وإذا أَحبَّ العبدُ ربَّه فإنَّه يجبُ عليه أنْ يُوحِّدَه بأفعالِ العبدِ، أن يُوحِّدَ اللهَ بأفعالِه -يعني: أفعالَ العَبدِ- حتَّىٰ يكونَ مُحِبًّا له علىٰ الحقيقةِ.

لذلك نقولُ: المَحبَّةُ الَّتي هي من العبادةِ هي المَحبَّةُ الَّتي يكونُ فيها اتِّباعٌ للأمرِ والنَّهي ورَغبٌ ورَهبٌ.

ولهٰذا قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ: المَحبَّةُ المُتعلِّقَةُ بالله ثلاثةُ أنواعٍ:

- **محبَّةُ الله** علىٰ النَّحوِ الَّذي وَصَفنا، هٰذا نوعٌ من العباداتِ الجَليلَةِ، ويجبُ إفرادُ اللهِ جَلَّوَعَلَا بها.
- والنَّوع الثَّاني **محبَّةٌ في الله**؛ وهوَ: أن يُحِبَّ الرُّسلَ في الله عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأن يُحِبَّ الصَّالحينَ في الله، يُحِبُّ في الله وأن يُبغِضَ في اللهِ.
- والنَّوع الثَّالث **مَحبَّةٌ مع الله**، وهٰذه مَحبَّةُ المُشركينَ لآلِهَتِهم؛ فإنَّهم يُحبُّونَها مع الله جَلَّوَعَلَا، فيتقرَّبون إلىٰ الله رَغبًا ورَهبًا نتيجةَ مَحبَّةِ الله، ويتقرَّبون إلىٰ الآلهةِ رَغبًا ورَهبًا نتيجةً لمَحبَّتِهم لتلكَ الآلهةِ.

ويتَّضحُ المَقامُ بتأمُّلِ حالِ المُشركينَ وعَبدَةِ الأَوثانِ وعَبدَةِ القُبورِ في مثلِ هٰذه الأزمنَةِ، فإنَّك تجدُ المَتوجِّهَ لقبرِ الوَليِّ في قلبِه من مَحبَّةِ ذلكَ الوَليِّ وتَعظيمِه ومَحبَّةِ سَدَنَةِ ذلكَ القبرِ ما يَجعلُه في رَغبٍ ورَهبٍ وفي خَوفٍ وفي طَمعٍ وفي إجلالٍ حينَ يَعبُدُ ذلكَ الوليَّ أو يتوجَّهُ إليه بأنواعِ العبادةِ؛ لأجلِ تحصيلِ مَطلوبِه، فهٰذه هي محبَّةُ العبادةِ الَّتي صَرفُها لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا شركٌ أكبرُ به؛ بل هي عمادُ الدِّينِ؛ بل هي عمادُ صلاحِ القلبِ فإنَّ القلبَ لا يصلُحُ إلَّا بأنْ يكونَ مُحِبًّا لله جَلَّوَعَلَا وأن تكونَ مَحبَّتُه لله جَلَّوَعَلَا أعظمَ من كلِّ شيءٍ.

فالمَحبَّةُ؛ مَحبَّةُ الله وحدَه هٰذه -يعني محبَّةَ العبادةِ- هٰذه من أعظمِ أنواعِ العباداتِ، وإفرادُ الله بها واجبٌ.

والمَحبَّةُ مع الله -مَحبَّةَ العبادةِ- هٰذه شِركيَّةٌ، من أحبَّ غيرَ الله جَلَّوَعَلَا معه محبَّةَ العبادةِ فإنَّه مُشرِكٌ الشِّركَ الأكبرَ بالله جَلَّوَعَلَا.

هٰذه الأنواعُ الثَّلاثةُ هي المَحبَّةُ المُتعلِّقةُ بالله.

أمَّا النَّوعُ الثَّاني من أنواعِ المَحبَّةِ وهي المَحبَّةُ المُتعلِّقَةُ بغيرِ الله من جهة المَحبَّةِ الطَّبيعيَّـةِ، وهٰـذا أذِنَ فيه الشَّرعُ وجائزٌ؛ لأنَّ المَحبَّةَ فيها ليست مَحبَّةَ العبادةِ والرَّغبِ والرَّهبِ الَّذي هو من العبادةِ، وإنَّما هـي محبَّةٌ للدُّنيا، وذلكَ كمَحبَّةِ الوالدِ لوَلَدِه والوَلَدِ لوالِدِه والرَّجـلِ لزَوجتِـه والأقـاربِ لأقِربـائِهم والتِّلميـذِ لشَيخِه والمُعلِّمِ لأبنائِه ونحوِ ذلك من الأحوالِ، هٰذه مَحبَّـةٌ طبيعيَّـةٌ لا بـأسَ بهـا؛ بـل الله جَلَّوَعَلَا جعلَهـا غريزةً.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بابٌ قَوْلُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾[البقرة:167]) قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، ﴿أَندَادًا﴾ يعني أشباهًا ونُظَراءَ وأكْفَاءً يعني يُساوونَهم في المحبَّةِ، لهٰذا قال: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾:

وأحدُ وجهي التَّفسيرِ في قولِـه: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ يعنـي: يحـبُّ المُشـركونَ الأنـدادَ كحُـبِّ المُشركينَ لله.

والوجهُ الثَّاني من التَّفسيرِ أنَّ قولَه: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ معناهُ يحبُّ المُشـركونَ الأنـدادَ كحُـبِّ المُؤمنينَ لله.

والوجهُ الأوَّل أظهرُ، والكافُ فيه هنا في قولِه: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ بمعنىٰ مثـلَ؛ يعنـي: يُحِبُّـونَهم مثـلَ حُبِّ الله وهي كافُ المُساواةِ ومِثليَّةِ المُساواةِ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا في سورةِ الشُّعراءِ مُخبِرًا عـن قـول أهـلِ النَّار ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾[الشُّعراء]، قال العُلماءُ: سَـوَّوْهُم بـربِّ العالمينَ في المَحبَّةِ بدليلِ هٰذه الآيةِ، ولم يُسَوُّوهم بربِّ العالمينَ في الخلقِ والرَّزقِ وأفرادِ الرُّبوبيَّةِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلُـهُ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾[التَّوبة:24]) هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ محبَّةَ الله جَلَّوَعَلَا واجبةٌ، وأنَّ محبَّةَ الله يجبُ أن تكونَ فوقَ كلِّ مَحبوبٍ وأنْ يُحِبَّ الله أعظمَ من مَحبَّتِه لأيِّ شيءٍ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إلىٰ أنْ قالَ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، وهٰذا وعيدٌ، فيدلُّ علىٰ أنَّ تقديمَ مَحبَّةِ غيرِ الله علىٰ مَحبَّةِ الله كبيرةٌ من الكبائرِ ومُحرَّمٌ من المُحرَّماتِ؛ لأنَّ الله توعَّد عليه وحكمَ علىٰ فاعِلِه بالفسقِ والضَّلالِ.

فالواجبُ لتكميلِ التَّوحيدِ أن يُحِبَّ العبدُ اللهَ ورسولَه فوقَ كلِّ مَحبوبٍ، ومَحبَّةُ النَّبيِّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي مَحبَّةٌ في اللهِ ليست مَحبَّةً مع الله؛ بل هي مَحبَّةٌ في اللهِ؛ لأنَّ اللهَ الَّذي أمرَنا بحُبِّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَحبَّتُه -إذن- في الله؛ يعني: في الله لأجلِ مَحبَّةِ الله؛ فإنَّ مَن أحبَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أحبَّ رُسُلَه.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ») قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» يعني: الإيمانَ الكاملَ، وقوله: «حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» يعني: أن تكونَ مَحابِّي مُقدَّمَةً علىٰ مَحابِّ غَيري فحتَّىٰ أكونَ في نفسِه أحبَّ إليه وأعظمَ في نفسِه من ولَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمعينَ، وفي حديثِ عُمرَ المَعروفِ أنَّه قال للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إلَّا من نفسي. فقال: «**يَا عُمَرُ؛ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فقال عمرُ: أنتَ الآن أحبُّ إليَّ من نَفسي. قال: «**فَالْآنَ يَا عُمَرُ**»؛ يعني: كمَّلْتَ الإيمانَ.

فقولُه: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» يعني الإيمانَ الكاملَ حتَّىٰ يُقدِّمَ مَحبَّةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ مَحبَّةِ الوَلَدِ والوالِدِ والنَّاسِ أجمعينَ.

ويظهرُ هٰذا بالعملِ فإذا كان يُقدِّمُ مَحابَّ هؤلاء علىٰ ما فيه مَرضاةُ الله جَلَّ وَعَلَا وعلىٰ ما أمرَ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّ مَحبَّتَه النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تكون ناقصةً؛ لأنَّ المَحبَّةَ مُحرِّكةٌ كما قال شيخُ الإسلام في كتابِه «قاعدةٌ في المَحبَّةِ» يقولُ: المَحبَّةُ هي الَّتي تُحرِّكُ. فالَّذي يُحِبُّ الدُّنيا يتحرَّكُ إلىٰ الدُّنيا، والَّذي يُحِبُّ العلمَ يتحرَّكُ للعلمِ، الَّذي يُحِبُّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا مَحبَّةَ عبادةٍ ورَغبٍ ورَهبٍ يتحرَّكُ طالبًا لمَرضاتِه ويتحرَّكُ مُبعِدًا علىٰ ما فيه مَساخِطُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، كذلكَ الَّذي يُحِبُّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ الحقيقةِ فإنَّه الَّذي يَسعىٰ في اتِّباعِ سُنَّتِه وفي امتثالِ أمرِه وفي اجتنابِ نَهيِه والاهتداءِ بهَديِه والإقتداءِ بسُننِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**») والاستدلالُ به ظاهرٌ علىٰ أنَّ مَحبَّةَ الله ورسولِه يجبُ أن تكونَ مُقدَّمةً علىٰ مَحبَّةِ ما سِواهُما، وأنَّها مِن كمالِ الإيمانِ وأنَّ العبدَ لن يجِدَ كمالَ الإيمانِ إلَّا بذلكَ.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ.. » إِلَىٰ آخِرِهِ) المَقصودُ بالحلاوةَ هنا الحلاوةُ النَّاتجةُ عن تحصيلِ كمالِه؛ لأنَّ الإيمانَ له حلاوةٌ، حلاوةٌ توجدُ في الرُّوحِ، وكلَّما سعىٰ العبدُ في تكميلِ

إيمانِه اشتدَّ وَجْدُه لهٰذِه الحلاوةِ واشتدَّ شُعورُه بتلكَ الحلاوةِ واللَّذَّةِ الَّتي تكونُ في القلبِ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ») هٰذه مَحبَّةٌ في الله راجعةٌ إلىٰ الأمرِ والنَّهيِ، وهي مِن أقسامِ المَحبَّةِ.

(أَحَبَّ فِي اللهِ) يعني: كانت مَحبَّتُه لذلك المَحبوبِ لأجلِ أمرِ الله.

(أَبْغَضَ فِي اللهِ) يعني: كانَ بُغضُه لذلكَ المُبغَضِ لأجلِ أمرِ الله.

(وَوَالَىٰ فِي اللهِ) كانت مُوالاتُه للعقدِ الَّذي كان بينَه وبينَ ذاكَ في الله جَلَّ وَعَلَا من أُخُوَّةٍ إيمانيَّةٍ.

قال: (وَعَادَىٰ فِي اللهِ) يعني: لِمَا حصل بينَه وبينَ ذاكَ الَّذي خالفَ أمرَ الله إمَّا بكُفرٍ أو بمَا دونَه.

قال: (فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ) يعني: إنَّما يكونُ العبدُ وَلِيًّا من أولياءِ الله بهٰذا الفعلِ وهو أن يُوالِيَ في الله وأن يُعادِيَ في الله جَلَّ وَعَلَا.

والوَلايَةُ بالفتح هي المَحبَّةُ والنُّصرَةُ، وَالَىٰ وَلايةً؛ يعني: أحبَّ مَحبَّةً ونَصرَ نُصرَةً.

وأمَّا الوِلايَةُ بالكسرِ فهي المُلكُ والإمارةُ.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾[الكهف:44]، يعني: المَحبَّةُ والنُّصرَةُ إنَّما هي لله جَلَّ وَعَلَا وليست لغيره.

والوِلايَةُ بالكسرِ؛ هي: الإمارةُ ونحوُ ذلك.

فقولُه: (فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ) يعني مَحبَّةُ الله ونُصرَتُه بذلك بأنْ يَأتِيَ بالمَحبَّةِ في الله والبُغضِ في الله.

قال: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَىٰ أَهْلِهِ شَيْئًا) المُؤاخاةُ والمَحبَّةُ في الدُّنيا هٰذه تُرادُ للدُّنيا، والدُّنيا قَصيرَةٌ زائلَةٌ وإنَّما يَعتريها أهلُ الغرورِ، وأمَّا أهلُ المَعرفةِ بالله والعِلمِ بالله وأهلُ كمالِ تَوحيدِه وأهلُ إكمالِ الإيمانِ وتحقيقِ التَّوحيدِ فإنَّما تكونُ مَحابُّهم مَشاعرُهم القَلبيَّةُ وأنواعُ العلومِ والمَعارفِ الَّتي تكونُ في القلبِ وأنواعُ العباداتِ والمَقاماتِ والأحوالِ الَّتي تكونُ في القلبِ يكونُ ذلكَ كلُّه تبعًا لأمرِ الله ونَهيِه ورَغبةً في الآخرةِ، أمَّا الدُّنيا لها أَهلونَ وهي مُرتَحِلَةٌ عنهم وهم مُقبِلونَ علىٰ أمرِ آخرَتِهم، ولذلك لن تُجدِيَ المَحبَّةُ في الدُّنيا علىٰ أهلِها شيئًا إنَّما الَّذي يُجدي هو الحبُّ في الله والرَّغَبُ في الآخرَةِ.

[الدَّليلُ السَّادسُ] قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة] قَالَ: «الْمَوَدَّةُ».)؛ لأنَّ المُشركين كانوا يُشركون بآلِهَتِهم ويُحبُّونَها ويظنُّونَ أنَّها ستشفعُ لهم يومَ القيامةِ لأجلِ مَودَّتِهم لها ومَحبَّتِهم وستتقطَّع تلكَ الأسبابُ وتلكَ الحبالُ المُدَّعاةُ المَوهومَةُ يومَ القيامةِ ولن يَجِدوا نَصيرًا، واللهُ جَلَّجَلَالُهُ قال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني كلُّ ما ظنُّوا سببًا نافعًا ينفعُهم عندَ الله فإنَّه سينقطعُ يومَ القيامةِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة].



32- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] الآيَةَ.

[2] وقَوْلُـهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[التوبة].

[3] وَقَوْلُـهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:10] الآيَةَ.

[4] وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

[5] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

(بَابٌ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]) هٰذا البابُ في بيانِ عبادةِ الخَوفِ.

ومُناسبتُه لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ؛ وهي: أنَّ خوف العبدِ من الله جَلَّ وَعَلَا عبادةٌ من العباداتِ الَّتي أوجبَها الله جَلَّ وَعَلَا، فالخوفُ والمَحبَّةُ والرَّجاءُ عباداتٌ قلبيَّةٌ واجبةٌ وتكميلُها تكميلٌ للتَّوحيدِ، والنَّقصُ فيها نقصٌ في كمالِ التَّوحيدِ.

والخوفُ من غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا ينقسمُ:

- إلىٰ ما هو شركٌ.
- وإلىٰ ما هو مُحرَّمٌ.
- وإلىٰ ما هو مُباحٌ.

فهٰذه ثلاثة أقسامٍ:

القسمُ الأوَّلُ الخوفُ الشِّركيُّ: وهو خوفُ السِّرِّ؛ يعني أن يخافَ في داخلِه من هٰذا المَخوفِ مِنهُ،

وخوفُه لأجلِ ما عندَ هٰذا المَخوفِ مِنه ممَّا يَرجوه أو يَخافُه من أنْ يمسَّه سِرًّا بشيءٍ، أو أنَّـه يملِـكُ لـه في آخرتِه ضرًّا أو نفعًا:

- فالخوفُ الشِّركيُّ مُتعلِّقٌ في الدُّنيا بخوفِ السِّرِّ بأن يخافَ أن يُصيبَه ذلكَ الإلهُ بشَرٍّ، وذلك شركٌ، وربَّما يأتي تفصيلُه.
- والخوفُ المُتعلِّقُ بالآخرَةِ؛ خافَ غيرَ الله، وتعلَّقَ خوفُه بغيرِ الله؛ لأجلِ ذلكَ؛ لأجلِ أنَّه والخـوفُ ألَّا ينفعُه ذلكَ الإلهُ في الآخرةِ، فلأجلِ رَغبةٍ في أن ينفعَه ذلكَ الإلهُ في الآخرةِ وأن يشفعَ له وأن يُقرِّبَـه مِنـه في الآخرةِ وأن يُبعِدَ عنه العذابَ في الآخرةِ خافَ مِنه، فأنزلَ خوفَه به.

فالخوفُ من العباداتِ العظيمةِ الَّتي يَجبُ أنْ يُفرَدَ اللهُ بها، وسيأتي مَزيدُ تفصيلٍ لذلكَ.

والخوفُ المُحرَّمُ وهو القسمُ الثَّاني: وهو أنْ يخافَ من مَخلوقٍ بامتثالِ واجـبٍ أو البُعـدِ عـن مُحـرَّمٍ ممَّا أوجبَه الله أو حرَّمَه، يخافُ من مَخلوقٍ في أداء فـرضٍ مـن فـرائضِ الله، يخـافُ مـن مَخلـوقٍ في أداءِ واجبٍ من الواجباتِ؛ لا يُصلِّي خوفًا من مَخلـوقٍ، لا يَحضُـرُ الجماعـةَ خوفًـا مـن ذمِّ المَخلـوقِ لـه أو استنقاصِه له، فهٰذا مُحرَّمٌ، قال بعضُ العلماء: وهو نوع من أنواعِ الشِّـرك. يـترُكُ الأمـرَ والنَّهـي الواجـبَ بشرطِه خوفًا من ذمِّ النَّاسِ أو مَن تركَ مَدحِهم لـه أو مـن وَصـفِهم لـه بأشـياءَ، فهٰـذا خـوفٌ رجـعَ علـىٰ الخائفِ بتركِ أمرِ الله، وهٰذا مُحرَّمٌ؛ لأنَّ الوسيلةَ إلىٰ المُحرَّمِ مُحرَّمةٌ.

النَّوعُ الثَّالثُ الخَوفُ الطَّبيعيُّ المَأذونُ به: وهٰذا أمرٌ طبيعيٌّ كخوفٍ من عدوٍّ أو خوفٍ من سَبُعٍ، أو خوفٍ من نارٍ، أو خوفٍ من مُؤذٍ ومُهلِكٍ ونحوِ ذلك.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تعـالـى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران]).

وجهُ الاستدلالِ من هٰذه الآيةِ أنَّه قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ وهٰذا نهيٌ والنَّهيُ للتَّحـريمِ، ونهـىٰ عـن إنـزالِ عبادةِ الخَوفِ بغيرِه، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّه نهيٌ عن أحدِ أفرادِ الشِّركِ، قال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وأمـرَ بالخَوفِ فدلَّ علىٰ أنَّ الخَوفَ عبادةٌ من العباداتِ، وتوحيدُ اللهِ بهٰذه العبادةِ توحيدٌ، وإشراكُ غيـرِ الله معـه في هٰذه العبادةِ شركٌ؛ ولهٰذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

والخوفُ من الخلقِ -كما ذكَرْنا- في تركِ فريضةِ الجهادِ إنَّما يكونُ من جرَّاءِ الشَّيطانِ، فالشَّيطانُ وهو الَّذي يُخوِّفُ المُؤمنينَ من أَولِيائِه، ويُخوِّفُ أهلَ التَّوحيدِ وأهلَ الإيمانِ مِن أعداءِ الله جَلَّوَعَلَا لكي

يَترُكوا الفريضةَ، فلِهٰذا صار ذلكَ الخَوفُ مُحرَّمًا؛ يعني: الخوفُ من الأعداءِ الَّذي يترتَّبُ عليهِ تركُ فريضةٍ من فرائضِ الله -من الجهادِ وغيرِه.

والواجبُ ألَّا يخافَ العبدُ إلَّا ربَّه جَلَّوَعَلَا، وأنْ يُنزِلَ خوفَه به، وألَّا يخافَ أولياءَ الشَّيطانِ.

وقولُه جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ معناها علىٰ الصَّحيحِ مِن التَّفسيرِ أو علىٰ الرَّاجحِ: يُخوِّفُكم أولياءَه، يعني يُخوِّفُ أهلَ الإيمانِ أولياءَ الشَّيطانِ، ففاعلُ ﴿يُخَوِّفُ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، الفاعلُ هو الشَّيطانُ، يُخوِّفُ الشَّيطانُ النَّاسَ أولياءَه؛ أولياءَ الشَّيطانِ؛ يعني يجعلُ الشَّيطانُ أهلَ التَّوحيدِ في خوفٍ من أعدائِهم، لهٰذا قال السَّلفُ في تفسيرِها: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ يعني: يُخوِّفُكم أولياءَه، وهٰذا الظَّاهرُ مِن الآياتِ قبلَها كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾[آل عمران].

[**الدَّليلُ الثَّاني**] قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾[التَّوبة:18]).

وجهُ الدِّلالةِ مِن الآيةِ قولُه: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ وهٰذا نفيٌ واستثناءٌ ومرَّ معنا أنَّ مَجيءَ أداةِ الاستثناءِ بعد النَّفي يَدُلُّ علىٰ الحصرِ والقصرِ، فإذن الآيةُ دالَّةٌ بظهورٍ علىٰ أنَّ الخشيةَ يجبُ أن تكونَ في اللهِ، وأنَّ اللهَ أثنىٰ علىٰ أولئكَ بأنَّهم جعلوا خَشيَتَهم للهِ وحدَه دونَ ما سِواه، والخَشيةُ أخصُّ من الخوفِ.

[**الدَّليلُ الثَّالثُ**] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:10] الآيَةَ) جعل فتنةَ النَّاسِ كعذابِ الله بأنْ خافَ مِنها وتركَ ما أوجبَ اللهُ عليه أو أقدمَ علىٰ ما حرَّمَ اللهُ عليه خَشيةً من كلامِ النَّاسِ.

[**الدَّليلُ الرَّابعُ**] قال: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**»).

وجهُ الاستدلالِ من هٰذا الحديثِ قولُه: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ»، «مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ» يعني من أسبابِ ضُعفِ الإيمانِ والَّذي يُضعِفُ الإيمانَ المُحرَّماتُ لأنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعةِ ويَنقُصُ بالمَعصِيَةِ، فدلَّ علىٰ أنَّ إرضاءَ النَّاسِ بسَخَطِ الله مَعصيَةٌ وذمٌّ ومُحرَّمٌ؛ لأنَّ هٰذا الَّذي أرضىٰ النَّاسَ بسخطِ الله خافَهم أو رَجاهم، هٰذا مُناسبةُ إيرادِ الحديثِ في البابِ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْـتَمَسَ رِضَـا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْـتَمَسَ رِضَـا النَّـاسِ بِسَـخَطِ اللهِ؛ سَـخِطَ اللهُ عَلَيْـهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ») هٰذا جزاءُ الَّذي أفـردَ الله بعبـادةِ الخـوفِ، وجـزاءُ الَّذي لم يُكْمِلِ التَّوحيدَ في عبادةِ الخوفِ، فالَّذي التمسَ رِضىٰ الله بسخطِ النَّـاسِ هٰـذا عظَّـمَ اللهَ وخافَـه، ولم يَجعلْ فتنةَ النَّاسِ كعذابِ الله؛ بل جعلَ عذابَ اللهِ أعظمَ فخافَ اللهَ وخَشِيَهُ وطمـعَ فيمـا عنـدَه، ولـم يَلتفِتْ إلىٰ النَّاسِ ولم يَرفَعْ بهم رأسًا، قال: «وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»؛ لأنَّه ارتكبَ ذنبًا أنْ خافَ النَّاسَ وجعلَ خوفَه من النَّاسِ سببًا لعملِ المُحرَّمِ أو تركِ فريضـةٍ من فرائضِ الله، ولهٰذا قال: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ» فكان جزاؤُه أنْ سَخِطَ اللهُ عليه، وأسخطَ عليه النَّاسَ.

نقفُ عنـدَ هٰـذا، وأسـألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا لـي ولكـم التَّوفيـقَ والسَّـدادَ وأنْ يُثيـبَكم علـىٰ طـولِ المُقـامِ والجلوسِ، وهي أيَّامٌ قليلةٌ؛ لكنْ تَكتَسِبون فيها إنْ شاء اللهُ ما تُقْصِرونَ به مدَّةَ القِـراءةِ في أشـهرٍ طَويلَـةٍ في ما لو فُرِّقَتْ هٰذه الدُّروسُ وجُعلَتْ في دروسٍ كلَّ أسبوعٍ أو كلَّ أسبوعٍ دَرسٌ أو دَرسانِ أو ثلاثةٌ ربَّمـا لـن تَختِمَ كتابَ التَّوحيدِ إلَّا بعدَ زمنٍ طويلٍ، فهٰذه مدَّةُ أيَّـامٍ قليلـةٍ مـدَّةُ أربعـةٍ أو خمسـةٍ، فثـابِروا واصـبِروا وجزاكم اللهُ خيرًا، ونفعَكم بما عَلِمْتُم وزادَكم عِلمًا وعملًا. واللهُ وليُّ التَّوفيقِ.(1)



(1) انتهىٰ الوجهُ الأوَّلُ من الشَّريطِ الحادي عشرَ.

الدرس الثالث عشر

33- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[المائدة]

[2] وَقَوْلِــــــهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال].

[3] وَقَوْلِــهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنفال].

[4] وَقَوْلِــهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطَّلاق:3].

[5] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ والنَّسائي.

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله وصَحبِه ومَن اهتدىٰ بهُداه.

اللّٰهمَّ إنَّا نسألُك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا.

اللّٰهمَّ نَوِّرْ قُلوبَنا بطاعتِك، وألهِمْنا ذِكرَكَ، واجعلْنَا من الشَّاكرينَ لنِعَمِك المُتَّبعينَ لشَرعِكَ، يا أرحمَ الرَّاحمينَ.

أمَّا بعدُ:

فهٰذا (بَابٌ قَوْلُ اللهِ تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[المائدة])، وهٰذا البابُ عقدَه الإمامُ المُصلِحُ المُجدِّدُ الشَّيخُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ في هٰذا الكتابِ العظيمِ «كتابِ التَّوحيدِ»، عقدَه لبَيانِ أنَّ التَّوكُّلَ علىٰ الله فريضةٌ من الفرائضِ وواجبٌ من الواجباتِ، وأنَّ إفرادَ الله جَلَّ وَعَلَا به توحيدٌ، وأنَّ التَّوكُّلَ علىٰ غيرِ الله شركٌ مُخرجٌ من المِلَّةِ.

والتَّوكُّلُ علىٰ الله شرطٌ في صحَّةِ الإسلامِ، وشرطٌ في صحَّةِ الإيمانِ، فالتَّوكُّلُ عبادةٌ عظيمةٌ، فعَقَدَ هٰذا البابَ لبَيانِ هٰذهِ العِبادَةِ.

وحقيقةُ التَّوكُّلِ علىٰ الله جَلَّ جَلَالُهُ أنَّ العبدَ يعلَمُ أنَّ هٰذا المَلَكوتَ إنَّما هو بيَدِ الله جَلَّ وَعَلَا يُصرِّفُه كيف يشاءُ، فيفوِّضُ الأمرَ إليه ويَلتجِئُ إليه بقلبِه في تحقيقِ مَطلوبِه، وفي الهربِ ممَّا يَسوءُه، يَلتجِئُ في ذلكَ

ويَعتصِمُ بالله جَلَّجَلَالُهُ وحدَه، فيُنزِلُ حاجتَه باللهِ ويُفوِّضُ أمرَه إلىٰ اللهِ، ثمَّ يعملُ السَّببَ الَّذي أمرَ اللهُ به.

فحقيقةُ التَّوكُّلِ فِي الشَّرعِ تَجمعُ: تفويضَ الأمرِ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا وفعلَ الأسبابِ؛ بل إنَّ نفسَ الإيمانِ سببٌ من الأسبابِ الَّتي يفعلُها المُتوكِّلونَ علىٰ الله؛ بل إنَّ نفسَ التَّوكُّلِ علىٰ الله جَلَّوَعَلَا سببٌ من الأسبابِ.

فالتَّوكُّلُ حقيقتُه في الشَّرعِ تَجمعُ عبادةً قلبيَّةً عظيمةً وهي تفويضُ الأمرِ إليه والالتجاءُ إليه، والعلمُ بأنَّه لا أمرَ إلَّا أمرُه ولا شيءَ إلَّا بما قدَّره وأذِنَ به كَونًا، ثمَّ فِعلُ السَّببِ الَّذي أوجبَ اللهُ جَلَّوَعَلَا فعلَه أو أمرَ بفعلِه، فتركُ فعلِ الأسبابِ يُنافي حقيقةَ التَّوكُّلِ الشَّرعيَّةَ، كما أنَّ الاعتمادَ علىٰ السَّببِ وتركَ تفويضِ الأمرِ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا يُنافي حقيقةَ التَّوكُّلِ الشَّرعيَّةَ.

فالمُتوَكِّلُ فِي الشَّرعِ هو من عملَ السَّببَ وفوَّضَ الأمرَ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا **في الانتفاعِ بالسَّببِ وفي حُدوثِ المُسبَّبِ من ذلكَ السَّببِ وفي توفيقِ اللهِ وإعانتِه، فإنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به** جَلَّوَعَلَا.

والتَّوكُّلُ كما قال الإمامُ أحمدُ: عملُ القلبِ. **فالتَّوكُّلُ عبادةٌ قلبيَّةٌ مَحضَةٌ**، ولهٰذا صارَ إفرادُ الله جَلَّوَعَلَا بها واجبًا، وصارَ صرفُها لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا شِركًا.

والتَّوكُّلُ علىٰ غيرِ الله جَلَّوَعَلَا له حالان:

الحالُ الأُولىٰ: أن يكونَ شِركًا أكبرَ، وهو أن يتوكَّلَ علىٰ أحدٍ من الخلقِ فيما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، يتوكَّلُ علىٰ المَخلوقِ في مَغفرةِ الذَّنبِ، يتوكَّلُ علىٰ المَخلوقِ في تحصيلِ الخَيراتِ الأُخرَويَّةِ، أو يتوكَّلُ علىٰ المَخلوقِ في تحصيلِ ولدٍ له، أو في تحصيلِ وظيفةٍ له، يتوكَّلُ عليه بقلبِه وهو لا يَقدِرُ علىٰ ذلكَ الشَّيءِ، وهٰذا يكثُرُ عندَ عُبَّادِ القُبورِ وعُبَّادِ الأولياءِ فإنَّهم يتوجَّهون إلىٰ المَوتىٰ بقُلوبِهم، يتوكَّلون عَليهم؛ بمعنىٰ يُفوِّضونَ أمرَ صلاحِهم فيما يُريدونَ في الدُّنيا والآخرةِ علىٰ أولئكَ المَوتىٰ وعلىٰ تلكَ الآلِهَةِ والأوثانِ الَّتي لا تَقدِرُ من ذلكَ علىٰ شيءٍ.

فهٰذا عبادةٌ صُرِفَتْ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا وهو شركٌ أكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ.

النَّوعُ الثَّاني: أنْ يتوكَّلَ علىٰ المَخلوقِ فيما أقدَرَه اللهُ جَلَّوَعَلَا عليه، يتوكَّلُ علىٰ مَخلوقٍ فيما أقدَرَه اللهُ عليه، وهٰذا نوعُ شركٍ؛ بل هو شركٌ خفيٌّ وشركٌ أصغرُ.

ولهٰذا قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ: إذا قال: توكَّلتُ علىٰ اللهِ وعليكَ= فإنَّ هٰذا شركٌ أصغرُ، ولهٰذا قالوا: لا يجوزُ أن يقولَ توكَّلتُ علىٰ الله ثمَّ عليكَ؛ لأنَّ المَخلوقَ ليسَ له نصيبٌ من التَّوكُّلِ إنَّما هو تفويضُ الأمرِ والالتجاءُ بالقلبِ إلىٰ من بيَدِه الأمرُ وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا، والمَخلوقُ لا يَستَحِقُّ شيئًا من ذلكَ.

فإذن التَّوكُّل علىٰ المَخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه هٰذا شِركٌ خَفيٌّ ونوعُ شركٍ أصغرَ.

والتَّوكُّلُ علىٰ المَخلوقِ فيما لا يَقدِرُ عليه المَخلوقُ، وهٰذا يكثُرُ عند عُبَّادِ القُبورِ والمُتوجِّهين إلىٰ الأَولياءِ والمَوتىٰ، هٰذا شركٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ.

وحقيقةُ التَّوكُّلِ الَّذي ذَكرناه لا يصلُحُ إلَّا لله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه تفويضُ الأمرِ إلىٰ من بيَدِه الأمرُ، والمَخلوقُ ليسَ بيَدِه الأمرُ، التجاءُ القلبِ وطمعُ القلبِ ورَغبُ القلبِ في تحصيلِ المَطلوبِ، إنَّما يكونُ ذلكَ ممَّن يَملِكُه وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا، أمَّا المَخلوقُ فلا يقدِرُ علىٰ شيءٍ استقلالًا، وإنَّما هو سببٌ، فإذا كان سببًا فإنَّه لا يجوزُ التَّوكُّلُ عليه؛ لأنَّ التَّوكُّلَ عملُ القلبِ، وإنَّما يجعلُه سببًا بأنْ يجعلَه شفيعًا يجعلُه واسطةً ونحوَ ذلك، فهٰذا لا يعني أنَّه مُتوكِّلٌ عليه، فيجعلُ المَخلوقَ سببًا فيما أقدَرَه اللهُ عليه؛ ولكن يُفوِّضُ أمرَ النَّفعِ بهٰذا السَّببِ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فيتوكَّلُ علىٰ الله ويأتي بالسَّببِ الَّذي هو الانتفاعُ من هٰذا المَخلوقِ بما جعلَ اللهُ جَلَّوَعَلَا له من الانتفاعِ أو من القُدرَةِ ونحوِ ذلك.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]) هٰذه الآيةُ فيها الأمرُ بالتَّوكُّلِ، ولمَّا أَمَرَ به عَلِمنا أنَّه من العبادةِ، ولمَّا قَدَّمَ الجارَّ والمَجرورَ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ قدَّمه علىٰ ما يتعلَّقُ به وهو الفعلُ ﴿تَوَكَّلُوا﴾ دلَّ علىٰ وجوبِ إفرادِ الله جَلَّوَعَلَا بالتَّوكُّلِ، وأنَّ التَّوكُّلَ عبادةٌ يجبُ أن تُحصَرَ وتُقصَرَ في اللهِ جَلَّوَعَلَا، هٰذا وجهُ الدِّلالةِ من الآيةِ.

ودليلٌ آخرُ في هٰذه الآيةِ وهو قولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جعلَ الإيمانَ لا يصحُّ إلَّا بالتَّوكُّلِ، قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ يعني: أَفرِدوا اللهَ بالتَّوكُّلِ وحدَه إنْ كنتم مُؤمنين، فجعلَ الشَّرطَ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فأفرِدُوا اللهَ بالتَّوكُّلِ، فجزاءُ الشَّرطِ هو إفرادُ اللهِ بالتَّوكُّلِ. فصارَتْ دِلالَةُ الآيةِ من جِهتَين.

وكذلكَ قولُه جَلَّوَعَلَا في آية سورةِ يونسَ: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، قال: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أفرَدَ التَّوكُّلَ به جَلَّوَعَلَا وأمرَ به، **فقدَّم الجارَّ والمَجرورَ بما يُفيدُ الحصرَ والقصرَ والاختصاصَ بالله** جَلَّوَعَلَا، ثمَّ جعلَ إفرادَ التَّوكُّلِ به جَلَّوَعَلَا شرطًا في صحَّةِ الإسلامِ فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

فهٰذه الآيتان دَلَّتا علىٰ أنَّ التَّوكُّلَ عبادةٌ، وأنَّ إفرادَ اللهِ به جَلَّوَعَلَا واجبٌ، وأنَّه شرطٌ في صحَّةِ الإسلامِ وشرطٌ في صحَّةِ الإيمانِ، وهٰذا كلُّه يدلُّ علىٰ أنَّ انتفاءَه مُذهِبٌ لأصلِ التَّوحيدِ ومُنافٍ لأصلِه إذا توكَّلَ

علىٰ غيرِ الله فيما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ جَلَّجَلَالُهُ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلِـــهِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾[الأنفال]) وجهُ الدِّلالةِ من الآيةِ أنَّه وصفَ المُؤمنينَ بهٰذهِ الصِّفاتِ الخمسِ، وآخرُها قولُه: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، وظاهرٌ من دلالةِ الآيةِ حيثُ قدَّمَ الجارَّ والمَجرورَ علىٰ أنَّهم أفرَدوا التَّوكُّلَ باللهِ جَلَّوَعَلَا، فوصفَ المُؤمنينَ بهٰذهِ الصِّفاتِ فدلَّ علىٰ أنَّ هٰذه هي أعظمُ مَقاماتِ أهلِ الإيمانِ، وأنَّ هٰذه العباداتِ الخمسَ هي أعظمُ المَقاماتِ، وهٰذا عظيمٌ التَّنبُّهُ له إذْ كلُّ أمورِ الدِّينِ والعباداتِ والفُروعِ العَمليَّةِ الَّتي يعملُها العبدُ إنَّما هي فرعٌ عن تحقيقِ هٰذه الخَمسِ الَّتي جاءت في هٰذه الآيةِ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهٰذه الصِّفةُ تجمعُ الكلماتِ الشَّرعيَّةَ وتجمعُ الدِّين جميعًا؛ لأنَّ ذِكرَ اللهِ فيه القرآنُ وفيه السُّنَّةُ.

[الدَّليلُ الثَّالث] قال: (وَقَوْلِـــهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ ﴾[الأنفال].)، قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾؛ يعني: كافيكَ الله وكافي من اتَّبعكَ من المُؤمنينَ؛ لأنَّ الحَسْبَ هو الكافي، والكلمةُ المُشابِهةُ لها (حَسَب)، تقول: هٰذا بِحَسَبِ كذا؛ يعني: بناءً علىٰ كذا، وأمَّا الكافي فهو الحَسْبُ بسُكونِ السِّينِ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ يعني: كافيكَ اللهُ وكافي من اتَّبعكَ من المُؤمنينَ.

وجهُ مُناسبةِ هٰذه الآيةِ لهٰذا البابِ أنَّ اللهَ حَسْبُ مَن توكَّلَ عليه، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطَّلاق:3]، فاللهُ حسْبُ من توكَّلَ عليه، فدلَّ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أمرَ عبادَه بالتَّوكُّلِ عليه حتَّىٰ يكونَ كافيَهم من أعدائِهم، وحتَّىٰ يكونَ جَلَّوَعَلَا كافيَ المُؤمنينَ مِن المُشركينَ.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ يعني: كافيكَ اللهُ، ولهٰذا أعقبَها بالآيةِ الأُخرىٰ وهي قولُه جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾.

والتَّوكُّلُ علىٰ الله جَلَّوَعَلَا -كما ذَكرنا لكَ- يرجعُ إلىٰ فهمِ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ وإلىٰ عظَمِ الإيمانِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فإنَّ بعضَ المُشركينَ قد يكونُ عندَه من التَّوكُّلِ علىٰ الله الشَّيءَ العظيمَ، والتَّوكُّلُ علىٰ الله من العباداتِ الَّتي تُطلَبُ من المُؤمنِ، ومِن العباداتِ الواجبةِ والعباداتِ العظيمةِ.

لهٰذا نقولُ: إنَّ إحداثَ التَّوكُّلِ في القلبِ يرجعُ إلىٰ التَّأمُّلِ في آثارِ الرُّبوبيَّةِ، فكلَّما كان العبدُ أكثرَ تأمُّلًا في مَلكوتِ الله وفي السَّمٰوَاتِ والأرضِ وفي الأنفُسِ وفي الآفاقِ، كان عِلمُه بأنَّ الله هو ذو المَلَكوتِ، وأنَّه

هو المُتصَرِّفُ، وأنَّ نصرَه لعبدِه شيءٌ يسيرٌ جدًّا بالنِّسبَةِ إلىٰ ما يُجريه اللهُ جَلَّوَعَلَا في مَلكوتِه، فيُعظِمُ المُؤمنِ بهٰذا التَّدبُّرِ اللهَ جَلَّوَعَلَا، ويُعْظِم التَّوكُّلَ عليه، ويُعظِّمُ أمرَه ونهيَه، وينظرُ أنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ لا يُعجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

[الدَّليلُ الرَّابع] قال: (وَقَوْلُـهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطَّلاق:3]) رتَّب الحسْبَ -وهو الكفايةُ- بالتَّوكُّلِ عليه، وهٰذه فضيلةُ التَّوكُّلِ وفضيلةُ المُتوكِّلينَ عليه.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»)، هٰذا يُبيِّنُ عِظَمَ هٰذه الكلمةِ وهو قولُ المُؤمنِ: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، فإذا تحقَّقَ العبدُ التَّوكُّلَ علىٰ الله وحقَّقَه في القلبِ مَعناه أنَّه حقَّقَ هٰذا النَّوعَ من التَّوحيدِ -توحيدِ التَّوكُّلِ في النَّفسِ-، فإنَّ العبدَ إذا أعظمَ رَجاءَه في اللهِ وتَوكُّلَه علىٰ اللهِ؛ فإنَّه وإنْ كادَتْه السَّمٰوَاتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ فإنَّ اللهَ سيَجعلُ له من أمرِه يُسرًا وسيَجعلُ له من بينِها مَخرجًا، (حَسْبُنَا اللهُ)؛ يعني: كافينا اللهُ (وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)؛ يعني: ونعمَ الوَكيلُ ربُّنَا، هٰذه كلمةٌ عظيمةٌ قالَها إبراهيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الكربِ وقالَها النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وأصحابُه في الكرْبِ لمَّا (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا) وذلك لِعِظَمِ تَوكُّلِهم علىٰ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.



34- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾[الأعراف]

[2] وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾[الحجر].

[3] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ».

[4] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

هٰذا (بَابٌ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾[الأعراف]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾[الحجر].)، (بَابٌ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى) الآيةُ الأولىٰ والآيةُ الثَّانيةُ جميعًا، فالبابُ مُنعَقِدٌ للآيتينِ جميعًا لاتِّصالِهما، والمُرادُ بهٰذا البابِ بيانُ أنَّ الجمعَ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ واجبٌ من واجباتِ الإيمانِ ولا يتمُّ التَّوحيدُ إلَّا بذلكَ، فانتفاءُ الجمعِ بين الخَوفِ والرَّجاءِ هٰذا مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، فالواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يجعلَ خَوفَه مع الرَّجاءِ وأنْ يجعلَ رَجاءَه مع الخوفِ وألَّا يَأمنَ المكرَ كما لا يَقنَطُ من رحمةِ الله جَلَّ وَعَلَا.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] فالآيةُ الأُولىٰ وهي قولُ الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ فيها أنَّ المُشركينَ من صِفاتِهم أنَّهم أمِنوا عقابَ اللهِ فلم يَخافوا، والواجبُ بالمُقابلِ أنْ تكونَ قُلوبُهم خائفةً وجِلَةً منَ الله جَلَّ وَعَلَا، قال سُبحانَه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ﴾؛ يعني: أيَعلَمونَ تلكَ المَثُلاتَ وفعلَ الله جَلَّ وَعَلَا بالأُمَمِ السَّابقةِ قصَّها اللهُ في سورةِ الأعرافِ فأمنوا مكرَ الله؟ فإذا كانَ كذلكَ وحصلَ منهم الأمنُ مع وُجودِ النُّذُرِ فيما حولَهم وأنَّ اللهَ قصَّ عليهم القَصَصَ والأنباءَ قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

والأمنُ من مَكرِ اللهِ هو ناتجٌ عن عدمِ الخَوفِ وتركِ عبادةِ الخَوفِ، وعبادةُ الخوفِ قلبيَّةٌ؛ الخوفُ خوفُ العبادةِ من الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهٰذا الخوفُ إذا كانَ في القلبِ فإنَّ العبدَ سيَسعىٰ في مَراضي اللهِ ويبتعِدُ عن مناهي اللهِ، وسيُعظِّمُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا ويتقرَّبُ إليه بالخوفِ؛ لأنَّ الخوفَ عبادةٌ، ويكونُ عبادةً بمعانٍ مِنها:

أن يتقرَّب إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بالخوفِ.

وأن يتقرَّبَ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا بعدمِ الأمنِ من مَكرِ الله، وذلكَ أنَّ اللهَ هو ذو الجَبروتِ، فعدمُ الأمنِ من مَكرِ الله راجعٌ إلىٰ فهمِ صفاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وأسمائه الَّتي مِنها القَهَّارُ والجبَّارُ؛ وهو: الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، ونحوُ ذلكَ من صفاتِ الرُّبوبيَّةِ.

ومَكرُ اللهِ جَلَّوَعَلَا من صفاتِه الَّتي تُطلَقُ مُقيَّدةً، فاللهُ جَلَّوَعَلَا يَمكُرُ بمَنْ مَكرَ بأوليائِه وأنبيائِه وبمَن مَكرَ بدينِه؛ لأنَّها في الأصلِ صِفةُ نقصٍ؛ لكنْ تكونُ صفةَ كمالٍ إذا كانت بالمُقابَلَةِ؛ لأنَّها فيها حينَئذٍ إظهارُ العزَّةِ والقُدرةِ والقَهرِ والجَبروتِ وسائرِ صفاتِ الجلالِ.

فمَكرُ اللهِ جَلَّوَعَلَا من صفاتِه الَّتي يتَّصفُ بها؛ لكن يكونُ ذلكَ علىٰ وجهِ التَّقييدِ نقولُ: يمكُرُ بأعداءِ رُسلِه يمكُرُ بأعدائِه، يمكُرُ بمَن مَكرَ به ونحوِ ذلك.

وحقيقةُ مَكرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، ومعنىٰ هٰذه الصِّفةِ أنَّهَ جَلَّوَعَلَا أنَّه يَستدرِجُ العبدَ ويُملِي له حتَّىٰ إذا أخذَه لم يُفلِتْهُ، يُيَسِّرُ له الأمورَ حتَّىٰ يظُنَّ أنَّه في مَأمَنٍ غايةَ الأمانِ، فيكونُ ذلكَ استِدراجًا في حقِّهِ فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ**» وهٰذا ظاهرٌ مِن معنىٰ المَكرِ؛ لأنَّ في مَعنىٰ المَكرِ والكَيدِ وأمثالِهما مَعنىٰ الاستِدراجِ، لا تَرادُفَ في اللُّغةِ، بل هناكَ فُروقٌ بينَ المَكرِ والاستِدراجِ، والكَيدِ والاستِدراجِ، ونحوِ ذلك؛ لكنْ نقولُ: هٰذا من جهةِ التَّقريبِ، فالمَكرُ فيه استِدراجٌ وفيه زيادةٌ أيضًا علىٰ الاستِدراجِ حتَّىٰ يكونَ قلبُ ذلك المُستَدرَجِ آمنًا من كلِّ جهةٍ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر].)

هٰذا فيه أنَّ صفةَ الضَّالِّينَ أنَّهم يَقنَطونَ من رحمةِ الله جَلَّوَعَلَا، ومَعنىٰ ذلكَ بالمَفهومِ أنَّ صفةَ المُتَّقينَ وصفةَ المُهتَدينَ أنَّهم لا يَقنَطونَ من رحمةِ الله؛ بل يرجون رحمةَ الله جَلَّوَعَلَا.

والجمعُ بين الخوفِ والرَّجاءِ واجبٌ شرعًا، فإنَّ الخوفَ عبادةٌ والرَّجاءَ عبادةٌ، واجتماعُهما في القلبِ واجبٌ، فلا بدَّ أن يكونَ هٰذا وهٰذا جميعًا في القلبِ حتَّىٰ تَصِحَّ العبادةُ.

ومِن هنا اختلفَ العُلماءُ أيُّ الخوفِ أو الرَّجاءِ يُغلَّبُ بالقلب، هل يُغلِّبُ العبدُ جانبَ الرَّجاءِ أو يُغلِّبُ جانبَ الخوفِ؟

والتَّحقيقُ أنَّ الحالَ تختَلفُ:

* فإذا كان العبدُ في حالةِ الصِّحَّةِ والسَّلامةِ فإنَّه إمَّا أنْ يكونَ مُسدَّدًا مُسارعًا في الخَيراتِ فهٰذا يتَساوىٰ -يعني: يجبُ أن يتَساوىٰ- في قلبِه الخوفُ والرَّجاءُ يخافُ ويرجو لأنَّه من المُسارعينَ في

الخَيراتِ.

* وإذا كان في حالِ الصِّحَّةِ والسَّلامةِ وعدمِ دُنُوِّ الموتِ من أهلِ العصيانِ فالواجبُ عليه أنْ يُغلِّبَ جانبَ الخوفِ حتَّىٰ يَنكَفَّ علىٰ المَعصِيَةِ.

* وأمَّا إذا كان في حالِ المرضِ -وهي الحالُ الثَّانيةُ- فإنَّه مرضُ المَخوفُ فإنَّه يجبُ عليه أنْ يُعظِّمَ جانبَ الرَّجاءِ علىٰ الخَوفِ فيقومُ في قلبِه الرَّجاءُ والخوفُ؛ لكنْ يكونُ رجاؤُه أعظمَ من خوفِه وذلك لقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَمُتْ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ تَعَالَىٰ**» وذلكَ من جهةِ رَجائِه في اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن هنا اختلفتْ كلماتُ أهلِ العلمِ:

- فتَجدُ أنَّ بعضَهم يقولُ: يجبُ أن يتساوىٰ الخوفُ والرَّجاءُ.
- وبعضُ السَّلفِ قال: يُغلِّبُ جانبَ الخوفِ علىٰ جانبِ الرَّجاءِ.
- وبعضُ السَّلفِ قال: يُغلَّبُ جانبُ الرَّجاءِ علىٰ جانبِ الخوفِ.

وهي أقوالٌ مُتباينَةٌ ظاهرًا؛ لكنَّها مُتَّفقةٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّ كلَّ قولٍ منها يرجعُ إلىٰ حالةٍ ممَّا ذكرنا.

- فمن قالَ: يُغلَّبُ جانبُ الخوفِ علىٰ الرَّجاءِ؛ فهو: في حقِّ الصَّحيحِ العاصي.
- ومن قال: يُغلَّبُ الرَّجاءُ علىٰ الخوفِ؛ فهو: في حقِّ المريضِ الَّذي يخافُ الهلاكَ أو من يخافُ المَوتَ.
- ومن قال: يُساوَىٰ بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ فنظرَ إلىٰ حالِ المُسدَّدينَ المُسارِعينَ في الخَيراتِ.

وهٰذه الحالةُ الَّتي هي حالُ المُسدَّدينَ هي الَّتي وصفَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أهلَها بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء]، ونحوُه قولُه جَلَّ وَعَلَا في سورةِ الإسراءِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، وهٰذا ظاهرٌ من ذلكَ.

فالشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عقدَ هٰذا البابَ لبيانِ وُجوبِ أنْ يجتمِعَ الخوفُ والرَّجاءُ في القلبِ، كما ذَكرنا لكَ بالأمسِ هٰذهِ أبوابٌ مُتتاليةٌ لبيانِ حالاتِ القلبِ والعباداتِ القلبيَّةِ وأحكامَ ذلكَ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**».) وجهُ الشَّاهِدِ من ذلكَ أنَّه جعلَ اليأسَ من رَوحِ الله -وهو عدمُ الرَّجاءِ؛ ذهابُ الرَّجاءِ من القلبِ وعدمُ أو تركُ الإتيانِ بعبادةِ الرَّجاءِ- جعلَه من

الكبائرِ، وجعلَ الأمنَ من مَكرِ اللهِ -وهو ذهابُ الخوفِ من اللهِ جَلَّوَعَلَا من القلب- من الكبائرِ، فعدم الرَّجاء بالله من الكبائر، وعدم الخوف من الله جَلَّوَعَلَا من الكبائر، وهي كبائر في القلب، كبائر من جهةِ أعمالِ القُلوبِ.

واجتماعُهما جميعًا بألَّا يكونَ عندَه رَجاءٌ ولا خوفٌ فهٰذه كبيرةٌ أعظمُ من كبيرة تركِ الخوفِ وحدَه من اللهِ أو تركِ الرَّجاءِ وحدَه من الله جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا قرنَ بينَهما في هٰذا الحديثِ حيثُ قالَ: (سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»).

وبهٰذا يتبيَّنُ لكَ الفرقُ بينَ اليأسِ والأمنِ، اليأسُ من رَوحِ الله أو القنوطُ من رحمةِ الله، والأمنُ مِن مكرِ اللهِ، مِن أنَّ اليأسَ راجعٌ إلىٰ تركِ عبادةِ الرَّجاءِ، والأمنَ مِن مَكرِ اللهِ راجعٌ إلىٰ تركِ عبادةِ الخوفِ واجتماعُهما واجبٌ من الواجباتِ، وذهابُهما أو الانتقاصُ منهما نقصٌ في كمالِ توحيدِ مَن قامَ ذلك بقلبِه.

[الدَّليلُ الرَّابِعُ] قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ») فيها ما في الحديثِ قبلَه؛ لكنْ هنا فصَّلَ في القُنوطِ من رَحمةِ الله واليأسِ مِن رَوحِ اللهِ، فجعلَ القُنوطَ من رحمةِ الله شيئًا وجعلَ اليأسَ من رَوحِ الله شيئًا آخرَ، وهٰذا باعتبارِ بعضِ الصِّفاتِ لا باعتبارِ أصلِ المَعنىٰ، فإنَّ القُنوطَ من الرَّحمةِ واليأسَ من الرَّوحِ بمَعنًىٰ واحدٍ؛ لكن يَختلفانِ من حيثُ ما يتناولُه هٰذا ويتناولُه هٰذا:

فالقُنوطُ من رحمةِ الله عامٌّ لأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ من الرَّوحِ، والرَّحمةُ تشملُ جلبَ النِّعمِ ودفعَ النِّقمِ، ورَوحُ الله جَلَّوَعَلَا يُطلَقُ في الغالبِ للخلاصِ من المَصائِبِ، فقولُه (وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) هٰذا أعمُّ ولهٰذا قدَّمَه، فيكونُ ما بعدَه من عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ، أو أنْ يكونَ هناكَ ترادُفٌ في أصلِ المعنىٰ واختلافٌ في الصِّفاتِ، أو بعضِ ما يتعلَّقُ باللَّفظِ.

لهٰذا نقولُ: هٰذا الحديثُ مع الحديثِ قبلَه مع الآيتينِ دِلالَتُهما علىٰ ما أرادَ الشَّيخُ من عَقدِ هٰذا البابِ واحدةٌ، ودِلالَةُ الجميعِ أنَّ الخَوفَ والرَّجاءَ واجبٌ اجتماعُهما في القلبِ وإفرادُ الله جَلَّوَعَلَا بهما، والمَقصودُ خوفُ العبادةِ ورَجاءُ العبادةِ.

❀❀◊❀❀

35- بَابٌ

مِنَ الإيمَانِ بِاللَّه الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّه

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[التَّغَابُنُ].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْـمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ».

[2] وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْـمَيِّتِ».

[3] وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْـخُدُودَ، وَشَقَّ الْـجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ».

[4] وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[5] وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْـجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ (السَّخَطُ)[1]» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

(بَابٌ مِنَ الإيمَانِ بِاللَّه الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّه)، الصَّبرُ من المَقاماتِ العظيمةِ والعباداتِ الجَليلةِ الَّتي تكونُ في القلبِ وفي اللِّسانِ وفي الجوارحِ، وحقيقةُ العُبوديَّةِ لا تثبُتُ إلَّا بالصَّبرِ؛ لأنَّ العبادةَ أمرٌ ونهيٌ وابتلاءٌ، فالعبادةُ أمرٌ شرعيٌّ أو نهيٌ شرعيٌّ، هٰذا الدِّينُ أمرٌ شرعيٌّ أو نهيٌ شرعيٌّ أو أنْ يُصيبَ الله العبدَ بمُصيبَةٍ قدريَّةٍ.

فحقيقةُ العبادةِ أنْ يمتثلَ الأمرَ الشَّرعيَّ وأن يجتنبَ النَّهيَ الشَّرعيَّ وأن يصبِرَ علىٰ المَصائبِ القَدريَّةِ الَّتي ابتَلَىٰ الله جَلَّ وَعَلَا العبادَ بها.

ولهٰذا الابتلاءُ حاصلٌ بالدِّينِ، وحاصلٌ بالأقدارِ، فبالدِّينِ كما قالَ جَلَّ وَعَلَا لنَبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ القُدسيِّ الَّذي رواهُ مُسلمٌ عن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ» فحقيقةُ بعثةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الابتلاءُ، والابتلاءُ يجبُ معه الصَّبرُ، والابتلاءُ الحاصلُ ببِعثَتِه بالأوامرِ والنَّواهي.

إذن فالواجباتُ تحتاجُ إلىٰ صبرٍ، والمَنهيَّاتُ تحتاجُ إلىٰ صبرٍ، والمَنهيَّاتُ والأقدارُ الكَونيَّةُ تحتاجُ

---

(1) في نسخة العصيمي: السُّخْطُ.

إلىٰ صبر، والأقدارُ الكَونيَّةِ تحتاجُ إلىٰ صبرٍ.

ولهٰذا قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ: إنَّ الصَّبرَ ثلاثةُ أقسامٍ:

- صبرٌ علىٰ الطَّاعةِ.
- وصبرٌ عن المَعصِيَةِ.
- وصبرٌ علىٰ أقدارِ اللهِ المُؤلِمَةِ.

ولمَّا كانَ الصَّبرُ علىٰ المَصائبِ قليلًا ويَظهرُ عدمُ الصَّبرُ أفرَدَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هٰذا البابَ لبيانِ أنَّه مِن كمالِ التَّوحيدِ ومِن الواجبِ علىٰ العبدِ أن يَصبِرَ علىٰ أقدارِ اللهِ؛ لأنَّ التَّسخُّطَ -تَسخُّطُ العبادِ وعدمُ صَبرِهم- كثيرًا ما يَظهرُ في حالِ الابتلاءِ بالمَصائبِ= فعقدَ هٰذا البابَ لبَيانِ أنَّ الصَّبرَ واجبٌ علىٰ أقدارِ الله المُؤلِمَةِ، ونبَّه بذلكَ أنَّ الصَّبرَ علىٰ الطَّاعةَ واجبٌ وأنَّ الصَّبرَ علىٰ المَعصيةِ واجبٌ.

وحقيقةُ الصَّبرِ الحبسُ في اللُّغةِ ومِنه قولُهم: قد قُتلَ فلانٌ صَبرًا إذا حُبسَ أو رُبطَ وقُتلَ من دونَ مُبارزةٍ ولا قتالٍ.

ويُقالُ للصَّبرِ الشَّرعيِّ: إنَّه صبرٌ؛ لأنَّ فيه الحبسَ، وهو حبسُ اللِّسانِ عن التَّشكِّي، وحبسُ القلبِ عن السَّخطِ، وحبسُ الجوارحِ عن إظهارِ السَّخطِ من لطمِ الخُدودِ وشَقِّ الجُيوبِ ونحوِ ذلك، فحبسُ هٰذه الأشياءِ هو حقيقةُ الصَّبرِ.

فالصَّبرُ -إذن- حبسُ اللِّسانِ عن التَّشكِّي، وحبسُ القلبِ عن التَّسخُّطِ، وحبسُ الجوارحِ عن إظهارِ التَّسخُّطِ بشقٍّ أو نحوِ ذلك.

قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ذُكرَ الصَّبرُ في القرآنِ في أكثرَ من تسعينَ مَوضعًا**، والصَّبرُ من الإيمان بمَنزلةِ الرَّأسِ مِن الجسدِ؛ لأنَّ من لا صَبرَ له علىٰ الطَّاعةِ، ولا صبرَ له عن المَعصيةِ، ولا صبرَ له علىٰ أقدارِ الله المُؤلِمَةِ= فإنَّه يَفوتُه أكثرُ الإيمانِ.

قال: (**بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ**) يعني من خصالِ الإيمانِ باللهِ (**الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ**)، والإيمانُ له شُعَبٌ كما أنَّ الكُفرَ له شُعَبٌ، فنبَّه بقولِه: (**مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ**) علىٰ أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ الصَّبرُ، ونبَّه في الحديثِ الَّذي ساقَه عن «صحيحِ مُسلمٍ» أنَّ النِّياحةَ من شُعَبِ الكفرِ، فيُقابلُ كلَّ شُعبةٍ من شُعَبِ الكُفرِ شُعبةٌ من شُعَبِ الإيمانِ، فالنِّياحةُ علىٰ المَيِّتِ شُعبَةٌ من شُعَبِ الكُفرِ يُقابِلُها في شُعَبِ الإيمانِ الصَّبرُ علىٰ أقدارِ الله المُؤلِمَةِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾[التَّغَابُنُ:11]. قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ

الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْـمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ».) هٰذا تفسيرٌ من عَلْقَمَةَ -أحدِ التَّابعينَ- لهٰذه الآيةِ، وهو تفسيرٌ ظاهرُ الصِّحَّةِ والصَّوابِ، وذلكَ أنَّ قولَه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ إنَّما سِيقَ في سياقِ ذكرِ ابتلاءِ اللهِ بالمَصائبِ، فـ﴿مَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يعني يُعظِّم اللهَ جَلَّوَعَلَا ويَمتثلُ أمرَه ويَجتنِبْ نهيَه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للصَّبرِ، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ لعدمِ التَّسخُّطِ، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للعباداتِ، ولهٰذا قال: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) وهٰذا هو الإيمانُ باللهِ (فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ).

والمَصائبُ من القدرِ، والقدرُ راجعٌ إلىٰ حكمةِ الله جَلَّوَعَلَا، والحِكمةُ -حِكمةُ الله جَلَّوَعَلَا- هي وضعُ الأمورِ في مَواضِعِها المَوافقَةِ للغاياتِ المَحمودةِ مِنها، فالحِكمةُ بعامَّةٍ مُرتبطَةٌ بالغاياتِ المَحمودةِ من وضعِ الأمرِ في مَوضعِه، فمَن وَضعَ الأمرَ في غيرِ مَوضعِه فقد ظلمَ، ومَن وضعَ الأمرَ في مَوضعِه عَدلَ، وقد يكونُ غير حكيمٍ عادلًا؛ ولكن غيرُ حكيمٍ، إذا وضعَ الأمرَ في موضعِه المُوافقِ للغايةِ المَحمودةِ مِنه فذاك هو الحكيمُ.

واللهُ جَلَّوَعَلَا مَنفيٌّ عنه الظُّلمُ ومُثبَتٌ له كمالُ العدلِ سُبحانَه حيثُ يضعُ الأمورَ مَواضِعَها، ومُثبَتٌ له جَلَّوَعَلَا كمالُ الحِكمةِ حيثُ إنَّ وضعَه الأمورَ في مَواضعِها مَوافقٌ للغاياتِ المَحمودةِ منها، فنَعلمُ بذلكَ أنَّ المُصيبَةَ إذا أصابَتِ العبدَ فإنَّ الخيرَ له فيها، إمَّا أنْ يَصبرَ فيُؤجَرَ، وإمَّا أنْ يتسخَّطَ فيُؤزرَ علىٰ ذلك، وهٰذا في حقِّ الخاسرينَ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا له الحِكمةُ من الابتلاءِ بالمَصائبِ.

لهٰذا يجبُ علىٰ العبدِ أنْ يعلَمَ أنَّ ما جاءَ مِن عندِ الله هو قدرُ الله جَلَّوَعَلَا وقضاؤُه المُوافِقُ لحِكمتِه فيجبُ الصَّبرُ علىٰ ذلكَ.

قال: (فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) يعني أنَّ اللهَ هو الَّذي أتىٰ بها، وهو الَّذي أذِنَ بها قدرًا وكَونًا (فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ)، والرِّضىٰ بالمُصيبَةِ مُستحَبٌّ وليسَ بواجبٍ، ولهٰذا يختَلِطُ علىٰ كثيرين الفَرقُ بين الرِّضىٰ والصَّبرِ.

وتحريرُ المَقامِ في ذلكَ:

أنَّ الصَّبرَ علىٰ المَصايبِ واجبٌ من الواجباتِ؛ لأنَّ فيه تركَ التَّسخُّطِ علىٰ قضاءِ الله وقدرِه.

والرِّضىٰ هٰذا له جِهتان:

- **الجهةُ الأُولىٰ:** راجعةٌ إلىٰ فعلِ الله جَلَّوَعَلَا، فيرضىٰ بقدرِ اللهِ الَّذي هو فعلُه، يرضىٰ بفعلِ الله، يرضىٰ بحِكمةِ الله، يرضىٰ بما قسمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا -يعني: بقسمةِ الله-، هٰذا الرِّضىٰ بفعلِ الله جَلَّوَعَلَا واجبٌ من الواجباتِ، وتركُه مُحرَّمٌ ومُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ.

◆ والرِّضىٰ بالمَقْضِيِّ الرِّضىٰ بالمُصيبَةِ في نفسِها هٰذا مُستحَبٌّ، ليسَ واجبًا علىٰ العبادِ أنْ يَرضَوْا بالمَرضِ، أنْ يَرضَوْا بفقدِ الوَلدِ، أنْ يَرضَوْا بفقدِ المالِ؛ لكنَّ هٰذا مُستَحَبٌّ، وهو رتبةُ الخاصَّةِ من عبادِ اللهِ.

ولكنَّ الرِّضىٰ بفعلِ الله جَلَّوَعَلَا، الرِّضىٰ بقضاءِ الله من حيثُ هو هٰذا واجبٌ، أمَّا الرِّضىٰ بالمُقتَضىٰ فإنَّه مُستحَبٌّ.

ولهٰذا (قَالَ عَلْقَمَةُ) هنا: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْـمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَىٰ)-يعني علىٰ قضاءِ اللهِ- (وَيُسَلِّمُ)-لعِلمِه-**أنَّها من عندِ الله** جَلَّجَلَالُهُ. وهٰذا من خصالِ الإيمانِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ ») يعني خَصلتانِ من شُعَبِ الكُفرِ قائِمتانِ في النَّاسِ وستَبْقَيَانِ في النَّاسِ، «الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ» من شُعَبِ الكُفرِ، «وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ» من شُعَبِ الكُفرِ.

وجهُ الشَّاهدِ من هٰذا الحديثِ قولُه: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ»، والنِّياحةُ مُخالفَةٌ للصَّبرِ، والصَّبرُ الواجبُ فيه حبسُ الجوارحِ من لطمِ الخُدودِ وشقِّ الجُيوبِ -ونحوِ ذلك- وحبسُ اللِّسانِ عن التَّشَكِّي والعَويلِ وهٰذا هو النِّياحةُ، فالنِّياحةُ من شُعَبِ الكُفرِ؛ لأنَّها مُنافيةٌ للصَّبرِ، وكونُها من شُعَبِ الكُفرِ لا يدلُّ أنَّ مَن قامت به فهو كافرٌ الكُفرَ المُطلَقَ المُخرِجَ من المِلَّةِ؛ بل يدلُّ علىٰ أنَّ من قامت به قامت به خَصلةٌ من خِصالِ الكُفَّارِ وشُعبةٌ من شُعَبِ الكُفرِ، ولهٰذا قال هنا: « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ » فنكَّر كلمة «كُفْرٌ».

والقاعدةُ في فهمِ ألفاظِ (الكُفرِ) الَّتي تأتي في الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ الكُفرَ إذا أتىٰ مُعرَّفًا بالألف واللَّام فإنَّ المُرادَ به الكُفرُ الأكبرُ، وإذا أتىٰ الكُفرُ مُنكَّرًا، (كُفرٌ) كلمةٌ هكذا دون الألفِ واللَّامِ فإنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ الخَصلةَ تلك من شُعَبِ الكُفرِ ومن خصالِ أهل الكُفرِ وأنَّ ذلك كُفرٌ أصغرُ،

كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْنَاقَ بَعْضٍ» يعني لأنَّ ذلك من خصالِ الكُفَّارِ، ونحوُ ذلكَ قولُه: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وقِتَالُهُ كُفْرٌ» هٰذا في الكفرِ الأصغرِ.

وأمَّا الكُفرُ المُعرَّفُ بالألفِ واللَّامِ فالقاعدةُ الَّتي حرَّرها الأئمَّة كشيخِ الإسلامِ وغيرِه أنَّه أتىٰ فيُرادُ به الكُفرُ الأكبرُ كقولِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ».[1]

---

(1) ذكر أبو العباس ابن تيمية في «اقتضاء الصِّراط المستقيم» أنَّ لفظ الشِّرك والكفر إذا وقع مُحَلًّى بـ(أل) فالمراد به الأكبر، مثل حديث «بين العبد وبين الكفر ترك الصَّلاة» فهٰذا يراد به الأكبر، وأمَّا إذا لم يكن كذلك فيُراد به الأصغر.

=

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْـخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ») ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ مَن فعلَ هٰذه الأفعالَ فهو ليسَ من أهلِ الإيمانِ، وقد ذكرتُ لكم أنَّ كلمةَ (لَيْسَ مِنَّا) تدلُّ أنَّ الفعلَ من الكبائرِ، ولهٰذا نقولُ: تركُ الصَّبرِ وإظهارُ التَّسخُّطِ كبيرةٌ من الكبائرِ، والمَعاصي تُنقِصُ الإيمانَ؛ لأنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعةِ ويَنقصُ بالمَعصيةِ، ونقصُ الإيمانِ قد يُنقِصُ كمالَ التَّوحيدِ؛ بل إنَّ تركَ الصَّبرِ مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ الواجبِ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْـخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».) هٰذا فيه بيانُ حِكمةِ الله جَلَّوَعَلَا الَّتي إذا استَحضرَها المُصابُ فإنَّه يَعظُمُ عندَه الصَّبرُ ويَتحلَّىٰ بهٰذِهِ العبادةِ القَلبيَّةِ العظيمةِ وهي تركُ التَّسخُّطِ والرِّضىٰ بفعلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وقضائِه؛ لأنَّ العبدَ إذا أُريدَ به الخيرُ فإنَّ العُقوبةَ تُعجَّلُ له في هٰذه الدُّنيا؛ لأنَّ رفعَ أثرِ العُقوبةِ عن العبدِ يكونُ بعشْرةِ أشياءَ: ومِنها أن تُعجَّلَ له العُقوبةُ في الدُّنيا، يعني يُعاقَبُ في الدُّنيا بمرضٍ بفقدِ مالٍ بمُصيبةٍ؛ لأنَّ مُخالفةَ أمرِ الله في مَلَكوتِه لا بدَّ أنْ تقعَ لها عقوبةٌ إنْ لم يَغفرِ اللهُ جَلَّوَعَلَا ويتجاوزْ، فإذا كانتِ العُقوبةُ في الدُّنيا فإنَّها أهونُ من أنْ تكونَ في البَرزخِ أو تكونَ يومَ القيامةِ، ولهٰذا جاءَ في الحديثِ الآخرِ الَّذي رواهُ البُخاريُّ وغيرُه قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ».

ولهٰذا كانَ بعضُ السَّلفِ يتَّهمُ نفسَه إذا رأىٰ أنَّه لم يُصَبْ ببَلاءٍ أو لمْ يَمرضْ ونحوَ ذلك، وقد قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في الحُمَّىٰ -مثلًا-: «لَا تَسُبُّوا الْحُمَّىٰ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَنْفِي الذُّنُوبَ عَلَىٰ الْعَبْدِ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» ففي المَصائبِ نِعمٌ، المَصائبُ فيها نِعمٌ علىٰ العبدِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا له الحِكمةُ البالغةُ فيما يُصلِحُ عبدَه المُؤمنَ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْـجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ») دلَّ قولُه: «رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا» يعني الرِّضىٰ مِن الله عليه علىٰ أنَّ الرِّضىٰ عبادةٌ؛ لأنَّ رِضىٰ اللهِ عن العبدِ إذْ رَضِيَ عنه دالٌّ علىٰ أنَّ ذلكَ الفعلَ مَحبوبٌ له، وذلكَ دليلٌ أنَّه من العباداتِ، وكذلكَ الجُملةُ الثَّانيةُ دليلٌ علىٰ أنَّ السَّخطَ مُحرَّمٌ قال:

=

وهٰذه قاعدة مبنيَّة علىٰ دلالة الوضع اللُّغوي للألف واللَّام ودلالة المصدر، ومحلُّها في المصدر لا في غيره. يعني: لو قال واحد مثلا قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المائدة] لا تطبَّق عليها القاعدة؛ لأنَّ (الكافر) اسم فاعل وليس مصدرًا. انظر شرح المعجم المختار من الأحاديث النبوية القصار، لصالح العصيمي.

«وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» يعني مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا.

وحقيقةُ السَّخطِ علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا أنْ يقومَ في قلبِه عدمُ مَحبَّةِ ذلكَ الشَّيءِ وكراهةُ ذلكَ الشَّيءِ وعدمُ الرِّضىٰ به واتِّهامُ الحِكمةِ فيه، فمَن قامتْ به هٰذه الأشياءُ مُجتَمِعةً فقدْ سخطَ، يظهرُ أثرُ السَّخطِ علىٰ اللِّسانِ أو علىٰ الجوارحِ، يظهرُ السَّخطُ في القلبِ من جهةِ عدمِ الرِّضىٰ بالأوامرِ، عدمِ الرِّضىٰ بالنَّواهي، عدمِ الرِّضىٰ بالشَّرعِ، فيتَسخَّطُ الأمرَ، يتَسخَّطُ النَّهيَ، يتَسخَّطُ الشَّرعَ، فهٰذا كبيرةٌ من الكبائرِ ولو امتثلَ ذلكَ، فإنَّ تَسخُّطَه وعدمَ الرِّضىٰ بذلكَ قلبًا دليلٌ علىٰ انتفاءِ كمالِ التَّوحيدِ في حقِّه، وقد يصلُ بالبعضِ إلىٰ انتفاءِ التَّوحيدِ من أصلِه إذا لم يرضَ بأصلِ الشَّرعِ وسَخِطَه بقلبِه واتَّهمَ الشَّرعَ أو اتَّهمَ الله جَلَّوَعَلَا في حُكمِه الشَّرعيِّ.



36- بَابٌ
مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

[1] وَقَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف:110] الآيَةَ.

[2] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ.» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[3] وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الشِّرْكُ الْـخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

هٰذا (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ) يعني من الوَعيدِ وأنَّه شركٌ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

والرِّياءُ حقيقتُه من الرُّؤيَةِ وهي البَصريَّةُ، وذلكَ بأنْ يعملَ عملَ العبادةِ لكي يُرىٰ أنَّه يَعملُ، يعملُ العملَ الَّذي هو مِن العبادةِ إمَّا صلاةٌ أو تلاوةٌ أو ذكرٌ أو صدقةٌ أو حجٌّ أو جهادٌ أو أمرٌ ونهيٌ أو صِلةُ رحمٍ أو نحوُ ذلك لا لطلبِ ما عندَ الله؛ ولكنْ لأجلِ أنْ يُرَىٰ؛ لأجلِ أنْ يراهُ النَّاسُ علىٰ ذلكَ فيُثْنوا عليه بهِ، هٰذا هو الرِّياءُ.

وقد يكونُ الرِّياءُ في أصلِ الإسلامِ كَرياءِ المُنافقينَ.

فالرِّياءُ علىٰ دَرجَتينِ:

الدَّرجةُ الأُولىٰ: رياءُ المُنافقين بأنْ يُظهِرَ الإسلامَ ويُبطِنَ الكُفرَ لأجلِ رُؤيةِ الخلقِ، وهٰذا مُنافٍ للتَّوحيدِ مِن أصلِه وكُفرٌ أكبرُ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ لهٰذا وصفَ اللهُ المُنافقينَ بقولِه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[النِّساء:142]، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الرِّياءَ الأكبرَ الَّذي هو إظهارُ أصلِ الإسلامِ وشُعَبِ الإسلامِ وإبطانُ الكُفرِ وشُعَبِ الكُفرِ.

والنَّوعُ الثَّاني مِن الرِّياءِ: أن يكونَ الرَّجلُ مُسلمًا أو المرأةُ مُسلمَةً؛ ولكن يُرائي بعَملِه أو ببَعضِ عملِه، فهٰذا شركٌ خفيٌّ، وذلكَ الشِّركُ مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النِّساء:48] علىٰ اختيارِ من قالَ إنَّ قولَه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يدخلُ فيه الشِّركُ الخفيُّ والأصغرُ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ، وَقَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

[الكهف]) قوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ هٰذا نهيٌ عن الإشراكِ، قال: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾ هٰذا نهيٌ، والنَّهيُ هنا عامٌّ لجميعِ أنواعِ الشِّركِ الَّتي مِنها شركُ الرِّياءِ، ولهٰذا يَستدِلُّ السَّلفُ بهٰذه الآيةِ علىٰ مَسائلِ الرِّياءِ كما أورَدَها الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا؛ لأنَّه قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ يعني بما يشملُ شركَ المُراءاةِ، فإنَّ الرِّياءَ شركٌ وقولُه: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾ وهٰذا عمومٌ يعمُّ أنواعَ الشِّركِ جميعًا؛ لأنَّ ﴿يُشۡرِكۡ﴾ نكرةٌ جاءت في سياقِ النَّهي فعَمَّتْ أنواعَ الشِّركِ، وقوله: ﴿أَحَدَۢا﴾ يعمُّ جميعَ الخلقِ بمُراءاةٍ أو بتَسْمِيعٍ أو بغيرِ ذلك.

فدِلالةُ الآيةِ ظاهرةٌ علىٰ البابِ وأنَّ المُراءاةَ نوعٌ من أنواعِ الشِّركِ الأصغرِ، نوعٌ من الشِّرك الخفيِّ، تارةً نقولُ: الرِّياءُ شركٌ أصغرُ باعتبارِ أنَّه ليسَ بأكبرٍ مُخرِجٍ من المِلَّةِ، وتارةً نقولُ: الرِّياءُ شركٌ خفيٌّ لأنَّه ليسَ بظاهرٍ وإنَّما هو باطنٌ خفيٌّ في قلبِ العبدِ.

ولهٰذا تجدُ أنَّ كثيرين من أهلِ العلمِ يُعبِّرون عن الشِّركِ الأصغرِ بيسيرِ الرِّياءِ، وتارةً يُعبِّرونَ عن الشِّركِ الخَفيِّ بالرِّياءِ؛ ذلكَ لأنَّ الشِّركَ يختلفُ من حيثُ الإطلاقُ -كما ذَكرْنا لكم في أوَّلِ هٰذا الشَّرحِ- من عالمٍ إلىٰ آخرَ، تارةً يُقسِّمونَ الشِّركَ إلىٰ أكبرَ وأصغرَ، ومِنهم من يُقسِّمُه إلىٰ أكبرَ وأصغرَ وخَفيٍّ، وكلٌّ له اصطلاحُه، وكلُّ الأقوالِ صوابٌ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ») هٰذا الحديثُ يدلُّ علىٰ أنَّ الرِّياءَ مَردودٌ علىٰ صاحبِه وأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا لا يقبلُ العملَ الَّذي خالطَه الرِّياءُ، والعُلماءُ فصَّلُوا في ذلكَ فقالوا: الرِّياءُ إذا عرضَ للعبادةِ فله أحوالٌ:

فإمَّا أنْ يَعْرِضَ للعبادةِ من أوَّلِها، فإذا عرضَ للعبادةِ من أوَّلِها فإنَّ العبادةَ كلَّها باطلةٌ، مثلَ أنْ يُصلِّيَ؛ أنشأ الصَّلاةَ لنظرِ فُلانٍ، لم يُرِدْ أنْ يُصلِّيَ الرَّاتبةَ لكن لمَّا رأىٰ فُلانًا يَنظُرُ إليه فصلَّىٰ الرَّاتبةَ لكي يراهُ، فهٰذا عملُه حابطٌ؛ يعني: هٰذه الرَّكعتان حابطةٌ وهو مَأزورٌ علىٰ مُراءاتِه ومُرتكِبٌ الشِّركَ الخَفيَّ، الشِّركَ الأصغرَ.

والحالُ الثَّانيةُ أنْ يكونَ أصلُ العبادةِ لله؛ ولكنْ خلطَ ذلكَ العابدُ عملَه برياءٍ مثلًا أطالَ الرُّكوعَ وأكثرَ التَّسبيحَ لأجلِ من يراهُ، أطالَ القراءةَ والقيامَ لأجلِ من يَراهُ، فهٰذا القَدْرُ الواجبُ مِن العبادةِ له، وما عدا ذلكَ فهو حابطٌ؛ لأنَّه راءىٰ في الزِّيادةِ علىٰ الواجبِ، فيحبطُ ذلك الزَّائدُ وهو آثمٌ عليه، لا يُؤجَرُ عليه ويَحبِطُ ولا ينتفعُ منه، ويُؤزَرُ علىٰ إشراكِه وعلىٰ مُراءاتِه، هٰذا في الأعمالِ أو في العباداتِ البَدنيَّةِ، أمَّا

العباداتُ الماليَّةُ فيختلفُ الحالُ عن ذلكَ.

قال هنا: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» يعني: بجميعِ أنواعِ المُشرَكينَ وبجميعِ أنواعِ الأعمالِ، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا»، «عَمَلًا» هٰذه نكرةٌ جاءَتْ في سياقِ الشَّرطِ فعمَّتْ جميعَ الأعمالِ -الأعمالِ البدنيَّةِ والأعمالِ الماليَّةِ والأعمالِ الَّتي اشتملَتْ علىٰ مالٍ وبدنٍ-:

البَدنيَّةُ: كالصَّلاةِ والصِّيامِ.

والماليَّةُ: كالزَّكاةِ والصَّدقةِ.

والمُشتمِلَةُ علىٰ بدنٍ ومالٍ: كالحجِّ والجهادِ ونحوِ ذلك.

هٰذا يعمُّ الجميعَ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا» يعني: أنشأه، «أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي»؛ جعلَه للهِ ولغيرِ اللهِ جميعًا فإنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أغنَىٰ الشُّركاءِ عن الشِّركِ، لا يقبلُ إلَّا ما كانَ له وحدَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِـمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ») هٰذا فيهِ بَيانُ أنَّ هٰذا النَّوعَ من الشِّركِ هو أخوفُ من المَسيحِ الدَّجَّالِ عندَ النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ هٰذه الأمَّةِ؛ ذلكَ أنَّ أمرَ المَسيحِ أمرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ والنَّبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ بيَّنَ ما في شأنِه وبيَّنَ صِفتَه وحذَّرَ الأمَّةَ منه وأمرَهم أنْ يَدْعُوا آخرَ كلِّ صلاةٍ بالاستعاذةِ من شرِّ المَسيحِ الدَّجَّالِ ومن فِتنَةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ؛ لكنَّ الرِّياءَ هٰذا يَعرِضُ للقلبِ كثيرًا، والشَّيطانُ يأتي إلىٰ القُلوبِ، وهٰذا الشِّركُ يَقودُ العبدَ إلىٰ أن يتخلَّىٰ شيئًا فشيئًا عن مُراقبَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا ويتَّجهُ إلىٰ مُراقبَةِ المَخلوقينَ، لذلك صارَ أَخْوَفَ عندَ النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علينا من المَسيحِ الدَّجَّالِ، ثمَّ فسَّرَه بقولِه: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِـمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ».



37- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

[1] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[هود].

[2] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْـخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْـخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

هٰذا البابُ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ هٰذا الكتابِ تَرجَمَهُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِه: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا)، (مِنَ الشِّرْكِ) يعني الشِّركِ الأصغرِ، أنْ يُريدَ الإنسانُ بأعمالِه الَّتي يَعملُها من الطَّاعاتِ الدُّنيا ولا يُريدُ بها الآخرةَ، وإرادةُ الإنسانِ الدُّنيا -يعني ثوابَ الدُّنيا- أعمُّ مِن حالِ الرِّياءِ، فالرِّياءُ حالةٌ واحدةٌ من أحوالِ إرادةِ الإنسانِ الدُّنيا؛ فهو يُصلِّي أو يزيدُ ويُزَيِّنُ في صلاتِه لأجلِ الرُّؤيَةِ ولأجلِ المَدحِ؛ لكنْ هناكَ أحوالٌ أُخَرُ لإرادةِ النَّاسِ بأعمالِهم الدُّنيا، لهٰذا عطفَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا البابَ علىٰ الَّذي قبلَه ليُبيِّنَ أنَّ إرادةَ الإنسانِ الدُّنيا تأتي في أحوالٍ كثيرةٍ أعمَّ من حالِ الرِّياءِ بخاصَّةٍ؛ لكنَّ الرِّياءَ جاءَ فيه الحديثُ وخافَه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ أمَّتِه فهو في وُقوعِه كثيرٌ والخَوفُ منه جللٌ.

وهٰذا البابُ اشتملَ علىٰ الحُكمِ بأنَّ إرادةَ الإنسانِ بعمَلِه الدُّنيا من الشِّركِ، وقولُه: (إِرَادَةُ الإِنْسَانِ) يعني أن يَعمَلَ العملَ وفي إرادتِه بعثَه علىٰ العملِ ثوابُ الدُّنيا، فهٰذا مِن الشِّركِ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ، وسيأتي تفصيلُ أحوالِ ذلكَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[هود]) هٰذه الآيةُ -آيةُ سورةِ هودٍ- مَخصوصةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء:18] فهي مَخصوصةٌ بمن شاءَ اللهُ جَلَّوَعَلَا، قالَ هنا: (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾)؛ يعني: ممَّن أرادَ اللهُ جَلَّوَعَلَا له ذلكَ، وممَّن شاءَه اللهُ،

فهٰذا العُمومُ الَّذي هنا مَخصوصٌ بآيةِ الإسراءِ وآيةِ سورةِ الشُّورىٰ.

الَّذين يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا أصلًا وقَصدًا وتَحرُّكًا هم الكُفَّارُ، ولهٰذا نزلَتْ هٰذه الآيةُ في الكُفَّارِ؛ لكنَّ لفظَها يشملُ كلَّ مَن أرادَ الحياةَ الدُّنيا بعمَلِه الصَّالحِ.

ولهٰذا جمعَ الإمامُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالةٍ له أحوالَ النَّاسِ فيما قالَ السَّلفُ تَفسيرًا لهٰذِهِ الآيةِ، وجعلَ كلامَ السَّلفِ يتناولُ أربعةَ أنواعٍ مِن النَّاسِ كُلُّهم يَدخلُ في هٰذا الوَعيدِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: ممَّن رَكِبوا هٰذا الشِّركَ الأصغرَ وأرادوا بعملِهم الحياةَ الدُّنيا؛ أنَّه يعمَلُ العملَ الصَّالحَ وهو فيه مُخلِصٌ لله جَلَّ وَعَلَا؛ ولكن يُريدُ به ثوابَ الدُّنيا ولا يُريدُ ثوابَ الآخرةِ. مثلًا يتعبَّدُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بالصَّلاةِ وهو فيها مُخلِصٌ للهِ أدَّاها علىٰ طَواعيَةٍ واختيارٍ وامتثالٍ لأمرِ الله؛ لكنْ يُريدُ مِنها أن يَصِحَّ بدنُه، أو وصَلَ رَحمَهُ وهو يُريدُ مِنه أن يحصُلَ له في الدُّنيا الذِّكرُ الطَّيِّبُ والصِّلةُ ونحوُ ذلك، أو عملَ أعمالًا مِن التِّجارَةِ والصَّدقاتِ وهو يُريدُ بذلكَ تِجارةً لكي يَكونَ عندَه مالٌ فيتصدَّقُ وهو يُريدُ بذلكَ ثوابَ الدُّنيا، فهٰذا النَّوعُ عملَ العبادةَ امتثالًا للأمرِ ومُخلِصًا فيها للهِ؛ ولكنَّه طامعٌ في ثوابِ الدُّنيا، وليسَ له همَّةٌ في الآخرةِ، ولم يعمَلْ هربًا من النَّارِ وطَمعًا في الجنَّةِ، فهٰذا داخلٌ في هٰذا النَّوعِ، وداخلٌ في قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

والأعمالُ الَّتي يعمَلُها العبدُ ويَستحْضِرُ فيها ثوابَ الدُّنيا علىٰ قِسمَينِ:

القِسمُ الأوَّلُ: أن يكونَ العملُ الَّذي عمِلَه واستحضَرَ فيه ثوابَ الدُّنيا وأرادَهُ ولم يُرِدْ ثوابَ الآخرَةِ لم يُرغِّبِ الشَّرعُ فيه بذكرِ ثوابِ الدُّنيا، مثلَ الصَّلاةِ والصِّيامِ ونحوِ ذلكَ من الأعمالِ والطَّاعاتِ، فهٰذا لا يجوزُ له أن يُريدَ به الدُّنيا ولو أرادَ به الدُّنيا فإنَّه مُشرِكٌ ذلكَ الشِّركَ.

والقِسمُ الثَّاني: أعمالٌ رتَّبَ الشَّارعُ عليها ثوابًا في الدُّنيا ورغَّبَ فيها بذكرِ ثوابٍ لها في الدُّنيا، مثلَ صِلَةِ الرَّحمِ وبرِّ الوالدينِ ونحوِ ذلك وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»، فهٰذا النَّوعُ إذا استحضَرَ في عملِه حينَ يعملُ هٰذا العملَ استحضَرَ ذلكَ الثَّوابَ الدُّنيَوِيَّ، وأخلصَ لله في العملِ، ولم يَستحْضِرْ الثَّوابَ الأُخرَوِيَّ، فإنه داخلٌ في الوَعيدِ فهو من أنواعِ هٰذا الشِّركِ؛ لكنْ إذا استحْضَرَ الثَّوابَ الدُّنيوِيَّ والثَّوابَ الأُخرَوِيَّ معًا، له رَغبةٌ فيما عندَ اللهِ في الآخرةِ يطمعُ الجنَّةَ ويهرُبُ من النَّارِ واستحْضَرَ ثوابَ هٰذا العملِ في الدُّنيا، فإنَّه لا بأسَ بذلكَ؛ لأنَّ الشَّرعَ ما رَغَّبَ فيه بذكرِ الثَّوابِ في الدُّنيا إلَّا للحضِّ عليه «**فَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ**» فقتلَ القَتيلَ في الجهادِ؛ لكي يحصُلَ علىٰ السَّلَبِ هٰذا؛ ولكنْ قصدُه من الجهادِ الرَّغبةُ فيما عندَ الله جَلَّ وَعَلَا مُخلِصًا فيه لوجهِ الله، لكنْ أتىٰ هٰذا

من زيادةِ التَّرغيبِ له، ولم يَقتصِرْ علىٰ هٰذهِ الدُّنيا، بلْ قلبُه مُعلَّقٌ أيضًا بالآخرَةِ، فهٰذا النَّوعُ لا بأسَ به ولا يدخلُ في النَّوعِ الأوَّلِ ممَّا ذكرَه السَّلفُ في هٰذه الآيةِ.

النَّوعُ الثَّاني: ممَّا ذكرَه السَّلفُ ممَّا يدخلُ تحتَ هٰذه الآيةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنَّه يعمَلُ العملَ الصَّالحَ لأجلِ المالِ، فهو يعمَلُ العملَ لأجلِ ما يُحصِّلُه من المالِ، مثلَ أن يَدرُسَ يتعلَّمُ العلمَ الشَّرعيَّ لأجلِ الوظيفةِ فقطْ، وليسَ في همِّه رفعُ الجهالةِ عن نفسِه ومَعرفَةُ العبدِ بأمرِ ربِّهِ ونَهيِه والرَّغبِ في الجنَّةِ وما يُقرِّبُ مِنها والهَربِ من النَّارِ وما يُقرِّبُ مِنها، فهٰذا داخلٌ في ذلكَ، أو حَفِظَ القرآنَ ليكونَ إمامًا في المَسجدِ ويكونَ له الرِّزقُ الَّذي يأتي من بيتِ المالِ، فغرضُه من هٰذا العملِ إنَّما هو المالُ، فهٰذا لم يعمَلْ العملَ صالحًا، وإنَّما عمِلَ العمَلَ الَّذي في ظاهرِه أنَّه صالحٌ؛ ولكنْ في باطنِه قد أرادَ به الدُّنيا.

والنَّوعُ الثَّالثُ: أهلُ الرِّياءِ الَّذين يعمَلون الأعمالَ لأجلِ الرِّياءِ.

والنَّوعُ الرَّابعُ: الَّذين يَعملونَ الأعمالَ الصَّالحةِ ومعهم ناقضٌ من نواقِضِ الإسلامِ، يعملُ أعمالًا صالحةً يُصلِّي ويُزكِّي ويتصدَّقُ ويقرأُ القرآنَ ويَتلُو؛ ولكنْ هو مشركٌ الشِّركَ الأكبرَ، فهٰذا وإنْ قالَ: إنَّه مُؤمنٌ فليسَ بصادقٍ في ذلكَ؛ لأنَّه لو كانَ صادقًا لَوحَّد اللهَ جَلَّوَعَلَا.

فهٰذه بعضُ الأنواعِ الَّتي ذُكِرَتْ بتفسيرِ هٰذه الآيةِ وكلُّها داخلةٌ تحتَ قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ فهؤلاءِ جميعًا أرادوا الحياةَ الدُّنيا وزينتَها ولم يَكُنْ هَمٌّ في رِضىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا وطلبِ الآخرةِ من أصلِه بذلكَ العملِ الَّذي عمِلُوه.

هنا إشكالٌ أورَدَه بعضُ أهلِ العلمِ: وهو أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قالَ في الآيةِ الَّتي تَليها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وأنَّ هٰذهِ في الكُفَّارِ الأصليِّينَ أو في مَن قامَ به مُكفِّرٌ، أمَّا المُسلمُ الَّذي قامَتْ به أرادَ الدُّنيا فإنَّه لا يدخُلُ في هٰذهِ الآيةِ؟

والجوابُ: أنَّه يدخلُ لأنَّ السَّلفَ أدخلوا أصنافًا من المُسلمينَ في هٰذهِ الآيةِ، والوَعيدُ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ فيمَنْ كانَتْ إرادَتُه الحياةَ الدُّنيا فلَمْ يتقرَّبْ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا بشيءٍ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ فهؤلاءِ أرادوا الدُّنيا بكُلِّ عملٍ وليسَ مَعهم من الإيمانِ والإسلامِ مُصحِّحٌ لأصلِ أعمالِهم، فهؤلاءِ مُخلَّدونَ في النَّارِ، أمَّا الَّذي معه أصلُ الإيمانِ وأصلُ الإسلامِ الَّذي يصحُّ به عملُه فهٰذا قد يَحبَطُ العملُ؛ بل يَحبَطُ عملُه

الَّذي أشركَ فيه وأرادَ به الدُّنيا، وما عداه لا يَحبَطُ لأنَّ معه أصلُ الإيمانِ الَّذي يُصحِّحُ العملَ الَّذي لم يُخالِطْه شركٌ.

فإذن فهٰذه الآيةُ فيها الوَعيدُ، وهٰذا الوَعيدُ يشمَلُ كما ذَكرنا أربعةَ أصنافٍ، وكما قالَ أهلُ العلـمِ: إنَّ العبرةَ هنا باللَّفظِ لا بِخُصوصِ السَّببِ، فهي وإنْ كانَتْ في الكُفَّارِ لكنَّ لفظَها يَشملُ من أرادَ الحياةَ الـدُّنيا مِن غَيرِ الكُفَّارِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ...) إلىٰ آخرِ الحديثِ، وجهُ الشَّاهِدِ من ذلكَ أنَّه دعا علىٰ عبدِ الدِّينارِ وعلىٰ عبدِ الدِّرهَمِ وعلىٰ عبدِ الخَميصَةِ، وعبدُ الدِّينارِ هو الَّذي يعمَلُ العملَ لأجلِ الدِّينارِ، ولولا الدِّينارُ لما تَحرَّكتْ همَّتُه في العملِ، ولولا هٰذه الخَميصةُ لما تحرَّكتْ همَّتُه في العملِ، فأرادَ العملَ وعمِلَ العمل لأجلِ هٰذا الدِّينارِ، لأجلِ هٰذه الدُّنيا، لأجلِ الدَّراهمِ، لأجلِ الجاهِ، لأجلِ المَكانَةِ، لأجلِ الخَميصَةِ الخَميلَةِ ونحوِ ذلكَ، وقد سمَّاهُ النَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عابدًا للدِّينارِ، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّه مِن الشِّركِ؛ لأنَّ العُبودِيَّةَ درجاتٌ مِنها عُبوديَّةُ الشِّركِ الأصغرِ ومِنها عُبوديَّةُ الشِّركِ الأكبرِ.

فالَّذي يُشرِكُ بغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا الشِّركَ الأكبرَ وعابدٌ له أهلُ الأوثـانِ عَبـدةُ الأوثـانِ، وأهـلُ الصَّـليبِ عَبدةٌ للصَّليبِ.

وكذلكَ مَن يعمَلُ الشِّركَ الأصغرَ ويتعلَّقُ قلبُه بشيءٍ مِن الدُّنيا فهو عابدٌ لذلكَ، يُقالُ: عبَدَ هٰذا الشَّيءَ؛ لأنَّهُ هو الَّذي حرَّكَ همَّتَه، ومَعلومٌ أنَّ العبدَ مُطيعٌ لسَيِّدِه، مُطيعٌ له أينَما وَجَّهَه توجَّهَ، فهٰذا الَّذي حرَكَتُه وهِمَّتُه للدُّنيا وللدِّينارِ وللدِّرهَمِ عبدٌ لها؛ لأنَّ همَّتَه مُعلَّقةٌ بتلكَ الأشياءِ، وإذا وَجدَ لها سبيلًا تحرَّكَ إليها، بدونِ النَّظرِ هل يُوافِقُ ذلكَ أمرَ الله جَلَّوَعَلَا أم لا يُوافِقُ أمرَ الله جَلَّوَعَلَا وشرعَه.



38 - بَابٌ

مَنْ أَطاعَ الْعُلَماءَ وَالأُمَراءَ في تَحْــرِيمِ ما أَحلَّ اللّٰهُ، أَوْ تَحْلِيلِ مَا حرَّمهُ؛ فَقَدِ اتَّخذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰه

[1] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!».

[2] وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللّٰهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النُّور]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ».

[3] عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هٰذه الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[التَّوبة]، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللّٰهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

(**بَابٌ مَنْ أَطاعَ الْعُلَماءَ وَالأُمَرَاءَ في تَحْــرِيمِ ما أَحلَّ اللّٰهُ، أَوْ تَحْلِيل مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰه**) هٰذا البابُ والأبوابُ بعدَه في بيانِ مُقتَضياتِ التَّوحيدِ ولَوازمِ تحقيقِ شهادةِ ألَّا إلٰهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ شهادةَ ألَّا إلٰه إلَّا الله تقتَضِي وتَستَلْزِمُ أنْ يكونَ العبدُ مُطيعًا للهِ جَلَّ وَعَلَا فيما أحلَّ وفيما حرَّمَ؛ مُحِلًّا للحلالِ ومُحرِّمًا للحرامِ، لا يتحاكمُ إلَّا إليه جَلَّ وَعَلَا، ولا يُحَكِّم في الدِّينِ إلَّا شرعَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، والعلماءُ وظيفَتُهم تبيينُ معاني ما أنزلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا علىٰ رَسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست وظيفةُ العُلماءِ الَّتي أُذِنَ لهم بها في الشَّرعِ أنَّهم يُحلِّلُونَ ما يَشاؤونَ أو يُحرِّمونَ؛ بل وَظيفتُهم الاجتهادُ في فقهِ النُّصوصِ وأنْ يُبيِّنوا ما أحلَّ اللهُ وما حرَّمَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، فهم أدواتٌ ووسائلُ لفهمِ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّة، ولذلكَ طاعَتُهم تبعٌ لطاعةِ اللهِ ورسولِه، يُطاعون فيما فيه طاعةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا ولرَسولِه، وما كان في الأمورِ الاجتهاديَّةِ فيُطاعونَ؛ لأنَّهم هم أفقهُ بالنُّصوصِ مِن غيرِهم، فتكونُ طاعةُ العلماءِ والأُمراءِ من جهةِ الطَّاعةِ التَّبعيَّةِ للهِ ولرَسولِه.

أمَّا الطَّاعةُ الاستِقلاليَّة فليسَتْ إلَّا للهِ جَلَّ وَعَلَا، حتَّىٰ طاعةُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنَّما هي تبعٌ لطاعةِ الله جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ اللهَ هو الَّذي أذِنَ بطاعتِه وهو الَّذي أمرَ بطاعةِ رَسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهٰذا معنىٰ الشَّهادةِ

له بأنَّه رسولُ اللهِ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[النِّساء:80]، وقالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[النِّساء:64].

فإذن الطَّاعةُ الاستِقلاليَّةُ هٰذه مِن العبادةِ، وهي نوعُ من أنواعِ العبادةِ، فيجبُ إفرادُ اللهِ جَلَّوَعَلَا بها، وغيرُ الله جَلَّوَعَلَا فإنَّما يُطاعُ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أذِنَ بطاعتِه، ويُطاعُ فيما أذِنَ اللهُ به في طاعتِه، فالمَخلوقُ لا يُطاعُ في مَعصيَةِ الله؛ لأنَّ اللهَ لم يأذَنْ أن يُطاعَ مَخلوقٌ في مَعصيةِ الخالقِ جَلَّوَعَلَا، وإنَّما يُطاعُ فيما أَطاعَ اللهَ جَلَّوَعَلَا فيهِ علىٰ النَّحوِ الَّذي يأتي.

إذن هٰذا البابُ عقَدَه الشَّيخُ ليُبيِّنَ أنَّ الطَّاعةَ من أنواعِ العبادةِ؛ بل إنَّ الطَّاعةَ في التَّحليلِ وفي التَّحريمِ هٰذه هي مَعنىٰ اتِّخاذِ الأربابِ حيثُ قالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ وما سيأتي من بيانِ حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

قالَ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**بابٌ مَنْ أَطاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ**)، (**الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ**) هُم أولو الأمرِ في قولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النِّساء:59]، قالَ العلماءُ: أُولو الأمرِ يَشمَلُ مَن له الأمرُ في حياةِ النَّاسِ في دينِهم وهُم العلماءُ، وفي دُنياهم وهُم الأُمراءُ. وقد قالَ هنا جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ ولم يُكرِّرْ فعلَ الطَّاعةِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ وغيرُه: دلَّ هٰذا علىٰ أنَّ طاعةَ أُولي الأمرِ ليسَتْ استِقلالًا وإنَّما يُطاعونَ في طاعةِ اللهِ ورَسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإذا أُمِروا بمَعصيةٍ فإنَّه لا طاعةَ لمَخلوقٍ في مَعصيةِ الخالقِ. والأمورُ الاجتِهاديَّةُ الَّتي ليسَ فيها نصٌّ من الكتابِ والسُّنَّةِ فإنَّهم يُطاعونَ في ذلكَ لِمَا أذِنَ اللهُ به في ذلكَ ولِمَا في ذلكَ من المَصالحِ المَرعيَّةِ في الشَّرعِ.

إذن من أطاعَ العُلماءَ والأُمراءَ هنا ذكرَ هٰذا البابَ لأجلِ أنَّ الطَّاعةَ نوعٌ من أنواعِ العبادةِ، وهٰذهِ العبادةُ يجبُ أن يُفرَدَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بها، فمَن أطاعَ غيرَ اللهِ علىٰ هٰذا النَّحوِ الَّذي ذكَرَه الشَّيخُ فقد أشركَ الشِّركَ الأكبَرَ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

قال: (**مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ**) يعني في تحريمِ الَّذي أحلَّ اللهُ؛ فيكونُ هناكَ حلالٌ في الشَّرعِ فيُحرِّمونَه، يُحرِّمُه العالمُ أو يُحرِّمُه الأميرُ فيُطيعُه النَّاسُ وهم يَعلمون أنَّه حلالٌ؛ لكنْ يُطيعونَه في التَّحريمِ، والحلالُ؛ يعني: الَّذي أحلَّهُ اللهُ.

أحلَّ اللهُ أكلَ الخُبزِ فيَقولونَ: الخُبزُ حرامٌ عليكم دينًا، فلا تأكُلوا الخُبزَ تَديُّنًا، ويُحرِّمونَه لأجلِ

ذلكَ، فهٰذا طاعةٌ لهم في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ.

قال: (**أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا**)، (**أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ**)؛ يعني: أحلُّوا ما يُعلَمُ أنَّ اللهَ حرَّمَه، حرَّمَ اللهُ الخمرَ فأحلَّه العُلماءُ أو أحلَّه الأُمراءُ، فمن أطاعَ عالِمًا أو أميرًا في اعتقادِ أنَّ الخمرَ حلالٌ وهو يَعلمُ أنَّها حرامٌ وأنَّ اللهَ حرَّمها فقد اتَّخذَه ربًّا مِن دونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

إذن هنا في هٰذا البابِ حكمٌ، وهناك شرطٌ:

فالحُكمُ قولُه في آخرِه: (**فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا**) فهو جزاءُ الشَّرطِ.

والشَّرطُ قولُه: (**مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ**).

وضابطُ هٰذا الشَّرطِ ما بيَّنهما وهو قولُه: (**فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ ، أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ**) وهٰذا يُستَفادُ مِنه -يعني: من اللَّفظِ- أنَّهم عالِمون بما أحلَّ فحرَّموا طاعةً، عالِمون بما حرَّمَ فأحلُّوه طاعةً لأولئكَ.

وقولُه في آخرِه: (**فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا**) ذلكَ لأجلِ آيةِ سورةِ براءةَ قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وحديثِ عديِّ بنِ حاتمٍ في ذلكَ.

والأربابُ جمعُ الرَّبِّ، والرَّبُّ والإلٰهُ لفظان يَفترِقانِ؛ لأنَّ:

الرَّبَّ: **السَّيِّدُ المَلِكُ المُتصرِّفُ في الأمرِ**.

والإلٰهَ: هو المَعبودُ.

وقد سُئلَ المُصنِّفُ الإمامُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفرقِ بين الإلٰهِ والرَّبِّ في مثلِ هٰذه السِّياقاتِ في نحوِ قولِه: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[آل عمران]، وفي نحوِ قولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: ما مَعنىٰ الرُّبوبيَّةِ هنا؟

قال: الرُّبوبيَّةُ هنا بمَعنىٰ الأُلوهيَّةِ، بمعنىٰ المَعبودِ؛ لأنَّ من أطاعَ علىٰ ذلكَ النَّحوِ فقدْ عبدَ، لقولِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعديٍّ عندَما قال: إنَّا لسنا نعبدُهم. فعَدِيٌّ فهِمَ من كلمةِ ﴿أَرۡبَابٗا﴾ العبادةَ، وقال النَّبيُّ مُقرِّرًا لذلكَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ...**»إلىٰ آخرِه، فهوَ إقرارٌ مِنه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ مَعنىٰ الرُّبوبيَّةِ هنا العُبوديَّةُ.

فإذن قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سُئلَ: الألوهيَّةُ والرُّبوبيَّةُ أو كلمة الرَّبِّ والإلٰهِ من الألفاظِ الَّتي إذا

اجتَمَعَتْ افترقَتْ وإذا افترقَتْ اجتَمَعَتْ؛(1) يعني كلَفظِ الفَقيرِ والمِسكينِ وكلَفظِ الإسلامِ والإيمانِ وكنَحوِهما، لِمَ؟ لأنَّ الإلهَ يُطلَقُ علىٰ المَعبودِ، والرَّبُّ جاءَ في نصوصٍ كثيرةٍ إطلاقُ الرَّبِّ علىٰ المَعبودِ، كما ذكرنا في الآياتِ وفي الحديثِ، وكقولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مسائلِ القبرِ: «**فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَسْأَلَانَهِ مَنْ رَبُّكَ؟**» يعني من مَعبودُكَ؛ لأنَّ الابتلاءَ لم يقَعْ في الرَّبِّ الَّذي هو الخالقُ الرَّازقُ المُحيِي المُميتُ.

فإذن لفظُ الأربابِ والآلهةِ إذا اجتَمَعَتْ افترَقَتْ وإذا افترَقَتْ اجتَمَعتْ، فقد يُطلَقُ علىٰ الأربابِ آلهةٌ، علىٰ الآلهةِ أربابٌ، وهل هٰذا الإطلاقُ لأجلِ اللُّغةِ -يعني أنَّ أصلَه في اللُّغةِ يدخُلُ هٰذا في هٰذا وهٰذا في ذاك-؟ أم أنَّه لأجلِ اللُّزومِ والتَّضمُّنِ؟

الظَّاهِرُ -عندي- الأخيرُ: يعني أنَّه لأجلِ اللُّزومِ والتَّضمُّنِ فإنَّ الرُّبوبيَّةَ مُستَلزِمةٌ للأُلوهيَّةِ، والأُلوهيَّةُ مُتضمِّنةٌ للرُّبوبيَّةِ، فإذا ذُكرَ الإلهُ فقد تضمَّنَ ذلك ذِكرَ الرَّبِّ، وإذا ذُكرَ الرَّبُّ فاستلزَمَ ذلكَ ذِكرَ الإلهِ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا هنا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران:80] يعني آلهةً لاستلزامِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ للإلهيَّةِ، وكذلكَ قولُه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ يعني آلهةً مَعبودينَ كما أتىٰ تفصيلُه في الحديثِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!».) هٰذا الحديثُ رواهُ الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ، وإسنادُه عن عبدِ الرَّزَّاقِ عن مَعمرٍ عن طاوسَ عن ابنِ عبَّاسٍ أو نحوُ ذلكَ، وقد ذكرَ إسنادَه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في مَوضعٍ مِن «الفَتاوىٰ» بنصِّه فذكر الإسنادَ والمتنَ،(2) وغالبُ من خرَّجوا «كتابَ

---

(1) فاعلم أنَّ الرُّبوبيَّةَ، والألوهيَّةَ: يجتَمِعانِ، ويَفترقانِ، كما في قولِه: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾[النَّاس] وكما يُقالُ ربُّ العالمينَ، وإلهُ المُرسلينَ؛ وعند الإفرادِ: يَجتمعانِ، كما في قولِ القائلِ: من ربُّكَ؟ مثالُه: الفقيرُ والمِسكينُ، نوعانِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[التَّوبة:60]، ونوعٌ واحدٌ في قولِه: «**افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ إِلَى فُقَرَائِهِمْ**» إذا ثبتَ هذا، فقولُ المَلَكَين للرَّجلِ في القبرِ: من ربُّكَ؟ معناهُ من إلهُك؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ الَّتي أقرَّ بها المُشركونَ، ما يُمتحنُ أحدٌ بها، وكذلك قولُه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[الحجُّ:40]، وقولُه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الأنعام:164] وقولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:30]. فالرُّبوبيَّة في هذا، هي: الألوهيَّة، ليست قَسيمةً لها، كما تكونُ قسيمةً لها عندَ الاقترانِ؛ فينبَغي: التَّفطُّن لهذهِ المَسألةِ. «الدُّررُ السَّنيَّةُ» (ج1 ص106-107).

(2) قال أحمدُ: أخبرَنا عبدُ الرَّزَّاقِ حدَّثنا معمَرٌ عن الزُّهريِّ عن سالمٍ قالَ سُئلَ ابنُ عمرَ عن مُتعةِ الحجِّ فأمرَ بها فقيلَ له إنَّك =

التَّوحيدِ» قالوا: إنَّ هٰذا الأثرَ لا أصلَ له بهٰذا اللَّفظِ، وهٰذه جَراءةٌ مِنهم حيثُ إنَّهم ظنُّوا أنَّ كلَّ كتبِ الحديثِ بين أيديهم، ولو تتبَّعوا كتبَ أهلِ العلمِ لوجدوا أنَّ إسنادَه والحُكمَ عليه مَوجودٌ في كُتبِهم.

المَقصودُ ما اشتملَ عليه هٰذا الأثرُ، وهو قولُه: (يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!) الواجبُ علىٰ المُسلمِ أنَّه إذا سمعَ حديثًا عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلم فِقهَه أو بيَّنَه له أهلُ العلمِ فإنَّه لا يتركُ ذلكَ الحديثَ والَّذي فِقهَه لقولِ أحدٍ كائنًا من كانَ، إذا كان الحديثُ ظاهرًا في الدِّلالةِ علىٰ ذلكَ، وكانَ القولُ الآخرُ لا دليلَ عليه، أمَّا إذا كانت المَسألةُ اجتهاديَّةً في الحديثِ من جهةِ الفَهمِ، فهٰذا مَجالُه واسعٌ.

وابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُحمَلُ كلامُه هٰذا علىٰ أنَّ هؤلاء الَّذينَ قالوا له تلكَ المَقالةَ، قالوا له: قالَ أبو بكرٍ وعمرُ. عارَضوا قولَه في المُتعَةِ بقولِ أبي بكرٍ وعُمرَ الَّذي هو مُناقضٌ لصريحِ قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَعلومٌ أنَّ أبا بكرٍ وعُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كانا يذهبان إلىٰ أنَّ إفرادَ الحجِّ أفضلُ من التَّمتُّعِ، وابنُ عبَّاسٍ كان يوجبُ التَّمتُّعَ ويسوقُ الأدلَّة في ذلكَ، وقولُ أبي بكرٍ وعُمرَ أخذَ به طائفةٌ من أهلِ العلمِ كمالكٍ وغيرِه؛ بل قال طائفةٌ: إنَّ إفرادَه الحجَّ وسفرَه مرَّةً أُخرىٰ للعُمرةِ خيرٌ له من أن يَجمعَ بين حجٍّ وعُمرةٍ في سفرةٍ واحدةٍ كما هو اختيارُ شيخِ الإسلامِ واختيارُ غيرِه من المُحقِّقينَ.

المَقصودُ من ذلكَ أنَّ كلامَ ابنِ عبَّاسٍ هٰذا ليسَ في المَسألةِ الفِقهيَّةِ؛ يعني: فقهُ كلامِ ابنِ عبَّاسٍ فيما أرادَه الشَّيخُ ليسَ فيما يتعلَّقُ بمسألةِ التَّمتُّعِ والإفرادِ؛ ولكنْ في مَسألةِ عُمومِ لفظِه وهو أنَّه لا يُعارَضُ قولُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الظَّاهرُ مَعناهُ بقولِ أحدٍ لا دليلَ له علىٰ قولِه ولو كان ذلكَ القائلُ أبا بكرٍ وعُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فكيفَ بمن دونَهما من التَّابعينَ أو من الصَّحابةِ، فكيف بأئمَّةِ أهل المَذاهبِ وأصحابِ أهلِ المذاهبِ رَحِمَهُمُ اللهُ تعالىٰ، واحترامُ العلماءِ وأهلِ المذاهبِ واجبٌ؛ لكنْ أجمعَ أهلُ العلمِ علىٰ أنَّ من استَبانَتْ له سنَّةٌ من سُننِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يترُكَها لقولِ أحدٍ كائنًا من كانَ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ

تُخالِفُ أباكَ فقالَ: عُمرُ لم يقلِ الَّذي تقولون إنَّما قالَ عمرُ: إفرادُ الحجِّ من العُمرةِ فإنَّها أتمُّ للعُمرةِ أو أنَّ العُمرةَ لا تتمُّ في أشهرِ الحجِّ إلَّا أنْ يُهديَ وأرادَ أن يُزارَ البيتُ في غيرِ أشهرِ الحجِّ فجعلتمُوها أنتُم حرامًا وعاقبتُم النَّاسَ عليها وقد أحلَّها اللهُ وعملَ بها رسولُ الله ﷺ، فإذا أكثروا عليهِ قال: أفكتابُ الله أحقُّ أن تتَّبعوا أم عمرُ؟! ! وكان ابنُ عبَّاسٍ يأمرُ بها فيقولون: إنَّ أبا بكرٍ وعمرَ لم يَفعلاها فيقولُ: يوشكُ أن تنزلَ عليكُم حجارةٌ من السَّماءِ أقولُ لكم: قال النَّبيُّ ﷺ وتقولونَ: قال أبو بكرٍ وعُمرُ [ابنُ تيميَّةَ، «مَجموعةُ الفتاوىٰ»، دارُ الجيلِ، ط 1، 1418هـ-1997م، (م13/ ج26/ ص31)]

رَأْيِ سُفْيَانَ) سفيانُ بن سعيدِ بن مَسروقٍ الثَّوريُّ أحدُ العلماءِ المَعروفين وكانَ له مَذهبٌ وكان له أتباعٌ، قالَ الإمامُ أحمدُ: (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ) يعني في ذلكَ الحديثِ الَّذي تنازعوا فيه، ويَذهبون إلىٰ رأيِ سُفيانَ، فقولُه: (يَذْهَبُونَ إِلَىٰ رَأْيِ سُفْيَانَ) يدلُّ علىٰ أنَّ سفيانَ لم يكن له مُستندٌ علىٰ ما ذهبَ إليه، وهو عالمٌ من العلماءِ وأحدُ الزُّهَّادِ الصَّالحينَ المَشهورينَ؛ ولكن قد تَخفاهُ السُّنَّةُ فيكونُ حكمَ برأيِه أو بتقعيدٍ عندَه، لكنَّ السُّنَّةَ جاءت بخلافِ ذلكَ، فلا يسوغُ أن يُجعلَ رأيُ سفيانَ في مُقابلِ الحديثِ النَّبويِّ علىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النُّور]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْض قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ») إذا رَدَّ بعضَ قولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِ أحدٍ يُخشىٰ عليه أن يُعاقَبَ فيقعَ في قلبِه الزَّيغُ، قال اللهُ جَلَّ وَعَلَا عن اليَهودِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصَّفُّ:5]، فهم زاغوا بمَحضِ إرادتِهم واختيارِهم مع بيانِ الحُججِ وظُهورِ الدَّلائلِ والبَراهينِ، لكن لمَّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم عُقوبةً مِنه لهم علىٰ ذلكَ، وهٰذا معنىٰ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني نوعُ شركٍ، وقد يصلُ ذلكَ إلىٰ الشِّركِ الأكبرِ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، إذا كان في تحليلِ الحرامِ مع العِلمِ بأنَّه حرامٌ، وتحريمِ الحلالِ مع العِلمِ بأنَّه حلالٌ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هٰذه الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[التَّوبة:31] الآيَة، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ) فيه أنَّهم فهِم من معنىٰ قولِه: ﴿أَرْبَابًا﴾ أنَّه معناهُ المَعبودينَ، (قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ) هٰذا الحديثُ فيه بيانُ أنَّ طاعةَ الأحبارِ والرُّهبانِ قد تصلُ إلىٰ الشِّركِ الأكبرِ واتِّخاذِ أولئكَ أربابًا ومَعبودينَ.

والأحبارُ: هم العلماءُ. **والرُّهبانُ**: هم العُبَّادُ.

وطاعةُ الأحبارِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ علىٰ دَرجتَينِ:

الدَّرجةُ الأولىٰ: أن يُطيعَ العُلماءَ أو الأُمراءَ في تبديلِ الدِّينِ؛ يعني: في جعلِ الحرامِ حلالًا وفي جعلِ الحلالِ حرامًا، فيُطيعُهم في تبديلِ الدِّينِ وهو يعلمُ أنَّ الحرامَ قد حرَّمَه اللهُ؛ ولكنْ أطاعَهم تعظيمًا لهُم،

فحلَّلَ ما أحلُّوهُ طاعةً لهم وتعظيمًا وهو يَعلمُ أنَّه حرامٌ، حلَّلَ يعني اعتقدَ أنَّه حلالٌ وأمضىٰ أنَّه حلالٌ وهو حرامٌ في نفسِه، أو حرَّمَ تبعًا لتَحريمِهم وهو يعلمُ أنَّ ما حرَّموه من الحلالِ أنَّه غلطٌ وأنَّ الحلالَ حلالٌ؛ ولكنَّه حرَّمَ تبعًا لتَحريمِهم، هٰذا يكونُ قد أطاعَ العُلماءَ أو الأُمراءَ في تبديلِ أصلِ الدِّينِ، فهٰذا هو الَّذي اتَّخذَهم أربابًا، وهو الكُفرُ الأكبرُ والشِّركُ الأكبرُ بالله جَلَّوَعَلَا، وهٰذا هو الَّذي صرفَ عبادةَ الطَّاعةِ إلىٰ غيرِ اللهِ، ولهٰذا قال الشَّيخُ سُليمانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحِه لـ«كتابِ التَّوحيدِ» قال: **الطَّاعةُ هنا في هٰذا البابِ المُرادُ بها طاعةٌ خاصَّةٌ وهي الطَّاعةُ في تحليلِ الحرامِ أو تحريم الحلالِ**. وهٰذا ظاهرٌ.

<u>**الدَّرجةُ الثَّانيةُ**</u>: أن يُطيعَ الحبْرَ أو يُطيعَ الأميرَ أو يُطيعَ الرُّهبانَ في تحريمِ الحلالِ أو في تحليلِ الحرامِ من جهةِ العملِ، أطاعَ، وهو يَعلَمُ أنَّه عاصٍ بذلكَ ومُعترِفٌ بالمَعصيَةِ؛ لكن اتَّبَعَهم عملًا وقلبُه لم يجعلِ الحلالَ حرامًا، وقلبُه لم يجعلْ طاعةَ أولئكَ في قلبِهم الحلالَ حرامًا مُتعيِّنًا أو سائغًا؛ ولكن أطاعَهم حُبًّا له في المَعصيةِ أو حُبًّا له في مُجاراتِهم؛ ولكنْ في داخلِه الحلالُ هو الحلالُ والحرامُ هو الحرامُ فما بدَّلَ الدِّينَ، قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هٰذا له حكمُ أمثالِه من أهلِ الذُّنوبِ.

وهاتان الدَّرجتانِ هما من كلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ علىٰ هٰذهِ الآيةِ، هٰذا وأمثالُه له حكمُ أمثالِه من أهلِ الذُّنوبِ والعِصيانِ؛ لأنَّه ما حرَّمَ الحلالَ ولا أحلَّ الحرامَ وإنَّما فعلَ الحرامَ من جهةِ العِصيانِ، وجعلَ الحلالَ حرامًا من جهةِ العِصيانِ لا من جهةِ تبديلِ أصلِ الدِّينِ.

والرُّهبانُ عِبادتُهم هي عبادةُ العُبَّادِ، ويُريدُ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكرِ الرُّهبانِ وبإيرادِه للآيةِ التَّنبيهَ علىٰ أنَّ الطَّاعةَ في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ جاءت أيضًا من جهةِ الرُّهبانِ -من جهةِ العُبَّادِ-، وهٰذا عند المُتَصوِّفَةِ والطُّرُقِ الصُّوفيَّةِ وأهلِ الغُلوِّ في التَّصوُّفِ والغُلاةِ في تعظيمِ رُؤساءِ الصُّوفيَّةِ؛ فإنَّهم أطاعوا مَشايِخَهم والعُبَّادَ والأولياءَ الَّذين زعموا أنَّهم أولياءُ أطاعوهم في تغييرِ المِلَّةِ، فهم يَعلَمونَ أنَّ السُّنَّةَ هي كذا وكذا وأنَّ خلافَها بدعةٌ، يعلمون ذلكَ، فأطاعوا تَعظيمًا للشَّيخِ تعظيمًا للعابدِ، أو يَعلَمونَ أنَّ هذا شِركٌ في القرآنِ والدَّلائلُ عليه ظاهرةٌ؛ لكنْ تركوه وأباحوا ذلكَ الشِّركَ وأحلُّوه؛ لأنَّ شيخَهم ومُقدَّمَهم ورئيسَ طَريقَتِهم أحلَّه، وهٰذا كان في نجدٍ كثيرًا إبَّانَ ظُهورِ الشَّيخِ بدَعوَتِه، وهو مَوجودٌ في كثيرٍ من الأمصارِ، وهو نوعٌ من اتِّخاذِ أولئكَ العُبَّادِ أربابًا من دونِ الله جَلَّوَعَلَا.

وهٰذا المَقامُ أيضًا فيه تَفصيلٌ علىٰ نحوِ الدَّرجتَينِ اللَّتينِ ذكرتُهما عن شيخِ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

۞

39- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النِّساء].

[2] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[البقرة].

[3] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف].

[4] وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[المائدة].

[5] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي «كِتَابِ الْحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

[6] وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ؛ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ [أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ]﴾[النساء:60] الآيَةَ.

[7] وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَىٰ عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

هٰذا البابُ من الأبوابِ العظيمةِ المُهمَّةِ في هٰذا الكتابِ؛ وذلكَ لأنَّ إفرادَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بالوَحدانيَّةِ في رُبوبيَّتِه وفي إلٰهيَّتِه يتضمَّنُ ويَقتَضي ويَستلزِمُ -جميعا- أن يُفرَدَ بالحُكمِ، كما أنَّه جَلَّ وَعَلَا لا حُكمَ إلَّا حُكمُه في مَلَكوتِه، فكذلكَ يجبُ أن يكونَ لا حُكمَ إلَّا حُكمُه فيما يتخاصَمُ فيه النَّاسُ وفي الفصلِ بين النَّاسِ، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا هو الحَكمُ وإليه الحُكمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

[غافر:12]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(1)، فتوحيدُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في الطَّاعةِ وتحقيقُ شهادةِ ألَّا إله إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله لا يكونُ إلَّا بأنْ يكونَ العِبَادُ مُحكِّمينَ لما أنزلَ الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ رَسولِه، وتركُ تحكيمِ ما أنزلَ اللهُ علىٰ رَسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحُكمِ الجاهليَّةِ؛ بحُكمِ القَوانينِ أو بحُكمِ سواليفِ الباديةِ أو بكُلِّ حُكمٍ مُخالفٍ لحُكمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، هٰذا من الكُفرِ الأكبرِ بالله جَلَّ جَلَالُهُ وممَّا يُناقِضُ كلمةَ التَّوحيدِ أشهد ألَّا إله إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ.

لهٰذا عقدَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا البابَ ليبيِّن أنَّ الحكمَ بما أنزلَ اللهُ فرضٌ، وأنَّ تركَ الحُكمِ بما أنزل اللهُ وتَحكيمَ غيرِ ما أنزلَ اللهُ في شؤونِ المُتخاصمينَ وتَنزيلَ ذلكَ منزلةَ القرآنِ أنَّ ذلكَ شركٌ أكبرُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا وكُفرٌ مُخرِجٌ من ملَّةِ الإسلامِ.

قال الإمامُ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ إبراهيمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوَّلِ رسالتِه «تحكيمُ القوانينُ»: إنَّ من الكُفرِ الأكبرِ المُستبينِ تنزيلَ القانونِ العينِ منزلةَ ما نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ علىٰ قلبِ سيِّدِ المُرسَلينَ ليكونَ حَكمًا بينَ العالمينَ مُناقضَةً ومُحادَّةً لما نزلَ من ربِّ العالمينَ. أو نحوُ ما قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

فلا شكَّ أنَّ إفرادَ اللهِ بالطَّاعةِ، وإفرادَ اللهِ بالحُكمِ، وتحقيقَ شهادةِ ألَّا إلٰه إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ يقتضي ألَّا يُحكَمَ إلَّا بشرعِه.

فلهٰذا الحُكمُ بالقَوانينِ الوَضعيَّةِ أو الحُكمُ بسواليفِ الباديةِ هٰذا كلُّه من الكُفرِ الأكبرِ بالله جَلَّ وَعَلَا، وتحكيمُ القَوانينِ كُفرٌ بالله جَلَّ وَعَلَا لقولِه تعالىٰ هنا في هٰذه الآيةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

فإذن مُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ وهي أنَّ التَّحاكُمَ إلىٰ غيرِ شرعِ الله هٰذا قدحٌ في أصلِ التَّوحيدِ، وأنَّ الحُكمَ بشرعِ الله واجبٌ وأنَّ تحكيمَ القَوانينِ أو سواليفِ الباديةِ أو أمورِ الجاهليَّةِ هٰذا مُنافٍ لشهادةِ ألَّا إله إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، فإنَّ من مُقتَضياتِ شهادةِ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله أنْ يُطاعَ فيما أمرَ وأنْ يُصدَّقَ فيما أخبرَ وأنْ يُجتنَبَ ما عنه نَهىٰ وزجرَ وألَّا يُعبَدَ اللهُ إلَّا بما شرعَ.

فالحُكمُ بين المُتخاصِمين هٰذا لابدَّ أنْ يُرجَعَ فيه إلىٰ حُكمِ من خلقَ المُتخاصمينَ ومن خلقَ الأرضَ والسَّمٰوَاتِ، فالحُكمُ الكَونيُّ القَدريُّ للهِ جَلَّ وَعَلَا، كذلكَ الحُكمُ الشَّرعيُّ للهِ جَلَّ وَعَلَا، فيجبُ أن يكونَ العبادُ ليسَ بينَهم إلَّا تحكيمُ أمرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ إذْ ذلكَ هو حقيقةُ التَّوحيدِ في طاعةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في

(1) الأنعام:57، يوسف:40، 67.

مسائلِ التَّخاصُمِ بين الخلقِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾)، قولُه: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّهم كَذَبَةٌ، فلا يجتمعُ الإيمانُ مع إرادةِ الحُكمِ والتَّحاكُمِ إلىٰ الطَّاغوتِ، قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، وقولُه: ﴿يُرِيدُونَ﴾ هٰذا ضابطٌ مُهمٌّ وشرطٌ في نفيِ أصلِ الإيمانِ عمَّنْ حاكمَ إلىٰ الطَّاغوتِ:

- فإنَّ من تحاكمَ إلىٰ الطَّاغوتِ قد يكونُ بإرادَتِه وهي الطَّواعيَّةُ والاختيارُ والرَّغبةُ في ذلك وعدمُ الكراهةِ.
- وقد يكون بعدمِ إرادتِه، بأنْ يَكونَ مُجبرًا علىٰ ذلكَ وليسَ له في ذلكَ اختيارٌ وهو كارهٌ لذلكَ.

فالأوَّلُ: هو الَّذي ينتفي عنه الإيمانُ، لا يجتمعُ الإيمانُ باللهِ وبما أنزلَ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أنزلَ من قبلِه مع إرادةِ التَّحاكُمِ إلىٰ الطَّاغوتِ، فالإرادةُ شرطٌ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا جعلَها في ذلكَ مَساقَ الشَّرطِ، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ و﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ هٰذا مَصدرٌ؛ يعني: يُريدونَ التَّحاكُمَ إلىٰ الطَّاغوتِ، **والطَّاغوتُ اسمٌ لكلِّ ما تجاوزَ به العبدُ حدَّه من مَتبوعٍ أو مَعبودٍ أو مُطاعٍ.**

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ يعني: أنْ يكفُروا بالطَّاغوتِ، أن يكفُروا بكلِّ تَحاكُمٍ إلىٰ غيرِ شرعِ الله جَلَّ وَعَلَا، فالأمرُ بالكُفرِ بالتَّحاكُمِ إلىٰ الطَّاغوتِ هٰذا أمرٌ واجبٌ ومن أفرادِ التَّوحيدِ ومن أفرادِ تعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في رُبوبيَّتِه، فمن تحاكمَ إلىٰ الطَّاغوتِ بإرادَتِه فهٰذا انتفىٰ عنهُ الإيمانُ أصلًا كما دلَّت عليه الآيةُ، قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ دلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ هٰذا مِن وَحيِ الشَّيطانِ ومِن تَسويلِه.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[البقرة].) الإفسادُ في الأرضِ بتحكيمِ غيرِ شرعِ اللهِ وبالإشراكِ باللهِ، فالأرضُ إصلاحُها بالشَّريعةِ وبالتَّوحيدِ، وإفسادُها بالشِّركِ بأنواعِه الَّذي مِنه الشِّركُ في الطَّاعةِ، ولهٰذا ساقَ الشَّيخُ هٰذه الآيةَ تحتَ هٰذا البابِ لأجلِ أن يُبيِّنَ لكَ أنَّ صلاحَ الأرضِ بالتَّوحيدِ الَّذي مِنه إفرادُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بالطَّاعةِ وألَّا يُحاكَمَ إلَّا إلىٰ شَرعِه، وأنَّ إفسادَ الأرضِ بالشِّركِ الَّذي مِنه أن يُجعَلَ حكمُ غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا جائزًا في التَّحاكُمِ إليه.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[الأعراف:56]) والآيةُ

الَّتي قبلَها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ظاهرةٌ في أنَّ من خصالِ المُنافِقينَ أنَّهم يَسعَوْنَ في الشِّركِ وفي وَسائلِه وأفرادِه، ويقولون: إنَّما نحنُ مُصلِحونَ، وفي الحقيقةِ أنَّهم هم المُفسِدونَ؛ ولكنْ لا يَشعُرون؛ لأنَّهم إذا أرادوا الشِّركَ ورَغبوا فيه وحاكَموا وتَحاكَموا إلىٰ غيرِ شرعِ اللهِ فإنَّ ذلكَ هو الفسادُ، والسَّعيُ فيه سعيٌ في الإفسادِ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة]) الجاهليَّةُ يحكمُ بعضُهم علىٰ بعضٍ؛ يعني البشرُ يسنُّ شريعةً فيجعلُها حاكِمةً، واللهُ جَلَّوَعَلَا هو الَّذي خلقَ العبادَ وهو أعلمُ بما يُصلِحُهم وما فيه العدلُ في الفصلِ بينَ تَخاصُماتِهم والفصلِ في أقضِيَتِهم وخُصوماتِهم، فمَن حاكمَ إلىٰ شرائعِ الجاهليَّةِ فقد حكَّم البشرَ؛ ومعنىٰ ذلكَ أنَّه اتَّخذَه مُطاعًا من دونِ اللهِ أو جعلَه شَريكًا للهِ جَلَّوَعَلَا في عبادةِ الطَّاعةِ، والواجبُ أنَّ العبدَ يجعلُ حُكمَه وتحاكُمَه إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا دونَ ما سِواهُ، واللهُ جَلَّوَعَلَا حكمُه هو أحسنُ الأحكامِ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:114]، وقالَ هناك ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾، فدلَّ علىٰ أنَّ حُكمَ غيرِه إنَّما هو كما قالَ طائِفةٌ: زبالةُ أذهانٍ ونحاتةُ أفكارٍ لا تُساوي شيئًا عندَ من عقلَ تصرُّفَ اللهِ جَلَّوَعَلَا في مُلكِه ومَلَكوتِه، وأنْ ليسَ ثمَّ حُكمٌ إلَّا حكمُ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

هٰذه المَسألةُ وهي مَسألةُ التَّحاكُمِ إلىٰ غيرِ شرعِ اللهِ من المَسائلِ الَّتي يَقعُ فيها خلطٌ كثيرٌ خاصَّةً عندَ الشَّبابِ؛ وذلكَ في هٰذه البلادِ وفي غيرِها، وهي من أسبابِ تفرُّقِ المُسلمينَ؛ لأنَّ نظرَ النَّاسِ فيها لم يَكُنْ واحدًا.

والواجبُ أن يتحرَّىٰ طالبُ العلمِ ما دلَّتْ عليه الأدلَّةُ وما بيَّن العلماءُ من مَعاني تلكَ الأدلَّةِ وما فقِهُوه من أصولِ الشَّرعِ والتَّوحيدِ وما بيَّنوه في تلكَ المَسائلِ.

ومن أوجُهِ الخَلطِ في ذلكَ أنَّهم جعلوا المَسألةَ في مَسألةِ الحُكمِ والتَّحاكُمِ واحدةً؛ يعني جَعلوها صورةً واحدةً، **وهي مُتعَدِّدةُ الصُّوَرِ:**

فمِن صُوَرِها أنْ يكونَ هناكَ تشريعٌ لتَقنينٍ مُستَقِلٍّ يُضاهىٰ به حُكمُ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ يعني قانونٌ مُستَقِلٌّ يُشرَّعُ، هٰذا التَّقنينُ من حيثُ وَضْعه كفرٌ، والواضعُ له -يعني: المُشرِّعُ، والسَّانُّ لذلكَ-، وجاعلُ هٰذا التَّشريعِ مَنسوبًا إليه وهو الَّذي حَكمَ بهٰذه الأحكامِ، هٰذا المُشرِّعُ كافرٌ، وكُفرُه ظاهرٌ؛ لأنَّه جعلَ نفسَه طاغوتًا فدعا النَّاسَ إلىٰ عبادتِه وهو راضٍ -عبادةُ الطَّاعةِ.

وهناك من يحكُمُ بهٰذا التَّقنينِ، هٰذه الحالةُ الثَّانيةُ.

- فالمُشرِّعُ حالةٌ.
- ومَن يَحكُمُ بذلكَ التَّشريعِ حالةٌ.
- ومَن يتحاكَمُ إليه حالةٌ.
- ومن يجعَلُه في بلدِه -من جهةِ الدُّولِ- هٰذه حالةٌ رابعةٌ.

وصارت عندَنا الأحوالُ أربعةً.

المُشرِّع ومن أطاعَه في جعلِ الحلالِ حرامًا والحرامِ حلالًا ومُناقضَةِ شرعِ اللهِ هٰذا كافرٌ، ومن أطاعَه في ذلكَ فقد اتَّخذَه ربًّا من دونِ اللهِ.

والحاكمُ بذلكَ التَّشريعِ فيه تفصيلٌ:

① فإنْ حكمَ مرَّةً أو مرَّتينِ أو أكثرَ من ذلكَ، ولم يكُنْ ذلكَ دَيْدَنًا له، وهو يعلمُ أنَّه عاصٍ؛ يعني: مِن جهةِ القاضي الَّذي حكمَ يعلَمُ أنَّه عاصٍ وحكمَ بغيرِ شرعِ اللهِ، فهٰذا له حكمُ أمثالِه من أهلِ الذُّنوبِ، ولا يُكفَّرُ حتَّىٰ يُستحَلَّ، ولهٰذا تجدُ أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقول: الحُكمُ بغيرِ شرعِ اللهِ لا يَكفُرُ به إلَّا إذا استُحِلَّ. فهٰذا صحيحٌ؛ ولكن لا تُنزَّلُ هٰذه الحالةُ علىٰ حالةِ التَّقنينِ والتَّشريعِ، فالحاكمُ كما قال ابنُ عبَّاسٍ: كُفرٌ دونَ كُفرٍ ليسَ الَّذي يذهبونَ إليه، هو كُفرٌ دونَ كُفرٍ؛ يعني من حَكمَ في مَسألةٍ، أو في مَسألتينِ بهَواهُ بغيرِ شرعِ اللهِ، وهو يعلمُ أنَّه عاصٍ ولم يستحِلَّ، هٰذا كُفرٌ دون كُفرٍ.

② أمَّا الحاكمُ الَّذي لا يَحكُمُ بشرعِ الله بَتاتًا، ويحكُمُ دائمًا ويُلزِمُ النَّاسَ بغيرِ شرعِ اللهِ، فهٰذا:

- من أهلِ العلمِ من قالَ يكفُرُ مُطلَقًا ككُفرِ الَّذي سنَّ القانونَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فجعلَ الَّذي يَحكُمُ بغيرِ شرعِ اللهِ مُطلَقًا جعلَه طاغوتًا، وقال: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.
- ومِنْ أهلِ العلمِ من قالَ: حتَّىٰ هٰذا النَّوعُ لا يَكفُرُ حتَّىٰ يُستحَلَّ؛ لأنَّه قد يعمَلُ ذلكَ ويَحكُمُ وهو في نفسِه عاصٍ، فله حكمُ أمثالِه من المُدمِنينَ علىٰ المَعصيةِ الَّذين لم يتوبوا مِنها.

والقولُ الأوَّلُ من أنَّ الَّذي يحكمُ دائمًا بغيرِ شرعِ اللهِ ويُلزِمُ النَّاسَ بغيرِ شرعِ اللهِ أنَّه كافرٌ هو الصَّحيحُ عندي، وهو قولُ الجدِّ الشَّيخ مُحمَّدِ بنِ إبراهيمَ رَحِمَهُٱللَّهُ في رسالةِ «تَحكيمِ القَوانينِ»؛ لأنَّه لا يصدُرُ في الواقعِ من قلبٍ قد كفرَ بالطَّاغوتِ؛ بل لا يصدُرُ إلَّا ممَّن عظَّمَ القانونَ وعظَّمَ الحُكمَ بالقانونِ.

الحالُ الثالثةُ حالُ المُتحاكِمِ، الحالةُ الأولىٰ -ذَكرنا- حالَ المُشرِّعِ، الحالُ الثَّانيةُ حالُ الحاكمِ.

③ الحالُ الثَّالثةُ حالُ المُتحاكِمِ؛ يعني: الَّذي يذهَبُ هو وخَصمُه ويتحاكَمونَ إلىٰ قانونٍ، فهٰذا فيه

تفصيلٌ أيضًا وهو:

◆ إنْ كان يُريدُ التَّحاكُمَ له رَغبةً في ذلكَ ويرىٰ أنَّ الحُكمَ بذلكَ سائغٌ وهو يريدُ أن يتحاكمَ إلىٰ الطَّاغوتِ ولا يكرهُ ذلكَ، فهٰذا كافرٌ أيضًا؛ لأنَّه داخلٌ في هٰذهِ الآيةِ، ولا يجتمعُ ذلكَ كما قال العلماءُ إرادةُ التَّحاكُمِ إلىٰ الطَّاغوتِ مع الإيمانِ باللهِ؛ بل هٰذا يَنفي هٰذا واللهُ جَلَّوَعَلَا قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾.

◆ الحالةُ الثَّانيةُ أنَّه لا يُريدُ التَّحاكُمَ؛ ولكنَّه حاكمَ إمَّا بإجبارِه علىٰ ذلكَ كما يحصلُ في البلادِ الأُخرىٰ أنَّه يُجبَرُ أن يَحضُرَ مع خصمِه إلىٰ قاضٍ يحكُمُ بالقانونِ، أو أنَّه علمَ أنَّ الحقَّ له بالشَّرعِ، فرَفعَ الأمرَ إلىٰ القاضي في القانونِ لعِلمِه أنَّه يُوافِقُ حُكمَ الشَّرعِ، فهٰذا الَّذي رفعَ أمرَه في الدَّعوةِ علىٰ خصمِه إلىٰ قاضٍ قانونيٍّ لعلمِه أنَّ الشَّرعَ يُعطيهِ حقَّهُ وأنَّ القانونَ وافقَ الشَّرعَ في ذلكَ:

- فهٰذا الأصحُّ أيضًا عندي أنَّه جائزٌ.
- وبعضُ أهلِ العلمِ يقول: يتركُه ولو كان الحقُّ له.

واللهُ جَلَّوَعَلَا وصفَ المُنافقينَ بقوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩﴾[النُّور]، فالَّذي يرىٰ أنَّ الحقَّ ثبتَ له في الشَّرعِ وما أجازَ لنفسِه أن يترافعَ إلىٰ غيرِ الشَّرعِ إلَّا لأنَّه يأتيه ما جعلَه اللهُ جَلَّوَعَلَا له مَشروعًا، فهٰذا لا يدخلُ في إرادةِ التَّحاكُمِ إلىٰ الطَّاغوتِ، فهو كارهٌ؛ ولكنَّه حاكمَ إلىٰ الشَّرعِ، فعَلِمَ أنَّ الشَّرعَ يحكُمُ له فجعلَ الحُكمَ الَّذي عندَ القانونيِّ جعلَه وسيلةً لإيصالِ الحقِّ الَّذي ثبتَ له شرعًا إليه.

هٰذه ثلاثُ أحوالٍ.

④ الحالُ الرَّابعةُ حالُ الدَّولةِ الَّتي تَحكُمُ بغيرِ الشَّرعِ؛ تحكُمُ بالقانونِ، الدُّولُ الَّتي تحكُمُ بالقانونِ أيضًا بحسبِ كلامِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ إبراهيمَ وتفصيلِ الكلامِ في هٰذه المَسألةِ في فتاويه قال: أو مُقتضىٰ كلامِه وحاصلُه: أنَّ الكُفرَ بالقانون فرضٌ، وأنَّ تحكيمَ القانونِ في الدُّوَلِ:

- إن كان خَفيًّا نادرًا فالأرضُ أرضُ إسلامٍ؛ يعني الدَّولةُ دولةُ إسلامٍ، فيكونُ له حكمُ أمثالِه من الشِّركيَّاتِ الَّتي تكونُ له في الأرضِ.
- قال: إنْ كان ظاهرًا فاشيًا فالدَّارُ دارُ كُفرٍ؛ يعني الدَّولةُ دولةُ كُفرٍ.

فيُصبِحُ الحُكمُ علىٰ الدَّولةِ راجعًا إلىٰ هٰذا التَّفصيلِ:

- إن كان تحكيمُ القانونِ قليلًا وخَفيًّا، فهٰذا له حكمُ أمثالِه من الدُّوَلِ الظَّالمةِ أو الَّتي لها ذنوبٌ وعِصيانٌ، وظهورُ أو وجودُ بعضِ الشِّركيَّاتِ في دولَتِها.

- وإن كان ظاهرًا فاشيًا -الظُّهورُ يُضادُّه الخفاءُ والفُشوُّ يُضادُّه القِلَّةُ- قال: فالدَّارُ دارُ كُفرٍ.

وهٰذا التَّفصيلُ هو الصَّحيحُ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّه في دُوَلِ الإسلامِ صارَ هناك تشريعاتٌ غيرُ مُوافِقَةٍ لشرعِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، والعلماءُ في الأزمِنَةِ الأُولىٰ ما حكموا علىٰ الدَّارِ بأنَّها دارُ كُفرٍ ولا علىٰ تلكَ الدُّوَلِ بأنَّها دُوَلٌ كُفريَّةٌ؛ ذلك لأنَّ الشِّركَ له أثرٌ علىٰ الدَّارِ -إذا قلنا: الدَّارُ يعني الدَّولَةُ- فمتىٰ كان ظاهرًا فاشيًا فالدَّولةُ دولةُ كُفرٍ، ومتىٰ كانَ قليلًا ظاهرًا ويُنكَرُ فالأرضُ أرضُ إسلامٍ والدَّارُ دارُ إسلامٍ، وبالتَّالي فالدَّولةُ دولةُ إسلامٍ.

وهٰذا التَّفصيلُ يتَّضحُ به هٰذا المَقامُ، وبه تجمعُ بين كلامِ العلماءِ، ولا تجدُ مُضادَّةً بين قولِ عالمٍ وعالمٍ، ولا تشتبهُ المَسألةُ إن شاء اللهُ تعالىٰ. [1]

وبقيَّة الباب واضحٌ في ضوء ما ذكرنا من التَّفصيل ونقف عند قوله: (**بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**)، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّد.



(1) وللمزيد من التوضيح انظر: شرح فتح المجيد للباب نفسه وهو مفرغ علىٰ الرابط: https://t.me/wwwattafreegh/2287

الدرس الرابع عشر

40- بَابٌ

مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَات

[1] وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرَّعد].

[2] وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»؛ قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

[3] وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ». انْتَهَىٰ.

[4] وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمٰنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ﴾.

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ اللهِ وآلِه وصَحبِه ومَن اهتدَىٰ بهُداه.

أمَّا بعدُ،

فهٰذا البابُ ترجمَ له إمامُ هٰذه الدَّعوةِ بقولِه: (**بَابٌ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**) يعني وما يلحَقُه من الذَّمِّ، وأنَّ جحدَ شَيءٍ من الأسماءِ والصِّفاتِ مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ ومن خِصالِ الكُفَّارِ والمُشركينَ.

وقد ذَكرنا لكم فيما سبقَ أنَّ توحيدَ الإلهيَّةِ عليه براهينُ، ومِن براهينِه توحيدُ المَعرفةِ والإثباتِ: وهو توحيدُ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، فمن أدلَّة توحيدِ الإلهيَّة توحيدُ الرُّبوبيَّة كما سبقَ أنْ مرَّ معنا في (**بَابٌ قَوْلُ اللهِ تعالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾**[الأعراف]).

وكذلك توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ بُرهانٌ علىٰ توحيدِ الإلهيَّةِ، ومن حصلَ عندَه ضلالٌ في توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، فإنَّ ذلكَ سيَتبعُه ضلالٌ في توحيدِ الإلهيَّةِ، ولهٰذا تجدُ أنَّ المُبتدِعةَ الَّذين أَلحَدوا في أسماءِ اللهِ وفي صفاتِه من هٰذه الأمَّة -من الجهميَّة والمُعتزلَةِ والرَّافِضَةِ والأشاعِرَةِ والمَاتُريديَّة ونحوِ هؤلاءِ- تجدُ أنَّهم لمَّا انحرَفوا في بابِ توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ لم يعلمُوا حقيقةَ مَعنىٰ توحيدِ الإلهيَّةِ؛

ففسَّروا الإلهَ بغيرِ مَعناهُ، وفسَّروا (لا إله إلَّا اللهُ) بغيرِ مَعناها الَّذي دلَّتْ عليه اللُّغَةُ ودلَّ عليه الشَّرعُ، وكذلكَ لم يعلموا مُتعلَّقاتِ الأسماءِ والصِّفاتِ وآثارَ الأسماءِ والصِّفاتِ في مُلكِ الله جَلَّوَعَلَا وسُلطانِه.

لهٰذا عقدَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا البابَ؛ لأجلِ أنْ يُبيِّنَ لك أنَّ تعظيمَ الأسماءِ والصِّفاتِ من كمالِ التَّوحيدِ، وأنَّ جحدَ الأسماءِ والصِّفاتِ مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ، فالَّذي يجحدُ اسمًا سمَّىٰ اللهُ به نفسَه أو سمَّاه به رسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وثبتَ ذلكَ عنه وتيَقَّنَهُ، فإنَّه يكونُ كافرًا باللهِ جَلَّوَعَلَا، كما قالَ سُبحانَه عن المُشركينَ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾.

والواجبُ علىٰ العبادِ -علىٰ أهلِ هٰذه المِلَّةِ- أن يُؤمِنوا بتوحيدِ الله جَلَّوَعَلَا في أسمائِهِ وصِفاتِه، ومَعنىٰ الإيمانِ بالتَّوحيدِ هٰذا -يعني بتوحيدِ اللهِ في أسمائِه وصِفاتِه- أن يتيقَّنَ ويُؤمنَ بأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا ليسَ له مثيلٌ في أسمائِه، وليسَ له مثيلٌ في صِفاتِه، كما قالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشُّورىٰ] فنفىٰ وأثبتَ، فنفىٰ أن يُماثِلَ اللهَ شيءٌ جَلَّوَعَلَا، وأثبتَ له صِفتَي السَّمعِ والبصرِ، قال العلماءُ: قدَّمَ النَّفيَ قبلَ الإثباتِ علىٰ القاعدَةِ العربيَّةِ المَعروفةِ أنَّ التَّخليَةِ تسبِقُ التَّحليَةَ حتَّىٰ ليتخلَّ القلبُ من كلِّ بَراثِنِ التَّمثيلِ ومن كلِّ ما كان يَعتقِدُه المُشركونَ الجاهلونَ من تشبيهِ اللهِ بخلقِه أو تشبيهِ خلقِ اللهِ به، فإذا خلا القلبُ من كلِّ ذلكَ من بَراثِنِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ أثبتَ ما يَستَحِقُّه اللهُ جَلَّوَعَلَا من الصِّفاتِ، فأثبتَ هنا صِفتين وهما السَّمعُ والبصرُ.

وسببُ ذِكرِ السَّمعِ والبصرِ هنا في مَقامِ الإثباتِ دونَ ذِكرِ غيرِ السَّمعِ والبصرِ من الصِّفاتِ أو دونَ ذِكرِ غيرِ اسمِ السَّميعِ والبَصيرِ من الأسماءِ؛ لأنَّ صِفتي السَّمعِ والبصرِ مُشتركَةٌ بينَ أكثرِ المَخلوقاتِ الحيَّةِ، وجُلِّ المَخلوقاتِ الحيَّةِ الَّتي حياتُها بالرُّوحِ بالنَّفسِ وليست حياتُها بالنَّماءِ فإنَّ السَّمعَ والبصرَ مَوجودٌ فيها جميعًا، فالإنسانُ له سمعٌ وبصرٌ، وسائرُ أصنافِ الحَيواناتِ كلٌّ له سمعٌ وبصرٌ، الذُّبابُ له سمعٌ وبصرٌ يُناسبُه، والبعيرُ له سمعٌ وبصرٌ يُناسبُه، وسائرُ الطُّيورِ، والسَّمكِ في الماءِ، والدَّوابُّ الصَّغيرةُ والحَشراتُ كلٌّ له سمعٌ وبصرٌ يُناسبُه.

ومِن المُتقرِّرِ عندَ كلِّ عاقلٍ أنَّ سمعَ هٰذه الحيواناتِ ليس مُتماثِلًا، وأنَّ بصرَها ليس مُتماثِلًا، وأنَّ سمعَ الحَيوانِ ليسَ مُماثِلًا لسمعِ الإنسانِ، فسمعُ الإنسانِ ربَّما كان أبلغَ وأعظمَ من سمعِ كثيرٍ مِن الحَيواناتِ، وكذلكَ البصرُ.

فإذا كان كذلكَ كانَ اشتراكُ المَخلوقاتِ الَّتي لها سمعٌ وبصرٌ في السَّمعِ والبصرِ اشتراكًا في أصلِ المَعنىٰ، ولكلٍّ سمعٌ وبصرٌ بما قُدِّرَ له وما يُناسبُ ذاتَه، فإذا كانَ كذلكَ ولم يَكُنْ وجودُ السَّمعِ والبصرِ

في الحَيوانِ وفي الإنسانِ مُقتَضيًا لتَشبيهِ الحَيوانِ بالإنسانِ، فكذلكَ إثباتُ السَّمعِ والبصرِ للمَلِكِ الحيِّ القَيُّوم ليسَ علىٰ وجهِ المُماثَلَةِ للسَّمعِ والبصرِ في الإنسانِ أو في المَخلوقاتِ.

فلِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا سمعٌ وبصرٌ يليقُ به، كما أنَّ للمَخلوقِ سمعٌ وبصرٌ يليقُ بذاتِه الحَقيرَةِ الوَضيعَةِ.

فسمعُ اللهِ كاملٌ مُطلَقٌ من جميعِ الوُجوهِ لا يَعتريه نقصٌ، وبصرُه كذلكَ، واسمُ اللهِ السَّميعُ هو الَّذي استغرقَ كلَّ الكمالِ من صِفةِ السَّمعِ، وكذلك اسمُ اللهِ البصيرُ هو الَّذي استغرَقَ كلَّ الكمالِ في صِفةِ البصرِ.

فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ النَّفيَ مُقدَّمٌ علىٰ الإثباتِ، والنَّفيُ يكونُ مُجمَلًا والإثباتُ يَكونُ مَفصَّلًا.

فالواجبُ علىٰ العبادِ أنْ يعلَموا أنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ مُتَّصفٌ بالأسماءِ الحُسنىٰ وبالصِّفاتِ العُلىٰ، وألَّا يَجحَدوا شيئًا من صِفاتِه، ومن جحدَ شيئًا من أسماءِ اللهِ وصِفاتِه فهو كافرٌ؛ لأنَّ ذلكَ صنيعُ الكُفَّارِ والمُشركينِ.

والإيمانُ بالأسماءِ والصِّفاتِ يُقوِّي اليَقينَ باللهِ، وهو سببٌ لِمَعرفةِ اللهِ والعلمِ به؛ بل إنَّ العلمَ باللهِ ومَعرفةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا تكونُ بمَعرفَةِ أسمائِه وصِفاتِه وبمَعرِفَةِ آثارِ الأسماءِ والصِّفاتِ في مَلَكوتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وهٰذا بابٌ عظيمٌ ربَّما يأتي له زيادةُ إيضاحٍ عندَ (**بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾**[الأعراف:180]).[1]

إذن تلخَّصَ هنا أنَّ قولَه: (**بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**) صلةُ ذلكَ بكتابِ التَّوحيدِ من جِهَتينِ:

الجِهةُ الأُولىٰ: أنَّ من بَراهينِ توحيدِ العِبادةِ توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ.

والثَّانيةُ: أنَّ جحدَ شيءٍ من الأسماءِ والصِّفاتِ شِركٌ وكُفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ إذا ثبتَ الاسمُ أو ثبتَتِ الصِّفةُ وعَلِمَ أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أثبتَها لنفسِه وأثبتَها له رسولُه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ جحدَها أصلًا -يعني نفاها أصلًا-، فإنَّ هٰذا كُفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ بالكتابِ وبالسُّنَّةِ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾**[الرَّعد:30] **الآيَةَ**)[2]، (الرَّحمٰن) من أسماءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، والمُشركونَ والكُفَّارُ في مكَّةَ قالوا لا نعلمُ (الرَّحمٰنَ) إلَّا رَحمانَ اليمامةِ، فكفروا

(1) البابُ (51).

(2) انتهىٰ الشَّريطُ الثَّاني عشرَ.

باسمِ اللهِ (الرَّحمٰن) وهٰذا كُفرٌ بنفسِه، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: باسمِ الله (الرَّحمٰنِ)، وهٰذا اسمٌ من أسماءِ الله الحُسنىٰ، وهو مُشتَمِلٌ علىٰ صفةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الرَّحْمٰنَ مُشتَقٌّ أو فيه صفةُ الرَّحمَةِ، ومَبنيٌّ علىٰ وجهِ المُبالَغةِ، فالرَّحْمٰنُ أبلغُ في اشتمالِه علىٰ صفةِ الرَّحمةِ من اسمِ الرَّحيمِ، ولهٰذا لم يَتسمَّ به علىٰ الحقيقةِ إلَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا، فهو من أسماءِ اللهِ العَظيمةِ الَّتي لا يَشرِكُهُ فيها أحدٌ، أمَّا الرَّحيمُ فقد أطلَقَ اللهُ جَلَّوَعَلَا علىٰ بعضِ عِبادِه بأنَّهم رُحماءُ وأنَّ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحيمٌ كما قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التَّوبة].

الاسمُ والصِّفةُ بينَهما ارتباطٌ من جهةِ أنَّ كلَّ اسمٍ لله جَلَّوَعَلَا مُشتَمِلٌ علىٰ صِفةٍ، أسماءُ الله ليست جامدةً -ليست مُشتَمِلَةٍ علىٰ مَعانٍ-؛ بل كلُّ اسمٍ مِن أسماءِ الله مُشتَمِلٌ علىٰ صِفةٍ، فالاسمُ من أسماءِ الله يدلُّ علىٰ مَجموعِ شيئينِ بالمُطابقةِ وهما الذَّاتُ والصِّفةُ الَّتي اشتملَ عليها الاسمُ، ويدلُّ علىٰ أحدِ هذين -الذَّاتِ أو الصِّفةِ- بالتَّضمُّنِ.

ولهٰذا نقولُ: كلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ مُتضَمِّنٌ لصِفةٍ من صِفاتِ اللهِ، ومُطابقَةُ الاسمِ لمَعناهُ؛ لأنَّه دالٌّ علىٰ كلٍّ مِن الذَّاتِ وعلىٰ الصِّفةِ، الذَّاتُ المُتَّصفةُ بالصِّفةِ، حتَّىٰ اسمُ (الله)؛ لفظُ الجلالةِ (الله) الَّذي هو عَلَمٌ علىٰ المَعبودِ بحقٍّ جَلَّوَعَلَا مُشتَقٌّ علىٰ الصَّحيحِ من قَولي أهلِ العلمِ مُشتَقٌّ؛ لأنَّ أصلَه الإلَهُ؛ ولكنْ أُطلِقَ اللهُ تَخفيفًا لكثرةِ دُعائِه ونِدائِه بذلكَ في أصلِ العربيَّةِ فهو مَأخوذٌ من الإلَهةِ وهي العبادةُ، الله هو المَعبودُ ليسَ اسمًا جامدًا؛ بلْ هوَ مُشتَقٌّ من ذلكَ.

وهكذا جميعُ الصِّفاتِ الَّتي تتضمَّنُها الأسماءُ كلُّها دالَّةٌ علىٰ كمالِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وعلىٰ عَظمَتِه.

فالعبدُ المُؤمنُ إذا أرادَ أن يُكمِّلَ توحيدَه فليُعظِمِ العنايةَ بالأسماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّ مَعرفةَ الاسمِ والصِّفةِ يجعلُ العبدَ يُراقِبُ اللهَ جَلَّوَعَلَا وتُؤثِّرُ هٰذه الأسماءُ والصِّفاتُ في توحيدِه وقلبِه وعلمِه باللهِ ومَعرفتِه، كما سيأتي في تقاسيمِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»؛ قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».) هٰذا فيه دليلٌ علىٰ أنَّ بعضَ العلمِ لا يصلُحُ لكلِّ أحدٍ، فإنَّ من العلمِ ما هو خاصٌّ ولو كانَ نافعًا في نفسِه ومن أمورِ التَّوحيدِ؛ لكنْ ربَّما لم يعرِفْه كثيرٌ من النَّاسِ، وهٰذا من مثلِ بعضِ أفرادِ توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، مِن مثلِ بعضِ مَباحثِ الأسماءِ والصِّفاتِ، وذِكرُ بعضِ الصِّفاتِ للهِ جَلَّوَعَلَا، فإنَّها لا تُناسبُ كلَّ أحدٍ، حتَّىٰ إنَّ بعضَ المُتَّجهينَ إلىٰ العلمِ قد لا تُطرَحُ عليهم بعضُ المَسائلِ الدَّقيقةِ في الأسماءِ والصِّفاتِ؛ ولكنْ يُؤمَرونَ بالإيمانِ بذلكَ إجمالًا، والإيمانُ بالمَعروفِ والمَعلوم

المُشتَهِرِ في الكتابِ و السُّنَّةِ، أمَّا دقائقُ البحثِ في الأسماءِ والصِّفاتِ فإنَّما هي للخاصَّةِ ولا تُناسبُ العامَّةَ ولا تُناسبُ المُبتَدئينَ في طلبِ العلمِ؛ لأنَّ مِنها ما يُشكلُ ومِنها ما قد يَؤُولُ بِقائلِه إلىٰ أنْ يُكذِّبَ اللهَ ورسولَه كما قال هنا عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: («حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»).

فمُناسبةُ هٰذا الأثرِ لهٰذا البابِ أنَّ مِن أسبابِ جَحدِ الأسماءِ والصِّفاتِ أن يُحدِّثَ المرءُ النَّاسَ بما لا يعقِلونَه من الأسماءِ والصِّفاتِ، النَّاسُ عندَهم إيمانٌ إجماليٌّ بالأسماءِ والصِّفاتِ يصحُّ معَه تَوحيدُهم وإيمانُهم وإسلامُهم، فالدُّخولُ في تفاصيلِ ذلكَ غيرُ مُناسبٍ، إلَّا إذا كانَ المُخلصُ يعقلُ ذلكَ ويَعيه، وهٰذه ليست بحالةِ أكثرِ النَّاسِ.

ولهٰذا الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُٱللَّهُ لمَّا حُدِّث عندَه بحديثِ الصُّورَةِ فنَهىٰ المُتحدِّثَ بذلكَ؛ لأنَّ العامَّةَ لا يُحسِنونَ فهمَ مثلِ هٰذه المَباحثِ، وهكذا في بعضِ المَسائلِ في الأسماءِ والصِّفاتِ لا تُناسبُ العامَّةَ، فقد يكونُ سببُ الجَحدِ أنْ حدَّثتَ من لا يَعقلُ البحثَ فيَؤُولُ به ذلكَ -وهو أنَّ البحثَ فوقَ عقلِه، وفوقَ مُستَواه، وفوقَ ما تَقدَّمَهُ من العلمِ- أنْ يُؤدِّيَ به ذلك إلىٰ أنْ يجحدَ شيئًا من العلمِ باللهِ جَلَّوَعَلَا، أو أنْ يجحدَ شيئًا من الأسماءِ والصِّفاتِ.

فالواجبُ علىٰ المُسلمِ وخاصَّةً طالبِ العلمِ ألَّا يجعلَ النَّاسَ يُكذِّبونَ شيئًا ممَّا قالَه الله جَلَّوَعَلَا أو أخبرَ به رسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ووسيلةُ ذلكَ التَّكذيبِ أن يُحدِّثَ النَّاسَ بما لا يَعرِفونَ، يُحدِّثُ النَّاسَ بحديثٍ لا تَبلُغُه عقولُهم، كما جاءِ في الحديثِ الآخرِ «**مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»، وقد بوَّبَ علىٰ ذلكَ البُخاريُّ في الصَّحيحِ في كتابِ العلمِ بقولِه: (بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ، مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ، فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ).

وهٰذا من الأمرِ المُهمِّ الَّذي ينبغي للمُعلِّمِ وللمُتَحدِّثِ وللواعظِ وللخطيبِ أن يَعِيَه؛ في أنْ يُحدِّثَ النَّاسَ بما يَعرِفونَ وأنْ يجعلَ تقويَةَ التَّوحيدِ، وإكمالَ تَوحيدِهم والزِّيادَةَ في إيمانِهم بما يَعرفونَ لا بما يُنكِرونَ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انْتَفَضَ لَـمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ».) هٰذا لمَّا لم يَعرِفْ هٰذه الصِّفةَ انتفضَ لأنَّه فهِمَ من هٰذه الصِّفةِ المُماثَلَةَ أو التَّشبيهَ فخافَ من تلكَ الصِّفةِ، والواجبُ علىٰ المُسلمِ أنَّه إذا سمعَ صفةً من صفاتِ الله -في كتابِ الله أو في سنَّةِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أنْ يُجريَها مُجرَىٰ جميعِ الصِّفاتِ،

وهو أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لله جَلَّوَعَلَا إثباتٌ بلا تكييفٍ، إثباتٌ بلا تَمثيلٍ، فإثباتُنا للصِّفاتِ علىٰ وجهِ تنزيهِ اللهِ جَلَّوَعَلَا عن المَثيلِ والنَّظيرِ في صِفاتِه وأسمائِه، فلهُ من كلِّ اسمٍ وصِفةٍ أعلىٰ وأعظمُ ما يشتَمِلُ عليه من المَعنىٰ، ولهٰذا قال ابنُ عبَّاسٍ هنا: (مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟) يعني: ما سببُ خوفِ هؤلاءِ، لماذا فَرَقُوا؛ خافوا من هٰذه الصِّفةِ ومن إثباتِها؟ (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ)؛ يعني: إذا خوطِبوا بالمُحكَمِ الَّذي يَعرِفونَ، المُحْكَمُ هو ما يُعلَمُ والَّذي يعلم هو سامِعُه، هٰذا هو المُحكَمُ، (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ) يعني: إذا خُوطِبوا بما يَعلَمونَه وجدوا في قُلوبِهم رقَّةً لذلكَ، (وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ) فإذا سمِعوا في الكتابِ أو السُّنَّةِ شيئًا لا تَعقِلُه عُقولُهم هلَكوا عندَه وخافوا وفَرَقُوا وأوَّلوا ونَفَوْا أو جَحدوا، وهٰذا من أسبابِ الضَّلالِ.

وهنا استعملَ ابنُ عبَّاسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كلمةَ (المُحكَمِ) وكلمةَ (المُتَشابِهِ) يُريدُ بها هنا:

المُحكَمُ الَّذي يُعلَمُ؛ يَعلَمُه سامِعُه.

والمُتَشابِهُ الَّذي يَشْتَبِه عِلمُه علىٰ سامِعِه.

والقرآنُ والعِلمُ جميعًا والشَّريعةُ كلُّها مُحكَمَةٌ، وكلُّها مُتشابِهَةٌ، ومنها مُحكَمٌ ومنها مُتَشابهٌ، فهٰذه ثلاثةُ أقسامٍ:

فالأوَّلُ المُحكَمُ: كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾[هود]، فالقرآنُ كلُّهُ مُحكَمٌ، بمعنىٰ أنَّ مَعناه واضحٌ وأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أحكَمَ فلا اختلافَ فيه إلَّا بتَبايُنٍ، وإنَّما بعضُه يُصدِّقُ بعضًا كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النِّساء].

والقُرآنُ والشَّريعةُ أيضًا مُتشابِهٌ كلُّه: بمَعنىٰ أنَّ بعضَه يُشبِهُ بعضًا، فهٰذا الحكمُ وهٰذه المَسألةُ تُشبِهُ تلكَ لأنَّها تَسري مَعها في قاعدةٍ واحدةٍ، فنُصوصُ الشَّريعةِ يُصدِّقُ بعضُها بعضًا ويَؤُولُ بعضُها إلىٰ بعضٍ، وقد قالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[الزُّمر:23]، قال: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ فالقرآنُ مُتشابِهٌ؛ يعني بعضُه يُشبِهُ بعضًا، هٰذا خبرٌ في الجنَّةِ وهٰذا خبرٌ في الجنَّةِ، وبعضُ الأخبارِ يُفصِّلُ بعضًا، هٰذه قصَّةٌ وهٰذه قصَّةٌ، هٰذه تُصدِّقُ هٰذه وتَزيدُها تفصيلًا، وهكذا في كلِّ ما في القرآنِ.

والقرآنُ أيضًا والشَّريعةُ والعِلمُ مِنه مُحكَمٌ ومنه مُتَشابِهٌ باعتبارٍ ثالثٍ: فالمُحكَمُ والمُتشابِهُ هنا هو

الَّذي جاء في آيةِ آلِ عمرانَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:7]، مِنه مُحكَمٌ وهو الَّذي اتَّضحَ لك عِلمُه، ومِنه مُتَشابِهٌ وهو الَّذي اشتَبَهَ عليكَ عِلمُه، وبهٰذا نعلمُ أنَّه ليسَ عندَنا في عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أتباعِ السَّلفِ الصَّالحِ ليسَ عندَهم شيءٌ مِن المُتَشابِهِ المُطلَقِ الَّذي لا يعلَمُه أحدٌ، بمَعنىٰ أنَّ ثمَّةَ مَسألةٌ من مَسائلِ التَّوحيدِ أو مِن مَسائلِ العَملِ يَشتبِهُ عِلمُها علىٰ كلِّ الأمَّةِ، هٰذا لا يوجدُ؛ بل ربَّما اشتبَهَ علىٰ بعضِ النَّاسِ وبعضُهم يَعلَمُ المَعنىٰ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:7] علىٰ أحدِ وَجهي الوَقفِ.

فهٰذا المُتشابِهُ المَوجودُ الَّذي هو قسيمٌ للمُحكَمِ هٰذا يَشتبهُ علىٰ بعضِ النَّاسِ، فإذا اشتبَه عليك علمُ شيءٍ مِن التَّوحيدِ أو مِن الشَّريعةِ فإنَّ الواجبَ ألَّا تَفْرَقَ عندَه وألَّا تخافَ، وألَّا تتَّهمَ الشَّرعَ أو يقعَ في قلبِك شيءٌ من الزَّيغِ؛ لأنَّ الَّذين يتَّبعونَ المُتشابِهَ بمَعنىٰ لا يُؤمنونَ به فإنَّ هؤلاءِ هم الَّذين في قُلوبِهم زَيغٌ، وهٰذا هو الَّذي عناهُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حينَ قال: (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ) يُريدُ به هٰذا الوجهَ من أنَّ الَّذين يَهلِكونَ عند المُتشابِهِ هم أهلُ الزَّيغِ الَّذينَ قالَ الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾[آل عمران:7]، فأهلُ الزَّيغِ يَستعمِلونَ في المُتشابِهِ هاتين الطَّريقَتَينِ:

- إمَّا أنْ يَبتَغوا بالمُتَشابِهِ الفِتنَةَ.
- وإمَّا أنْ يَبتَغوا بالمُتَشابِهِ التَّأويلَ.

والواجبُ أنْ يُردَّ المُتشابِهُ إلىٰ المُحكَمِ، فنعلمُ أنَّ الشَّريعةَ تُصدِّقُ بعضُها بعضًا وأنَّ التَّوحيدَ بعضُه يدلُّ علىٰ بعضٍ، كالقاعدةِ المَعروفةِ في الصِّفاتِ الَّتي ذكرَها عددٌ من الأئمَّةِ كالخطَّابيِّ وشيخِ الإسلامِ في «التَّدمُريَّة»: **أنَّ القَولَ في بعضِ الصِّفاتِ كالقَولِ في بعضٍ، وأنَّ القَولَ في الصِّفاتِ كالقَولِ في الذَّاتِ يُحتَذَىٰ في حَذوِه ويُنهَج فيه علىٰ مِنوالِهِ.**

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمٰنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾) فإنكارُ الصِّفةِ أو إنكارُ الاسمِ بمعنىٰ عدمِ التَّصديقِ بذلكَ هٰذا جَحدٌ، وهٰذا يَختلِفُ عن التَّأويلِ، فالتَّأويلُ والإلحادُ له مَراتِبُ يأتي بيانُها إنْ شاء اللهُ تعالىٰ.

❀❀◊❀❀

41- بَابٌ

[1] قَوْلِ اللّه تعَالَى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هٰذا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هٰذا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

[2] وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ... » الْحَدِيثَ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ -: «وَهٰذا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ».

هٰذا البابُ من الأبوابِ العَظيمةِ في هٰذا الكتابِ خاصَّةً في هٰذا الزَّمنِ لشدَّةِ الحاجةِ إليه، وترجَمَه المُصنِّفُ رفعَ اللهُ مَقامَه في الجنَّة بقولِه: (بَابٌ قَوْلِ اللّه تعَالَى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النَّحل: 83]) فوصفَ الكُفَّارَ في سورةِ النَّحلِ -الَّتي تُسمَّىٰ سورةَ النِّعمِ- وصفَهم بأنَّهم ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾، وإنكارُ النِّعمةِ بأنْ تُنسَبَ إلىٰ غيرِ الله، إنكارُها بأشياءَ، ومِن ذلكَ أنْ تُنسَبَ إلىٰ غيرِ اللهِ وأنْ يُجعَلَ المُتفضِّلَ بالنِّعمةِ غيرَ الَّذي أسداها وهو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ.

فالواجبُ علىٰ العبدِ أن يعلَمَ: أنَّ كلَّ النِّعمِ مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ كمالَ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بإضافةِ كلِّ نعمةٍ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ إضافةَ النِّعمِ إلىٰ غيرِ الله نَقصٌ في كمالِ التَّوحيدِ ونوعُ شِركٍ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

ولهٰذا تكونُ مُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ ثمَّةَ ألفاظًا يَستعمِلُها كثيرٌ مِن النَّاسِ في مُقابلَةِ النِّعمِ، أو في مُقابلَةِ اندفاعِ النِّقمِ، فيكونُ ذلكَ القَولُ مِنهم نوعَ شركٍ باللهِ جَلَّوَعَلَا؛ بل شركًا أصغرَ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

فنبَّه الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهٰذا البابِ علىٰ ما يُنافي كمالَ التَّوحيدِ من الألفاظِ، وأنَّ نسبةَ النِّعمِ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا واجبةٌ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾، أخذَ بعضُ أهلِ العلمِ من هٰذهِ الآيةِ أنَّ لفظَ المَعرفةِ إنَّما يأتي في الذَّمِّ، وأنَّ النَّافعَ هو العِلمُ، وأنَّ المَعرفةَ تُستعمَلَ في القرآنِ وفي السُّنَّة غالبًا

فيما يُذَمُّ من أخذِ المَعلوماتِ، كقولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة:146]، وكقولِه في هٰذه الآيةِ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

وهٰذا من جهةِ الأكثريَّةِ، وإلَّا فقد وردَ أنَّ المَعرِفَةَ بمَعنىٰ العلمِ كما جاءَ في «صحيحِ مُسلمٍ» في حديثِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا بعثَ مُعاذًا إلىٰ اليمنِ قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَعْرِفُوا اللهَ فَإِنْ هُمْ عَرَفُوا اللهَ**» فهٰذا يدلُّ أنَّ بعضَ من روىٰ الحديثَ مِن التَّابعينَ جعلَ مَعنىٰ العلمِ بالمَعرفةِ وهم حجَّةٌ في هٰذا المَقامِ، فيدلُّ علىٰ أنَّ استعمالَ المَعرفةِ بمعنىٰ العلمِ لا بأسَ به.

هٰذا البابُ مَعقودٌ لألفاظٍ يكونُ استِعمالُها من الشِّركِ الأصغرِ؛ ذلكَ أنَّ فيها إضافةُ النِّعمةِ إلىٰ غيرِ اللهِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾[النَّحل:53]، وهٰذا نصٌّ صريحٌ في العُمومِ لأنَّ مَجيءَ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ يدلُّ علىٰ الظُّهورِ في العمومِ، فإنْ سُبقَتِ النَّكرةُ بـ(مِنْ) حرفِ جرٍّ -الَّذي هو شبيهٌ بالزَّائدِ- فيكونُ العمومُ نصًّا فيه، والتَّنصيصُ في العُمومِ بمعنىٰ أنَّه لا يَخرُجُ شيءٌ من أفرادِه، فدلَّتِ الآيةُ علىٰ أنَّه لا يخرُجُ شيءٌ مِن النِّعمِ أيًّا كان ذلكَ الشَّيءُ -صغيرًا كان أو كبيرًا، عظيمًا جليلًا أو حقيرًا وضيعًا- لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا، فكلُّ النِّعمِ صَغُرَتْ أو عَظُمَتْ هي مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا وحدَه، وأمَّا العبادُ فإنَّما هم أسبابٌ تأتي النِّعمُ علىٰ أيديهم، يأتي واحدٌ ويكونُ سببًا في إيصالِ النِّعمةِ إليكَ، أو يكونُ سببًا في مُعالَجتِكَ، أو سببًا في تَعيينِكَ، أو سببًا في نجاحِكَ، أو نحوِ ذلكَ، لا يدلُّ علىٰ أنَّه هو وليُّ النِّعمَةِ وهو الَّذي أنعمَ، فإنَّ وليَّ النِّعمةِ هو الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا، وهٰذا من كمالِ التَّوحيدِ، فإنَّ القلبَ المُوحِّدَ يَعلمُ أنَّ ما ثَمَّ شيءٌ في هٰذا المَلَكوتِ إلَّا واللهُ جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يفتَحُه وهو الَّذي يُغلِقُ ما شاءَ، كما قال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[فاطر:2]، فكلُّ النِّعمِ مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا والعبادُ أسبابٌ في ذلكَ.

فالواجبُ -إذن- أن تُنسَبَ النِّعمَةُ إلىٰ المُسدي لا علىٰ السَّببِ؛ لأنَّ السَّببَ لو أرادَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لأبطلَ كونَه سببًا، وهٰذا السَّببُ إذا كان آدميًّا فقلبُه بين أُصبُعينِ من أصابعِ اللهِ جَلَّوَعَلَا لو شاءَ لأصدق عن أنْ يكونَ سببًا أو أنْ ينفعَك بشيءٍ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا هو وليُّ النِّعمةِ.

قد قالَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: ما مِن أحدٍ تعلَّقَ بمَخلوقٍ إلَّا وخُذِلَ. ما مِن أحدٍ تعلَّقَ بمَخلوقٍ في حُصولِ شيءٍ له واندفاعِ مَكروهٍ عنه إلَّا خُذِلَ، وهٰذا في غالبِ المُسلمينَ، وذلكَ لأنَّ الواجبَ علىٰ المُسلمِ أنْ يُعلِّقَ قلبَه باللهِ وأن يعلَمَ أنَّ النِّعمَ إنَّما هي مِن عندِ الله، والعبادُ أسبابٌ يُسخِّرُهم

اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، وهٰذا هو حقيقةُ التَّوحيدِ ومَعرفةِ تصرُّفِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في مَلَكوتِه.

قال: (قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هٰذا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».) هٰذا القَولُ (مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي) مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ ونوعُ شِركٍ؛ لأنَّه نَسَبَ هٰذا المالَ إليهِ ونسبَه إلىٰ آبائِه، وفي الواقعِ أنَّ هٰذا المالَ أنعمَ اللهُ به علىٰ آبائِه، ثمَّ أنعمَ اللهُ به علىٰ هٰذا المُؤمنِ إذْ جعلَ اللهُ القِسمَةَ -قِسمَةَ الميراثِ- تصلُ إليه، وهٰذا كلُّه مِن فضلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا ومِن نِعمَتِه، والوالدُ سببٌ في إيصالِ المالِ إليكَ، ولهٰذا في قِسمةِ الميراثِ لا يَجوزُ للوالدِ أنْ يَقسِمَ الميراثَ أو لصاحبِ المالِ أن يَقسِمَ الميراثَ علىٰ ما يُريدُ هو؛ لأنَّ المالَ في الحقيقةِ ليسَ مالًا له، كما قالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النُّور:33]، فهو مالُ اللهِ جَلَّوَعَلَا يُقسِّمُه كيف يشاءُ، إنَّ اللهَ قسمَ بينكم أخلاقكم كما قسمَ بينكم أرزاقكم.

فالواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يعلَمَ أنَّ ما وصلَه من المالِ أو وصلَه من النِّعمَةِ عن طريقِ آبائِهم هو مِن فضلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا ونعمَتِه، ووالدُه أو والدَتُه أو قَريبُه سببٌ من الأسبابِ، فيحمدُ اللهَ جَلَّوَعَلَا علىٰ هٰذه النِّعمَةِ، ويسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا ذلكَ السَّببَ، ويُقابِلُ ذلكَ السَّببَ بجَزائِه إمَّا بدُعاءٍ وإمَّا بغيرِه.

قال: (وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»)، (لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا) كقولِ القائلِ: لولا الطَّيَّارُ لذهَبْنا في هَلكةٍ، لولا السَّائقُ كان ماهرًا لذَهبْنا في كذا وكذا، أو يقولُ: لولا أنَّ الشَّيخَ كانَ مُعلِّمًا وأفهمَنا المَسألةَ لما فَهِمْناها أبدًا، أو يقولُ: لولا المُديرُ الفُلانيُّ لفُصِلْتُ، ونحوُ ذلك من الألفاظِ الَّتي فيها تعليقُ حصولِ الأمرِ بهٰذه الواسِطَةِ، والأمرُ إنَّما حَصلَ بقضاءِ اللهِ وبقَدَرِه وبفضلِ اللهِ وبنِعمَتِه مِن حُصولِ النِّعَمِ أو اندفاعِ المُكروهِ والنِّقَمِ.

ولهٰذا الواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يُوحِّدَ فيقولَ: لولا اللهُ ثمَّ فلانٌ. فيجعلُ مَرتبةَ فُلانٍ ثانيةً ولا يَجعلُ مَرتبةَ فُلانٍ هي الأُولىٰ أو الوَحيدَةَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هو المُسدي بالنِّعَمِ المُتفَضِّلُ بها.

(لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا) هنا قالَ: (فُلَانٌ) من جهةِ كثرةِ الاستعمالِ، أمَّا في الواقعِ فقدْ يأتي (لَوْلَا) استعمالها بالنَّاسِ أو تعلّقٌ بالجماداتِ -بيتٌ أو نحوُ ذلكَ بسيَّارةٍ أو طيَّارةٍ من جهةِ صِناعَتِها-، أو التَّعلُّقُ ببِقاعٍ، أو التَّعلُّقُ بشيءٍ من خَلقِ اللهِ؛ مَطرٌ، ماءٌ، سَحابٌ، هواءٌ، ونحوُ ذلك، فنِسبةُ النِّعمةِ إلىٰ إنسانٍ أو إلىٰ بُقعَةٍ أو إلىٰ فعلِ فاعلٍ أو إلىٰ صنعةٍ أو إلىٰ مَخلوقٍ كلُّ ذلكَ من نِسبَةِ النِّعَمِ إلىٰ غيرِ اللهِ، وهو نوعٌ مِن أنواعِ الشِّركِ في اللَّفظِ، وهو مِن الشِّركِ الأصغرِ باللهِ جَلَّوَعَلَا، كما سيأتي في البابِ بعدَه إنْ شاءَ اللهُ.

قال: (وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هٰذا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا»)، (هٰذا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا) يعني: إذا حَصلَتْ لهم نِعمةٌ؛ جاءَتْهم أمطارٌ، جاءَهم المالُ، نَجحوا في تِجارَتِهم، إذا حصلَ لهم ذلكَ تذكَّروا أنَّهم توجَّهوا

للأولياءِ، أو توجَّهوا للأنبياءِ، أو توجَّهوا للأصنامِ أو للأوثانِ، تذكَّروا أنَّهم قد توجَّهوا إليهم فصَرَفوا لهم شيئًا من العبادةِ، فقالوا: الآلهةُ شَفعَتْ فلذلكَ جاءَنا هٰذا الخيرُ، فيتذكَّرون آلهتَهم ويَنسَوْنَ أنَّ المُتفضِّلَ بذلكَ هو اللهُ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ اللهَ سُبحانَه لا يَقبلُ شفاعةً شِركيَّةً من تلكَ الشَّفاعاتِ الَّتي يذكُرونَها.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الْحَدِيثَ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ -: «وَهٰذا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ». قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ».)

وهٰذا بابٌ ينبغي الاهتمامُ به وتنبيهُ النَّاسِ عليه؛ لأنَّ نِعَمَ الله علينا في هٰذه البلادِ؛ بلْ نِعَمُ اللهِ علىٰ أهلِ الإيمانِ في كلِّ مَكانٍ كثيرةٌ لا حصرَ لها.

ولهٰذا الواجبُ أن تُنسَبَ النِّعمُ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا وأنْ يُذكَرَ بها وأنْ يُشكَرَ؛ لأنَّ من درجاتِ شُكرِ النِّعمةِ أنْ تُضافَ إلىٰ مَن أسداها هٰذه أوَّلُ الدَّرجاتِ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضُّحىٰ]، أوَّل درجاتِ التَّحديثِ بالنِّعمةِ أن تقولَ: هٰذا من فضلِ اللهِ هٰذه نعمَةُ اللهِ، فإذا التفتَ القَلبُ إلىٰ مَخلوقٍ فإنَّه يكونُ قد أدركَ هٰذا النَّوعَ من الشِّركِ المُنافي لكمالِ التَّوحيدِ.



42- بابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: (الأَنْدَادُ؛ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَىٰ صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هٰذا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هٰذا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

[2] وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

[3] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا).

[4] وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

[5] وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: (بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)، قَالَ: وَيَقُولُ: (لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ)، وَلا تَقُولُوا: (لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ).

هٰذا (بَابٌ قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة].)، فيه بيانُ أنَّ هناكَ ألفاظًا فيها التَّنديدُ، **والتَّنديدُ معناه أن تجعلَ غيرَ اللهِ نِدًّا له**، فيكونُ التَّنديدُ في نسبةِ النِّعَمِ إلىٰ غيرِ اللهِ، ويكونُ التَّنديدُ في الحَلِف بغيرِ اللهِ، ويكونُ التَّنديدُ في قولِ: (ما شاءَ اللهُ وشاءَ فُلانٌ)، وغيرِ ذلك مِن الألفاظِ.

فهٰذا البابُ فيه بيانُ أنَّ التَّنديدَ يكونُ في الألفاظِ، والتَّنديدُ هنا المُرادُ به التَّنديدُ الأصغرُ الَّذي هو شركٌ أصغرُ في الألفاظِ، وليسَ التَّنديدَ الَّذي هو الشِّركُ الأكبرُ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] وقولُه جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ هٰذا عامٌّ يشمَلُ اتِّخاذَ الأندادِ بالشِّركِ الأكبرِ ويشمَلُ أيضًا اتِّخاذَ الأندادِ بأنواعِ الإشراكِ الَّتي دونَ الشِّركِ الأكبرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَندَادًا﴾ هٰذا يعمُّ جميعَ أنواعِ التَّنديدِ، والتَّنديدُ مِنه ما هو مُخرِجٌ مِن المِلَّةِ، ومنه ما لا يُخرِجُ مِن المِلَّةِ.

ولهٰذا ساقَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قالَ: (الأَنْدَادُ؛ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) فجعلَ ممَّا يدخلُ في هٰذه الآيةِ الشِّركَ الخفيَّ أو شركَ الألفاظِ الَّتي تخفىٰ علىٰ كثيرٍ مِن النَّاسِ.

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ من أنَّ حقيقةَ التَّوحيدِ ألَّا يكونَ في القلبِ إلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وألَّا يتلفَّظَ بشيءٍ فيه جعلُ غيرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا شريكًا له، أو نِدًّا له كمَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ، أو كمَن قال: ما شاءَ اللهُ وشاءَ فُلانٌ أو لولا كُلَيبةُ هٰذا لأتانا اللُّصوصُ ونحوُ هٰذه الألفاظِ.

الأوَّل ظاهرٌ، وهو تبعٌ للبابِ قبلَه؛ يعني: كلامَ ابنِ عبَّاسٍ علىٰ الآيةِ، ثمَّ قالَ في آخرِه: (لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هٰذا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ) يعني: لا تَقُلْ: لولا اللهُ وفُلانٌ، قُلْ لولا اللهُ لحصلَ كذا وكذا، هٰذا هو الأكملُ، فالَّذي يَنبَغي في استعمالِ هٰذه الألفاظِ أن تُنسَبُ إلىٰ اللهِ.

فظهرَ لنا هنا أنَّ ثمَّةَ درجتانِ جائزةٌ، وغيرُ ذلك لا يجوزُ. وهاتان الدَّرجتانِ:

الأُولىٰ هي الكاملةُ، وهي أنْ يقولَ: لولا اللهُ لَمَا حصلَ كذا.

والجائزُ أنْ يقولَ: لولا اللهُ ثمَّ فُلانٌ لَمَا حصل كذا، هٰذه جائزةٌ وهي توحيدٌ بجعلِه مَرتبَةَ فُلانٍ نازلةً عن مَرتبةِ نِعمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أو إنعامِ اللهِ؛ لكنَّ هٰذا ليسَ هو الكمالُ، ولهٰذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ هنا: (لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا).

لأنَّ الكمالَ أنْ تقولَ: لولا اللهُ لأتانا اللُّصوصُ، لولا نِعمةُ الله لَمَا حصلَ كذا، لولا فضلُ اللهِ لَمَا حصلَ كذا، هٰذه هي المَرتبةُ الكاملةُ.

والجوازُ أنْ تقولَ: لولا اللهُ ثمَّ فُلانٌ.

وأمَّا الَّذي لا يجوزُ والَّذي قالَ فيه ابنُ عبَّاسٍ (كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ) أنْ يقولَ: لولا اللهُ وفلانٌ. بالواوِ؛ لأنَّ الواوَ تُفيدُ التَّشريكَ بين المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه دونَ تَراخٍ في المَرتبةِ، أمَّا (ثُمَّ) فتُفيدُ التَّراخيَ في المَرتبةِ أو التَّراخيَ في الزَّمنِ، هٰذا ما هو مَعلومٌ في هٰذا المَبحثِ في حُروفِ المَعاني مِن النَّحوِ.

فلهٰذا صارَ قولُ القائلِ: (لولا اللهُ وفلانٌ) شِركًا، أو (ما شاءَ اللهُ وشاءَ فُلانٌ) أنَّ هٰذا شِركٌ أصغرُ.

والواجبُ أنْ يقولَ: لولا اللهُ. أو أنْ يقولَ: ما شاءُ الله وحدَه. كما سيأتي في بابٍ بعدَ ذلك.

فإذن تحصَّلَ لنا أنَّ الكمالَ أن يَنسِبَ ذلكَ إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ الجائزَ أنْ يقولَ: لولا اللهُ ثمَّ فُلانٌ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ)، «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ»؛ يعني: عقدَ اليَمينَ بغيرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

واليمينُ: هي تأكيدُ الكلامِ لمُعظَّمٍ به بين المُتكلِّمِ والمُخاطَبِ، يُؤكِّدُ الكلامَ بمُعظَّمٍ به بأحدِ حروفِ القَسَمِ الثَّلاثِ: الواوِ أو الباءِ أو التَّاءِ.

فاليمينُ أو الحَلِف يكونُ بتأكيدِ الكلامِ بمُعظَّمٍ بـه بـالواوِ أو بالبـاءِ أو بالتَّـاءِ. والواجـبُ ألَّا يُؤكِّـدَ الكلامُ إلَّا باللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ المُعظَّمَ علىٰ الحقيقةِ هو اللهُ جَلَّوَعَلَا، وأمَّـا البشـرُ فليسـوا بمُعظَّمـين بحيـثُ يُحلَفُ بهم، وإنَّما ربَّما عُظِّموا بشيءٍ يُناسِبُ ذاتَهم، تعظيمَ البشرِ اللَّائقَ، أمَّـا التَّعظـيمُ الَّـذي يصـلُ إلـىٰ الحدِّ الَّذي يُحلَفُ به، فهٰذا إنَّما هو للهِ جَلَّوَعَلَا.

فإذن الواجبُ ألَّا يُؤكَّدَ الكلامُ إلَّا بـالله جَلَّوَعَلَا إذا أرادَ الحَلِـف، إذا أرادَ أن يكـونَ حالِفًـا فليَحْلِـفْ باللهِ، فلْيُؤكِّدِ الكلامَ باللهِ جَلَّوَعَلَا باستخدامِ أحدِ الحُروفِ الثَّلاثةِ الواوِ أو الباءِ أو التَّاءِ.

وأمَّا إذا استخدَمَ غيرَ هٰذه الأحرُفِ كلفظِ (في) ونحوِ ذلك فإنَّه لا يُعَدُّ حَلِفًا، إلَّا إنْ كـانَ في قلبـه أنَّـه يَمينٌ؛ ولكنَّه أخطأَ التَّعبيرَ فالعِبرَةُ ما في التَفسيرِ مِن المَعانِي، وأمَّا ما في اللَّفظِ فإنَّه في المَقامِ يَـؤولُ إلـىٰ مـا في القلبِ.

لهٰذا قال هنا: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» لماذا كَفرَ أو أشركَ؟ لأنَّه عظَّمَ هٰـذا المَخلـوقَ كتَعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في الحَلِف به، وكُفرُه وشِركُه شركٌ أصغرُ، وقد يصِـلُ إلـىٰ أنْ يُشـرِكَ بـالحَلِف شِـركًا أكبرَ إذا عظَّم المَحلوفَ به كتَعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في العبادةِ.

فإذن صارَ حقيقةُ الحَلِف بغيرِ اللهِ أنَّه تعظيمٌ لذلكَ المَحلوفِ به في الحَلِف، فإذا انضـافَ إلـىٰ ذلـكَ أنَّ المَحلوفَ به مُعظَّمٌ في العبادةِ صارَ شركًا أكبرَ؛ كحَلِفِ الَّذينَ يعبُدونَ الأوثانَ بأوثانِهم فإنَّه شركٌ أكبرُ؛ لأنهَّ يُعظِّمُ ذلكَ الوثنَ أو ذلكَ القبرَ أو تلكَ البُقعةَ أو ذلكَ المَشهدَ أو ذلكَ الـوَليَّ يُعظِّمُـه كتعظـيمِ اللهِ في العبادةِ، فيكونُ حَلِفُه حِلِفًا بمُعظَّمٍ به في العبادةِ.

فإذن صارَ هنا الشِّركُ الأصغرُ حاصلاً بمُجرَّدِ الحَلِف بغيرِ الله، فكلُّ من حَلِفَ بغيـرِ الله فهـو مُشـركٌ الشِّركَ الأصغرَ، قد يَصِلُ في بعضِ الأحوالِ أنْ يكونَ مُشرِكًا الشِّركَ الكبرَ إذا كان يعبُدُ هٰـذا الَّـذي حَلَـفَ به.

وهناكَ يمينٌ بغيرِ اللهِ في اللَّفظِ، فهٰذه أيضًا شِركٌ وإن لم يَعقِدِ القلبُ اليَمينَ، كمن يكونُ دائمًا علىٰ لسانِه استعمالُ الحَلِف بالنَّبيِّ أو بالكعبةِ أو بالأمانةِ أو بالوَليِّ ونحوِ ذلك وهو لا يُريدُ حقيقةَ اليَمينِ، وإنَّما يجري علىٰ لسانِه مَجرًىٰ في اللَّغوِ، فهٰذا أيضًا شِركٌ لأنَّه تعظيمٌ لغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا)) هٰذا لأجلِ عِظَمِ الحَلِف بغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ الحَلِف بغيرِ اللهِ شركٌ، وأمَّا الكَذِبُ فإنَّه كبيرةٌ والشِّركُ الأصغرُ هٰذا من أعظَمِ الكبائرِ، فلهٰذا استَحَبَّ أن يكذِبَ مع التَّوحيدِ وألَّا يَصدُقَ مع الشِّركِ؛

لأنَّ حسنةَ التَّوحيدِ أعظمُ من سيِّئةِ الكذبِ؛ ولأنَّ سيِّئةَ الشِّركِ أشنعُ من سيِّئةِ الكذبِ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: (لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ) هٰذا من جهةِ الإرشادِ إلىٰ ما يَنبغي أنْ يُقالَ، فلا تجعلْ مَشيئةَ العبدِ مُقارِنَةً مُشترِكَةً مع مشيئةِ اللهِ، فالواجبُ أن يُنزِّهَ العبدُ لفظَه حتَّىٰ يُعظِّمَ اللهَ جَلَّوَعَلَا، والقلبُ المُعظِّمُ للهِ جَلَّوَعَلَا لا يُمكِنُ أنْ يَستعمِلَ لفظًا فيه جعلٌ لمَخلوقٍ في مَرتبةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في المَشيئةِ أو في الحَلِفِ أو في الصِّفاتِ ونحوِ ذلك، لهٰذا قال: (لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ) وهٰذا النَّهيُ للتَّحريمِ؛ لأنَّ هٰذا التَّشريكَ في المَشيئةِ هٰذا شِركٌ أصغرُ باللهِ جَلَّوَعَلَا، قال: (وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ)؛ لأنَّ (ثُمَّ) تُفيدُ التَّراخيَ في المَشيئةِ، وهٰذا لأنَّ مَشيئةَ العبدِ تَبَعٌ لمشيئةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾[التَّكوير]، فمَشيئةُ العبدِ ناقصةٌ ومَشيئةُ اللهِ كاملةٌ.

[الدَّليلُ الخامسُ] قال: (وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ))، (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ) لأنَّ الواوَ تقتَضي التَّشريكَ بالاستعاذةِ، والاستعاذةُ -كما ذَكرنا- لها جهتان: جهةٌ ظاهرةٌ، وجهةٌ باطنةٌ.

أمَّا الجهةُ الباطنةُ: وهي الالتجاءُ والاعتصامُ والرَّغبُ والرَّهبُ وإقبالُ القلبِ علىٰ المُستَعاذِ به، فهٰذه لا تصلُح إلَّا للهِ، والاعتمادُ في الاستعاذةِ علىٰ المَخلوقِ فيما أقدَرَه اللهُ عليه هٰذا جائزٌ؛ لأنَّ الاستعاذةَ بالمَخلوقِ ظاهرًا فيما أقدَرَه الله عليه ظاهرًا هٰذا جائزٌ، لهٰذا كان يَكرَهُ أن يقولَ: أعوذُ باللهِ وبكَ، والكراهةُ في استعمالِ السَّلفِ يُرادُ غالبًا المُحرَّمُ، وقد تَرِدُ لغيرِ المُحرَّمِ؛ ولكن يَستعمِلونَها فيما لا نصَّ فيه.

ومَجيءُ الكراهةِ بمعنىٰ التَّحريمِ في القرآنِ في قولِه تعالىٰ لمَّا ذكرَ الكبائرَ في سورةِ الإسراءِ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾[الإسراء]، وفي القراءةِ الأُخرىٰ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ ﴿مَكۡرُوهٗا﴾ أي مُحرَّمًا التَّحريمَ الشَّديدَ.

قال: (وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: (بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)) لِمَا فيها من التَّراخي، (قَالَ: وَيَقُولُ: (لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ)، وَلَا تَقُولُوا: (لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ)).

ﮂﮂ ◊ ﮁﮁ

43- بَابٌ

مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحلف بِاللّٰه

[1] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

(ابنُ ماجَهْ): مَاجَهْ أمُّه، وآخرُها هاءٌ وَصْلًا ووَقْفًا، فلا يُقالُ: رواه ابنُ ماجةَ بسندٍ حسنٍ، أو روىٰ ابنُ ماجةَ، هٰذا غلطٌ.

والصَّوابُ أنْ تقولَ: وروىٰ ابنُ ماجهْ بسندٍ حسنٍ؛ لأنَّ الهاءَ هنا ليسَتْ لأجلِ السُّكونِ في التَّاءِ، وإنَّما هي أصليَّةٌ في اسمِ أمِّه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ورحِمَها.

هٰذا (بَابٌ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِف بِاللّٰه)، لمَّا كانَ تعظيمُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في قلبِ العبدِ المُؤمنِ واجبًا، كان الرِّضىٰ بكلامٍ أُكِّدَ فيه الكلامُ بالحَلِف باللهِ كان ذلكَ مَطلوبًا ومَأمورًا به، ومَن لم يقنَعْ بالحَلِف باللهِ فقد فاتَه تعظيمُ الله جَلَّ وَعَلَا وتعظيمُ شرعِه.

والواجبُ أن يقنعَ بكلامٍ حُلِفَ عليه باللهِ تعظيمًا لجلالِ الله جَلَّ وَعَلَا كما قالَ: (آمنتُ باللهِ وكذَّبتُ عَيْني) فيمَن حُلِفَ له بالله، فالواجبُ علىٰ العبدِ أنْ إذا حُلِفَ له باللهِ أن يرضَىٰ؛ لأنَّ في ذلكَ تعظيمًا للرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

(بَابٌ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِف بِاللّٰه):

◆ لفظ (لَمْ يَقْنَعْ) استفادَ منه كثيرٌ من الشُّرَّاحِ بأنَّ المُرادَ بهٰذا البابِ ما يكونُ عندَ توجُّهِ اليمينِ علىٰ أحدِ المُتخاصِمَين، فإنَّه إذا كانَ في الخُصومَةِ وتوجَّهت في اليَمينِ بالدَّعوةِ، فإنَّ الواجبَ علىٰ الآخرِ أنْ يقنعَ بما حَلَفَ عليه الآخرُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، فخصُّوا ما جاءَ من الدَّليلِ وخُصَّ هٰذا البابُ بمَسألةٍ في الدَّعاوي؛ يعني اليَمينَ عندَ القاضي.

◆ وقال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الحديثَ عامٌّ، والحديثُ حسَّنَه طائفةٌ من أهلِ العلمِ كما ذكر الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقوله: «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ» هٰذا عامٌّ في كلِّ حَلِفٍ سواءٌ أنْ كان عندَ القاضي أو لم يَكُنْ عندَ القاضي، وهٰذا القولُ أوجهُ وأصوبُ ظاهرًا؛ لأنَّ سببَ الرِّضىٰ بالكلامِ الَّذي حُلِفَ عليه باللهِ التَّعظيمُ للهِ جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ تعظيمَ اللهِ في قلبِ العبدِ يجعلُه يُصدِّقُ من حَلَفَ له باللهِ ولو كان كاذبًا؛ لكنْ له ألَّا يَبْنِيَ عليه؛ لكنْ يُصدِّقُه ولا يُظهِرُ تكذيبًا له لتعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ»، فلْيَجعلْ توحيدَه وتعظيمَه للهِ جَلَّ وَعَلَا له، وكذبَ ذاكَ في الحَلِف باللهِ عليه.

◆ وقال طائفةٌ من أهلِ العلمِ -وهٰذا هو الثَّالثُ-: إنَّ هٰذا راجعٌ إلىٰ من عُرفَ صدقُه في اليمينِ، أمَّا من كان فاجِرًا فاسقًا لا يُبالي إذا حلَفَ أن يحلِفَ كاذبًا فإنَّه لا يجبُ تَصديقُه؛ لأنَّ تَصديقَه والحالةُ هٰذه مع قيامِ اليقينِ أو القرائنِ العامَّةِ بكذبِه ليسَ بداخلٍ في الحديثِ، لقولِه في أوَّلِ الحديثِ: (مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ) فتعلَّق قولُه: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ) بما قبلَها وهو قولُه: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)، فتعلَّقَ (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ) يعني: فيمَن كانَ صادِقًا، (وَمَنْ لَمْ يَرْضَ)، مَن لم يَرْضَ باليمينِ باللهِ، (فَلَيْسَ مِنَ اللهِ)، فيدلُّ علىٰ أنَّ فعلَه من الكبائرِ؛ لأنَّ قولَه: (فَلَيْسَ مِنَ اللهِ) هٰذا مُلحِقٌ لفعلِه بالكبائرِ.

وهٰذا البابُ فيه نوعُ تردُّدٍ عندَ الشُّرَّاحِ، والظَّاهرُ في المُرادِ منه أنَّ الإمامَ المُصنِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرَه تَعظيمًا للهِ جَلَّ وَعَلَا، وقد ذكرَ في البابِ قبلَه (من حَلَفَ بغيرِ الله) وأنَّ حُكمَهُ أنَّه مُشركٌ، فهٰذا فيه أنَّ الحَلِف بالله يجبُ تعظيمُه، وألَّا يَحلَفَ المرءُ باللهِ إلَّا صادقًا، وألَّا يحلِفَ بآبائِه، وألَّا يَحْلِفَ بغيرِ الله، ومَن حُلِفَ له باللهِ فواجبٌ عليه الرِّضىٰ تعظيمًا لاسمِ الله وتعظيمًا لحقِّ اللهِ جَلَّ وَعَلَا حتَّىٰ لا يقعَ في قلبِه استِهانةٌ باسمِ اللهِ الأعظمِ وعدمُ اكتراثٍ به أو بالكلامِ المُؤكَّدِ به.

فصارَ عندنا -إذن:

◆ أنَّ كثيرًا من أهلِ العلمِ جعلوا قولَ المُصنِّفِ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ**) أنَّه عندَ القاضي إذا توجَّهَ باليمينِ علىٰ أحدِ المُتخاصِمَين.

◆ وأنَّ طائفةً من أهلِ العلمِ قالوا في قولِه: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ): أنَّ هٰذا عامٌّ في كلِّ من حُلِفَ له بالله لأنَّه يجبُ عليه الرِّضىٰ.

◆ وآخرون قالوا: يُفَرَّقُ بينَ من ظاهرُه الصِّدقُ ومن ظاهرُه الكذبُ.

واللهُ أعلمُ.



44- بَابُ

قَوْلُ (مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ)

[1] عَنْ قُتَيْلَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

[2] وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

[3] وَلِابْنِ مَاجَه، عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا - قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

هٰذا البابُ ترجمَه بقولِه: (بَابُ قَوْلِ (مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ)) وهٰذه المَسألةُ مرَّ الكلامُ عليها في (بَابُ قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾[البقرة]) وأنَّ قولَ القائلِ: (مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ) شركٌ في اللَّفظِ وتشريكٌ في المَشيئةِ، فهٰذا من الشِّركِ الأصغرِ.

البابُ واضحٌ من حيثُ ما اشتملَ عليه؛ لكنَّ فيه فائدةً أو فيه فَوائدَ:

[الدَّليلُ الأوَّلُ] مِنها أنَّ قولَه في حديثِ قُتيلَةَ: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ) فيهِ من الفوائدِ ما قالَه الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ في مَسائلِ البابِ قالَ: فيه **فَهمُ الإنسانِ إذا كانَ له هَوَىٰ**. فهؤلاءِ اليَهودُ هم أهلُ الشِّركِ يقولون: عُزيرٌ ابنُ اللهِ ويُشركونَ باللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لكنَّهم مع كونِهم مُشركينَ نقموا علىٰ أهلِ الإسلامِ أنَّهم يُشركونَ، وهٰذا لأجلِ الطَّعنِ فيهم، فالهَوىٰ وطلبُ تنقُّصِ أهلِ الإسلامِ والنَّقدِ عليهم، أو مُخاطبتُهم بما يُسوؤُهم هٰذا كانَ قصدًا لهم، ولهٰذا فهِمُوا من أينَ يدخُلون، فأهلُ الإسلامِ أهلُ التَّوحيدِ

فقالوا لهم: (إِنَّكُمْ تُشْـرِكُونَ) وهم أهلُ الشِّركِ؛ لكنَّ فيه أنَّ صاحبَ الهوىٰ قد يَفهَمُ الصَّوابَ، فإذا فهمَ الصَّوابَ فإنَّ الواجبَ أن يُقبَلَ منه؛ لأنَّ المُؤمنَ يجبُ عليه أن يقبلَ الحقَّ ممَّن جاءَ به ولو كانَ يَهوديًّا أو نَصرانيًّا، فهٰذا اليَهوديُّ -أو النَّصارىٰ كما سيأتي- هؤلاءِ توجَّهوا إلىٰ المُؤمنينَ بالقَدحِ فيهم بالشِّركِ، ولم يَمنَعِ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ من قَبولِ الحقِّ الَّذي قالوه أنَّهم يَهودٌ؛ بل قبلَ ما جاءَ به ذلكَ اليَهوديُّ، فأوصاهم بأنْ يتركُوا ذلكَ التَّنديدَ.

وهٰذا فيه أنَّ الحقَّ هو ضالَّةُ المُؤمنِ أينَ وجدَه أخذَه، فلا يمنعُه من قَبولِ الحقِّ أنْ قالَه مُشركٌ أو قالَه كافرٌ أو قالَه فاسقٌ أو قالَه مُبتدِعٌ أو قالَه ضالٌّ إذا كانَ الكلامُ في نفسِه حقًّا؛ لأنَّه كما قال النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا**».

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَلَهُ أَيْضًا) والحديثُ الَّذي بعدَه واضحٌ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] ثم قال: (وَلِابْنِ مَاجَه، عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا - قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.) هٰذا في أنَّ صاحبَ الهوىٰ أو صاحبَ المِلَّةِ الباطلةِ قد يَرُدُّ علىٰ صاحبِ الحقِّ بأنَّ عندَه باطلًا كما أنَّ عندَ ذلك باطلًا، فإذا واجَهه بذلك فالواجبُ عليه أن يتجرَّدَ للحقِّ وألَّا يرُدَّ الحقَّ لأجلِ أنَّ من أتىٰ به صاحبُ باطلٍ.

فالقاعدةُ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والإيمانِ أنَّ البدعةَ لا تُرَدُّ ببدعةٍ، والباطلَ لا يُرَدُّ بباطلٍ، وكثيرٌ ممَّا حصلَ معهم نقصٌ في تاريخِ الإسلامِ وحصلَتْ الشُّبُهاتُ وقَويَتْ بعضُ الضَّلالاتِ من جهةِ أنَّ من وُوجِهَ بحقٍّ وكانَ الَّذي واجَهَهُ بذلكَ صاحبَ باطلٍ أنَّه ردَّ عليه الحقَّ فصارَ معنىٰ ذلكَ أنَّه لا يقبلُ الحقَّ، ثمَّ صارَ يُوجِّهُ الأدلَّةَ في إبطالِ ذلكَ الحقِّ، وهٰذا كما فعلَه طائفةٌ من أهلِ البدعِ.

والواجبُ أيضًا ألَّا تُرَدَّ البِدعَةُ ببدعةٍ، وألَّا تُرَدَّ البدعةُ إلَّا بحقٍّ، وإذا جهلَ المرءُ كيف يرُدُّ البدعةَ بحقٍّ فيصبرُ حتَّىٰ يتعلَّمَ أو يسألَ أهلَ العلمِ، وليسَ من الواجبِ عليكَ أن ترُدَّ مُباشرةً؛ بل إذا وُوجِهْتَ بحقٍّ ولو كانَ من أضلِّ الضُّلَّالِ فاقْبَلْ، فإبليسُ؛ الشَّيطانُ قُبِلَ منه بعضُ الحقِّ الَّذي جاءَ به وأرشدَ إليه أبا هُريرةَ، وهؤلاءِ اليَهودُ والنَّصارىٰ في هذين الحَديثينِ قُبِلَ مِنهما يعني من تلكَ الطَّائفتينِ حقًّا أرشَدونا إليهِ في أعظمِ المَسائلِ وأجلِّ المَطالبِ وهو توحيدُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

هٰذه المَسائلُ ليسَت مِن الشِّركِ الأكبرِ؛ بل من الأصغرِ دلَّ عليه قولُه في آخرِه: (قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا)، والشِّركُ في الألفاظِ أتىٰ بالتَّدريجِ بخلافِ -يعني نفيُ الشِّركِ في

الألفاظِ وتحريمُ الشِّركِ في الألفاظِ- أتىٰ بالتَّدريجِ في تاريخِ بِعثَةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتبليغِه أمَّتَه بالأوامرِ والنَّواهي، أمَّا الشِّركُ الأكبرُ فقد نفاهُ من أوَّلِ الرِّسالةِ، أمَّا شركُ الألفاظِ وبعضُ أنواعِ الشِّركِ الأصغرِ فأتىٰ بالتَّدريجِ، فكانَ الحَلِف بالآباءِ جائزًا ثمَّ نَهاهُم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ذلكَ، وكذلكَ قولُ ما شاءَ اللهُ وشئتَ ثمَّ نَهاهم عن ذلكَ.

ولهٰذا قال المُصنِّفُ في مَسائلِ كتابِ التَّوحيدِ: **فيه أنَّ الشِّركَ فيه أكبرُ وأصغرُ**؛ لقولِه: (يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا).

وأمَّا الشِّركُ الأكبرُ فلا يجوزُ أن يُؤخَّرَ إنكارُه أو أنْ يمنعَ عنه مانعٌ.

أمَّا شركُ الألفاظِ فقد تكونُ المَصلحةُ والفقهُ -فقهُ الدَّعوةِ-، وفقه ترتيبِ الأهمِّ والمُهمِّ وتقديمِ الأهمِّ علىٰ المُهمِّ أنْ يُؤخِّرَ بعضَه لتَتِمَّ المَصلحةُ العُظمىٰ.

أمَّا الشِّركُ الأكبرُ فلا مَصلحةَ تبقىٰ مع وُجودِه.



45- بَابٌ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

[1] وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الجاثية].

[2] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

(بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ)؛ الدَّهرُ هو الزَّمانُ؛ اليومُ، واللَّيلةُ، الأسابيعُ، الأشهرُ، السِّنونَ، العُقودُ، هٰذا هو الدَّهرُ، وهٰذه الأزمِنَةُ مَفعولَةٌ؛ مَفعولٌ بها لا فاعلةٌ، فهي لا تفعلُ شيئًا وإنَّما هي مُسخَّرةٌ؛ يُسخِّرُها اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وكلٌّ يعلَم أنَّ السِّنينَ لا تأتي بشيءٍ، وإنَّما الَّذي يفعلُ هو اللهُ جَلَّ وَعَلَا في هٰذه الأزمنةِ، ولهٰذا صارَ سبُّ هٰذه السِّنينَ سبًّا لمن تصرَّفَ فيها وهو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

لهٰذا عقدَ هٰذا البابَ بما يُبيِّنُ أنَّ سبَّ الدَّهرِ يُنافي كمالَ التَّوحيدِ، وأنَّ سبَّ الدَّهرِ يعودُ علىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بالإيذاءِ؛ لأنَّه سبٌّ لمن تصرَّفَ بهٰذا الدَّهرِ.

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ، وهو أنَّ سبَّ الدَّهرِ من الألفاظِ الَّتي لا تجوزُ، والتَّخلُّص منها واجبٌ، واستعمالُها مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، وهٰذا يحصُلُ من الجَهَلَةِ كثيرًا، فإنَّه إذا حصلَ لهم في زمانٍ شيءٌ لا يَسُرُّهم سبُّوا ذلكَ الزَّمانِ، ولعنوا ذلك اليومَ أو لعنوا تلكَ السَّنةَ أو لعنوا ذلكَ النَّهارَ ونحوِ ذلك من الألفاظِ الوَبيلَةِ، أو شتموا الزَّمانَ وهٰذا لا شكَّ لا يتوجَّهُ إلىٰ الزَّمنِ؛ لأنَّ الزَّمنَ شيءٌ لا يَفعلُ وإنَّما يُفعَلُ فيه وهو أذيَّةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا.

(بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ) السَّبُّ يكونُ بأشياءَ، والسَّبُّ في أصلِه التَّنقُّصُ أو الشَّتمُ، فيكونُ بتَنقُّصِ الدَّهرِ، أو يكون بلعنِه، أو بشتمِه، أو بنسبةِ النَّقائصِ إليه، أو بنسبةِ الشَّرِّ إليه، ونحوِ ذلك، وهٰذا كلُّه مِن أنواعِ سبِّه، واللهُ جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي يُقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ.

قال: (فَقَدْ آذَى اللَّهَ) ولفظُ (آذَى اللَّهَ) لأجلِ الحديثِ -حديثِ أبي هريرةَ- «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» ففيه رعايةٌ للفظِ الحديثِ.

سبُّ الدَّهرِ -كما ذكرنا- مُحرَّمٌ وهو درجاتٌ، وأعلاهُ لعنُ الدَّهرِ؛ لأنَّ توجُّهَ اللَّعنِ إلىٰ الدَّهرِ أعظمُ أنواعِ المَسبَّةِ وأعظمُ أنواعِ الإيذاءِ.

وليسَ من مَسبَّةِ الدَّهرِ وصفُ السِّنينَ بالشِّدَّةِ، ولا وصفُ اليومِ بالسَّوادِ، ولا وصفُ الأشهرِ بالنَّحسِ ونحوُ ذلكَ، لأنَّ هٰذا مُقيَّدٌ وهٰذا جاءَ في القرآنِ في نحوِ قولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾[فصِّلت:16]، ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ وصفَ اللهُ جَلَّوَعَلَا الأيَّام بأنَّها نَحِساتٌ، المَقصودُ في أيَّامٍ نَحِساتٍ عليهم، وصفَ الأيَّامَ بالنَّحسِ؛ لأنَّه جرىٰ عليهم فيها ما فيه نَحسٌ عليهم، ونحوُ ذلكَ قولُه جَلَّوَعَلَا في سورةِ القمرِ: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾، ﴿يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ أو يقولُ: يومٌ أسودُ أو سنَةٌ سوداءُ، هٰذا ليسَ من سبِّ الدَّهرِ لأنَّ المَقصودَ بهٰذا الوَصفِ ما حصلَ فيها كان من صِفَتِه كذا وكذا علىٰ هٰذا المُتكلِّمِ.

وأمَّا سبُّه أنْ ينسبَ الفعلَ إليه فيسبَّ الدَّهرِ لأجلِ أنَّه فعلَ به ما يَسوؤُه، فهٰذا هو الَّذي يكونُ أذيَّةً للهِ جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية:24]) هٰذه الآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ نسبةَ الأشياءِ إلىٰ الدَّهرِ هٰذه من خِصالِ المُشركينَ أعداءِ التَّوحيدِ، فنفهمُ مِنه أنَّ خصلةَ المُوحِّدينَ أن يَنسِبُوا الأشياءَ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا ولا يَنسِبُوا الإهلاكَ إلَّا إلىٰ الدَّهرِ؛ بل اللهُ جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يُحيي ويُميتُ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ »)، قولُه هنا: «وَأَنَا الدَّهْرُ» لا يعني أنَّ الدَّهرَ من أسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ ولكنَّه رتَّبَه علىٰ ما قبلَه فقال: «يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ»؛ لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّ الدَّهرَ لا يملكُ شيئًا ولا يفعلُ شيئًا، فسَبُّ الدَّهرِ سَبٌّ للهِ؛ لأنَّ الدَّهرَ يَفعلُ اللهُ جَلَّوَعَلَا فيه، فالزَّمانُ ظرفٌ للأفعالِ وليسَ مُستَقِلًّا، فلهٰذا لا يَفعلُ ولا يُحرِمُ ولا يُعفي ولا يُكرِمُ ولا يُهلِكُ وإنَّما الَّذي يفعلُ هٰذه الأشياءَ مالكُ المُلكِ المُتفرِّدُ بالمَلَكوتِ وتدبيرِ الأمرِ الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.

إذن فقولُه: «وَأَنَا الدَّهْرُ» هٰذا فيه نفيُ نسبةِ الأشياءِ إلىٰ الدَّهرِ، وأنَّ هٰذه الأشياءَ تُنسَبُ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فيرجعُ مَسبَّةُ الدَّهرِ إلىٰ مسبَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ الدَّهرَ لا مِلكَ له واللهُ هو الفاعلُ.

قال: «أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» واللَّيلُ والنَّهارُ هما الدَّهرُ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يُقلِّبُهما، فليسَ لهما من الأمرِ شيءٌ.

❀❀◈❀❀

46- بَابٌ
التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

[1] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ».

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي أَوْضَعُ.

(بَابٌ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ).

التَّوحيدُ يَقتَضِي من المُوحِّدِ المُؤمنِ باللهِ جَلَّوَعَلَا أن يُعَظِّمَه، وألَّا يجعلَ مَخلوقًا في منزلةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فيما يَختصُّ به، وتارةً يجعلُ المَخلوقَ من منزلةِ اللهِ لشُبهةِ وصفٍ قامَ به أو شيءٍ يكونُ عليه، ككَونِ القاضي هو رئيسُ القُضاةِ أو أعلمُ القُضاةِ فيُجعَلُ في اللَّفظِ والتَّسميةِ قاضيًا للقُضاةِ.

فلهٰذا نبَّه الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ علىٰ أنَّ التَّسمِّي بالأسماءِ الَّتي مَعناها إنَّما هو للهِ جَلَّجَلَالُهُ أنَّ هٰذا لا يجوزُ، والتَّوحيدُ يَقتَضِي ألَّا يوصَفَ بها إلَّا اللهُ وألَّا يُسمَّىٰ بها إلَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا، فتَسمِيَةُ غيرِ اللهِ بتلك الأسماءِ -الَّتي ستأتِي- لا تجوزُ ومُحرَّمٌ؛ بل هي أخنعُ الأسماءِ وأوضعُ تلكَ الأسماءِ وأبغضُ الأسماءِ إلىٰ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ.

قال: (بَابٌ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ) قولُه: (التَّسَمِّي) يَشملُ ما إذا سمَّىٰ نفسَه أو سمَّاه غيرُه به فرَضِيَ، أمَّا إذا سمَّاه غيرُه به فلم يرضَ فإنَّه لا يدخلُ في الذَّمِّ لعدمِ الرِّضىٰ، فإذا سُمِّيَ بذلك فيلحقُ الوعيدُ المُسَمِّيَ ومَن رضِيَ بذلك الاسمِ.

(بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ) ونحوُ قاضي القُضاةِ مثلُ: مَلكِ الأملاكِ، شاهان شاه ونحوُ ذلك، القُضاةُ كثيرون، قاضي القُضاةِ هو الَّذي يَقضِي بينَ القُضاةِ، تقولُ: قاضي المُسلمينَ؛ يعني الَّذي يَقضِي بينَ المُسلمينَ، قاضي الرِّياضِ يعني الَّذي يَقضِي في الخُصوماتِ الَّتي بينَ أهلِ الرِّياضِ، فقاضي القُضاةِ لفظٌ حقيقةُ مَعناهُ الَّذي يَقضِي بينَ القُضاةِ، وهٰذا إنَّما هو للهُ جَلَّجَلَالُهُ هو الَّذي يَقضِي بينَ العِبادِ بينَ القُضاةِ وبينَ العبيدِ، فهو قاضي القُضاةِ علىٰ الحقيقةِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، **فيُخْبَرُ** عنه بذلكَ؛ لأنَّ قاضي القُضاةِ ليسَ من أسماءِ البشرِ، فالَّذي يَقضِي بين القُضاةِ هو الله جَلَّجَلَالُهُ.

والَّذين أطلقوا هٰذه التَّسميَةَ علىٰ كبيرِ القُضاةِ أو علىٰ كبيرِ العُلماءِ لا يَعنونَ بها أنَّ ذاكَ يقضِي بينَ

القُضاةِ، وإنَّما يعنونَ بها أنَّه وصلَ إلىٰ مَرتبةٍ في القَضاءِ أو في العلمِ أعلىٰ من دَرجةِ القاضي، فصارَ قاضي القُضاةِ، كما شاعَ في الزَّمنِ المُتأخِّرِ في الدَّولةِ العُثمانيَّةِ أنَّهم يُسمُّون المُفتي شيخَ الإسلامِ، ووكيلَ المُفتي وكيلَ شيخِ الإسلامِ تسميةً خاصَّةً، وهٰذا انتشرَ في بلادِ المُسلمينَ -أعني: التَّسميةُ بقاضي القُضاةِ ونحوِه- من نحوِ القرنِ الرَّابعِ الهجريِّ إلىٰ أوقاتٍ مُتأخِّرَةٍ قريبةٍ من هٰذا الزَّمانِ.

فإذن الواجبُ علىٰ العبدِ ألَّا يجعلَ هٰذه التَّسميةَ جاريةً علىٰ لسانِه، ولا أنْ يَرضىٰ بها.

كذلكَ مالكُ الأملاكِ أو شَاهَانْ شَاهْ؛ يعني مَلكُ الأملاكِ، هٰذا فيه تسميةُ البشرِ بما يَختَصُّ باللهِ، فإنَّ الأملاكَ الَّذي يَملِكُها هو اللهُ جَلَّ وَعَلَا، والأملاكُ واسعةٌ، وإنَّما البشرُ يُطلَقُ عليه أنَّه مالكٌ للشَّيءِ المُعيَّنِ، وليس مالكًا لكلِّ شيءٍ، فالَّذي يملِكُ كلَّ شيءٍ هو اللهُ وحدَه، والبشرُ يَملكونَ بالإضافةِ بعضَ الأشياءِ، وكذلكَ المُلكُ بالضَّمِّ -وهو نفاذُ الأمرِ والسَّيطرَةُ- فإنَّه يكونُ في بعضِ الأرضِ وليسَ في كلِّ الأرضِ، فالَّذي يملِكُ يُقالُ عنه ملكٌ أو مالكٌ إذا كان يملِكُ مِلكًا أو مَلكٌ إذا كان يملك مُلكًا بمعنىٰ نفاذَ الأمرِ، ويُضافُ إلىٰ بُقعَتِه، فيُقالُ: مَلكُ المَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ، مَلكُ الأُردُن ونحوُ ذلك.

وأمَّا الإطلاقُ العامُّ، مِلكُ الأملاكِ، أو شَاهَانْ شَاهْ، فإنَّ الأملاكَ مِنها ما هوَ علىٰ الأرضِ، ومِنها غيرُ ذلك، وهٰذا إنَّما هو للهِ جَلَّ وَعَلَا، فالتَّوحيدُ يوجبُ ألَّا يتسمَّىٰ بذلكَ أحدٌ وألَّا يُرضَىٰ بتَسميةِ أحدٍ بذلكَ، حتَّىٰ لو وجدتَه في بعضِ الكُتبِ فلا تنقُلْه كما وجدتَه، قد يغلطُ بعضُ الباحثينَ، وبعضُ طلبةِ العلمِ فينقُلُ قولًا عن بعضِ أهلِ العلمِ المُتقدِّمينَ ممَّن يتجوَّزونَ في مثلِ هٰذه الألفاظِ، وفيه قال قاضي القُضاةُ: كذا، وكان قاضي القُضاةِ كذا ولا يُغيِّرُه، والواجبُ أن يُغيِّره تعظيمًا لله جَلَّ وَعَلَا، وأمانةُ النَّقلِ الَّتي يدَّعونَ هي في مرتبةٍ دونَ توحيدِ الله جَلَّ وَعَلَا بكثيرٍ كثيرٍ، فالواجبُ تغييرُ ذلك وهٰذا من توحيدِ الله وتغييرُ اشتراكِ غيرِ اللهِ اشتراكِ الخلفِ مع اللهِ جَلَّ وَعَلَا في حقِّه فيما يزعُمُه بعضُ الخلقِ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال هنا: (في الصَّحيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ») «أَخْنَعَ» يعني أوْضَعُ وأحقَرُ وأبعَدُ الأسماءِ عندَ الله (رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ) وهٰذا حصرٌ (لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ) يعني: المُلكُ أو المِلكُ (لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ) يعني: المِلكُ إنَّما هو لله وحدَه.

وهناك فرقٌ بين مَالِكٍ ومَلِكٍ.

فمالكٌ اسمُ فاعلٍ من المِلْكِ، مَلَكَ الشَّيءَ؛ يعني: اقتَناهُ وصارَ مُختَصًّا به؛ من المِلكِ، وهٰذا راجعٌ إلىٰ التَّصرُّف بالأعيانِ.

وأمَّا المُلكُ بالضَّمِّ، فالاسمُ مِنه المَلِكُ وهو الَّذي ينفُذُ أمرُه ونَهيُه، فيرجعُ اسمُ المَلِك أو المُلْك إلىٰ المَعاني.

فصارَ عندنا مُلكًا ومِلكًا، المِلكُ راجعٌ إلىٰ الأعيانِ، والمُلكُ راجعٌ إلىٰ المعاني، هٰذا في قولِ عددٍ مِن محُقِّقي أهلِ اللُّغةِ.

(قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ») وسببُ كَونِه أغيضَ رجلٍ وأخبثَ رجلٍ أنَّه جعلَ نفسَه مُماثلًا لله جَلَّوَعَلَا في الحقِّ بهٰذه التَّسميَةِ.



47- بَابُ

احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

[1] عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَىٰ أَبَا الْـحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْـحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْـحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هٰذا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

(بَابُ احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ) هٰذا البابُ فيه الإرشادُ إلىٰ الأدبِ الَّذي يجبُ أنْ يصدُرَ من قلبِ المُوحِّدِ ومن لسانِه، فإنَّ المُوحِّدَ مُتأدِّبٌ مع اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، ومُتأدِّبٌ مع أسمائِه، مُتأدِّبٌ مع صفاتِه، مُتأدِّبٌ مع دينِه، فلا يهزلُ -مثلًا- بشيءٍ فيه ذكرُ الله، ولا يُلقي الكلمةَ عن الله جَلَّ وَعَلَا هكذا دونَ أن يتدبَّرَ ما فيها، وكذلك لا يُسمِّي أحدًا بأسماءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، ويُغيِّرُ الاسمَ لأجلِ هٰذا، فأسماءُ الله جَلَّ وَعَلَا يجبُ احترامُها ويجبُ تعظيمُها، ومِن احترامِها أن يُجعلَ ما لا يصلُحُ إلَّا للهِ مِنها للهِ وحدَه وألَّا يُسمَّىٰ به البَشرُ.

قال: (بَابُ احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى) هٰذا الاحترامُ قد يكونُ مُستحَبًّا من جهةِ الأدبِ، وقد يكونُ واجبًا، فأسماءُ الله تعالىٰ يجبُ احترامُها؛ بمعنىٰ: يجبُ ألَّا تُمتَهنَ، ويُستحَبُّ احترامُها أيضًا فيما كانَ من الأدبِ ألَّا يوصفَ به غيرُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وهٰذا راجعٌ إلىٰ تعظيمِ شعائرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ قال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحجُّ]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحجُّ:30]، قال أهلُ العلمِ: **الشَّعائرُ جمعُ شَعيرةٍ وهي كلُّ ما أشعرَ اللهُ بتَعظيمِه**، كلُّ ما أشعرَ اللهُ؛ يعني: أعلَمَ بتَعظيمِه فهو شَعيرةٌ، وممَّا أشعرَ اللهُ بتعظيمِه أسماءُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فيجبُ احترامُها وتَعظيمُها.

لهٰذا يَستدِلُّ أهلُ العلمِ علىٰ وجوبِ ألَّا تُمتَهنَ أسماءُ اللهِ من جهةِ وُجودِها في الجرائدِ وفي الأوراقِ أنْ تُرمىٰ أو أنْ تُوضَعَ في أمكنَةٍ قذرَةٍ يستدلُّونَ علىٰ وجوبِ احترامِ ما فيه اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ في هاتين الآيتين وبالقاعدَةِ العامَّةِ في ذلكَ.

فإذن (احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّه تَعَالَى) من الأدبِ الَّذي قد يكونُ واجبًا وقد يكونُ مُستَحبًّا، (وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ).

[الدَّليلُ الأوَّلُ] ساقَ في هٰذا الحديثِ وهو قولُه: (عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَىٰ أَبَا الْـحَكَمِ).

(يُكْنَىٰ) هي الفصيحةُ أمَّا يُكَنَّىٰ فهٰذهِ ضَعيفةٌ، تقولُ: فُلانٌ يُكْنَىٰ بكذا، أمَّا يُكَنَّىٰ فليست بجيِّدَةٍ لأنَّ يُكْنَىٰ هي الَّتي كانَ عليها غالبُ الاستعمالِ فيما ذكرَه أهلُ اللُّغةِ.

(يُكْنَىٰ أَبَا الْحَكَمِ)، الحَكمُ من أسماءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، واللهُ جَلَّ وَعَلَا لم يَلِدْ ولم يولَدْ، فتكنِيَتُه بأبي الحكمِ غيرُ لائقةٍ:

لأنَّ الحَكمَ من أسماءِ اللهِ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا لم يلِدْ ولم يولَدْ ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ هٰذا مِن جهةٍ.

ومِن جهةٍ أُخرىٰ أنَّ **الحَكَمَ وهو بلوغُ الغايةِ في الحُكمِ**، أنَّ هٰذا فيما فيهِ فصلٌ بينَ المُتخاصِمينَ راجعٌ إلىٰ مَن له الحُكمُ وهو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وأمَّا البشرُ فإنَّهم لا يصلُحونَ أن يكونوا حُكَّامًا أو أن يكونَ الواحدُ منهم حَكمًا علىٰ وجهِ الاستقلالِ، ولكنْ يكونُ حَكمًا علىٰ وجهِ التَّبعِ، ولهٰذا أنكرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه هٰذه التَّسميَةَ، فقال له: (إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ)، ودخولُ (هُوَ) بين لفظِ الجلالةِ وبينَ اسمِه (الْحَكَمُ) يدُلُّ علىٰ اختصاصِه بذلكَ كما هو مُقرَّرٌ في علمِ المَعاني؛ لأنَّ (هُوَ) هٰذا الضَّميرُ عمادٌ أو ضميرُ فصلٍ لا محلَّ له من الإعرابِ، فائِدتُه أن يُحْصَرَ أو أن يُجعَلَ الثَّاني مُختَصًّا بالأوَّلِ.

قال: (وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ) يعني: أنَّ الحُكمَ إليه لا إلىٰ غيرِه، فلهٰذا لفظُ الحَكَمِ الَّذي يُفيدُ استغراقَ صفاتِ الحُكمِ هٰذا ليسَ إلَّا إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

ذاك الرَّجلُ علَّلَ: (فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هٰذا») (مَا أَحْسَنَ هٰذا) راجعٌ لا إلىٰ الحُكمِ راجعٌ إلىٰ الصُّلحِ؛ وهو أنْ يُصلِحَ بينَهم فيرضىٰ كِلا الفَريقينِ، فحكمَ بينَهم، هل حَكمَ بينَهم بالشَّرعِ أو بِما عندَه يعني بما يَراه؟ الجوابُ أنَّه حكمَ فيهم بما يَراهُ، ولو كانَ الحُكمُ بينَهم بالشَّرعِ لجازَ إطلاقُ الحَكمِ علىٰ مَن يَحكُمُ بينَ المُتخاصِمَينِ بالشَّرعِ، أمَّا إطلاقُه علىٰ الفاصلِ بين المُتخاصِمَينِ بغيرِ الشَّريعةِ، فإنَّ هٰذا مُخالِفٌ للأدبِ.

(فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هٰذا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ») بهٰذا نقولُ: من الأدبِ ألَّا يُسمَّىٰ أحدٌ بالحَكمِ أو الحاكمِ أو نحوِ ذلكَ إلَّا إذا كانَ مُنفِّذًا لأحكامِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، لهٰذا قال سُبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[النِّساء:35]، سمَّىٰ المَبعوثَ مِن هٰذا وهٰذا حَكمًا لأنَّهما يَحكُمانِ بالشَّرعِ، فالَّذي يَحكُمُ بما حكَمَ به اللهُ الَّذي هو الحَكمُ يُقالُ له: حَكمٌ؛ لأنَّه حكمَ بحُكمِ مَن له الحُكمُ وهو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فيسوغُ إطلاقُ ذلكَ ولا بأسَ به؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا وصفَ من يحكُمُ بشَرعِه بأنَّه حاكمٌ والَّذين يحكُمونَ بأنَّهم حُكَّامٌ وهم القُضاةُ قال جَلَّ وَعَلَا في سورةِ البقرةِ: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ

لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، قال: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ وهو جمعُ الحاكمِ ساغَ إطلاقُ ذلكَ؛ لأنَّه يحكُمُ بالشَّرعِ.

المَقصودُ بذلكَ أنَّ الأدبَ في هٰذا البابِ ألَّا يُسمَّىٰ أحدٌ بشيءٍ يختَصُّ اللهُ جَلَّوَعَلَا به، ولذلكَ أتبعَ هٰذا البابَ الَّذي قبلَه لأجلِ هٰذه المُناسبةِ، فتَسميَةُ مَلكِ الأملاكِ مُشابهةٌ لتسميةِ أبا الحكمِ من جهةِ أنَّ في كلِّ مِنهُما اشتراكٌ في التَّسميةِ؛ لكنْ فيها اختلافُ أنَّ أبا الحكمِ راجعٌ إلىٰ شيءٍ يفعَلُه هو وهو أنَّه يحكُمُ فيَرضَونَ بحُكمِه، وذاك مَلكُ الأملاكِ ادِّعاءٌ ليسَ له شيءٌ، ولهٰذا كان أخنعَ اسمٍ عندَ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ.



48- بَابٌ

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[التَّوبة].

[2] عن ابنِ عُمَرَ، ومحمَّدِ بنِ كَعْبٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وقَتادةَ - دَخلَ حَديثُ بَعْضِهِم في بَعْضٍ-؛ أنَّهُ قالَ رجُلٌ في غَزْوَةِ تَبوك: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أرغَبَ بُطونًا، ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، ولا أَجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ - يَعني الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ -، فقالَ له عَوْفُ بنُ مالكٍ: كَذَبْتَ؛ ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَهبَ عوفٌ إلىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ، فَوجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلْكَ الرَّجُلُ إلىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ ارْتَحلَ، وَرَكِبَ ناقَتَهُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ ونَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ (عَنَاءَ) [1] الطَّرِيقِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ متعلِّقًا بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإِنَّ الحِجارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، فيقولُ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إليه، ومَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ.

هٰذا (**بَابٌ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ**).

التَّوحيدُ الخالصُ في القلبِ؛ بل أصلُ التَّوحيدِ لا يُجامِعُ الاستهزاءَ باللهِ جَلَّ وَعَلَا وبرسولِه وبالقرآنِ؛ لأنَّ الاستهزاءَ مُعارَضةٌ والتَّوحيدَ مُوافقةٌ.

ولهٰذا قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: الكُفَّارُ نوعانِ:

- **مُعرِضونَ**؛ كمن قالَ الله فيهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الأنبياء].
- **ومُعارِضونَ**؛ وهم المُجادِلونَ أو الَّذين يُعارِضونَ بأنواعِ المُعارضاتِ لأجلِ إطفاءِ نـورِ اللهِ، ومِن ذلكَ الاستهزاءُ ونحوُه.

فالتَّوحيدُ استسلامٌ، وانقيادٌ، وقَبولٌ، وتعظيمٌ.

والهُزءُ والاستهزاءُ بشيءٍ فيه ذكرُ اللهِ أو القرآنِ أو الرَّسولِ هٰذا مُعارَضةٌ؛ لأنَّه مُنافٍ للتَّعظيمِ، ولهٰـذا صارَ كُفرًا أكبرَ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، لا يصدرُ الاستهزاءُ باللهِ أو برسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بالقرآنِ من قلبِ مُوحِّـدٍ

---

(1) نسخة العصيمي: عنًّا.

أصلًا؛ بل لابدَّ أنَّ يكونَ إمَّا مُنافقًا أو كافرًا مُشرِكًا.

قال: (**بَابُ مَنْ هَزَلَ**) **الهزَلُ خِلافُ الجِدِّ**، وصِفتُه: أن يتكلَّمَ بكلامٍ فيه الهـزَلُ والاستهزاءُ والعيبُ إمَّا باللهِ أو بالقرآنِ أو بالرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقولُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ هنا: (**بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ**) البـاءُ هٰذه هلْ هيَ الَّتي يُذكَرُ بعدَها وسيلةُ الهزَلِ؟ أو الباءُ الَّتي يُذكَرُ بعدَها ما هزَلَ فيه؟

الظَّاهرُ هو الثَّاني.

الأوَّلُ: (**بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ**) يعني ذكرَ اللهَ هازِلًا ذكرَ القرآنَ بشيءٍ فيه هزَلٌ ذكرَ الرَّسولَ بشيءٍ فيه هزَلٌ؛ يعني: هزَلَ وهو يذكُرُ هٰذه الأشياءِ.

والثَّاني: (**مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ**) يعني: كان المُستهزَأُ به أو المَهزولُ به هو ذكرُ اللهِ أو القرآنِ أو الرَّسولِ.

ومَعلومٌ أنَّ المَعنىٰ هو الثَّاني؛ لأنَّ الشَّيخَ يُريدُ أنَّ المُستهزَأَ بـه هـو اللهُ أو الرَّسـولُ أو القـرآنُ تِباعًا لنصِّ الآيةِ.

فمُناسبةُ هٰذا البابِ لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ؛ وهو أنَّ الهزَلَ والاستهزاءَ باللهِ أو بالرَّسولِ أو بالقرآنِ مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ وكُفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ؛ لكنْ بضابطِه -وهو ما ذَكرناه- من أنَّ الاستهزاءَ وهو الاستنقاصُ واللَّعبُ والسُّخرِيَّةُ يكونُ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ أو يكونُ بالرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يكونُ بالقرآنِ، وهٰذا هو الَّذي جاءَ فيه النَّصُّ قالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التَّوبة]، فمَنِ استَنقَصَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أو هزَلَ بذكرِه للهِ جَلَّ وَعَلَا؛ يعني: حينَما ذكرَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا استهزأَ أو هزَلَ ولم يُظهِرِ التَّعظيمَ في ذلكَ فتنقَّصَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا كما يفعلُ بعضُ الفسقَةِ والَّذين يقولونَ الكلمةَ لا يُلقونَ لها بالًا تَهوي ببَعضِهم في النَّارِ سَبعينَ خريفًا، أو هزَلَ بالقرآنِ أو استهزأَ بالقرآنِ أو بالسُّنَّةِ؛ يعني بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّه كافرٌ الكُفرَ الأكبرَ المُخرِجَ من المِلَّةِ. هٰذا ضابطُ هٰذا البابِ.

ويخرجُ عن ذلكَ ما لو استهزأَ بالدِّينِ، فإنَّ الاستهزاءَ بالدِّينِ فيه تفصيلٌ: فإنَّ المُستهزِئَ أو السَّابَّ للدِّينِ أو اللَّاعنَ للدِّينِ أو المُستهزِئَ بالدِّينِ قد يُريدُ دينَ المُستهزَإِ به ولا يُريدُ دينَ الإسلامِ أصلًا فلا يَرجعُ استهزاؤُه إلىٰ واحدٍ من الثَّلاثةِ.

ولهٰذا نقول:

- الكُفرُ يكونُ أكبرَ فيمَن استهزأَ إذا كانَ بأحدِ الثَّلاثةِ الَّتي ذَكرنا ونصَّتْ عليها الآيةُ، أو كـانَ راجِعًا

إلىٰ أحدِ الثَّلاثةِ.

◆ أمَّا إذا كانَ استهزاءً بشيءٍ خارجٍ عن ذلكَ فإنَّه يكونُ فيه تفصيلٌ:

فإنْ هزَلَ بالدِّينِ؛ فيُنظَرُ هل يُريدُ دينَ الإسلامِ، أو يُريدُ تديُّن فُلانًا.

مثلًا يأتي واحدٌ من المُسلمين ويستَهزِئُ مثلًا بهيئةِ أحدِ النَّاسِ، وهيئَتُه يكونُ فيها التزامٌ بالسُّنَّةِ، فهل هٰذا يكونُ مُستَهزِئًا الاستهزاءَ الَّذي يُخرِجُه من المِلَّةِ؟

الجواب: لا؛ لأنَّ هٰذا الاستِهزاءَ راجعٌ إلىٰ تديُّنِ هٰذا المرءِ وليسَ راجعًا إلىٰ الدِّينِ أصلًا، فيُعرَّفُ بأنَّ هٰذا سنَّةٌ عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا علِمَ أنَّه سنَّةٌ وأقرَّ بذلك وأنَّ النَّبيَّ فعلَه، ثمَّ استَهزأ؛ بمعنىٰ استَنقصَ أو هزأَ بالَّذي اتَّبع السُّنَّةَ مع علمِه بأنَّها سنَّةٌ وإقرارِه بصحَّةِ كَونِها سنَّةً، فهٰذا رجعَ إلىٰ الاستِهزاءِ بالرَّسولِ.

كذلك الاستِهزاءُ بكلماتٍ قد يكونُ مَرجِعُها إلىٰ القرآنِ وقد لا يكونُ مَرجِعُها إلىٰ القرآنِ= فيكونُ فيه تفصيلٌ.

فإذن، إذا سمِعتَ الاستِهزاءَ أو قَرأتَهُ:

◆ فإذا كان راجِعًا إلىٰ الاستِهزاءِ باللهِ أو بصِفاتِه أو بأسمائِه أو بالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو بالقرآنِ فإنَّ هٰذا كُفرٌ.

◆ فإنْ كانَ الاستِهزاءُ غيرَ ذلكَ، فتنظرُ في التَّفصيلِ:

- إن كان راجِعًا إلىٰ أحدِ الثَّلاثةِ فهو كُفرٌ أكبرُ.
- وإن كان غيرَ ذلك فإنَّه يَكونُ مُحرَّمًا ولا يكونُ كُفرًا أكبرَ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التَّوبة]) هٰذه الآيةُ نصٌّ في أنَّ المُستَهزِئَ باللهِ وبالرَّسولِ وبآياتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا -والمَقصودُ بها آياتُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا الشَّرعيَّةُ: القرآنُ- أنَّ هٰذا المُستَهزِئَ كافرٌ وأنَّه لا يَنفَعُه اعتِذارُه بأنَّه كان في هزَلٍ ولعِبٍ؛ بل هو كافرٌ لأنَّ تعظيمَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وتوحيدَه يوجبُ عليه ألَّا يستَهزِئَ.

إذن قولُه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ هو دليلُ كُفرِ المُستهزِئِ.

وهٰذه الآيةُ نزلَت في المُنافقينَ، وبعضُ أهلِ العلمِ قالَ: ليسَت في المُنافقينَ. وهٰذا غلطٌ وليسَ بصَوابٍ؛ ذلكَ لأسبابٍ ومِنها أنَّ هٰذه السُّورَةَ الَّتي مِنها هٰذه الآيةُ هي في حالِ المُنافقينَ؛ ولأنَّ السِّياقَ -

سباقَه ولحاقَه- يدلُّ علىٰ أنَّ الضَّمائِرَ فيها ترجِعُ إلىٰ المُنافقينَ.

قالَ جَلَّ وَعَلَا قبلَ هٰذه الآيةِ في سورةِ براءة: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾، فهٰذه ظاهرةٌ في أنَّ سباقَها في المُنافقينَ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني من ذُكِرَ قبلَ هٰذه الآيةِ وهم المُنافقونَ لقولِه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾.

ثمَّ قالَ بعدَها: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾، وكذلكَ ما بعدَها من الآياتِ في المُنافقينَ في قولِه جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ ﴾[التَّوبة:67]، والأدلَّة علىٰ ذلكَ كثيرةٌ.

فالصَّوابُ في ذلكَ: أنَّ المُرادَ بهؤلاءِ أنَّهم المُنافقونَ، وأمَّا أهلُ التَّوحيدِ فإنَّه لا يصدُرُ منهم استِهزاءٌ أصلًا، ولو استَهزأَ لعَلِمنا أنَّه غيرُ مُعظِّمٍ للهِ وأنَّ توحيدَه ذهبَ أصلًا؛ لأنَّ الاستِهزاءَ يَطرُدُ التَّعظيمَ.

[**الدَّليلُ الثَّاني**] والدَّليلُ الَّذي ذكرَه في سببِ النُّزولِ وقصَّةِ النُّزولِ ظاهرةٌ.

فالواجبُ علىٰ المُسلمينَ جميعًا وعلىٰ طلبةِ العلمِ خاصَّةً أن يَحذَروا من الكلامِ؛ لأنَّ الكثيرين يتكلَّمونَ بكلامٍ لا يُلقونَ له بالًا خاصَّةً في مِجالسِ بعضِ المُنتَسبينَ إلىٰ الخيرِ وطلبةِ العلمِ، ربَّما استَهزَؤُوا أو ربَّما تكلَّموا بكلامٍ فيه شيءٌ من الهزَلِ أو شيءٌ مِن الضَّحكِ، وكانَ في أثناءِ هٰذا الكلامِ فيه ذكرُ اللهِ أو فيه ذكرُ القرآنِ أو فيه ذكرُ بعضِ العلمِ، وهٰذا ممَّا لا يجوزُ، وقد يدخلُ أحدُهم في قولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**» نسألُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا السَّلامةَ والعافيةَ.

فالواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يُعظِّمَ اللهَ وألَّا يتلفَّظَ بلسانِه إلَّا بكلامٍ عقَلَه قبلَ أنْ يقولَه؛ لأنَّ اللِّسانَ هو مَوردُ الهَلكةِ، قال مُعاذٌ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَوَ إِنَّا يا رَسولَ اللهِ مُؤاخَذونَ بما نَقولُ؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ** -أَوْ قَالَ: **عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**» فاللهَ اللهَ في اللِّسانِ؛ لأنَّه أعظمُ الجَوارحِ خطرًا مِمَّا يَسهلُ أو يتساهلُ به أكثرُ النَّاسِ.

فاحذَرْ ما تقولُ خاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالدِّينِ أو بالعلمِ أو بأولياءِ اللهِ أو بالعلماءِ أو بصحابةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو بالتَّابعينَ، فإنَّ هٰذا مَوردُه خطيرٌ، واللهُ المُستَعانُ، وقد عَظُمَت الفتنةُ، والنَّاجي مَن سلَّمَه اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

❀❀◈❀❀

49- بَابٌ

[1] مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾[فصلت]

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هٰذا بِعَمَلي، وَأَنَا مَحْقوقٌ بِهِ».

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يريدُ من عِنْدي».

[2] وَقَوْلُـهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:78].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوجُوهِ الْـمَكَاسِبِ».

وَقَالَ آخرونَ: «عَلىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ».

وَهٰذا مَعْنَىٰ قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ».

[3] وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ سِمعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاثَـةً مِـنْ بَنـي إِسْـرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَىٰ، فأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَـأَتَىٰ الأَبْـرَصَ، فقَـالَ: فَـأيُّ شَـيءٍ أَحَـبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَني النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَـذَهَبَ عَنْـهُ قَذَرُهُ؛ فأُعطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْـمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلَ أَوِ البَقَر - شَكَّ إِسْحَاقُ - فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَـرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فأَتَىٰ الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شيءٍ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرني النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحهُ، فَذَهبَ عنْهُ، وَأُعطِيَ شَعْـرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأيُّ الْـمَالِ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبِلُ، فأُعطِيَ بقَرةً حامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فأَتَىٰ الأَعْمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَري؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قالَ: الغَنَم، فأُعطِيَ شاةً وَالِدًا.

فأَنْتَجَ هٰذانِ وَوَلَّد هٰذا، فكَانَ لِهٰذا وَادٍ مِنَ الإِبلِ، وَلِهٰذا وادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهٰذا وَادٍ مِنَ الغَنَم.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّه أَتَىٰ الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، [وَابْنُ سَبيلٍ]، قَدِ انقطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي هٰذا؛ فَلَا بلاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بك، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّونَ الْـحَسَنَ، وَالْجِلْـدَ الْحسَـنَ، وَالْـمَالَ؛ بَعِيرًا أَتبلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْـرَصَ يَقْـذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعطاكَ اللهُ الْمَالَ؟ فقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هٰذا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَـيَّرَكَ

اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهٰذا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هٰذا، فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ؛ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ.

فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ.

هٰذا البابُ كالأبوابِ الَّتي قبلَه في بيانِ وجوبِ تعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في الألفاظِ، وأنَّ النِّعَمَ تُنسَبُ إليه وأنْ يُشكَرَ عليها: فتُعزىٰ إليه، ويقولُ العبدُ: هٰذا أنعمَ اللهُ عليَّ به، والكذبُ في هٰذه المَسائلِ أو أنْ يتكلَّمَ المرءُ بكلامٍ ليس مُوافِقًا للحقيقةِ، أو هو مُخالِفٌ لما يعلمُه مِن أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أنعمَ عليه بذلك، هٰذا قد يُؤدِّيه إلىٰ المَهالكِ وقد يسلُبُ اللهُ جَلَّوَعَلَا عليه النِّعمةَ بسببِ لفظِه.

فالواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يتحرَّزَ في ألفاظَه خاصَّةً بما يتَّصلُ باللهِ جَلَّوَعَلَا أو بأسمائِه وصِفاتِه أو بأفعالِه وإنعامِه أو بعدلِه وحِكمتِه، هٰذا ويجبُ علىٰ العبدِ أنْ يكونَ مُتَحرِّزًا في ذلكَ، والتَّحرُّزُ في ذلكَ مِن كمالِ التَّوحيدِ؛ لأنَّه لا يصدُرُ التَّحرُّزُ إلَّا من قلبٍ مُعظِّمٍ للهِ، مُجِلٍّ للهِ، مُخبِتٍ للهِ؛ يعلَمُ أنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ مُطَّلِعٌ عليه، وأنَّه سُبحانَه هو وليُّ الفضلِ وهو وليُّ الإنعامِ وهو الَّذي يستَحقُّ أن يُجَلَّ فوقَ كلِّ جليلٍ، ويستَحقُّ أنْ يُحَبَّ فوقَ كلِّ مَحبوبٍ، وأن يُعظَّمَ فوقَ كلِّ مُعظَّمٍ.

فاللهُ جَلَّجَلَالُهُ يجبُ تَوقيرُه وتعظيمُه في الألفاظِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] ومن ذلكَ ما عقد له الشَّيخُ هٰذا البابِ حيثُ قال: (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصِّلت: 50]** ، (قالَ مُجاهِدٌ) في تفسيرِها: (هٰذا بِعَمَلي، وأنا مَحْقوقٌ بِهِ)؛ يعني نسبَ النِّعمَةَ إلىٰ نفسِه أو نسَبَ استِحقاقَ النِّعمةِ إليه وأنَّه يَستَحقُّ ذلكَ وأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا لم يتفضَّلْ عليه بهٰذا الشَّيءِ، أو أنَّه تفضَّلَ عليه لأنَّه مُستَحِقٌّ لهٰذا الإنعامِ، مُستَحِقٌّ للمالِ، مُستَحِقٌّ للجاهِ، مُستَحِقٌّ لرِفعةِ القدرِ عندَ النَّاسِ، فصارَ إليه ذلك الشَّيءُ؛ من المالِ والرِّفعةِ والسُّمعةِ الطَّيِّبةِ؛ لأنَّه مُستَحِقٌّ لذلكَ الشَّيءِ بفعلِه وجُهدِه ونحوِ ذلكَ، ممَّا قد يطرأُ علىٰ قُلوبِ ضُعفاءِ الإيمانِ وضُعفاءِ التَّوحيدِ.

والواجبُ أنْ يعلمَ العبدُ أنَّه فقيرٌ غيرُ مُستَحِقٍّ لشيءٍ علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المُستَحِقُّ

علىٰ العبدِ أنْ يشكُرَه وأن يذكُرَه وأن ينسُبَ النِّعمَ إليه، وأمَّا العبدُ فليسَ مُستَحِقًّا في الدُّنيا لحقٍّ واجبٍ علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، إلَّا ما أوجبَه اللهُ جَلَّوَعَلَا علىٰ نفسِه.

فهٰذا الَّذي قال: (هٰذا بِعَمَلي، وأَنا مَحْقوقٌ بِهِ). يعني بعدَ أن أتَتْه رحمةٌ مِن بعدِ الضَّراءِ قال: (هٰذا بِعَمَلي، وأَنا مَحْقوقٌ بِهِ) وهٰذا يدخلُ فيه كثيرٌ ممَّا يحصُلُ في ألفاظِ النَّاسِ، كقولِ الطَّبيبِ مثلًا: هٰذا الَّذي حصلَ من شفاءِ المريضِ هٰذا بسبَبِ عملي، أو نجاحي وتولِّيَ هٰذا الأمرَ هٰذا بسبَبِ جُهدي وبسبَبِ تَعبِي، ممَّا يجعلُ أنَّ فعلَ اللهِ جَلَّوَعَلَا فيه ذلكَ بسببِ استِحقاقِه، أو أنْ ينسَىٰ اللهَ جَلَّوَعَلَا وينسِبَ الأشياءَ إلىٰ نفسِه.

ولهٰذا قالَ: (وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يريدُ من عِنْدي») يعني هٰذا لي، يقولُ مِن عِندِي أنا الَّذي أتَيتُ بهٰذا المالِ أو بهٰذه النِّعمَةِ، وهٰذا من عِندِي ولم يُتفضَّلَ عليَّ به.

إذن فدخلَ في هٰذا الوَصفِ الَّذي جاءَ في الآيةِ نوعان مِن النَّاسِ:

- من ينسِبُ الشَّيءَ إلىٰ نفسِه ولا ينسِبُه إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا أصلًا.
- والثَّاني أنْ ينسِبَه إلىٰ نفسِه من جهةِ الاستِحقاقِ، وأنَّه يرىٰ نفسَه مُستَحِقًّا لذلكَ الشَّيءِ علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، كما يحصُلُ من بعضِ المَغرورينَ؛ أنَّه إذا أطاعَ اللهَ واتَّقاهُ وحصلَتْ له نِعمَةٌ فيقولُ: حصلَتْ لي النِّعمَةُ من جرَّاءِ استِحقاقي للنِّعمَةِ فأنا العابدُ لله جَلَّوَعَلَا، ولا يستَحضِرُ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا يرحمُ عبادَه، ولو حاسَبَه علىٰ عملِه لم تقُمْ عباداتُه وعملُه بنِعمَةٍ من النِّعَمِ الَّتي أسداها اللهُ جَلَّوَعَلَا له.

فالواجبُ -إذن- علىٰ العبدِ أنْ ينسِبَ النِّعَمَ جميعًا للهِ، وأنْ يشعُرَ بأنَّه لا يستَحِقُّ شيئًا علىٰ اللهِ، وإنَّما اللهُ هو المُستَحِقُّ للعُبودِيَّةِ، هو المُستَحِقُّ للشُّكرِ، هو المُستَحِقُّ للإجلالِ، والعبدُ فقيرٌ مُذنِبٌ مَهما بلغَ، وانظُرْ إلىٰ أبي بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كيفَ علَّمَه النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنَّه يقولُ في آخرِ صلاتِه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي**». هٰذا أبو بكرٍ علَّمَه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنْ يقولَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**»، فكيفَ بحالِ المَساكينِ أمثالِنا أو أمثالِ أكثرِ هٰذه الأمَّةِ؟ كيف يظُنُّونَ في أنفُسِهم أنَّهم يستَحِقُّون علىٰ اللهِ شيئًا؟

فإذن تمامُ التَّوحيدِ أن يُجِلَّ اللهَ العبدُ، وأنْ يُعظِّمَ العبدُ ربَّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وألَّا يعتَقِدَ أنَّه مُستَحِقٌّ للنِّعَمِ أو إنَّما أوتيها بجُهدِه وجِهادِه وعَملِه وذَهابِه ومَجيئِه؛ بل هو فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يَشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

فِعلُ العبدِ سبَبٌ وهٰذا السَّبَبُ قد يتخلَّفُ وقد يكونُ مُؤثِّرًا، وكان مُؤثِّرًا بإذنِ الله جَلَّوَعَلَا، فرجَعَ

الأمرُ إلىٰ أنَّه فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ.

[الدَّليل الثَّاني] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:78]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوجُوهِ الْمَكَاسِبِ) هٰذا في قصَّةِ قارونَ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[القصص:76] إلىٰ أنْ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[القصص:78]، قال قتادةُ: علىٰ علمٍ مِنِّي بوُجوهِ المَكاسبِ، وهٰذا يحصُلُ لكثيرٍ ممَّنْ أغناهم اللهُ جَلَّ وَعَلَا وصاروا في تِجارَةٍ عظيمةٍ، ينسِبُ الشَّيءَ إلىٰ نَفسِه، فيقولُ: أنا خبيرٌ، أنا أفهمُ، أنا عِندي عِلمٌ بوُجوهِ المَكاسبِ، ونحوِ ذلك، وينسىٰ أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي تفضَّلَ ولو منعَ اللهُ السَّببَ الَّذي فعلَه مِنَ التَّأثيرِ لم يَصِرْ شيئًا، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي تفضَّلَ عليه، وهو الَّذي وفَّقَه وهو الَّذي هداهُ للفِكرَةِ، وهو الَّذي جعلَ السَّببَ مُؤثِّرًا، فاللهُ هو المُنعِمُ ابتداءً وهو المُنعِمُ خِتامًا.

فالواجبُ -إذن- أنْ يتخلَّصَ العبدُ من رُؤيةِ نفسِه، وأنْ يعلَمَ أنَّه لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ فإنَّها كنزٌ من كُنوزِ الجنَّةِ.

فهٰذا البابُ مَعقودٌ لِما ذَكرنا من تخليصِ القلبِ واللِّسانِ مِن ألفاظٍ واعتقاداتٍ باطِلَةٍ يظُنُّ المرءُ فيها أنَّه مُستَحِقٌّ أشياءَ علىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، والتَّوحيدُ هو أنْ يكونَ العبدُ ذَليلًا خاضِعًا بينَ يَدَي اللهِ، يعلَمُ أنَّه لا يستَحِقُّ شيئًا علىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وإنَّما هو فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاءُ.

قال: (وَقَالَ آخَرونَ: «عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ») وهٰذا يشمَلُ أحدَ الدَّرجَتَينِ اللَّتَينِ ذَكرتُهما.

قال: (وَهٰذا مَعْنَىٰ قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ»).

[الدَّليل الثَّالث] ثمَّ ساقَ حديثَ أبي هُريرةَ الطَّويلِ والدِّلالَةُ من ظاهرِه أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا عافىٰ هؤلاءِ؛ ولكنَّه لمَّا عافاهم نسَبَ اثنانِ منهم النِّعمَةَ إلىٰ أنفُسِهم، وثالثٌ نسَبَها إلىٰ اللهِ فجزىٰ اللهُ الأخيرَ خيرًا وأدامَ عليه النِّعمَةَ، وعاقبَ ذَينَكَ الرَّجُلَينِ، وهٰذا فضلُ اللهِ يُنعِمُ ثمَّ يُثبِّتُ النِّعمَةَ فيمن شاءَ ويَصرِفُ النِّعمَةَ عمَّن يشاءُ.

ومِن أسبابِ ثباتِ النِّعمَةِ: أنْ يُعظِّمَ العبدُ ربَّه، وأنْ يعلَمَ أنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ، وأنَّ النِّعمَةَ هي نِعمَةُ اللهِ.

ثمَّ في ختامِ هٰذا الأبواب الوَصيَّةُ بأن تكونَ حذِرًا في اللِّسانِ، حذِرًا فيما تتكلَّمُ به، وأنْ تعلَمَ أنَّ كلَّ خَيرٍ إنَّما هو مِن اللهِ، وألَّا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ولو سَلَبَكَ اللهُ العِنايةَ مِنه جَلَّ وَعَلَا طَرفةَ عَينٍ لكُنتَ هالِكًا ومِن الخاسرينَ، فإنَّ العبدَ أحوجُ ما يكونُ إلىٰ الاعترافِ والعلمِ بأسماءِ اللهِ وبصِفاتِه وبآثارِ ذلكَ في مَلَكوتِه، وبرُبوبيَّتِه جَلَّ وَعَلَا علىٰ خلقِه، وبعبادتِه حقَّ عبادتِه.

أسألُ اللهَ لي ولكمُ النُّورَ في القُلوبِ والصَّوابَ في الأقوالِ والأعمالِ والاعتقاداتِ، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



الدَّرس الخامس عشر

50 - بَابٌ

[1] **قَوْلُ اللهِ تَعَالى:** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾[الأعراف]

[2] قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ».

[3] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ؛ لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقَّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ؛ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: «أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا».

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا.

بسم اللهِ الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمدُ للهِ حقَّ حَمدِه، وأشهدُ ألَّا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورَسولُه صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحبِه وسلَّم تَسليمًا كثيرًا إلىٰ يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ؛

فهٰذا البابُ ترجَمَه المُصنِّفُ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بقولِه: (**بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾[الأعراف]).

فمُناسبةُ هٰذا البابِ للأبوابِ قبلَه أنَّه وتلكَ الأبوابَ بمعنًىٰ واحدٍ وذلكَ المَعنىٰ أنَّ شُكرَ النِّعمَةِ للهِ جَلَّ وَعَلَا فيما أنعَمَ به يَقتَضِي أنْ تُنسَبَ إليه جَلَّ وَعَلَا، وأنْ يُحمَدَ عليها ويُثْنَىٰ عليه بها، وأنْ تُستَعمَلَ في مَراضيهِ جَلَّ وَعَلَا، وأن يُتَحدَّثَ بنعمَةِ اللهِ، فالَّذي ينسِبُ النِّعَمَ إلىٰ نفسِه، هٰذا لم يُحقِّقِ التَّوحيدَ، فإنَّه جمعَ بينَ تركِ تعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وما بينَ ادِّعاءِ شيءٍ ليسَ له، كذلكَ الَّذي يعتَقِدُ في غيرِه الَّذي هو المُنعِمُ عليه

كقولِ القائلِ: لولا فُلانٌ لم يَكُنْ كذا، أو نحوُ تلكَ العباراتِ الَّتي تدخُلُ في قولِه تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة]، وفي قولـه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل:83]، هٰـذه وأمثالُها راجعٌ إلىٰ عدمِ شُكرِ النِّعمَةِ، ومَن شُكْرِ النِّعَمِ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا إذا أنعمَ علىٰ عبدٍ بوَلَدٍ وجعلَهُ سَليمًا مُعافًىٰ ورَزَقَه بتلكَ النِّعمَةِ الَّتي هي نِعمَةُ الولدِ أنْ يشكُرَ اللهَ عليها.

ومِن عدمِ شُكرِ النِّعمَةِ تلكَ ونسبتِها إلىٰ غيرِ اللهِ أنْ يُعبِّدَ الولدَ لغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فإنَّ هٰذا مُضادٌّ للاعترافِ بأنَّ المُنعِمَ ذلكَ الولدَ هو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، وقد يصِلُ ذلكَ إلىٰ حدِّ الشِّركِ الأكبرِ إذا عَبَّدَ الولدَ لوليٍّ أو لعبدٍ صالحٍ، وهو يَعني حقيقةَ العُبوديَّةِ الَّتي هي أنَّ هٰذا عبدٌ لذاكَ؛ لأنَّ ذاكَ إلهٌ، كمن يُعبِّدُ لبعضِ المَشايخِ فيقولُ: عبدُ السَّيدِ ويَعنونَ به السَّيِّدَ البَدوِيَّ، ويقولون: عبدُ زَينَبَ وعبدُ عليٍّ وعبدُ عمرٍو، ونحوُ ذلكَ من الأسماءِ الَّتي فيها اعتِقاداتٌ.

فمَن عبَّدَ لغيرِ الله جَلَّوَعَلَا فإنَّ هٰذا يُنافي شُكرَ النِّعمَةِ، ولهٰذا أتْبعَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا البـابَ الأبـوابَ قبلَه لِما يشتركُ معها في هٰذا المَعنىٰ، وأنَّ الواجبَ علىٰ العبدِ أنْ يُحقِّقَ التَّوحيدَ وألَّا ينسِبَ النِّعَمَ لغيـرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وإنْ وقعَت منه ذلكَ فيجبُ عليه أن يُبادِرَ بالتَّوبةِ وألَّا يُقيم علىٰ ذلكَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (**بَابٌ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾**[الأعراف]) قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الضَّميرُ هنا يرجعُ إلىٰ آدمَ وحوَّاءَ، والَّذي عليه عامَّةُ السَّلفِ أنَّ القصَّةَ في آدمَ وحوَّاءَ حتَّىٰ قال الشَّارحُ الشَّيخُ سُليمانُ بنُ عبدِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنَّ نِسبَةَ ذلكَ إلىٰ غيرِ آدمَ وحوَّاءٍ هو من التَّفاسيرِ المُبتَدعةِ. والَّذي يعرِفُه السَّلفُ أنَّ الضَّميرَ يرجِعُ إلىٰ آدمَ وحوَّاءَ، وسياقُ الآيةِ لا يَقتَضي غيرَ ذلكَ إلَّا بأوجُهٍ مِن التَّكلُّفِ، ولهٰذا الإمامُ الشَّيخُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمدَ هٰذا الَّذي عليه عامَّةُ السَّلفِ ففسَّرَ هٰذه الآيةَ بأنَّ المُرادَ بها آدمُ وحوَّاءُ، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ يعني: آتىٰ اللهُ آدمَ وحوَّاءَ صالحًا، وقولُه: ﴿صَٰلِحًا﴾؛ يعني: من جِهةِ الخِلقَةِ؛ لأنَّه كان يأتيهما ولدٌ فيموتُ أو يكونُ مَعيبًا فيَموتُ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا رزقَهما هٰذا الولدَ الصَّالحَ السَّليمَ في خِلقَتِه السَّليمَ في بِنْيَتِه، وكذلكَ هو صالحٌ لهما من جهةِ نفعِهما، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾، ﴿جَعَلَا﴾ يعني آدمَ وحوَّاءَ ﴿لَهُۥ﴾ يعني: للهِ جَلَّوَعَلَا، ﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وكلمةُ ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمعُ الشَّريكِ، والشَّريكُ في اللُّغةِ هو المَقصودُ بهٰذه الآية؛ يعني: هٰذه الآيةُ فيها لفظُ الشُّركاءِ، والمَقصودُ بها مَعنىٰ الشَّركَةِ في اللُّغةِ، ومعنىٰ الشَّرِكَةِ في اللُّغةِ اشتراكُ اثنينِ في شَيءٍ، فجعلا للهِ شُركاءَ فيما آتاهُما؛ حيثُ سمَّيا ذلكَ الولدَ عبدَ

الحارثِ، والحارثُ هو إبليسُ؛ ذلكَ أنَّ إبليسَ كما سَمِعْتُمْ في القِصَّةِ هو الَّذي قال: إنْ لم تُسمِّياهُ عبدَ الحارثِ لأفعَلنَّ ولأفعَلنَّ ولأجعَلنَّ له قَرنَي أيِّلٍ وهو ذكرُ الوعلِ، وفي هٰذا تهديدٌ بأنْ يَشُقَّ بطنَ الأمِّ فتموتَ ويموتَ أيضًا الوَلدُ، فلمَّا رأت حوَّاء ذلكَ وأنَّها قد ماتَ لها عدَّةُ بُطونٍ فأطاعَتِ الشَّيطانَ في ذلكَ، فصارَتِ الشِّركَةُ شَرِكَةً في الطَّاعةِ، وآدمُ وحوَّاءُ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ قد أطاعا الشَّيطانَ من قبلُ حيثُ أمرَهما بأنْ يأكُلا مِن الشَّجرةِ الَّتي نَهاهُما اللهُ جَلَّوَعَلَا عنها، فوقوعُ طاعةِ الشَّيطانِ مِن آدمَ وحوَّاءَ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وقوعُ ذلكَ مِنهما لم تكُنْ هٰذه هي أوَّلُ مرَّةٍ كما جاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**خَدَعَهُمَا مَرَّتَيْنِ**» وهٰذا هو المَعروفُ عندَ السَّلفِ.

فيكونُ -إذن- قولُه: ﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ مِن جهةِ التَّشريكِ في الطَّاعةِ، ومَعلومٌ أنَّ كلَّ عاصٍ هو مُطيعٌ للشَّيطانِ، وكلُّ مَعصيةٍ لا تصدُرُ مِن العبدِ إلَّا وثَمَّ نوعُ تشريكٍ حصلَ في الطَّاعةِ، لأنَّه إمَّا أنْ يُطيعَ هَواهُ وإمَّا أنْ يُطيعَ الشَّيطانَ.

ولهٰذا قالَ شيخُ الإسلامِ وغيرُه من المُحقِّقينَ: إنَّه ما مِن مَعصيةٍ يَعصي بها العبدُ ربَّه إلَّا وسببُها طاعةُ الشَّيطانِ أو طاعةُ الهَوىٰ؛ وذلكَ نوعُ تشريكٍ. وهٰذا الَّذي حصلَ مِن آدمَ وحوَّاءَ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، فهٰذا لا يقتَضي نقصًا في مَقامِهما، ولا يَقتَضي شِركًا باللهِ جَلَّوَعَلَا، وإنَّما هو نوعُ تشريكٍ في الطَّاعةِ، والمَعاصي جائزةٌ -يعني: المَعاصي الصِّغارُ- جائزةٌ علىٰ الأنبياءِ كما هو مَعلومٌ عندَ أهلِ العلمِ، فإنَّ آدمَ نبيٌّ مُكلَّمٌ، وصِغارُ الذُّنوبِ جائزة علىٰ الأنبياءِ ولا تقدَحُ في كمالِهم؛ لأنَّهم لا يَستَقيمون عليها؛ بل يُسرِعون ويُنيبون إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، ويكونُ حالُهم بعدَ ما وقعَ مِنهم ذلكَ أعظمَ مِن حالِهم قبلَ أنْ يقعَ مِنهم ذلكَ؛ لأنَّه يكونُ لهم مَقاماتٌ إيمانيَّةٌ واعترافٌ بالعُبوديَّةِ أعظمُ وخضوعٌ بينَ يدي اللهِ أعظمُ، ومَعرفةٌ بتحقيقِ ما يجبُ للهِ جَلَّوَعَلَا وما يُستَحَبُّ أعظمُ.

إذن هٰذه القصَّةُ كما ذَكرنا صحيحةٌ، وآثارُ السَّلفِ الكثيرةُ تدلُّ عليها، والسِّياقُ أيضًا سياقُ الآياتِ في آخرِ سورةِ الأعرافِ يدلُّ عليها.

والإشكالُ الَّذي أوردَه بعضُ أهلِ التَّفسيرِ مِن المُتأخِّرينَ في أنَّ آدمَ وحوَّاءَ جعلا للهِ شُركاءَ هٰذا نصُّ الآيةِ ولا يَمنعُ؛ ولأنَّ التَّشريكَ هنا تَشريكٌ كما قُلنا فيما يدُلُّ عليه المَعنىٰ اللُّغويُّ ليس شِركًا أصغرَ، وليسَ -وحاشاهم- شِركًا أعظمَ مِن ذلكَ وإنَّما هو تَشريكٌ في الطَّاعةِ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[الفرقان]، وكما قال أيضًا في آيةٍ أُخرىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾[الجاثية:23]، فكلُّ مَن جعلَ هَواهُ متَّبَعًا فقد جعلَه مُطاعًا، وهٰذا نوعُ تأليهٍ؛

لكنْ لا يُقالُ: عبدَ غيرَ اللهِ أو ألَّه أشركَ أو شركٌ باللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لكنْ هو نوعُ تشريكٍ، فكلُّ طاعةٍ للشَّيطانِ أو للهَوىٰ فيها هٰذا النَّوعُ من التَّشريكِ، إذِ الواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يُعظِّمَ اللهَ جَلَّوَعَلَا وألَّا يُطيعَ إلَّا أمرَه جَلَّوَعَلَا وأمرَ رسولِه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فإذن ظاهرٌ أنَّ القصَّةَ لا تَقتضي نقصًا في مَقامِ آدمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ولا في مَقامِ حوَّاءَ؛ بل هو ذنبٌ مِن الذُّنوبِ تابا مِنه كما حصلَ مِنهما أوَّلَ مرَّةٍ في الأكلِ مِن الشَّجرةِ.

بل إنَّ أكلَهما مِن الشَّجرةِ ومُخالَفَةَ أمرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا أعظمُ مِن هٰذا الَّذي حصلَ مِنهما هنا وهو تَسمِيَةُ الولدِ عبدَ الحارثِ؛ وذلكَ أنَّ الخِطابَ الأوَّلَ كان مِنَ اللهِ جَلَّوَعَلَا لآدمَ مُباشرَةً، خاطَبَه اللهُ جَلَّوَعَلَا ونَهاه عن أكلِ هٰذه الشَّجرةِ، وهٰذا خطابٌ مُتوجِّهٌ إلىٰ آدمَ بنفسِه.

وأمَّا هٰذه التَّسميةُ فإنَّه لم يُنهَ عنها مُباشَرةً، وإنَّما يُفهَمُ النَّهيُ عنها من وجوبِ حقِّ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فذاكَ المَقامُ زادَ علىٰ هٰذا المَقامِ من جهةِ خطابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا المُباشرِ لآدمَ.

وهٰذا أمرٌ مَعروفٌ عند أهلِ العلمِ، ولهٰذا فسَّر قتادةُ كلمةَ شُركاءَ بقولِه كما نقلَ الشَّيخُ حيثُ قال: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».) وهٰذا هو الصَّحيحُ في تفسيرِ الآيةِ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال الإمامُ: (قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ») قولُ ابنِ حزمٍ: (اتَّفَقُوا) يعني أجمَعوا، يعني أجمعَ أهلُ العلمِ -فيما علِمَه هو- أنَّ التَّعبيدَ لغيرِ الله مُحرَّمٌ؛ لأنَّ فيه إضافةَ النِّعمِ لغيرِ الله وفيه أيضًا إساءةُ أدبٍ مع الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ فإنَّ تعبيدَ النَّاسِ لغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا هٰذا غلطٌ من جهةِ المَعنىٰ وأيضًا فيه اهتِضامٌ أو نوعُ اهتِضامٍ لمَقامِ الرُّبوبيَّةِ، ولذلكَ حَرُمَ في هٰذه الشَّريعةِ هٰذه التَّسميَةُ؛ بل وفي شرائعِ الأنبياءِ جميعًا، فاتَّفقَ أهلُ العلمِ علىٰ ذلكَ وأنَّ كلَّ اسمٍ مُعبَّدٍ لغيرِ اللهِ كعبدِ عمرٍو وعبدِ الكعبةِ وعبد عليٍّ وغيرِ ذلكَ من الأسماءِ فإنَّ هٰذا مُحرَّمٌ ولا يجوزُ وما أشبهَ ذلك.

قال: (حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ)، قولُه: (حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ) يعني: لم يُجمِعوا عليه فإنَّ مِن أهلِ العلمِ مَن قال تُكرَهُ التَّسميةُ بعبدِ المُطَّلبِ ولا تَحرُمُ؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال في غزوةِ حُنينٍ:

«أَنَـــا النَّبِـــيُّ لَا كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِـــبْ»

وقالوا جاءَ في أسماءِ الصَّحابةِ مَن اسمُه عبدُ المُطَّلبِ، ولهٰذا قالوا: لا يَحرُمُ. وهٰذا القولُ ليسَ بصحيحٍ في أنَّ عبدَ المُطَّلِبِ تُكرَهُ التَّسميةُ به ولا تَحرُمُ، وما استَدلُّوا به ليسَ بوجيهٍ وذلكَ أنَّ قولَ النَّبيِّ

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«أَنَــــا النَّبِــــيُّ لَا كَــــذِبْ أَنَــــا ابْــــنُ عَبْــــدِ الْمُطَّلِــــبْ»

هٰذا من جهةِ الإخبارِ، والإخبارُ ليس فيه تعبيرٌ مُباشرٌ بإضافةِ ذلكَ المَخلوقِ إلىٰ غيرِ خالقِه، وإنَّما هو إخبارٌ وبابُ الإخبارِ أوسعُ من بابِ الابتداءِ كما هو مَعلومٌ.

وأمَّا تسميةُ بعضِ الصَّحابةِ بعبدِ المُطَّلبِ، فالمُحقِّقونَ مِن الرُّواةِ يقولون: إنَّ مَن سُمِّي بعبدِ المُطَّلبِ صحَّةُ اسمِه المُطَّلبُ بدونِ التَّعبيدِ؛ ولكنْ نُقِلَتْ لعبدِ المُطَّلبِ لأنَّه شاعَ التَّسميةُ بعبدِ المُطَّلِبِ دونَ المُطَّلِبِ فوقعَ خطأٌ في ذلك، وبحثُ هٰذه المَسائلِ ومَحِلُّه كُتبُ الحديثِ وكُتبُ الرِّجالِ فنَمُرُّ عن ذلكَ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] وقال بعدَه: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَـةِ قَـالَ: «لَـمَّا تَغَشَّـاهَا آدَمُ حَمَلَـتْ، فَأَتَاهُمَـا إِبْلِـيسُ، فَقَـالَ: إِنِّـي صَـاحِبُكُمَا) إلـىٰ آخـرِ القصَّـةِ، قـال: (فَـذَلِكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَـادَةَ قَـالَ: «شُـرَكَاءَ فِـي طَاعَتِـهِ، وَلَـمْ يَكُـنْ فِـي عِبَادَتِهِ.) وهٰذا دليلٌ علىٰ التَّفريقِ بين الشِّركِ في الطَّاعةِ والشِّركِ في العبادةِ.

الشِّركُ في العبادةِ كُفرٌ أكبرُ مُخرِجٌ من المِلَّةِ.

أمَّا الشِّركُ في الطَّاعة فله دَرجاتٌ يبدأُ مِن المَعصيةِ والمُحرَّمِ ويَنتَهي بالشِّركِ الأكبرِ، فالشِّركُ في الطَّاعةِ دَرجاتُه كثيرةٌ، ليسَ درجةً واحدةً، فيحصُلُ شركٌ في الطَّاعة فتكونُ مَعصيةً، ويَحصُلُ شركٌ في الطَّاعةِ فيكونُ كبيرةً، ويحصُلُ شركٌ في الطَّاعةِ ويكونُ كُفرًا أكبرَ ونحوَ ذلكَ.

أمَّا الشِّركُ في العبادةِ فهو كُفرٌ أكبرُ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ.

ولهٰذا فرَّقَ أهلُ العلمِ بين شِركِ الطَّاعةِ وشِركِ العبادةِ، مع أنَّ العبادةَ مُستَلزِمَةٌ للطَّاعةِ، والطَّاعة مُستَلزِمَةٌ أيضًا للعبادةِ؛ لكنْ ليسَ في كلِّ دَرجاتِها.

قال: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:189]) يعني في الآيةِ قبلَها ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾[الأعراف]، (قَالَ: «أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا») يعني: خافا أنْ يكونَ له كما قالَ الشَّيطانُ له قرنا أيِّلٍ أو خِلقَتُه مُختَلِفةٌ أو يخرجُ حيوانًا أو قِردًا أو نحوَ ذلك، فقال: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ يعني: ولدًا صالحًا سليمًا من الآفاتِ، سليمًا من الخِلقَةِ المُشينةِ، فوعدا بأنْ يكونا مِن الشَّاكرين فلمَّا آتاهما صالحًا عبَّدا ذلكَ للحارثِ خَوفًا من أنْ يكونَ الشَّيطانُ يتسلَّطُ عليه بالموتِ أو الإهلاكِ أخذَتْهما شفقةُ الوالدِ علىٰ الولدِ، فكانَ ذلكَ خلافَ شُكرِ تلكَ النِّعمَةِ؛ لأنَّ من شُكرِ نِعمَةِ الولدِ أنْ يُعبَّدَ الولدُ للهِ

الَّذي أنعمَ به وأعطاهُ وتفضَّل به.



51- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾[الأعراف:180] الآيَة

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾[الأعراف:180]: «يُشْرِكُونَ».

وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

(بَابٌ قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف]) هٰذا البابُ في وجوبِ تعظيمِ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ، وأنَّ مِن تعظيمِها ألَّا يُلحَدَ فيها وأن يُدعىٰ اللهُ جَلَّوَعَلَا بها.

والأسماءُ الحُسنىٰ هي الحَسنةُ البالِغةُ في الحُسنِ نهايَتَه، فالخَلقُ يتسمَّونَ بأسماءٍ لكنْ قد لا تكونُ حسنةً أو قد تكونُ حسنةً؛ ولكنْ ليسَت بالغةً في الحُسنِ نهايَتَه؛ لأنَّ الحُسنَ في الأسماءِ يكونُ راجعًا إلىٰ أنَّ الصِّفةَ الَّتي اشتملَ عليها ذلكَ الاسمُ تكونُ حقًّا فيمَن تَسمَّىٰ بها، ويكون قد بلغَ نهايةَ ذلكَ الوصفِ، والإنسانُ لو تسمَّىٰ باسمٍ فيه معنًى فإنَّه لا يُنظَرُ فيه إلىٰ أنَّ المعنىٰ قد اشتملَتْ عليه خصالُه، فيُسمَّىٰ صالحًا وقد لا يكونُ صالحًا، ويُسمَّىٰ خالدًا وقد لا يكونُ خالدًا، ويُسمَّىٰ مُحمَّدًا وقد لا يكونُ كثيرَ خصالِ الحمدِ، وهكذا فإنَّ الإنسانَ قد يُسمَّىٰ بأسماءٍ لكنْ قد لا تكونُ في حقِّه حُسنَىٰ.

واللهُ جَلَّوَعَلَا له الأسماءُ الحُسنىٰ البالغةُ في الحُسنِ نهايَتَه، وهي الأسماءُ المُشتَمِلَةُ علىٰ الصِّفاتِ صفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمالِ والقُدرةِ والعزَّةِ والجَبروتِ وغيرِ ذلكَ.

وله من كلِّ اسمٍ مُشتَمِلٍ علىٰ صفةٍ أعلىٰ وأعظمُ الصِّفةِ والمعنىٰ الَّذي اشتملَتْ عليهِ الصِّفةُ، والنَّاسُ وأهلُ العلمِ إذا فسَّروا الأسماءَ الحُسنىٰ فإنَّما هو تقريبٌ ليدلُّوا النَّاسَ علىٰ أصلِ المَعنىٰ، أمَّا المَعنىٰ بكمالِه فإنَّه لا يعلمُه أحدٌ إلَّا اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، ولهٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دُعائِه: «**لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**».

فالنَّاسُ حينَ يُفسِّرونَ أسماءَ اللهِ جَلَّوَعَلَا فإنَّهم يُفسِّرونَ ذلكَ بما يُقرِّبُ إلىٰ الأفهامِ المَعنىٰ، أمَّا حقيقةُ المَعنىٰ علىٰ كمالِه فإنَّهم لا يَعونَهُ؛ لأنَّ ذلكَ من الغيبِ، وكذلكَ الكيفيَّةُ فإنَّهم لا يَعونَها؛ لأنَّ ذلكَ مِن الغيبِ.

فاللهُ جَلَّ وَعَلَا له الأسماءُ الحُسنىٰ، والصِّفاتُ العُلىٰ.

ومن الأسماءِ ما لا يكونُ حسنًا إلَّا بقيدٍ مثلَ الصَّانعِ والمُتكلِّمِ والمُريدِ والفعَّالِ أو الفاعلِ ونحوِ ذلك، فهٰذِهِ الأسماءُ ولا تكونُ كمالًا إلَّا بقيدٍ:

في أنْ يكونَ مُتكلِّمًا بما شاءَ إذا شاءَ، بما تقتَضيهِ الحِكمةُ وتمامُ العدلُ، فهٰذا يكونُ مَحمودًا، ولهٰذا ليسَ من أسماءِ اللهِ المُتكلِّمُ.

كذلك الصَّانعُ قد يصنَعُ خَيرًا، وقد يصنعُ غيرَ ذلكَ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا ليسَ من أسمائِه الحُسنىٰ الصَّانعُ لاشتمالِه علىٰ هٰذا وهٰذا، فإذا أُطلِقَ من جهةِ الخَبرِ فيُعنىٰ به ما يُقيَّدُ بالمَعنىٰ الَّذي فيه كمالٌ.

كذلكَ فاعلٌ أو فعَّالٌ، فإنَّ الفَعَّالَ قد يفعلُ أشياءَ لا تُوافقُ الحِكمةَ، وقد يفعلُ أشياءَ لا يُريدُها؛ بل مُجبَرٌ عليها، والكمالُ أنْ يفعلَ ما يُريدُ ولا يكون مُجبَرًا لكمالِ عِزَّتِه وقَهرِه، ولهٰذا قالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عن نفسِه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾[هود]، لأنَّ تقييدَ كَونِه فعَّالًا لِما يُريدُ هٰذا هو الكَمالُ.

فيه أشياءُ كثيرةٌ من ذلكَ مَعروفةٌ في مَباحثِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

وأسماءُ اللهِ الحُسنىٰ تنقسِمُ باعتباراتٍ من جهةِ المَعنىٰ.

قال طائفةٌ من أهلِ العلمِ:

إنَّ مِنها **أسماءَ الجمالِ**: وأسماءُ الجمالِ لله جَلَّ جَلَالُهُ هي الأسماءُ المُشتَملةُ علىٰ حُسنٍ في الذَّاتِ أو حُسنٍ في المَعنىٰ وبِرٍّ بالعبادِ والمَخلوقينَ، فيكونُ من أسماءِ الجَمالِ صفاتُ الذَّاتِ، واسمُ اللهِ الجميلُ، ويكونُ من أسماءِ الجمالِ البَرُّ والرَّحيمُ والوَدودُ ونحوُ ذلك والمُحسِنُ وما أشبهَ ذلكَ.

ومن **أسماءِ اللهِ ما هو من الجلالِ**: يُقالُ هٰذه أسماءُ الجلالِ، وأسماءُ الجلالِ للهِ هي الَّتي فيها ما يدلُّ علىٰ جلالِ اللهِ، وهو عَظَمتُه وعِزَّتُه جَلَّ وَعَلَا وجلالُه حتَّىٰ يجلَّ مثلَ القَهَّارِ والجبَّارِ والقديرِ والعزيزِ ونحوِ ذلك والمُقيتِ وأشباهِ هٰذه الأسماءِ فهٰذه أسماءُ الجلالِ.

وهناكَ أسماءٌ في تقسيماتٍ مُختلفةٍ تُطلَبُ من كلامِ ابنِ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو مِن كلامِ الشُّرَّاحِ.

فإنَّ المَقصودَ -إذن- أنَّ العبدَ المُؤمنَ المُوحِّدَ أن يتعرَّفَ إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بأسمائِه وصِفاتِه، ولا تَتمُّ حقيقةُ التَّوحيدِ في قلبِ العبدِ حتَّىٰ يعلَمَ أسماءَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ويعلَمَ صِفاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ العِلمَ بها تَتِمُّ به حقيقةُ التَّوحيدِ.

والعِلمُ بها علىٰ مَراتِبَ:

منها أنْ يَعلَمَها إثباتًا؛ يعني يُثبِتُ ما أثبتَ اللهُ لنفسِه، وما أثبَتَه له رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيؤمِنُ أنَّ هٰذا

الاسمَ مِن أسماءِ اللهِ، وأنَّ هٰذه الصِّفةَ من صِفاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

والثَّاني أنْ يسألَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه بما يُوافِقُ مَطلوبَه؛ لأنَّ الأسماءَ والصِّفاتِ نتعبَّدُ للهِ جَلَّ وَعَلَا بها بأنْ فادْعُوهُ بها -كما جاء في هٰذه الآيةِ وسَيَأتي بيانُ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ.

الثَّالثُ مِن الإيمانِ بالأسماءِ والصِّفاتِ أنْ يَنظُرَ إلىٰ آثارِ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه في المَلَكوتِ، فإذا نَظَرَ إلىٰ الأسماءِ والصِّفاتِ في المَلَكوتِ وتأمَّلَ ذلكَ عَلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللهِ باطلٌ، وأنَّ الحقَّ الثَّابتَ اللَّازمَ هو اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ سِوىٰ اللهِ هو باطلٌ وزائلٌ وآيلٌ إلىٰ الهلاكِ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:88].

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اللَّامُ هنا في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لامُ الاستِحقاقِ؛ يعني الأسماءُ الحُسنىٰ البالِغَةُ في الحُسنِ نهايَتَه مُستَحَقَّةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا واللهُ مُستَحِقٌّ ذلكَ، قال: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يعني إذا عَلِمتُم أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ لذلكَ وآمنتم بذلكَ فادْعُوهُ بها وهٰذا أمرٌ، وقولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الدُّعاءُ هنا فُسِّرَ بالثَّناءِ والعبادةِ وفُسِّرَ بالسُّؤالِ والطَّلبِ، وكِلاهما صحيحٌ، فإنَّنا ندعو اللهَ بها يعني نحمَدُه ونُثني عليهِ بها، فنعبُدُه مُتَوسِّلينَ إليهِ بهٰذه الأسماءِ والصِّفاتِ، بالأسماءِ الحُسنىٰ وما اشتمَلَتْ عليهِ من الصِّفاتِ العُلىٰ، والثَّاني أنْ نسألَ بها؛ يعني إذا كانَ لنا مَطلوبٌ نتوجَّهُ إلىٰ اللهِ فنسألُه بتلكَ الأسماءِ بما يُوافِقُ المَطلوبَ، فإذا سألْنا اللهَ المَغفرةَ نأتي بصِفاتِ الجمالِ، إذا سألنا اللهَ جَلَّ وَعَلَا النُّصرَةَ نأتي بصفاتِ الجلالِ، وهكذا فيما يَتناسَبُ، وهناك تَفصيلاتٌ أيضًا لهٰذا الأمرِ.

المَقصودُ أنَّ قولَه جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: اسألُوهُ بها أو اعْبُدُوهُ وأَثْنوا عليه بها جَلَّ وَعَلَا، فيشمَلُ دُعاءَ المَسألةِ ودُعاءَ العبادةِ.

والباءُ في قولِه: ﴿بِهَا﴾ يعني: مُتَوسِّلينَ بها، هي باءُ الوَسيلةِ.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾، ﴿وَذَرُوا۟﴾ يعني: اتْرُكوا، وهٰذا يعني أنَّ المُسلمَ واجبٌ عليه أن يبتعدَ عن حالِ الَّذين يُلحِدونَ في أسماءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، والإلحادُ في أسماءِ اللهِ هو المَيلُ والعُدولُ بها عن حقائقِها إلىٰ ما لا يليقُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وهٰذا الإلحادُ مَراتِبُ:

مِن مَراتِبِ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه أنْ يُسمِّيَ البشرَ المَعبودينَ يُسمِّيهم بأسماءِ اللهِ، كما سمَّوْا اللَّاتَ مِن الإلَهِ، والعُزَّىٰ مِن العزيزِ، ونحوِ ذلكَ.

ومِن الإلحادِ في أسماءِ اللهِ أنْ يُجعلَ للهِ جَلَّوَعَلَا ولدٌ، وأنْ يُضافَ المَخلوقُ إليهِ إضافةَ الوَلَدِ إلىٰ والِدِه، كحالِ النَّصارىٰ، هذا نوعٌ من الإلحادِ في أسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في صِفاتِه.

ومِن الإلحادِ إنكارُ الأسماءِ والصِّفاتِ، أو إنكارُ بعضِ ذلك، كما فعلَت الجَهميَّةُ الغُلاةُ فإنَّهم لا يُؤمنونَ باسمٍ من أسماءِ اللهِ ولا بصِفةٍ من صِفاتِ اللهِ إلَّا الوُجودَ والمَوجودَ؛ لأنَّ هٰذه الصِّفةَ هي الَّتي يستقيمُ معها بُرهانُهم بحُلولِ الأعراضِ في الأجسامِ ودَليلِ ذلكَ علىٰ الوَحدانيَّةِ كما هو مَعروفٌ في مَوضِعِه.

ومِن الإلحادِ أيضًا والمَيلِ بها عن الحقِّ الثَّابتِ الَّذي يجبُ للهِ جَلَّوَعَلَا فيها أنْ تُؤَوَّلَ وتُصرَفَ عن ظاهِرِها إلىٰ معاني لا يجوزُ أنْ تُصرَفَ إليها، فيكونُ ذلكَ مِن التَّأويلِ.

والواجبُ الإيمانُ بالأسماءِ والصِّفاتِ، وإثباتُ الأسماءِ والصِّفاتِ، واعتقادُ ما دلَّت عليه، وتركُ التَّعرُّضِ لها بتأويلٍ ونحوِه، وهٰذا قاعدةُ السَّلفِ؛ فنُؤمِنُ بها ولا نَصرِفُها عن حقائقِها بتأويلٍ أو بمَجازٍ أو نحوِ ذلكَ، كما فعلَ المُعتزِلَةُ وفَعلَته الأشاعِرةُ والماتُريديَّةُ وطَوائفُ.

كلُّ هٰذا نوعٌ مِن أنواعِ الإلحادِ.

وإذا تقرَّرَ ذلك فيكونُ الإلحادُ -إذن- مِنه ما هو كُفرٌ ومِنه ما هو بِدعةٌ بحسبِ الحالِ الَّذي ذَكرنا.

فالحالُ الأخيرةُ وهي التَّأويلُ وادِّعاءُ المَجازِ في الأسماءِ والصِّفاتِ هٰذه بِدعٌ وإلحادٌ لا يصلُ بأصحابِه إلىٰ الكُفرِ، أمَّا نفيُ وإنكارُ وجحدُ الأسماءِ والصِّفاتِ كحالِ الجهميَّةِ فهٰذا كُفرٌ، وهكذا فعلَ النَّصارىٰ ومُشرِكي العربِ.

قال: (ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾[الأعراف:180]: «يُشْرِكُونَ».) يعني يجعلونَ اللَّاتَ من الإلهِ، فيُنادونَ اللَّاتَ وعندَهم أنَّهم نادَوْا الإلهَ فصارَ شِركًا.

قال: (وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّىٰ مِنَ الْعَزِيزِ». وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».) وهٰذه مَرتبةٌ مِن مَراتبِ الإلحادِ في الأسماءِ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا له الأسماءُ الحُسنىٰ، فمَن أدخلَ اسمًا لم يَثبُتْ في الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّه مِن أسماءِ اللهِ فقدْ ألحدَ؛ لأنَّه مالَ وعدلَ عن الحقِّ الَّذي يجبُ في الأسماءِ والصِّفاتِ إلىٰ غيرِه، والحقُّ هو أنْ تُثبتَ للهِ ما أثبتَه لنفسِه إذْ لا أحدَ أعلمُ باللهِ مِنَ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ وتعاظَمَ شأنُه، وكذلكَ لا أحدَ أعلمُ مِن الخلقِ باللهِ جَلَّوَعَلَا من رسولِه الخاتم مُحمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فمَن أدخلَ فيها ما ليسَ مِنها فقد ألحدَ، كمَن قالَ: في أسماءِ اللهِ الماكرُ والمُستهزِئُ والصَّانعُ وجعلَ ذلكَ من الأسماءِ الحُسنىٰ فإنَّ ذلكَ لا يجوزُ، وإطلاقُ هٰذه الأسماءِ علىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا لا يجوزُ، ومِنها ما يجوزُ

بتَقييدٍ في بابِ الإخبارِ.

ومَباحثُ هٰذا البابِ طَويلةٌ لاتِّصالِها بالأسماءِ والصِّفاتِ، وهي مَعروفةٌ في مَبحثِ توحيدِ الأسماء والصِّفاتِ.

[الأسئلة]

[**سؤال (28)**: نرىٰ عبارةً مَكتوبةً علىٰ بعضِ السَّيَّاراتِ: يا رِضىٰ اللهِ ورِضىٰ الوالِدينِ.

الجواب: قولُه: (يا رِضىٰ الله ورِضىٰ الوالِدَينِ) فيها غلطٌ من جهتينِ:

الجهةُ الأُولىٰ: أنَّه نادىٰ رِضىٰ اللهِ، ومُناداةُ صِفاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا بـ(يا) النِّداءِ لا تجوزُ؛ لأنَّ الصِّفةَ في هٰذا المَقامِ غيرُ الذَّاتِ -في مَقامِ النِّداءِ-؛ ولهٰذا إنَّما يُنادىٰ اللهُ جَلَّوَعَلَا المُتَّصفُ بالصِّفاتِ، **وقد نصَّ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في «ردِّه علىٰ البَكريِّ»، وغيرُهُ من أهلِ العلمِ علىٰ أنَّ مُناداةَ الصِّفةِ مُحرَّمٌ بالإجماعِ**، فإذا كانت الصِّفةُ هي الكِلمةُ -كلمةُ الله جَلَّوَعَلَا- كان كُفرًا بالإجماعِ؛ لأنَّ مَن نادىٰ الكلمةَ؛ يعني بها عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيكونُ تأليهًا لغيرِ اللهِ -جَلَّوَعَلَا، ورِضىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا صِفةٌ من صِفاتِه، فلا يجوزُ نداءُ الصِّفةِ.

والمُؤاخذَة الثَّانيةُ: في تلكَ الكلمةِ أنَّه جعلَ رِضىٰ الوالَدَينِ مَقرونًا برِضىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا بالواوِ، والأنسبُ هنا أنْ يكونَ العطفُ بـ(ثُمَّ)، يقولُ: مثلًا أسألُ اللهَ رِضاهُ ثمَّ رِضىٰ الوالِدَينِ، وإنْ كان استعمالُ الواوِ في مثل هٰذا السِّياقِ لا بأسَ به؛ لأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾[الإسراء:23] ولأنَّ الواوَ هنا تقتَضي تَشريكًا في أصلِ الرِّضىٰ، وهٰذا الرِّضىٰ يُمكنُ أنْ يكونَ من الوالِدَينِ أيضًا، فيكونُ التَّشريكُ بأصلِ المَعنىٰ لا المَرتبةُ.][1]

(1) من الوجهِ الثَّاني من الشَّريطِ السَّادسِ.

52- بَابٌ

لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ

[1] فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».

(**بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ**) ومُناسبةُ هٰذا البابِ للبابِ الَّذي قبلَه أنَّ تركَ قولِ السَّلامُ علىٰ اللهِ هو مِن تعظيمِ الأسماءِ الحُسنىٰ ومِن العلمِ بها؛ ذلكَ أنَّ السَّلامَ هو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ والسَّلامُ مِن أسمائِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو المُتَّصفُ بالسَّلامةِ الكاملةِ من كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وهو المُنزَّهُ والمُبعَدُ عن كلِّ آفةٍ أو نقصٍ أو عَيبٍ، فله الكمالُ المُطلَقُ في ذاتِه وصِفاتِه الذَّاتيةِ وصِفاتِه الفِعليَّةِ جَلَّوَعَلَا.

والسَّلامُ في أسماءِ اللهِ مَعناه أيضًا الَّذي يُعطي السَّلامةَ ويَجعلُ السَّلامةَ، وأثرُ هٰذا الاسمِ في مَلَكوتِ اللهِ أنَّ كلَّ سلامةٍ في مَلَكوتِ اللهِ مِن كلِّ شرٍّ يُؤذي الخلقَ فإنَّها من آثارِ هٰذا الاسمِ السَّلامُ، فإنَّه لكَونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا هو السَّلامُ فإنَّه يُفيضُ السَّلامةَ علىٰ العِبادِ.

إذا كان كذلكَ فاللهُ جَلَّجَلَالُهُ هو الَّذي يُفيضُ السَّلامةَ، وليسَ العبادُ هم الَّذين يُعطونَ اللهَ السَّلامةَ، فإنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هو الغنيُّ عن خلقِه، هو الغنيُّ بالذَّاتِ والعِبادُ فُقراءُ بالذَّاتِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر]، فالعبدُ هو الَّذي يُعطَىٰ السَّلامةَ واللهُ جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يُسَلِّمُ.

لهٰذا كانَ من الأدبِ الواجبِ في جنابِ الرُّبوبيَّةِ وأسماءِ اللهِ وصِفاتِه ألَّا يُقالَ: السَّلامُ علىٰ اللهِ؛ بل أنْ يُقالَ: السَّلامُ علينا وعلىٰ عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ، السَّلامُ علىٰ فُلانٍ وعلىٰ فُلانٍ، السَّلامُ عليك يا فُلانُ ونحوُ ذلكَ، فتدعو له بأنْ يُبارَكَ باسمِ اللهِ السَّلامُ أو أنْ تحِلَّ عليه السَّلامةُ.

فإذن وجهُ مُناسبةِ هٰذا البابِ للَّذي قبلَه ظاهرةٌ، ومُناسبتُه لكتابِ التَّوحيدِ أنَّ الأدبَ مع أسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وصِفاتِه ألَّا يُخاطَبَ بهٰذا الخِطابِ، وألَّا يُقالَ السَّلامُ علىٰ اللهِ؛ لأنَّ في هٰذا نقصًا في تحقيقِ التَّوحيدِ، فتحقيقُ التَّوحيدِ الواجبِ ألَّا تُقالَ هٰذه الكلمةُ؛ لأنَّ اللهَ غنيٌّ عن عِبادِه، والفُقراءُ هم الَّذين يحتاجونَ السَّلامةَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»)، «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ» قالوها مع كَونِهم مُوحِّدينَ

عالِمينَ بحقِّ اللهِ جَلَّوَعَلَا، قالوها ظنًّا أنَّها تحيَّةٌ لا تحوي ذلكَ المَعنىٰ، فجَعلوها من بابِ التَّحيَّةِ، والتَّحيَّةُ في هٰذهِ الشَّريعةِ مُرتَبطةٌ بالمَعنىٰ، فـ(السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ) كأنَّهم قالوا: تحيَّةٌ للهِ مِن عبادِه، وهٰذا المَعنىٰ وإنْ كانَ صحيحًا من حيثُ القَصدُ؛ لكنَّه ليسَ صحيحًا من حيثُ اللَّفظُ؛ لأنَّ هٰذا اللَّفظَ لا يجوزُ من جهةِ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هو السَّلامُ كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والعِبادُ مُسلَّمونَ هم الَّذين يسلِّمُهم اللهُ جَلَّوَعَلَا ويُفيضُ عليهم السَّلامَ وهم الفُقراءُ المُحتاجونَ، فليسوا هم الَّذينَ يُعطونَ اللهَ السَّلامَ، فمعنىٰ (السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ) يعني: السَّلامةُ تكونُ علىٰ اللهِ من عبادِه، وهٰذا لا شكَّ أنَّه باطلٌ، وإساءةٌ في الأدبِ مع ما يجبُ للهِ جَلَّوَعَلَا في رُبوبيَّتِه وأسمائِه وصِفاتِه.

لهٰذا قال لهم النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ) نَهاهُم وهٰذا النَّهيُ للتَّحريمِ، ولا يجوزُ لأحدٍ أنْ يقول: السَّلامُ علىٰ اللهِ؛ لأنَّ السَّلامَ علىٰ اللهِ مُقتَضٍ لاهتِضامَ جنابِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

إذا كان كذلكَ فما معنىٰ قَولِك حينَ تُسلِّمُ علىٰ أحدٍ: السَّلامُ عليكَ يا فُلانُ، أو السَّلامُ عليكُم ورَحمةُ اللهِ وبَركاتُه؟

فهٰذه تحيَّةُ المُؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخرةِ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[الأحزاب:44].

قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ مَعناها -وهٰذا هو أحدُ المَعنيَينِ- مَعنىٰ السَّلامُ عليكُم؛ يعني: كلُّ اسمٍ للهِ جَلَّوَعَلَا عليكُم؛ يعني: اسمُ السَّلامِ عليكُم، فيكونُ ذلكَ تبرُّكًا بأسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وصِفاتِه، فاسمُ السَّلامِ عليكُم؛ يعني: اسمُ اللهِ عليكُم، فيكونُ ذلكَ تبرُّكًا بكلِّ الأسماءِ، ومِنها اسمُ اللهِ جَلَّوَعَلَا السَّلامُ.

والثَّاني ما قالَه آخرونَ مِن أهلِ العلمِ أنَّ قَولَ القائلِ: السَّلامُ عليكُم ورَحمةُ الله؛ يعني: السَّلامةُ الَّتي اشتملَ عليها اسمُ السَّلامِ عليكُم، نسألُ اللهَ أن يُفيضَها عليكُم، أو أنْ يكونَ المَعنىٰ: كلُّ سلامةٍ عليكُم منِّي، فإنَّك لن تَجدَ منِّي إلَّا السَّلامةَ، وهٰذا يَصدُقُ حينَ تُنكِّرُ تقولُ: سلامٌ عليكُم ورَحمةُ اللهِ وبَركاتُه؛ يعني: كلُّ سَلامةٍ منِّي ستأتيكَ يعني فلنْ أَخفِرَكَ في عِرضِكَ ولن أَخفِرَكَ في مالِكَ ولن أَخْفِرَكَ في نفسِكَ.

وكثيرٌ مِن المُسلمينَ يقولُ هٰذه الكلمةَ وهو لا يَعي مَعناها؛ كيفَ أنَّه حينَ قالَ لِمَن أتاهُ: السَّلامُ عليكُم كأنَّه عاهَدَه بأنَّه لن يأتيَه مِنه إلَّا السَّلامةُ، ثمَّ هو يَخفِرُ هٰذه الذِّمَّة وربَّما أضرَّه أو تناولَ عِرضَهُ أو تناولَ مالَه أو نحوَ ذلكَ.

فهٰذا فيهِ التَّنبيهُ علىٰ فائدةٍ مُهمَّةٍ وهو أنَّ طالبَ العلمِ بالخُصوصِ؛ بل كل عاقلٍ بعامَّةٍ إذا نطقَ بكلامٍ لابدَّ أنْ يتبيَّنَ ما معنىٰ هٰذا الكلامِ، فكَونُه يَستَعملُ كلامًا لا يَعي مَعناهُ هٰذا مِن العَيبِ وليسَ من أخلاقِ

الرِّجالِ أصلًا؛ أنْ يتكلَّموا بكلامٍ ولا يَعوا مَعناهُ، فيأتِي بكلامٍ ثمَّ ينقُضُه في فعلِه وفي قولِه، هٰذا ليسَ مِن أفعالِ الَّذين يعقِلونَ، فضلًا عن أنْ يكونَ من أفعالِ أهلِ العِلمِ أو طلبةِ العِلمِ الَّذين يَعونَ عنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا شَرعَه ودينَه.

فإذن صارَ هنا قَولانِ، وكِلا القَولينِ صَوابٌ، فإنَّ قولَ القائلِ: السَّلامُ عليكُم يشمَلُ الأوَّلَ والثَّاني، فتبَرُّكٌ بكلِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ وتَبَرُّكٌ باسمِ الله السَّلامِ الَّذي من آثارِه السَّلامةُ عليك في دينِك ودُنياكَ فهو دعاءٌ لكَ بالسَّلامةِ في الدِّينِ وفي الدُّنيا وفي الأعضاءِ وفي الصِّفاتِ والجوارحِ إلىٰ آخرِ ذلكَ، أو أنْ تكونَ بالمَعنىٰ الثَّاني، كلٌّ مِنهما صحيحٌ.



53- بَابٌ

قَولُ (اللهمَّ اغفِرْ لِي إن شئْتَ)

[1] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

قال: (بَابٌ قَولُ (اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي إنْ شِئْتَ)) حقيقةُ التَّوحيدِ أنْ يُوحِّدَ العبدُ ربَّه جَلَّ وَعَلَا بتمامِ الذُّلِّ والخُضوعِ والمَحبَّةِ وأنْ يتضرَّعَ إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ويتذلَّلَ إليه بإظهارِ فَقرِه التَّامِّ إليه وأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هو الغنيُّ عمَّا سِواهُ.

وقولُ القائلِ: (اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي إنْ شِئْتَ)، يُفهَمُ مِنه أنَّه مُستَغنٍ عن أنْ يُغفرَ له كما يأتي العزيزُ أو المُتكبِّرُ مِن النَّاسِ فيقولُ للآخرِ لا يُريدُ أن يتذلَّلَ له فيقولُ: افعَلْ هٰذا إنْ شئتَ؛ يعني إنْ فعلْتَ ذلكَ فحَسنٌ وإنْ لم تفعَلْ فلَسْتُ بمُلِحٍّ عليك ولستَ بذي إكرامٍ فهو مُنافٍ، هٰذا القَولُ مُنافٍ لحاجةِ الَّذي قالَها إلىٰ آخرَ، ولهٰذا كانَ فيها عدمُ تحقيقٍ للتَّوحيدِ، ومُنافاةٌ لما يجبُ علىٰ العبدِ في جنابِ رُبوبيَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أنْ يُظهِرَ فاقَتَه وحاجَتَه لرَبِّه، وأنَّه لا غِنىٰ به عن مَغفِرَةِ اللهِ وعن غِنىٰ اللهِ وعن عَفوِه وكَرمِه وإفضالِه ونِعَمِه طَرفةَ عَينٍ.

فقولُ القائلِ: (اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي إنْ شِئْتَ) كأنَّه يقولُ: لستُ مُحتاجًا، إنْ شئتَ فاغفِرْ، وإنْ لَم تَشَأْ فلَسْتُ بمُحتاجٍ. وهٰذا فعلُ أهلِ التَّكبُّرِ وأهلِ الإعراضِ عن اللهِ جَلَّ وَعَلَا، ولهٰذا حرُمَ هٰذا اللَّفظُ وهو أنْ يقولَ أحدٌ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي إنْ شئتَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] ولهٰذا ساقَ الحديثَ قالَ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»، وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ») قولُه: «لِيَعْزِمْ المسألةَ» يعني ليَسْألْ سُؤالَ عازمٍ، سُؤالَ مُحتاجٍ، سُؤالَ مُتذَلِّلٍ، لا سُؤالَ مُستَغنٍ مُستكبِرٍ، فلْيَعزِمِ المَسألةَ وليَسألْ سُؤالَ جادٍّ مُحتاجٍ مُتذَلِّلٍ فقيرٍ يحتاجُ إلىٰ أنْ يُعطىٰ ذلكَ، والَّذي سألَ؛ سألَ أعظمَ المَسائلِ وهي المَغفِرَةُ والرَّحمةُ مِن اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فيجبُ عليه أنْ يُعظِمَ هٰذه المَسألةَ ويُعظِمَ الرَّغبةَ وأنْ يَعزِمَ المَسألةَ فإنَّ اللهَ لا مُكرِهَ له، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا لا أحدَ يُكرِهُهُ لتمامِ غِناهُ وتمامِ عِزَّتِه وقَهرِه وجَبَروتِه وتمامِ كَونِه مُقيتًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذا من آثارِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

لهٰذا لا يجوزُ في الدُّعاءِ أنْ يواجِهَ العبدُ ربَّه بهٰذا القَولِ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللَّهمَّ ارْحَمْني إنْ شِئتَ.

وهٰذا واضحٌ ظاهرٌ في الدُّعاءِ الَّذي فيهِ المُخاطَبَةُ كهٰذا الخِطابِ، اللَّهمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، هو يُخاطِبُ اللهَ جَلَّوَعَلَا فيقولُ ذلكَ.

ولهٰذا قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ هٰذا يتقيَّدُ في الدُّعاءِ الَّذي فيه خِطابٌ، أمَّا الدُّعاءُ الَّذي ليسَ فيه خِطابٌ فيكونُ التَّعليقُ بالمَشيئةِ ليسَ تعليقًا لأجلِ عدمِ الحاجةِ أو مُنبئًا لعدمِ الحاجةِ -كهٰذا الدُّعاءِ- بل هو للتَّبرُّكِ، كمَن يقولُ: رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن شاءَ اللهُ، أو غفرَ اللهُ له إنْ شاءَ اللهُ، أو اللهُ يُعطيه مِن المالِ كذا وكذا إنْ شاءَ اللهُ ونحوُ ذلك، فهٰذا قالوا: لا يَدخُلُ في هٰذا النَّوعِ؛ لأنَّه ليسَ علىٰ وجهِ الخِطابِ وليسَ علىٰ وجهِ الاستِغناءِ.

ولكنَّ الأدبَ يَقتَضي ألَّا يَستَعمِلَ هٰذه العبارةَ في الدُّعاءِ مُطلَقًا؛ لأنَّها وإنْ كانَت ليسَت بمُواجِهَةٍ فإنَّها داخلةٌ في تعليقِ الدُّعاءِ والمَشيئَةِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا لا مُكرِهَ له، فعُمومُ المَعنىٰ المُستَفادِ من قَولِه: «فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ» عمومُ هٰذا التَّعليلِ يشمَلُ هٰذه وهٰذه، فلا شكَّ أنَّ قَولَ: «اللَّهُمّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ» أعظَمُ، ولكنَّ القولَ الآخرَ داخلٌ أيضًا في علَّةِ النَّهيِ ومَعنىٰ النَّهيِ، ولهٰذا لا يَسوغُ استِعمالُه.

وقولُ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِمَن عادَه كما رواهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ وغيرُهما قال لِمَن عادَه وقد أصابَته الحُمَّىٰ قال: «**طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» قال: بل هي حُمَّىٰ تَفورُ... إلىٰ آخرِ كلامِه، هٰذا قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» هٰذا ليسَ فيه دعاءٌ وإنَّما هو مِن جهةِ الخبرِ، قالَ: يكونُ طَهورًا إنْ شاءَ اللهُ، فهو ليسَ بدُعاءٍ وإنَّما هو خبرٌ، فافترقَ عن أصلِ المَسألَةِ.

قال طائفةٌ أيضًا من أهلِ العلمِ مِن شُرَّاحِ البُخاريِّ وقد يكونُ قولُه: «**طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» للبَركةِ فيكونُ ذلكَ مِن جهةِ التَّبرُّكِ، كقولِه جَلَّوَعَلَا مُخبِرًا عن قولِ يوسفَ: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف]، وهم قد دَخلوا مِصرَ، وكقولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[الفتح:27].



54- بَابٌ

لا يَقُولُ: (عَبْدِي وأَمَتِي)

[1] في الصَّحيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي».

(بَابٌ لَا يَقُولُ: (عَبْدِي وأَمَتِي)) هٰذا البابُ مع الأبوابِ قبلَه وما بعدَه كلُّها في تعظيمِ رُبوبيَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وتعظيمِ أسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وصِفاتِه؛ لأنَّ تعظيمَ ذلكَ مِن كمالِ التَّوحيدِ، وتحقيقُ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بأنْ يُعظَّمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا في رُبوبيَّتِه وفي إلهيَّتِه وفي أسمائِه وصِفاتِه.

فتحقيقُ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بالاحتراسِ من الألفاظِ الَّتي يكونُ فيها إساءةُ أدبٍ مع رُبوبيَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا علىٰ خلقِه أو معَ أسماءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وصِفاتِه.

ولهٰذا عقدَ هٰذا البابَ فقالَ: (بَابٌ لَا يَقُولُ: (عَبْدِي وَأَمَتِي)) العُبوديَّةُ عُبوديَّةُ البشرِ للهِ جَلَّوَعَلَا عُبوديَّةٌ حقيقيةٌ، وإذا قيل: هٰذا عبدُ اللهِ. فهو عبدٌ للهِ جَلَّوَعَلَا إمَّا قهرًا أو اختيارًا فكلُّ مَن في السَّمٰوَاتِ والأرضِ عبدٌ للهِ جَلَّوَعَلَا كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[مريم] فعُبوديَّةُ الخلقِ للهِ جَلَّوَعَلَا ظاهرةٌ؛ لأنَّه هو الرَّبُّ وهو المُتصرِّفُ وهو سيِّدُ الخَلقِ وهو المُدَبِّرُ لشُؤونِهم، فاللهُ جَلَّوَعَلَا هو المُتفرِّدُ بذلك سُبحانَه.

فإذا قال الرَّجلُ لرَقيقِه: هٰذا عَبدي، وهٰذه أَمَتي. كانَ في نِسبَةِ العُبوديَّةِ عُبوديَّةُ أولئكَ له، وهٰذا فيه مُنافاةٌ لكمالِ الأدبِ الواجبِ مع اللهِ جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا كانَ هٰذا اللَّفظُ غيرَ جائزٍ عندَ كثيرٍ مِن أهلِ العلمِ، ومَكروهًا عندَ طَوائفَ آخرينَ.

فإذن سَببُ النَّهيِ عن لفظِ (عَبدي وأَمَتي) ما ذَكرنا من تعظيمِ الرُّبوبيَّةِ وعدم اهتِضامِ عُبوديَّةِ الخلقِ للهِ جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (في الصَّحيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي») هٰذا النَّهيُ في هٰذا الحديثِ اختلفَ فيه أهلُ العلمِ علىٰ قَولينِ:

الأوَّلُ: أنَّه للتَّحريمِ؛ لأنَّ النَّهيَ الأصلُ فيه للتَّحريمِ إلَّا إذا صرَفَه عن ذلكَ الأصلِ صارفٌ.

وقالَ آخرونَ: النَّهيُ هنا للكَراهةِ؛ وذلكَ لأنَّه مِن جهةِ الأدبِ؛ ولأنَّه جاءَ في القرآنِ مِن قولِ يوسفَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾[يوسف]؛ ولأنَّ الرُّبوبيَّةَ هنا المَقصودُ بما يُناسبُ البشرَ، فرَبُّ الدَّارِ وربُّ العبدِ هو الَّذي يملِكُ أمرَه في هٰذه الدُّنيا، فلهٰذا قالوا: النَّهيُ للكراهةِ وليسَ للتَّحريمِ، مع ما جاءَ في بعضِ الأحاديثِ مِن جوازٍ أو مِن تَجويزِ إطلاقِ بعضِ الألفاظِ.

قال: «وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ» السِّيادةُ مع كَونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا هو السَّيِّدُ؛ لكنَّ السِّيادةَ بالإضافةِ لا بأسَ بها؛ لأنَّ للبشرِ سيادةٌ تُناسِبُه، «ومَوْلَايَ» المَولىٰ يأتي علىٰ مَعانٍ كثيرةٍ، وأنْ يُخاطِبَ البشرَ بقولِه: مَولايَ أجازَه طائفةٌ من أهلِ العلمِ بناءً علىٰ هٰذا الحديثِ قال: «وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ»، وقد جاءَ في «صحيحِ مُسلمٍ» النَّهيُ عن أن يقولَ مَولايَ: «لَا تَقُولُوا: مَوْلَايَ إِنَّمَا مَوْلَاكُمُ اللهُ» أو نحوُ ذلك،(1) وهٰذا الحديثُ أعلَّه بعضُ أهلِ العلمِ أنَّه يقولُ بالمَعنىٰ فهو شاذٌّ مِن جهةِ اللَّفظِ وهو مُعارِضٌ لهٰذا الحديثِ الَّذي هو نصٌّ في إجازةِ ذلكَ.

فيكونُ إذن الصَّحيحُ جوازَ إطلاقِ لفظِ «وَمَوْلَايَ» هنا «سَيِّدِي وَمَوْلَايَ» ونحوِ ذلكِ؛ لأنَّ هناكَ سيادةً تُناسِبُ البشرَ، وقولُ: «مَوْلَايَ» هناكَ ما يُناسِبُ البشرَ مِن ذلكَ، فليست في مَقامِ ربِّكَ أو عبدي وأَمتي؛ لأنَّ ذلكَ أعظمُ درجةً وواضحٌ أنَّ فيها اختصاصُ العُبوديَّةِ باللهِ جَلَّوَعَلَا، وإطلاقُ ذلك علىٰ البشرِ لا يجوزُ.

قال: «وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي» لأجلِ ما ذَكرنا.

فتحصَّلَ مِن ذلكَ أنَّ هٰذه الألفاظَ -كما ذكرنا- يجبُ أن يُحترَزَ فيها ما لا يكونُ معه الأدبُ مع مَقامِ رُبوبيَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وأسمائِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وعليه فلا يكونُ جائزًا أنْ يقولَ: عَبدي وأَمَتي. أو أنْ يقولَ: أَطِعْ ربَّكَ وَضِّئْ ربَّكَ. ونحو ذلك.

هٰذا كلُّه مُختَصٌّ بالتَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة للمُكلَّفينَ، أمَّا إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إلىٰ غيرِ المُكلَّفِ فلا بأسَ بها؛ لأنَّ حقيقةَ العُبوديَّةِ لا تُتصوَّرُ فيها، كأنْ تَقولَ: ربُّ الدَّارِ وربُّ المَنزلِ وربُّ المالِ ونحوُ ذلك، فإنَّ الدَّارَ والمَنزلَ والمالَ ليست بأشياءَ مُكلَّفةً بالأمرِ والنَّهي، فلهٰذا لا تَنصرِفُ الأذهانُ أو يذهبُ القلبُ إلىٰ أنَّ ثمَّة نوعًا مِن عُبوديَّةٍ هٰذه الأشياءِ لمَن أُضيفَت إليه؛ بل إنَّ ذلكَ مَعروفٌ بأنَّه إضافةُ مِلكٍ؛ لأنَّها ليسَت

(1) جاء في صحيح مسلم بلفظ: كتابُ الألفاظِ مِن الأدبِ وغيرِها/ بابُ حُكمِ إطلاقِ لفظةِ العبدِ والأمةِ والمَولىٰ: «وَلاَ يَقُلِ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ: مَوْلاَيَ فَإِنَّ مَوْلاَكُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ».

مُخاطَبَةً بالأمرِ والنَّهيِ وليست يحصُلُ منها خُضوعٌ أو تَذلُّلٌ.

فإذن يُقيِّدُ النَّهيُ الوارد في ذلكَ بتعبيرِ المُكلَّفِ، أو يُقالُ مُكلَّفٌ وَضِّىءْ ربَّكَ أو أنـا ربُّ هٰـذا الغُـلامِ، أو نحوُ ذلك مِن الألفاظِ الَّتي لا تُناسِبُ الأدبَ.



55- بَابٌ

لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

[1] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(**بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ**) هٰذا البابُ مع البابِ الَّذي قبلَه ومع ما سبقَ -كما ذكرنا- كلُّها في تعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ورُبوبيَّتِه وأسمائِه وصِفاتِه؛ لأنَّ تعظيمَ ذلكَ مِن إكمالِ التَّوحيدِ ومِن تحقيقِ التَّوحيدِ.

ومَن سألَ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ فقد سألَ بعظيمٍ، ومَن استعَاذَ باللهِ فقد استعَاذَ بعظيمٍ؛ بل استعاذَ بمَن له هٰذا المَلَكوتُ وله تَدبيرُ الأمرِ بمَن كلُّ ما تراهُ وما لا تراهُ عبدٌ له جَلَّ وَعَلَا، فكيفَ يُرَدُّ من جعلَ مالكَ كلِّ شيءٍ وسيلةً حتَّىٰ تَقبلَ سُؤالَه، ولهٰذا كانَ مِن -التَّعظيمِ الواجبِ- ألَّا يُرَدَّ أحدٌ سألَ بالله جَلَّ وَعَلَا، فإذا سألَ سُؤالًا وجعلَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هو الوسيلةَ فإنَّه لا يجوزُ أنْ يُرَدَّ تعظيمًا للهِ جَلَّ وَعَلَا، والَّذي في قلبِه تعظيمٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا ينتَفِضُ إذا ذُكِرَ اللهُ كما قال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:2] بمُجرَّدِ ذكرِ اللهِ تجِلُ القُلوبُ لعِلمِهم باللهِ جَلَّ وَعَلَا وما يستَحِقُّ وعِلمِهم بتَدبيرِه ومَلَكوتِه وعَظَمَةِ صِفاتِه وأسمائِه جَلَّ وَعَلَا.

فإذا سألَ أحدٌ باللهِ فإنَّ قلبَ المُوحِّدِ لا يكونُ رادًّا له؛ لأنَّه مُعظِّمٌ للهِ مُجِلٌّ للهِ جَلَّ وَعَلَا، فلا يَرُدُّ أحدًا جعلَ وَسيلَتَه إليهِ ربَّ العِزَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أهلُ العلمِ قالوا: السَّائلُ باللهِ قد تَجبُ إجابَتُه ويَحرُمُ ردُّه، وقد لا يجبُ ذلك، وهٰذا القولُ قولُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ واختيارُ عددٍ مِن المُحقِّقينَ بعدَه، وهو القَولُ الثَّالثُ في المَسألةِ.

أمَّا القَولُ الأوَّلُ: فهو أنَّ مَن سألَ بالله حَرُمَ أنْ يُرَدَّ مُطلقًا.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ مَن سألَ باللهِ استُحِبَّ إجابَتُه وكُرِهَ رَدُّهُ.

والقَولُ الثَّالثُ: ما ذكرنا عن شيخِ الإسلامِ أنَّه قد يكونُ واجبًا وقد يكونُ مُستَحبًّا، وقد لا يكونُ كذلكَ؛ يعني: يكونُ مُباحًا.

تفصيلُ شيخِ الإسلامِ ظاهرٌ؛ وذلكَ أنَّه أرادَ بحالةِ الوُجوبِ أنْ يتوجَّهَ السُّؤالُ لمُعيَّنٍ في أمرٍ مُعيَّنٍ؛ يعني: ألَّا يكونَ السَّائلُ سألَ عددًا مِن النَّاسِ باللهِ ليحصُلَ علىٰ شيءٍ، فلهٰذا لم يُدخِلْ فيه السَّائلُ الفَقيرُ الَّذي يأتي فيسألُ هٰذا ويسألُ هٰذا ويسألُ هٰذا، أو ممَّن يكونُ كاذبًا في سُؤالِه، فيقولُ: يجبُ إذا

توجَّه لمُعيَّنٍ في أمرٍ مُعيَّنٍ، أمَّا إذا توجَّه لفُلانٍ وفُلانٍ وفُلانٍ عددٌ فإنَّه لا يكونُ توجَّهَ لمُعيَّنٍ، فإنَّه لا يجبُ عليه أن يُؤتِيهِ مَطلَبَه، ويجوزُ له أن يَرُدَّ سُؤالَه.

وإذا كانَ كذلك فتكونُ الحالةُ علىٰ هٰذهِ الأحوالِ تكونُ ثلاثةً:

- حالٌ يَحرُمُ فيها رَدُّ السَّائلِ.
- وحالٌ يُكرَهُ فيها ردُّ السَّائلِ.
- وحالٌ يُباحُ فيها ردُّ السَّائلِ باللهِ.

علىٰ كلامُ شيخِ الإسلامِ.

يحرُمُ ردُّ السَّائلِ بالله إذا توجَّه لمُعيَّنٍ في أمرٍ مُعيَّنٍ، خصَّكَ بهٰذا التَّوجُّه وسألَك باللهِ أنْ تُعينَه، وأنتَ طبعًا قادِرٌ علىٰ أنْ تُؤتِيَه مَطلوبَه.

ويُستَحبُّ فيما إذا كانَ التَّوجُّه ليسَ لمُعيَّنٍ كأنْ يسألَ فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا.

ويُباحُ فيما إذا كان مَن سألَ باللهِ يُعرَفُ مِنه الكذبُ.

فصارت إذن عندَنا الأقوالُ ثلاثةٌ في أصلِها:

- يحرُمُ ردُّ السَّائلِ ويجبُ إعطاؤُه هٰذا واحدٌ.
- الثَّاني: يُستَحَبُّ ويُكرَه ردُّه.
- والثَّالثُ: هو التَّفصيلُ، وهٰذا الثَّالثُ هو قولُ شيخِ الإسلامِ وعددٍ مِن المُحقِّقينَ.

وقوله هنا: (**بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ**) فيه عمومٌ لأجلِ الحديثِ الواردِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَنْ سَأَلَ بِالله فَأَعْطُوهُ**») لماذا؟ تَعظيمًا للهِ جَلَّوَعَلَا: (**مَنِ اسْتَعَاذَ بالله فَأَعِيذُوهُ**) مَن استعاذَ مِنك باللهِ فيجبُ أنْ تُعيذَه، مَن قالَ: أعوذُ باللهِ مِنْكَ. تَعظيمًا للهِ جَلَّجَلَالُهُ تُجيبُه إلىٰ ذلكَ وتتركُه؛ لأنَّ مَن استعاذَ باللهِ فقدْ استعاذَ بأعظمِ مُستَعاذٍ به، ولهٰذا في قصَّةِ الجونيَّةِ الَّتي دخلَ عليها النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فلمَّا دخلَ عليها واقتربَ مِنها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قالت له: أعوذُ باللهِ مِنكَ. فابتَعدَ عنها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقالَ: «**لَقَدِ اسْتَعَذْتِ بِمَعَاذٍ الْحَقِي بِأَهْلِكِ**». استعاذت باللهِ مِنه فتركَها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

قال: «**وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ**» عامَّةُ أهلِ العلمِ علىٰ أنَّ هٰذا مَخصوصٌ بدعوةِ العُرسِ وليسَ في كلِّ الدَّعواتِ، وأمَّا سائرُ الدَّعواتِ فهي علىٰ الاستِحبابِ.

قال طائفة آخرون من أهل العلم: هٰذا الدَّليل ليس فيه التَّفصيل، فيكون كلُّ دعوةٍ تجب إجابتُها لما

في إجابتها من إئتلافِ القلوب وإصلاح ذاتِ البين.

والقول الأوَّل هو قول الجمهور وهو الصَّواب؛ لأنَّ قوله: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ» هذا يُحمل علىٰ ما جاء في الأحاديث الأخرىٰ من تخصيصِ ذلك بدعوة الوليمة؛ ولأنَّ لفظ «دَعَاكُمْ» هٰذا في الغالب يُطلب علىٰ الدَّعوة للوليمة وهي دعوة العُرس.

قال: «وَمَن صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ» مَنْ صنعَ إليكَ مَعروفًا فكافِئه؛ كافِئه بجنسِ مَعروفِه؛ إنْ كانَ مَعروفُه مِن جهةِ المالِ فكافِئه مِن جهةِ المالِ؛ يعني: بما يشمَلُ الهدايا المُختَلِفَة، إنْ كانَ مَعروفُه مِن جهةِ الجاهِ فكَافِئه مِن جهةِ الجاهِ، فإن لم تجد ما تكافئه من الجاه فيكونُ مِن جهةِ الهَدِيَّةِ.

سببُ ذلكَ وصِلَتُه بالتَّوحيدِ -كما قال المُحقِّقونَ- أنَّ الَّذي صُنِعَ له مَعروفٌ يكونُ في قلبِه مَيلٌ ونوعُ تَذلُّلٍ وخُضوعٍ في قلبِه واستِرواحٍ لهٰذا الَّذي صنعَ إليه المَعروفَ.

ومَعلومٌ أنَّ تحقيقَ التَّوحيدِ أنْ يكونَ القلبُ خاليًا مِن كلِّ ما سِوىٰ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ، وأنْ يكونَ ذلُّه وخُضوعُه وعِرفانُه بالجميلِ هو للهِ جَلَّوَعَلَا.

وتخليصُ القلبِ مِن ذلكَ يكونُ بالمُكافأةِ علىٰ المَعروفِ، وأنَّه إذا أدَّىٰ إليكَ مَعروفًا فخلِّصِ القلبَ مِن رُؤية ذلكَ المَعروفِ بأنْ ترُدَّ إليه مَعروفَه، ولهٰذا قال: « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»، «حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» لأجلِ أنْ يتخلَّصَ القلبُ مِن أثرِ ذلكَ المَعروفِ، فترىٰ أنَّك دَعوتَ له ودَعوتَ له ودَعوتَ له بقدرٍ ترجو معه بأنَّك قد كافَأْتَه، وهٰذا لتخليصِ القلبِ ممَّا سِوىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا وهٰذهِ مَقاماتٌ لا يُدرِكُها إلَّا أربابُ الإخلاصِ وتحقيقِ التَّوحيدِ. جعلَنا اللهُ وإيَّاكم مِنهم.



56- بَابٌ

لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الْجَنَّةُ

[1] عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ صنعَ هٰذا كصنيعِ البُخاريِّ في صحيحِه، والبُخاريِّ في صحيحِه علىٰ ثلاثةِ أصنافٍ:

- تارةً يُضيفُ فيقولُ: بابُ كذا.
- وتارةً يقولُ: بابٌ وتُكمِلُ.
- أو تقولُ: بابْ وتسكُتُ ثمَّ تُكمِلُ الكلامَ.

وهٰذه ثلاثةُ أصنافٍ في البُخاريِّ جاريةٌ في هٰذا الكتابِ.

هٰذا (**بَابٌ لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الْجَنَّةُ**).

ومُناسبتُه لكتابِ التَّوحيدِ ظاهرةٌ مِن أنَّ تعظيمَ صِفاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا -سَواءٌ في ذلكَ صِفاتُ الذَّاتِ أو صِفاتِ الفعلِ- هٰذا مِن تحقيقِ التَّوحيدِ ومِن كمالِ الأدبِ والتَّعظيمِ للهِ جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ تعظيمَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وتعظيمَ أسمائِه وتعظيمَ صِفاتِه يكونُ بأنحاءٍ وأشياءَ مُتنوِّعَةٍ ومِن ذلكَ أنَّك لا تَسأَلُ باللهِ أو بوجهِ اللهِ أو بصِفاتِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ إلَّا المَطالِبَ العَظيمةُ الَّتي أعلاها الجنَّةُ، فقال: (**بَابٌ لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الْجَنَّةُ**)، (**لاَ يُسْأَلُ**) هٰذا نفيٌ، والنَّفيُ هنا مُضمَّنٌ النَّهيَ المُؤكَّدَ لأنَّه قال: لا يَسألُ بوجهِ اللهِ إلَّا الجنَّةَ، أو لا تَسألْ بوجهِ اللهِ إلَّا الجنَّةَ، فعدلَ عنِ النَّهيِ إلىٰ النَّفيِ لكي يتضمَّنَ أنَّ هٰذا مَنهيٌّ عنه وأنَّه لا يسوغُ وُقوعُه أصلًا (**لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الْجَنَّةُ**)، فلو فُرِضَ أنَّه يختارُ هل سيقَعُ أو لا يقعُ فإنَّه يُنفىٰ وُقوعُه أصلًا لما يجبُ مِن تعظيمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وتعظيمِ توحيدِه وتعظيمِ أسماءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وصِفاتِه.

(**لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ**)، وجهُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ صِفةُ ذاتٍ مِن صِفاتِه سُبحانَه وهو غيرُ الذَّاتِ، الوجهُ صِفةٌ مِن الصِّفاتِ وهو ما يُواجَه به، الوَجهُ في اللُّغةِ ما يُواجَهُ به، وهو مَجمَعُ أكثرِ الصِّفاتِ في اللُّغةِ، الوَجهُ ما يُواجَهُ به ويكونُ مَجمَعًا لأكثرِ الصِّفاتِ. فاللهُ جَلَّ وَعَلَا مُتَّصِفٌ بالوجهِ مُتَّصِفٌ به علىٰ ما يليقُ بجلالِه وعَظَمتِه نُثبِتُ ذلكَ إثباتًا نعلمُ أصلَ المَعنىٰ؛ ولكنَّ كمالَ المَعنىٰ أو الكيفيَّةِ فإنَّنا نَكِلُ ذلكَ إلىٰ عالِمِه وإلىٰ المُتَّصِفِ به جَلَّ جَلَالُهُ؛ ولكن نُثبِتُ علىٰ أصلِ عدمِ التَّمثيلِ والتَّعطيلِ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ].

(**إلاَّ الْجَنَّةُ**) **الجنَّةُ؛ هي: دارُ الكَرامةِ الَّتي أعدَّها اللهُ جَلَّ وَعَلَا للمُكلَّفينَ مِن عِبادِه الَّذين أجابوا رُسلَه ووحَّدوه وعَمِلوا صالحًا**، وهي أعظَمُ مَطلوبٍ؛ لأنَّ الحُصولَ عليها حُصولٌ علىٰ أعظمِ ما يُسَرُّ به العبدِ،

ولهٰذا كان مِن غيرِ السَّائغِ واللَّائقِ؛ بل كانَ مِن غيرِ الجائزِ أنْ يُسألَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بنَفسِه أو بوجهِه أو بصِفةٍ من صِفاتِه أو باسمٍ مِن أسمائِه الحُسنىٰ إلَّا أعظمُ مَطلوبٍ، فإنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ لا يُسأَلُ بصِفاتِه الأشياءَ الحَقيرةَ الوَضيعةَ؛ بل يُسأَلُ أعظمَ المَطلوبِ وذلكَ لكي يتناسبَ السُّؤالُ مع وَسيلةِ السُّؤالِ، وهٰذا مَعنىٰ هٰذا البابِ في أنَّ تعظيمَ صِفاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في ألَّا تدعُوَ اللهَ بها إلَّا في الأمورِ الجَليلةِ، فلا تسأَلِ اللهَ جَلَّوَعَلَا بوجهِه أو باسمِه الأعظمِ أو نحوِ ذلكَ في أمورٍ حَقيرةٍ وَضيعةٍ لا تُناسِبُ تعظيمَ ذلكَ الاسمِ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ) وهٰذا ظاهرٌ فيما بوَّبَ له الإمامُ المُصنِّفُ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ.

وقد قالَ العلماءُ هنا: إنَّ وجهَ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ يُسأَلُ به الجنَّةَ، ولا يجوزُ أنْ يُسألَ به غيرَها إلَّا ما كانَ وسيلةً إلىٰ الجنَّةِ أو كانَ مِن الأمورِ العظيمةِ الَّتي هي مِن جنسِ السُّؤالِ بالجنَّةِ أو مِن لَوازمِ السُّؤالِ بالجنَّةِ كالنَّجاةِ مِن النَّارِ وكالتَّثبيتِ عندَ السُّؤالِ ونحوِ ذلك، فالأمرُ المَطلوبُ الجنَّةُ أو ما يُقارِبُ إليها مِن قولٍ أو عملٍ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ أو ما قرَّبَ إليها مِن قولٍ أو عملٍ، هٰذا يجوزُ أنْ تسألَ الله جَلَّوَعَلَا إيَّاهُ مُتوَسِّلًا بوجهِه العظيمِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأمَّا غيرُ الوجهِ مِن الصِّفاتِ أو مِن الأسماءِ فالأدبُ ألَّا تُسأَلَ إلَّا في المَطالبِ العظيمةِ، وإذا كانَ ثمَّ شيءٌ مِن المَطالبِ الوَضيعةِ أو الَّتي تحتاجُها ممَّا ليسَ بعظيمٍ فلا يَكُنْ ثَمَّ توسُّلٌ بصِفاتِ اللهِ الجليلةِ العظيمةِ؛ بل تقولُ: اللَّهمَّ أعطِني كذا، اللَّهمَّ أسألُك كذا، ونحوَ ذلكَ.

أمَّا التَّوسُّلُ بصِفاتِ الله العظيمةِ كالوجهِ وكاسمِه الأعظمِ ونحوِ ذلك فإنَّ ذلكَ يختصُّ بالمَطالبِ العاليةِ بما بينَ الاسمِ الأعظمِ والصِّفاتِ العُظمىٰ مع المَطالبِ العاليةِ مِنَ المُناسبةِ واللهُ أعلمُ.



57- بَابٌ
مَا جَاءَ فِي اللَّوْ

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران:154] الآيَةَ.

[2] وَقَوْلُـهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾[آل عمران:168] الآيَةَ.

[3] فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَـزَن، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ [كَذَا] لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

(بَابٌ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ)، قلبُ المُوحِّدِ؛ قلبُ المُؤمنِ لا يكونُ مُحقَّقًا مُكمِّلًا للتَّوحيدِ حتَّىٰ يعلمَ أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وبقدرِه، وأنَّ ما فعلَه سببٌ مِن الأسبابِ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا مَضىٰ قدرُه في خلقِه، وأنَّه مَهما فعلَ فإنَّه لن يَحجِزَ قدرَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فإذا كانَ كذلكَ كانَ القلبُ مُعظِّمًا للهِ جَلَّ وَعَلَا في تصرُّفِه في مَلَكوتِه، وكانَ القلبُ لا يُخالِطُه تمنِّي أنْ يكونَ شيءٌ فاتَ علىٰ غيرِ ما كانَ، وأنَّه لو فعلَ أشياءَ لتغيَّرَ ذلك السَّابقُ؛ بل الواجبُ أنْ يعلمَ أنَّ قضاءَ اللهِ نافذٌ وأنَّ قدرَه ماضٍ وأنَّ ما سبقَ مِن الفعلِ قد قدَّرَه الله جَلَّ وَعَلَا وقدَّر نتائِجَه، فالعبدُ لا يُمكِنُه أنْ يرجِعَ إلىٰ الماضي فيُغيِّر، وإذا استعملَ لفظَ (لَوْ) أو لفظَ (لَيْتَ) وما أشبَهَها مِن الألفاظِ الَّتي تدلُّ علىٰ النَّدمِ وعلىٰ التَّحسُّرِ علىٰ ما فاتَ فإنَّ ذلكَ يُضعِفُ القلبَ ويجعلُ القلبَ مُتعلِّقًا بالأسبابِ مُنصَرِفًا عن الإيقانِ بتصريفِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في مَلَكوتِه، وكمالُ التَّوحيدِ إنَّما يكونُ بعدمِ الالتِفاتِ إلىٰ الماضي، فإنَّ الماضي الَّذي حصلَ:

إمَّا أنْ يكونَ مُصيبةً أُصيبَ بها العبدُ، فلا يَجوزُ له أنْ يقولَ: لو كانَ فعلْتُ كذا لمَا حصلَ كذا؛ بل الواجبُ عليهِ أن يَصبِرَ علىٰ المُصيبَةِ، وأنْ يَرضىٰ بفعلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ويُستَحَبُّ له الرِّضىٰ بالمُصيبَةِ.

وإذا كان ما أصابَه في الماضي مَعصيَةً، فإنَّ عليه أنْ يُسارِعَ في التَّوبةِ والإنابةِ، وألَّا يقولَ: لو كانَ كذا لم يَكُنْ كذا؛ بل يجبُ عليه أنْ يُسارِعَ في التَّوبةِ والإنابةِ حتَّىٰ يَمحُوَ أثرَ المَعصيةِ.

فإذن ما مضىٰ مِن المُقدَّرِ للعبدِ هما حالان:

إمَّا أنْ يكونَ مَصائِبَ، إمَّا أنْ يكونَ ذلكَ الَّذي مَضىٰ مَصائِبَ فحالُها كما ذكرْنا.

وإمَّا أنْ يكونَ مَصائِبَ ومَعاصي، فالواجبُ عليهِ أنْ يُنيبَ وأنْ يَستغفِرَ وأنْ يُقبِلَ علىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، قد قال سُبحانَه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾[طه].

الشَّيطانُ يَدخُلُ علىٰ القلبِ فيجعلُه يُسيءُ الظَّنَّ بربِّه جَلَّ وَعَلَا وبقضائِه وقدرِه، وإذا دخلَت إساءةُ

الظَّنِّ باللهِ ضعُفَ التَّوحيدُ ولم يُحقِّق العبدُ ما يجبُ عليه مِن الإيمانِ بالقَدرِ والإيمانِ بأفعالِ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ.

ولِهٰذا عقدَ المُصنِّفُ هٰذا البابَ؛ لأنَّ كثيرينَ يعترِضونَ علىٰ القَدرِ مِن جهةِ أفعالِهم؛ يظنُّونَ أنَّهم لو فعلوا أشياءَ لتغيَّرَ الحالُ، واللهُ جَلَّوَعَلَا قد قدَّرَ الفِعلَ وقدَّرَ النَّتيجةَ فالكلُّ مُوافِقٌ لحِكمَتِه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ والثَّاني] قال: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران:154]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾[آل عمران:168]) ذَكرنا أنَّ قَولَ (لَوْ) في الماضي أنَّ هٰذا لا يجوزُ وأنَّ هٰذا مُحرَّمٌ ودليلُ ذلكَ مِنَ الآيتين.

ومُناسبةُ الآيتينِ للبابِ ظاهرةٌ؛ وهو: أنَّ التَّحسُّرَ علىٰ الماضي بالإتيانِ بلفظِ (لَوْ) إنَّما كانَ مِن خِصالِ المُنافقينَ قال جَلَّوَعَلَا عنِ المُنافقينَ: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ وهٰذا في قصَّةِ غزوةِ أُحُدٍ كما هو مَعروفٌ، فهٰذا من كلامِ المُنافقينَ.

فيكونُ -إذن- استعمالُ (لَوْ) مِن خِصالِ النِّفاقِ وهٰذا يدلُّ علىٰ حُرمَتِها.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزَن، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»).

وجهُ مُناسبةِ هٰذا الحديثِ قولُه: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا» (**لَوْ**) هنا كانَتْ علىٰ الماضي «أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ» وهٰذا النَّهيُ للتَّحريمِ «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا» هٰذا لأنَّه سوءُ ظنٍّ ولأنَّه فتحَ عملَ الشَّيطانِ، فالشَّيطانُ يأتي المُصابَ فيُغريهِ بـ(**لَوْ**) حتَّىٰ إذا استعملَها ضعُفَ قلبُه وعجزَ وظنَّ أنَّه سيُغيِّرُ مِن قدرِ الله شيئًا، وهو لا يَستطيعُ أنْ يُغيِّرَ مِن قَدرِ الله شيئًا؛ بل قدرُ اللهِ ماضٍ ولهٰذا أرشدَه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنْ يقولَ: «قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ»؛ لأنَّ ذلكَ راجعٌ إلىٰ قدرِه وإلىٰ مَشيئَتِه.

هٰذا كلُّه مِن النَّهيِ والتَّحريمِ راجعٌ إلىٰ ما كانَ من استِعمالِ (لَوْ) أو (لَيْتَ) وما شابَهَهُما مِن الألفاظِ في التَّحسُّرِ علىٰ الماضي وتمنِّي أنْ لَوْ فعلَ كذا حتَّىٰ لا يحصُلَ له ما سبقَ، كلُّ ذلكَ فيما يتَّصلُ بالماضي.

أمَّا المُستقبلُ أنْ يقولَ: لو فعلتُ كذا وكذا، في المُستقبلِ، فإنَّه لا يدخُلُ في النَّهيِ؛ وذلكَ باستعمالِ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لذلكَ حيثُ قال مثلًا: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمَا سُقْتُ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً**» ونحوِ ذلك مِن الأدلَّةِ، فاستعمالُ (لَوْ) في المُستقبَلِ الأصلُ فيه الجوازُ؛ إلَّا إنِ اقترنَ

بقولِ القائلِ: (لَوْ) يُريدُ المُستقبَلَ: اعتقادُ أنَّ فِعلَه سيكونُ حاكِمًا علىٰ القَدرِ؛ كاعتقادِ بعضِ الجاهليِّينَ: لَوْ حصلَ لي كذا لفعلْتُ كذا. تكبُّرًا وأَنَفةً واستِعظامًا لِفعلِهم وقُدرَتِهم، فإنَّ هٰذا يكونُ مِن المُنهيِّ؛ لأنَّ فيه تجبُّرًا، وفيه تَعاظُمًا، والواجبُ علىٰ العبدِ أنْ يكونَ ذليلًا؛ لأنَّ القضاءَ والقدرَ ماضٍ، وقد يحصُلُ له الفِعلُ، ولكن ينقلِبُ علىٰ عقِبَيْه، كحالِ الَّذي قال اللهُ جَلَّوَعَلَا فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التَّوبة] فإنَّهم قالوا: لو كانَ لنا كذا وكذا وكذا لفَعَلْنا كذا وكذا، فلمَّا أعطاهُم اللهُ جَلَّوَعَلَا المالَ ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾، فهٰذا فيه نوعُ تحكُّمٍ علىٰ القدرِ وتُعاظُمٍ.

فاستِعمالُ (لَوْ) في المُستقبَلِ إذا كانت في الخَيرِ، معَ رَجاءِ ما عندَ اللهِ بالإعانَةِ علىٰ أسبابِ الخَيرِ، فهٰذا جائزٌ.

أمَّا إذا كانَ علىٰ وجهِ التَّجبُّرِ والاستِعظامِ فإنَّه لا يجوزُ؛ لأنَّ فيه نوعَ تحكُّمٍ علىٰ القَدرِ.



[الأسئلة]

[سؤال (29): كيفَ نُخرِّجُ قولَ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ عَمِّي فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»؟

الجواب: قولُ القائلِ: لولا فلانٌ لكانَ كذا. مُنِعَ منه وصارَ شِركًا لفظيًّا ونوعَ تشريكٍ؛ لأنَّه نسبةٌ للنِّعمَةِ لغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، يقولُ: لولا فُلانٌ لأصابني كذا، ولولا فلانٌ أنَّه كانَ جيِّدًا معي لكانَ حصَلَ لي كذا وكذا، أو لولا السَّيَّارةُ أنَّها قويَّةٌ لكانَ هلكتُ، أو لولا كذا لكان كذا. ممَّا فيه تعليقُ دفعِ النِّقَمِ أو حُصولِ النِّعَمِ لأحدٍ مِن المَخلوقينَ.

والواجبُ علىٰ العِبادِ أنْ ينسِبُوا النِّعَمَ إلىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو الَّذي يُسدي النِّعَمَ، قال جَلَّوَعَلَا في سورةِ النِّعَمِ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النَّحل] و قالَ جَلَّوَعَلَا أيضًا في السُّورةِ نفسِها: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النَّحل:83]، فالواجبُ علىٰ العبدِ المُسلمِ أنْ ينسِبَ النِّعَمَ إسداءً وتَفضيلًا وإنعامًا للهِ جَلَّوَعَلَا، وأنْ يتعلَّقَ قلبُه بالَّذي جعلَ تلكَ النِّعَمَ تصِلُ إليهِ، والنَّاسُ أو الخلقُ والأسبابُ إنَّما هي فضلٌ مِن اللهِ جَلَّوَعَلَا جعلَها أسبابًا، ففُلانٌ مِن النَّاسِ جعلَه اللهُ سببًا لكي يَصِلَ إليكَ النَّفعُ عن طريقِه، أمَّا النَّافعُ في الحقيقةِ فهو اللهُ جَلَّوَعَلَا، إذا اندَفعتْ عنكَ نِقمَةٌ فالَّذي دفعَها هو اللهُ

جَلَّوَعَلَا بواسطةِ سببِ ذلكَ المَخلوقِ -إمَّا آدميٌّ وإمَّا غيرُ آدميٍّ-، فيجبُ نسبةُ النِّعَمِ إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فلا تَنسِبْ نِعمَةً لغيرِه سُبحانَه، ومَن نسبَها لغيرِه سُبحانَه فهو داخلٌ في قولِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾.

وأمَّا الحديثُ الَّذي في الصَّحيحِ مِن أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سُئِلَ: هل نفَعْتَ عمَّكَ أبا طالبٍ بشيءٍ؟ قال: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»، قولُه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ «**لَوْلَا أَنَا**» هٰذا فيه ذكرٌ لعملِه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وافترقَ عن قولِ القائلِ: لولا فُلانٌ لحصلَ كذا مِن جِهتينِ:

الجِهةُ الأولىٰ: أنَّ ذلكَ القائِلَ هو الَّذي حصلَتْ له النِّعمَةُ أو اندَفعَتْ عنه النِّقمَةُ، والنَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هنا يُخبِرُ عن صنيعِه بعمِّه وأنَّ عمَّه اندَفعَت عنه النِّقمَةُ، فذاكَ في المُتحدِّثِ الَّذي تعلَّقَ قلبُه بالَّذي نفعَه أو دفعَ عنه الضُّرَّ، وأمَّا قولُ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو إخبارٌ عن نفعِه لغيرِه، فليسَ فيه تعلُّقٌ للقلبِ باندفاعِ النِّقمةِ أو حصولِ النِّعمَةِ بغيرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، هٰذا وجهٌ.

فيكونُ إذن مَعنىٰ ذلكَ أنَّ الوجهَ الَّذي نُهي عنهُ للعِلَّةِ الَّتي مِن أجلِها نهىٰ عن قَولِ: (**لَوْلَا أَنَا**)، أنْ يكونَ فيها نِسبَةُ النِّعمَةِ إلىٰ غيرِ اللهِ مِن جهةِ تعلُّقِ القلبِ بذلكَ الَّذي حصَّلَ له النِّعمَةَ، وهٰذا غيرُ واردٍ في قولِ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»؛ لأنَّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ليسَ هو الَّذي حصلَتْ له النِّعمَةُ إنَّما هو مُخبِرٌ عن فعلِه لعمِّه.

الوجهُ الثَّاني في ذلكَ: أنَّ النَّبيَّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قد بيَّن أنَّ نفعَه لعمِّه مِن جهةِ الشَّفاعةِ، فهو يشفعُ لعمِّه حتَّىٰ يكونَ في ضحضاحٍ مِن نارٍ، فقولُه: «**وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» يعني: لولا شفاعَتي. ومَعلومٌ بنُصوصِ الشَّرعِ أنَّه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يُكرَمُ بالشَّفاعةِ ويُعطىٰ الشَّفاعةَ، فهو سائلٌ وهو سببٌ مِن الأسبابِ، والمُتفضِّلُ حقيقةً هو اللهُ جَلَّوَعَلَا، فكأنَّه قالَ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بضَميمةِ عِلمِنا أنَّه يشفعُ لعمِّه: لولا أنَّ اللهَ شفَّعَني فيه لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ.

فليسَ فيه بالوَجهينِ جميعًا تعليقٌ للقَلبِ بغيرِ الله جَلَّوَعَلَا في حُصولِ النِّعَمِ أو اندِفاعِ النِّقَمِ، ممَّا يكونُ في قَولِ القائلِ: لولا فُلانٌ لحصَلَ كذا أو لولا السَّيَّارةُ لحصَلَ كذا أو لولا الطَّيَّارُ لحصَلَ كذا أو لولا البيتُ كانَ مُحَصَّنًا لحصَلَ كذا، ونحوُ ذلكَ ممَّا فيه تعلُّقُ قلبِ مَن حصَلَتْ له النِّعمَةُ بالمَخلوقينَ. واللهُ أعلمُ][1]



(1) مَأخوذٌ مِن الوجهِ الأوَّلِ مِن الشَّريطِ الثَّامنِ.

58- بَابٌ

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

[1] عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذه الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هٰذه الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

(بَابٌ النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ) الرِّيحُ مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِ الله مُسخَّرٌ، وهي واحدةُ الرِّياحِ، يُجريها اللهُ جَلَّوَعَلَا كما يشاءُ، وهي لا تملِكُ شيئًا، كالدَّهرِ لا يملِكُ شيئًا ولا يُدبِّرُ أمرًا، فسبُّ الرِّيحِ كسبِّ الدَّهرِ، يرجعُ في الحقيقةِ إلىٰ أذيَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي يُصرِّفُ الرِّيحَ كيفَ يشاءُ، يأتي بالرِّيحِ بأمرٍ مُكروهٍ فيذكِّرُ العِبادَ بالتَّوبةِ والإنابةِ، ويذكِّرُ العِبادَ بأمرِ قُدرَتِه عليهم وأنَّه لا غِنَىٰ لهم عنه جَلَّوَعَلَا طرفةَ عينٍ، ويأتي بالرِّيحِ فيجعلُها رياحًا، فيُسخِّرُها جَلَّوَعَلَا لِمَا فيه مِن مَصلحةِ العِبادِ، فالرِّيحُ إذن لا تملِكُ شيئًا، فهٰذا البابُ عقدَهُ لبَيانِ تَحريمِ سبِّ الرِّيحِ كما عقَدَ ما قبلَه لبَيانِ أنَّ سبَّ الدَّهرِ لا يجوزُ ومُحرَّمٌ لأنَّه أذيَّةٌ للهِ جَلَّوَعَلَا.

وهٰذا البابُ مِن جنسِ ذاكَ؛ لكنْ هٰذا يَكثُرُ وقوعُه، فأفردَه لكثرةِ وقوعِه وللحاجةِ إلىٰ التَّنبيهِ عليه.

قال: (بَابٌ النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ) النَّهيُ للتَّحريمِ، وسبُّ الرِّيحِ يكونُ بشَتمِها أو بلَعنِها، وكما ذَكرنا لكم في بابِ الدَّهرِ ليسَ مِن سَبِّها أنْ توصفَ بالشِّدَّةِ كقَولِ اللهِ جَلَّوَعَلَا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[الحاقَّة]، ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ هٰذا وصفٌ لها ووَصفُها بالشِّدَّةِ أو وَصفُها بالأوصافِ الَّتي يكونُ فيها شرٌّ علىٰ مَن أتَتْ عليه كقَولِه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[الذَّاريات] ليسَ هٰذا مِن المَنهيِّ عنه.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذه الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ») هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الرِّيحَ يكونُ فيها أمرٌ، ويكونُ عليها أمرٌ ونَهيٌ، واللهُ جَلَّوَعَلَا يُرسِلُ الرِّياحَ كيفَ يشاءُ، ويَصْرِفُها أيضًا جَلَّوَعَلَا عمَّن يشاءُ، فهي مُسخَّرةٌ بأمرِه جَلَّوَعَلَا، والملائكةُ هي الَّتي تُصرِّفُ الرِّيحَ بأمرِه جَلَّوَعَلَا، فللرِّيحِ مَلائكةٌ تُصرِّفُها كيفَ شاءَ ربُّنا جَلَّوَعَلَا وتقدَّسَ وتعاظمَ، فيها خيرٌ وقد يكونُ فيها عذابٌ، ولهٰذا قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا» فأرْشدَهم إلىٰ القَولِ الآتي، وما يَكرهونَ قد يكونُ مِن جهةِ صِفةِ الرِّيحِ، وقد يكونُ مِن جهةِ لونِ الرِّيحِ -يعني: صِفتُها مِن جهةِ السُّرعةِ أو الاتِّجاهِ-،

وقد يكونُ مِن جهةِ لونِها، وقد يكونُ مِن جهةِ أثرِها، والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان إذا رأىٰ شيئًا في السَّماءِ أقبلَ وأدبرَ ودخلَ وخرجَ ورُئِيَ ذلكَ في وجهِه حتَّىٰ تُمطِرَ السَّماءُ فيُسَرَّ عنه ويُسَرَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قالت له عائشةُ: يا رسولَ الله لِم ذاكَ؟ قال: «**أَلَمْ تَسْمَعِي لِقَوْلِ أُولَئِكَ**-أو كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف]».

فإذن الخَوفُ مِن اللهِ جَلَّجَلَالُهُ إذا ظهرَتْ هٰذه الحَوادثُ أو التَّغيُّراتُ في السَّماءِ أو في الأرضِ واجبٌ، واللهُ جَلَّوَعَلَا يتعرَّف إلىٰ عبادِه بالرَّخاءِ كما أنَّه يتعرَّفُ إلىٰ عبادِه بالشِّدَّة حتَّىٰ يَعرِفوا ويَعلَموا رُبوبيَّتَه وقَهرَه وجَبَروتَه ويَعلَموا حِلمَه وتودُّدَه ورَحمتَه أيضًا لعبادِه.

فإذن إذا رأى العبدُ ما يَكرهُ ضرع إلىٰ اللهِ واستَغاثَ باللهِ وسألَ اللهَ بقَولِه: («**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذه الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هٰذه الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**». **صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ**).

بهٰذا نكونُ قد أخَذْنا هٰذا اليومَ تِسعةَ أبوابٍ، ويبقىٰ عِندَنا تِسعةُ أبوابٍ نُكمِلُها غـدًا إنْ شـاءَ الله، وبِهـا تمامُ الكتابِ.

أسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا أنْ يجعلَكم مُبارَكينَ، وأنْ ينفعَ بكم وبما تعلَّمْتُم، وأنْ يجعلَنا وإيَّاكُم مِن وَرثةِ جنَّةِ النَّعيمِ وأنْ يغفرَ لنا ذُنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا، وأنْ يجعلَ وسيلَتَنا التَّوحيدَ، وأنْ يجعلَ وسيلَتَنا إليه الإخلاصَ، فإنَّا مُذنِبونَ، ولولا رحمةُ اللهِ جَلَّوَعَلَا لهَلَكْنا، اللَّهمَّ فاغفرْ جمًّا.

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّمَ وباركَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



الدرس السادس عشر

59- بَابٌ

[1] قَوْلُ اللهِ تعَالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[آل عمران: 154] الآيَةَ.

[2] وقَوْلُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾[الفتح: 6] الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الآيَةِ الْأُولَىٰ: «فُسِّرَ هٰذا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهٰذا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ، الَّذِي ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هٰذا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَىٰ الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَىٰ: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهٰذا، وَلْيَتُبْ إِلَىٰ اللهِ، وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ   وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا».

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم

الحمدُ للهِ الَّذي له الحمدُ كلُّه في رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه وفي أسمائِه وصِفاتِه، له الحمدُ علىٰ أفعالِه -أفعالِ الحِكمةِ والإحسانِ، وأفعالِ العدلِ- فهو وليُّ الفضلِ ووليُّ النِّعمةِ، وله الحمدُ علىٰ ما أنزلَ علىٰ رسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلهُ الحمدُ كلُّه، وإليه يُرجعُ الأمرُ كلُّه، تباركَ ربُّنا وتعالىٰ وتقدَّسَ.

وأشهدُ ألَّا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُ اللهِ ورَسولُه وصَفيُّه وخَليلُه، صلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِه وصَحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلىٰ يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ؛

فهٰذا (**بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[آل عمران: 154] الآيةَ. وقولُه: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾**[الفتح:6])، هٰذا البابُ ذكرَ فيه الإمامُ المُصنِّفُ هاتين الآيتينِ.

ومُناسبةُ هٰذا البابِ لـ«كتابِ التَّوحيدِ» أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا مَوصوفٌ بصِفاتِ الكمالِ وله جَلَّوَعَلَا أفعالُ الحِكمةِ وأفعالُ العَدلِ وأفعالُ الرَّحمةِ والبِرِّ جَلَّوَعَلَا، فهو سُبحانَه كاملٌ في أسمائِه، كاملٌ في صِفاتِه، كاملٌ في رُبوبيَّتِه، ومِن كمالِه في رُبوبيَّتِه وفي أسمائِه وصِفاتِه أنَّه لا يفعلُ الشَّيءَ إلَّا لحِكمةٍ بالغةٍ، والحَكمةُ في ذلكَ هي أنَّه جَلَّوَعَلَا يَضعُ الأمورَ مَواضِعَها الَّتي تُوافِقُ الغاياتِ المَحمودةَ مِنها، وهٰذا دليلُ الكمالِ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا له صِفاتُ الكمالِ وله نُعوتُ الجلالِ والجمالِ، فلهٰذا وجبَ لكمالِه جَلَّوَعَلَا أنْ يُظَنَّ به ظنُّ الحقِّ، وألَّا يُظَنَّ به ظَنُّ السَّوءِ؛ يعني أن يُعتَقَدَ فيه ما يجبُ لجلالِه جَلَّوَعَلَا مِن تمامِ الحِكمةِ وكمالِ العدلِ وكمالِ الرَّحمةِ جَلَّوَعَلَا وكمالِ أسمائِه وصِفاتِه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فالَّذي يَظُنُّ به جَلَّوَعَلَا علىٰ أنَّه يفعلُ الأشياءَ لا عَن حِكمةٍ، فإنَّه قد ظنَّ به ظنَّ النَّقصِ وهو ظنُّ السَّوءِ الَّذي ظنَّه أهلُ الجاهليَّةِ.

فإذن يكونُ الظَّنُّ باللهِ غيرَ الحقِّ مُنافٍ للتَّوحيدِ، وقد يكونُ مُنافيًا لكمالِ التَّوحيدِ:

فمِنه ما يكونُ صاحبُه خارجًا عن مِلَّةِ الإسلامِ أصلًا، كالَّذي يظنُّ باللهِ غيرَ الحقِّ لبعضِ مَسائلِ القدرِ كما سيأتي.

ومِنه ما هو مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ بأنْ يكونَ غيرَ مُؤمنٍ بالحِكمةِ أو بأفعالِ اللهِ جَلَّوَعَلَا المَنوطةِ بالعِلَلِ الَّتي هي مَنوطةٌ بحِكمَتِه سُبحانَه البالغةِ.

ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾[الأنعام]، في الرَّدِّ علىٰ القدريَّةِ المُشركيَّةِ، وقد قال أيضًا جَلَّوَعَلَا: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾[القمر]، فاللهُ جَلَّوَعَلَا مَوصوفٌ بكمالِ الحِكمةِ وكمالِ الحمدِ علىٰ أفعالِه؛ لأنَّ أفعالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا قِسمانِ:

- أفعالٌ ترجعُ إلىٰ الحِكمةِ والعدلِ.
- وأفعالٌ ترجعُ إلىٰ الفضلِ والنِّعمَةِ والرَّحمةِ والبِرِّ بالخلقِ.

فاللهُ جَلَّوَعَلَا يفعلُ هٰذا وهٰذا، وحتَّىٰ أفعالُه الَّتي هي أفعالُ بِرٍّ وإحسانٍ هي مَنوطةٌ بالحِكَمِ العَظيمةِ، وكذلكَ الأفعالُ الَّتي قد يظهرُ للبشرِ أنَّها ليسَت في صالحِهم أو ليست مُوافِقَةً للحِكمةِ فإنَّ ظنَّ الحقِّ باللهِ

جَلَّوَعَلَا أنْ يُظَنَّ به وأَنْ يُعتَقَدَ أنَّه ليسَ ثمَّ شيءٌ مِن أفعالِه إلَّا وهو مُوافِقٌ لحِكمتِه جَلَّوَعَلَا العظيمةِ إذ هو العزيزُ القَهَّارُ الفعَّالُ لِما يُريدُ.

إذن فالواجبُ تحقيقًا للتَّوحيدِ أنْ يَظُنَّ العبدُ باللهِ جَلَّوَعَلَا ظنَّ الحقِّ، وأمَّا ظنّ السَّوءِ فهو ظنُّ الجاهليَّةِ الَّذي هو مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ في بعضِ أحوالِه أو مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ.

فترجمَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهٰذا البابِ ليُبيِّنَ لك أنَّ ظنَّ السَّوءِ باللهِ جَلَّوَعَلَا مِن خصالِ أهلِ الجاهليَّةِ وهو مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ أو مُنافٍ لكمالِه بحسبِ الحالِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال هنا: (**بابٌ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾**[آل عمران:154]) **الظَّنُّ يُطلَقُ ويُرادُ به الاعتقادُ أو يُرادُ به ما يسبِقُ إلىٰ الذِّهنِ**، فهم يعتقِدونَ أو يسبِقُ إلىٰ أذهانِهم لِما معهم مِن الشِّركِ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا ليسَت أفعالُه أفعالَ حقٍّ، واللهُ سُبحانَه هو الحقُّ وأفعالُه كلُّها أفعالُ الحقِّ، وذلكَ الظَّنُّ ظنُّ الجاهليَّة، فكلُّ مَن ظنَّ بالله غيرَ الحقِّ فقد ظنَّ ظنَّ الجاهليَّةِ؛ بمعنىٰ ظنَّ باللهِ جَلَّوَعَلَا غيرَ الكمالِ فهٰذا هو ظنُّ الجاهليَّةِ، وظنُّ أهلِ التَّوحيدِ والإسلامِ -يعني: يعتقدونَ ويَعلمونَ ويَسبِقُ إلىٰ أذهانِهم- في أيِّ فعلٍ يحصُلُ لهم أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا مَوصوفٌ بالكمالِ وبالحِكمةِ البالغةِ.

فسَّر ذلك جَلَّوَعَلَا بقولِه: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وهٰذا فيهِ إنكارٌ للحِكمةِ أو إنكارٌ للقدرِ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وهٰذا في حالِ الرَّدِّ علىٰ هؤلاءِ المُنافقينَ أو المُشركينَ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[الفتح:6]) مرَّ معنا في كلامِ ابنِ القيِّم مِن كلامِ المُصنِّفِ أنَّ السَّلفَ فسَّروا هٰذا الظَّنَّ السَّوءَ بأحدِ ثلاثةِ أشياءٍ، وكلُّها صحيحٌ، فظنُّ السَّوءِ الَّذي يظنُّه الجاهليُّونَ يشملُ هٰذه الأشياءَ الثَّلاثة جميعًا.

أمَّا **الأوَّلُ**: فهو إنكارُ القَدَرِ.

وأمَّا **الثَّاني**: فهو إنكارُ الحِكمةِ.

وأمَّا **الثَّالثُ**: فهو إنكارُ نَصرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا لرَسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو لدينِه أو لعبادِه الصَّالحينَ.

فهٰذه ثلاثةُ أشياءَ.

- ووجهُ قولِه إنكارُ القدرِ ظنًّا باللهِ ظنَّ السَّوءِ: أنَّ تقديرَ الأمورِ قبلَ وقوعِها، هٰذا مِن آثارِ عِزَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وقُدرَتِه، فإنَّ العاجزَ هو الَّذي تقعُ معه الأمورُ استِئنافًا عن غيرِ تقديرٍ سابقٍ، وأمَّا الَّذي لا يحصُلُ معه أمرٌ حتَّىٰ يُقدِّرَه قبلَ أنْ يوقعَه فيقعَ علىٰ وفقِ ما قدَّرَ، فهو ذو الكمالِ وهو ذو العِزَّة وهو الَّذي لا

يُغالَبُ في مَلَكوتِه، ولهٰذا قال الشَّاعرُ[1] في وصفِ رَجلٍ كاملٍ قالَ:

لَأَنْـــتَ تَفْـــرِي مَـــا خَلَقْـــتَ وَبَعْـضُ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لَا يَفْـرِي

الخلقُ هنا بمعنىٰ التَّقديرُ؛ يعني لأنتَ تقطَعُ ما قدَّرتَ، وبعضُ القومِ -وهم النَّاقصون إمَّا لعدمِ قُدرَتِهم أو لعدمِ عِزَّتِهم أو لجَهْلِهم- وبعضُ القومِ يخلُقُ؛ يعني يُقدِّرُ الأشياءَ ثمَّ لا يَفري، ثمَّ لا يَستطيعُ أنْ يَقطعَها علىٰ وُفقِ ما يُريدُ.

إذن فإنكارُ القَدَرِ هو ظنٌّ باللهِ جَلَّوَعَلَا ظنَّ السَّوءِ لِمَ؟ لأنَّ فيـه نسـبَةَ الـنَّقصِ للهِ جَلَّوَعَلَا، واللهُ جَلَّوَعَلَا هو الكاملُ في أسمائِه، الكاملُ في صِفاتِه جَلَّوَعَلَا، الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، والَّذي له الأمرُ كلُّـه، والَّـذي إليه الأمرُ كلُّه كما قال هنا: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، فلهٰذا كانَ كلُّ ما يحصُلُ مِن الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا في بريَّتِـه هو مُوافِقٌ لقَدرِهِ السَّابقِ الَّذي هو دليلُ كمالِ حِكمتِه وعِلمِه وخَلقِه وعُمومِ مَشيئَتِه.

◆ أمَّا التَّفسيرُ الثَّاني فهو إنكارُ الحِكمةِ: وحِكمةُ اللهِ جَلَّوَعَلَا ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وبإجماعِ السَّـلفِ، واسمُ اللهِ (الحَكيمُ) مُشتَمِلٌ علىٰ صِفةِ الحِكمةِ، فإنَّه جَلَّوَعَلَا:

- حَكيمٌ بمعنىٰ: حاكمٍ.
- وحَكيمٌ بمعنىٰ: مُحكِمٍ للأمورِ.
- وحَكيمٌ بمعنىٰ: أنَّه ذو الحِكمةِ البالغةِ.

فهٰذه ثلاثةُ تفسيراتٍ لاسمِ اللهِ الحَكيمِ، وكلُّها صَحيحةٌ، وكلُّها يَستَحِقُّها اللهُ جَلَّوَعَلَا:

فإنَّه جَلَّوَعَلَا حَكيمٌ بمعنىٰ حَكَمٍ وحاكمٍ.

وحكيمٌ بمَعنىٰ مُحكِمٍ كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:1]، وقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾[الملك:3] لأجلِ إحكامِه، وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أيضًا: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:101]، ونحوُ ذلكَ مِن دليلِ إحكامِه جَلَّوَعَلَا لمَا خلقَ.

والثَّالثُ أنَّه ذو الحِكمةِ، **والحِكمةُ في صِفةِ اللهِ** جَلَّوَعَلَا **تُفَسَّرُ** -كما ذكرتُ لكم-: بأنَّها **وضعُ الأمـورِ في مَواضِعِها المَوافِقَةِ للغاياتِ المَحمودةِ مِنها.**

ولهٰذا نقولُ: إنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعةِ-أهلَ الأثـرِ، الفُقهـاءَ بالكتـابِ والسُّـنَّةِ- قـالوا: إنَّ أفعـالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا مُعلَّلةٌ، وكلُّ فعلٍ يفعلُه اللهُ جَلَّوَعَلَا لعلَّةٍ مِن أجلِها فعَلَ، وهٰذه العِلَّةُ هي حِكمَتُه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فإنَّ

(1) وهو زُهَيْرُ بنُ أبي سَلْمَىٰ.

أفعالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا مَنوطةٌ بالعِلَلِ.

وهٰذا أنكرَه المُعتزِلَةُ لأنَّهم قدريَّةٌ، وأنكرَه الأشاعرةُ لأنَّهم جَبريَّةٌ، فقالوا: إنَّ أفعالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا ليسَتْ مُرتبطَةً بالحِكَمِ ويفعلُ لا عن حِكمَةٍ وهٰذا سوءُ ظنٍّ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

ولهٰذا أوردَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا البابَ ليُبيِّنَ لك أنَّ تحقيقَ التَّوحيدِ وتحقيقَ كمالِ التَّوحيدِ أنْ توقِنَ بالحِكمةِ البالغةِ للهِ جَلَّوَعَلَا، ومَن نفىٰ الحِكمةَ في أفعالِ اللهِ فهو مُبتَدِعٌ، توحيدُه قد انتَفىٰ عنه كمالُه؛ لأنَّ بِدعتَه شَنيعةٌ، وكلُّ البدعِ تنفي كمالَ التَّوحيدِ ومِنها ما يَنفي أصلَ التَّوحيدِ، هٰذا الثَّاني.

◆ والتَّفسيرُ الثَّالثُ في ظنِّ أهلِ الجاهليَّةِ وأهلِ النِّفاقِ ظنُّ السَّوءِ باللهِ جَلَّوَعَلَا: أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا لا ينصُرُ رَسولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا لا ينصُرُ كتابَه، أو أنَّه جَلَّوَعَلَا يجعَلُ رسولَه أو دينَه في اضمِحلالٍ حتَّىٰ يذهبَ ذلكَ الدِّينُ، هٰذا ظنُّ سَوءٍ باللهِ جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا كانَ مِن بَراهينِ النُّبوَّاتِ أنَّ كلَّ [رجل] ادَّعىٰ النُّبوَّةَ اضمَحلَّ أمرُه، لم يأتِ [رجل] يقولُ: أنا نبيٌّ يوحىٰ إليَّ مِن السَّماءِ. وهو كاذبٌ في دَعواهُ إلَّا ويُخذَلُ إلَّا ويضمَحِلُّ أمرُه، فكانَ مِن بَراهينِ النُّبوَّاتِ عندَ أهلِ السُّنَّة أنَّ كلَّ نبيٍّ قالَ: إنَّه مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ جَلَّوَعَلَا أُيِّد بالبَراهينِ والآياتِ والبَيِّناتِ ونُصِرَ علىٰ عدُوِّه وجُعِلَ دينُه وأهلُ دينِه في عزَّةٍ علىٰ مَن سِواهم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾[غافر]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾[الصَّافَّات].

فظنُّ الجاهليَّة أنَّ الخيرَ أو الدِّينَ سيَضمَحِلُّ وأنَّهم إذا بذلوا إطفاءَ ذلكَ الأمرِ وحارَبوه بكلِّ ما أوتوا مِن وَسيلةٍ وقاوَموه فإنَّه سيَنتَهي، وهٰذا مع كَونِه عَملًا مُحرَّمًا لما يشتمِلُ علىٰ الظُّلمِ فإنَّه أيضًا سُوءُ ظنٍّ باللهِ جَلَّوَعَلَا غرورٌ بالقوَّةِ وبالنَّفسِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا ناصرُ رُسلِهِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا ناصرُ عِبادِه المُؤمنينَ؛ ولكنْ قد يَبتَلي اللهُ جَلَّوَعَلَا المُؤمنينَ بأنْ يَكونوا في غيرِ نَصرٍ زمنًا طَويلًا، قد يبلغُ مِئاتِ السِّنينَ كما حصلَ في قصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ثمَّ نصرَه اللهُ جَلَّوَعَلَا، وهٰذا يحصُلُ -كما ذكرَ ابنُ القيِّمِ- مِن كثيرٍ مِن أهلِ الصَّلاحِ؛ بل مِن كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ بلْ قد يحصُلُ مِن بعضِ المُنتَسبينَ إلىٰ العِلمِ في أنواعٍ شتَّىٰ مِن سوءِ الظَّنِّ باللهِ جَلَّوَعَلَا، وسببُ حدوث ذلكَ الظَّنِّ السَّيِّءِ في القُلوبِ عدمُ العِلمِ بما يَستَحِقُّه اللهُ جَلَّوَعَلَا وما أوجبَه اللهُ جَلَّوَعَلَا مِن الصَّبرِ والأناةِ ونحوِ ذلك مِنَ الواجباتِ.

فإذن المَسألةُ مُتَّصلٌ بعضُها ببعضٍ، فالَّذي يُخالِفُ ما أمَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا به شرعًا فيما يتَّصلُ بنُصرةِ الدِّينِ فإنَّه قد يقعُ في سوءِ ظنٍّ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ، وهٰذا ممَّا يُنافي كمالَ التَّوحيدِ الواجبُ.

فهٰذه -إذن- ثلاثةُ أشياءَ ظنَّها أهلُ الجاهليَّةِ، وكلُّها باطلةٌ، وكلامُ ابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدورُ علىٰ

ذلكَ، ولهٰذا يجبُ عليكَ أنْ تتحرَّزَ كثيرًا، وأنْ تحتَرِسَ مِن سوءِ الظَّنِّ باللهِ جَلَّوَعَلَا.

فيما ذَكر -في آخرِ الكلامِ- ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أنَّ بعضَ النَّاسِ قد يحصُلُ له الشَّيءُ فيرىٰ أنَّه يستَحِقُّ أكثرَ مِنه، وقد يحصُلُ له الشَّيءُ بقضاءِ اللهِ وبقدَرِه فيظنُّ أنَّه لا يستَحِقُّ ذلك الشَّيءَ أو أنَّ ذلكَ المَفروضُ أن يُصابَ به غيرُه وأنَّه لا يُصابُ بذلكَ، فينظرُ إلىٰ فعلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وقضائِه وقَدَرِه علىٰ وجهِ الاتِّهامِ، وقَلَّ من يَسلَمُ باطِنًا وظاهِرًا مِن ذلكَ، فكثيرونَ قد يَسلَمونَ ظاهِرًا؛ ولكنْ في الباطنِ يقومُ بقلوبِهم ظنُّ الجاهليَّةِ واعتقادُ السَّوءِ، ولهٰذا قال جَلَّوَعَلَا في الآيةِ الَّتي في صدرِ البابِ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ والظَّنُّ مَحِلُّه القلبُ.

لهٰذا يجبُ علىٰ المُؤمنِ أنْ يُخَلِّصَ قلبَه مِن كلِّ ظنٍّ باللهِ غيرَ الحقِّ وأنْ يتعلَّمَ أسماءَ اللهِ جَلَّوَعَلَا وأن يتعلَّمَ الصِّفاتِ وأنْ يتعلَّمَ آثارَ ذلكَ في مَلَكوتِ اللهِ؛ حتَّىٰ لا يقومَ بقَلبِه إلَّا وأنَّ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ هو الحقُّ وأنَّ فعلَه حقٌّ، حتَّىٰ ولو كانَ في أعظمِ شأنٍ وأُصِيبَ بأعظمِ مُصيبَةٍ أو أُهينَ بأعظمِ إهانةٍ فإنَّه يعلَمُ أنَّ ما أصابَه لتمامِ مِلكِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وأنَّه يتصرَّفُ في خلقِه كيفَ يشاءُ، وأنَّ العِبادَ مَهما بلغوا فإنَّهم يَظلِمونَ أنفُسَهم، واللهُ جَلَّوَعَلَا يستَحِقُّ الإجلالَ والتَّعظيمَ.

فخلِّصْ قلبكَ أيُّها المُسلمُ وخاصَّةً طالبُ العلمِ، خَلِّصْ قلبَك مِن كلِّ ظنِّ سَوءٍ باللهِ جَلَّوَعَلَا بأنْ قلتَ: هٰذا لا يصلُحُ، وهٰذا الفعلُ عليه كذا وكذا، ولا يصلُحُ أنْ يُعطىٰ المالَ، أو أنْ تحسِدَ فُلانًا وفُلانًا. فإنَّ كلَّ ذلكَ سُوءُ ظنٍّ باللهِ جَلَّوَعَلَا، ولهٰذا قالَ العلماءُ في مَعنىٰ قولِ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّهُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**» قالوا: سببُ ذلكَ أنَّ الحاسدَ ظنَّ أنَّ هٰذا الَّذي أعطاهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا ما أعطاهُ لا يستَحِقُّ هٰذه النِّعمَةَ، فحسَدَه وتمنَّىٰ زوالَها منه، فصارَ في ظنِّ سوءٍ باللهِ جَلَّوَعَلَا، فلهٰذا أكلَ الحَسناتِ ظنُّه كما أكلَتِ النَّارُ الحَطبَ.

نسألُ اللهَ جَلَّوَعَلَا السَّلامةَ والعافِيةَ مِن كلِّ ظنٍّ بغيرِ الحقِّ فيه جَلَّوَعَلَا، ونسألُه أنْ يجعلَنا مِن المُعظِّمينَ له ومِن المُجِلِّينَ لأمرِه ونهيِه المُعظِّمينَ لحِكمَتِه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.



60- بَابٌ
مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

[1] وَقَالَ ابنُ عُمرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ، ثمَّ استَدلَّ بِقَوْلِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

[2] وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّه قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ؛ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أخطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُوْمَ السَّاعَةُ»، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هٰذا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

[3] وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ».

[4] وَفِي «الْمُسْنَدِ» وَ«السُّنَنِ» عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: أَتَيْتُ أُبيَّ بنَ كعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «لَوْ أنفَقْتَ مِثَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ؛ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هٰذا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيفةَ بْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَواهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

هٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ**) ومُناسبةُ هٰذا البابِ للَّذي قبلَه ما ذَكَرْنا أنَّ إنكارَ القدرِ سوءُ ظنٍّ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، ويكونُ هٰذا البابُ كالتَّفصيلِ لِمَا اشتملَ عليه البابُ الَّذي قبلَه.

ومُناسبتُه لـ«كتابِ التَّوحيدِ» ظاهرةٌ وهي أنَّ الإيمانَ بالقدرِ واجبٌ ولا يتِمُّ توحيدُ العبدِ حتَّىٰ يُؤمنَ بالقدرِ، وإنكارُ القدرِ كُفرٌ باللهِ جَلَّ وَعَلَا يُنافي أصلَ التَّوحيدِ، كما قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **القدرُ نظامُ التَّوحيدِ فمن كذَّب بالقدرِ نقضَ تكذيبُه توحيدَه**. يعني الإيمانُ بالقدرِ هو النِّظامُ يعني السِّلكُ الَّذي تجتمعُ فيه مسائلُ التَّوحيدِ من يقومُ عقدُها في القلبِ، فإذا كذَّبَ بالقدرِ معنىٰ ذلك انقطعَ السِّلكُ فنقضَ ذلك التَّكذيبُ أُمورَ التَّوحيدِ، وهٰذا ظاهرٌ؛ فإنَّ أصلَ الإيمانِ أنْ يُؤمنَ بالأركانِ السِّتَّة الَّتي مِنها الإيمانُ

بالقدرِ كما ذكر ذلك الشَّيخُ في حديثِ ابنِ عُمرَ.

قال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ**)؛ القدرُ في اللُّغةِ: هو التَّقديرُ كما هو مَعروفٌ، وهو وَضعُ الشَّيءِ في نحوٍ ما بِما يُريدُه واضعُه، قدَّر الشَّيءَ تقديرًا وقَدَرًا.

وفي العقيدةِ عرَّفَه بعضُ أهلِ العلمِ بقَولِه: **إنَّ القدرَ هو علمُ اللهِ السَّابقُ بالأشياءِ، وكتابتُه لها في اللَّوحِ المَحفوظِ، وعُمومُ مَشيئتِه** جَلَّوَعَلَا**، وخلقُه للأعيانِ والصِّفاتِ القائمةِ بها.**

وهٰذا التَّعريفُ صحيحٌ؛ لأنَّه يشملُ مَراتِبَ القدرِ الأربعَةَ، فالقدرُ الإيمانُ به إيمانٌ بأربعِ مَراتِبَ، وهٰذه المَراتِبُ علىٰ دَرجَتَين:

الأُولىٰ والثَّانيةُ من المراتبِ تسبِقُ وُقوعَ المُقدَّرِ:

- وهي الإيمانُ بالعلمِ السَّابقِ.
- والإيمانُ بكتابةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا لعُمومِ الأشياءِ.

كما قال: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**» (**قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ**) يعني كتبَها، هٰذان الأمرانِ الإيمانُ بالعلمِ السَّابقِ والإيمانُ بالكتابةِ تسبقُ وُقوعَ المُقدَّرِ، فأنت تُؤمِنُ بها وهي سابقةٌ للوُقوعِ.

وأمَّا ما يُقارِنُ وُقوعَ المُقدَّرِ، ما يُقارِنُ القضاءَ فهٰذا له مَرتبتان:

- الأُولىٰ مِنهما هي مَرتبةُ عُمومِ المَشيئةِ، فإنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا ما شاءَ كانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، والعبدُ لا يشاءُ شيئًا فيحصلُ إلَّا إذا كانَ اللهُ جَلَّوَعَلَا قدْ شاءَه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾[الإنسان]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾[التَّكوير]، فمَشيئةُ العبدِ تابعةٌ لمَشيئةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.
- وكذلكَ المَرتبةُ الأخيرةُ الَّتي تُقارنُ وُقوعَ المُقدَّرِ: الإيمانُ بأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا خالقُ كلِّ شيءٍ للأعيانِ وللصِّفاتِ الَّتي تقومُ بالأعيانِ، فالأعيانُ مِثلُ الذَّواتِ هٰذه اللهُ جَلَّوَعَلَا خالقُها، هٰذا باتِّفاقِ أهلِ الإسلامِ؛ يعني: أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هو الخالقُ للإنسانِ الخالقُ للحَيوانِ الخالقُ للسَّماءِ وللأرضِ، وكذلكَ الإيمانُ أنَّ الصِّفاتِ الَّتي تقومُ بتلكَ الأعيانِ اللهُ جَلَّوَعَلَا هو الخالقُ لها، ومِن ذلك أفعالُ العِبادِ، فأفعالُ العِبادِ مَعاني، ففعلُ العبدِ داخلٌ في عُمومِ خلقِه جَلَّوَعَلَا، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الزُّمر:62]، **وكلمةُ (شَيْءٍ) عندنا تُعرَّف بأنَّها ما يَصِحُّ أنْ يُعلَمَ،** فكُلُّ ما يصحُّ أنْ يُعلَمَ يُقالُ له: شيءٌ، ولهٰذا يدخل في عُمومِ قولِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ العِبادُ وأفعالُ العِبادِ.

فهٰذه أربعُ مَراتِبَ.

إنكارُ القدرِ الَّذي بوَّبَ له الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَصدُقُ علىٰ إنكارِ أيِّ مَرتبةٍ مِن هٰذه، أنكرَ المَرتبةَ الأُولىٰ فهو مُنكِرٌ، أوالثَّانيةَ فهو مُنكِرٌ، أو الثَّالثةَ فهو مُنكِرٌ، أو الرَّابعةَ فهو مُنكِرٌ للقدرِ، ولا يُقالُ عن أحدٍ أنَّه مُؤمنٌ بالقدرِ إلَّا إذا سلَّمَ بها جميعًا وآمن بها جميعًا لدِلالةِ النُّصوصِ.

فمِنهم مِن مُنكِري القدرِ القدريَّةُ الغُلاةُ، وإذا قيلَ: القدريَّةُ -يعني نُفاةُ القدرِ- الَّذين نَفَوا العِلمَ، أنكروا العلمَ السَّابقَ، فهم كُفَّارٌ يُنافي فعلُهم أصلَ التَّوحيدِ، فمَن أنكرَ العِلمَ السَّابقَ هٰذا أنكرَ القدرَ إنكارًا انتفىٰ معه أصلُ التَّوحيدِ.

وكذلكَ مَن يُنكرُ الكتابةَ، فإنَّ إنكارَ الكتابةِ السَّابقةِ مع العِلمِ بالنُّصوصِ الدَّالَّةِ عليها مُنافٍ لأصلِ التَّوحيدِ ولا يستقيمُ معه الإيمانُ.

وأمَّا المَرتبتانِ الأخيرتانِ -عُمومُ المَشيئةِ وعُمومُ الخلقِ- فهٰذه إنكارُ عُمومِ خلقِ اللهِ للأفعالِ هٰذا مِمَّا جرىٰ مِن المُعتَزلةِ ونحوِهم، وبُدِّعوا بذلكَ وضُلِّلوا وجُعلَ لإنكارِهم لتلكَ المَرتبةِ يُنافي كمالَ التَّوحيدِ ولا يُحكَمُ عليهم بالكُفرِ والخروجِ مِن الإسلامِ بذلك.

فإذن إنكارُ القدرِ صارَ مِنه ما هو كُفرٌ مُخرِجٌ مِن التَّوحيدِ مُخرِجٌ مِن المِلَّةِ، ومِنه ما هو دونَ ذلك ويكونُ مُنافيًا لكمالِ التَّوحيدِ.

بهٰذا يظهرُ صِلةُ هٰذا البابِ بـ«كتابِ التَّوحيدِ».

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ) لِمَ؟ لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا لا يقبلُ إلَّا مِن مُسلمٍ، الإسلامُ شرطٌ لِصحَّةِ قَبولِ الأعمالِ، ومَن أنكرَ القدرَ ولم يُؤمِن بالقدرِ فإنَّه لا يُقبَلُ مِنه لو أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، (ثمَّ استَدلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوم الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»)، هنا في قولِه: «تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» القدرُ مِنه ما هو خيرٌ ومِنه ما هو شرٌّ؛ خيرٌ بالنِّسبةِ لابنِ آدمَ وشرٌّ بالنِّسبةِ لابنِ آدمَ، فالمُكلَّفُ قد يكونُ عليه قدَرٌ هو بالإضافةِ إليه خيرٌ، وقد يكونُ عليه القدرُ بالإضافةِ إليه شرٌّ، وأمَّا بالنِّسبةِ لفعلِ الله جَلَّ وَعَلَا فاللهُ جَلَّ وَعَلَا أفعالُه كلُّها خيرٌ؛ لأنَّها مُوافقةٌ لحِكمتِه العظيمةِ، فلهٰذا جاءَ في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في ثنائِه علىٰ ربِّه: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» فاللهُ جَلَّ وَعَلَا ليسَ في فعلِه شرٌّ، فالشَّرُّ بما يُضافُ إلىٰ العبدِ أُصيبَ العبدُ بمُصيبةٍ فهي شرٌّ بالنِّسبةِ إليه أمَّا بالنِّسبةِ لفعلِ الله فهي خيرٌ لأنَّها مُوافقةٌ لحِكمةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا البالغةِ واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الأمرُ كلُّه.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّه قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ؛ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ) وهٰذا لأنَّ القضاءَ والقدرَ قد فُرِغَ مِنه؛ يعني: تقديرُ الأمورِ قد فُرِغَ مِنه، واللهُ جَلَّوَعَلَا قد قدَّرَ الأشياءَ وقدَّرَ أسبابَها، فالسَّببُ الَّذي سيفعلُه المُختارُ مِن عِبادِ اللهِ مُقدَّرٌ كما أنَّ نَتيجتَه مُقدَّرَةٌ.

ومِن الإيمانِ بالقدرِ الإيمانُ بأنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا جعلك مُختارًا وأنَّك لستَ مَجبورًا، فالقولُ بالجبرِ مُنافٍ للقَولِ بالقدرِ؛ يعني: القولُ بالجبرِ لا يَستقيمُ مع الإيمانِ بالقدرِ، لأنَّ الإيمانَ بالقدرِ إيمانٌ معه الإيمانُ بأنَّ العبدَ مُختارٌ ليس بمُجبَرٍ؛ لأنَّ التَّكليفَ وقعَ بذلكَ.

والجَبريَّةُ طائفتان:

طائفةٌ غلاةٌ: وهم الجَهميَّةُ وغُلاةُ الصُّوفيَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ العبدَ كالرِّيشةِ في مَهبِّ الرِّيحِ وحركاتُه حركاتٌ اضطِراريَّةٌ.

ومِنهم طائفةٌ ليست بالغُلاةِ: وهم الأشاعرةُ ونحوُهم الَّذين يقولون بالجَبرِ في الباطنِ وبالاختيارِ في الظَّاهرِ، ويَقولونَ: إنَّ العبدَ له كَسبٌ؛ وهذا الكسب أنْ يكونَ العبدُ في الفعلِ الَّذي فعلَه مَحَلًّا لفعلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فيُفعَلُ به فيكونُ هو مَحَلًّا للفعلِ ويُضافُ الفعلُ إليه علىٰ جهةِ الكَسبِ علىٰ ما هو مَعروفٌ في مَوضِعِه مِن التَّفاصيلِ في كُتبِ العقيدةِ المُطوَّلَةِ.

قال في ذلكَ ذكرَ مَرتبةِ الكتابةِ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ») هٰذا فيه دليلٌ علىٰ مَرتبَةِ الكتابةِ.

وقولُه: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ) مَعناه علىٰ الصَّحيحِ عندَ المُحقِّقينَ: إنَّه حينَ خلقَ اللهُ القلمَ، فـ(أَوَّلَ) هنا ظرفٌ بمَعنىٰ حينَ، و(إِنَّ) اسمُها ضميرُ الشَّأنِ مَحذوفٌ، إنَّه أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القلمَ فقالَ له: اكتُبْ؛ يعني حينَ خلقَ اللهُ القلمَ قالَ له: اكتُبْ، فيكونُ قَولُ: (اكتُبْ) هٰذا مِن جهةِ الظَّرفيَّةِ؛ يعني حينَ خلقَ اللهُ القلمَ قالَ له اكتُبْ.

وأمَّا أوَّلُ المَخلوقاتِ، فالعرشُ سابقٌ في الخلقِ علىٰ القلمِ كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، الحديث الَّذي في الصَّحيحِ: «**قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلْقَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**» فَهِمْنا مِن قولِه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ» أنَّه حينَ خلقَ قالَ له: اكتُبْ. والعرشُ كانَ قبلَ ذلك.

فإذن الكتابةُ كانت بعدَ الخلقِ مُباشرَةً -بعدَ خلقِ القلمِ- أمَّا العرشُ فكان سابِقًا والماءُ كانَ سابِقًا أيضًا.

ولهٰذا نقولُ: الصَّحيحُ أنَّ العرشَ مَخلوقٌ قبلَ القلمِ كما قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النُّونِيَّةِ»:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هو بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمَذَانِي

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَهُ لِأَنَّهُ ... عِنْدَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

إلىٰ آخرِ ما في هٰذا البابِ مِن مَباحِثَ في الإيمانِ بالقدرِ.



61- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ.

[2] وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ».

[3] وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

[4] وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

[5] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: (أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟: «أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»).

هٰذا (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ).

والمُصَوِّرونَ جمعُ تصحيحٍ للمُصَوِّرِ، والمُصَوِّرُ هو الَّذي يفعلُ إحداثَ الصُّورة؛ يعني: هو الَّذي يقومُ بالتَّصويرِ، والتَّصويرُ مَعناهُ التَّشكيلُ؛ تشكيلُ الشَّيءِ حتَّىٰ يكونَ علىٰ هيئةِ صورةٍ.

والصُّورةُ قد تكونُ صورةً لآدميٍّ أو لغيرِ آدميٍّ مِن حَيوانٍ أو لنباتٍ أو لجمادٍ أو لسماءٍ أو أرضٍ، فكلُّ هٰذا يُقالُ له مُصَوِّرٌ، إذا كان يُشَكِّلُ بيدِه شيئًا علىٰ هيئةِ صورةٍ -صورةٍ مَعروفَةٍ.

وقولُه: (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ) يعني مِن الوَعيدِ، ومِن الأحاديثِ الَّتي فيها أنَّهم جعلوا أنفُسَهم أندادًا للهِ جَلَّ وَعَلَا، وعُمومُ ما ذكرنا في مَعنىٰ المُصَوِّرِ هٰذا مِن جهةِ المَعنىٰ، أمَّا مِن جهةِ الحُكمِ فسَيأتي بيانُ التَّفصيلِ إنْ شاءَ اللهُ.

مُناسبةُ البابِ لـ«كتابِ التَّوحيدِ»: أنَّ التَّوحيدَ هوألَّا يُجعَلَ للهِ نِدٌّ فيما يَستحِقُّه جَلَّ وَعَلَا، والتَّصويرُ تنديدٌ مِن جهةِ أنَّ المُصوِّرَ جعلَ فِعلَه ندًّا لفعلِ الله جَلَّ وَعَلَا، ولهٰذا يدخلُ الرِّضىٰ بصنيعِ المُصوِّرِ في قولِ الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة] إذْ ذلكَ حقيقتُه أنَّه جعلَ هٰذا المُصوِّرَ شريكًا لله جَلَّ وَعَلَا في هٰذه الصِّفةِ، مع أنَّ تصويرَه ناقصٌ وتصويرُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا علىٰ جهةِ الكمالِ؛ لكنْ مِن جهةِ الاعتقادِ لمَّا جعلَ هٰذا المَخلوقَ مُصوِّرًا واللهُ جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي ينفردُ بالتَّصويرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -يعني: بتصويرِ المَخلوقاتِ كما يشاءُ- كان مِن كمالِ التَّوحيدِ ألَّا يُرضىٰ بالتَّصويرِ وألَّا يَفعلَ أحدٌ هٰذا الشَّيءَ؛

لأنَّ ذلكَ للهِ جَلَّوَعَلَا، فالتَّصويرُ مِن حيثُ الفعلُ مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، وهٰذا هو مُناسبةُ إيرادِ هٰذا البابِ في هٰذا الكتابِ.

والمُناسبةُ الثَّانيةُ له أنَّ التَّصويرَ وسيلةٌ مِن وسائلِ الشِّركِ بالله جَلَّوَعَلَا، والشِّركُ ووَسائلُه يجبُ وَصْدُها وغلقُ البابِ؛ لأنَّها تُحْدِثُ في النَّاسِ الإشراكَ أو وَسائلَ الإشراكِ.

فصارَ -إذن- التَّصويرُ له جهتانِ:

الجهةُ الأُولىٰ: جهةُ المُضاهاةِ بخلقِ اللهِ والتَّمثُّلِ بخلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وبصِفتِه واسمِه.

الثَّانيةُ: أنَّه وَسيلةٌ للإشراكِ، الصُّورةُ مِن حيثُ هي وَسيلةٌ، قد لا يُشرَكُ بالصُّورةِ المُعيَّنةِ الَّتي عُمِلَتْ؛ ولكنَّ الصُّورةَ مِن حيثُ الجنسُ هي وَسيلةٌ -ولا شكَّ- مِن وَسائلِ الإشراكِ، وشركُ كثيرٍ مِن المُشركينَ كان مِن جهةِ الصُّوَرِ، فكانَ مِن تحقيقِ التَّوحيدِ ألَّا تُقَرَّ الصُّوَرُ لأجلِ أنَّ الصُّورةَ وَسيلةٌ مِن وَسائلِ المُشركينَ في عِباداتِهم.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ**)

هٰذا الحديثُ فيه معنًىٰ وفيه تمثيلٌ:

أمَّا المعنىٰ: وهو قولُه: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» فصارَ الظُّلمُ مُعلَّقًا بأنَّ العبدَ يخلُقُ كخلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، والمَقصودُ بذلكَ يُصوِّرُ كتصويرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا لخلقِه، ثمَّ قال مُعجِّزًا: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**» مَعلومٌ أنَّ الذَّرَّةَ مِن حيثُ هي ذرَّةٌ، هٰذا يُمكنُ أن تُعمَلَ بأيِّ شيءٍ وتُرمىٰ فتراها في الضَّوءِ والشَّمسِ أنَّها ذرَّةٌ، وكذلكَ الحبَّةُ -يعني: حبَّةُ الحِنطةِ حبَّةُ البُرِّ أو حبَّةُ الرُّزِّ- مُمكنٌ أنْ تُصنَعَ؛ ولكنْ لا يُمكِنُ أنْ تكونَ كخَلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وكذلكَ الشَّعيرَةُ يُمكِنُ أنْ تُصنَعَ شَكلًا وأنْ تُصوَّرَ شكلًا؛ لكنْ يَعجزُ فيها الحياةُ، فمثلًا كحبِّ البُرِّ أو الشَّعيرِ أو الرُّزِّ أو نحوِ ذلك ينبتُ فيما إذا وُضِعَ في الأرضِ الَّذي هو مِن خَلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، أمَّا ما صنعَه المَخلوقُ فإنَّه لا تكونُ فيه حياةٌ، فالرُّزُّ الصِّناعيُّ مَثلًا الَّذي تأكُلونَه لو رُمِيَ في الأرضِ لَمَا خرجَ مِنه ساقٌ ولَمَا خرجَ له جذرٌ ولَمَا كانت مِنه حياةٌ، وأمَّا الَّذي يكونُ مِن خَلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فهو الَّذي أودعَ فيه سرَّ حياةِ ذلكَ الجنسِ مِن المَخلوقاتِ.

ولهٰذا قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ هٰذا علىٰ وجهِ التَّعجيزِ، فالَّذي يخلُقُ كخَلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا هٰذا مِن جهةِ ظنِّه، أمَّا مِن جهةِ الحقيقةِ فإنَّه لا أحدَ يخلُقُ كخلقِ اللهِ، ولهٰذا صارَ ذلك مُشبِّهًا نفسَه باللهِ جَلَّوَعَلَا، فصارَ أظلَمَ الخَلقِ.

استدلَّ مُجاهدٌ وغيرُه مِن السَّلفِ بقولِه: (فَلْـيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِـيَخْلُقُوا حَبَّـةً، أَوْ لِـيَخْلُقُوا شَـعِيرَةً) علىٰ أنَّ تصويرَ ما لا حياةَ فيه أو ما لا روحَ فيه مُحرَّمٌ؛ لأنَّه هنا قال: (فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً) فذكرَ الحبَّةَ والشَّعيرةَ قالوا: فتصويرُ الأشجارِ وتصويرُ الحَبِّ ونحوِ ذلكَ لا يجوزُ.

وجمهورُ العلماءِ علىٰ خلافِ ذلكَ وأنَّ الأمرَ في هٰذا الحديثِ للتَّعجيزِ وليسَ لجهةِ التَّعليلِ، ولهٰذا قال في الحديثِ الَّذي بعدَه قال: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» فلما قال: «كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ» علِمنا أنَّ النَّهيَ مِن جهةِ التَّصويرِ كان مُنصَبًّا علىٰ ما فيه روحٌ يعني علىٰ ما حياتُه بحُلولِ الرُّوحِ فيه، أمَّا ما حياتُه بالنَّماءِ كالمَزروعاتِ والأشجارِ ونحوِها فليس داخلًا في ذلك.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ») هٰذا فيه تنبيهٌ للعِلَّةِ، وهٰذه العِلَّةُ هي المُضاهاةُ بخلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وهي أحدُ العِلَّتَينِ اللَّتَينِ مِن أجلِهما حُرِّمَ التَّصويرُ، فالتَّصويرُ حُرِّمَ وصارَ صاحبُه مِن أشدِّ النَّاسِ عذابًا لأجلِ أنَّه يُضاهي بخلقِ الله جَلَّوَعَلَا؛ ولأنَّ الصُّورةَ وَسيلةٌ للشِّركِ.

المُضاهاةُ بخلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا الَّتي رُتِّبَ عليها بأنْ يكونَ فاعلُها أشدَّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ في هٰذا الحديثِ عندَ كثيرٍ مِن العُلماءِ: أنَّها ما كانت علىٰ وجهِ الكُفرِ، وتكونُ المُضاهاةُ في التَّصويرِ كُفرًا في حالتين:

الحالةُ الأُولىٰ: أنْ يُصوِّرَ صنمًا ليُعبَدَ، أو يُصوِّرَ إلهًا ليُعبَدَ، أو يُصوِّرَ إلهًا يُعبَدُ في الواقعِ، فيُصوِّرُ لأهلِ البوذيَّةِ صورةَ بوذا، أو يُصوِّرُ للنَّصارىٰ المَسيحَ أو يُصوِّرُ أمَّ المَسيحِ ونحوَ ذلك، فتصويرُ ما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ جَلَّوَعَلَا مع العِلمِ أنَّه يُعبَدُ هٰذا كُفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّه صَوَّرَ وثنًا ليُعبَدَ وهو يَعلَمُ أنَّه يُعبَدُ، فيكونُ شِركًا أكبرَ وكُفرًا باللهِ جَلَّوَعَلَا.

والدَّرجةُ الثَّانيةُ: أنْ يُصوِّرَ الصُّورَةَ ويَزعُمَ أنَّها أحسنُ مِن خَلقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فيقولُ: هٰذه أحسنُ مِن خَلقِ اللهِ، أو أنا فُقْتُ في خَلقي وتَصويري ما فعلَ اللهُ جَلَّوَعَلَا، فهٰذا كُفرٌ أكبرُ وشِركٌ أكبرُ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ.

وهٰذا هو الَّذي حُمِلَ عليه الحديثُ وهو قولُه: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ».

ويدخُلُ فيه أيضًا مَن ضاهىٰ بالتَّصويرِ عامَّةً بما لا يُخرِجُه مِن المِلَّةِ؛ كالَّذي يرسُمُ بيدِه أو ينحِتُ التِّمثالَ وينحِتُ الصُّورةَ، ممَّا لا يدخلُ في الحالَتَينِ السَّابِقتَينِ فهو كبيرةٌ مِن الكبائرِ وصاحبُها مَلعونٌ ومُتوَعَّدٌ بالنَّارِ.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال: (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».) قولُه: «نَفْسٌ» أفادَ أنَّ ذلكَ التَّصويرَ وقعَ لشَيءٍ تحلُّه النُّفسُ وهو الحيواناتُ أو الآدميُّ، ولهٰذا صارَ الوَعيدُ مُنصَبًّا علىٰ ذلك، وقولُه: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» هٰذا يفيدُ أنَّ التَّصويرَ كبيرةٌ مِن الكبائرِ.

[الدَّليلُ الرَّابعُ] قال: (وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ») لأنَّ الرُّوحَ إنَّما هيَ للهِ جَلَّ وَعَلَا.

[الدَّليلُ الخامسُ] (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: (أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟: «أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ») في هٰذا الحديثِ التَّنبيهُ علىٰ العِلَّةِ الثَّانيةِ مِن عِلَّتَي تحريمِ التَّصويرِ وهو أنَّه وَسيلةٌ مِن وَسائلِ الشِّركِ.

ووجهُ الاستدلالِ مِن هٰذا الحديثِ أنَّه قرنَ في الأمرِ؛ قرنَ بينَ الصُّورةِ والقبرِ المُشرِفِ، وبقاءُ القبرِ المُشرِفِ وَسيلةٌ مِن وَسائلِ الشِّركِ، وكذلكَ للاقترانِ بقاءُ الصُّورةِ أيضًا وَسيلةٌ مِن وَسائلِ الشِّركِ، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعثَ عليًّا ألَّا يدعَ صورةً إلَّا طمسَها؛ لأنَّ الصُّورةَ مِن وَسائلِ الشِّركِ، وألَّا يدعَ قبرًا مُشرِفًا إلَّا سوَّاه لأنَّ بقاءَ القُبورِ مُشرِفَةً يدعو إلىٰ تعظيمِها وذلك مِن وَسائلِ الشِّركِ.

هناك خِلافٌ في بعضِ مَسائلِ التَّصويرِ مَحَلُّه كُتبُ الفقهِ، والفتوىٰ مِن جهةِ التَّصويرِ الحديثِ هٰذا الَّذي يكونُ بالآلاتِ إمَّا ما يَخرُجُ مِنها ثابتًا كالكاميرا الفَوريَّةِ أو ما يبقىٰ علىٰ الوَرَقِ، أو ما يكونُ مِنها مُتحرِّكًا كالتَّصويرِ بالفيديو أو التِّلفزيون أو نحوِ ذلك، وهٰذا مَحَلُّ الكلامِ عليه كُتبُ الفقهِ.



62- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِف

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[المائدة:89].

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «الحَلِف مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ.

[3] وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

[4] وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا! -، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

[5] وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

[6] وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ».

هٰذا (**بَابٌ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِف**) ومِن الظَّاهِرِ والبَيِّنِ أنَّ القلبَ المُعظِّمَ للهِ جَلَّجَلَالُهُ الَّذي إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قلبُه أنَّه لا يستعملُ الحَلِف، وكثرةُ الحَلِف لا تُجامِعُ كمالَ التَّوحيدِ، فإنَّ مَن كَمُلَ التَّوحيدُ في قلبِه أو قاربَ الكمالَ لا يكونُ جاعلًا للهِ جَلَّوَعَلَا في يمينِه؛ يجعلُ اللهَ جَلَّوَعَلَا في يمينِه إذا تكلَّمَ تكلَّمَ بالحَلِف وإذا باعَ باعَ بالحَلِف وإذا اشتَرىٰ اشتَرىٰ بالحَلِف ونحوُ ذلك، فهٰذا ليسَ مِنَ التَّعظيمِ الواجبِ للهِ جَلَّوَعَلَا.

فإنَّ الواجبَ علىٰ العبدِ أنْ يُعظِّمَ اللهَ جَلَّوَعَلَا أو لا يُكثِرَ اليَمينَ والمَقصودُ باليَمينِ، والحَلِف هنا اليَمينُ المُنعَقِدَةُ الَّتي عقدَها صاحبُها، أمَّا لغوُ اليمينِ فإنَّ هٰذا مَعفُوٌّ عنه مع أنَّ الكمالَ فيه والمُستحَبَّ أنْ يُخلِّصَ المُوحِّدُ لسانَه وقلبَه مِن كثرةِ الحَلِف في الإكرامِ ونحوِه بلَغوِ اليمينِ.

فمُناسبةُ هٰذا البابِ لـ«كتابِ التَّوحيدِ» ظاهرةٌ وهي أنَّ تحقيقَ التَّوحيدِ وكمالَ التَّوحيدِ لا يُجامعُ كثرةَ الحَلِفِ، فكثرةُ الحَلِفِ مُنافيَةٌ لكمالِ التَّوحيدِ، والحَلِفُ هو كما ذكرنا تأكيدُ الأمرِ بمُعظَّمٍ وهو اللهُ

جَلَّجَلَالُهُ، فمَن أكَّدَ وعقدَ اليمينَ باللهِ جَلَّوَعَلَا وأكثرَ مِن ذلكَ وأكثرَ فإنَّه لا يكونُ مُعظِّمًا لله جَلَّجَلَالُهُ، إذِ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يجبُ أنْ يُصانَ اسمُه ويُصانَ الحَلِفُ به واليَمينُ به إلَّا عندَ الحاجةِ إليها، أمَّا كثرةُ ذلك؛ كثرةُ مَجيئِه علىٰ اللِّسانِ فهو ليسَ مِن صِفةِ أهلِ الصَّلاحِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] ولهٰذا أمرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بحِفظِ اليَمينِ، فقال: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ وهٰذا الأمرُ للوُجوبِ؛ لأنَّه وَسيلةٌ لتَحقيقِ تعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وتحقيقِ كمالِ التَّوحيدِ، فقولُه: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ هٰذا إيجابٌ بأنْ يَحفظَ العبدُ يمينَه، فلا يَحلِفَ عاقدًا اليمينَ إلَّا علىٰ أمرٍ شَرعيٍّ بيِّنٍ، أمَّا أنْ يحلِفَ دائمًا ويجعلَ اللهَ جَلَّوَعَلَا في يمينِه فهٰذا ليسَ مِن تعظيمِ أسماءِ الله جَلَّجَلَالُهُ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ) وسببُ ذلكَ أنَّه نوعُ عُقوبةٍ أنَّ هٰذا الَّذي يبيعُ بالحَلِفِ فإنَّه تَنفَقُ سِلعتُه؛ ولكنْ كسْبُه يُمحَقُ لأنَّ مَحقَ الكَسبِ يكون نوعَ عُقوبةٍ لأجلِ أنَّه لم يَفعَلِ الواجبَ مِن تعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

[الدَّليلُ الثَّالثُ] قال:(وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ») يعني: من شَمَّطَه الشَّيبُ وقلبُه مُتعلِّقٌ بالزِّنا والعياذُ باللهِ، فإنَّه ليسَ عندَه مِنَ الدَّواعي للزِّنىٰ ما يجعلُه يُقبِلُ عليه، ليسَ كحالِ مَن كان شابًّا، فهو قد وَخطَهُ الشَّيبُ،(1) فيكونُ إذن في قلبِه حبُّ المَعصيةِ وليست مسألةَ غَلَبَةِ الشَّهوةِ، ولهٰذا كانَ مِن أهلِ هٰذا الوَعيدِ العظيمِ؛ لأنَّه لا يُكلِّمُه اللهُ ولا يُزكِّيه وله عذابٌ أليمٌ.

والصِّفةُ الثَّانيةُ قال: (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) هٰذا النَّوعُ الثَّاني وهو مِن جنسِ الأوَّلِ، فإنَّ الاستِكبارَ كما قال العلماءُ: يكونُ استِكبارًا للذَّاتِ ويكونُ استكبارًا للصِّفاتِ، فإذا كانَ استِكبارًا للصِّفاتِ فهٰذا مُحرَّمٌ؛ ولكنَّه أهونُ كمَن يكونُ ذا جاهٍ ورِفعَةٍ فتكبَّرَ لأجلِ مالَه مِن الجاهِ والرِّفعَةِ، فهٰذا لا يَجوزُ لكنْ عندَه ما يُوقعُ في قلبِه الشُّبهَةَ والفتنةَ بالتَّكبُّرِ أو الاستِكبارِ، أو يكونُ ذا مالٍ، أو يكونُ ذا جمالٍ، أو يكونُ ذا سُمعَةٍ ونحوِ ذلك، فعندَه سببٌ يجعَلُه يتكبَّرُ وهٰذا يكثُرُ في أهل الغِنىٰ، فأهلُ الغِنىٰ يكونُ كثيرًا عندَهم نوعُ تكبُّرٍ علىٰ مَن كانوا مِن أهلِ الفقرِ أو ليسوا مِن أهلِ الغِنىٰ، فهٰذا عندَه وصفٌ جعلَه يتكبَّرُ؛ لكنَّ الأعظمَ أنْ يكونَ تكبُّرُه في الذَّاتِ؛ لأنْ ليسَ عندَه صِفةٌ تجعلُه مُتكَبِّرًا، وهٰذا هو النَّوعُ الأوَّلُ وهو استِكبارٌ للذَّاتِ،

---

(1) أي: خالط سوادَ شعرِه.

يرىٰ نفسَه كبيرًا ويتعاظَمُ وهو ليسَ عندَه شيءٌ مِن الصِّفاتِ يجعلُه كذلك، فهٰذا يكونُ فِعلُه كبيرةً مِن الكبائرِ العظيمةِ ويدخلُ في هٰذا الحديثِ، ولهٰذا قال: (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)؛ لأنَّ العائلَ وهو الفقيرُ الكثيرُ العيالِ ليسَ عندَه مِن الصِّفاتِ ما يكونُ الاستِكبارُ شُبهَةً عندَه أو لأجلِ تلكَ الصِّفاتِ أو يكونُ ثَمَّ فِتنةٌ عندَه إلَّا لِما قامَ في نفسِه الخبيثةِ مِن الكِبرِ.

قال: (وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ) وهٰذا مَوطِنُ الشَّاهِدِ مِن الحديثِ، وهو ظاهرٌ في أنَّه مَذمومٌ وأنَّه صاحبُ كبيرةٍ؛ لأنَّه جعلَ اللهَ بِضاعَتَه ويبيعُ باليمينِ ويشتَري باليمينِ وهٰذا لا يُجامِعُ كمالَ التَّوحيدِ؛ بل لا يُجامِعُ تعظيمَ اللهِ جَلَّوَعَلَا التَّعظيمَ الواجبَ فيكونُ مُرتكِبًا لمُحرَّمٍ.

[الدَّليلُ الرَّابع والخامس] والحديثُ الَّذي بعدَه واضحٌ. وكذلكَ الَّذي بعدَه.

[الدَّليلُ السَّادسُ] وآخرُه قولُ إبراهيمَ النَّخعيِّ: (قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ».) هٰذا فيه تأديبُ السَّلفِ لأولادِهم ولذَراريهم علىٰ تعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فإنَّ الشَّهادَةَ والعهدَ واجبٌ أنْ تكونَ مع التَّعظيمِ للهِ جَلَّوَعَلَا والخَوفِ مِن لِقائِه والخَوفِ مِنَ الظُّلمِ، فكانوا يُؤدِّبون أولادَهم علىٰ ذلكَ حتَّىٰ يتمرَّنوا وينشؤُوا علىٰ تعظيمِ توحيدِ اللهِ وتعظيمِ أمرِ اللهِ ونَهيِه.



63- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّه

[1] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾[النحل].

[2] وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ: خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْـجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ؛ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

هٰذا بابٌ عظيمٌ مِن الأبوابِ الأخيرةِ في هٰذا الكتابِ وهو (بَابٌ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّـهِ) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذِكْرُ الإمامِ رَحِمَهُ اللهُ لهٰذا البابِ لأجلِ حديثِ بُريدَةَ الَّذي ساقَه وفيـه (وَإِذَا حَاصَـرْتَ أَهْـلَ حِصْـنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ؛ أَهْوَنُ مِـنْ أَنْ تُخْفِـرُوا ذِمَّـةَ اللهِ وَذِمَّـةَ نَبِيِّـهِ) وهٰـذا لأجلِ تعظيمِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا وتعظيمِ رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـإنَّ تعظيـمَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا في مُناجاتِـه وفي سُـؤالِه وفي العبادةِ له جَلَّ وَعَلَا وفي التَّعامُلِ مع النَّاسِ هٰذا كلُّه مِن كمالِ التَّوحيدِ، وهٰذا البابُ مِن جهةِ التَّعامُلِ مـع النَّاسِ كما جاءَ في البابِ الَّذي قبلَه.

فالبابُ الَّذي قبلَه وهو (بَابٌ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ) مُتعلِّقٌ بتعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا حينَ التَّعامُلِ مـع

النَّاسِ.

و(**بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّـهِ**) مُتعلِّقٌ بالتَّعامُلِ مع النَّاسِ في الحالات العَسِـرَةِ الصَّـعبةِ وهي حالُ الجِهادِ، فنبَّه علىٰ أنَّ تعظيمَ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا يكونُ في التَّعامُلِ في أعصَبِ الحالاتِ وهـي الجهـادُ فإنَّ العبدَ يكونُ مُوَقِّرًا للهِ مُجِلًّا للهِ مُعظِّمًا لأسمائِه وصِفاتِه.

ومِن ذاك أنْ تُعظِّمَ ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه، والذِّمَّةُ بمَعنىٰ العهدِ وذمَّةُ اللهِ؛ يعني: عهدُ اللهِ وعهدُ نبيِّـه، فإنَّـه إذا كان يُعطي بعهدِ اللهِ ثمَّ يُخفِرُ فقد خفَرَ عهدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا وفجرَ في ذلـك، وهٰـذا مُنـافٍ لكمـالِ التَّوحيـدِ الواجبِ؛ لأنَّ الواجبَ علىٰ العبدِ أنْ يُعَظِّمَ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ وألَّا يخفِرَ عهدَه وذِمَّتَه؛ لأنَّـه إذا أعطـىٰ بذِمَّـةِ اللهِ فإنَّه يجبُ عليه أنْ يُوفِيَ بهٰذه النِّعمةِ مَهْمَا كانَ حتَّىٰ لا يُنسَبَ النَّقصُ لعدمِ تعظـيمِ ذِمَّـةِ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ ومِـن أهلِ الإسلامِ.

لهٰذا كانَ إعطاءُ مثلِ هٰذه الكلمةِ مثلَ كثرةِ الحَلِفِ، فلا يجوزُ أنْ تجعلَ في العهدِ ذِمَّـةَ اللهِ وذِمَّـةَ نبيِّـه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما لا يجوزُ كثرةُ الأيْمانِ؛ لأنَّ في كلٍّ مِنهُما نَقصًا في تعظيمِ الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[النحل:91]) العهدُ في قولِه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ فُسِّرَ بالعقدِ، وفُسِّر باليمينِ:

فالعهدُ بمعنىٰ العقدِ؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء]، وقـال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ ﴾[المائدة:1]، فالعقدُ والعهـدُ بمعنًـىٰ؛ فلهٰـذا فُسِّـرَ ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ بأنَّها العُقودُ الَّتي تكونُ بينَ النَّاسِ.

وفُسِّرَ العهدُ هنا بأنَّه اليمينُ ودلَّ عليه قولُه بعدَها: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾.

فيجبُ الوَفاءُ بالعقدِ ويجبُ الوَفاءُ باليمينِ تعظيمًا لحقِّ اللهِ جَلَّوَعَلَا، لأنَّ مَن أعطىٰ اليمينَ للهِ فإنَّ مَعناه أنَّه أكَّدَ وَفاءَه بهٰذا الشَّيءِ الَّذي تكلَّمَ به؛ أكَّدَ ذلكَ باللهِ جَلَّجَلَالُهُ، فإذا خالفَ وأخَّرَ فمعنىٰ ذلكَ أنَّه لم يُعَظِّمِ اللهَ تَعظيمًا خافَ بسَبَبِه مِن ألَّا يُقيمَ ما يجبُ للهِ جَلَّوَعَلَا مِن الوَفاءِ باليمينِ، ولهٰذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ ﴾ حينَ استَشهَدَكم اللهُ جَلَّجَلَالُهُ أو حين حَلَفْتُم باللهِ جَلَّجَلَالُهُ، ولهٰذا كفَّارةُ اليمينِ واجبةٌ علىٰ ما هو مُفصَّلٌ في مَوضِعِه مِن كُتبِ الفقهِ.

والحديثُ ظاهرُ الدِّلالةِ علىٰ ما ذَكَرْنا؛ ففيه تعظيمُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ بألَّا يُعطِيَ العبدُ النَّاسَ بذِمَّةِ اللهِ وذِمَّـةِ نبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ بل أنْ يُعْطِيَ بذِمَّتِه هو.

وفي هٰذا تَنبيهٌ عظيمٌ لأهلِ التَّوحيدِ وطلبةِ العِلمِ الَّذين يَهتمُّونَ بهٰذا العِلمِ ويعرفُ النَّاسُ مِنهم أنَّهم يَهتَمُّون بهٰذا العِلمِ ألَّا يبدُرَ مِنهم ألفاظٌ أو أفعالٌ تدلُّ علىٰ عدمِ تَمَثُّلِهم بِهٰذا العِلمِ، فإنَّ التَّوحيدَ هو مَقامُ الأنبياءِ والمُرسَلينِ ومَقامُ أولياءِ اللهِ الصَّالحينَ، فأنْ يتعلَّمَ طالبُ العِلمِ مَسائلَ التَّوحيدِ ثمَّ لا تظهرُ علىٰ لِسانِه أو علىٰ جَوارِحِه أو علىٰ تعامُلِه لا شكَّ أنَّ هٰذا يرجِعُ ولو لم يَشعُرْ يرجِعُ إلىٰ اتِّهام ذلكَ الَّذي حملَه مِن التَّوحيدِ أو مِن العِلمِ الَّذي هو عِلمُ الأنبياءِ والمُرسَلينِ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

[الدَّليلُ الثَّاني] فتذَكَّر قولَ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ» لأجلِ أنَّه قد يَدخُلُ علىٰ أهلِ الإسلامِ أو علىٰ الدِّين في نفسِه مِن جهةِ فِعلِهم، فيُخفِرونَ هٰذه الذِّمَّةَ فيرجِعَ إخفارُ ذلكَ إلىٰ اتِّهامِ ما حَملوه مِن الإسلامِ ومِنَ الدِّينِ، فهٰذه مَسألةٌ عظيمةٌ فتَستَحضِرُ أنَّ النَّاسَ يَنظُرونَ إليكَ خاصَّةً في هٰذا الزَّمانِ -الَّذي هو زَمانُ شُبَهٍ وزَمانُ فِتَنٍ- ينظُرونَ إليك أنَّك تحمِلُ سُنَّةً، تَحمِلُ تَوحيدًا، تَحمِلُ عِلمًا شَرعِيًّا، فلا تُعامِلُهم إلَّا بشيءٍ يكونُ معه تَعظيمُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وتجعلُ أولئكَ يُعظِّمونَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بتَعظيمِكَ له، ولا تَخفِرْ في اليمينِ ولا تَخفِرْ في ذِمَّةِ اللهِ، أو تكونُ في الشَّهادةِ حائفًا أو في التَّعامُلِ حائفًا؛ لأنَّ ذلكَ مُنْقِصٌ لأثرِ ما تحمِلُه مِن العِلمِ والدِّينِ.

فتذكَّر هٰذا، وتذكَّر أيضًا قولَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هنا: (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟) أو نَحْوَ هٰذا وذلكَ حتَّىٰ إذا كانَ غلطٌ فيكونُ الغلطُ مَنسوبًا إلىٰ مَن حَكَمَ -إلىٰ هٰذا البشرِ-، ولا يكونُ مَنسوبًا إلىٰ حُكْمِ اللهِ، فيَصُدَّ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وكم مِن النَّاسِ ممَّنْ يَحمِلونَ سُنَّةً أو عِلمًا أو يَحملونَ استقامةً يُسيئونَ بأفعالِهم وأقوالِهم؛ لأجلِ عدمِ تعلُّمِهم أو فَهمِهم ما يجبُ للهِ جَلَّ وَعَلَا وما يجبُ لسنَّةِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يَدعوهم إليه الرَّبُّ الكريمُ جَلَّ وَعَلَا وتعالىٰ وتقدَّسَ.

نَبْرَأُ إلىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا مِن كلِّ نقصٍ، ونسألُه أنْ يَعفُوَ ويتجاوزَ ويَرحَمَنا جميعًا.



64- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ

[1] عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[2] وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

(**بَابٌ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ**) الإقسامُ علىٰ الله يكونُ علىٰ جِهتينِ:

جهةٌ فيها التَّألِّي والتَّكبُّرُ والتَّجبُّرُ ورِفعَةُ هٰذا المُتَألِّي نفسَه حتَّىٰ يجعلَ له علىٰ اللهِ حقًّا، وهٰذا مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، وقد يُنافي أصلَه، وصاحبُه مُتوَعَّدٌ بالعقابِ الَّذي جاءَ في مثلِ هٰذا الحديثِ، فهٰذا يتألَّىٰ فيجعلُ الله جَلَّوَعَلَا يَحكُمُ بما اختارَه هو مِن الحُكمِ، فيقولُ: واللهِ لا يحصُلُ لفُلانٍ كذا. تكبُّرًا واحتِقارًا للآخرينَ، فيُريدُ أن يجعلَ حُكمَ اللهِ جَلَّوَعَلَا كحُكمِه تألِّيًا واستِبعادًا أنْ يفعلَ جَلَّوَعَلَا ما ظنَّه هو، فهٰذا التَّألِّي والاستِبعادُ نوعُ تحكُّمٍ في اللهِ جَلَّوَعَلَا وفي فعلِه، وهٰذا لا يصدُرُ مِن قلبٍ مُعظِّمٍ للهِ جَلَّوَعَلَا.

والحالُ الثَّانيةُ أنْ يُقسِمَ علىٰ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ لا علىٰ جِهةِ التَّألِّي؛ ولكنْ علىٰ جِهةِ أنَّه ما ظنَّه صحيحٌ، في أمرٍ وقعَ له أو في أمرٍ يُواجِهُه، فهٰذا يُقسِمُ علىٰ اللهِ أنْ يكونَ كذا في المُستقبَلِ علىٰ جِهةِ التَّذلُّلِ والخُضوعِ للهِ لا علىٰ جِهةِ التَّألِّي، وهٰذا هو الَّذي جاءَ فيه الحديثُ «**وَمِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**»؛ لأنَّه أقسمَ علىٰ اللهِ لا علىٰ جِهةِ التَّعاظُمِ والتَّكبُّرِ والتَّألِّي؛ ولكنْ علىٰ جهةِ الحاجةِ والافتِقارِ إلىٰ اللهِ، فحينَ أقسمَ أقسمَ مُحتاجًا إلىٰ اللهِ وأكَّدَ ذلك باللهِ وأسمائِه مِن جهةِ ظنِّه الحَسنِ باللهِ جَلَّوَعَلَا، فهٰذا جائزٌ ومِن عِبادِ الله مَن لو أقسمَ علىٰ اللهِ لأبرَّهُ؛ لأنَّه قامَ في قلبِه مِن العُبوديَّةِ للهِ والذُّلِّ الخُضوعِ ما جعلَ اللهَ جَلَّوَعَلَا يُجيبُه في سُؤالِه ويُعطيه طلِبَتَه ورَغبَتَه.

وأمَّا الحالُ الأُولىٰ فهي حالُ المُتكبِّرِ المُترفِّعِ الَّذي يظُنُّ أنَّه بلغَ مَقامًا بحيثُ يكونُ فعلُ اللهِ جَلَّوَعَلَا تبعًا لِفعلِه، فتكبَّرَ واحتقَرَ غيرَه.

فبهٰذا التَّفصيلِ يتَّضحُ ما جاءَ في هٰذا البابِ مِن الحديثِ.

[**الدَّليلُ الأوَّلُ**] قال: (عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟») هٰذا الَّذي قالَ: (وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ) كانَ رَجُلًا صالِحًا، والآخرُ كان رَجُلًا فاسِقًا، فقال هٰذا الرَّجُلُ الصَّالِحُ: (وَاللهِ لَا

يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ)؛ لأنَّ فُلانًا هٰذا كانَ رَجُلًا فاسقًا مُريدًا كثيرَ العِصيانِ، فتَأَلَّىٰ هٰذا العابدُ وعظَّمَ نفسَه وظنَّ أنَّه بعبادتِه إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا بلغَ مَقامًا يكونُ مُتحَكِّمًا فيه بأفعالِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وألَّا يُردَّ شيءٌ طلبَه، أو له أنْ يتحكَّمَ في الخلقِ، وهٰذا يُنافي حقيقةَ العُبوديَّةِ الَّتي هي التَّذلُّلِ للهِ جَلَّوَعَلَا.

فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عاقبَه فقال: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ»؛ يعني: يتَعاظَمُ ويتكبَّرُ عليَّ ويحلِفُ عليَّ فيُقسمُ عليَّ؛ لأنَّ يتألَّىٰ مِن الألِيَّة وهي الحَلِفُ ومِنه قولُه تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾[البقرة]، **والإيلاءُ مِن الألِيَّةِ وهي الحَلِفُ**، فـ«يَتَأَلَّىٰ» يعني: يَحلِفُ علىٰ جهةِ التَّكبُّرِ والتَّعاظُمِ، «أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» فغُفر للطَّالحِ وأُحبِطَ عملُ ذلكَ الرَّجلِ العابدِ.

وهٰذا يُبيِّنُ لك عِظَمَ شأنِ مُخالفةِ تعظيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وعِظَمَ مُخالفةِ توحيدِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهٰذا الرَّجُلُ الفاسقُ، هٰذا الرَّجلُ الطَّالِحُ، الرَّجُلُ الفاسقُ أتاه خيرٌ مِن حيثُ لا يشعرُ، وقيلت في حقِّه كلمةٌ بحسبِ الظَّاهرِ أنَّها مُؤذيةٌ له، أنَّها فيها مِن الاحتِقارِ والازدِراءِ له ما يجعلُه في ضَعَةٍ بينَ النَّاسِ، حيثُ شهِدَ عليه هٰذا الصَّالحُ بقولِه: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ»؛ فكانت هٰذه الكلمةُ الَّتي ساءَتْه وكانَ فيها إيذاءٌ له كانت فيها مَصلَحَةٌ عظيمةٌ له أنْ غُفِرَ له ذنبُه.

ولهٰذا نبَّه الشَّيخُ في مَسائلِ البابِ بمَسألةٍ مَعناها أنَّ مِن الابتِلاءِ والإيذاءِ وكلامِ النَّاسِ في المُكلَّفِ -في الشَّخصِ- ما يكونُ أعظمَ أسبابِ الخَيرِ له،(1) ولهٰذا ليسَتِ العِبرةُ باحتِقارِ النَّاسِ ولا بكلامِهم ولا بإيذائِهم ولا بتَصنيفِهم للنَّاسِ أو بقَولِهم هٰذا فُلانٌ كذا وهٰذا فُلانٌ كذا، العِبرةُ بحقيقةِ الأمرِ بما عندَ الله جَلَّجَلَالُهُ.

فالواجبُ علىٰ العِبادِ جميعًا أنْ يُعظِّموا اللهَ وأنْ يُخبِتوا إليه وأنْ يظُنُّوا أنَّهم أسوءُ الخلقِ، حتَّىٰ يقومَ في قُلوبِهم أنَّهم أعظمُ حاجةً للهِ جَلَّوَعَلَا وأنَّهم لم يوفوا اللهَ حقَّه.

أمَّا التَّعاظُمُ بالنَّفسِ والتَّعاظُمُ بالكلامِ والمَدحِ والثَّناءِ ونحوِ ذلك فليسَ مِن صَنيعِ المُجِلِّينَ لله جَلَّوَعَلَا الخائفينَ مِن تقلُّبِ القُلوبِ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا يُقلِّبُ القُلوبَ ويُصرِّفُها كيفَ يشاءُ، فالقلبُ المُخبِتُ المُنيبُ يَحذرُ ويخافُ دائمًا من أنْ يتقلَّبَ قلبُه، فيَنتَبِهُ للَفظِه، وينْتَبِهُ لِحظِّه، ويَنتَبِهُ لسَمعِه، ويَنتَبِهُ لحَركاتِه لعلَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أنْ يُميتَه غيرَ مَفتونٍ ولا مَخزيٍّ.

(1) وهي المَسألةُ الخامسةُ: أنَّ الرَّجُلَ قد يُغفَرُ له بسببٍ هو مِن أكرَهِ الأمورِ إليه.

65- بَابٌ

لا يُسْتَشْفَعُ بِاللّٰه عَلَى خَلْقه

[1] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ!»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ ...»، وَذَكَرَ الْـحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

(بَابٌ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللّٰه عَلَى خَلْقه)، (لا يُسْتَشْفَعُ) يعني لا يُجعَلُ اللهُ شَفيعًا علىٰ الخَلقِ؛ لأنَّ شأنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أعظَمُ وأجلُّ مِن أنْ يُستَشْفَعَ به ويُجعَلَ واسِطَةً للانتفاعِ بأحدٍ مِن الخلقِ، فالشَّفاعةُ المَعروفةُ: تأتي إلىٰ أحدٍ وتطلُبُ أنْ يكونَ شفيعًا عندَ آخرَ؛ لأنَّ ذلكَ الآخرَ هو الَّذي يَملِكُ ما تُريدُ والنَّفعُ عندَه، وهٰذا يكونُ واسِطَةً ولا يستطيعُ أنْ ينفعَكَ بنَفسِه إلَّا بأنْ يتوسَّطَ، واللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لا يجوزُ أنْ يُظَنَّ به ذلكَ الظَّنُّ لأنَّه ظَنُّ سَوءٍ بالله جَلَّ جَلَالُهُ، والله سُبحانَه لا يصلُحُ أنْ يُجعلَ واسِطةً لأحدٍ أو إلىٰ أحدٍ مِن الخَلقِ أو علىٰ أحدٍ مِن الخَلقِ؛ بلْ هو جَلَّ وَعَلَا الَّذي يَملِكُ الأمورَ جميعًا.

فالاستشفاعُ باللهِ علىٰ الخَلقِ؛ يعني أنْ يُجعَلَ اللهُ واسِطةً يتوسَّطُ العبدُ بربِّه علىٰ أحدٍ مِن الخَلقِ هٰـذا مُنافٍ لكمالِ التَّوحيدِ، وعملٌ وقولٌ مِن الأقوالِ المُنافيةِ لتعظيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا التَّعظيمَ الواجبَ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] ولهٰذا لمَّا ذكرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ كان الشَّاهِدُ مِنه أنَّه قال الأعرابيُّ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ» يعني: (نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ) نجعلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا واسِطةً يتوسَّطُ لنا عندَك حتَّىٰ تَدعُوَ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا هو المَلِكُ الحيُّ القَيُّومُ، المَلِكُ الحقُّ المُبينُ، الَّذي نَواصي العِبادِ بيَدَيْه يُصرِّفُها كيفَ يشاءُ، شأنُ اللهِ أعظمُ مِن أنْ يُستَشفَعَ به علىٰ أحدٍ مِن خَلقِه؛ بل الرَّجُلُ أو المُكلَّفُ يَستَشفِعُ بأحدٍ مِن الخَلقِ عندَ مَخلوقٍ آخرَ يحتاجُه في شيءٍ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي يَملِكُ الأشياءَ جميعًا، وهو الَّذي يُصرِّفُ القُلوبَ، هو الَّذي بيدِه المُلكُ والمَلَكوتُ، هو الَّذي بيدِه مَقاليدُ السَّمٰوَاتِ والأرضِ وبيدِه خزائنُ كلِّ شيءٍ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر]، فالعِبادُ هم المُحتاجونَ إلىٰ اللهِ، وشأنُ اللهِ أعظمُ مِن ذلكَ إذِ المَخلوقُ حَقيرٌ وَضيعٌ بالنِّسبَةِ إلىٰ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وهو -هٰذا المَخلوقُ- لا يصلُحُ أنْ يُجعَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا واسِطةً عندَه حتَّىٰ يَقبَلَ هٰذه الواسِطةَ؛ بل شأنُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أعظمُ مِن ذلك.

ولهٰذا كان سَيِّدُ الخَلقِ وسَيِّدُ ولدِ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رادًّا علىٰ هٰذا الأعرابيِّ حيثُ قالَ له الأعرابيُّ: (إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ!»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ)، سُبحانَ اللهِ؛ يعني تَنزيهًا وتعظيمًا للهِ، تَنزيهًا وإبعادًا للهِ عن كُلِّ وصفِ سوءٍ أو شائبَةِ نقصٍ، سُبحانَ اللهِ؛ يعني: أُسَبِّحُ الله تَسبيحًا، أُسَبِّحُ اللهَ وأُنَزِّهُهُ تَنزيهًا وأبعِّدُه تبعيدًا عن كُلِّ شائبةِ نَقصٍ وعن كُلِّ ظنِّ سَوءٍ به جَلَّ وَعَلَا، فما زالَ يُكرِّرُها حتَّىٰ عُرفَ ذلكَ في وُجوهِ أصحابِه مِن شدَّةِ تَسبيحِه وتَنزيهِه لرَبِّه جَلَّ وَعَلَا، وهٰذا مِن الغَضبِ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ فما كانَ أعلَمَه برَبِّه وما كانَ أعرَفَه برَبِّه.

(ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ ...») فاللهُ جَلَّ وَعَلَا مَن عَلمَ أسماءَه وعَلمَ الصِّفاتِ المُستَحَقَّةَ له جَلَّ وَعَلَا فإنَّه لن يَدورَ بخاطرِه ظنُّ سَوْءٍ به جَلَّ وَعَلَا أو استِنقاصٌ له جَلَّ وَعَلَا.

إذن هٰذا البابُ فيه كما في الأبوابِ قبلَه ما يتحرَّزُ به المُوحِّدُ مِن الألفاظِ الَّتي فيها سُوءُ ظنٍّ باللهِ جَلَّ وَعَلَا وتنقُّصٌ لمَقامِ الرُّبوبيَّةِ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ.



66- بَابٌ
مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ (النَّبِيِّ)[1] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

[2] وَعَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

(**بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ [النَّبِيِّ] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ**)؛ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَمىٰ وحرسَ جَنابَ التَّوحيدِ، وحَمىٰ حِمىٰ التَّوحيدِ، وسدَّ أيَّ طريقٍ توصِلُ إلىٰ الشِّركِ، فإنَّ في سنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن الدَّلائلِ علىٰ قاعدةِ سدِّ الذَّرائعِ ما يَبلُغُ مائةَ دليلٍ أو أكثرَ، وأعظمُ الذَّرائعِ الَّتي يجبُ أنْ تُسَدَّ ذرائعُ الشِّركِ الَّتي توصِلُ إليه، ومِن تلكَ الذَّرائعِ قولُ القائلِ: أنت سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا، وخَيرُنا وابنُ خَيرِنا ونحوِ ذلك، فإنَّ هٰذه فيها التَّعظيمُ الَّذي لا يجوزُ أنْ يُواجَه به بشرٌ، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو سَيِّدُ ولدِ آدمَ كما أخبرَ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لكنْ كرِهَ المُواجهَةَ كما سيأتي.

إذنْ فحِمايةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمىٰ التَّوحيدِ وسَدُّه طُرقَ الشِّركِ:

- كانَ في جهةِ الاعتقاداتِ.
- وكانَ في جهةِ الأعمالِ والأفعالِ.
- وكانَ في جهةِ الأقوالِ.

فإذا تأمَّلتَ سنَّتَه وما جاءَ في هٰذا الكتابِ -«كتابِ التَّوحيدِ»- وجدت أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

سدَّ البابَ في الاعتقاداتِ الباطلةِ.

وسدَّ البابَ في الأفعالِ الباطلةِ كقولِه: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

وسدَّ البابَ أيضًا في الأقوالِ الَّتي توصِلُ إلىٰ الغُلُوِّ المَذمومِ فقال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ**

---

(1) في نسخة العصيمي: المصطفىٰ.

ابْنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

وهٰذا البابُ أيضًا مِن ذلكَ في بَيانِ حِمىٰ النَّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمىٰ التَّوحيدِ فيما يتعلَّقُ بالقولِ الَّـذي قد يتبَعُه اعتقادٌ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] قال: (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.) في هٰذا الحديثِ أنَّ إطلاقَ لفظِ (السَّيِّدِ) علىٰ البشرِ هٰذا مَكروهٌ، ومُخاطَبَتُه بذلك يجبُ سدُّها، فلا يُخاطَبُ أحدٌ بأنْ يُقالَ له: أنتَ سيِّدُنا. علىٰ جهةِ الجمعِ؛ وذلكَ لأنَّ فيها نوعَ تعظيمٍ:

- مِن جهةِ المُخاطَبَةِ يعني الخَطابَ المُباشرَ.
- والجهةُ الثَّانيةُ مِن جهةِ استعمالِ اللَّفظِ.

والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيِّدٌ كما قال عن نفسِه: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» ولكنَّ مُخاطَبَتَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع كَونِه سيِّدًا؛ لكنَّه كَرِهَها ومنعَ مِنها لئلَّا تُؤدِّيَ إلىٰ ما هو أعظمُ مِن ذلكَ مِن تَعظيمِه والغُلُوِّ فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فهٰذا مُناسبةُ هٰذا الحديثِ لهٰذا البابِ أنَّ في قولِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» مع كَونِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو سَيِّدَ ولدِ آدمَ ما يُفيدُ أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حَمَىٰ حِمىٰ التَّوحيدِ وسدَّ الطُّرقَ الموصِلَةَ إلىٰ الشِّركِ ومِنها طريقُ الغُلُوِّ في الألفاظِ.

والقَولُ للرَّجلِ بأنَّه سيِّدٌ ونحوُ ذلك إذا كان علىٰ وجهِ المُخاطَبَةِ لـه والإضـافةِ إلـىٰ الجمـعِ فهٰـذا أشـدُّها، وإذا كـانَ بـدونِ المُخاطَبَةِ لـه ولفـظِ الجمـعِ فإنَّـه أهـونُ مِنـه، وممَّـا ذَكـر العُلمـاءُ أنَّ قولَـه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» أنَّه يُكرَه كراهةً شديدةً أنْ يُقالُ لبشـرٍ: إنَّـه السَّـيِّدُ هكـذا بـالألفِ واللَّامِ وكلمة سَيِّدٍ؛ لأنَّ هٰذا قد يُفهَمُ مِنه استغراقُ مَعاني السِّيادةِ؛ لأنَّ البشرَ له سيادةٌ تخصُّه؛ لكنَّ الألـفَ واللَّامَ هنا قد يُفهَمُ مِنه استغراقُ ألفاظِ السِّيَّادةِ.

ولهٰذا ترىٰ أنَّ الَّذين يُشرِكون ببعضِ الأولياءِ كالسَّيِّدِ البَدَوِيِّ يُعظِّمونَ كلمةَ السَّـيِّدِ، ويكثُـرُ عنـدَهم التَّعبيرُ بالسَّيِّدِ ويُريدونَ به السَّيِّدَ البَدوِيَّ، فيكثُرُ عندَهم عبدُ السَّيِّدِ ونحوُ ذلك، ولا يُريدونَ بـه اللهَ جَلَّ وَعَلَا ولكن يُريدونَ به ذلكَ الَّذي اتَّخذوه مَعبودًا، وتوجَّهوا إليهِ ببعضِ أنواعِ العبادةِ، فيفهمون مِن كلمةِ السَّـيِّدِ أنَّه ذو السِّيَّادةِ وذو التَّصرُّفِ في الأمرِ، وهٰذا هو الَّذي اعتَقدوه مِن أنَّ للبدوِيِّ ولأمثالِـه أنَّ لهـم تصـرُّفًا في

الأرضِ وقَبولًا للمَطالبِ في الحاجاتِ.

(قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ »)؛ لأنَّ هٰذا فيه الثَّناءُ والمَدحُ بالمُواجَهَةِ، وهٰذا مِن الشَّيطانِ، فالشَّيطانُ هو الَّذي يفتحُ هٰذا البابَ أنْ يُمدَحَ أحدٌ ويُعظَّمَ في مُواجَهَتِه، وذلكَ حتَّىٰ يَعظُمُ في نفسِه فيأتيه الخِذلانُ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ تخلَّىٰ عن (لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ) وتخلَّىٰ عن الازدِراءِ بالنَّفسِ والذُّلِّ والخُضوعِ الَّذي يعلَمُه اللهُ مِن قلبِه فإنَّه يُخذَلُ ويأتيه الأمرُ علىٰ غرَّةٍ، ولهٰذا نَهىٰ النَّبيُّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنْ يُقالَ بمثلِ ذلك القَولِ مُواجَهةً، ونَهىٰ عن المَدحِ؛ لأنَّ فيه إضرارًا بالمُتكلِّمِ وإضرارًا بالمَقولِ فيه ذلكَ الكلامُ.

[الدَّليلُ الثَّاني] قال: (وَعَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ) هو عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ كما وَصفوه؛ هو خَيرُهم وهو سَيِّدُهم عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ؛ لكنَّه حَمىٰ ذلك الجَنابَ جَنابَ التَّوحيدِ وحَمىٰ حِمىٰ التَّوحيدِ حتَّىٰ لا يستَدِلَّ أحدٌ بعدَه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ بهٰذا الكلامِ علىٰ أنَّه يجوزُ أنْ يُقالَ لمَن ظنَّ النَّاسُ فيه ذلكَ؛ بل سدَّ البابَ في نفسِه، وهو سَيِّدُ ولدِ آدمَ وهو خَيرُهم عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ وأفضلُهم؛ ولكنْ سدَّ البابَ حتَّىٰ لا يدخُلَ أحدٌ مِنه بإقرارِه هٰذا الفعلَ فيُعظِّمَ أحدٌ ويدخلَ الشَّيطانُ إلىٰ ذلكَ المُعظَّمِ وإلىٰ المُعظِّمِ فيجعلَ القُلوبَ تتعلَّقُ بذلكَ المُعظَّمِ حتَّىٰ يُشرَكَ به وحتَّىٰ يُعظَّمَ بما لا يجوزُ له مِن التَّعظيمِ.

هٰذا البابُ كالجامعِ لِمَا يجبُ مِن سدِّ الذَّرائعِ الموصِلَةِ للشِّركِ، وهٰذا واجبٌ علىٰ المُسلمِ أنَّ كلَّ طريقٍ أو سبيلٍ يجعلُ نفسَه تتعاظَمُ -مِن نفسِه لنفسِه أو مِن الخَلقِ له- يجبُ عليه أنْ يَسُدَّه؛ لأنَّه أعظَمُ مَقاماتِ الشَّرفِ لك أنْ يعلَمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا مِنك أنَّك مُتذَلِّلٌ خاضعٌ بينَ يديه، وأنَّك خائفٌ وجِلٌ تدعوه راغِبًا راهِبًا، هٰذه صِفةُ الخُلَّصِ مِن عِبادِ الله جَلَّوَعَلَا الَّذين وعدَهم اللهُ جَلَّوَعَلَا بالخَيراتِ قال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء]، والخُشوعُ نوعانِ:

- خُشوعٌ في القلبِ.
- وخُشوعٌ في الجوارحِ.

وخُشوعُ القلبِ بالتَّطامُنِ والذُّلِّ والخُضوعِ بينَ يَدَي اللهِ.

وخُشوعُ الجوارحِ بسُكونِها كما قالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾[فصِّلت:39].

67- بَابٌ

[1] **مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾[الزمر]

[2] عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَات عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْـمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآيَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْـخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ». أَخْرَجَاهُ.

[3] وَلِمُسْلِمٍ عَن ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمٰوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

[4] وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمٰنِ؛ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

[5] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**». وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ**».

[6] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «**بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْـمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْـمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ**».

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».

[7] وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، هٰذا (**بابٌ ما جاءَ في قوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الزُّمر]**) هٰذا البابُ ختمَ به إمامُ هٰذه الدَّعوةِ شيخُ الإسلامِ والمُسلمينَ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ كتابَ التَّوحيدِ، وخَتْمُه هٰذا الكتابَ بهٰذا البابِ خَتْمٌ عظيمٌ؛ لأنَّ مَن عَلمَ حقيقةَ ما اشتَملَ عليه هٰذا البابُ مِن وَصفِ الله جَلَّوَعَلَا وعَظمةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فإنَّه لا يملِكُ إلَّا أنْ يَذِلَّ ذُلًّا حقيقيًّا ويَخضعَ خُضوعًا عظيمًا للرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ، والصَّحيحُ والواقعُ مِن حالِ الخَلقِ أنَّهم لم يُوَقِّروا وما قَدَروا الله جَلَّوَعَلَا:

- لا مِن جهةِ ذاتِه وقُدرَتِه وصِفاتِه.
- ولا مِن جهةِ حِكمَتِه وبَعثِه لرُسُلِه.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ [الأنعام:91]، فهٰذا في الإنزالِ؛ في إنزالِ الكتابِ وفي إرسالِ الرَّسولِ.

[الدَّليلُ الأوَّلُ] وقال جَلَّوَعَلَا في بَيانِ صِفةِ ذاتِه: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ يعني ما عظَّموهُ حقَّ تَعظيمِه، ولو عظَّموهُ حقَّ تَعظيمِه لَمَا عبدوا غيرَه ولَمَا أطاعوا غيرَه ولَعبدوهُ حقَّ العبادةِ ولَذلُّوا له ذُلًّا وخُضوعًا دائمًا وأنابوا إليه بخُشوعٍ وخَشيةٍ؛ ولكنَّهم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ يعني: ما عظَّموه حقَّ تَعظيمِه الَّذي يجبُ لقَدْرِه جَلَّوَعَلَا وعِظَمِ ذاتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصِفاتِه.

ثمَّ بيَّن جَلَّوَعَلَا شيئًا مِن صِفةِ ذاتِه العَظيمةِ الجَليلةِ فقالَ سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فإنَّ عقلَ الإنسانِ لا يُمكنُ أنْ يتحمَّلَ صِفةَ اللهِ جَلَّوَعَلَا علىٰ ما هو عليه، واللهُ جَلَّوَعَلَا بيَّنَ لكَ

بعضَ صِفاتِه فقالَ سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فإذا نظرتَ إلىٰ هٰذه الأرضِ -علىٰ عِظَمِها وعلىٰ غُرورِ أهلِها فيها-، ونظَرْتَ إلىٰ حَجمِها وإلىٰ سِعَتِها وإلىٰ ما فيها فهي قَبضةُ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا؛ يعني: في داخلِ قبضَةِ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا يومَ القِيامَةِ كما وصفَ ذلكَ بقولِه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فنَفهَمُ مِن ذلك أنَّ كفَّ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا وأنَّ يدَ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا أعظمُ مِن هٰذا، وكذلكَ السَّمٰوَاتُ مَطويَّاتٌ كطَيِّ السِّجِلِ في كفِّ الرَّحمٰن جَلَّوَعَلَا، كما قال سُبحانَه هنا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وقال في آيةِ سورةِ الأنبياءِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:104]، فهٰذه صِفاتُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ، هٰذه صِفاتُه، فإنَّ الأرضَ الَّتي يتعاظَمُها أهلُها والسَّمٰوَاتِ الَّتي يتعاظَمُها مَن نظرَ فيها هي صَغيرةٌ وآيلَةٌ في الصِّغَرِ إلىٰ أنْ تكونَ في كفِّ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا، واللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعظمُ مِن ذلكَ وأجلُّ؛ بلْ هو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الواسعُ الحميدُ الَّذي له الحمدُ كلُّه وله الثَّناءُ كلُّه.

ويُبيِّنُ لك ذلكَ؛ يُبيِّنُ لكَ عِظَمَةَ الرَّبِّ في ذاتِه وعِظَمَةَ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا في صِفاتِه إذا تأمَّلتَ هٰذه الأحاديثَ، فإنَّكَ إذا نَظَرْتَ في هٰذه الأرضِ، ونظَرْتَ سِعَةَ هٰذه الأرضِ، وغُرورَ أهلِ الأرضِ بها غُرورَ أهلِ الأرضِ في الأرضِ بهٰذه الأرضِ وبِسِعَتِها وبِقوَاهم فيها، نظَرْتَ إلىٰ أنَّ الأرضَ بالنِّسبَةِ إلىٰ السَّماءِ أنَّها صَغيرةٌ، وأنَّ بينَ الأرضِ وبينَ السَّماءِ الأولىٰ مَسيرَةَ خَمسِمائَةِ سنةٍ في مسيرِ الرَّاكبِ السَّريعِ، وكذلكَ بينَ السَّماءِ الأولىٰ والسَّماءِ الثَّانيةِ مَسيرَةُ خَمسِمائَةِ سَنةٍ، وهكذا حتَّىٰ تنتَهِيَ السَّبع السَّمٰوَاتِ، والأرضُ بالنِّسبَةِ للسَّمواتِ صَغيرةٌ، ولهٰذا مثَّل السَّمٰوَاتِ السَّبعَ النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في الكُرسِيِّ الَّذي هو فوقَ ذلكَ وهو أكبرُ بكثيرٍ مِنَ السَّمٰوَاتِ، بقولِه: «مَا السَّمٰوَات السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»؛ يعني: هٰذه السَّمٰوَاتُ صَغيرةٌ جِدًّا بالنِّسبَةِ إلىٰ الكُرسيِّ؛ بل كدراهمَ سَبعةٍ أُلقِيَتْ في تُرسٍ، والتُّرسُ مُكتَنِفُها مَتقوسٌ عليها، فهي صغيرةٌ فيه وهو واسِعُها؛ كما قال جَلَّوَعَلَا عن الكُرسيِّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾[البقرة:255].

فالأرضُ الَّتي أنتَ فيها، وأنتَ فيها في نُقطةٍ صَغيرةٍ صَغيرةٍ هي بالنِّسبَةِ إلىٰ السَّماءِ هٰذا وصفُها، والأرضُ والسَّمٰوَاتُ بالنِّسبةِ للكُرسيِّ هٰذا وصفُه، والكُرسيُّ أيضًا فوقَه ماءٌ، وفوقَ ذلكَ العرشُ عرشُ الرَّحمٰنِ جَلَّوَعَلَا، والكُرسيُّ بالنِّسبَةِ إلىٰ العرشِ كحَلقةٍ أُلْقِيَتْ في فلاةٍ مِن الأرضِ، فهو مُتناهي الصِّغَرِ بالنِّسبَةِ إلىٰ عرشِ الرَّحمٰنِ الَّذي الرَّحمٰنُ جَلَّوَعَلَا مُستوٍ عليه وهو فَوقَه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فتلحظ أنَّ هٰذه المخلوقاتِ جميعًا تتناهىٰ في الصِّغرِ، وأنَّك علىٰ الأرض الَّتي نتعاظمها نتناهىٰ في الصِّغر، فما بقي إلَّا أنْ تعلم أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ المستوي علىٰ عرشه؛ الَّذي له علوّ الذَّات علىٰ خلقه وله علو الصِّفات وعلوّ القهر وعلوّ القدر أنَّه جَلَّوَعَلَا هو العظيم، وهو الواسع وهو الحميد، أنَّ الخلق ما قدروه حقَّ قدره جَلَّوَعَلَا كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ ما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ لأنَّهم تعاظموا وتكبَّروا وتجبَّروا ونظروا إلىٰ أنفسهم أنَّهم كذا وكذا من الصِّفات.

ولو تأمَّلوا صِفةَ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا وما يجبُ له مِن الجلالِ وما هو عليه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مِن صِفاتِ الذَّاتِ ومِن صِفاتِ الفعلِ وما هو في ذلك علىٰ الكمالِ الأعظمِ، فإنَّهم سيَحتَقِرونَ أنفُسَهم، وسيَعلمون أنَّه ما ثَمَّ يُنجيهم ويُشرِّفُهم إلَّا أنْ يكونوا عَبيدًا له وحدَه دونَ ما سِواه.

فهل يَعبُدُ المَخلوقُ المَخلوقَ؟ الواجبُ أنْ يَعبُدَ المَخلوقُ هٰذا الَّذي هو مُتَّصِفٌ بهٰذه الصِّفاتِ العظيمةِ، فهو الحقيقُ بأنْ يُذَلَّ له، وهو الحَقيقُ بأنْ يُطاعَ، وهو الحقيقُ أنْ يُجَلَّ، وهو الحقيقُ بأنْ يُسأَلَ، وهو الحقيقُ بأنْ يُبذَلَ كلُّ ما يَملِكُه العبدُ في سبيلِ مَرضاتِه جَلَّوَعَلَا، إذْ هٰذا مِن قَدْرِه حقَّ قَدْرِه ومِن تَعظيمِه حقَّ تَعظيمِه.

فإذا تأمَّلَ العبدُ صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ وصِفاتِ الجَلالِ وصِفاتِ الجَمالِ للهِ جَلَّوَعَلَا، وأنَّ ذاتَ اللهِ جَلَّوَعَلَا عظيمةٌ، وأنَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مُستَوٍ علىٰ عرشِه بائنٌ مِن خَلقِه علىٰ هٰذا العِظَمِ، وَجَدَ أنَّه ما ثَمَّ إلَّا أنَّه يتوجَّه إليه بالعبادةِ وألَّا يَعبُدَ إلَّا هو، وأنَّ مَن عَبَدَ المَخلوقَ الحَقيرَ الوَضيعَ فإنَّه قد نازعَ اللهَ جَلَّوَعَلَا في مُلكِه ونازعَ اللهَ جَلَّوَعَلَا في إلٰهيَّتِه، ولهٰذا يحقُّ أنْ يكونَ مِن أهلِ النَّارِ المُخلَّدينَ فيها عذابًا دائمًا؛ لأنَّه توجَّه إلىٰ هٰذا المَخلوقِ الضَّعيفِ وتركَ الرَّبَّ العَلِيَّ القادرَ علىٰ كلِّ شيءٍ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثمَّ إذا تأمَّلتَ ذاكَ تأمَّلتَ ربَّك العزيزَ الحكيمَ المُتَّصِفَ بصِفاتِ الجَلالِ وهو جَلَّوَعَلَا فوقَ عرشِه يأمرُ وينهىٰ في مَلكوتِه الواسعِ -الَّذي الأرضُ كَشِبْهِ لا شيءَ في داخلِ ذلك المَلكوتِ- يُفيضُ رحمتَه ويُفيضُ في نعَيمِه علىٰ مَن شاءَ، ويُرسِلُ عذابَه علىٰ مَن شاءَ، ويُنعِّمُ مَن شاءَ، ويَصرِفُ البلاءَ عمَّن شاءَ، وهو سُبحانَه وَليُّ النِّعمةِ والفضلِ، فترىٰ أفعالَ اللهِ جَلَّوَعَلَا في السَّمٰوَاتِ وترىٰ عُبوديَّةَ المَلائكَةِ في السَّمٰوَاتِ؛ تراها مُتَّجِهَةً إلىٰ هٰذا الرَّبِّ العَظيمِ المُستوي علىٰ عرشِه كما قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ**» وهٰذا لأجلِ تَعظيمِهم لأمرِ اللهِ، فتنظُرُ إلىٰ نُفوذِ أمرِ اللهِ في مَلكوتِه الواسعِ الَّذي لا نَعلَمُ مِنه ما هو لنا مِن هٰذه الأرضِ وما هو قريبٌ مِنها؛ بل نَعلَمُ بعضَ ذلكَ، واللهُ جَلَّوَعَلَا هو المُتَصَرِّفُ.

ثمَّ تنظُرُ إلىٰ أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا هٰذا الجليلُ العظيمُ المُتَّصِفُ بهٰذا المُلْكِ العَظيمِ أنَّه يَتوجَّهُ إليكَ أيُّها العبدُ الحَقيرُ الوَضيعُ فيَأمُرُكَ بعبادتِه وهي شرفٌ لكَ لو شَعَرْتَ، ويأمُرُكَ بتقواهُ فهو شرفٌ لك لو شَعَرْتَ، ويأمُرُكَ بطاعَتِه وذاكَ شَرفٌ لك لو شَعَرْتَ، فإنَّه إذا عَلِمتَ حقَّ اللهِ وعَلِمتَ صِفاتِ اللهِ، وما هو عليهِ مِن العُلُوِّ المُطلَقِ في ذاتِه وصِفاتِه جَلَّوَعَلَا، وفي نُفوذِ أمرِه في هٰذه السَّمٰوَاتِ السَّبعِ الَّتي هي في الكُرسيِّ كدراهمَ أُلقِيَتْ في تُرسٍ، ثمَّ ما فوقَ ذلكَ، والجنَّةِ والنَّارِ وما في ذلكَ، وجدتَ أنَّكَ لا تتمالَكُ إلَّا أنْ تخضَعَ له جَلَّوَعَلَا خُضوعًا اختِيارِيًّا، وأنْ تذِلَّ له، وأنْ تتوجَّهَ إلىٰ طاعَتِه، وأنْ تتقرَّبَ إليه بما يحبُّ، وأنَّك إذا تَلَوْتَ كلامَه تَلَوْتَ كلامَ مَن يُخاطِبُكَ به ويأمُرُ ويَنهىٰ به، فيكونُ حينَئِذٍ التَّوقيرُ غيرَ التَّوقيرِ ويكونُ التَّعظيمُ غيرَ التَّعظيمِ.

ولهٰذا كانَ مِن أسبابِ رُسوخِ الإيمانِ في القلبِ وتعظيمِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا أنْ يتأمَّلَ العبدُ ويتفكَّرَ في مَلَكوتِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ كما أمرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بذلكَ حينَ قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس:101]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ أَوَلَمۡ [يَنظُرُواْ](1) فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف:185]، وقال أيضًا جَلَّوَعَلَا في وصفِ الخُلَّصِ مِن عِبادِه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ ﴾[آل عمران] إلىٰ آخرِ دَعواتِهم، وهم يذكُرون اللهَ قِيامًا وقُعودًا وعلىٰ جُنوبِهم ويتفكَّرون، ومع ذلكَ سيَسألونَ النَّجاةَ مِن النَّارِ، فهم في ذُلٍّ وخُضوعٍ لِمَا عرفوا مِن آثارِ تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ ولِمَا عرفوا مِن آثارِ تَوحيدِ الأُلوهيَّةِ في القلبِ وفي النَّفسِ.



(1) وقال في الآية قبلها: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ ﴾[الأعراف:184].

[الخاتــمة]

أسألُ الله جَلَّوَعَلَا في ختامِ هٰذا الكتابِ أنْ يجزي عنَّا مُؤلِّفَه الإمامَ الشَّيخَ مُحمَّدَ بنَ عبدِ الوهَّابِ خيرَ الجزاءِ، أنْ يجزيَه عن المُسلمينَ خيرَ الجزاءِ، وكلَّ مَن ساهمَ في شرحِ هذا الكتابِ بما أفهمَنا مِن مَعانيه، فإنَّه واللهِ لكتابٌ عظيمٌ اشتملَ علىٰ ما به نجاةُ العِبادِ لو شعَروا، وقرَّب الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه مِن نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّة وأفهمَنا دلائِلَها بما نرجو مِنه النَّجاةَ بعفوِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وكَرمِه.

هذا ووصيَّةٌ أخيرةٌ نختمُ بها هذا المجلسَ المُباركَ وهذا الدَّرسَ المُباركَ الَّذي يعزُّ عليَّ أن أُفارقَ فيه هذه الأوجُهَ وطلبةَ العلمِ، أوصي بالعنايةِ بهذا الكتابِ عنايةً عظيمةً مِن جهة حفظِه ومن جهةِ[1] دِراستِه ومِن جهةِ تأمُّلِ مَسائلِه ومِن جهةِ مَعرفةِ ما فيه؛ فإنَّه الحقُّ الَّذي كانَ عليه الأنبياءُ والمُرسَلونَ ومَن تبعَهم مِن صالحي عِبادِ اللهِ.

هذا واعتَنُوا رَحمَكم اللهُ بذلكَ أعظمَ العنايةِ، فإنَّ فيه خيرَكم لو تعقِلونَ، وواللهِ إنَّ الانصرافَ عنه لنذيرُ سوءٍ، وإنَّ الإقبالَ عليه لنذيرُ بُشرىٰ ومُؤذِنٌ بالخيرِ والبُشرىٰ.

وهذا وأسألُ اللهَ أنْ ينفعَني وإيَّاكم بما سَمِعنا، وأنْ يغفرَ لنا زللَنا وخطلَنا، وأنْ يعفُوَ عنَّا ما أخطَأْنا فيه، وأنْ يجعلَنا مِن المَعفُوِّ عنهم، ونسألُ اللهَ التَّسامُحَ، وأنْ يجعلَنا مِن المُحقِّقينَ لتَوحيدِه وأنَّه لا حولَ لنا ولا قوَّةَ لنا إلاَّ به.

اللَّهمَّ فكُنْ لنا يا كريمُ، اللَّهمَّ فكُنْ لنا يا كريمُ، اللَّهمَّ فكُنْ لنا يا كريمُ.

هٰذا وأستودِعُكم اللهَ الَّذي لا تضيعُ وَدائِعُه، وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ علىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ.



(1) وبكىٰ الشَّيخُ حفظَه اللهُ، جمعَنا اللهُ وإيَّاهُ في الفِردَوسِ الأعلىٰ. آمين.